

صُفْوَةُ النَّفْسِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
« الطبري ، الكشاف ، القرطبي ، الألوسي ، ابن كثير ، البحر المحيط » وغيرها
بأسلوب مبسّط ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجه الباني واللغوية

المجلد الأول

تأليف

محمد علي الصّابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَفْوَةُ النَّفْسِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"

"وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ"
"البقرة"

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ" "الترمذي"

"مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ
أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلامٌ حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ" "البخاري"

إِقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ
"البخاري"

عَنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ..

بِالْعَمَلَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ..

أَصْدَقَ كِتَابِ اللَّهِ وَتَفْسِيرِهِ ..

لِيَأْتِيَهُمْ عَوْنًا عَلَى فَرْحِهِمُ الْقُرْآنَ وَلِيَعْمَلُوا بِهِ ..

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي" "متفق عليه"

السَّيِّدُ حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ شَرِيفِي

الطبعة الرابعة
(منقحة)

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبِعَ عَلَى نَفَقَتِ
المُحْسِنِ الكَبِيرِ
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كل خير
يوزع مجاناً ولا يُباع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ﴾

الآية ٤٤ سورة النحل

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾

الآية ١٨٧ سورة آل عمران

« صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

الحمد لله الذي شرفنا بخدمة كتابه المجيد، وحَبَّبَ إلينا السهر على العناية بطباعته، ونشر علومه وتراثه وهديه، ويسّر لنا الصعاب في سبيل ذلك، والصلاة والسلام على خير عباد الله ورسله الأبرار، سيّدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن عمل بهدي الكتاب والسنة إلى يوم الدين.

وبعد، فقد سبق أن قدمنا للقراء الكرام، وللمكتبة القرآنية، من تأليف فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني، كتاب «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» بمجلدين، و«مختصر تفسير ابن كثير» بثلاثة مجلدات كبيرة، لاقى كل منها وما يزال ترحيب وتقدير العلماء، وإقبال طلبة العلم، والشباب المثقف، لما امتازا به من وضوح في العبارة، وتجنب التعقيد والإطالة، ودقة في اختيار أصح الأقوال المعتمدة، في تفسير كتاب الله العظيم.

ويسعدنا في مستهل القرن الخامس عشر الهجري أن نقدم للقراء الكرام، عملاً جديداً جليلاً لفضيلة الشيخ الصابوني هو «صفوة التفاسير»، وهو بحق اسم على مسمى، جمع فيه المؤلف صفوة ما حوته أمهات التفاسير المعتمدة، ونسق بين أطيب ثمارها وأزهارها، بأسلوب واضح مبسط، ونهج علمي جامعي، يغني طلاب العلم والمعرفة عن العودة إلى المراجع الكبيرة، وبذل الجهد الشاق في البحث والتقصي عن المعنى المطلوب، كما اختصر الطريق للشباب الإسلامي المثقف، ممن لا صبر لهم على المطولات، ولا تشفي غليلهم المختصرات المكثفة.

وأترك القارئ الكريم، يتعرف على مزايا هذا التفسير الجديد الجليل، من خلال مقدمة المؤلف الفاضل، التي يعرض فيها منهجه في «صفوة التفاسير»، الذي جاء ثمرة جهود دائبة، وصبر طويل، وعمل متواصل، دام أكثر من خمسة أعوام كاملة، قضاه المؤلف بالغوص في بحار من المراجع وأمهات التفاسير، دون كلل أو ملل، حتى جمع صفوتها وزبدتها، جَمَعَ الذّواق الخبير المتمكن، وقد أعانه الله تبارك وتعالى على ذلك، وبسط له البركة في وقته وصحته، وأيده بالتوفيق، حتى أتم هذا العمل الموفق الكبير.

ويسرنا أن نقدمه للقراء الكرام، بثوب قشيب، وطباعة أنيقة، وإخراج بديع، كما عودناهم في سائر مطبوعاتنا القرآنية، بعد أن بذلنا فيه جهداً كبيراً، استغرق أكثر من عامين من العمل الجاد، في التصحيح والمراجعة والتدقيق والترتيب، ليكون خلواً من أخطاء الطباعة، محولين بلوغ أقصى ما نقدر عليه من الكمال البشري، نسأل الله جلّ جلاله، أن يتقبل منا، وينفع به، ويجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

كلمة سماحة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ إجماع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد :
فقد أطلعني الأخ الأستاذ محمد علي الصابوني على شيء من كتابه الجديد « صفوة التفاسير » وهو كتاب تحرى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء في تفسير كتاب الله تعالى مع الاختصار والسهولة ، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله ، فإنه لا شك أن المؤلف وفق توفيقاً كبيراً في الاختيار من أمهات كتب التفاسير التي رجع إليها على علم وبصيرة .

وليس هذا هو الكتاب الأول للمؤلف في موضوع القرآن فقد سبق أن اختصر كتاب « تفسير ابن كثير » وكان اختصاره لهذا الكتاب العظيم مفيداً نافعاً خلا من كل تعقيد .

ولقد اختص آيات الأحكام في القرآن الكريم بمؤلف مستقل سماه : « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام » ، وهو كتاب يبين الأحكام في المرجع الأول لها وهو الكتاب الكريم .

وسبق أيضاً أن ألف في علوم القرآن الكريم تحت عنوان : « التبيان في علوم القرآن » ، وها هو يتوج كل هذه الدراسات بكتاب نفيس هو زهور رائعة لكثير مما أنتجته قرائح أسلافنا رضوان الله عليهم في التفسير .

ونرجو الله سبحانه له التوفيق وأن يهدي سبحانه لكتابه ويهدي به إنه سميع قريب مجيب .

عبد الحليم محمود
شيخ إجماع الأزهر

مكة المكرمة ٢٧ صفر ١٣٩٦ هـ
٢٧ فبراير ١٩٧٦ م

كلمة سماحة الشيخ عبد الله بن حميد

رئيس مجلس القضاء الأعلى

الرئيس العام للإشراف الديني على المسجد الحرام

الحمد لله وحده ، وبعد بناء على طلب الأخ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني المدرس بجامعة الملك عبد العزيز كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة أن أكتب تقريراً لكتابه « صفوة التفاسير » بعد أن قرأ عليّ بنفسه بعض المواضع من هذا الكتاب ولم يتسع الوقت لسماعه كله .

فقد أجاد المؤلف وأفاد فيما سمعته من كتابه جزاءه الله خيراً ، كما اجتهد في جمعه واختار أصح الأقوال وأرجحها في تفسير كتاب الله وجمع في هذا التفسير بين المأثور والمعقول ، بأسلوب واضح ، وطريقة حديثة سهلة ، يذكر بين يدي السورة خلاصة للمقاصد الأساسية لها . يوضح معاني الكلمات وبيان اشتقاقها . والمناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة ، ويبين السبب الذي نزلت من أجله الآيات . يبدأ بتفسير الآيات دون وجوه الإعراب ، ويذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها ، ويوضح بيان الصور البيانية والنكات البلاغية .

نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد وأن يعم النفع بهذا الكتاب ويجزي المؤلف على ما بذل من جهد .

والله الموفق وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . . .

عبد الله بن حميد

رئيس مجلس القضاء الأعلى

الرئيس العام للإشراف الديني على المسجد الحرام

١٣٩٧/٤/٧ هـ

كلمة سماحة شيخ أبي الحسن علي الحسني النذري

رئيس ندوة العلماء بلكهنهو - الهند

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد كان الاتجاه العلمي السائد في عصور التأليف الإسلامي الأولى هو الاستيعاب الشامل لكل ما قيل ورُوي في الموضوع ، فكانت كتب المؤلفين في التفسير ، والحديث ، والسيرة ، والتاريخ أشبه بموسوعات علمية . وإن كانت لهذا الاتجاه والأسلوب الشائع فوائد أعظمها صيانة هذه الثروة العلمية من الضياع ، وتمكين القارئ من اختيار ما هو أوفق وأقرب إلى ذوقه فقد أحدث مشكلة - خصوصاً في هذا العصر - وهي أن الطالب المبتدئ والمتوسط يحار في اختيار أقرب الأقوال والآراء والمذاهب ، ولذلك مال كثير من المؤلفين في كل عصر إلى واحد ويمجد نفسه في غابة ملتفة من الأقوال والآراء والمذاهب ، ولذلك مال كثير من المؤلفين في كل عصر إلى الانتقاء من هذه الكتب الموسوعية ، واختيار أقرب الأقوال وأقواها ، فكانت لهذه الكتب فائدة عظيمة وفضل كبير على طلبة العلم .

وكان هذا العصر من أحوج العصور إلى هذا الأسلوب من التأليف لقصر الوقت وضعف الهمم وتششت الأذهان ، لذلك كان صديقنا الفاضل فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني موفقاً كل التوفيق في وضع كتابه « صفوة التفاسير » فقد قرأ على طلبة علم التفسير وقتاً طويلاً وأخذ بيدهم إلى ما هو عصارة دراسته وخلاصة التفاسير ، لا يقدر على ذلك إلا من توسعت دراسته وسلم ذوقه وحسنت ممارسته لفن التدريس ، فاستحق بذلك شكر طلبة العلم والمشتغلين بفن التفسير جزاه الله خيراً وأثابه وتقبل عمله .

أبو الحسن علي الحسني النذري

مكة المكرمة
١٣٩٦/٤/٩ هـ

كلمة معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا الأمين، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد:

فإن أشرف ما يقدمه الباحثون، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون، في بحوثهم وتآليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم، وعلومه الجليلة الزاهرة. وشرف الإنسان بشرف الرسالة التي يحملها، والغاية التي يسعى من أجل تحقيقها. وليس ثمة جهدٌ يضاهي جهد العلماء، فإنهم مشاعل النور والضياء، في كل زمان ومكان، ولهذا رفع الله قدرهم، وأعلى شأنهم بقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. وإن هذا العمل الجليل، الذي قام به فضيلة الأخ العزيز الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، من استخلاص لمجموعة من تفاسير القرآن الكريم، لعددٍ من جهابذة الأئمة المفسرين، لتكون في متناول العلماء وطلاب العلم على حد سواء، هو توفيقٌ من الله سبحانه وتعالى للمؤلف، فقد مكّنه جلّ وعلا من تقديم هذه الكنوز العظيمة، في سفرٍ واحد هو «صفوة التفاسير» ليسهل على الباحثين مهمة الاطلاع والفهم لكتاب الله عزّ وجل. والله أسأل أن يثيب فضيلة المؤلف على عمله، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزيه عنهم خير الجزاء إنه وليّ ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

د. عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

جدة : ١٥ صفر ١٤٠٠ هـ

الموافق : ٣ يناير ١٩٨٠ م

كلمة سعادة الدكتور راشد بن راجح

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، لقد اطلعت على كتاب « صفوة التفاسير » لفضيلة الشيخ الفاضل الأستاذ محمد علي الصابوني وقرأت بعض صفحاته فألفيته كتاباً ثميناً حوى خلاصة ما قاله أئمة المفسرين ليسهل فهمه على طلبة العلم بأسلوب مبسط وعبارات ميسرة وإيضاحات جيدة مع العناية بالجوانب اللغوية والبيانية . . فهو بذلك كتاب جيد يستحق الطبع والنشر لتعم الفائدة . جزى الله مؤلفه خير الجزاء ونفع به الإسلام والمسلمين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كتبه الفقير إلى عفو مولاه راشد بن راجح الشريف عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة .

مكة المكرمة ١٥ / ١٠ / ١٣٩٦ هـ .

كَلِمَةُ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ خِيَّاطٍ

خَطِيبِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

كتاب صفوة التفاسير

كنت أجد في نفسي رغبة ملحة لتفسير للقرآن الكريم في متناول طالب العلم ، يجمل ما تفرق في كتب التفسير المعتبرة ، ويغنيه عن المراجع المطولة ، ويعطيه فكرة واضحة عن لغة القرآن ، وسبب النزول ، ويسر له المعاني فيكون زاده وعدته ، فكان كتاب « صفوة التفاسير » هو الضالة المنشودة والحلقة المفقودة ، إذ قد عني مؤلفه فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني بكل ما أشرت إليه مما حقق الرغبة ، ولبى الحاجة .

والله أسأل أن ينفع به ويأجر مؤلفه على ما بذله من جهد وتضحية ، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وكتبه الفقير إلى الله عبد الله خياط خطيب المسجد الحرام في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال سنة

١٣٩٥ هجرية .

كلمة فضيلة الشيخ محمد الفزالي رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

الحمد لله أهل التقوى والمغفرة ، والصلاة والسلام على منار العلم والهدى في الدنيا والآخرة .

وبعد :

فإن الثقافة القرآنية تحتاج إلى قلم سهل العبارة ، فياض الأداء ، بعيد عن المصطلحات الفنية ، والمناقشات الفلسفية ، همه الأكبر إبراز السياق السماوي ، والوصول به إلى نفوس الجماهير دون تكلف أو التواء .

وقد نجح فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني في تحقيق هذه الغاية، إذ يسّر تفسير الكتاب العزيز، وجمع في تفسيره جملاً من أقوال الأئمة تتضمن خلاصات علمية وأدبية جعلته غنياً بالحقائق ، والحكم النافعة . وقد لاحظنا أن الشيخ محمد علي الصابوني قرن في تفسيره بين كثير من مآثورات السلف واجتهادات الخلف ، أي أنه جمع بين المنقول والمعقول - كما يقولون - فيستطيع القارئ أن يرى أمامه اللونين معاً ، وأن ينتفع بخير ما في الطريقتين .

كما لاحظنا أن التفاسير الأخرى قد تنجح إلى أحد الطرفين ، فإما إيجاز شديد وإما إطناب لا يطيقه العصر ، ولكن الشيخ محمد علي الصابوني - جزاه الله خيراً - استطاع أن يتوسط في مسلكه العلمي فأفاد وأجل كما ابتعد عن الشطط الذي وقع فيه البعض حين جازف بذكر نظريات علمية أو أحاديث نبوية لا بد في سوقها من التثبت والتمحيص .

نفع الله به وشرح الصدور له وجزاه عن الأمة كل خير .

محمد الفزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

في ١٣٩٦/٤/٦ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين ، وجعل القرآن شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمةً للمؤمنين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي الأمين ، الذي فتح الله به أعيناً عمياً ، وأذناً صمماً ، وقلوباً غلغلاً ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم البعث والنشور ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وأصحابه الهادين الأبرار ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

فلا يزال القرآن الكريم بحراً زاخراً بأنواع العلوم والمعارف ، يحتاج من يرغب الحصول على لآله ودرره ، أن يغوص في أعماقه ، ولا يزال القرآن يتحدثُ أساطين البلغاء ، ومصاقيع العلماء ، بأنه الكتاب المعجز ، المنزَّل على النبي الأُمِّي شاهداً بصدقه ، يحمل بين دفتيه برهان كماله ، وآية إعجازه ، ودليل أنه تنزيل الحكيم العليم : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ .

وعلى كثرة ما كتب العلماء وألفوا - وعلى كثرة ما تحويه المكتبة الإسلامية من أسفار ضخمة ، وكتب نفيسة ، خدم بها العلماء كتاب الله الجليل - يبقى القرآن زاخراً بالعجائب ، مملوءاً بالدرر والجواهر ، يطالعنا بين حين وآخر ، بما يبهر العقول ويحير الألباب ، بما فيه من الإشراقات الإلهية ، والفيوضات القدسية ، والنفحات النورانية ، بما هو كفيلاً لتخليص الإنسانية ، من شقاء الحياة وجحيمها المستعر . . وكلُّ علمٍ شاطٍ واحترق إلا « علم التفسير » فإنه لا يزال بحراً لجياً ، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه ، لاستخراج كنوزه الثمينة ، واستنباط روائعه وأسراره ، ولا يزال العلماء يقفون عند ساحله ، يرتشفون من معينه الصافي ولا يرتوون . . ومن ذا الذي يستطيع أن يحيط علماً بكلام رب العزة جلَّ وعلا ، وأن يدرك أسرارهِ ، ودقائقهِ ، وإعجازه ! وأن يزعم أنه أوفى أو وصل إلى درجة الكمال !!

إنه الكتاب المعجز ، الذي سيظل يمنح الإنسانية ، من علومه ومعارفه ، ومن أسرارهِ وحِكَمِهِ ، ما يزيدهم إيماناً وإذعاناً بأنه « المعجزة الخالدة » للنبي العربي الأُمِّي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وأنه تنزيل الحكيم الحميد .

وإذا كان المسلم قد اضطرتته الدنيا ليشغل وقته في تحصيل معاشه ، وضاعت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة ، التي خدم بها أسلافنا - رضوان الله عليهم - كتاب الله تعالى ، تبياناً وتفصيلاً لآياته ، وإظهاراً لبلاغته ، وإيضاحاً لإعجازه ، وإبرازاً لما حواه الكتاب المجيد من تشريع وتهذيب ، وأحكام وأخلاق ، وتربية وتوجيه . . فإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس ، بأسلوب واضح ، وبيان ناصع ، لا حشوفيه ولا تطويل ، ولا تعقيد ولا تكلف ، وأن يُبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان ، بما يتفق وروح العصر الحديث ، ويلبي حاجة الشباب المثقف ، المتعطش إلى التزود من علوم ومعارف القرآن الكريم .

ولم أجد تفسيراً لكتاب الله عز وجل - على ما وصفتُ - رغم الحاجة إليه ، وسؤال الناس عنه ، ورغبتهم فيه ، فعزمتُ على القيام بهذا العمل ، رغم ما فيه من مشقةٍ وتعب ، واحتياجه لوقتٍ لا يُتاح في هذا الزمان ، مستعيناً بالله الكريم ، متوكلاً عليه ، سائلاً إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجب ، وأن يوفقني لإخراجه بشكلٍ يليق بكتاب الله تعالى ، يعين المسلم على فهم آيات القرآن ، والتزود من بيانه ، ما يزيده إيماناً و يقيناً ، ويدفعه إلى العمل الجادّ الموفق إلى مرضاة الرب جل وعلا .

وقد أسميت كتابي «صفوة التفاسير» وذلك لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصلة ، مع الاختصار والترتيب ، والوضوح والبيان ، وكلّي أملٌ أن يكون اسمه مطابقاً لمسمّاه ، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية ، بما يوضح لها السبيل الأقوم ، والصرط المستقيم .

وقد سلكت في طريقي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي :

أولاً : بين يدي السورة ، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية .

ثانياً : المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة .

ثالثاً : اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية .

رابعاً : سبب النزول .

خامساً : التفسير .

سادساً : البلاغة .

سابعاً : الفوائد واللطائف .

وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنوات ، وأواصل فيه الليل بالنهار ، وما كنت أكتب شيئاً حتى أقرأ ما كتبه المفسرون في أمهات كتب التفسير الموثوقة ، مع التحري الدقيق لأصح الأقوال وأرجحها ، وإنني أشكر المولى جلّ وعلا أن سهّل لي هذا العمل ، فقد كنت أشعر أنّ الزمن يُطوى لي ، وكلّ ذلك ببركات جوار البيت العتيق الذي أكرمني الله وشرفني بجواره ، منذ أن انتدبت للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين من هجرة سيد المرسلين .

والله تعالى أسأل أن يسدد خطاي ، ويجزل لي الثواب يوم المآب ، فما عملتُ إلا آملاً بنيل رضاه ،
راجياً منه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، ويبقيه ذخراً لي يوم الدين ، وأرجو ممن قرأ فيه فاستفاد أن
يخصني بدعوة صالحة تنفعني يوم المعاد ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

محمد علي الصّابوني

مكة المكرمة - غرة ذي الحجة ١٣٩٩ هـ

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبدالعزيز



أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

تَفْسِيرُ الْأَسْتِعَاذَةِ الْمَعْنَى : أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ وَأَعْتَصِمُ بِهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الْعَاتِي الْمْتَرِدِ ، أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ ، أَوْ يَصْدُنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ ، وَأَحْتَمِي بِالْخَالِقِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَلِزْهِ وَوَسَاوَسِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكْفُهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . . . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ، اسْتَفْتَحَ صَلَاتَهُ بِالتَّكْبِيرِ ثُمَّ يَقُولُ : (أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ)^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ الْبَسْمَلَةِ الْمَعْنَى : أَبْدَأُ بِتَسْمِيَةِ اللَّهِ وَذَكَرَهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، مُسْتَعِيناً بِهِ جَلًّا وَعِلًّا فِي جَمِيعِ أُمُورِي ، طَالِباً مِنْهُ وَحْدَهُ الْعَوْنَ ، فَإِنَّهُ الرَّبُّ الْمَعْبُودُ ذُو الْفَضْلِ وَالْجُودِ ، وَاسِعِ الرَّحْمَةِ كَثِيرِ التَّفَضُّلِ وَالْإِحْسَانِ ، الَّذِي وَسَعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَعَمَّ فَضْلُهُ جَمِيعَ الْأَنَامِ .

تَنْبِيْهُ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ افْتَتَحَ اللَّهُ بِهِذِهِ الْآيَةَ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَكُلَّ سُورَةٍ مِنَ سُورِ الْقُرْآنِ - مَا عدا سُورَةَ التَّوْبَةِ - لِيُرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يَبْدُؤُوا أَعْمَالَهُمْ وَأَقْوَالَهُمْ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، التَّاسِئاً لِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَمُخَالَفَةً لِلْوثنِيِّينَ الَّذِينَ يَبْدُؤُونَ أَعْمَالَهُمْ بِأَسْمَاءِ آهْلَتِهِمْ أَوْ طَوَاغِيَتِهِمْ فَيَقُولُونَ : بِاسْمِ اللَّاتِ ، أَوْ بِاسْمِ الْعُزَّى ، أَوْ بِاسْمِ الشَّعْبِ ، أَوْ بِاسْمِ هَبْلٍ .

قال الطبري : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، أَدَبَ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ بِتَعْلِيمِهِ ذِكْرَ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى أَمَامَ جَمِيعِ أَعْمَالِهِ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ لَجَمِيعِ خَلْقِهِ سُنَّةً يَسْتَتُونُ بِهَا ، وَسَبِيلًا يَتَّبِعُونَهُ عَلَيْهَا فَقَوْلُ الْقَائِلِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا افْتَتَحَ تَالِيًا سُورَةَ نَبِيٍّ عَنْ أَنْ مَرَادَهُ : أَقْرَأَ بِسْمِ اللَّهِ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَفْعَالِ »^(٢) .

(١) أَخْرَجَهُ أَصْحَابُ السُّنَنِ . (٢) جَامِعُ الْبَيَانِ لِلطَّبْرِيِّ .

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ :

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبعٌ بالإجمال ، وتسمى « الفاتحة » لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول ، وهي - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم ، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال ، فهي تتناول أصول الدين وفروعه ، تتناول العقيدة ، والعبادة ، والتشريع ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بصفات الله الحسنى ، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء ، والتوجه إليه جلّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، والتضرع إليه بالثبوت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين ، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين ، وفيها الأخبار عن قصص الأمم السابقين ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، وفيها التعبّد بأمر الله سبحانه ونهيه ، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف ، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمى « أم الكتاب » لأنها جمعت مقاصده الأساسية .

فضّلها : أ - روى الإمام أحمد في المسند أن « أبيّ بن كعب » قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلاً ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ .

ب - وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلى : (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) .
التسمية : تسمى « الفاتحة » ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، والشافعية ، والوافية ، والكافية ، والأساس ، والحمد « وقد عدّها العلامة القرطبي وذكر أن لهذه السورة اثني عشر اسماً .

اللفظة : ﴿ الحمد ﴾ الشاء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل مقروناً بالمحبة وهو نقيض الذم وأعم من الشكر ، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿ الله ﴾ اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره ، قال القرطبي : هذا الاسم ﴿ الله ﴾ أكبر أسماؤه سبحانه وأجمعها ، وهو اسم للموجود

الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه ﴿ربّ﴾ الربّ : مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره قال الهروي : « يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربّه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب »^(١) والربُّ يطلق على عدة معان وهي « المالك ، والمصلح ، والمعبود ، والسيد المطاع » ﴿العالمين﴾ العالم : اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرُحط ، وهو يشمل : الإنس والجن والملائكة والشياطين كذا قال الفراء ، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود الخالق جل وعلا ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة ، وقد روعي في كل من ﴿الرحمن﴾ و﴿الرحيم﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن « فعْلان » صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران ، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل : العظيم الرحمة الدائم الإحسان .^(٢)

قال الخطابي : الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمّت المؤمن والكافر ، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ ، ﴿الدين﴾ الجزء ومنه الحديث (كما تدين تُدان) أي كما تفعل تجزى ﴿نعبد﴾ قال الزمخشري : العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولي أعظم النعم فكان حقيقة بأقصى الخضوع^(٣) ﴿الصراط﴾ الطريق وأصله بالسین من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك قال الشاعر :

شحنّا أرضهم بالخیل حتى تركناهم أذلّ من الصّراط
﴿المستقيم﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف ﴿آمين﴾ أي استجب دعاءنا وهي ليست من القرآن الكريم إجماعاً .

التفسير : علمنا البارئ جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونشني عليه بما هو أهله فقال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي الحمد لله ، اشكروني على إحساني وجميل إليكم ، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد ، المتفرد بالخلق والإيجاد ، رب الإنس والجن والملائكة ، ورب السموات والأرضين ، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿الرحمن الرحيم﴾ أي الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمّ فضله جميع الأنام ، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين ، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿مالك يوم الدين﴾ أي هو سبحانه المالك للجزاء والحساب ، المتصرف في يوم الدين تصرف المالك في ملكه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أي نخصّك يا الله بالعبادة ، ونخصّك بطلب الإعانة ، فلا نعبد أحداً سواك ، لك وحدك نذلّ ونخضع ونستكين ونخشع ، وإياك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك ، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم ، ولا يملك القدرة على عوننا أحد سواك ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم ، وثبتنا على الإسلام الذي

(١) القرطبي ١٣٣/١ . (٢) كشف المعاني تفسير ابن جماعة . (٣) الكشف ١١/١ .

بعثت به أنبياءك ورسلك ، وأرسلت به خاتم المرسلين ، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي طريق من تفضلت عليهم بالجوود والإنعام ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وَحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أي لا تجعلنا يا الله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم ، السالكين غير المنهج القويم ، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين ، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية ، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية . اللهم آمين .

البَلَاغَةُ : ﴿الحمد لله﴾ الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنًى أي قولوا « الحمد لله » وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقولهم : الكرم في العرب . ٢ - ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال : إياه نعبد ، وتقديم المفعول يفيد القصر أي لا نعبد سواك كما في قوله ﴿وإياي فارهبون﴾ ٣ - قال في البحر المحيط : وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع :

الأول : حسن الافتتاح وبراعة المطلع .

الثاني : المبالغة في الثناء لإفادة « أل » الاستغراق

الثالث : تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله .

الرابع : الاختصاص في قوله ﴿لله﴾ .

الخامس : الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غير المغضوب عليهم﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين .

السادس : التقديم والتأخير في ﴿إياك نعبد﴾ .

السابع : التصريح بعد الإيهام ﴿الصراط المستقيم﴾ ثم فسرهُ بقوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ .

الثامن : الالتفات في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

التاسع : طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿إهدنا الصراط﴾ أي ثبتنا عليه .

العاشر : السجع المتوازي في قوله ﴿الرحمن الرحيم * الصراط المستقيم﴾ وقوله ﴿نستعين * الضالين﴾ .^(١)

الفوائد : الأولى : الفرق بين ﴿الله﴾ و﴿الإله﴾ أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات الباري جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحق أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره .

الثانية : وردت الصيغة بلفظ الجمع « نعبد ونستعين » ولم يقل « إياك أعبد وإياك أستعين » بصيغة المفرد وذلك للإعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول : أنا يا رب العبد الحقير الذليل ، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي ، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك .

الثالثة : نسب النعمة إلى الله عز وجل « أنعمت عليهم » ولم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل : غضبت عليهم أو الذين أضللتهم وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى ، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه تقديراً « الخير كله بيدك والشر لا ينسب إليك » .

خاتمة

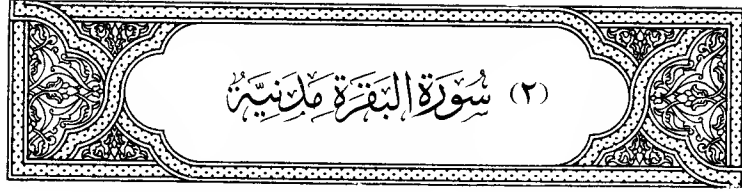
في بيان الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب العزيز

يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة « مقدمة في التفسير » ما نصه : « لا شك أن من تدبر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها ، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه ، ويضيء جوانب قلبه ، فهو يتبدى ذاكراً تالياً متبهماً باسم الله ، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء ، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله « الرحمن الرحيم » وذكره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله ، وجمل آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعاً ، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له ، ثم تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ، ليست عن رغبة ولا رهبة ، ولكنها عن تفضل ورحمة ، فنطق لسانه مرة ثانية بـ « الرحمن الرحيم » ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمن بـ « العدل » ويذكر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابعة المتجددة سيدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » فربيته لخلق قائمة على الترغيب بالرحمة ، والترهيب بالعدالة والحساب « مالك يوم الدين » وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير ، والبحث عن وسائل النجاة ، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل ، ويرشده إلى الصراط المستقيم ، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله « إياك نعبد وإياك نستعين » وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه ، غير لمغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء ، والنكوص بعد الاهتداء ، وغير الضالين التائهين ، الذي يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعشور عليه ، آمين . ولا جرم أن « آمين » براعة مقطوع في غاية الجمال والحسن ، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة

الكتاب ، والتوجه إلى الله بالدعاء ؟ فهل رأيت تناسقاً أدق ، أو ارتباطاً أوثق ، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة ؟ وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدني مأسأل .) الحديث وأدم هذا التدبير والإنعام ، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهل ، وخشوع وتذلل ، وأن تقف على رؤوس الآيات ، وتعطي التلاوة حقها من التجويد أو النغمات ، من غير تكلف ولا تطريب ، واشتغال بالألفاظ عن المعاني ، فإن ذلك يعين على الفهم ، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع ، وما نفع القلب شيء أفضل من تلاوة في تدبر وخشوع^(١) .

« انتهى تفسير سورة الفاتحة »

* * *



سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف ، وهي من أوائل ما نزل ، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة البقرة من أطول سور القرآن على الإطلاق ، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع ، شأنها كشأن سائر السور المدنية ، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية .

* اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية : في العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، وفي أمور الزواج ، والطلاق ، والعدة ، وغيرها من الأحكام الشرعية .

* وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين ، فوضّحت حقيقة الإيمان ، وحقيقة الكفر والنفاق ، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء .

* ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

* ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب ، وبوجه خاص بني إسرائيل « اليهود » لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة ، فنهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم ، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبتها هؤلاء المفسدون ، مما يوضح عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة ، بدءاً من قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ . إلى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ .

* وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع ، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين « الدولة الإسلامية » وهم في أمس الحاجة إلى المنهاج الرباني ، والتشريع السماوي ، الذي يسرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات ، ولذا فإن جماع السورة يتناول الجانب التشريعي ، وهو باختصار كما يلي :

« أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل ، أحكام الحج والعمرة ، أحكام الجهاد في سبيل الله ، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج ، والطلاق ، والرضاع ، والعدة ، تحريم نكاح المشركات ، والتحذير من معاشره النساء في حالة الحيض إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة ، لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر » .

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن « جريمة الربا » التي تهدد كيان المجتمع وتقوّض بنيانه ، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين ، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن ثبتتم فلکم رءوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴿ .

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب ، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وآخر وحي تنزل من السماء إلى الأرض ، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي ، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه ، بعد أن أدى الرسالة وبلغ الأمانة .

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة ، والتضرع إلى الله جلّ وعلا برفع الأغلال والأصار ، وطلب النصرة على الكفار ، والدعاء لما فيه سعادة الدارين ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين ، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام ، ويلتئم شمل السورة أفضل التام !!

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة ، التي ظهرت في زمن موسى الكليم ، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهاناً على قدرة الله جلّ وعلا في إحياء الخلق بعد الموت ، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله .

فضلهما : عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) أخرجه مسلم والترمذي . وقال ﷺ : (اقرءوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة) يعني السحرة . رواه مسلم في صحيحه .

قال الله تعالى ﴿ ألم ﴾ * ذلك الكتاب لا ريب فيه . . إلى . . وأولئك هم المفلحون ﴿

من آية (١) إلى نهاية آية (٥) .

اللفظة : ﴿ ريب ﴾ الرِّيبُ : الشك وعدم الطمأنينة يقال : ارتاب ، وأمرٌ مريب إذا كان فيه شك وريبة قال الزمخشري : الريبُ مصدر رآبه إذا أحدث له الريبة وهي قلق النفس واضطرابها ، ومنه

ريب الزَّمان لنوائبه^(١) ﴿المتقين﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه قال النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرَدْ إِسْقَاطُهُ فَتَنَّاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

فالمتقي هو الذي يقي نفسه عما يضرها ، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته ، وجماع التقوى أن يمثل العبد الأوامر ويجتنب النواهي ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ، وكل شيء مستور فهو غيب كالجنة والنار ، والحشر والنشر قال الراغب : الغيب ما لا يقع تحت الحواس^(٢) ﴿المفلحون﴾ الفلاح : الفوز والنجاح قال أبو عبيدة : كُلُّ مَنْ أَصَابَ شَيْئاً مِنْ الْخَيْرِ فَهُوَ مَفْلَحٌ^(٣) وقال البيضاوي : المفلح : الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر^(٤) ، وأصل الفلاح في اللغة : الشَّقُّ والقطع ومنه قولهم « إِنَّ الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ » أي يُشَقُّ ، ولذلك سمي الفلاح لأنه يشق الأرض بالحرثة ﴿كفروا﴾ الكفر لغة : ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافراً لأنه يجحد النعمة ويسترها ، ومنه قيل للزراع وللليل كافر قال تعالى ﴿أَعْجَبَ الْكَفَّارُ نَبَأَهُ﴾ أي أعجب الزُّراع ، وسُمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿أنذرتهم﴾ الإنذار : الإعلام مع التخويف فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار لا إنذار ﴿ختم﴾ الختم : التغطية على الشيء والطبع عليه حتى لا يدخله شيء ، ومنه خَتَمَ الْكِتَابَ . ﴿غشاوة﴾ الغشاوة : الغطاء من غَشَاهُ إِذَا غَطَاهُ ، ومنه الغاشية وهي القيامة لأنها تغشى الناس بأهوالها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

النفسير : ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين ، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الْم﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن ، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم ، فينتبهوا إلى ما يلقي إليهم من آيات بينات ، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيه على « إعجاز القرآن » فإن هذا الكتاب منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين ، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الإمام « ابن تيمية » ثم قال : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف ،

(١) الكشف ٢٧/١ (٢) مفردات القرآن للراغب (٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة/ ٢٩ (٤) البيضاوي ١٠/١

فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيان إعجازه وعظمته مثل ﴿آلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ﴿الْمَصْ * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ ﴿آلَمْ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿حَمَّ * وَالْكِتَابُ الْمِينُ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن .^(١) ثم قال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتاب الذي لا يدانيه كتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر وتدبر ، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي هادٍ للمؤمنين المتقين ، الذين يتقون سخط الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته ، قال ابن عباس : المتقون هم الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعة الله ، وقال الحسن البصري : اتقوا ما حُرِّمَ عليهم ، وأدوا ما افترض عليهم . . ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث ، والجنة ، والنار ، والصراف ، والحساب ، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها ، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس : إقامتها : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع^(٢) ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان ، والآية عامة تشمل الزكاة ، والصدقة ، وسائر النفقات ، وهذا اختيار ابن جرير ، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال ، قال ابن كثير : كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ، لأن الصلاة حق الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه ، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد ، فكل من النفقات الواجبة ، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة^(٣) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك ، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلبسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا ، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ ، وجنةٍ ، ونارٍ ، وحسابٍ ، وميزانٍ ، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة ، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - المجاز العقلي ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أسند الهداية للقرآن وهو من الإسناد للسبب ، والهادي في الحقيقة هو الله رب العالمين ففيه مجاز عقلي .
- ٢ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ للإيدان بعلو شأنه ، وبعد مرتبته في الكمال ، فنزل بعد المرتبة منزلة البعد الحسي .
- ٣ - تكرير الإشارة ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ للعناية بشأن المتقين ، وجيء بالضمير ﴿هُمْ﴾ ليفيد الحصر كأنه قال : هم المفلحون لا غيرهم .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٧ (٢) اقتبسنا التفسير من الطبري وابن كثير وتفسير الجلالين . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٠ .

٤ - التبييس من إيمان الكفار ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ فالجملة سبقت للتنبية على غلوهم في الكفر والطغيان ، وعدم استعدادهم للإيمان ، ففيها تبييس وإقناظ من إيمانهم .

٥ - الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ شبه قلوبهم لتأبيها عن الحق ، وأسماهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغشى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية (١) .

النَّاسِكة : لما ذكر تعالى صفات المؤمنين في الآيات السابقة ، أعقبها بذكر صفات الكافرين ، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين ، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار ، والتميز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة « وبضدها تتميز الأشياء » .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

النَّفْسِير : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ ﴿سواء عليهم﴾ أي يتساوى عندهم ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ أي سواء أأنذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تنذرهم ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به ، فلا تطمع في إيمانهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له . . ثم بين تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور ، ولا يشرق فيها إيمان قال المفسرون : الختم التغطية والطبع ، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ (٢) ﴿وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي وعلى أسماهم وعلى أبصارهم غطاء ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون ، لأن أسماهم وأبصارهم كأنها مغطاة بحجب كثيفة ، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه ، ويسمعونه فلا يعونه قال أبو حيان : شبه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحق ، وأسماهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح ، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغشى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، وذلك لأنها كانت - مع صحتها وقوة إدراكها - ممنوعة عن قبول الخير وسماعه ، وتلمح نوره ، وهذا بطريق الاستعارة (٣) ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد لا ينقطع ، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله .

(١) انظر تلخيص البيان للشرif الرضي ٣/١ والبحر المحيط لأبي حيان ٥١/١ . (٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير حول معنى الختم فيه تحقيق وتفصيل جميل . (٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٥١/١ .

قال الله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر . . . إلى . . . إن الله على كل شيء قدير﴾
من آية (٨) إلى نهاية آية (٢٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين ، وأعقبها بذكر صفات الكافرين ، ذكر هنا « المنافقين » وهم الصنف الثالث ، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ، وأُتنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، ثم عَقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان ، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق ، وما يؤول إليه حالهم من الهلاك والدمار .

اللفظة : ﴿يُخَادِعُونَ﴾ الخِدَاع : المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن ، وأصله الإخفاء ومنه سُمِّي الدهرُ خادعاً لما يخفي من غوائله ، وسُمِّي الخِدْعُ مخدعاً لتستر أصحاب المنزل فيه ﴿مَرَضٌ﴾ المرض : السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسيّاً كمرض الجسم ، أو معنوياً كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء ، قال ابن فارس : المرضُ كلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ ، أو نفاق ، أو تقصير في أمرٍ ﴿تَفْسِدُوا﴾ الفساد : العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ، الضعيف الرأي ، القليل المعرفة ، بمواضع المنافع والمضار ، وأصل السَّفَه : الخِفَّة ، والسفيه : الخفيف العقل قال علماء اللغة : السَّفَه خِفَةٌ وسَخَافَةٌ رأي يقتضيان نقصان العقل ، والحِلْمُ يقابله ^(١) ﴿طَغْيَانِهِم﴾ الطغيان : مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إنا لما طغى الماء﴾ أي ارتفع وعلا وجاوز حده ، والطاغية : الجبار العنيد ﴿يعمّهون﴾ العمّة : التحير والتردد في الشيء يقال : عمّه يَعْمِه فهو عمّه قال رؤبة : « أعمى الهدى بالحائرين العمّة » قال الفخر الرازي : العمّة مثل العمى ، إلا أن العمى عام في البصر والرأي ، والعمّة في الرأي خاصة ، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه ^(٢) ﴿اشترؤا﴾ حقيقة الاشتراء : الاستبدال ، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب ، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء اشتراه قال الشاعر :

فإن تزعميني كنتُ أَجْهَلُ فيكم فإنني اشتريتُ الحِلْمَ بعديك بالجهل

﴿صم﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بكم﴾ جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا ينطق ﴿عمي﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿صيب﴾ الصَّيْبُ : المطر الغزير مأخوذ من الصَّوْب وهو النزول بشدة قال الشاعر « سقتك رويا المزن حيثُ تصوب » ﴿الصواعق﴾ جمع صاعقة وهي نارٌ محرقة لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، مشتقة من الصَّعَق وهو شدة الصوت ﴿السَّماء﴾ السماء في اللغة : كلُّ ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء ، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(١) انظر تهذيب اللغة ، والصاحح ، والقاموس . (٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٧١ / ٢ .

﴿يَخْطِفُ﴾ الْخَطْفُ : الْأَخْذُ بِسُرْعَةٍ وَمِنْهُ ﴿إِلَّا مِنْ خَطِيفِ الْخَطْفَةِ﴾ وَسُمِّيَ الطَّيْرُ خُطَّافًا لِسُرْعَتِهِ ، وَالْخَاطِفُ الَّذِي يَأْخُذُ الشَّيْءَ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ .

سَبَبُ النَّزُولِ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي مَنَافِقِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْهُمْ «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ سَلُولٌ ، وَمُعْتَبَرُ بْنُ قَشِيرٍ ، وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ» كَانُوا إِذَا لَقُوا الْمُؤْمِنِينَ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ وَالتَّصَدِيقَ وَيَقُولُونَ : إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ^(١) .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

النَّفْسِيرُ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أَيُّ وَمِنَ النَّاسِ فَرِيقٌ يَقُولُونَ بِالسُّنَنِ صَدَقْنَا بِاللَّهِ وَبِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَيُّ وَصَدَقْنَا بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ وَمَا هُمْ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِمُصَدِّقِينَ وَلَا مُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ قَوْلًا دُونَ اعْتِقَادٍ ، وَكَلَامًا دُونَ تَصَدِيقٍ قَالَ الْبَيْضاوي : هَذَا هُوَ الْقِسْمُ الثَّلَاثُ الْمَذْبُذُ بَيْنَ الْقَسْمَيْنِ ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تَوْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَهُمُ أَخْبَثُ الْكُفْرَةِ وَأَبْغَضُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، لِأَنَّهُمْ مَوَّهُوا الْكُفْرَ وَخَلَطُوا بِهِ خُدَاعًا وَاسْتَهْزَاءً ، وَلِذَلِكَ أَطَالَ فِي بَيَانِ خَبْثِهِمْ وَجَهْلِهِمْ ، وَاسْتَهْزَأَ بِهِمْ وَتَهَكَّمَ بِأَفْعَالِهِمْ ، وَسَجَّلَ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةَ وَالطَّغْيَانَ ، وَضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ^(٢) ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيُّ يَعْمَلُونَ عَمَلَ الْمَخَادِعِ بِإِظْهَارِ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ ، يَعْتَقِدُونَ - بِجَهْلِهِمْ - أَنَّهُمْ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ بِذَلِكَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ نَافِعُهُمْ عِنْدَهُ ، وَأَنَّهُ يَرْجُو عَلَيْهِ كَمَا قَدْ يَرْجُو عَلَى بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يُخَدَّعُ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : النِّفَاقُ هُوَ إِظْهَارُ الْخَيْرِ ، وَإِسْرَارُ الشَّرِّ وَهُوَ أَنْوَاعٌ : اعْتِقَادِي وَهُوَ الَّذِي يُخَدِّعُ صَاحِبَهُ فِي النَّارِ ، وَعَمَلِي وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ وَالْأَوْزَارِ ، لِأَنَّ الْمُنَافِقَ يُخَالِفُ قَوْلَهُ فَعَلُهُ ، وَسِرُّهُ عِلَانِيَتُهُ ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّورِ الْمَدْنِيَّةِ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ بِهَا نِفَاقٌ بَلْ كَانَ خِلَافَهُ^(٣) ﴿وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَيُّ وَمَا يُخَدِّعُونَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّ وَبَالُ فَعْلِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيُّ وَلَا يُحْسِنُونَ بِذَلِكَ وَلَا يَفْطَنُونَ إِلَيْهِ ، لِتِمَادِي غَفْلَتِهِمْ ، وَتَكَامُلِ حِمَاقَتِهِمْ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أَيُّ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَنِفَاقٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ رَجْسًا فَوْقَ رَجْسِهِمْ ، وَضَلَالًا فَوْقَ ضَلَالِهِمْ ، وَالْجُمْلَةُ دَعَائِيَةٌ قَالَ ابْنُ أَسْلَمٍ : هَذَا مَرَضٌ فِي الدِّينِ ، وَلَيْسَ مَرَضًا فِي الْجَسَدِ ، وَهُوَ الشَّكُّ الَّذِي دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ فَزَادَهُمُ اللَّهُ رَجْسًا وَشُكًّا^(٤) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أَيُّ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤَلَّمٌ بِسَبَبِ كَذِبِهِمْ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ ، وَاسْتَهْزَائِهِمْ بِآيَاتِ الرَّحْمَنِ . . ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي بَيَانِ قَبَائِحِهِمْ ، وَأَحْوَالِهِمُ الشَّنِيعَةِ فَقَالَ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ وَإِذَا قَالَ

(١) تفسير الفخر الرازي ٦١/٢ . (٢) تفسير البيضاوي ١١/١ . (٣) و(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣٣/١ .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قُلُوا الَّذِينَ ءَامِنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

لهم بعض المؤمنين : لا تسعوا في الأرض بالافساد بإثارة الفتن ، والكفر والصد عن سبيل الله قال ابن مسعود : الفساد في الأرض هو الكفر ، والعمل بالمعصية ، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿ قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ أي ليس شأننا الإفساد أبداً ، وإنما نحن أناس مصلحون ، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك قال البيضاوي : تصوروا الفساد بصورة الصلاح ، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ ولذلك رد الله عليهم أبلغ رد بتصدير الجملة بحرفي

التأكيد ﴿ ألا ﴾ المنبهة ﴿ وإن ﴾ المقررة ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل ، والاستدراك بعدم الشعور ^(١) فقال ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس ، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم ، ولكن لا يفتنون ولا يحسون ، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين : آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاق ولا رياء ، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أنؤمن من كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال « صهيب ، وعمار ، وبلال » ناقصي العقل والتفكير ؟ ! قال البيضاوي : وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم ، أولتحقير شأنهم ، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال ^(٢) ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ أي ألا إنهم هم السفهاء حقاً ، لأن من ركب متن الباطل كان سفيهاً بلا امتراء ، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أبلغ في العمى ، والبعد عن الهدى . أكد وبه وحصر السفاهة فيهم ، ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالة نفاقاً ومصانعة ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم ، أهل الضلال والنفاق ﴿ قالوا إنما معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ أي قالوا لهم نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال قال ابن عباس : يسخر بهم للنعمة منهم ويملي لهم كقوله ﴿ وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ قال ابن كثير : هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ، ومعاقبتهم عقوبة الخداع ، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه ، فاللفظ متفق والمعنى مختلف ^(٣) ، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ ومثل

(١) البيضاوي ١٢/١ . (٢) البيضاوي ١٢/١ . (٣) يسمى هذا النوع عند علماء البيان « المشاكلة » وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت : اطبخوا لي جبة وقميصاً

أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْرٍ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ

﴿فَمَنْ اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ فالأول ظلم والثاني عدل ﴿وَيَذُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يزيدهم - بطريق الإمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان ، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه المعايضة والبيع ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك ، لأنهم خسروا سعادة الدارين ، ثم ضرب تعالى مثليْن وضَّحَ فيها خسارتهم الفادحة فقال ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفئ بها ويستضيء ، فما انتقدت حتى انطفأت ، وتركته في ظلام دامس وخوف شديد ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمن ، واستأنس بتلك النار المشعة المضئية ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية ، فتلاشت النار وعُدمَ النور ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ أي وأبقاهم في ظلمات كثيفة وخوف شديد ، يتخبطون فلا يهتدون قال ابن كثير : ضرب الله للمنافقين هذا المثل ، فشبهم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله . . . فبينما هو كذلك إذ طفت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغي على الرشd ، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير ، ولا يعرفون طريق النجاة^(١) ﴿صُمُّ﴾ أي هم كالصم لا يسمعون خيراً ﴿بكم﴾ أي كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عمى﴾ أي كالعمى لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال ، ثم ثنى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادة في الكشف والإيضاح فقال ﴿أو كصيب من السماء﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد ، أظلمت له الأرض ، وأرعدت له السماء ، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ أي في ذلك السحاب ظلمات داجية ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق ، وذلك من فرط الدهشة والفرع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿حذر الموت﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿والله محيط بالكافرين﴾ جملة اعتراضية أي والله تعالى

مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلًّا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

محيط بهم بقدرته ، وهم تحت إرادته ومشيتته لا يفوتونه ، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كل جانب ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ أي يقارب البرق لشدة وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم . . وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل ، فإذا صادفوا من البرق لمعة - مع خوفهم أن يخطف أبصارهم - انتهزوها فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير ، وثبتوا في أماكنهم خشية التردى في حفرة ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي لو أراد الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماهم ، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إنه تعالى قادر على كل شيء ، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، قال ابن جرير : إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماهم وأبصارهم قادر^(١) .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي :

أولاً : المبالغة في التكذيب لهم ﴿وما هم بمؤمنين﴾ كان الأصل أن يقول : « وما آمنوا » ليطابق قوله « من يقول آمنا » ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين وأكده بالباء للمبالغة في نفي الإيمان عنهم .

ثانياً : الاستعارة التمثيلية ﴿يُحَادِّثُونَ اللَّهَ﴾ شبه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعية تخادع سلطانها واستعير اسم المشبه به للمشبه بطريق الاستعارة .

ثالثاً : صيغة القصر ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذا من نوع « قصر الموصوف على الصفة » أي نحن مصلحون ليس إلا .

رابعاً : الكناية اللطيفة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المرض في الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق لأن المرض فساد للبدن ، والنفاق فساد للقلب .

خامساً : تنويع التأكيد ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ جاءت الجملة مؤكدة بأربع تأكيدات ﴿أَلَا﴾ التي تفيد التنبيه ، و﴿إِنَّ﴾ التي هي للتأكيد ، وضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ ثم تعريف الخبر ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾ ومثلها في التأكيد ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ﴾ وهذا رد من الله تعالى عليهم بأبلغ رد وأحكمه .

سادساً : المشاكلة ﴿الله يستهزئ بهم﴾ سَمَّى الجزء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى .

سابعاً : الاستعارة التصريحية ﴿اشترُوا الضلالة بالهدى﴾ المراد استبدلوا الغي بالرشاد ، والكفر بالإيمان فخرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحاً بقوله ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا^(١) .

ثامناً : التشبيه التمثيلي ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ وكذلك في ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات﴾ شبه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، وفي المثال الثاني شبه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء ، وشبه شبهاً الكفار بالظلمات ، وما في القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق . . الخ^(٢)

تاسعاً : التشبيه البليغ ﴿صم بكم عمي﴾ أي هم كالصم البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

عاشراً : المجاز المرسل ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء أي رؤوس أصابعهم لأن دخول الأصبع كلها في الأذن لا يمكن .

الحادي عشر : توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ، وهذا له وقع في الأذن حسن ، وأثر في النفس رائع مثل ﴿لهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ ﴿إنما نحن مصلحون﴾ ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية^(٣) .

الفوائد : الأولى : الغاية من ضرب المثل : تقريب البعيد ، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس ، وللأمثال تأثير عجيب في النفس ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ .

الثانية : وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي (الكذب ، الخداع ، المكر ، السفه ، الاستهزاء ، الإفساد في الأرض ، الجهل ، الضلال ، التذبذب ، السخرية بالمؤمنين) أعادنا الله من صفات المنافقين .

(١) قال الزمخشري : وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا انظر الكشف ١ / ٣٥ .

(٢) قال الفخر الرازي : والتشبيه هنا في غاية الصحة ، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً ، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور ، ووقعوا في حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين لحسران نفسه أبد الأبد . الرازي ٢ / ٧٣ (٣) ذكرنا الأمثلة البلاغية على سبيل المثال الحصر ، ليتذوق القارئ بعض روائع القرآن ، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ، والصور البلاغية ، ما يتذوقه ويعجز عن وصفه اللسان .

الثالثة : حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع أنهم كفار وعلمه ﷺ بأعيان بعضهم ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال لعمر : (أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه)^(١) .

لطيفة : قال العلامة ابن القيم : تأمل قوله تعالى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل : « ذهب الله بنارهم » مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿استوقد ناراً﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق ، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو « النور » وأبقى ما فيها من الإحراق وهو « النارية » ! ! وتأمل كيف قال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بضوئهم ، لأن الضوء زيادة في النور ، فلو قيل : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقطدون الأصل ! ! وتأمل كيف قال ﴿ذهب الله بنورهم﴾ فوحد النور ثم قال ﴿وتركهم في ظلمات﴾ فجمعها ، فإن الحق واحد هو صراط الله المستقيم ، الذي لا صراط يوصل سواه ، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة ، ولهذا أفرد سبحانه « الحق » وجمع « الباطل » في آيات عديدة مثل قوله تعالى ﴿يخرجونهم من الظلمات إلى النور﴾ وقوله ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ وقوله ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ فجمع سبل الباطل ووحد سبيل الحق^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم . . . إلى ٠٠ وهم فيها خالدون﴾

من آية (٢١) إلى نهاية آية (٢٥) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة « المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين » وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة ، أو إيمان أو نفاق ، وضرب الأمثال ووضح طرق الضلال أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وعرف الناس بنعمه ليذكروه عليها ، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿يا أيها الناس﴾ وهو خطاب لجميع الفئات ممتناً عليهم بما خلق ورزق ، وأبرز لهم « معجزة القرآن » بأنصع بيان وأوضح برهان ، ليقنع من القلوب جذور الشك والارتياب .

اللفتة : ﴿خلقكم﴾ الخلق : الإيجاد والاختراع بلا مثال ، وأصله في اللغة التقدير يقال : خلقت النعل إذا قدرها وسواها بالمقياس ، وخلق الأديم للسقاء إذا قدره قال الحجاج « ما خلقت إلا فريت ، ولا وعدت إلا وفيت » أي ما قدرت شيئاً إلا أمضيته ، ولا وعدت بشيء إلا وفيت به . ﴿فراشاً﴾ الفراش : الوطاء والمهاد الذي يقعد عليه الإنسان وينام ﴿بناء﴾ البناء : ما يبني من قبة أو خباء أو بيت ﴿أنداداً﴾ جمع نِدْ وهو الكفء والمثيل والنظير ومنه قول علماء التوحيد « ليس لله نِدْ ولا ضد » قال حسان :

أتهجوه ولست له بندٌ فشرُّكمما خيراً كما الفداء^(٣)

(١) ذكرها ابن كثير كذا في المختصر ٣٣/١ (٢) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي . (٣) القرطبي ١/٢٣٠ .

وقال الزمخشري : « النِّدُّ : المثل ولا يقال إلا للمخالف المناوىء قال جرير : أتياً تجعلون إلى نداءً ؟^(١) » وقودها ﴿ الوقود : الخطب الذي توقد به النار قال القرطبي : الوقود بالفتح الخطب ، وبالضم مصدر بمعنى التوقد^(٢) ﴾ أعدت ﴿ هيئت ، وأعدنا هيئاً قال البيضاوي : ﴿ أعدت ﴾ هيئت لهم وجعلت عُدَّةً لعذابهم^(٣) ﴾ وبشر ﴿ البشارة : الخبر السار الذي يتغير به بشرة الوجه من السرور ، وإذا استعمل في الشر فهو تهكم مثل ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ﴿ أزواج ﴾ جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ فالمرأة زوج الرجل ، والرجل زوج المرأة قال الأصمعي : لا تكاد العرب تقول زوجة ﴿ خالدون ﴾ باقون دائمون .

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا

التفسير : يقول تعالى منبهاً العباد إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نعم الله الجليلة عليكم ، واعبدوا الله ربكم الذي رباكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، اعبدوه بتوحيده ، وشكره ، وطاعته ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم ، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين ، الفائزين بالهدى والفلاح قال البيضاوي : لما عدّد تعالى فرق المكلفين ، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات ، هزاً للسامع ، وتنشيطاً له ، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها ، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿ يا أيها ﴾ لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها ، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيق بأن يُنادى له بالأكّد الأبلغ^(٤) ، ثم عدّد تعالى نعمه عليهم فقال ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ أي جعلها مهاداً وقراراً ، تستقرون عليها وتفتروشونها كالبساط المفروش مع كرويتها ، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها قال البيضاوي : جعلها مهياة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفرش المبسوط ، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها^(٥) ﴿ والسماء بناء ﴾ أي سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ أي مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته من السحاب ﴿ فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة ، وأنتم تعلمون أنها لا تتخلق شيئاً ولا ترزق ، وإن الله هو الخالق الرازق وحده ، ذو القوة المتين قال ابن كثير : شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على

(١) الكشف ٧٢/١ . (٢) القرطبي ٢٣٨/١ . (٣) البيضاوي ١٨/١ . (٤) البيضاوي ١٦/١ .

(٥) نفس المرجع السابق والصفحة ورأى الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور رواد الفضاء حولها في هذا العصر .

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

عبيده بإخراجهم من العدم ، وإسباغه عليهم النعم ، والمراد بالسما هنا السحاب ، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم ، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم ، فهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره^(١) . ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة ، وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ أي وإذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن ، المعجز في بيانه ، وتشريعه ، ونظمه ، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ أي فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن ، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه ، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى قال البيضاوي : المعنى أدعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وأهلتكم غير الله سبحانه وتعالى ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله^(٢) ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي أنه مختلق وأنه من كلام البشر ، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله ﴿فإن لم تفعلوا﴾ أي فإن لم تقدرُوا على الإتيان بمثل سورة من سورة ، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه ، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿ولن تفعلوا﴾ أي ولن تقدرُوا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله ، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي معيناً قال ابن كثير : تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا ، ﴿ولن﴾ لنفي التأييد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً ، غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الأبدين ودهر الدهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى ، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب ، ويفهم تصاريف الكلام^(٣) ﴿فاتقوا النار﴾ أي فخافوا عذاب الله ، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿التي وقودها الناس والحجارة﴾ أي اتقوا النار التي مادتها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال مجاهد : حجارة من كبريت أنتن من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿أُعِدَّتْ للكافرين﴾ أي هيئت تلك النار وأرصدت للكافرين الجاحدين ، ينالون فيها ألوان العذاب المهين .

ثم لما ذكر ما أعدّه لأعدائه ، عطف عليه بذكر ما أعدّه لأوليائه ، على طريقة القرآن في الجمع بين

(١) مختصر ابن كثير ٣٨/١ . (٢) البيضاوي ١٧/١ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٤١/١ .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾

الترغيب والترهيب ، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين المتقين ، الذين كانوا في الدنيا محسنين ، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي بأن لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومسكن ، تجري من تحت قصورها ومسكنها أنهار الجنة^(١) ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا مثل الطعام الذي قَدَّم إلينا قبل هذه المرة قال المفسرون : إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها ، تأتيهم به الملائكة ، فإذا قَدَّم لهم مرة ثانية قالوا : هذا الذي أتيتونا به من قبل فتقول الملائكة : كل يا عبد الله فاللون واحد والطعم مختلف^(٢) قال تعالى ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي متشابهاً في الشكل والمنظر ، لا في الطعم والمخبر قال ابن جرير : يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم قال ابن عباس : لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي ولهم في الجنة زوجات من الحور العين مطهرات من الأقدار والأدناس الحسية والمعنوية قال ابن عباس : مطهرة من القدر والأذى وقال مجاهد : مطهرة من الحيض والنفاس ، والغائط والبول والنخام ، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنن يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * غُرُباً أَثْرَاباً﴾ ﴿ولهم فيها خالدون﴾ أي دائمون ، وهذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين ، يعيشون مع زوجاتهم في هناء خالد لا يعتريه انقطاع .

البَلَاغَةُ : ١ - ذكر الربوبية ﴿اعبدوا ربكم﴾ مع إضافته إلى المخاطبين للتفخيم والتعظيم .

٢ - الإضافة ﴿على عبدنا﴾ للتشريف والتخصيص ، وهذا أشرف وصف لرسول الله ﷺ .

٣ - التعجيز ﴿فأتوا بسورة﴾ خرج الأمر عن صيغته إلى معنى التعجيز ، وتنكير السورة لإرادة العموم والشمول .

٤ - المقابلة اللطيفة ﴿جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء ، والفراش والبناء ، وهذا من المحسنات البديعية .

٥ - الجملة الاعتراضية ﴿ولن تفعلوا﴾ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان .

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي في الدنيا ، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عباس وغيره أن هذا في الجنة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

٦ - الإيجاز البديع بذكر الكناية ﴿فاتقوا النار﴾ أي فإن عجزتم فخافوا نار جهنم بتصديقكم بالقرآن .

قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا... إِلَى... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٢٩) .

المناسبة : لما بين تعالى بالدليل الساطع ، والبرهان القاطع ، أن القرآن كلام الله لا يتطراً إليه شك ، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين ، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من أقصر سورته ، ذكر هنا شبهة أوردتها الكفار للقدح فيه وهي أنه جاء في القرآن ذكر (النحل ، والذباب ، والعنكبوت ، والنمل) الخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلاً عن كلام ربّ الأرباب ، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة ، وردّ عليهم بأن صغر هذه الأشياء لا يقدر في فصاحة القرآن وإعجازه ، إذا كان ذكر المثل مشتملاً على حكم بالغة .

اللفت : ﴿لا يستحي﴾ الحياء : تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم ، والمراد به هنا لازمه وهو الترك ، قال الزمخشري : أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي من ذكرها لحقارتها^(١) ﴿فما فوقها﴾ فما دونها في الصغر ﴿الفاستق﴾ أصل الفسق في كلام العرب : الخروج عن الشيء ، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه ، قال الفراء : الفاسق مأخوذ من قولهم فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت ، ويسمى الفاسق فاسقاً لخروجه عن طاعة الله ، وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها لأجل المضرة^(٢) . ﴿ينقضون﴾ النقض : فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناء ، أو حبل ، أو عهد قال تعالى ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها﴾ وقال ﴿فما نقضهم ميثاقهم﴾ أي فبنقضهم الميثاق ﴿عهد﴾ العهد : الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره ويقال عهد إليه أي أوصاه ﴿الميثاق﴾ العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد . ﴿استوى﴾ الاستواء في الأصل : الاعتدال والاستقامة يقال : استوى العود إذا قام واعتدل ، واستوى إليه كالسهم إذا قصده قصداً مستوياً ، وقال ثعلب : الاستواء : الإقبال على الشيء^(٣) . ﴿فسواهن﴾ خلقهن وأتقنهن وقيل معناه : صيرهن .

سبب النزول : لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه ، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة ؟ فأنزل الله الآية^(٤) .

(١) الكشف ج ١ ص ٨٥ . (٢) التفسير الكبير للرازي ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) الصاوي على الجلالين ج ١ ص ١٩ ، والكشاف ج ١ ص ٩٢ .

(٤) القرطبي ج ١ ص ٢٤٤ والصاوي ج ١ ص ١٧ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

التفسير : يقول تعالى في الرد على مزاعم اليهود والمنافقين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أي مثل كان ، بأي شيء كان ، صغيراً كان أو كبيراً ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر ، فكما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق ، لا يقول غير الحق ، وأن هذا المثل من عند الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ ؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون : ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة ؟ قال تعالى في الرد عليهم ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به ، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به ، فيزيد أولئك ضلالة ، وهو لاء هدى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله ، الجاحدين بآياته ، ثم عدّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية ، من الإيمان بمحمد ﷺ من بعد توكيده عليهم ، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله ، والتصديق بالرسول ، والعمل بالشرائع ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والقربات ، واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء ، وقطع الأرحام ، وترك موالاة المؤمنين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي ، والفتن ، والمنع عن الإيمان ، وإثارة الشبهات حول القرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي أولئك المذكورون ، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة هم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فصاروا إلى النار المؤبدة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى كيف تجحدون الخالق ، وتنكرون الصانع ﴿وَكُنْتُمْ ءَمُوتًا﴾ أي وقد كنتم في العدم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي أخرجكم إلى الدنيا ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ عند انقضاء الآجال ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء يوم النشور . ثم ذكر تعالى برهاناً على البعث فقال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها ، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ﴿ثُمَّ

استوى إلى السماء ﴿أي ثم وجه إرادته إلى السماء﴾ ﴿فسواهن سبع سموات﴾ أي صيرهن وقضاهن سبع سموات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي وهو عالم بكل ما خلق وذراً ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك - وهي أعظم منكم - قادر على إعادتكم ؟ ! بلى إنه على كل شيء قدير .

البالغة : ١ - قوله ﴿لا يستحي﴾ مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللزوم ، المعنى : لا يترك فعبر بالحياء عن الترك ، لأن الترك من ثمرات الحياء ، ومن استحيا من فعل شيء تركه ^(١) .

٢ - قوله ﴿ينقضون عهد الله﴾ فيه (استعارة مكنية) حيث شبه العهد بالحبل ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقص على سبيل الاستعارة المكنية .

٣ - قوله ﴿كيف تكفرون بالله﴾ هو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع ، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخطبهم بصيغة الحضور ، وهو ضرب من ضروب البديع .

٤ - قوله ﴿عليم﴾ من صيغ المبالغة ، ومعناه الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ، قال أبو حيان : وصف تعالى نفسه بـ (عالم وعليم وعلام) وهذان للمبالغة ، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في (علامة) ولا يجوز وصفه به تعالى ^(٢) .

الفوائد : الأولى : قال الزمخشري : التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمراً تستدعيه حال التمثيل له ، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلغ واضحاً جلياً ، كيف تمثل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة ؟ ولما كان حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ليس أحقر منها وأقل ، لذلك ضرب لها المثل ببيت العنكبوت في الضعف والوهن ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ وجعلت أقل من الذباب وأخس قدراً ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور ، والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديههم ^(٣) .

الثانية : قدم الإضلال على الهداية ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيماً يسوءهم ويفت في أعضادهم ، وأوثر صيغة الاستقبال إيداناً بالتجدد والاستمرار ، أفاده العلامة أبو السعود ^(٤) .

الثالثة : قال ابن جزي في التسهيل : وهذه الآية ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾ تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض ، وقوله تعالى ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ ظاهره خلاف

(١) أفاده الزمخشري . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ١٣٦ . (٣) الكشف ج ١ ص ٨٣ . (٤) إرشاد العقل السليم ج ١ ص ٦٠ .

ذلك ، والجواب من وجهين : أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء ، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض ، والآخر تكون ﴿ثم﴾ لترتيب الأخبار^(١) .

قال الله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة . . إلى . . وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾

من آية (٣٠) إلى نهاية آية (٣٣) .

المناسكة : لما امتنَّ تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعاً ، وأخرجهم من العدم إلى الوجود ، أتبع ذلك ببداية خلقهم ، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه ، بجعله خليفة ، وإسكانه دار الكرامة ، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع ، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء ، ولهذا ناسب أن يذكرهم بذلك ، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم .

اللفظة : ﴿إذ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره : اذكر حين أو اذكر وقت ، وقد يصرح بالمحذوف كقوله تعالى ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ قال المبرد : إذا جاء «إذ» مع مستقبل كان معناه ماضياً نحو قوله ﴿وإذ يكر بك﴾ معناه إذ مكروا ، وإذا جاء «إذا» مع الماضي كان معناه مستقبلاً كقوله ﴿فإذا جاءت الطامة﴾ و﴿إذا جاء نصر الله﴾ أي يجيء^(٢) . ﴿خليفة﴾ الخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، فاعيل بمعنى فاعل والتاء للمبالغة ، سمي خليفة لأنه مستخلف عن الله عز وجل في إجراء الأحكام وتنفيذ الأوامر الربانية قال تعالى ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ الآية ﴿يسفك﴾ السفك : الصب والإراقة ولا يستعمل إلا في الدم قال في المصباح : وسفك الدم : أراقه وبابه ضرب ﴿نسبح﴾ التسبيح : تنزيه الله وتبرئته عن السوء^(٣) ، وأصله من السبح وهو الجري والذهاب قال تعالى ﴿إن لك في النهار سباً طويلاً﴾ فالسبح جار في تنزيه الله تعالى ﴿ونقدس﴾ التقديس : التطهير ومنه الأرض المقدسة ، وروح القدس ، وضده التنجيس ، وتقديس الله معناه : تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ) ﴿أنبئوني﴾ أخبروني والنبأ : الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة قال تعالى ﴿قل هو نبي أعظم﴾ ﴿وتبدون﴾ تظهرون ﴿تكتمون﴾ تخفون ومنه كتم العلم أي اخفأه .

(١) التسهيل في علوم التنزيل ج ١ ص ٤٣ . (٢) القرطبي ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) روى طلحة بن عبيد الله قال سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحانه الله فقال : (هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء) القرطبي

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أُنثِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾

التفسير : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم أو قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ أي قالوا على سبيل التعجب والاستعلام : كيف تستخلف هؤلاء ، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أي يريق الدماء بالبغي والاعتداء !! ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمديك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نعظم أمرك ونظهر ذكرك مما نسبته إليك الملحدون ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من المصالح ما هو خفي عليكم ، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماء المسميات كلها قال ابن عباس : علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ثم عرضهم على الملائكة ﴿أَيَّ عَرْضِ الْمُسَمَّيَاتِ عَلَى الْمَلَأِكَةِ وَسَأَلَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّبَكُّيْتِ﴾ فقال أنبئوني ﴿أَيَّ أَخْبَرُونِي﴾ بأسماء هؤلاء ﴿أَيَّ بِأَسْمَاءِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَرَوْنَهَا﴾ إن كنتم صادقين ﴿أَيَّ فِي زَعْمِكُمْ أَنْكُمْ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِمَّنْ اسْتَخْلَفْتَهُ ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَظْهَرَ فَضْلَ آدَمَ لِلْمَلَأِكَةِ بِتَعْلِيمِهِ مَا لَمْ تَعْلَمْهُ الْمَلَأِكَةُ ، وَخَصَّهُ بِالْمَعْرِفَةِ التَّامَةِ دُونَهُمْ ، مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَشْيَاءِ ، وَالْأَجْنَاسِ ، وَاللُّغَاتِ ، وَلِهَذَا اعْتَرَفُوا بِالْعِزِّ وَالْقُصُورِ﴾ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴿أَيَّ نُنْزِهْكَ يَا اللَّهُ عَنِ النِّقْصِ وَنَحْنُ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِيَّاهُ﴾ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ أي الذي لا تخفى عليه خافية ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها ، واعترفوا بتقصيرهم عن بلوغ مرتبتها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي أخبرهم بكل الأشياء ، وسمي كل شيء باسمه ، وذكر حكمته التي خلق لها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قال تعالى للملائكة : ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي تسرون من دعاكم أن الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم . روي أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة ، وقالوا : ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه ^(١) .

البلاغَة : ١ - التعرض بعنوان الربوبية ﴿وإذ قال ربك﴾ مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه العظيم وتقدير الجار والمجرور ﴿للملائكة﴾ للاهتمام بما قُدِّم ، والتشويق إلى ما أُخِّر .

٢ - الأمر في قوله تعالى ﴿أنبئوني﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيث ^(١) .

٣ - ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ فيه مجاز بالحذف والتقدير : فأنبأهم بها فلما أنبأهم حذف لفهم المعنى .

٤ - ﴿ثم عرضهم﴾ هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور ، ولو لم يغلب لقال ﴿ثم عرضها﴾ أو عرضهن .

٥ - إبراز الفعل في قوله ﴿إني أعلم غيب السموات﴾ ثم قال ﴿وأعلم ما تبدون﴾ للاهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء ، ويسمى هذا بالإطناب .

٦ - تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى بـ « الطباق » وذلك في كلمتي ﴿تبدون﴾ و﴿تكتمون﴾ .

الفوائد : الأولى : قال بعض العلماء : في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض ، تعليمٌ لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها .

الثانية : الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد - لا لافتقار الله - وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة ، ولا بواسطة ملك ، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر .

الثالثة : قال الحافظ ابن كثير : وقول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ الآية ليس هذا على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عين الحكمة في ذلك ، يقولون : ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ؟ ^(٢) وقال في التسهيل : وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك ، وقيل : كان في الأرض جنٌ فأفسدوا ، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم ، ففاسد الملائكة بني آدم عليهم ^(٣) .

الرابعة : سئل الشعبي : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرسٌ لم أشهده ؟ قال : ثم قرأت قوله تعالى : ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة ، فقلت : نعم ^(٤) .

(١) أفاده أبو السعود . (٢) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٤٩ . (٣) التسهيل لابن جزي ج ١ ص ٤٣ . (٤) محاسن التأويل ج ٢ ص ١٠٤ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَدَارَكُ
 أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾
 فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ
 إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا
 فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

المناسبة : أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خصَّ آدم عليه السلام بالخلافة ، كما خصَّه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه ، وأضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم أكرمه الله به ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له ، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أصل البشرية آدم عليه السلام .

اللغة : ﴿اسجدوا﴾ أصل السجود : الانحناء لمن يُسجد له والتعظيم ، وهو في اللغة : التذلل والخضوع ، وفي الشرع : وضع الجبهة على الأرض ﴿إبليس﴾ اسم للشيطان وهو أعجمي ، وقيل إنه مشتق من الإيلاس وهو الإيلاس ﴿أبى﴾ امتنع ، والإباء : الامتناع مع التمكن من الفعل ﴿استكبر﴾ الاستكبار : التكبر والتعظيم في النفس ﴿رغداً﴾ واسعاً كثيراً لا عناء فيه ، والرغد : سعة العيش ، يقال : رغد عيش القوم إذا كانوا في رزقٍ واسع قال الشاعر :

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث في عيشٍ رغد
 ﴿فأزلهما﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم يقال : زلت قدمه أي زلقت ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازاً يقال : زلَّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه ، وأزله غيره : إذا سبَّب له ذلك ^(١) ﴿مستقر﴾ موضع استقرار ﴿ومتاع﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه ﴿فتلقى﴾ التلقي في الأصل : الاستقبال تقول خرجنا نتلقى الحجاج أي نستقبلهم ، ثم استعمل في أخذ الشيء وقبوله تقول : تلقيت رسالة من فلان أي أخذتها وقبلتها ﴿فتاب﴾ التوبة في أصل اللغة الرجوع ، وإذا عدت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية ، وإذا عدت بعلى كان معناها قبول التوبة .

التفسير : ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة ﴿اسجدوا لآدم﴾ أي

سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ أي سجدوا جميعاً له غير إبليس ﴿أبى واستكبر﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿وكان من الكافرين﴾ أي صار بإيائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿وكل منها رغداً﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً ﴿حيث شئتما﴾ أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ أي لا تأكلاً من هذه الشجرة قال ابن عباس: هي الكرملة ﴿فتكونا من الظالمين﴾ أي فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي أوقعهما في الزلة بسببها وأغواها بالأكـل منها هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الشجرة ، أما إذا كان عائداً إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوّلهما من الجنة^(١) ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وقلنا اهبطوا﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي الشيطان عدو لكم فكونوا أعداء له كقوله ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿ومتاع إلى حين﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاه بها وهذه الكلمات مفسرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية ﴿فتاب عليه﴾ أي قبل ربه توبته ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة ، واسع الرحمة للعباد ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد وليبان أن إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة^(٢) ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي رسول أبعثه لكم ، وكتاب أنزله عليكم ﴿فمن تبع هداي﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا يnalهم خوف ولا حزن في الآخرة ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي هم مخلدون في الجحيم أعاذنا الله منها .

البَلَاغَةُ : أولاً : صيغة الجمع ﴿وإذ قلنا﴾ للتعظيم ، وهي معطوفة على قوله ﴿وإذ قال ربك﴾ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة وإظهار الجلالة .

ثانياً : أفادت الفاء في قوله ﴿فسجدوا﴾ أنهم سارعوا في الامتثال ولم يتشبثوا فيه ، وفي الآية إيجاز بالحذف أي فسجدوا له وكذلك ﴿أبى﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود .

ثالثاً : قوله ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة ، وتعليق النهي بالقرب منها ﴿ولا تقربا﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل ، إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ فنهى عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه .

رابعاً : التعبير بقوله ﴿مما كانا فيه﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل : من النعيم أو

(١) (٢) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلّي في تفسير الجلالين ، والأول اختيار الطبري .

الجنة ، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم نحو ﴿مما كانا فيه﴾ لتذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه .

خامساً : ﴿التواب الرحيم﴾ من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة .

الفوائد : الأولى : كيف يصح السجود لغير الله ؟ والجواب أن سجود الملائكة لآدم كان للتحية وكان سجود تعظيم وتكريم لا سجود صلاة وعبادة ، قال الزمخشري : السجود لله تعالى على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم ، ويعقوب وأبناءؤه ليوسف^(١) .

الثانية : قال بعض العارفين : سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجنابة ، ولا يحط عن رتبة الولاية ، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن حظيرة القدس ، ولم تسلبه رتبة الخلافة ، بل أجزل الله له في العطية فقال ﴿ثم اجتباه ربه﴾ وقال الشاعر :

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءته محاسنه بألف شفيع^(٢)

الثالثة : هل كان إبليس من الملائكة ؟ الجواب : اختلف المفسرون على قولين : ذهب بعضهم إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ وقال آخرون : الاستثناء منقطع وإبليس من الجن وليس من الملائكة وإليه ذهب الحسن وقتادة واختاره الزمخشري ، قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين ، ونحن نرجح القول الثاني للأدلة الآتية : ١ - الملائكة منزّهون عن المعصية ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ وإبليس قد عصى أمر ربه ٢ - الملائكة خلقت من نور وإبليس خلق من نار فطبيعتهما مختلفة ٣ - الملائكة لا ذرية لهم وإبليس له ذرية ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ ؟ ٤ - النص الصريح الواضح في سورة الكهف على أنه من الجن وهو قوله تعالى ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وكفى به حجة وبرهاناً^(٣) .

قال الله تعالى ﴿يا بني إسرائيل . . إلى . . واركعوا مع الراكعين﴾

من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٤٣) .

المناسبة : من بداية هذه الآية إلى آية ١٤٢ / ورد الكلام عن بني إسرائيل ، وقد تحدث القرآن الكريم بالإسهاب عنهم فيما يقرب من جزء كامل ، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود ، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من خبث وكيد وتدمير حتى يحذرهم المسلمون ، أما وجه المناسبة فإن الله تعالى لما دعا البشر إلى عبادته وتوحيده ، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده ، ثم ذكرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام ، دعا بني إسرائيل خصوصاً - وهم اليهود - إلى الإيمان بخاتم

(١) الكشف ج ١ ص ٩٥ . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ١٤١ . (٣) انظر التحقيق المفصل في كتابنا « النبوة والأنبياء » .

الرسول وتصديقه فيما جاء به عن الله ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، وقد تفنن في مخاطبتهم ، فتارة دعاهم بالملاطفة ، وتارة بالتخويف ، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم ، وأخرى بإقامة الحججة والتوبيخ على سوء أفعالهم وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية ، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل .

الفقرة : ﴿إسرائيل﴾ اسم أعجمي ومعناه : عبد الله وهو اسم ﴿يعقوب﴾ عليه السلام ، وقد صرح به في آل عمران ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ الآية ﴿أوفوا﴾ الوفاء : الإتيان بالشيء على التام والكمال ، يقال أوفى ووفى أي أداه وافيأً تاماً . ﴿تلبسوا﴾ اللبس : الخلط تقول العرب : لبست الشيء بالشيء خلطته ، والتبس به اختلط ، قال تعالى ﴿ولكيسنا عليهم ما يلبسون﴾ وفي المصباح : لبس الثوب من باب تعب لبساً بضم اللام ، ولبست عليه الأمر لبساً من باب ضرب خلطته ، والتبس الأمر : أشكل . ﴿الزكاة﴾ مشتقة من زكا الزرع يزكو أي نما لأن إخراجها يجلب البركة ، أو هي من الزكاة أي الطهارة لأنها تطهر المال قال تعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ الآية

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارْهَبُونِ ۚ
وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ۚ وَلَا
تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ۚ

النفيس : ﴿يا بني إسرائيل﴾ أي يا أولاد النبي الصالح يعقوب ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وأوفوا بعهدي﴾ أي أدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿أوف بعهدكم﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿وإياي فارهبون﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ من القرآن العظيم ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوة ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقكم أن تكونوا أول من آمن ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿وإياي فاتقون﴾ أي خافون دون غيري ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه ، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿وتكتموا الحق﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه السلام ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه حق أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ أي أدوا ما وجب عليكم من الصلاة والزكاة ، وصلوا مع المصلين بالجماعة ، أو مع أصحاب محمد عليه السلام .

البلاغه : أولاً : في إضافة النعمة إليه سبحانه ﴿نعمتي﴾ إشارة إلى عظم قدرها ، وسعة

بِرَّهَا ، وحسن موقعها لأن الإضافة تفيد التشريف كقوله ﴿بيت الله﴾ و﴿ناقة الله﴾ .

ثانياً : قوله ﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ الشراء هنا ليس حقيقياً بل هو على سبيل الاستعارة كما تقدم في قوله ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ .

ثالثاً : تكرير الحق في قوله ﴿تلبسوا الحق﴾ وقوله ﴿وتكتموا الحق﴾ لزيادة تقبيح المنهي عنه إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد ويسمى هذا الإطناب أضعف من سواء .

رابعاً : قوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ هو من باب تسمية الكل باسم الجزء أي صلوا مع المصلين أطلق الركوع وأراد به الصلاة ففيه مجاز مرسل .

خامساً : ﴿وإياي فارهبون﴾ و﴿إياي فاتقون﴾ يفيد الاختصاص .

فائدة : قال بعض العارفين : عبيد النعم كثيرون ، وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم ، حتى يعرفوا نعمة المنعم فقال ﴿اذكروا نعمتي﴾ وأما أمة محمد ﷺ فقد ذكرهم بالمنعم فقال ﴿فاذكروني أذكركم﴾ ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين .

قال الله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر .. إلى .. ولا هم ينصرون﴾

من آية (٤٤) إلى نهاية آية (٤٨) .

اللفظة : ﴿بالبر﴾ البرُّ : سعة الخير والمعروف ومنه البرُّ والبرِّية للسعة ، وهو اسم جامع لأعمال الخير ، ومنه بر الوالدين وهو طاعتها وفي الحديث (البرُّ لا يبلى والذنب لا ينسى) ﴿وتنسون﴾ : تتركون والنسيان يأتي بمعنى الترك كقوله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ وهو المراد هنا ويأتي بمعنى ذهاب الشيء من الذاكرة كقوله ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ ﴿تتلون﴾ : تقرأون وتدرسون ﴿الخاشعين﴾ الخاشع : المتواضع وأصله من الاستكانة والذل قال الزجاج : الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه ، وخشعت الأصوات : سكنت^(١) ﴿يظنون﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين لا الشك ، وهو من الأضداد قال أبو عبيدة : العرب تقول لليقين ظنٌ ، وللشك ظنٌ^(٢) وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ومنه ﴿إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه﴾ ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾ ، ﴿شفاعة﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفع ضد الوتر ، وهي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ولهذا سميت شفاعة ، فهي إذاً إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع ﴿عدل﴾ بفتح العين فداء وبكسرها معناه : المثل يقال : عدلٌ وعديلٌ للذي يماثلك .

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل ، وفي هذه الآيات ذمٌ وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم ، حيث كانوا يأمرُونَ بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه .

سبب النزول : نزلت هذه الآية في بعض علماء اليهود ، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا : اثبتوا على دين محمد فإنه حق ، فكانوا يأمرُونَ الناس بالإيمان ولا يفعلونه^(١) .

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢) وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤﴾ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٦﴾

النفسير : يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقرير والتوبيخ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي أَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْخَيْرِ وَإِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلون الخير ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي حال كونكم تقرأون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه السلام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تفتنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟! ثم بيّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات ، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية ، وبالصلاة التي هي عماد الدين ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي شاقة وثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي معادهم إليه يوم الدين . ثم ذكّرهم تعالى بنعمه وآلائه العديدة مرة أخرى فقال ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أي فضلت آباءكم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وجعلهم سادة وملوكاً ، وتفضيل الآباء شرفاً للأبناء ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئاً من الحقوق ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ أي لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم من يمنهم وينجيهم من عذاب الله .

الْبَلَاغَةُ : أولاً : ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقرير .

ثانياً : أتى بالمضارع ﴿أتأمرون﴾ وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث ، وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان ﴿وتنسئون أنفسكم﴾ مبالغة في الترك فكأنه لا يجري لهم على بال ، وعلقه بالأنفس توكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة ، ولا يخفى ما في الجملة الحالية ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ من التبكيث والتفريع والتوبيخ .

ثالثاً : ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال ، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور ، فلما قال ﴿اذكروا نعمتي﴾ عمّ جميع النعم فلما عطف ﴿وأني فضلتكم﴾ كان من باب عطف الخاص على العام .

رابعاً : ﴿واتقوا يوماً﴾ التنكير للتهويل أي يوماً شديداً الهول ، وتنكير النفس ﴿نفس عن نفس﴾ ليفيد العموم والاقناط الكلي .

الفوائد : الفائدة الأولى : قال القرطبي : إنما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنوياً بذكرها وقد كان عليه السلام إذا حزبه أمر (أغمه) فزَع إلى الصلاة ، وكان يقول (أرحنا بها يا بلال).

الثانية : قال علي كرم الله وجهه : « قصم ظهري رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك » ومن دعا غيره إلى الهدى ولم يعمل به كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه قال الشاعر :

إبدأ بنفسك فانها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
ف هناك يقبل إن وعظت ويقتدى بالرأي منك وينفع التعليم

وقال أبو العتاهية :

وصفت الثقي حتى كأنك ذو ثقي وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقال آخر :

وغير تقي يأمر الناس بالتقي طبيب يداوي الناس وهو عليل

قال الله تعالى ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون . . إلى . . إنه هو التواب الرحيم﴾ .

من آية (٤٩) إلى نهاية آية (٥٤) .

المناسكة : لما قدّم تعالى ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً ، بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ، ليكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى الشكر ، فكأنه قال : اذكروا نعمتي ، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون ، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر . . إلى آخره وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا لا كفرانه وعصيانه .

اللفظة : ﴿آل فرعون﴾ أصل « آل » أهل ولذلك يصغر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفاً ، وخص استعماله بأولي الخطر والشأن كالملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام ، و﴿فرعون﴾ علم لمن ملك العمالة كقيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس ، ولعتو الفراعنة اشتقوا فرعون إذا عتا وتجبر^(١) ﴿يسومونكم﴾ يذيقونكم من سامه إذا أذاقه وأولاه قال الطبري : يوردونكم ويذيقونكم . ﴿يستحيون﴾ يستبقون الإناث على قيد الحياة ﴿بلاء﴾ اختبار ومحنة ، ويستعمل في الخير والشر كما قال تعالى ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ ﴿فرقنا﴾ الفرق : الفصل والتمييز ومنه ﴿وقرأنا فرقناه﴾ أي فصلناه وميزناه بالبيان ﴿بارئكم﴾ الباري هو الخالق للشيء على غير مثال سابق ، والبرية : الخلق .

وَإِذْ نَجَّيْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٢٠ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٢١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٢٢ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٢٣ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَنْقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ٢٤ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢٥

النفسي : ﴿وإذ نجيناكم﴾ أي اذكروا يا بني اسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿من آل فرعون﴾ أي من بطش فرعون وأشياعه العتاة ، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ إلا أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿يذبحون أبناءكم﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿يستحيون نساءكم﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء ، محنة واختبار عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم لتمييز البر من الفاجر ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي اذكروا أيضاً إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ أي نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿وإذ واعدنا موسىٰ أربعين ليلة﴾ أي وعدنا موسىٰ أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي عبدتم العجل ﴿من بعده﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربه ﴿وأنتم ظالمون﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿ثم عفونا عنكم﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿من بعد

ذلك ﴿ أي من بعد ذلك الاتخاذ المتناهي في القبح ﴾ لعلكم تشكرون ﴿ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴾ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان ﴿ أي واذكروا نعمتي أيضاً حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴾ لعلكم تهتدون ﴿ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام .

ثم بيّن تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرأهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ أي توبوا إلى من خلقكم بريئاً من العيب والنقصان ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ ذلكم ﴾ أي القتل ﴿ خير لكم عند بارئكم ﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿ فتاب عليكم ﴾ أي قبل توبتكم ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أي عظيم المغفرة واسع التوبة .

البلاغَة : قال ابن جزي : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ أي يلزمونهم به وهو استعارة من السوم في البيع وفسر سوء العذاب بقوله ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ ولذلك لم يعطفه هنا^(١) .

ثانياً : التنكير في كل من ﴿ بلاء ﴾ و ﴿ عظيم ﴾ للتفخيم والتهويل .

ثالثاً : صيغة المفاعلة في قوله ﴿ وإذ وعدنا ﴾ ليست على بابها لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين ، وإنما هي بمعنى الثلاثي ﴿ وإذ وعدنا ﴾ .

رابعاً : قال أبو السعود : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ التعرض بذكر الباري للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها ، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم ، الذي خلقهم بلطف حكمته ، إلى عبادة البقر الذي هو مثل في الغباوة^(٢) .

الفوائد : الأولى : العطف في قوله ﴿ الكتاب والفرقان ﴾ هو من باب عطف الصفات بعضها على بعض ، لأن الكتاب هو التوراة والفرقان هو التوراة أيضاً وحسن العطف لكون معناه أنه آتاه جامعاً بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل^(٣) .

الثانية : سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ما رواه المفسرون أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر ، وأحرقت كل قبضي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا : يولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملكك على يده ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل .

الثالثة : قال القشيري : من صبر في الله على قضاء الله ، عوضه الله صحبة أوليائه ، هؤلاء بنو

(١) كتاب التسهيل ٤٧/١ . (٢) أبو السعود ٨١/١ . (٣) قاله الزجاج واختاره الزمخشري .

إسرائيل ، صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه ، فجعل منهم أنبياء ، وجعل منهم ملوكاً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً . . . إِلَى . . . بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾
من آية (٥٥) إلى نهاية آية (٥٩)

المناسكة : بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم ، بيّن لونا من ألوان طغيانهم وجحودهم ، وتبديلهم لأوامر الله ، وهم مع الكفر والعصيان ، يعاملون باللطف والإحسان ، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم !! قال الطبري : لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم كما قال تعالى ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ وقال لهم : صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا ، وخرج بهم إلى « طور سيناء » فقالوا لموسى : اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال : أفعل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه ، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٢)

اللفظة : ﴿جهرة﴾ علانية ، وأصل الجهر : الظهور ، ومنه الجهر بالقراءة والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها ، تقول : رأيت الأمير جهاراً وجهرة أي غير مستتر بشيء ، وقال ابن عباس : جهرة : عياناً . ﴿الصاعقة﴾ صيحة العذاب أوهي نار محرقة ﴿بعثناكم﴾ أحييناكم قال الطبري : وأصل البعث : إثارة الشيء من محله ﴿الغمام﴾ جمع غمامة كسحابة وسحاب وزناً ومعنى ، لأنها تغم السماء أي تسترها ، وكل مغطى فهو مغموم ، وغُمَّ الهلال : إذا غطاه الغيم فلم ير ﴿حطة﴾ : مصدر من حطَّ عنا ذنوبنا^(٣) ، وهي كلمة استغفار ومعناها : اغفر خطايانا . ﴿رجزاً﴾ عذاباً ومنه ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ أي العذاب ﴿يفسقون﴾ الفسق : الخروج عن الطاعة وقد تقدم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

النفسير : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعبدوا إلى الله من عبادة العجل فقلتم ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي حتى نرى الله علانية ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ أي أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي ما حلّ بكم ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلك خيارهم ، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم قال تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة ، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت .

ثم ذكّرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتلهم وقالوا لموسى ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ فَعَوَّقُوا على ذلك بالضياح أربعين سنة يتيهون في الأرض فقال تعالى : ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظلمة ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواعٍ من الطعام والشراب من غير كد ولا تعب ، والمَنَّاءُ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه ^(١) ، والسَّلْوَى : طير يشبه السمانى لذيذ الطعم ^(٢) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي أنهم كفروا هذه النعم الجليلة ، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم ، لأن وبال العصيان راجع عليهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه ، ادخلوا بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي كلوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي قولوا يا ربنا حطّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي غمح ذنوبكم ونكفر سيئاتكم ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نزيد من أحسن إحساناً ، بالثواب العظيم ، والأجر الجزيل ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي غير الظالمون أمر الله فقالوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني « أدبارهم » وقالوا على سبيل الاستهزاء : « حبة في شعيرة » وسخروا من أوامر الله ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنزلنا عليهم طاعوناً وبلاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً .

الْبَلَاغَةُ : أولاً : إنما قيّد البعث بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي ، ولدفع ما عساه يتوهم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم .

ثانياً : في الآية إيجاز بالحذف في قوله ﴿كُلُوا﴾ أي قلنا لهم كلوا وفي قوله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ تقديره فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك دل على هذا الحذف قوله ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(١) هو قول الربيع بن أنس . (٢) قول جمهور المفسرين .

والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع ﴿ظلمونا﴾ و﴿يظلمون﴾ للدلالة على تدايمهم في الظلم واستمرارهم على الكفر^(١).

ثالثاً : وضع الظاهر مكان الضمير في قوله ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ ولم يقل « فأنزلنا عليهم » لزيادة التوبيخ والمبالغة في الذم والتقريع ، وتنكير ﴿رجزاً﴾ للتهويل والتفخيم^(٢).

تنبيه : قال الراغب : تخصيص قوله ﴿رجزاً من السماء﴾ هو أن العذاب ضربان : ضربٌ قد يمكن دفاعه وهو كل عذاب جاء على يد آدمي ، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق ، وضربٌ لا يمكن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت وهو المراد بقوله ﴿رجزاً من السماء﴾^(٣).

قال الله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه . . إلى . . وما الله بغافل عما تعملون﴾
آية (٦٠) إلى نهاية آية (٦٢) .

المناسبة : لا تزال الآيات تعدّد النعم على بني إسرائيل ، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه ، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه ، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر ، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم ، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجرى لكل منهم جدول خاص ، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم ، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام ومع ذلك كفروا وجحدوا .

اللفظة : ﴿استسقى﴾ طلب السقيا لقومه لأن السين والتاء للطلب مثل : استنصر واستخبر قال أبو حيان : الاستسقاء : طلب الماء عند عدمه أو قلته ، ومفعوله محذوف أي استسقى موسى ربه^(٤) .
﴿فانفجرت﴾ الانفجار : الانشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه ، وانفجر وانبجس بمعنى واحد قال تعالى ﴿فانبجست منه﴾ ، ﴿مشربهم﴾ جهة وموضع الشرب ﴿تعثوا﴾ العيث : شدة الفساد ، يقال : عثى يعثى ، وعثاً يعثو إذا أفسد فهو عاث^(٥) ، قال الطبري : معناه تطغوا وأصله شدة الإفساد ﴿فومها﴾ الفوم : الثوم وقيل : الحنطة ﴿أتستبدلون﴾ الاستبدال : ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه ﴿أدنى﴾ أخس وأحقر يقال رجل دنيء إذا كان يتبع الخسائس ﴿الذلة﴾ الذل والهوان والحقارة ﴿والمسكنة﴾ الفاقة والخشوع مأخوذة من السكون لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر ﴿باءوا﴾ رجعوا وانصرفوا قال الرازي : ولا يقال باء إلا بشرّ ﴿يعتدون﴾ الاعتداء : تجاوز الحد في كل شيء واشتهر في الظلم والمعاصي .

(١) الفتوحات الإلهية ٥٧/١ . (٢) إرشاد العقل السليم ٨٣/١ . (٣) محاسن التأويل ١٣٥/٢ .

(٤) البحر المحيط ٢٢٦/١ . (٥) كذا في المصباح .

* وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّدِيقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

التفسير : ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي اضرب أي حجر كان تنفجر بقدرتنا العيون منه ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي فضرِب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عينا بقدر قبائلهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي قلنا لهم : كلوا من المن والسلوى ، واشربوا من هذا الماء ، من غير كد منكم ولا تعب ، بل هو من خالص إنعام الله ﴿وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد . ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتُم لنبیکم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المن والسلوى ﴿لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي على نوع واحد من الطعام وهو المن والسلوى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمنا المن والسلوى وكرهناه ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ يعني القثّة التي تشبه الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ أي الثوم ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا﴾ أي العدس والبصل المعروفان ﴿قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي قال لهم موسى منكراً عليهم : ويحكم أَسْتَبْدِلُونَ الخسيس بالنفيس ! وتفضلون البصل والبقل والثوم على المن والسلوى ؟ ﴿أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأَلْتُمْ﴾ أي ادخلوا مصرًا من الأمصار وبلداً من البلدان أيًا كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء . . ثم قال تعالى منبهاً على ضلالهم وفسادهم وبغيهم وعدوانهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله جحوداً واستكباراً ، وقتلهم رسل الله ظلماً وعدواناً

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم على أحكام الله ثم دعا تعالى أصحاب الملل والنحل « المؤمنين ، واليهود ، والنصارى ، والصابئين » إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر فقال ﴿إن الذين آمنوا﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿والذين هادوا﴾ اليهود أتباع موسى ﴿والنصارى﴾ أتباع عيسى ﴿والصابئين﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي من آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدق بالله ، وأيقن بالآخرة ﴿وعمل صالحاً﴾ أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة ، حين يخاف الكفار من العقاب ، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب .

البلاغَة : أولاً : في إضافة الرزق إلى الله تعالى ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ تعظيم للمنة والإنعام وإيماء إلى أنه رزقٌ حاصلٌ من غير تعب ولا مشقة .

ثانياً : في التصريح بذكر الأرض ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ مبالغة في تقبيح الفساد وقوله ﴿مفسدين﴾ حال مؤكدة ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشدد عنايته بأن يجعل الأمر أو النهي لا يحوم حوله لبسٌ أو شك ، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد فقوله ﴿مفسدين﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة ، ويجعله بعيداً من أن يُغفل عنه أو يُنسى .

ثالثاً : قوله تعالى ﴿مما تنبت الأرض﴾ المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى (المجاز العقلي) وعلاقته السببية لأن الأرض لما كانت سبباً للنبات أُسند إليها .

رابعاً : قوله ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ كناية^(١) عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه كما قال الشاعر :

إن الساحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

خامساً : تقييد قتل الأنبياء بقوله ﴿بغير الحق﴾ مع أن قتلهم لا يكون بحق البتة إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانه .

الفوائد : الأولى : حكى المفسرون أقوالاً كثيرة في الحجر الذي ضربه موسى فجرت منه العيون ما هو ؟ وكيف وصفه ؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال والذي يكفي في فهم معنى الآية أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه « المعجزة » وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء ، وهنا تكون المعجزة أوضح ، والبرهان أسطع قال الحسن البصري : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة^(٢) .

(١) تسمى الاستعارة بالكناية كما نبّه على ذلك أبو السعود . (٢) الكشف ١٠٧/١ .

الثانية : فإن قيل ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عيناً ؟ والجواب : أن قوم موسى كانوا كثيرين وكانوا في الصحراء ، والناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع ، فأكمل الله هذه النعمة بأن عين لكل سبط منهم ماءً معيناً على عددهم لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً . وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر والله أعلم .

الثالثة : ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفوم في قوله ﴿وفومها﴾ الحنطة والأرجح أن المراد به الثوم بدليل قراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾ وبدليل اقتران البصل بعده قال الفخر الرازي : الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة ، واستدل القرطبي على ذلك بقول حسان :

وأنتم أناسٌ لثامٌ الأصول طعامكم الفوم والحوقل .
يعني الثوم والبصل^(١)

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ . . . إِلَى . . . وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ .
من آية (٦٣) إلى نهاية آية (٦٦) .

المناسكة : لما ذكرهم تعالى بالنعم الجليلة العظيمة ، أردف ذلك ببيان ما حلّ بهم من نقم ، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر الله ، فقد كفروا النعمة ، ونقضوا الميثاق ، واعتدوا في السبب فمسخهم الله إلى قردة ، وهكذا شأن كل أمة عتت عن أمر ربها وعصت رسله .

اللغة : ﴿ميثاقكم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه ، والمراد به هنا العمل بأحكام التوراة ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بقوة﴾ بحزم وعزم ﴿توليتهم﴾ التولي : الإعراض عن الشيء والإدبار عنه ﴿خاسئين﴾ جمع خاسيء وهو الذليل المهين قال أهل اللغة : الخاسيء : الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له : إخسأ أي تباعد وانطرد صاغراً . ﴿نكالا﴾ النكال : العقوبة الشديدة الزاجرة ولا يقال لكل عقوبة نكال حتى تكون زاجرة رادعة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آيَاتِنَا بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَّانَهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

النفسير : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجدٍّ وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي أعرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي بقبول التوبة ﴿وَرَحْمَتِهِ﴾ بالعفو عن الزلة ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً مع الذلة والإهانة ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعابنها ، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي عظة وذكرى لكل عبدٍ صالحٍ متَّقٍ لله سبحانه وتعالى .

البلاغة : أولاً : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قلنا لهم خذوا فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول .

ثانياً : ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى الإهانة والتحقير ، وقال بعض المفسرين : هذا أمر تسخيرٍ وتكوين ، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة .^(١)

ثالثاً : ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ كناية عن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق ، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر .

الفوائد : الأولى : قال الففال : إنما قال ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ ولم يقل « موثيقكم » لأنه أراد ميثاق كل واحدٍ منكم كقوله ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي يخرج كل واحدٍ منكم طفلاً .^(٢)

الثانية : قال بعض أهل اللطائف : كانت نفوس بني إسرائيل من ظلمات عصيانها تخبط في عشواء حالكة الجلباب ، وتخطر من غلوائها وعلوِّها في حلتي كبرٍ وإعجاب ، فلما أُمرُوا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أثقال ثارت نفوسهم فرفع الله عليهم الجبل فوجدوه أثقل مما كلّفوه ، فهان عليهم حمل التوراة قال الشاعر :

إِلَى اللَّهِ يُدْعَى بِالْبَرَاهِينِ مِنْ أَبِي فَإِنْ لَمْ يُجِبْ نَادَتْهُ بِيضُ الصَّوَارِمِ^(٣)

الثالثة : إنما خصَّ المتقين بإضافة الموعظة إليهم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم الذين يتفعون بالعظة والتذكير قال تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

(١) الفتوحات الإلهية ٦٣/١ . (٢) البحر المحيط ٢٤٣/١ . (٣) البحر المحيط ٢٤٥/١ .

قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ . . . إِلَى . . . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾
من آية (٦٧) إلى نهاية آية (٧٤).

المناسكة : لما ذكر تعالى بعض قبائح اليهود وجرائمهم ، من نقض المواثيق ، واعتدائهم في السبت ، وتمردهم على الله عز وجل في تطبيق شريعته المنزلة ، أعقبه بذكر نوع آخر من مساوئهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم ، وعدم مسارعتهم لامثال الأوامر التي يوحىها الله إليهم ، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسول صلوات الله عليهم ، وجفاؤهم في مخاطبة نبيهم الكريم موسى عليه السلام ، إلى آخر ما هنالك من قبائح ومساوئ .

اللفظ : ﴿هزوا﴾ الهزؤ : السخرية بضم الزاي وقلب الهمزة واواً ﴿هزوا﴾ مثل ﴿كفوا﴾ أحد والمعنى على حذف مضاف أي أخذنا موضع هزؤ ، أو يحمل المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءاً بنا ﴿فارض﴾ الفارض : الفتية التي لم تلد من الصغر ، ولم يلقحها الفحل لصغرهما قال الشاعر :

لعمري لقد أعطيتَ ضيفكَ فارضاً تُساق إليه ما تقوم على رجل
ولم تعطه بكرةً فيرضى سمينه فكيف تجازى بالمودة والفضل ؟^(١)

﴿عوان﴾ وسط ليست بمسنة ولا صغيرة ، وقيل هي التي ولدت بطناً أو بطنين ، ﴿فالق﴾ الفقوع : شدة الصفرة يقال : أصفر فاقع أي شديد الصفرة كما يقال : أحمر قان أي شديد الحمرة قال الطبري : وهو نظير النضوع في البياض ﴿ذلول﴾ أي مذلة للعمل يقال : دابة ذلول أي ريضة زالت صعوبتها فقوله ﴿لا ذلول﴾ أي لم تذلل لإثارة الأرض أي لحرثها ﴿مسلمة﴾ من السلامة أي خالصة ومبرأة من العيوب ﴿شية﴾ الشية : اللمعة المخالفة لبقية اللون الأصلي قال الطبري : ﴿لا شية فيها﴾ أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها^(٢) ﴿فاداراتم﴾ أي تدافعتم واختلقتن وتنازعتم وأصلها تداراتم أدغمت التاء في الدال ، وأتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالسكن فصار اداراتم ، ومعنى الدرع : الدفع لأن كلاً من الفريقين كان يدرأ على الآخر أي يدفع وفي الحديث (ادروا الحدود بالشبهات) ﴿قست﴾ القسوة : الصلابة ونقيضها الرقة ﴿يشقق﴾ التشقق : التصدع بطول أو عرض ﴿يهبط﴾ الهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل .

« معجزة إحياء الميت وقصة البقرة »

ذكر القصة : روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهي : علام يقتل

(١) البحر المحيط ١/ ٢٤٨ . (٢) مختصر الطبري ١/ ٤٧ .

بعضنا بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قال : ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً ، فاشتروها بملء جلدتها ذهباً فذبحوها فضر به بيعها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ قال : هذا وأشار على ابن أخيه ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد «^(١) وفي رواية « فأخذوا الغلام فقتلوه » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٧٩﴾

التفسير : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنبينا أن قلتم : أتتهزأ بنا يا موسى ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ألتجئ إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما هي هذه البقرة وأي شيء صفتها ؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٌ﴾ أي لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشددوا فيشدد الله عليكم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا﴾ أي ما هو لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك ؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة ، حسن منظرها تسر كل من رآها . ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سننها ولونها ليزدادوا بياناً لوصفها ، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثير ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي سنهتدي إلى معرفتها إن شاء الله ، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبداً كما ثبت في الحديث ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تُسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض ، ولا لسقاية الزرع ﴿مُسَلَّمةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لون آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي الآن بينتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس قال تعالى

قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ لِنُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْاَعْنِ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴿٧٢﴾ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٣﴾
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٤﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً
وَإِنَّ مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَآ يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَآ يَهْبِطُ مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾

إخباراً عنهم ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة ، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة ، فقال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً ﴿فَادَارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها ، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضرَبوا القَتِيل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيا هذا القَتِيل أمام أبصاركم يحيي الموتى من قبورهم ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير . ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿وَإِنَّ مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَآ يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَآ يَهْبِطُ مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي ومنها ما يتفتت ويردئ من رعوس الجبال من خشية الله ، فالحجارة تلين وتخشع وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي أنه تعالى رقيب على أفعالهم لا تخفى عليه خافية ، وسيجازيهم عليها يوم القيامة ، وفي هذا وعيد وتهديد .

الْبَلَاغَةُ : أولاً : قوله تعالى ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهومتين من نظم الكلام والتقدير : فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها ، فلما اهتموا إليها ذبحوها وهذا من الإيجاز بالحذف .

ثانياً : قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ هذه الجملة اعتراضية بين قوله ﴿فَادَارَأْتُمْ﴾ وقوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنها الاتصال تحيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسناً ، وفائدة

الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة .

ثالثاً : ﴿ثم قست قلوبكم﴾ وصف القلوب بالصلابة والغلظ يراد منه نبؤها عن الاعتبار، وعدم تأثرها بالمواعظ ففيه استعارة تصرّحية قال أبو السعود : القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لنبؤ قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تمنع منها الجبال وتلين بها الصخور^(١) .

رابعاً : ﴿فهي كالحجارة﴾ فيه تشبيه يسمى (مرسلاً مجملاً) لأن أداة الشبه مذكورة ووجه الشبه محذوف .

خامساً : ﴿لما يتفجر منه الأنهار﴾ أي ماء الأنهار ، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر على الحال فيه كالماء والقرينة ظاهرة لأن التفجر إنما يكون للماء ويسمى هذا مجازاً مرسلاً .

الفوائد : الفائدة الأولى : نبه قوله تعالى ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير ، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضرّبونها في مقام المزح والهزل ، وقالوا إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلي والتفكه والمزاح .

الثانية : الخطاب في قوله ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقوام ، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف إذا كانوا سائرين على نهجهم ، راضين بفعلهم ، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين .

الثالثة : هذه الواقعة واقعة (قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة ، وإن وردت في الذكر بعده ، والسر في ذلك التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة ، والتكرير في التقريع والتوبيخ قال العلامة أبو السعود : وإنما غيّر الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع ، فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتيات على أمره جنائية عظيمة جدية بأن تنعى عليهم^(٢) .

الرابعة : ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع : أ - في قوله ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ ب - وفي هذه القصة ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ ج - وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ د - وفي قصة عزيز ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ هـ وفي قصة إبراهيم ﴿ربّ أرني كيف تحيي الموتى﴾^(٣)

الخامسة : ﴿أو﴾ في قوله تعالى ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ بمعنى «بل» أي بل أشد قسوة كقوله تعالى ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ وقال بعضهم : هي للترديد ، أو التخيير فمن عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد ، ومن لم يعرفها شبهها بالحجارة أو قال : هي أقسى من الحجارة .

السادسة : ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية هنا حقيقية ، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار خشية بقدرها كقوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ وقال آخرون : بل هو من باب المجاز كقول القائل : قال الحائط للمسمار لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني والله أعلم ؟

قال الله تعالى ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . . إلى . . فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ .
من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى عناد اليهود ، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى ، ومجادلتهم للأنبياء الكرام ، وعدم الانقياد والإذعان ، عقب ذلك بذكر بعض القبائح والجرائم التي ارتكبوها كتحرif كلام الله تعالى ، وادعائهم بأنهم أحباب الله ، وأن النار لن تمسهم إلا بضعة أيام قليلة ، إلى آخر ما هم عليه من أمانى كاذبة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وقد بدأ تعالى الآيات بتأسيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على الضلال ، وجبلوا على العناد والمكابرة .

الفكرة : ﴿أفتطمعون﴾ الطمع : تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقاً قوياً ، فإذا اشتد فهو طمع ، وإذا ضعف كان رجاءً ورغبةً ﴿فريق﴾ الفريق : الجماعة وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرھط والقوم . ﴿يحرفونه﴾ التحريف : التبديل والتغيير وأصله من الانحراف عن الشيء ﴿عقلوه﴾ عقل الشيء أدركه بعقله والمراد فهموه وعرفوه ﴿أميون﴾ جمع أمي وهو الذي لا يحسن القراءة والكتابة ، سمي بذلك نسبة إلى الأم ، لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة ﴿أمانى﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهي ، أو يقدّره في نفسه من مئى ولذلك تطلق على الكذب قال أعرابي لإنسان : « أهذا شيء رأيته أم تمنيته » أي اختلقته ، وتأتي بمعنى قرأ قال حسان : تمتى كتاب الله أول ليلة ﴿فويل﴾ الويل : الهلاك والدمار وقيل : الفضيحة والخزي ، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب قال القاضي : هي نهاية الوعيد والتهديد كقوله ﴿ويل للمطففين﴾ وقال سيبويه : ويل لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها .

سَبَبُ النّزول : ١ - نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوارٌ ورضاعة وكانوا يودون لو أسلموا فأنزل الله تعالى ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . .﴾ (١) الآية .

٢ - وروى مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون : إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما تُعذب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ (٢) .

* أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُواهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَجْأُوْهُمْ بِهِ ءِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ءِثْمًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا

التفسير : يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً جلياً ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾ أي يغيرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل ، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم يرتكبون جريمة أي أنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأ أو نسيان ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق ، وأن محمداً هو الرسول المبشّر به ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ أي إذا انفردوا اختلوا بعضهم ببعض ﴿قالوا اتخذوهم بما فتح الله عليكم﴾ أي قالوا عاتبين عليهم أنخبرون أصحاب محمد بما بين الله لكم في التوراة من صفة محمد عليه السلام ﴿ليجأوكم به عند ربكم﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ أي أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تتحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم ؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم قال تعالى رداً عليهم وتوبيخاً ﴿أولاً يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرهون ، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان !!

ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرّفوا وبدّلوا ، ذكر العوام الذين قلّدوهم ونّبّه أنهم في الضلال سواء فقال : ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوام ، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿إلا أمانى﴾ أي إلا ما هم عليه من الأمانى التي متّاهم بها أحبارهم ، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وأنهم أبناء الله وأحبّاءه ، إلى غير ما هنالك من الأمانى الفارغة وإنهم إلا يظنون ﴿أي ما هم على يقين من أمرهم ، بل هم مقلّدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء . ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضلّين ، الذين أضلّوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرّفوا التوراة ، وكتبوا تلك الآيات المحرفة

يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ ۖ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

بأيديهم ﴿ثم يقولون هذا من عند الله﴾ أي يقولون لأتباعهم الأमीين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذباً وزوراً ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ أي فشدّة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ أي لن ندخل النار إلا أياماً قلائل ، هي مدة عبادة العجل ، أو سبعة أيام فقط ﴿قل اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ : هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك ؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله ، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله ، والكذب والبهتان عليه جل وعلا .

ثم بيّن تعالى كذب اليهود ، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقال : ﴿بلى من كسب سيئة﴾ أي بلى تمسكم النار وتخلدون فيها ، كما يخلد الكافر الذي عمل الكبائر ، وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي غمرته من جميع جوانبه ، وسدّت عليه مسالك النجاة ، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان ، والعمل الصالح فلا تمسهم النار ، بل هم في روضات الجنات يَجْرُونَ ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبداً ، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين .

الْبَلَاغَةُ : أولاً : قوله ﴿وهم يعلمون﴾ جملة مفيدة لكمال قبح صنيعهم ، فتحريفهم للتوراة كان عن قصد وتصميم لا عن جهل أو نسيان ، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الذم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل .

ثانياً : قوله ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ ذكر الأيدي هنا لدفع توهم المجاز ، وللتأكيد بأن الكتابة باشروها بأنفسهم كما يقول القائل : كتبته بيميني ، وسمعته بأذني .

ثالثاً : قوله ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) حيث جمع بين لفظتي « يسرون » و « يعلنون » وهو من نوع طباق الإيجاب .

رابعاً : التكرير في قوله ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب﴾ وقوله ﴿فويل لهم مما كتب أيديهم﴾ وقوله ﴿وويل لهم مما يكتبون﴾ للتوبيخ والتقريع ولييان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى .

خامساً : قوله ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ هو من باب الاستعارة حيث شبه الخطايا بجيش من الأعداء نزل على قوم من كل جانب فأحاط به إحاطة السوار بالمعصم ، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات ، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات ^(١) .

الفوائد : الفائدة الأولى : تحريف كلام الله يصدق بتأويله تأويلاً فاسداً ، ويصدق بمعنى التغيير وتبديل كلام بكلام ، وقد وقع من أحبار اليهود التحريف بالتأويل ، وبالتغيير ، كما فعلوا في صفته عليه السلام قال العلامة أبو السعود : روي أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها « حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، أبيض ، ربعة » فغيروها وكتبوا مكانها « طوال ، أزرق ، سبط الشعر » فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لما في التوراة فيكذبونه ^(٢) .

الثانية : التحريف بقسميه وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن من الجهلة أو الملاحدة ، وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله منه كتابه العزيز ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾ .

الثالثة : روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال « لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لي من كان من اليهود هنا ، فقال لهم رسول الله : من أبوكم ؟ قالوا : فلان قال : كذبتكم بل أبوكم فلان فقالوا : صدقت وبررت ثم قال لهم : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبتك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً ، ثم قال لهم رسول الله ﷺ : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً ؟ فقالوا نعم قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك » ^(٣) .

قال الله تعالى ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . إلى . . ولا هم ينصرون﴾ .
من آية (٨٣) إلى نهاية آية (٨٦) .

(١) انظر تلخيص البيان ٨ / ١ . (٢) تفسير أبي السعود ٩٤ / ١ . (٣) مختصر ابن كثير ٨٢ / ١ .

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تعدّد جرائم اليهود ، وفي هذه الآيات أمثلة صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض ، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة ، وقتلوا النفس التي حرّم الله ، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل ، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار ، فاستحقوا اللعنة والحزي والدمار .

اللفظة : ﴿ميثاق﴾ الميثاق : العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد ، فإن لم يكن مؤكداً سمي عهداً ﴿حسناً﴾ الحسن : اسم عام جامع لمعاني الخير ، ومنه لين القول ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم ، وضده القبح والمعنى : قولوا قولاً حسناً فهو صفة لمصدر محذوف ﴿توليتهم﴾ التولي عن الشيء : الإعراض عنه ورفضه وعدم قبوله كقوله ﴿فأعرض عمن تولّى عن ذكرنا﴾ وفرق بعضهم بين التولي والإعراض فقال : التولي بالجسم ، والإعراض بالقلب^(١) ﴿تظاهرون﴾ تتعاونون وهو مضارع حذف منه أحد التاءين ، كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهما ظهره إلى الآخر ، والظهير : المعين ﴿الائتم﴾ الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام ﴿العدوان﴾ تجاوز الحد في الظلم ﴿حزي﴾ الحزي : الهوان والمقت والعقوبة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ

التفسير : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً ﴿وذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء ، واليتامى الذين مات أبائهم وهم صغار ، والمسكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أي قولوا حسناً بخفض الجناح ، ولين الجانب ، مع الكلام الطيب ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي صلوا وزكوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين « الصلاة ، والزكاة » لأنها أعظم العبادات البدنية والمالية ﴿ثم توليتهم﴾ ثم توليتهم معترضون ﴿أي ثم رفضتم وأسلافكم الميثاق رفضاً باتاً ، وأعرضتم عن العمل بموجبه﴾ إلا قليلاً منكم ثبتوا عليه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار ، والإجلاء

أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دَيْرِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُوَ
 مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

عن الأوطان ﴿٨٥﴾ ثم أقررتهم وأنتم تشهدون ﴿٨٦﴾ أي ثم اعترفتهم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه ، وأنتم تشهدون
 بلزومه ﴿٨٥﴾ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴿٨٦﴾ أي ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به ،
 فقتلتم إخوانكم في الدين ، وارتكبتم ما نهيتهم عنه من القتل ﴿٨٥﴾ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴿٨٦﴾ أي كما
 طردتموهم من ديارهم من غير التفاتٍ إلى العهد الوثيق ﴿٨٥﴾ تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴿٨٦﴾ أي تتعاونون
 عليهم بالمعصية والظلم ﴿٨٥﴾ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴿٨٦﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم ، ودفعتم المال
 لتخليصهم من الأسر ﴿٨٥﴾ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴿٨٦﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار ،
 ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم ؟ ﴿٨٥﴾ أفؤمنون ببيع الكتاب وتكفرون ببعض ؟ أي
 أفؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض ؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان ،
 والكفر ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كله ولهذا عقب تعالى ذلك بقوله ﴿٨٥﴾ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا
 خزي في الحياة الدنيا ﴿٨٥﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌ وهوان ، ومقتٌ
 وغضب في الدنيا ﴿٨٥﴾ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴿٨٥﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشد
 منه ، لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿٨٥﴾ وما الله بغافل عما تعملون ﴿٨٥﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى
 أوامر الله ، ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿٨٥﴾ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا
 بالآخرة ﴿٨٥﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة
 بمعنى اختاروها وأثروها على الآخرة ﴿٨٥﴾ فلا يخفف عنهم العذاب ﴿٨٥﴾ أي لا يُفتر عنهم العذاب ساعة واحدة
 ﴿٨٥﴾ ولا هم ينصرون ﴿٨٥﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم ، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم .

تنبية : كانت (بنو قريظة) و (بنو النضير) من اليهود ، فحالفت بنو قريظة الأوس ، وبنو
 النضير الخزرج ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه ، فيقتل اليهودي
 أخاه اليهودي من الفريق الآخر ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينهبون ما فيها من الأثاث والمتاع والمال ،
 وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكوا الأسارى من الفريق
 المغلوب عملاً بحكم التوراة ولهذا قال تعالى ﴿٨٥﴾ أفؤمنون ببيع الكتاب وتكفرون ببعض ﴿٨٥﴾ .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ خبرٌ في معنى النهي ، وهو أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إيهام أن المنهيَّ حقه أن يسارع إلى الانتهاء فكأنه انتهى عنه ، فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي ^(١) .

٢ - ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقع المصدر موقع الصفة أي قولاً حسناً أو ذا حسنٍ للمبالغة فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة فيقولون : هو عدلٌ .

٣ - التنكير في قوله ﴿خزيٌ في الحياة الدنيا﴾ للتفخيم والتهويل .

٤ - ﴿تقتلون أنفسكم﴾ عبّر عن قتل الغير بقتل النفس لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دم نفسه فهو من باب المجاز لأدنى ملاسة .

٥ - ﴿أفتؤمنون﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي .

الفوائد : الفائدة الأولى : جاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم ، فقدّم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على العباد ، ثم قدم ذكر الوالدين لحقهما الأعظم في تربية الولد ، ثم القرابة لأن فيهم صلة الرحم وأجر الإحسان ، ثم اليتامى لقلة حيلتهم ، ثم المساكين لضعفهم ومسكنتهم .

الثانية : ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ ولم يقل : وقولوا لإخوانكم أو قولوا للمؤمنين حسناً ليدل على أن الأمر بالإحسان عامٌ لجميع الناس ، المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وفي هذا حضٌّ على مكارم الأخلاق ، بلين الكلام ، وبسط الوجه ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم قال أحد الأدباء :

بُنِيَ إِنَّ البرَّ شيءٌ هَيِّنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنٌ

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول . . إلى . . ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾

اللفت : ﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿وقفينا﴾ أردفنا وأتبعنا وأصله من القفا يقال : قَفَاهُ إذا أَتَبَعَهُ ، وَقَفَاهُ بِكَذَا إذا أَتَبَعَهُ إِيَّاهُ ﴿البيّنات﴾ المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ﴿أَيَّدْنَاهُ﴾ قوينا مأخوذ من الأيْد وهو القوة ﴿روح القدس﴾ جبريل عليه السلام ، والقدسُ : الطهر والبركة ﴿تهوَّى﴾ تحب من هَوَى إذا أحب ومصدره الهوى ﴿أَغْلَفَ﴾ جمع أغلف ، والغلاف : الغطاء ، يقال : سيف أغلف إذا كان في غلافه ، وقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز ، مستعار من الأغلف الذي لم

يُخْتَنُ^(١) ﴿لَعْنَهُمْ﴾ أصل اللعن في كلام العرب : الطرد والإبعاد يقال : ذنب لعين أي مطرود مبعد والمراد : أقصاهم وأبعدهم عن رحمته ﴿يَسْتَفْتَحُونَ﴾ يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصر ﴿بِئْسَمَا﴾ أصلها بئس ما أي بئس الذي ، وبئس فعل للذم ، كما أن « نِعْم » للمدح ﴿بَغِيًّا﴾ البغي : الحسد والظلم ، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد قاله الأصمعي^(٢) ﴿بَاءُوا﴾ رجعوا وأكثر ما يستعمل في الشر ﴿مُهِينٌ﴾ مخزٍ مذل مأخوذ من الهوان بمعنى الذل .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل ، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضرب من النعم التي أمدّهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام ، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة ، والنعمة بالكفران والجحود .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا

التفسير : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وقفينا من بعده بالرسول﴾ أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾ أي قويناه وشدّدنا أزره بجبريل عليه السلام ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم﴾ أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم ﴿استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ أي تكبرتم عن اتباعه فطائفة منهم كذبتموهم ، وطائفة قتلتموهم . . ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبين ضلالهم في اقتدائهم بالأسلاف فقال حكاية عنهم ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد ، والغرض إقناطه عليه السلام من إيمانهم ، قال تعالى رداً عليهم ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم ﴿فقليلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي قليل من يؤمن منهم ، أو يؤمنون إيماناً قليلاً وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين ، مصدقاً لما في التوراة ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان ، الذي نجد نفعه في التوراة ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أي فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة كفروا برسالته ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم

أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءَ وَ
بَغَضٍ عَلَى غَضٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾
* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾

المرسلين ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ أي بئس الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله ﴿بغياً﴾ أي حسداً وطلباً لما ليس لهم ﴿أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ أي حسداً منهم لأجل أن ينزل الله وحياً من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال لأن كفرهم سببه التكبر والحسد فقبولوا بالإهانة والصغار ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدقوه واتبعوه ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة ﴿ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ أي يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقاً لما معهم من كلام الله ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحاً فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذا كنتم فعلاً مؤمنين ؟ ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي بالحجج الباهرات ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور ، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع .

الْبَلَاغَةُ : ١ - تقديم المفعول في الموضعين ﴿فريقاً كذبتهم﴾ و﴿فريقاً تقتلون﴾ للاهتمام وتشويق السامع إلى ما يلقي إليه .

٢ - التعبير بالمضارع ﴿وفريقاً تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتهم ، لأن الفعل المضارع - كما هو المألوف في أساليب البلاغة - يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً ، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ ولم يقل «عليهم» ليشعر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم .

٤ - الخبر في قوله ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ يراد به التبيكيت والتوبيخ على عدم اتباع الرسول .

٥ - أسندت الإهانة إلى العذاب فقال ﴿عذاب مهين﴾ لأن الإهانة تحصل بعذابهم ، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها .

فكائدة : قال الحسن البصري : إنما سمي جبريل « روح القدس » لأن القدس هو الله ، وروحه جبريل ، فالإضافة للتشريف ، قال الرازي : وما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى في سورة النحل ﴿قل نزل به روح القدس من ربك بالحق﴾^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم . . إلى . . فإن الله عدو للكافرين﴾

من آية (٩٣) إلى نهاية آية (٩٨) .

المناسبة : هذه طائفة أخرى من جرائم اليهود ، فقد نقضوا الميثاق حتى رفع جبل الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة ، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان ، فعبدوا العجل من دون الله ، وزعموا أنهم أحباب الله ، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم ، وعادوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ، وكفروا بالأنبياء والرسل ، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور .

اللفت : ﴿ميثاقكم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بقوة﴾ بعزم وجد ﴿أشربوا﴾ أشرب : سقي أي جعلت قلوبهم تُشربه ، يقال : أشرب قلبه حباً كذا قال زهير :

فصحوتُ عنها بعد حبٍّ داخلٍ والحبُّ تُشربُهُ فؤادك داءً^(٢)

﴿خالصة﴾ مصدر كالعافية والعاقبة بمعنى الخلوص أي خاصة بكم لا يشارككم فيها أحد ﴿أحرص﴾ الحرص : شدة الرغبة في الشيء وفي الحديث (أحرص على ما ينفعك) ﴿بمزحزحه﴾ الزحزحة : الإبعاد والتنحية قال تعالى ﴿فمن زحزح عن النار﴾ أي أبعد وقال الشاعر :

خليليَّ ما بال الدجى لا يزحزحُ وما بال ضوء الصبح لا يتوضَّح^(٣)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ

التفسير : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ، ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿واسمعوا﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ أي سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي خالط حبه قلوبهم ، وتغلغل في

الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ ۚ إِيْمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

سويدائها والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم، كما يدخل الصبغ في الثوب، والماء في البدن ﴿بكفرهم﴾ أي بسبب كفرهم ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بشس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان فبئس هذا العمل والصنيع والمعنى : لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾ أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة ، لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة . ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها قال تعالى راداً عليهم تلك الدعوى الكاذبة ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجتروحوه من الذنوب والآثام ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا﴾ أي ولتجدن اليهود أشد الناس حرصاً على الحياة ، وأحرص من المشركين أنفسهم ، وذلك لعلمهم بأنهم صاترون إلى النار لإجرامهم ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ أي وما طول العمر - مهما عمّر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي مطلع على أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ أي قل لهم يا محمد من كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله ، لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿فإنه نزل على قلبك بإذن الله﴾ أي فإن جبريل الأمين نزل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي وفيه الهداية الكاملة ، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله ، وعادى على الوجه الأخص « جبريل وميكائيل » فهو كافر عدو لله ﴿فإن الله عدو

للكافرين ﴿لأن الله يبغض من عادى أحداً من أوليائه . ومن عاداهم عاداه الله ، ففيه الوعيد والتهديد الشديد .

سَبَبُ النُّزُول : روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي ، فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال : جبريل قالوا : ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك فأنزل الله ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك . . .﴾^(١) الآية .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ فيه استعارة مكنية ، شبه حب عبادة العجل بمشروب لذيق سائغ الشراب ، وطوى ذكر المشبه به ورمز بشيء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية . قال في تلخيص البيان : « وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبه فمازجها بمازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشيء المملوذة »^(٢)

٢ - ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان تهكم بهم كقوله ﴿أصلاتك تأمرك﴾ وكذلك إضافة الإيمان إليهم ، أفاده الزمخشري .

٣ - التنكير في قوله ﴿على حياة﴾ للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين .

٤ - ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط وجيء بها إسمية لزيادة التوبيخ لأنها تفيد الثبات ، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال ﴿عدو للكافرين﴾ بدل عدو لهم لتسجيل صفة الكفر عليهم ، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين .

٥ - ﴿وجبريل وميكال﴾ جاء بعد ذكر الملائكة فهو من باب ذكر الخاص بعد العام للتشريف والتعظيم .

الفَوَائِد : الأولى : ليس معنى السمع في قوله ﴿واسمعوا﴾ إدراك القول فقط ، بل المراد سماع ما أمروا به في التوراة سماع تدبير وطاعة والتزام فهو مؤكد ومقرر لقوله ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ .

الثانية : خص القلب بالذكر ﴿نزله على قلبك﴾ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف كما قال تعالى ﴿لهم قلوب لا يعقلون بها﴾ .

الثالثة : الحكمة في الاتيان هنا بـ « لن » ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ وفي الجمعة بـ « لا » ﴿ولا يتمنونه أبداً﴾ أن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك ، فإنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة ، وهناك كونهم أولياء

(١) رواه الترمذي وانظر القرطبي ٣٦/٢ . (٢) تلخيص البيان للشريف الرضي ص ٩ .

لله من دون الناس ، فناسب هنا التوكيد بلن المفيدة للنفي في الحاضر والمستقبل ، وأما هناك فاكتمى بالنفي^(١) .

الرابعة : الآية الكريمة من المعجزات لأنها إخبار بالغيب وكان الأمر كما أخبر ، ويكفي في تحقق هذه المعجزة أن لا يقع تمنى الموت من اليهود الذين كانوا في عصره ﷺ وفي الحديث الشريف (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار)^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات . . إلى . . لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ من آية (٩٩) إلى نهاية آية (١٠٣) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما جبل عليه اليهود ، من خبث السريرة ونقض العهود ، والتكذيب لرسول الله ومعاداة أوليائه ، حتى انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو « جبريل » الأمين عليه السلام ، أعقب ذلك بيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعقود ، وتكذيب الرسل ، واتباع طرق الشعوذة والضلال ، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلكوا معه هذه الطريقة ، في عدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير ، وإلزامهم الإيمان به واتباعه ، فنبدوا الكتاب وراء ظهورهم ، واتبعوا ما ألفت إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة ، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء ، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

اللفظة : ﴿ نبذ ﴾ النبذ : الطرح والإلقاء ومنه سمي اللقيط منبذاً لأنه ينبذ على الطريق قال الشاعر :

إنّ الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحلوا المحرم^(٣)

﴿ تتلو ﴾ تحدّث وتروي من التلاوة بمعنى القراءة ، أو من التلاوة بمعنى الاتباع قال الطبري : ولقول القائل : « هو يتلو كذا » في كلام العرب معنيان : أحدهما الاتباع كما تقول : تلوت فلاناً إذا مشيت خلفه وتبعته أثره ، والآخر : القراءة والدراسة كقولك : فلان يتلو القرآن أي يقرؤه^(٤) ﴿ السحر ﴾ قال الجوهري : كلُّ ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر ، وسحره أيضاً بمعنى خدعه^(٥) وفي الحديث (إنّ من البيان لسحراً) ﴿ فتنة ﴾ الفتنة : الابتلاء والاختبار ومنه قولهم : فتنّ الذهب إذا امتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه ﴿ خلاق ﴾ الخلاق : النصيب قال الزجاج : هو النصيب الوافر من الخير ، وأكثر ما يستعمل في الخير ﴿ لمثوبة ﴾ المثوبة : الثواب والجزاء .

(١) الصاوي على الجلالين ٤٩ / ١ . (٢) القرطبي ٣٣ / ٢ . (٣) القرطبي ٤٠ / ٢ . (٤) الطبري ٤٠٧ / ٢ . (٥) الصحاح للجوهري .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ^ط وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ ^ط وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ^ع وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ ^ع مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ^ع لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا ^ع وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

التفسير : ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحة دالات على نبوتك ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ أي أيكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم ؟ ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ أي مصداقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ أي طرح أحبارهم وعلمائهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿وما كفر سليمان﴾ أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ أي ولكن الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ أي وكما اتبع رؤساء اليهود السحر كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة ، وقد أنزلهم الله ابتلاءً وامتحاناً للناس ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ أي إن الملكين لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولوا إن هذا الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء ، فلا تستعمله للإضرار ولا تكفر بسببه ، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس

فقد نجا ، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل . . قال تعالى ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين ، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحداً إلا إذا شاء الله ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر ، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا﴾ أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر ، الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار .

سَبَبُ النَّزُولِ : لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين ، قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً ! ! والله ما كان إلا ساحراً فنزلت هذه الآية ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ (١) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿رسولٌ من عند الله﴾ التنكير للتفخيم ووصف الرسول بأنه آتٍ من عند الله لإفادة مزيد التعظيم .

٢ - ﴿وراء ظهورهم﴾ مثل يُضْرَبُ للإعراض عن الشيء جملةً تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً ، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه ، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية .

٣ - ﴿لو كانوا يعلمون﴾ هذا جارٍ على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة ، من أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزل منزلة الجاهل به ، وينفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين .

٤ - ﴿لمثوبة من عند الله﴾ جيء بالجملة الإسمية بدل الفعلية للدلالة على الثبوت والاستقرار .

فَكَايِدَةٌ : الحكمة من تعليم الملوك الناس السحر ، أن السحرة كثروا في ذلك العهد واخترعوا فنوناً غريبة من السحر ، وربما زعموا أنهم أنبياء ، فبعث الله تعالى الملوك ليعلما الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة ، ويعرفوا أن الذين يدعون النبوة كذباً إنما هم سحرة لا أنبياء .

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا . . . إِلَى . . . إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قبائح اليهود ، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة ، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر ، الذي يضمرونه للنبي ﷺ والمسلمين ، من الطعن والحقد والحسد ، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين ، واتخاذهم الشريعة الغراء هدفاً للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية .

اللفظة : ﴿راعنا﴾ من المراعاة وهي الإنظار والإمهال ، وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان ، وقد حرفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحُمق ولذلك نهي عنها المؤمنون ﴿انظرونا﴾ من النظر والانتظار تقول : نظرتُ الرجل إذا انتظرتُه وارتقبتُه أي انتظرنا وتأنَّ بنا ﴿يود﴾ يتمنى ويحب ﴿ننسخ﴾ النسخ في اللغة : الإبطال والإزالة يقال : نسخت الشمس الظل أي أزالته وفي الشرع : رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر ﴿ننسها﴾ من أنسى الشيء جعله منسياً فهو من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نَحَها من القلوب ﴿ولي﴾ الولي : من يتولى أمور الإنسان ومصلحه ﴿نصير﴾ النصير : المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه ﴿أم﴾ بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة كقوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل يقولون ﴿يتبدل﴾ يقال : بدَّل وتبدَّل واستبدل أي جعل شيئاً موضع آخر ، وتبدل الكفر بالإيمان معناه أخذه بدل الإيمان ﴿سواء السبيل﴾ أي وسط الطريق ، والسواء من كل شيء : الوسط ، والسبيل معناه الطريق ﴿فاعفوا﴾ العفو : ترك المؤاخضة على الذنب ﴿واصفحوا﴾ والصفح : ترك التأنيب عنه .

سبب النزول : روي أن اليهود قالوا : ألا تعجبون لأمر محمد ؟ ! يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، يناقض بعضه بعضاً فنزلت ^(١) ﴿ما ننسخ من آية﴾ ^(٢) .

يَتَّيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه فيقول ﴿لا تقولوا راعنا﴾ أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقينه علينا ﴿وقولوا انظرونا﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿واسمعوا﴾ أي أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وللکافرين عذاب أليم﴾ أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبوه ، عذاب أليم موجه ﴿ما يود الذين كفروا من أهل

(١) الكشف ١/ ١٣١ . (٢) انظر حكمة النسخ وتفصيل أحكامه في كتابنا «روائع البيان» ج ١ ص ١٠٠ .

أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٩﴾ * مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٠﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١١﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١٢﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٣﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٤﴾

الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴿١٠٩﴾ أي ما يجب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزل عليكم شيء من الخير ، بغضاً فيكم وحسداً لكم ﴿١١٠﴾ واللّه يختص برحمته من يشاء ﴿١١١﴾ أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده ﴿١١٢﴾ واللّه ذو الفضل العظيم ﴿١١٣﴾ واللّه واسع الفضل والإحسان ثم قال تعالى رداً على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ ﴿١١٤﴾ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴿١١٥﴾ أي ما نبطل من حكم آية فنغيره بآخر أو ننسها يا محمد أي نمنحها من قلبك ﴿١١٦﴾ نأت بخير منها أو مثلها ﴿١١٧﴾ أي نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الآجل ، إما برفع المشقة عنكم ، أو بزيادة الأجر والثواب لكم ﴿١١٨﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٩﴾ أي أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَدِيرٌ ، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد !! ﴿١٢٠﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٢١﴾ أي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي شَيْءٍ خَلَقَ بِحُكْمٍ بِمَا يَأْمُرُ بِمَا يَشَاءُ ؟ ﴿١٢٢﴾ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٣﴾ أي ما لكم وليٌ يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين ﴿١٢٤﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴿١٢٥﴾ أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أَنْ تَسْأَلُوا نَبِيَّكُمْ كَمَا سَأَلَ قَوْمُ مُوسَى نَبِيَّهُمْ مِنْ قَبْلُ وَيَكُونُ مِثْلُكُمْ مِثْلَ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ ﴿١٢٦﴾ أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴿١٢٧﴾ فَتَضَلُّوا كَمَا ضَلُّوا ﴿١١٨﴾ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴿١١٩﴾ أَيِ يَسْتَبْدِلُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَيَأْخُذُ الْكُفْرَ بِدَلِ الْإِيمَانِ ﴿١٢٠﴾ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢١﴾ أَيِ فَقَدْ حَادَ عَنْ الْجَادَةِ وَخَرَجَ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴿١٢٢﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿١٢٣﴾ أَيِ تَمْنَى كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿١٢٤﴾ لَوْ يَرُدُّوْنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴿١٢٥﴾ أَيِ لَوْ يَصِيرُ وَنُكْمُكُمْ كُفَّارًا بَعْدَ أَنْ آمَنْتُمْ ﴿١٢٦﴾ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴿١٢٧﴾ أَيِ حَسَدًا مِنْهُمْ لَكُمْ حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ الْخَبِيثَةُ ﴿١٢٨﴾ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿١٢٩﴾ أَيِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَهَرَ لَهُمُ بِالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ أَنَّ دِينَكُمْ هُوَ الْحَقُّ ﴿١٣٠﴾ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴿١٣١﴾ أَيِ اتْرَكُوهُمْ وَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَلَا تَوَاصِدُوهُمْ ﴿١٣٢﴾ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ﴿١٣٣﴾ أَيِ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ لَكُمْ بِقَاتِلِهِمْ ﴿١٣٤﴾ إِنْ

الله على كل شيء قدير ﴿أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان﴾ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴿أي حافظوا على عمودي الإسلام وهما « الصلاة والزكاة » وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية﴾ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴿أي ما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً تجدوا ثوابه عند الله﴾ إن الله بما تعملون بصير ﴿أي رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين .

البلاغة : ١ - الإضافة في قوله ﴿من ربكم﴾ للتشريف . وفيها تذكير للعباد بتربيته لهم .

٢ - تصدير الجملتين بلفظ الجلالة ﴿والله يختص﴾ ﴿والله ذو الفضل﴾ للإيذان بفخامة الأمر .

٣ - ﴿ألم تعلم﴾ الاستفهام للتقرير والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته بدليل قوله تعالى ﴿وما لكم من دون الله﴾ .

٤ - وضع الاسم الجليل موضع الضمير ﴿إن الله﴾ و﴿من دون الله﴾ لتربية الروعة والمهابة في النفوس .

٥ - ﴿ضلّ سواء السبيل﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي ، وفي التعبير به نهاية التبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل .

الفوائد : الأولى : خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن ، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم ، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامثال .

الثانية : نهى المسلمون أن يقولوا في خطاب النبي عليه السلام ﴿راعنا﴾ وأمروا بأن يقولوا مكانها ﴿انظرونا﴾ وفي ذلك تنبيه لأدب جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطباته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة أو التعظيم .

الثالثة : كانت اليهود تستعمل كلمة ﴿راعنا﴾ يعنون بها المسبة والشتيمة وروى أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال يا أعداء الله : عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت هذه الآية ﴿لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا﴾ .

قال الله تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . . إلى . . إن الله سميع عليم﴾ من آية (١١١) إلى نهاية آية (١١٥)

المناسكة : في هذه الآيات الكريمة بيان آخر لأباطيل أهل الكتاب ، حيث ادعى كل من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به وطعن في دين الآخر ، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم ، ويكفرون بعتسى وبالإنجيل ، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم ، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقفٌ عليه ، فأكذب الله الفريقين ، ويبيّن أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقي الذي عمل الصالحات .

اللفظة : ﴿هُوداً﴾ أي يهوداً جمع هائد ، والهائد : التائب الراجع مشتق من هاد إذا تاب ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ ، ﴿أَمَانِيهِمْ﴾ جمع أمانة وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيهِ، ﴿برهانكم﴾ البرهان : الدليل والحجة الموصِلان إلى اليقين، ﴿أَسْلَمَ﴾ استسلم وخضع، ﴿خَرَابَهَا﴾ الخراب : الهدم والتدمير وهو حَسْبِي كتحريب بيوت الله ، ومعنوي كتعطيل إقامة الشعائر فيها، ﴿خَزِيٍّ﴾ هوانٌ وذلة، ﴿ثُمَّ﴾ بفتح الثاء أي هناك ظرفٌ للمكان، ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ الوجه : الجهة والمراد بوجه الله : الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها .

سَبَبُ النُّزُول : عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعتسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ (١) الآية .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾
بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا

النفسير : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي تلك خيالاتهم وأحلامهم ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد أتتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي بلى من أسلم وجهه لله وخضع وأخلص نفسه لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مؤمن مصدقٌ متبعٌ لرسول الله ﷺ ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعترهم حزنٌ أو كدر بل هم في نعيمٍ مقيم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ أي كفر اليهود بعتسى وقالوا ليس

يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا نَارُ خِزْيٍ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾

النصارى على دين صحيح معتد به فدينهم باطل ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علم ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا : ليس محمد على شيء ﴿فאלله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله ، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس ، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي لأولئك المذكورين هوان وذلة في الدنيا ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار . ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم ، وقد نزلت الآية فيمن أضع جهة القبلة ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي يسع الخلق بالجلود والإفضال ، عليم بتدبير شئونه ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم .

البلاغَة : ١ - ﴿تلك أمانيتهم﴾ الجملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة .

٢ - ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ الأمر هنا للتبكيث والتقريع .

٣ - ﴿من أسلم وجهه لله﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء والوجه ههنا (استعارة) أي من أقبل على عبادة الله وجعل توجهه إليه بجملته^(١) .

٤ - ﴿عند ربه﴾ العندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافاً إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به .

٥ - ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب لأنهم نظموا أنفسهم - مع علمهم - في سلك من لا يعلم أصلاً .

٦ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه .

٧ - ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ التنكير للتهويل أي خزي هائل فظيع لا يكاد يوصف لهوله .

٨ - ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة فعيل للمبالغة . أي واسع العلم .

فَكَايْدَةٌ : قال الإمام الفخر : إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله وقد يكنى بالوجه عن النفس كما قال تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وقال زيد بن نفييل :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثَقَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمِزْنُ تَحْمِلُ عَذَابًا زَلَالًا^(١)

قال الله تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ . . . إِلَى . . . وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾

من آية (١١٧) إلى نهاية آية (١٢٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى وزعمهم أن الجنة خاصة بهم لا يشاركهم فيها أحد أعقبه بذكر بعض قبائحهم وقبائح المشركين في ادعائهم أن لله ولداً حيث زعم اليهود أن عزيزاً ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله فأكذبهم الله وردّ دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع .

اللفظة : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ سبحان مصدر سَبَّحَ بمعنى نزهَ ومعناه التبرئة والتزويه عما لا يليق بجلاله تعالى ﴿قَانِتُونَ﴾ مطيعون خاضعون من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿بَدِيعٌ﴾ البديع : المبدع من الإبداع، والإبداع : اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿قَضَى﴾ أراد وقدر ﴿بَشِيرًا﴾ البشير : المبشروهو المخبر بالأمر الصادق السار ﴿نَذِيرًا﴾ النذير : المنذر وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه ﴿الْجَحِيمُ﴾ المتأجج من النار ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ أي دينهم وجمعها ملل وأصل الملة : الطريقة المسلوكة ثم جعلت اسماً للشيعة التي أنزلها الله ﴿عَدْلٌ﴾ فداء .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُوتُونَ ﴿١١٧﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ

النفسير : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين فاليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله فأكذب الله الجميع في

وَالْأَرْضُ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى وَلَئِنْ أَتَبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ

دعواهم فقال ﴿سبحانه﴾ أي تقدس وتنزه عما زعموا تنزهاً بليغاً ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ بل للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزيز والمسيح والملائكة ﴿كل له قانتون﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيتته ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئاً وجد بلمح البصر ، فمراده نافذ وأمره لا يتخلف ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وقال الذين لا يعلمون ﴿المراد بهم جهلة المشركين وهم كفار قريش﴾ لولا يكلمنا الله ﴿أي هلاً يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله﴾ أو تأتينا آية ﴿أي تكون برهاناً وحجة على صدق نبوتك﴾ قالوا ذلك استكباراً وعناداً ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسولهم ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء وفي هذا تسلية له ﷺ ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين ، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشرعة النيرة والدين القويم بشيراً للمؤمنين بجنت النعيم ، ونذيراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي أنت لست مسئولاً عما لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم ﴿إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ أي لن ترضى عنك الطائفتان «اليهود والنصارى» حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾ أي ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿يتلونهُ حق تلاوته﴾ أي يقرءونه قراءة حق كما أنزل ﴿أولئك يؤمنون به﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقاً دون المعاندين المحرفين لكلام الله ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دنياه وآخرته ﴿يا بني إسرائيل

هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَذُنِّيْ اِسْرَءِيْلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّيْ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِيْنَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِيْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴿١٢١﴾ أي اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿١٢٢﴾ وأناي فضلتكم على العالمين ﴿١٢٣﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿١٢٤﴾ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئاً ، لأن كل نفس بما كسبت رهينة ﴿١٢٥﴾ ولا يقبل منها عدل ﴿١٢٦﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿١٢٧﴾ ولا تنفعها شفاعاة ﴿١٢٨﴾ أي لا تفيدها شفاعاة أحد لأنها كفرت بالله ﴿١٢٩﴾ فما تنفعهم شفاعاة الشافعين ﴿١٣٠﴾ ولا هم ينصرون ﴿١٣١﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه .

البلاغه : ١ - ﴿سبحانه﴾ جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد قال أبو السعود : وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من « السبح » ومن جهة النقل إلى التفعيل « التسبيح » ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى والمراد أنزهه تنزيهاً لاثقاً به ^(١) .

٢ - ﴿كل له قانتون﴾ صيغة جمع العقلاء في ﴿قانتون﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء ، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان .

٣ - التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة ﴿أصحاب الجحيم﴾ إيذاناً بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان .

٤ - إيراد الهدى معرفاً بأل في قوله ﴿هو الهدى﴾ مع اقترانه بضمير الفصل « هو » يفيد قصر الهداية على دين الله فهو من باب قصر الصفة على الموصوف فالإسلام هو الهدى كله وما عداه فهو هوى وعمى .

٥ - ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ هذا من باب التهيج والإلهاب .

تنبية : قال القرطبي : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي منشئها وموجدتها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع ، ومنه أصحاب البدع ، وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام وفي البخاري « نعمت البدعة هذه » يعني قيام رمضان . . ثم قال : وكل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ؟ فإن كان لها أصل فهي في حيز المدح ويعضده قول عمر « نعمت البدعة هذه » وإلا فهي في حيز الذم والإنكار وقد بين هذا الحديث الشريف (من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها . . ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها . .) ^(٢) .

قال الله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . إِلَى . . . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
من آية (١٢٤) إلى نهاية آية (١٢٩) .

المناسكة : بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل ، وبين كيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد ، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال ، وصل حديثهم بقصة إبراهيم أبي الأنبياء الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إليه ويقرّون بفضلله، ولو كانوا صادقين لوجب عليهم اتباع هذا النبي الكريم « محمد ﷺ » ودخولهم في دينه القويم لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم ، ثم هو من ولد اسماعيل عليه السلام فكان أولى بالاتباع والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة التي هي شريعة الخليل عليه السلام .

اللفت : ﴿ابتلى﴾ امتحن والابتلاء : الاختبار ﴿فأتمهن﴾ أتى بهن على التمام والكمال ﴿إماماً﴾ الإمام : القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال ﴿مثابة﴾ مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع أي أنهم يترددون إليه لا يقضون منه وطهرهم قال الشاعر :

جُعِلَ الْبَيْتُ مَثَاباً لَهُمْ لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرُ يَقْضُونَ الْوَطْرُ
﴿وأمناً﴾ الأمن : السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل ﴿وعهدنا﴾ أمرنا وأوحيانا ﴿للطائفين﴾ جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء ﴿والعاكفين﴾ جمع عاكف من العكوف وهي الإقامة على الشيء والملازمة له والمراد المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿فأتمعه﴾ من التمتع وهو إعطاء الإنسان ما ينتفع به ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ ﴿القواعد﴾ جمع قاعدة وهي الأساس ﴿مناسكنا﴾ جمع منسك وهي العبادة والطاعة ﴿الحكمة﴾ العلم النافع المصحوب بالعمل والمراد بها السنة النبوية المطهرة ﴿ويزكيهم﴾ من التزكية وهي في الأصل التنمية يقال : زكى الزرع إذا نما ثم استعملت في معنى الطهارة النفسية قال تعالى ﴿قد أفلح من زكّاه﴾ .

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

التفسير : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي اذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل ، وكلّفه بجملة من التكاليف الشرعية « أوامر ونواهي » فقام بهن خير قيام ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس ومناراً يهتدي بك الخلق ﴿قال ومن ذريتي﴾ أي قال إبراهيم واجعل يا رب أيضاً أئمة من ذريتي ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ أي لا ينال هذا الفضل العظيم أحد من الكافرين ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي واذكر حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعاً للناس يقبلون عليه من كل جانب ﴿وأمناً﴾ أي مكان آمن يأمن من لجأ إليه، وذلك لما أودع الله في قلوب

وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
 بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ
 أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا
 تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا
 وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

العرب من تعظيمه وإجلاله ﴿١٢٥﴾ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى ﴿١٢٦﴾ أي وقلنا للناس اتخذوا من المقام - وهو
 الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلًى أي صلوا عنده ﴿١٢٧﴾ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿١٢٨﴾
 أي أوصينا وأمرنا إبراهيم وولده إسماعيل ﴿١٢٩﴾ أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴿١٣٠﴾ أي أمرناهما
 بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان ليكون معقلاً للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه ،
 فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام : الطائفين ، والمعتكفين ، والمصلين . . ثم أخبر تعالى عن
 دعوة الخليل إبراهيم فقال ﴿١٣١﴾ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴿١٣٢﴾ أي اجعل هذا المكان - والمراد مكة
 المكرمة - بلداً ذا أمن يكون أهله في أمن واستقرار ﴿١٣٣﴾ وارضق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم
 الآخر ﴿١٣٤﴾ أي وارضق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات ، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا
 لعبادتك وخص بدعوته المؤمنين فقط قال تعالى جواباً له ﴿١٣٥﴾ قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ﴿١٣٦﴾ أي قال الله وأرزق من
 كفر أيضاً كما أرزق المؤمن ، أخلق خلقاً ثم لا أرزقهم ؟ أما الكافر فأمتعه في الدنيا متاعاً قليلاً وذلك مدة
 حياته فيها ﴿١٣٧﴾ ثم اضطره إلى عذاب النار ﴿١٣٨﴾ أي ثم ألجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار فلا يجد عنها محيصاً
 ﴿١٣٩﴾ وبئس المصير ﴿١٤٠﴾ أي وبئس المال والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم . قاس الخليل الرزق على
 الإمامة فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من
 المؤمنين ، ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق ﴿١٤١﴾ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت
 وإسماعيل ﴿١٤٢﴾ أي واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب وهو رفع الرسولين العظيمين « إبراهيم وإسماعيل »
 قواعد البيت وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه وهما يقولان بخضوع وإجلال ﴿١٤٣﴾ ربنا تقبل منا إنك أنت
 السميع العليم ﴿١٤٤﴾ أي ينيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين يا ربنا تقبل منا أي إقبل منا عملنا هذا
 واجعله خالصاً لوجهك الكريم فإنك أنت السميع لدعائنا العليم بنياتنا ﴿١٤٥﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴿١٤٦﴾ أي
 اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ﴿١٤٧﴾ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴿١٤٨﴾ أي واجعل من ذريتنا من يسلم
 وجهه لك ويخضع لعظمتك ﴿١٤٩﴾ وأرنا مناسكنا ﴿١٥٠﴾ أي وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا ﴿١٥١﴾ وتب علينا

إنك أنت التواب الرحيم ﴿أي تب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة﴾ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴿أي ابعث في الأمة المسلمة رسولا من أنفسهم وهذا من جملة دعواتها المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ﴾ يتلو عليهم آياتك ﴿أي يقرأ آيات القرآن﴾ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴿أي يعلمهم القرآن العظيم والسنة المطهرة﴾ ويزكيهم ﴿أي يطهرهم من رجس الشرك﴾ إنك أنت العزيز الحكيم ﴿العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

البالغة : ١ - التعرض لعنوان الربوبية ﴿ابتلى إبراهيم ربّه﴾ تشريف له عليه السلام وإيدان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير ، والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه بأوامر ونواهي يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى .

٢ - إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله ﴿وأمنّا﴾ للمبالغة والإسناد مجازي أي آمناً من دخله كقوله تعالى ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وخيراً ما فسرت بالوارد .

٣ - إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿وطهرّ بيتي﴾ للتشريف والتعظيم .

٤ - قوله تعالى ﴿وإذ يرفع إبراهيم﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي ولذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبناء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال أبو السعود : وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة^(١) .

٥ - ﴿التواب الرحيم﴾ صيغتان من صيغ المبالغة لأن فعال وفعيل من صيغ المبالغة .

الفوائد : الفائدة الأولى : تقديم المفعول في قوله ﴿ابتلى إبراهيم ربّه﴾ واجب لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول ، فلو قدّم الفاعل لزم عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة قال ابن مالك :

وشاع نحو خاف ربّه عمر وشذّ نحو زان نورهُ الشجر

الثانية : الاختبار في الأصل الامتحان بالشيء ليعلم صدق ذلك الشخص أو كذبه وهو مستحيل على الله لأنه عالم بذلك قبل الاختبار ، فالمراد أنه عامله معاملة المختبر ليظهر ذلك للخلق .

الثالثة : اختلف المفسرون في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام وأصح هذه الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال : « الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فآتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجة نمرود في الله ، وصبره على قذفهم إياه في النار ليجرقوه ، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم ، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه »^(٢) .

الرابعة : المراد من الإمامة في الآية الكريمة «الإمامة في الدين» وهي النبوة التي حرمها الظالمون ، ولو كانت الإمامة الدنيوية لخالف ذلك الواقع إذ نالها كثير من الظالمين ، فظهر أن المراد الإمامة في الدين خاصة .

الخامسة : ذكر العلامة ابن القيم أن السرّ في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأئمة ، وهوى القلوب ومحبتها له ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد ، فهم يثوبون إليه من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطراً ، بل كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا له اشتياقاً .

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً^(١)

قال الله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . . إلى . . ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾

من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٣٤)

المناسبة : لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام ، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد ، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشرّكين ، وأكد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي ، خفيف العقل ، متبع لخطوات الشيطان .

اللفظ : ﴿سفه نفسه﴾ امتنها واستخفّ بها وأصل السفه : الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف ﴿اصطفيناه﴾ أي جعلناه صافياً من الأدناس مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفأوه بالرسالة والخلّة والإمامة العظمى ﴿وصّى﴾ التوصية : إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة ﴿شهداء﴾ جمع شاهد أي حاضر ﴿خلت﴾ مضت وانقرضت .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

النفسير : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء إلا من استخفّ نفسه وامتنها ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿إذ قال له ربّه أسلم﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلص نفسك له ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعت لحكمه ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ أي وصّى الخليل أبناءه باتباع

يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٤﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٥﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾

ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿يا بنيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ أي اختار لكم دين الإسلام ديناً وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ ؟ أي أي شيء تعبدونه بعدي ؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً﴾ أي لا نعبد إلا إلهاً واحداً هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون ، والغرض تحقيق البراءة من الشرك ، قال تعالى مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفس تتحمل وحدها تبعه ما اكتسبت من سوء .

البلاغه : ١ - ﴿ومن يرغب﴾ استفهام يراد به الإنكار والتفريع ، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفیهة والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين .

٢ - التأكيد بـ « إِنَّ » و « اللام » ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ لأنه لما كان إخباراً عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى تأكيد بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد .

٣ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ﴾ هو من باب الالتفات إذ السياق ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ والالتفات من محاسن البيان ، والتعرض بعنوان الربوبية ﴿رَبُّهُ﴾ لإظهار مزيد اللطف والإعتناء بتربيته كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال ﴿أَسْلَمْتُ لرب العالمين﴾ ولم يقل : أسلمت لك للإيذان بكمال قوة إسلامه وللإشارة إلى أن من كان رباً للعالمين لا يليق إلا أن يتلقى أمره بالخضوع وحسن الطاعة .

٤ - قوله ﴿آبَائِكَ﴾ شمل العم والأب والجد ، فالجد إبراهيم والعم إسماعيل والأب إسحاق وهو من باب « التغليب » وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام .

فائدة : قال أبو حيان : « كُنِيَ بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً ، وفي قوله ﴿حضر الموت﴾ كناية غريبة وهو أنه غائب ولا بد أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء : واجعل الموت خيراً غائب تنتظره » (١) .

تنبيه : ظاهر قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ النهي عن الموت إلا على هذه الحالة من الإسلام ، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت ، أي فاثبتوا على الإسلام ولا تفارقوه أبداً واستقيموا على محجته البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل كقولك لا تصل إلا وأنت خاشع .

قال الله تعالى : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا .. إلى .. ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾
من آية (١٣٥) إلى نهاية آية (١٤١) .

المناسكة : لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة ، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة ، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية ، ويّين أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد ، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين .

اللفظة : ﴿حنيفاً﴾ الحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ، والحنف الميل وبه سمي الأحنف لميل في إحدى قدميه قال الشاعر :

ولكنّا خلّقنا إذ خلّقنا حنيفاً ديننا عن كل دين^(١)
﴿الأسباط﴾ جمع سبط وهم حفدة يعقوب أي ذريات أبنائه وكانوا اثني عشر سبطاً وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿شقاق﴾ الشقاق : المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق وهذا في شق ﴿فسيكفيكم﴾ من الكفاية بمعنى الوقاية ﴿صبغة الله﴾ الصبغة مأخوذة من الصبغ وهو تغيير الشيء بلون من الألوان والمراد بها الدين ﴿أتجادلوننا﴾ أتجادلوننا من المحاجة وهي المجادلة ﴿مخلصون﴾ الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده .

وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا

التفسير : ﴿وقالوا كانوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ أي قال اليهود كونوا على ملتنا يهوداً تهتدوا وقال النصارى كونوا نصارى تهتدوا فكل من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي قل لهم يا محمد بل نتبع ملة الحنيفية السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم وما كان إبراهيم من المشركين بل كان مؤمناً موحداً وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيدان بأن ما هم عليه إنما هو شرك وضلال . ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ أي قولوا أيها

بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٢٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٢٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾

المؤمنون آمنوا بالله وما أنزل إلينا من القرآن العظيم ﴿١﴾ وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴿٢﴾ أي وآمنوا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم ﴿٣﴾ وما أوتي موسى وعيسى ﴿٤﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿٥﴾ وما أوتي النبيون من ربهم ﴿٦﴾ أي ونؤ من بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً ونصدق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ﴿٧﴾ لا نفرق بين أحد منهم ﴿٨﴾ أي لا نؤ من بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى ﴿٩﴾ ونحن له مسلمون ﴿١٠﴾ أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه ﴿١١﴾ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴿١٢﴾ أي إن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم ﴿١٣﴾ وإن تولوا فإنما هم في شقاق ﴿١٤﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك ، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿١٥﴾ فسيفيكهم الله ﴿١٦﴾ أي سيفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم ﴿١٧﴾ وهو السميع العليم ﴿١٨﴾ أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر ﴿١٩﴾ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴿٢٠﴾ أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب ، ولا أحد أحسن من الله صبغة أي ديناً ﴿٢١﴾ ونحن له عابدون ﴿٢٢﴾ أي ونحن نعبده جل وعلا ولا نعبد أحداً سواه ﴿٢٣﴾ قل أتُحاجوننا في الله ﴿٢٤﴾ أي أتجادلوننا في شأن الله زاعمين أنكم أبناء الله وأحبائوه ، وأن الأنبياء منكم دون غيركم ؟ ﴿٢٥﴾ وهو ربنا وربكم ﴿٢٦﴾ أي رب الجميع على السواء وكلنا عبيده ﴿٢٧﴾ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴿٢٨﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره ﴿٢٩﴾ ونحن له مخلصون ﴿٣٠﴾ أي قد أخلصنا الدين والعمل لله ﴿٣١﴾ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴿٣٢﴾ أي أم تدعون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى ﴿٣٣﴾ قل

أأنتم أعلم أم الله ﴿١﴾ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ؟ وقد شهد الله لهم بجملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية ﴿٢﴾ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴿٣﴾ فكيف تزعمون أنهم على دينكم ؟ ﴿٤﴾ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴿٥﴾ أي لا أحد أظلم ممن أخفى وكنم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما أخبر الباري عنه من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام ﴿٦﴾ وما الله بغافل عما تعملون ﴿٧﴾ أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها وفيه وعيد شديد ﴿٨﴾ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴿٩﴾ كررها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، أي إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلالة قدرهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ، وقد تقدم تفسيرها فأعنى عن الإعادة .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿١﴾ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى ﴿٢﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قال اليهود كونوا يهوداً وقال النصارى كونوا نصارى ، وليس المعنى أن الفريقين قالوا ذلك لأن كل فريق يعدُّ دين الآخر باطلاً .

٢ - ﴿٣﴾ فسيفيكهم الله ﴿٤﴾ فيه إيجاز ظاهر أي يكفيك الله شرهم ، وتصدير الفعل بالسین دون سوف مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب .

٣ - ﴿٥﴾ السميع العليم ﴿٦﴾ من صيغ المبالغة ومعناه الذي أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء .

٤ - ﴿٧﴾ صبغة الله ﴿٨﴾ سمي الدين صبغةً بطريق الاستعارة حيث تظهر سمته على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب^(١) .

٥ - ﴿٩﴾ أتجادلوننا في الله ﴿١٠﴾ الاستفهام وارد على جهة التوبيخ والتقرير .

الفَوَائِد : الفائدة الأولى : تكرر ورود هذه الآية في مواطن من القرآن ﴿١﴾ وما الله بغافل عما تعملون ﴿٢﴾ قال أبو حيان : ولا تأتي الجملة إلا عقب ارتكاب معصية فتجيء متضمنة وعيداً ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى^(٣) .

الثانية : قال ابن عباس : إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام صبغوه في ماءٍ لهم يقال له : المعمود ليظهره بذلك ، ويقولون هذا ظهور مكان الختان فإذا فعلوا ذلك صار نصرانياً حقاً فأنزل الله هذه الآية^(٣) .

الثالثة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا) رواه البخاري .

قال الله تعالى : ﴿سيقول السفهاء من الناس . . إلى . . وما الله بغافل عما يعملون﴾

من آية (١٤٤) إلى نهاية آية (١٤٥).

المناسكة : زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهوداً و نصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس وكان صلوات الله عليه وهو بمكة يستقبل بيت المقدس فلما أمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام وقالوا : لقد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دين قومه ، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ولقّنه الحجة الدامغة ليردّ عليهم ، ويوطّن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه ، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له عليه السلام .

اللغة : ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ضعيف الرأي ، قليل المعرفة بالمنافع والمضار ، وأصل السفه الخفة والرقّة من قولهم ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج ﴿ولآهم﴾ صرفهم يقال : ولّى عن الشيء وتولّى عنه أي انصرف ﴿وسطاً﴾ قال الطبري : الوسط في كلام العرب : الخيار وقيل : العدل^(١) ، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان ﴿عقبه﴾ تشية عقب وهو مؤخر القدم ﴿كبيرة﴾ شاقة وثقيلة ﴿شطر﴾ الشطر في اللغة يأتي بمعنى الجهة كقول الشاعر : تعدو بنا شطر نجد وهي عاقدة ، ويأتي بمعنى النصف ومنه الحديث (الطهور شطر الإيمان) .

سبب النزول : عن البراء قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة فأنزل الله تعالى ﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء﴾ الآية فقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولآهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قال تعالى ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾^(٢) إلى آخر الآية ، أخرجه البخاري .

* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٤﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

النفسير : ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من الناس ﴿ما ولآهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ أي ما صرفهم وحوّهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس ، قبلة المرسلين من قبلهم ؟ ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ أي قل لهم يا محمد الجهات كلها لله له المشرق والمغرب فأينما ولينا وجوهنا فهناك وجه الله ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خياراً ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٦﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

شهِيداً أَي لَتَشْهَدُوا عَلَى الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ رَسَلَهُمْ بَلَّغْتَهُمْ ، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ أي إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدق الرسول ، ممن يشكك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ﴿وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾ أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلا على الذين هداهم الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي ما صح ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها ، وذلك حين سأله ﷺ عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت ، وقوله تعالى ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ تعليل للحكم أي أنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ كثيراً ما رأينا تردّد بصرك يا محمد جهة السماء تشوقاً لتحويل القبلة ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ أي فلنوجهنك إلى قبلة تحبها ، - وهي الكعبة - قبلة أبيك إبراهيم ﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حق من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها ، وفيه وعيد وتهديد لهم .

الْبَلَاغَةُ : ١ - في قوله ﴿ينقلب على عقبيه﴾ استعارة تمثيلية حيث مثل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه أفاده الإمام الفخر .

٢ - ﴿لرءوف رحيم﴾ الرأفة : شدة الرحمة وقدم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله ﴿صراط مستقيم﴾ وقوله ﴿رءوف رحيم﴾ وكلاهما من صيغ المبالغة .

٣ - ﴿فولّ وجهك﴾ أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله ﴿ويبقى وجه ربك﴾ وهذا النوع يسمى «المجاز المرسل» من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

الفوائد : الأولى : أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : (يُدعى نوح عليه

السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب فيقول : هل بلغت ؟ فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ما جاءنا من نذير فيقول من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ فذلك قوله عز وجل ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ .

الثانية : سمي الله تعالى الصلاة « إيماناً » في قوله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتم إلا بها ، ولأنها تشتمل على نية وقول وعمل .

الثالثة : في التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين ، لأن في إصابة عين الكعبة من البعيد حرجاً عظيماً على الناس .

قال الله تعالى : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك . . إلى . . ولعلكم تهتدون﴾ من آية (١٤٥) إلى نهاية آية (١٥٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة ، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق ، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم ، فإنهم ما تركوا قبلتك لشبهة عارضة تزيلها الحجة ، وإنما خالفوك عناداً واستكباراً ، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب .

اللفظ : ﴿آية﴾ الآية : الحجة والعلامة ﴿أهواءهم﴾ جمع هوى مقصور ، وهوى النفس : ما تحبه وتميل إليه ﴿الممتريين﴾ المتراء : الشك ، امتري في الشيء شك فيه ومنه المراء والمرية ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي شك ﴿وجهة﴾ قال الفراء : وجهة وجهة ووجه بمعنى واحد والمراد بها القبلة ﴿هو مولئها﴾ أي هو مولئها وجهه فاستغنى عن ذكر الوجه قال الفراء : أي مستقبلها ﴿فاستبقوا﴾ أي بادروا وسارعوا ﴿الخيرات﴾ الأعمال الصالحة جمع خيرة ﴿تحشوهم﴾ تخافوهم والخشية : الخوف .

وَلِئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ

النفسي : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ أي والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلوا إلى قبلتك ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حولك الله عنها ، وهذا لقطع أطماهم الفارغة حيث قالت اليهود : لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريراً له عليه السلام ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود ، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من

وَلِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَخِفُّوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

بعد ما جاءك من العلم ﴿١٤٥﴾ أي ولئن فرض وقدر أنك سايرتهم على أهوائهم ، واتبع ما يهونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ﴿١٤٦﴾ إنك إذا لمن الظالمين ﴿١٤٧﴾ أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم ، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلا فحاشاهم من اتباع أهواء الكفرة المجرمين ، وهو من باب التهيج للثبات على الحق . ﴿١٤٨﴾ الذين آتيناهم الكتاب ﴿١٤٩﴾ أي اليهود والنصارى ﴿١٥٠﴾ يعرفونه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ أي يعرفون محمداً معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين ﴿١٤٦﴾ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿١٤٧﴾ أي وإن جماعة منهم - وهم رؤساؤهم وأخبارهم - ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت ﴿١٤٨﴾ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿١٤٩﴾ فهم يكتُمون أوصافه عن علم وعرفان ﴿١٥٠﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴿١٤٥﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكونن من الشاكين ، والخطاب للرسول والمراد أمته ﴿١٤٦﴾ ولكل وجهه هو موليها فاستبقوا الخيرات ﴿١٤٧﴾ أي لكل أمة من الأمم قبله هو موليها وجهه أي مائل إليها بوجهه فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات ﴿١٤٨﴾ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ﴿١٤٩﴾ أي في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قُلل الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل ﴿١٥٠﴾ إن الله على كل شيء قدير ﴿١٤٥﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم ﴿١٤٦﴾ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴿١٤٧﴾ أي من أي مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة ﴿١٤٨﴾ وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ﴿١٤٩﴾ تقدم تفسيره وكرره لبيان تساوي حكم السفر والحضر ﴿١٥٠﴾ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴿١٤٥﴾ هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة ، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية ، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة قال تعالى ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ أي عرفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا : يحدد ديننا ويتبع قبلتنا

فتكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين : يدعي محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشوني﴾ أي إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ تعليل فلا تحافوهم وخافوني ﴿ولأنتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ أي أتمّ فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين .

البَلَاغَةُ : ١ - وضع اسم الموصول موضع الضمير في قوله ﴿أوتوا الكتاب﴾ للإيدان بكمال سوء حالهم من العناد .

٢ - ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ هذا من باب التهيج والإلهاب للثبات على الحق .

٣ - ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله ﴿ما تبعوا قبلك﴾ لأنها جملة اسمية أولاً ولتأكيد نفيها بالباء ثانياً ذكره صاحب الفتوحات الإلهية .

٤ - ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ فيه تشبيه « مرسل مفصل » أي يعرفون محمداً معرفة واضحة كمعرفة أبنائهم الذين من أصلابهم .

الفَوَائِد : الأولى : روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ولست أشك فيه أنه نبي ، وأما ولدي فلا أدري ما كان من أمه فلعلها خانت ، فقبل عمر رأسه^(١) .

الثانية : توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم ، ولهذا زاد الله في ذم أهل الكتاب بقوله ﴿وهم يعلمون﴾ فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهل كمن يرتكبه عن علم .

الثالثة : تكرر الأمر باستقبال الكعبة ثلاث مرات قال القرطبي : والحكمة في هذا التكرار أن الأول لمن هو بمكة ، والثاني لمن هو ببقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم . . إلى . . وأولئك هم المهتدون﴾
من آية (١٥١) إلى نهاية آية (١٥٧) .

المناسكة : بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين ، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم ، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ ، بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل ، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران فيما يزيد على ثلث السورة الكريمة ، وقد عدّد القرآن الكريم جرائمهم ليعتبر ويتعظ بها المؤمنون ، ولما انتهى الحديث عن اليهود بعد ذلك البيان الواضح جاء

(١) مختصر ابن كثير ١/ ١٤٠ . وحاسن التأويل ٢/ ٣٠٥ . (٢) القرطبي ٢/ ١٦٨ .

دور التذكير للمؤمنين بالنعم الجليلة والتشريعات الحكيمة التي بها سعادتهم في الدارين .

اللفظ : ﴿الكتاب﴾ القرآن العظيم ﴿الحكمة﴾ السنة النبوية ﴿فاذكروني﴾ أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور ، وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه علامة على الذكر القلبي ﴿ولنبلونكم﴾ أصل البلاء المحنة ، ثم قد يكون بالخير أو بالشر ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ ﴿مصيبة﴾ المصيبة : كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده ﴿صلوات﴾ الأصل في الصلاة الدعاء وهي من الله بمعنى الرحمة ومن الملائكة بمعنى الاستغفار .

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٦﴾ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٩﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٠﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦١﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٦٢﴾

النفسي : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ الكلام متعلق بما سبق في قوله ﴿ولأنتم نعمتي﴾ والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم ﴿يتلوا عليكم آياتنا﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿ويزكيكم﴾ أي يطهركم من الشرك وقيح الفعاليات ويعلمكم الكتاب والحكمة أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد ، والسنة النبوية المطهرة ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه ﴿فاذكروني أذكركم﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ﴿واشكروا لي ولا تكفروني﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان ، روي أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : «تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني»^(١) ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستنهضهم إلى امثال الأوامر الإلهية ، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصلاة ، فبالصبر تتألون كل فضيلة ، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إن الله مع الصابرين﴾ أي معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾ أي لا تقولوا للشهداء إنهم

أموات ﴿بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ أي بل هم أحياء عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك لأنهم في حياة برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ أي ولنختبرنكم بشيء يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع ، وذهاب بعض الأموال ، وموت بعض الأحباب ، وضياح بعض الزروع والثمار ﴿وبشر الصابرين﴾ أي بشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنت النعيم ثم بين تعالى تعريف الصابرين بقوله ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد لله يفعل بهم ما يشاء ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله ، وهم المهتدون إلى طريق السعادة .

البَلَاغَةُ : ١ - بين كلمتي ﴿أرسلنا﴾ و﴿رسولاً﴾ جناس الاشتقاق وهو من المحسنات البديعية .

٢ - قوله ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ بعد قوله ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ويسمى هذا في البلاغة بـ (الإطناب) .

٣ - ﴿أموات بل أحياء﴾ فيه إيجاز بالحذف أي لا تقولوا هم أموات بل هم أحياء (وبينهما طباق)
٤ - التكرير في قوله ﴿بشيء من الخوف﴾ للتقليل أي شيء قليل .

٥ - ﴿صلوات من ربهم ورحمة﴾ التنوين فيهما للتفخيم ، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿ربهم﴾ لإظهار مزيد العناية بهم .

٦ - ﴿هم المهتدون﴾ صيغة قصر وهو من نوع قصر الصفة على الموصوف .

الفَوَائِد : الأولى : روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم : الأولى : أنها لم تكن في ديني ، الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت ، الثالثة : أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير ثم تلا قوله تعالى : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ .»

الثانية : قال ﷺ (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون نعم ، فيقول : فماذا قال عبدي ؟ فيقولون حمداً واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد) .^(١)

قال الله تعالى : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله . . . إلى . . . ولا هم ينظرون﴾
من آية (١٥٨) إلى نهاية آية (١٦٢) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، أعقب ذلك ببيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله ، ثم نبّه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمان ، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار .

اللُّغَةُ : ﴿شعائر الله﴾ جمع شعيرة وهي في اللغة : العلامة ومنه الشُّعار ، وأشعر الهدي جعل له علامة ليعرف بها ، والشعائر : كل ما تعبدنا الله به من أمور الدين كالطواف والسعي والأذان ونحوه .
 ﴿حَجٌّ﴾ الحج في اللغة : القصد ، وفي الشرع : قصد البيت العتيق لأداء المناسك من الطواف والسعي
 ﴿اعتمر﴾ العمرة في اللغة : الزيارة ثم صار علماً لزيارة البيت للنسك ﴿جُنَاحٌ﴾ الجُنَاح : الميل إلى الإثم وقيل : هو الإثم نفسه سمي به لأنه ميل إلى الباطل يقال : جنح إلى كذا إذا مال قال ابن الأثير وأينما ورد فمعناه الإثم والميل ﴿يَكْتُمُونَ﴾ الكتمان : الإخفاء والستر ﴿يُنْظُرُونَ﴾ يُمهلون .

إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ط فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكَ أَتُوبُ

النَّفْسِيرُ : ﴿إن الصفا والمروة﴾ اسم جبلين بمقربة من البيت الحرام ﴿من شعائر الله﴾ أي من أعلام دينه ومناسكه التي تعبدنا الله بها ﴿فمن حج البيت أو اعتمر﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين «الحج» أو «العمرة» ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما ، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام ، فاسعوا أنتم لله رب العالمين ، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿ومن تطوع خيراً﴾ أي من تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه ، أو فعل خيراً فرضاً كان أو نفلاً ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ أي إنه سبحانه شاكراً له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء ، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ أي يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿من بعد ما بيناه للناس في الكتاب﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله تعالى ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ أي أولئك الموصوفون بقبیح الأعمال ، الكاتمون لأوصاف الرسول ، المحرفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيَّننا فأولئك أتوب عليهم﴾ أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا ، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان ، وبيَّنوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿وأنا

عَلَيْهِمْ وَأَنَا آتِيَابُ الرَّحِيمِ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٨﴾

التواب الرحيم ﴿١٦٦﴾ أي كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿١٦٧﴾ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴿١٦٨﴾ أي كفروا بالله واستمروا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿١٦٩﴾ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴿١٧٠﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿١٧١﴾ خالدين فيها ﴿١٧٢﴾ أي خالدين في النار - وفي إضمارها تفخيم لشأنها - ﴿١٧٣﴾ لا يخفف عنهم العذاب ﴿١٧٤﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يخف عنهم طرفه عين ﴿١٧٥﴾ لا يُقَرَّر عنهم وهم فيه مبلسون ﴿١٧٦﴾ ولا هم يُنْظَرُونَ ﴿١٧٧﴾ أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿١٦٨﴾ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴿١٦٩﴾ .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿١٦٨﴾ من شعائر الله ﴿١٦٩﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف .

٢ - ﴿١٦٨﴾ شاعر عليهم ﴿١٦٩﴾ أي يثيب على الطاعة قال أبو السعود : عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز .

٣ - ﴿١٦٨﴾ يلعنهم الله ﴿١٦٩﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل « نلعنهم » ولكن في إظهار الاسم الجليل ﴿١٦٨﴾ يلعنهم الله ﴿١٦٩﴾ إلقاء الروعة والمهابة في القلب .

٤ - ﴿١٦٨﴾ يلعنهم اللاعنون ﴿١٦٩﴾ فيه جناس الاشتقاق . وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿١٦٨﴾ خالدين فيها ﴿١٦٩﴾ أي في اللعنة أو في النار وأضمرت النار تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها .

٦ - ﴿١٦٨﴾ ولا هم ينظرون ﴿١٦٩﴾ إثارة الجملة الإسمية لإفادة دوام النفي واستمراره .

الفَوَائِد : الأولى : كان على الصفا صنم يقال له « إساف » وعلى المروة صنم يقال له « نائلة » فكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما فخشي المسلمون أن يتشبهوا بأهل الجاهلية ولذلك تخرجوا من الطواف لهذا السبب فنزلت الآية تبين أنهما من شعائر الله وأنه لا حرج عليهم في السعي بينهما فالمسلمون يسعون لله لا للأصنام .

الثانية : الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان ، وهذا المعنى محال على الله إذ ليس

لأحد عنده يدٌ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حمّله العلماء على الثواب والجزاء أي أنه تعالى يشيئه ولا يضيع أجر العاملين أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شكر يليق بجلاله وكماله.

قال الله تعالى : ﴿وإلّٰهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . . . إلى . . . وما هم بخارجين من النار﴾
من آية (١٦٣) إلى نهاية (١٦٧).

المناسكة : لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، ذكر هنا أدلة القدرة والوحدانية ، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم ، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم بالعالم السفلي ، ثم بتعاقب الليل والنهار ، ثم بالسفن التي تمخر عباب البحار ، ثم بالمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس ، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة ، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان وختم ذلك بالأمر بالتفكير في بدائع صنع الله ، وإعمال العقل في جميل خلقه ، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر ، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبّر الحكيم .

اللغة : ﴿وإلّٰهكم﴾ الإله : المعبود بحقٍ أو باطل والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ﴿الفُلْكَ﴾ ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع ﴿وبث﴾ فرّق ونشر ومنه ﴿كالفراش المبعوث﴾ ﴿دابة﴾ الدابة في اللغة : كل ما يدب على الأرض من إنسانٍ وحيوان مأخوذ من الدبيب وهو المشي رويداً وقد خصّه العرف بالحيوان ، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾ فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان ﴿تصريف الرياح﴾ الرياح : جمع ريح وهي نسيم الهواء ، وتصريفها تقلبيها في الجهات ونقلها من حال إلى حال ، فتهب حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وملقحة للنبات وعقياً ﴿المسخر﴾ من التسخير وهو التذليل والتيسير ﴿أنداداً﴾ جمع ندّ وهو المماثل والمراد بها الأوثان والأصنام ﴿الأسباب﴾ جمع سبب وأصله الحبل والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصدقة ﴿كرة﴾ الكرة : الرجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها ﴿حسرات﴾ جمع حسرة وهي أشد الندم على شيء فائت وفي التنزيل ﴿أن تقول نفسُ يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ .

سبب النزول : عن عطاء قال : أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿وإلّٰهكم إله واحد﴾ فقالت كفار قريش بمكة كيف يسعُ النَّاسُ إله واحد ؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . إلى قوله لآيات لقومٍ يعقلون﴾^(١) .

وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

التفسير : ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحد ، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا مولي النعم ومصدر الإحسان ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن في إبداع السموات والأرض بما فيها من عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي تعاقبها بنظام محكم ، يأتي الليل فيعقبه النهار ، وينسلخ النهار فيعقبه الليل ، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرة بالأثقال ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار ، بعد أن كانت يابسة مجذبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب ، المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي تقلب الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً ، حارة وباردة ، وليّنة وعاصفة ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي السحاب المذلّل بقدرة الله ، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبّه على الأرض قطرات قطرات ، قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض ^(١) ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك ، وتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم . ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أنداداً أي رؤساء وأصناماً ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي حب المؤمنين لله أشدّ من حب المشركين للأنداد ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعدّ لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي وأنّ عذاب الله شديد أليم وجواب

إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

« لو » محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ أي تبرأ الرؤساء من الأتباع ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودات ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم ﴾ أي تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل ﴿ كما تبرءوا منا ﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب . . قال تعالى ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أي أنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار ، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ ورد الخبر خالياً من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر ، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع .

٢ - ﴿ الآيات ﴾ التنكير في آيات للتفخيم أي آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة وحكمة باهرة .

٣ - ﴿ كحب الله ﴾ فيه تشبيه (مرسل مجمل) حيث ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .

٤ - ﴿ أشد حبا لله ﴾ التصريح بالأشدية أبلغ من أن يقال « أحب لله » كقوله ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ مع صحة أن يقال : أو أقى .

٥ - ﴿ ولو يرى الذين ظلموا ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ﴿ ولو يرون ﴾ لإحضار الصورة في ذهن السامع وتسجيل السبب في العذاب الشديد وهو الظلم الفادح .

٦ - في قوله ﴿ رأوا العذاب ﴾ و ﴿ تقطعت بهم الأسباب ﴾ من علم البديع ما يسمى بـ « الترصيع » وهو أن يكون الكلام مسجوعاً .

٧ - ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ الجملة إسمية وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود .

الفوائد : الأولى : ذكر تعالى في الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع تنبهاً على ما فيها من العبر واستدلالاً على الوحدةانية من الأثر، الأول : خلق السموات وما فيها من الكواكب والشمس والقمر، الثاني : الأرض وما فيها من جبال وبحار وأشجار وأنهار ومعادن وجواهر، الثالث : اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان، الرابع : السفن العظيمة كأنها الراسيات من الجبال وهي موقرة

بالأثقال والرجال تجري بها الرياح مقبلة ومدمرة، الخامس : المطر الذي جعله الله سبباً لحياة الموجودات من حيوان ونبات وإنزاله بمقدار، السادس : ما بث في الأرض من إنسان وحيوان مع اختلاف الصور والأشكال والألوان، السابع : تصريف الرياح والهواء جسم لطيف وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الصخر والشجر ويخرب البنيان العظيم وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفه عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض، الثامن : السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية الكبيرة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده فسبحان الواحد القهار .

الثانية : ورد لفظ الرياح في القرآن مفردة ومجموعة ، فجاءت مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب كقوله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ وقوله ﴿وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ وجاءت مفردة في العذاب كقوله ﴿بريح صرصر عاتية﴾ وقوله ﴿الريح العقيم﴾ وروى أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً . . إلى . . لفي شقاقٍ بعيد﴾ من آية (١٦٨) إلى نهاية آية (١٧٦) .

المناسكة : لما بين تعالى التوحيد ودلائله ، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين ، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن ، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام ، لأنه تعالى رب العالمين ، فأحسنه عام لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر وبر وفاجر ، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جلّ وعلا والأكل من الطيبات التي أباحها الله ، واجتناب ما حرّمه الله من أنواع الخبائث .

اللفظ : ﴿خطوات الشيطان﴾ جمع خطوة وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار ﴿السوء﴾ أصل السوء ما يسوء الإنسان أي يحزنه ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً لأنها تسوء صاحبها أي تحزنه في الحال أو المال ﴿الفحشاء﴾ ما يستعظم ويستفحش من المعاصي فهي أقبح أنواع المعاصي ﴿ألفينا﴾ وجدنا ومنه ﴿وألفيا سيدها﴾ ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين﴾ أي وجدوا ﴿ينعق﴾ يصيح يقال : نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقاً إذا صاح بها وزجرها قال الأخطل :

فانعق بضأنك يا جريرُ فإنما متّك نفسك في الخلاء ضلالاً

﴿أهل﴾ الإهلال : رفع الصوت يقال : أهل المحرم إذا رفع صوته بالتلبية ومنه إهلال الصبي وهو صياحه عند الولادة ، وكان المشركون إذا ذبحوا ذكروا اللات والعزى ورفعوا بذلك أصواتهم ﴿اضطّر﴾ ألجى أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات ﴿باغٍ ولا عادٍ﴾ الباغي من البغي والعادي من العدوان ، وهما بمعنى الظلم وتجاوز الحد ﴿يزكّهم﴾ يطهرهم من التزكية وهي التطهير ﴿شقاق﴾ الشقاق : الخلاف والعداوة .

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا
عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا
لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكْرٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ

التفسير : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطاباً في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تنهى في القبح من الرذائل ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرم عليكم فتحلوا وتحرموا من تلقاء أنفسكم ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ أي وإذا قيل للمشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قالوا بل نتبع ما أفينا عليه آباءنا﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى في الرد عليهم ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي أتيتعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء ، ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الوضوح والجلاء فقال تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ أي ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد ، أو تدرك المعنى الذي يقال لها ، فهو لاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون ، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الأذان ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ ولهذا قال تعالى ﴿صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ أي صمٌ عن سماع الحق ، بكم أي خرسٌ عن النطق به عمي عن رؤيته فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب فهم في ضلالهم يتخبطون . وخلاصة المثل - والله أعلم - مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى وهو خلاصة قول ابن عباس ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي واشكروا الله على نعمته التي لا تحصى إن كنتم تحصونه بالعبادة ولا تعبدون

أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا
يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴿١٧٥﴾ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى
النَّارِ ﴿١٧٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٧﴾ *

أحداً سواه ﴿١٧٣﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿١٧٤﴾ أي ما حرم عليكم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير
﴿١٧٥﴾ وما أهل به لغير الله ﴿١٧٦﴾ أي وما ذبح للأصنام فذكر عليه اسم غير الله كقولهم باسم اللات واللات والعزى
﴿١٧٧﴾ فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ ﴿١٧٨﴾ أي فمن أُلجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألا يكون
ساعياً في فساد ، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة ﴿١٧٩﴾ فلا إثم عليه ﴿١٨٠﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿١٨١﴾ إن الله غفور
رحيم ﴿١٨٢﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿١٨٣﴾ إن الذين يكتُمون
ما أنزل الله من الكتاب ﴿١٨٤﴾ أي يخفون صفة النبي عليه السلام المذكورة في التوراة وهم اليهود قال ابن
عباس : نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي ﷺ ﴿١٨٥﴾ ويشترُونَ به ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿١٨٦﴾ أي يأخذون بدله
عوضاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿١٨٧﴾ أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴿١٨٨﴾ أي إنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم
يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار ﴿١٨٩﴾ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ﴿١٩٠﴾ أي لا يكلمهم
كلام رضى كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله ﴿١٩١﴾ اخسثوا فيها ولا تكلمون ﴿١٩٢﴾ ولا يزكيهم ﴿١٩٣﴾
أي يطهرهم من دنس الذنوب ﴿١٩٤﴾ ولهم عذاب أليم ﴿١٩٥﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم ﴿١٩٦﴾ أولئك الذين
اشترُوا الضلالة بالهدى ﴿١٩٧﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان ﴿١٩٨﴾ والعذاب بالمغفرة ﴿١٩٩﴾ أي
واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿٢٠٠﴾ فما أصبرهم على النار ﴿٢٠١﴾ أي ما أشد صبرهم على نار جهنم ؟ وهو تعجيب
للمؤمنين من جرأة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب
﴿٢٠٢﴾ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴿٢٠٣﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه ﴿٢٠٤﴾ التوراة ﴿٢٠٥﴾ بيان
الحق فكتموا وحرّفوا ما فيه ﴿٢٠٦﴾ وإن الذين اختلفوا في الكتاب ﴿٢٠٧﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿٢٠٨﴾ لفي شقاق
بعيد ﴿٢٠٩﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب ، مستوجب لأشد العذاب .

سَبَبُ النُّزُولِ : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود : كعب بن الأشرف ومالك بن
الصفيف وحيي بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع
تلك المنافع فكتموا أمر محمد وأمر شرائعه فنزلت ﴿٢٠٩﴾ إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب . . . الآية .
الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿خطوات الشيطان﴾ استعارة عن الاقتداء به واتباع آثاره قال في تلخيص البيان :

وهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعته فيما يأمر به وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله^(١) .

٢ - ﴿السوء والفحشاء﴾ هو من باب « عطف الخاص على العام » لأن السوء يتناول جميع المعاصي ، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي .

٣ - ﴿ومثل الذين كفروا﴾ فيه تشبيه (مرسل ومجمل) مرسل لذكر الأداة ومجمل لحذف وجه الشبه فقد شبه الكفار بالبهائم التي تسمع صوت المنادي دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده .

٤ - ﴿صمٌ بكمٌ عمي﴾ حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو « تشبيه بليغ » أي هم كالصم في عدم سماع الحق وكالعمي وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن .

٥ - ﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أي إنما يأكلون المال الحرام الذي يفضي بهم إلى النار وقوله ﴿في بطونهم﴾ زيادة تشنيع وتقبيح لحالهم وتصويرهم بمن يتناول رصف جهنم ، وذلك أفظع سماعاً وأشد إيجاعاً .

٦ - ﴿اشترؤا الضلالة بالهدى﴾ استعارة والمراد استبدلوا الكفر بالإيمان وقد تقدم في أول السورة إجراء هذه الاستعارة .

الفوائد : الأولى : عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله : أدع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ! فقال يا سعد : أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به^(٢) .

الثانية : قال بعض السلف : « يدخل في اتباع خطوات الشيطان كل معصية لله ، وكل نذر في المعاصي قال الشعبي : نذر رجل أن ينحر ابنه فأفتاه مسروق بذبح كبش وقال : هذا من خطوات الشيطان »^(٣) .

الثالثة : قال ابن القيم في أعلام الموقعين عن قوله تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ قال : لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب ، وأن تجعله من التشبيه المفرق ، فإن جعلته من المركب كان تشبيهاً للكفار - في عدم فقههم وانتفاعهم - بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء ، وإن جعلته من التشبيه المفرق : فالذين كفروا بمنزلة البهائم ، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها ، ودعائهم إلى الهدى بمنزلة النعق ، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . . . إِلَى . . . فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
من آية (١٧٧) إلى نهاية آية (١٨٢).

المناسبة : من هنا بداية النصف الثاني من السورة الكريمة على وجه التقريب ، ونصف السورة السابق كان متعلقاً بأصول الدين وبقبائح بني إسرائيل ، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام التشريعية الفرعية ، ووجه المناسبة أنه تعالى ذكر في الآية السابقة أن أهل الكتاب اختلفوا في دينهم اختلافاً كبيراً صاروا بسببه في شقاق بعيد ، ومن أسباب شقاقهم أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة ، وادّعى كل من الفريقين - اليهود والنصارى - أن الهدى مقصور على قبلته ، فردّ الله عليهم وبيّن أن العبادة الحقّة وعمل البر ليس بتوجه الإنسان جهة المشرق والمغرب ، ولكن بطاعة الله وامتثال أوامره وبالإيمان الصادق الراسخ .

اللغة : ﴿البرُّ﴾ اسم جامع للطاعات وأعمال الخير ﴿الرقاب﴾ جمع رقبة وهي في الأصل العنق ، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس والمراد في الآية الأسرى والأرقاء ﴿البأساء﴾ الفقر ﴿الضراء﴾ السقم والوجع ﴿البأس﴾ القتال وأصل البأس في اللغة : الشدة ﴿كتب﴾ فرض ﴿القصاص﴾ العقوبة بالمثل من قتل أو جرح مأخوذ من القص وهو تتبع الأثر ﴿وقالت لأخته قصيه﴾ أي اتبع أثره ﴿القتل﴾ جمع قتل يستوي فيه المذكر والمؤنث يقال : رجل قتل وامرأة قتل ﴿الألباب﴾ العقول جمع لب مأخوذ من لب النخلة ﴿إنما﴾ الإثم : الذنب ﴿جنفاً﴾ الجحف : العدول عن الحق على وجه الخطأ .

سبب النزول : عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغي وطماعة للشيطان ، وكان الحي منهم إذا كان فيهم منعة فقتل عبدُهم عبد آخرين قالوا لن نقتل به إلا حراً ، وإذا قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا لن نقتل بها إلا رجلاً فأنزل الله ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾^(١) .

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي

النفسير : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ أي ليس فعل الخير وعمل الصالح محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو المغرب ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ولكن البر الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿والملائكة والكتاب والنبيين﴾ أي وأن يؤمن بالملائكة والكتب والرسل ﴿وأتى المال على حبه ذوي القربى﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته فهم

الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ

أولى بالمعروف ﴿١٧٧﴾ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴿١٧٨﴾ أي وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم والمساكين الذين لا مال لهم ، وابن السبيل المسافرين المنقطع عن ماله ﴿١٧٩﴾ والسائلين وفي الرقاب ﴿١٧٧﴾ أي الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء ﴿١٧٨﴾ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴿١٧٧﴾ أي وآتى بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿١٧٨﴾ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴿١٧٧﴾ أي ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود ﴿١٧٧﴾ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴿١٧٧﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في سبيل الله وهو منصوب على المدح ﴿١٧٧﴾ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴿١٧٧﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى ، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيرات حسان . ﴿١٧٧﴾ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ﴿١٧٧﴾ أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دونبغي أو عدوان ﴿١٧٧﴾ الحرُّ بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴿١٧٧﴾ أي اقتصوا من الجاني فقط فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به ، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به ، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى ، مثلاً بمثل ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني ، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء ﴿١٧٧﴾ فمن عُفِيَ له من أخيه شيء ﴿١٧٧﴾ أي فمن ترك له من دم أخيه المقتول شيء ، بأن ترك وليه القود وأسقط القصاص راضياً بقبول الدية ﴿١٧٧﴾ فاتباع بالمعروف وأداءً إليه بإحسان ﴿١٧٧﴾ أي فعلى العافي اتباعاً للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا إرهاب ، وعلى القاتل أداءً للدية إلى العافي - ولي المقتول - بلا مظل ولا بخس ﴿١٧٧﴾ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴿١٧٧﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم ، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القتيل ، وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة ، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل ، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿١٧٧﴾ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴿١٧٧﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿١٧٧﴾ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ﴿١٧٧﴾ أي ولكم - يا أولي العقول - فيما شرعت من القصاص حياة وأيضاً حياة لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قتل بها يرتدع وينزجر عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتحفظ حياة الناس ﴿١٧٧﴾ لعلكم تتقون ﴿١٧٧﴾ أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿١٧٧﴾ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ﴿١٧٧﴾ أي فرض عليكم

وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ، عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالا كثيرا ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ أي وجب عليه الإيصاء للوالدين والأقربين ﴿بالمعروف حقاً على المتقين﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء ، حقاً لازماً على المتقين لله وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث ثم نسخ بآية المواريث ﴿فمن بدّله بعدما سمعه﴾ أي من غير هذه الوصية بعد ما علمها من وصي أو شاهد ﴿فإنما إثمهم على الذين يبدّلونه﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدّلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إن الله سميع عليم﴾ فيه وعيد شديد للمبدّلين ﴿فمن خاف من موصٍ جَنَفًا﴾ أي فمن علم أو ظن من الموصي ميلاً عن الحق بالخطأ ﴿أو إثمًا﴾ أي ميلاً عن الحق عمداً ﴿فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾ أي أصلح بين الموصي والموصى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ولكنّ البرّ من آمن﴾ جعل البرّ نفس من آمن على طريق المبالغة وهذا معهود في كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون : السخاء حاتم ، والشعر زهير أي أن السخاء سخاء حاتم ، والشعر شعر زهير ، وعلى هذا خرجه سيبويه حيث قال في كتابه قال جلّ وعزّ : ﴿ولكنّ البرّ من آمن﴾ وإنما هو ولكنّ البرّ من آمن بالله انتهى^(١) ونظير ذلك أن تقول : ليس الكرم أن تبذل درهماً ولكنّ الكرم بذل الآلاف فلا يناسب ولكنّ الكريم من يبذل الآلاف .

٢ - ﴿وفي الرقاب﴾ إيجاز بالحذف أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى ، وفي لفظ الرقاب « مجاز مرسل » حيث أطلق الرقبة وأراد به النفس وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٣ - ﴿والصابرين في البأساء﴾ الأصل أن يأتي مرفوعاً كقوله ﴿والموفون بعهدهم﴾ وإنما نصب على الاختصاص أي وأخص بالذكر الصابرين وهذا الأسلوب معروف بين البلغاء فإذا ذكرت صفات للمدح أو الذم وخولف الإعراب في بعضها فذلك تفننٌ ويسمى قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على مزيد اهتمام بشأنه وتشويق لسماعه .

٥ - ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ الجملة جاء الخبر فيها فعلاً ماضياً « صدقوا » لإفادة التحقيق وأن ذلك وقع منهم واستقر ، وأتى بخبر الثانية في جملة اسمية ﴿أولئك هم المتقون﴾ ليدل على الثبوت وأنه ليس متجدداً بل صار كالسجية لهم ومراعاة للفاصلة أيضاً .

٦ - ﴿حقاً على المتقين﴾ ذكر المتقين من باب الإلهاب والتهيج .

٧ - الطباقي بين ﴿اتباع﴾ و﴿أداء﴾ وبين ﴿الحرق﴾ و﴿العبد﴾ .

الفوائد : الأولى : في ذكر الأخوة تعطفُ داع إلى العفو فقد سمى الله القاتل أخاً لولي المقتول ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ تذكيراً بالأخوة الدينية والبشرية حتى يهز عطف كل واحد منهما إلى الآخر فيقع بينهم العفو والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان .

الثانية : كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية ، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص ، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيرها بين القصاص والدية والعفو ، وهذا من يسر الشريعة الغراء التي جاء بها سيد الأنبياء ﷺ .

الثالثة : اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة ، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم : القتل أنفى للقتل ، ولكن لورود الحكمة في القرآن فضل من ناحية حسن البيان ، وإذا شئت أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر فانظر إلى العبارتين فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاص وهو القتل عقوبة على وجه التام ، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتل ، ومن القتل ما يكون ظلماً فيكون سبباً للفناء وتصحيح العبارة أن يقال : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً ، والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي والمثل كرر فيه لفظ القتل فمسّه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية ، ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة والمثل جعل القتل سبباً لنفي القتل وهو لا يستلزم الحياة الخ وقد عدّ العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية وقد ذكرها السيوطي في الإتيان فارجع إليه تجد فيه شفاء العليل .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام . . إلى . . كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾
من آية (١٨٣) إلى نهاية آية (١٨٧) .
المناسبة : ذكر تعالى في الآيات السابقة حكم القصاص ثم عقبه بحكم الوصية للوالدين والأقربين ، ثم بأحكام الصيام على وجه التفصيل لأن هذا الجزء من السورة الكريمة يتناول جانب الأحكام التشريعية ولما كان الصوم من أهم الأركان ذكره الله تعالى هنا ليهيء عباده إلى منازل القدس ومعارج المتقين الأبرار .

اللفت : ﴿الصيام﴾ في اللغة : الإمساك عن الشيء قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم قال الشاعر :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غير صائمةٍ تحت العجاج وأخرى تملك اللُجما

وفي الشرع : الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النية ﴿يطيقونه﴾ أي يصومونه بعسر ومشقة قال الراغب : الطاقة اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله مع المشقة وشبهه بالطوق المحيط بالشيء^(١) ﴿فدية﴾ ما يفدي به الإنسان نفسه من مالٍ وغيره ﴿شهر﴾ من الاشتهار وهو الظهور ﴿رمضان﴾ من الرَّمَض وهو شدة الحر والرمضاء شدة حر الشمس وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها ﴿الرفث﴾ الجماع ودواعيه وأصله قولُ الفحش ثم كُني به عن الجماع قال الشاعر :

وَيُرَيْنَ مِنْ أَنْسِ الْحَدِيثِ زَوَانِيًا وَبَهَنَ عَنْ رَفَثِ الرِّجَالِ نِفَارًا

﴿تختانون﴾ قال في اللسان : خانه واختانه والمخانة مصدر من الخيانة وهي ضد الأمانة وسئل بعضهم عن السيف فقال : أخوك وإن خانك ﴿عاكفون﴾ الإعتكاف في اللغة : اللبث وال لزوم وفي الشرع : المكث في المسجد للعبادة ﴿حدود الله﴾ الحد في اللغة : المنع وأصله الحاجز بين الشيئين المتقابلين وسميت الأحكام حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل .

سَبَبُ النُّزُولِ : روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ فقالوا : يا محمد أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ؕ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۖ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويؤكد فيهم جذوة الإيمان ﴿كُتِبَ عليكم الصيام﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ أي كما فرض على الأمم قبلكم ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه ﴿أياماً معدودات﴾ أي والصيام أيامه معدودات وهي أيام قلائل ، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمة بكم ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدة من أيامٍ أُخرٍ﴾ أي من كان به مرضٌ أو كان مسافراً فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيام غيرها ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعمام مسكين﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو ضعفٍ إذا أفطروا عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فمن تطوع خيراً﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فهو خيرٌ له﴾ ثم قال تعالى ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة ، ثم بيّن تعالى وقت الصيام فقال ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان

لِلنَّاسِ وَبَيَّنَّتْ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالْكَنَ بِشُرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ

الذي أبتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي ومن كان مريضاً أو مسافراً فأفطر فعليه صيام أيام أخر ، وكرر لثلاث يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿ولتكمّلوا العدة﴾ أي ولتكمّلوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي ولتحمّدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه . . ثم بين تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم ، وأرى تضرعهم وأعلم حالهم كقوله ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين . . ثم شرع تعالى في بيان تنمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ أي أبيع لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال ابن عباس : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرماً في صدر الإسلام ثم نسخ ، روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ الآية ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ أي كلوا

فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي لا تقربوهن ليلاً أو نهاراً ما دمتم معتكفين في المساجد ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ أي يتقون المحارم .

البلاغة : ١ - ﴿كما كتب﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية أي فرض الصيام عليكم كما فرض على الأمم قبلكم وهذا التشبيه يسمى «مرسلاً مجملاً» .

٢ - ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من كان مريضاً فأفطر ، أو على سفر فأفطر فعليه قضاء أيام بعدد ما أفطر .

٣ - ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ في تفسير الجلالين قدره بحذف « لا » أي لا يطيقونه ، ولا ضرورة لهذا الحذف لأن معنى الآية يطيقونه بجهدٍ شديد وذلك كالشيخ الهرم والحامل والمرضع فهم يستطيعونه لكن مع المشقة الزائدة ، والطاقة اسم لمن كان قادراً على الشيء مع الشدة والمشقة .

٤ - ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ « طباق السلب » .

٥ - ﴿الرفث إلى نسائكم﴾ الرفث كناية عن الجماع وعدّي بـ « إلى » لتضمنه معنى الإفضاء وهو من الكنايات الحسنة كقوله ﴿فلما تغشاها﴾ وقوله ﴿فأتوا حرثكم﴾ وقوله ﴿فالآن باشروهن﴾ قال ابن عباس : إن الله عز وجل كريم حلیم يكني^(١) .

٦ - ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ استعارة بديعة شبه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لابسها قال في تلخيص البيان : « المراد قرب بعضهم من بعض واشتغال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام فاللباس استعارة^(٢) .

٧ - ﴿الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ قال الشريف الرضي : وهذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل والخيطان ههنا مجاز وإنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافياً ، ويكون سواد الليل منقضياً مولياً ، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استمراراً ، وذهب الزمخشري إلى أنه من التشبيه البليغ .

الفوائد : الأولى : روي عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود

(٢) انظر الكشف ١ / ١٧٥ .

(١) روائع البيان ١ / ١٩٠ تلخيص البيان ص ١٢ .

والنصارى ، أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحر الشديد فحولوه إلى وقت لا يتغير ثم قالوا عند ذلك نزيد فيه فزادوا عشراً ، ثم بعد زمانٍ اشتكى^(١) ملكهم فنذر سبعا فزادوه ، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال : ما بال هذه الثلاثة فأتمه خمسين يوماً وهذا معنى قوله تعالى ﴿ اتخذوا أhabارهم ورهبانهم أرباباً ﴾^(٢) .

الثانية : قال الحافظ ابن كثير : وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ﴿ وإذا سألك عبادي عني ﴾ إرشادٌ إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر لحديث (إنَّ للصائم عند فطره دعوة ما تُرد) وكان عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي .

الثالثة : ظاهر نظم الجملة ﴿ وإذا سألك عبادي عني ﴾ أنهم سألوا عن الله ، والسؤال لا يكون عن الذات وإنما يكون عن شأن من شئونها فقلوه في الجواب ﴿ فإني قريب ﴾ يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد ، ولم يصدر الجواب بـ « قل » أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ بل تولَّى جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط قربه منهم ، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات .

الرابعة : قال الإمام ابن تيمية « وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » وفي الصحيح (إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء .

الخامسة : عبّر المولى جل وعلا عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف ، لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس والنساء ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه : إن الله عز وجل كريم حلیم يكني .

قال الله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . إلى . . وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾

من آية (١٨٨) إلى نهاية آية (١٩٥) .

المناسكة : لما بين تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان عقبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره ، ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة جاءت الآيات الكريمة تبين أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات .

اللفظة : ﴿الباطل﴾ في اللغة : الزائل الذاهب يقال : بطل الشيء بطولاً فهو باطل وفي الشرع هو المال الحرام كالغصب والسرقة والقمار والربا ﴿وتدلوا﴾ الإدلاء في الأصل : إرسال الدلو في البئر ثم جعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاءً يقال : أدلى بحجته أي أرسلها والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ﴿الأهلة﴾ جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس ثم يصبح قمراً ثم بدرًا حين يتكامل نوره ﴿مواقيت﴾ جمع ميقات وهو الوقت كالميقات بمعنى الوعد وقيل : الميقات منتهى الوقت ﴿ثقفتموهم﴾ ثقف الشيء إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ، ورجل ثقفٌ سريع الأخذ لأقرانه قال الشاعر :

فإِما تثقفوني فاقتلوني فمن أثقف فليس إلى خلود
﴿التهلكة﴾ الهلاك يقال هلك يهلك هلاكاً وتهلكة .

سَبَبُ النَزُول : روي أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزلت ﴿يسألونك عن الأهلة . .﴾ (١) الآية .

روي أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية لم يدخل بيتاً من بابه بل كان يدخل من نقيب في ظهره ، أو يتخذ سُلماً يصعد فيه فنزل قوله تعالى ﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ .
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

النفسير : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبيحه الله ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان ؟ ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ أي فقل لهم إنها أوقات لعباداتكم ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿ولكن البر من اتقى﴾ أي ولكن العمل الصالح الذي يقربكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه ﴿وقاتلوا في

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩١﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٢﴾ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٣﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مِّمَّنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٦﴾

سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴿١٩١﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار ﴿١٩٢﴾ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴿١٩٣﴾ أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى ، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿١٩٤﴾ وقاتلوا المشركين كافة ﴿١٩٥﴾ وقيل نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله ﴿١٩٦﴾ واقتلوهم حيث ثقتموهم ﴿١٩٧﴾ أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حل أو حرم ﴿١٩٨﴾ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴿١٩٩﴾ أي شردوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة ﴿٢٠٠﴾ والفتنة أشد من القتل ﴿٢٠١﴾ أي فتنة المؤمن عن دينه أشد من قتله ، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلهم لهم في الحرم ، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم ﴿٢٠٢﴾ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴿٢٠٣﴾ أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه ﴿٢٠٤﴾ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴿٢٠٥﴾ أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذ قتلهم لأنهم انتهكوا حرمة والبادي بالشراظلم ﴿٢٠٦﴾ كذلك جزاء الكافرين ﴿٢٠٧﴾ أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله ﴿٢٠٨﴾ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴿٢٠٩﴾ أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفوا عنهم فإن الله يغفر لمن تاب وأناب ﴿٢٠٩﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴿٢١٠﴾ أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿٢١١﴾ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴿٢١٢﴾ أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين ، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم ثم بين تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال ﴿٢١٣﴾ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴿٢١٤﴾ أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام ، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله ﴿٢١٥﴾ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴿٢١٦﴾ أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل ﴿٢١٧﴾ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴿٢١٨﴾ أي

(١) وقيل معناه الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صدقتم فيه عن دخولها ، وكان ذلك لما صد الكفار النبي ﷺ عن دخول مكة عام الحديبية في شهر ذي القعدة .

راقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ أي أنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الانفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوى عليكم الأعداء وقيل معناه : لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين .

البلاغة : ١ - ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ هذا النوع من البديع يسمى « الأسلوب الحكيم » فقد سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لم يبدو صغيراً ثم يزداد حتى يتكامل نوره ؟ فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلة وكأنه يقول : كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره ، وهذا ما يسميه علماء البلاغة « الأسلوب الحكيم »

٢ - ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ فيه إيجاز بالحذف تقديره : هتك حرمة الشهر الحرام تقابل بهتك حرمة الشهر الحرام ويسمى حذف الإيجاز .

٣ - ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ سمي جزاء العدوان عدواناً من قبيل « المشكلة » وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى كقوله ﴿وجزاء سيئة سيئةً مثلها﴾ قال الزجاج : العرب تقول ظلمي فلان فظلمته أي جازيته بظلمه .

فائدة : لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة « سبيل الله » وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال غاية شريفة نبيلة هي إعلاء كلمة الله لا السيطرة أو المغنم أو الاستعلاء في الأرض أو غيرها من الغايات الدنيئة .

تنبيه : كل ما ورد في القرآن بصيغة السؤال أجيب عنه بـ « قل » بلا فاء إلا في طه ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ فقد وردت بالفاء ، والحكمة أن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سئلت عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً^(١) .

فائدة : روي أن رجلاً من المسلمين حمل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس : سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقلنا : لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فنزلت ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الجهاد في سبيل الله فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم .

قال الله تعالى : ﴿وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ . . . إِلَى . . . وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ﴾
من آية (١٩٦) إلى نهاية آية (٢٠٣).

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام ، أعقب ذلك بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام ، وأما آيات القتال فقد ذكرت عَرَضاً لبيان حكم هام وهو بيان الأشهر الحرم والقتال فيها وفيما لو تعرّض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم ردّ العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم ؟ فقد وردت الآيات السابقة تبين حكمة الأهلة وأنها مواقيت للصيام والحج ثم بينت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصدّه المشركون ومنعوه من دخول مكة ووقع صلح الحديبية ثم لما أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم وهم في حالة الإحرام نزلت الآيات تبين أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء بل على سبيل القصاص ودفع العدوان ، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه فهذا هو الارتباط بين الآيات السابقة واللاحقة .

الْفَكْرُ : ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ الإحصار : معناه المنع والحبس يقال حَصَرَهُ عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه قال الأزهري : حُصِرَ الرجلُ في الحبس ، وأحصر في السفر من مرضٍ أو انقطاعٍ به ﴿الْهَدْيُ﴾ هو ما يُهدى إلى بيت الله من أنواع النعم كالإبل والبقر والغنم وأقله شاة ﴿مَحَلُّهُ﴾ المحل : الموضع الذي يحل به نحر الهدى وهو الحرم أو مكان الإحصار للمحصر ﴿النُّسْكُ﴾ جمع نسكة وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى ﴿جَنَاحٌ﴾ إثم وأصله من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿أَفْضَيْتُمْ﴾ أي دفعتم وأصله من فاض الماء إذا سال منصباً ومعنى ﴿أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ أي دفعتم منها بقوة تشبيهاً بفيض الماء . ﴿خَلَّاقٌ﴾ نصيب من رحمة الله تعالى ﴿تَحْشَرُونَ﴾ تجمعون للحساب .

سَبَبُ النُّزُولِ : أولاً : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله عز وجل ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(١) .

ثانياً : وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمْسَ وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها ، وكانت قريش تفيض من جمع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾^(٢) .

وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ

التفسير : ﴿وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي أدوهاما تامين بأركانها وشروطها لوجه الله تعالى

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا

﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي إذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرض أو عدو وأردتم التحلل فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرة أو شاة ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلقة أو التقصير حتى يصل الهدي المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار ﴿فَمَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾ أي فمَن كان منكم معسر مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلق ، أو كان به أذى من رأسه كقمل وصداع فحلق في الإحرام ، فعليه فدية وهي إما صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة أصع على ستة مساكين أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي كنتم آمنين من أول الأمر ، أو صرتم بعد الإحصار آمنين ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها ، فعليه ما تيسر من الهدي وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي من لم يجد ثمن الهدي فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح وثوابها كثوابه من غير نقصان ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي ذلك التمتع أو الهدي خاص بغير أهل الحرم ، أما سكان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي خافوا الله تعالى بامثال أوامره واجتناب نواهيه واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره . ثم بيّن تعالى وقت الحج فقال ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أي وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي من ألزم نفسه الحج بالإحرام والتلبية ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن فإنه مقبل على الله قاصد لرضاه ، فعليه أن يترك الشهوات ، وأن يترك المعاصي والجِدَالَ والخصام مع الرفقاء ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازيكم عليه الله خير الجزاء ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ أي خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية ، وقد كانوا يتأثمون من ذلك

مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنِ الْنَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ

فنزلت الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة ، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين ، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين ﴿ثم أفوضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي ثم انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة ، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون : نحن أهل الله وسكان حرمه فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم ثم يفيضون منها وكانوا يسمون « الحمس » فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي استغفروا الله عما سلف منكم من المعاصي فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً﴾ أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثرُوا ذكره وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشدَّ ، قال المفسرون كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم فأمرُوا أن يذكروا الله وحده ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من الناس من تكون الدنيا همه فيقول : اللهم أجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ﴿ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾ أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر ، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية ، والدار الرحبة ، والزوجة الحسنة ، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر ، وتيسير الحساب ، ودخول الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم الخ ﴿وقنا عذاب النار﴾ أي نجتنا من عذاب جهنم ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٦﴾

يومين فنفر فلا حرج عليه ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث - وهو النفر الثاني - فلا حرج عليه أيضاً ﴿لمن اتقى﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿يبلغ الهدي محلَّه﴾ كناية عن ذبحه في مكان الإحصار .

٢ - ﴿فمن كان منكم مريضاً﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كان مريضاً فحلق أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية .

٣ - ﴿وسبعة إذا رجعت﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب وهو من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿تلك عشرة كاملة﴾ فيه إجمال بعد التفصيل وهذا من باب « الإطناب » وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها .

٥ - ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

٦ - ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ صيغته نفى وحقيقته نهى أي لا يرفث ولا يفسق وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر مما لا ينبغي أن يقع أصلاً فإن ما كان منكراً مستقبلاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغة واضحة .

٧ - ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ فيه تشبيه تمثيلي يسمى « مرسلًا مجملًا » .

٨ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ وبين ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا

في الدنيا حسنة .﴾ الآية .

فَكَايِدَةٌ : أصل النسك : العبادة ، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى .

فائدة ثانية : زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع وفي هذا المعنى يقول الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ولا قيتَ بعد الموت من قد تزودا
ندمتَ على ألا تكون كمثلِه وأنك لم تُرصدَ كما كان أرصدا

قال الله تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا . . إلى . . والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾
من آية (٢٠٤) إلى نهاية آية (٢١٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تُطَهِّر القلوب ، وتزكِّي النفوس كالصيام ، والصدقة ، والحج ، وذكر أن من الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها ، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى ، أعقبها بذكر نموذجٍ عن الفريقين : فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان ، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن ، ثم حذَّر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان ، وبَيَّن لنا عداوته الشديدة .

اللغة : ﴿ألدُّ﴾ اللَّدُّ : شدة الخصومة قال الطبري : الألدُّ : الشديد الخصومة وفي الحديث (إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم) ﴿الحرث﴾ : الزرع لأنه يزرع ثم يحرث ﴿النسل﴾ : الذرية والولد ، وأصله الخروج بسرعة ومنه ﴿إلى ربهم ينسلون﴾ وسمي نسلًا لأنه ينسل - يسقط - من بطن أمه بسرعة ﴿العزة﴾ : الأنفة والحمية ﴿حسبه﴾ : حسب اسم فعل بمعنى كافيهِ ﴿المهاد﴾ : الفراش الممهَّد للنوم ﴿يشري﴾ : يبيع ﴿ابتغاء﴾ : طلب ﴿السُّلْم﴾ : بكسر السين بمعنى الإسلام وبفتحها بمعنى الصلح ، وأصله من الاستسلام وهو الخضوع والانقياد قال الشاعر :

دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلسُّلْمِ حَتَّى رَأَيْتَهُمْ تَوَكَّلُوا مُدْبِرِينَ
﴿زللتم﴾ : الزَّل : الانحراف عن الطريق المستقيم وأصله في القدم ثم استعمل في الأمور المعنوية ﴿ظلل﴾ : جمع ظلة وهي ما يستر الشمس ويحجب أشعتها عن الرؤية .

سبب النزول : ١ - روي أن الأخنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه ، وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن ، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرَّ بزرعٍ لقومٍ من المسلمين وحُمُرٍ فأحرق الزرع وقتل الحُمُرَ فأنزل الله تعالى فيه الآيات ﴿ومن الناس من يعجبك قوله . . الآية إلى قوله : ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل . .﴾^(١) الآية .

٢ - وروي أن صهيياً الرومي لما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال : يا معشر قريش لقد علمتم أنني من أركمكم رجلاً ، وإني لله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم ، قالوا جئتنا صعلوكاً لا تملك شيئاً وأنت الآن ذو مال كثير !! فقال : رأيتم إن دلتكم على مالي تخلّون سبيلي ؟ قالوا نعم فدلّهم على ماله بمكة فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ فقال له عليه السلام : (ربح البيع صهيب ، ربح البيع صهيب) وأنزل الله عز وجل فيه ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله . .﴾^(٢) الآية .

(١) الفخر الرازي ٢١٥/٥ وأسباب النزول ص ٣٤ . (٢) نفس المرجع السابق .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۖ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾ هَلْ

النفسير : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ أي ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويشير إعجابك بخلاصة لسانه وقوة بيانه ، ولكنه منافق كذاب ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي في هذه الحياة فقط أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطلع على القلوب والسرائر ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي يظهر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وهو ألد الخصام﴾ أي شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فساداً ، وقد نزلت في الأخنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه « يعطيك من طرف اللسان حلاوة : ويروغ فيك كما يروغ الثعلب » ﴿ويهلك الحرث والنسل﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان والحيوان ومعناه أن فساد عام يشمل الحاضر والباد ، فالحرث محل غناء الزروع والثمار ، والنسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما ، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي يبغض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر وذكر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح ، حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق ، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً ، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار ، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة والمعنى ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله ، طلباً لمرضاته ورغبة في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه . . ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه ، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً ، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً فلا إسلام كل لا يتجزأ ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه فإنه عدو لكم ظاهر العداوة ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج

يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١﴾ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٣﴾

الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أي اعلّموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه حكيم في خلقه وصنعه ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة﴾ أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق^(١) حيث تشق السماء وينزل الجبار عز وجل في ظللٍ من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله ولهم زجل من التسبيح يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبح قدوس رب الملائكة والروح ﴿وقضي الأمور﴾ أي انتهت الأمور الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير ، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً . والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه وهو أحكم الحاكمين . . ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ أي سل يا محمد بني إسرائيل - توبيخاً لهم وتقريعاً - كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا ﴿ومن يبدل نعمه الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ أي من يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ أي زينت لهم شهوات الدنيا ونعيمها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود . ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله ﴿إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلةً ومكانة ، فهم في أعلى عليين وأولئك في أسفل سافلين ، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة والكافرون في حضيض الذل والمهانة ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي والله يرزق أوليائه رزقاً واسعاً رغداً ، لا فناء له ولا انقطاع كقوله ﴿يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله ﴿أن يأتيهم الله﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله ﴿واسأل القرية﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلانا وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى .

على من شاء مؤمناً كان أو كافراً ، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشیئة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى .

البَلاَغَةُ : ١ - ﴿أخذته العزة بالإِثم﴾ ذكر لفظ الإِثم بعد قوله العزة يسمى عند علماء البديع بـ « التتميم » لأنه ربما يتوهم أن المراد عزة الممدوح فذكر بالإِثم ليشير إلى أنها عزة مذمومة .

٢ - ﴿ولبئس المهاد﴾ هذا من باب التهكم أي جعلت لهم جهنم غطاءً ووطاءً فأكرم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء والوطاء اللينين .

٣ - ﴿هل ينظرون﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء إلا بعدها أي ما ينتظرون .

٤ - ﴿في ظلل من الغمام﴾ التنكير للتهويل فهي في غاية الهول والمهابة لما لها من الكثافة التي تغم على الرائي ما فيها وقوله ﴿وقضي الأمر﴾ هو عطف على المضارع ﴿يأتيهم الله﴾ وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان .

٥ - ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة .

٦ - ﴿زُيِّنَ . . ويسخرون﴾ أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغاً منه مركزاً في طبيعتهم وعطف عليه بالفعل المضارع ﴿ويسخرون﴾ للدلالة على استمرار السخرية منهم لأن صيغة المضارع تفيد الدوام والاستمرار .

تنبیه: قال ابن تيمية رحمه الله في رسالته التدمرية : « وصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صحَّ عن رسوله ﷺ والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ، إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل : كيف يجيء سبحانه ؟ فليقل له : كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته » .

قال الله تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة . . إلى . . أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾

من آية (٢١٣) إلى نهاية آية (٢١٨) .

المناسكة : ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان : فريق يسعى في الأرض فساداً ويضل الناس بخلافة لسانه وقوة بيانه ، وفريق باع نفسه للحق بيتغي به رضى الله ولا يرجو أحداً سواه ، ولما كان لا بد من التنازع بين الخير والشر ، ولا بد للحق من سيفٍ مصلتٍ إلى جانبه لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السيف مناضلين وشرع الجهاد دفعاً للعدوان وردعاً للظلم والطغيان .

اللفظة : ﴿بغياً﴾ البغي : العدوان والطغيان ﴿وزلزلوا﴾ مأخوذ من زلزلة الأرض وهو اضطرابها والزلزلة : التحريك الشديد ﴿كره﴾ مكروه تكرهه نفوسكم قال ابن قتيبة : الكره بالضم المشقة وبالفتح الإكراه والقهر ﴿صد﴾ الصد : المنع يقال : صدّه عن الشيء أي منعه عنه ﴿يرتدد﴾ يرجع والردة الرجوع من الإيمان إلى الكفر قال الراغب : الارتداد والردة : الرجوع في الطريق الذي جاء منه لكن الردة تختص بالكفر ، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ ^(١) ﴿حبطت﴾ بطلت وذهبت قال في اللسان : حبط عمل عملاً ثم أفسده وفي التنزيل ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي أبطل ثوابهم ﴿يرجون﴾ الرجاء : الأمل والطمع في حصول ما فيه نفع ومصلحة ^(٢) .

سبب النزول : بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية ليرصدوا عيراً لقريش فيها « عمرو بن الحضرمي » وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون من جمادى الآخرة فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام ، شهراً يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معاشهم وعظم ذلك على المسلمين فنزلت ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . الآية .

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ

التفسير : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة فاختلَفوا وتنازعوا ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ أي بعث الله الأنبياء لهداية الناس مبشرين للمؤمنين بجنت النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم ﴿وأُنزل معهم الكتاب بالحق﴾ أي وأنزل معهم الكتاب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أُوتوه﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب أي إنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيّنة وعلم لا عن غفلة وجهل ﴿بغياً بينهم﴾ أي حسداً من الكافرين للمؤمنين ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاء وامتحان

أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢٤٨﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِالنِّسْمَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٤٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥٠﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ

واختبار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي والحال لم ينلکم مثل ما نال من سبقکم من المؤمنین من المحن الشديدة ، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النکبات ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنوائب ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ ؟ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله ؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاءً منهم للنصر لتناهي الشدة عليهم ، وهذا غاية الغيات في تصوير شدة المحنة ، فإذا كان الرسل - مع علو كعبهم في الصبر والثبات - قد عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلاً على أن الشدة بلغت منتهاها قال تعالى جواباً لهم ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أي ألا فأبشروا بالنصر فإنه قد حان أوانه ﴿وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ثم قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون وعلى من ينفقون ؟ وقد نزلت لما قال بعض الصحابة يا رسول الله : ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها ؟ ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي قل لهم يا محمد اصرفوها في هذه الوجوه ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزىكم عليه أوفر الجزاء ، ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي ولكن قد تكره نفوسكم شيئاً وفيه كل النفع والخير ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ أي وقد تحب نفوسكم شيئاً وفيه كل الخطر والضرر عليكم ، فلعل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيراً لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر ، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه - شراً لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه ؟ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي قل لهم القتال فيه أمره كبير ووزره عظيم ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ومنع المؤمنين عن دين الله وكفرهم بالله وصدُّهم عن

وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهلها وحماة ، كل ذلك أعظم وزراً وذنوباً عند الله من قتل من قتلتم من المشركين ، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أن ما ارتكبهوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ أي ولا يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في الدارين وذهب ثوابه ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﴿أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة ، واسع الرحمة .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان متمسكين بالحق فاختلَفوا فبعث الله النبيين ودلَّ على المحذوف قوله ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ .

٢ - ﴿أم حسبتم﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم فيه استفهام إنكاري .

٣ - ﴿ولمَّا يأتكم﴾ لمَّا تدل على النفي مع توقع وقوع النفي كما قال الزمخشري والمعنى : لمَّا ينزل بكم مثل ما نزل بمن قبلكم وسينزل فإن نزل فاصبروا قال المبرد : إذا قال القائل : لم يأتني زيد فهو نفي لقولك أنك زيد ؟ وإذا قال : لمَّا يأتني فمعناه أنه لم يأتني بعد وأنا أتوقعه وعلى هذا يكون إتيان الشدائد على المؤمنين متوقِعاً منتظراً .

٤ - ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ في هذه الجملة عدة مؤكدات تدل على تحقق النصر أولاً : بدء الجملة بأداة الاستفتاح « ألا » التي تفيد التأكيد، ثانياً : ذكر « إن » الدالة على التوكيد أيضاً، ثالثاً : إتيان الجملة

الإسمية على الفعلية فلم يقل « ستنصرون » والتعبير بالجملة الإسمية يفيد التأكيد، رابعاً : إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء .

٥ - ﴿وهو كره لكم﴾ وضع المصدر موضع اسم المفعول « كره » مكان « مكروه » للمبالغة كقول الخنساء : فإنما هي إقبال وإدبار .

٦ - ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً . . وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى بـ « المقابلة » فقد قابل بين الكراهية والحب ، وبين الخير والشر .

٧ - ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ طباق بالسلب .

فكائدة : عبر تعالى بصيغة الواحد عن كتب النبيين ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت هي في لبها وجوهرها كتاب واحد لاشتغالها على شرع واحد في أصله كما قال تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك . . الآية .

تنبية : روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعونا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمنن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . . إلى . . والله غفور حلِيم﴾ من آية (٢١٩) إلى نهاية آية (٢٢٥).

المناسكة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال ، وبين الهدف السامي من مشروعيته وهو نصرة الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة من أن يلتهمها العدو الخارجي ، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخلق الكريم ، ولا بد للدولة من الإصلاح الداخلي والخارجي لتقوم دعائمها على أسس متينة وتبقى صرحاً شامخاً لا تؤثر فيه الأعاصير .

اللفظة : ﴿الخمر﴾ المسكر من الأشربة سميت خمرًا لأنها تستر العقل وتغطيه ومنه خمرت الإناء أي غطيته ﴿الميسر﴾ القمار وأصله من اليسر لأنه كسب من غير كد ولا تعب ، وقيل من اليسار لأنه سبب الغنى ﴿إثم﴾ الإثم : الذنب وجمعه آثام وتسمى الخمر بـ « الإثم » لأن شربها سبب في الإثم قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

﴿العفو﴾ الفضل والزيادة على الحاجة ﴿أعنتكم﴾ أوقعكم في الحرج والمشقة ، وأصل العنت : المشقة

﴿أُمَّة﴾ الأُمَّة : المملوكة بملك اليمين وهي تقابل الحرة وجمعها إماء ﴿المحيض﴾ مصدر بمعنى الحيض كالعيش بمعنى العيش ، وأصل الحيض : السيلان يقال : حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي سالت ويقال للمرأة حائض وحائضة وأنشد الفراء : « كحائضة يُزنى بها غير طاهر » ﴿حرث﴾ الحرث : إلقاء البذر في الأرض قاله الراغب وقال الجوهري : الحرث : الزرع ، والحرث الزارع ومعنى حرث أي مزرع ومنبت للولد على سبيل التشبيه^(١) ﴿عُرْضَةٌ﴾ مانعاً وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عُرْضَةٌ ولهذا يقال للسحاب : عارض لأنه يمنع رؤية الشمس . ﴿اللغو﴾ الساقط الذي لا يعتد به سواء كان كلاماً أو غيره ولغو الطائر : تصويته .

سَبَبُ النُّزُول : أ - جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهب للعلل مسلبة للمال فأنزل الله ﷻ ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . . .﴾ الآية .

ب - عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ﷻ ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من شرابه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد واشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷻ فأنزل الله ﷻ ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير . . .﴾ الآية .

ج - عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت ، فسئل رسول الله ﷻ عن ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى . . .﴾ الآية .

* **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ أَعِفُّ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْنِّفْسِ : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ أي قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضرراً عظيماً وإثماً كبيراً ومنافع مادية ضئيلة ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أي ضررهما أعظم من نفعهما فإن ضياع العقل وذهاب المال وتعريض البدن للمرض في الخمر ، وما يجره القمار من خراب البيوت ودمار الأسر وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين ، كل ذلك محسوس مشاهد وإذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه ظهر خطر المنكر الخبيث ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ أي ويسألونك ماذا ينفقون وماذا يتركون من أموالهم ؟ قل لهم : أنفقوا الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أي كما يبين لكم الأحكام يبين لكم المنافع والمضار والحلال والحرام ﴿لعلكم تتفكرون﴾ في الدنيا والآخرة أي لتفكروا في أمر الدنيا والآخرة فتعلموا أن الأولى فانية والآخرة باقية فتعملوا لما هو

الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ

أصلح ، والعاقل من أثر ما يبقى على ما يفنى . ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾ أي ويسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أيخالطونهم أم يعتزلونهم ؟ فقل لهم : مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ أي إذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين ، وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب ، ومن حقوق هذه الأخوة المخالطة بالإصلاح والنفع ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أي والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم ، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازي كلاً بعمله ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ أي لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة وشدد عليكم ولكنه يسهل عليكم الدين وسهله رحمة بكم ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم فيما يشرع لعباده من الأحكام ثم قال تعالى محذراً من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ أي لا تتزوجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ أي ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة ، ولو أعجبتكم المشركة بجملها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ أي ولا تزوجوا بناتكم من المشركين - وثنيين كانوا أو أهل كتاب - حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبتكم ﴾ أي ولأن تزوجوهن من عبد مؤمن خير لكم من أن تزوجوهن من حرّ مشرك مهما أعجبتكم في الحسب والنسب والجمال ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار وهو الكفر والفسوق فحقوقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم ﴿ والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب ﴿ ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب . . ثم بين تعالى أحكام الحيض فقال ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم ؟ فقل لهم : إنه شيء مستقذر ومعاشرتهن في هذه الحالة فيه أذى للزوجين ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ أي اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض ﴿ ولا تقربوهن

حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتَ
 شَتْمٌ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ
 أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ
 بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

حتى يَطْهَرْنَ ﴿٢٢٢﴾ أي لا تجمعهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن . والمراد التنبيه على أن الغرض عدم
 المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة
 ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا تطهرن بالماء فأتوهن في المكان الذي أحله الله لكم ،
 وهو مكان النسل والولد القبيل لا الدبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي يحب التائبين
 من الذنوب ، المنتزهين عن الفواحش والأقذار ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتَ شَتْمٌ﴾ أي نساؤكم
 مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكون الولد ، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه
 إلى غيره قال ابن عباس : « اسق نباتك من حيث ينبت » ومعنى ﴿أَنْتَ شَتْمٌ﴾ أي كيف شتتم قائمة وقاعدة
 ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث « الفرج » وهو رد لقول اليهود : إذا أتى الرجل امرأته في قبلها
 من دبرها جاء الولد أحول ﴿وقدّموا لأنفسكم﴾ أي قدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخراً في الآخرة
 ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾ أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه
 فيجازيكم بأعمالكم ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿ولا تجعلوا الله عرضة
 لأيمانكم﴾ أي لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير فتتعللوا باليمين بأن يقول أحدكم : قد
 حلفت بالله ألا أفعله وأريد أن أبرّ بيمينني بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم قال ابن عباس : لا تجعلن
 الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين
 الناس﴾ أي لا تجعلوه تعالى سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد نزلت في « عبد الله بن
 رواحة » حين حلف ألا يكلم ختنه « النعمان بن بشير » ولا يصلح بينه وبين أخته ﴿والله سميع عليم﴾ أي
 سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم . . ثم قال تعالى ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا
 يؤاخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدكم : بلى والله ، ولا
 والله لا يقصد به اليمين ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أي يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم
 القلب عليه من الإيمان إذا حثتم فيها ﴿والله غفور حلیم﴾ أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة .

(١) وقيل المعنى : لا تكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفاً لأيمانكم تبذلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير ، عظيم أو حقير إرادة أن تبروا
 وتتقوا وتصلحوا فإن الحلاف لا يكون براً ولا تقياً .

البلاغة : ١ - ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ فيه إيجاز بالحذف أي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر .

٢ - ﴿وإنهما أكبر من نفعهما﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال وهو ما يسمى في البلاغة بـ « الإطناب » .

٣ - ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجملٌ .

٤ - ﴿المفسد من المصلح﴾ في الآية طباقٌ بين كلمة « المفسد » و « المصلح » وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة﴾ كذلك يوجد طباق بين كلمة « النار » وكلمة « الجنة » .

٦ - ﴿قل هو أذى﴾ فيه تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً وأصله الخيض شيء مستقذر كالأذى فحذف ذلك مبالغة على حد قولهم : عليّ أسد .

٧ - ﴿ولا تقر بهن﴾ كناية عن الجماع .

٨ - ﴿نساؤكم حرث﴾ على حذف مضاف أي موضع حرث أو على سبيل التشبيه فالمرأة كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات الخارج ، فالحرث بمعنى المحترث سمي به على سبيل المبالغة .

الفوائد : الأولى : تسمى الخمر أم الخبائث لأنها سبب في كل فعل قبيح ، روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبداً فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريته فقالت له : إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جارتها ، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضیئة ، عندها غلامٌ وباطية خمر فقالت : إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليّ أو تشرب من هذه الخمر كأساً أو تقتل هذا الغلام ، قال فاسقيني من هذه الخمر كأساً فسقته كأساً فقال : زيدوني فزادوه فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإيمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه » .

الثانية : كيف يكون في الخمر منافع مع أنها تذهب بالعقل والمال ؟ والجواب أن المراد بالمنافع في الآية « المنافع المادية » حيث كانوا يتاجرون بها فيربحون منها الربح الفاحش ويحتمل أن يراد بالنفع تلك اللذة والنشوة المزعومة التي عبر عنها الشاعر بقوله :

ونشربها فتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنها اللقاء

قال القرطبي : وشارب الخمر يصير ضحكة للعقلاء فيلعب ببوله وعذرتة وربما يمسح وجهه حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول : اللهم اجعلني من التوايين واجعلني من المتطهرين ورؤي بعضهم

والكلب يلحس وجهه وهو يقول : أكرمك الله كما أكرمتني^(١)

الثالثة : قال الزمخشري : ﴿فاعتزلوا النساء﴾ ﴿من حيث أكرمك الله﴾ ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة ، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة ، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . . إلى . . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾

من آية (٢٢٦) إلى نهاية آية (٢٣٠) .

المناسكة : ذكر تعالى في الآيات السابقة بعض الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسم الأمة وتحل عرى الجماعة وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر ، ثم انتقل إلى الحديث عن الأسرة باعتبار أنها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل ، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع ، وابتدأ من أحكام الأسرة بالعلاقة الزوجية ونبه على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الدين لتظل العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص ، فالمشركة لا يحل لها أن تكون في حجر المسلم ، والمؤمنة لا يحل لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك ولهذا حرم الإسلام الزواج بالمشركات وتزويج المشركين بالمؤمنات ، ثم بين في هذه الآيات الكريمة بعض الأمراض التي تحل بالأسرة وتهدد كيانها فذكر منها الإيلاء ، والطلاق ، والخلع وبين العلاج الناجع لمثل هذه المشاكل التي تقوّض بنيان الأسرة .

اللفظة : ﴿يؤلون﴾ الإيلاء لغة : الحلف يقال : آلى يؤالى إيلاءً قال الشاعر :

فأليت لا أفك أحدو قصيدةً تكون وإياها بها مثلاً بعدي
وفي الشرع : اليمين على ترك وطء الزوجة ﴿تربص﴾ التربص : الانتظار ومنه ﴿قل تربصوا فإنني معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا ﴿فاءوا﴾ الفياء : الرجوع ومنه قيل للظل فيءٌ لأنه يرجع بعد أن تقلص قال الفراء : العرب تقول فلان سريع الفياء أي سريع الرجوع بعد الغضب قال الشاعر :

ففاءت ولم تقض الذي أقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضياً
﴿قروء﴾ جمع قرء اسم يقع على الحيض والطمهر فهو من الأضداد وأصل القرء : الاجتماع سمي به الحيض لاجتماع الدم في الرحم قال في القاموس : القرء بالفتح ويضم : الحيض والطمهر والوقت ، وجمع الطمهر قروء ، وجمع الحيض أقراء ﴿بعولتهن﴾ جمع بعل ومعناه الزوج ﴿وهذا بعلي شيخاً﴾ والمرأة بعله ﴿درجة﴾ الدرجة : المنزلة الرفيعة ﴿الطلاق﴾ مصدر طلقت المرأة ومعنى الطلاق : حل عقد النكاح وأصله الانطلاق والتخلية يقال : ناقة طالق أي مهملة تركت في المرعى بلا قيد ولا راعي ، فسميت المرأة المخلى سبيلها طالقاً لهذا المعنى ﴿تسريح﴾ التسريح : إرسال الشيء ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من

البعض ، وسرَّح الماشية أرسلها قال الراغب : والتسريح في الطلاق مستعارٌ من تسريح الإبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل (١) .

سَبَبُ النِّزُول : كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها ، فعمد رجل لامرأته فقال لها : لا أويك ولا أدعك تحلين قالت : وكيف ؟ قال أطلقك فإذا دنا مضى عدتك راجعتك ، فشكت المرأة أمرها للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿الطلاق مرتان . .﴾ الآية .

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ

النَّفْسِير : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي للذين يجلفون ألا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف - وهو كناية عن الجماع - أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وإن صمّموا على عدم المعاشرة والامتناع عن الوطء فإن الله سميعٌ لأقوالهم عليم بنياتهم ، والمراد من الآية أن الزوج إذا حلف ألا يقرب زوجته تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر فإن عاشرها في المدة فبها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفارة ، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمضي تلك المدة عند أبي حنيفة ، وقال الشافعي : ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفيئة أو الطلاق فإن امتنع عنها طلق عليه الحاكم هذا هو خلاصة حكم الإيلاء . . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة والطلاق الشرعي ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي الواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار - على قول الشافعي ومالك - أو ثلاث حيض على قول أبي حنيفة وأحمد ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها ، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدة عليها لقوله تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ﴾ ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حبلٍ أو حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنَّ حقاً مؤمنات بالله ويخشين من عقابه ، وهذا تهديد لهن حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ﴿وبعولتهنَّ أحق بردهنَّ في ذلك إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي وأزواجهن أحقُّ بهنَّ في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن

بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِجُ بِإِحْسَنِ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ^ط فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ^ط تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٢﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢٣﴾

وكان الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار، وهذا في الطلاق الرجعي ﴿ولهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي وهنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، بالمعروف الذي أمر تعالى به من حسن العشرة وترك الضرر ونحوه ﴿وللرجال عليهنَّ درجة﴾ أي وللرجال على النساء ميزة وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليف لا تشريف لقوله تعالى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي غالب ينتقم ممن عصاه حكيم في أمره وتشريعه ثم بيّن تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال ﴿الطلاق مرتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان﴾ أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان بألا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفر الناس عنها ﴿ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ أي لا يحلُّ لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئاً ولو قليلاً ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ أي إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى بها ﴿فإن خفتُم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي فإن خفتُم سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها ممَّا لم يشرعه الله ﴿ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي من خالف أحكام الله فقد عرَّض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد ﴿فإن طلقها فلا تحلُّ له من بعدُ حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي فإن طلق الرجل المرأة ثالث مرة فلا تحلُّ له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه ، بعد أن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته كما صرح به الحديث الشريف ، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد إنقضاء العدة إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ أي تلك شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور .^(١)

(١) انظر الحكمة التشريعية للطلاق في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٤٣ .

- البَلَاغَةُ : ١ - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ خرج الخبر عن ظاهره إلى معنى الوعيد والتهديد .
- ٢ - ﴿وَالْمُطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبرٌ في معنى الأمر وأصل الكلام وليربصُ المطلقاتُ قال الزمخشري : وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيدٌ للأمر وإشعارٌ بأنه مما يجب أن يُتلقى بالمسارعة إلى امثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجوداً ، وبنائوه على المبتدأ مما زاده فضل تأكيد^(١) .
- ٣ - ﴿إِنْ كُنَّ يَأْمَنْنَ بِاللَّهِ﴾ ليس الغرض منه التقييد بالإيمان بل هو للتهيج وتهويل الأمر في نفوسهن .
- ٤ - ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ فيه إيجاز وإبداع لا يخفى على المتمكن من علوم البيان ، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني ، ومن الثاني بقرينة الأول والمعنى : لهنَّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق ، وفيه من المحسنات البديعية أيضاً « الطباق » بين « لهنَّ » و « عليهنَّ » وهو طباق بين حرفين .
- ٥ - ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ﴾ بين لفظ « إمساك » ولفظ « تسريح » طباقاً أيضاً .
- ٦ - ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس ، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد .
- ٧ - ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر صفة على موصوف .
- فَكَايِدَةٌ : أول خلعٍ كان في الإسلام في امرأة (ثابت بن قيس) أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : لا يجمع الله رأسي ورأسه شيء أبداً ، والله ما أعيب عليه في خلقٍ ولا دين ولكن أكره الكفر بعد الإسلام فقال لها عليه السلام : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ففرق بينهما .
- لَطِيفَةٌ : روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إني لأحب أن أترين لأمرأتي كما تترين لي لأن الله تعالى يقول ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجْلُهُنَّ . . . إِلَى . . . وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

من آية (٢٣١) إلى نهاية آية (٢٣٢) .

الْمُنَاسَبَةُ : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضح طريقته وشروطه وآدابه وتنتهي عن الإيذاء والإضرار فوجه المناسبة إذاً ظاهر .

اللُّغَاتُ : ﴿فَلْيُغْنِ أَجْلُهُنَّ﴾ أي قارب من الانتهاء من العدة ﴿ضَرَارًا﴾ أي بقصد الإضرار قال القفال : الضرر هو المضارة كقوله ﴿مَسْجِدًا ضَرَارًا﴾ أي ليضاروا المؤمنين ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العضل : المنع

والتضييق يقال : أعضل الأمر أي أشكل وضاق في الحيل وداء عضال أي عسير أعياء الأطباء قال الأزهرى : وأصله من عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه^(١) ﴿يوعظ به﴾ يوصى ويؤمر به ﴿أزكى﴾ أغنى وأنفع يقال : زكا الزرع إذا نما بكثرة وبركة ﴿وأطهر﴾ الطهارة : التنزه عن الدنس والمعاصي .

سَبَبُ النِّزُولِ : روي أن «معقل بن يسار» زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويا وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له : يا لكع «أي يا لثيم» أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها !! والله لا ترجع إليك أبداً فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها فأنزل الله ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ . . .﴾ الآية فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعة ثم دعاها فقال : أزوجك وأكرمك^(٢) .

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا^٤ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ^٥ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^٦ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ^٧ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ^٨ مَنْ

النِّسَاءُ : ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعياً وقارب انقضاء العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجعوهن من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ، وفيه زجر لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدة يراجعها للإضرار بها ليطول عليها العدة لا للرغبة فيها ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي من يمسكها للإضرار بها أوليكرها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه لانه عرضها لعذاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي يرشدكم ويذكركم بكتابه وهدى رسوله إلى سعادتكم في الدارين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن فقال ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ

كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴿٢٣٢﴾ أي فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿٢٣٢﴾ ذلك يوعظه من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿٢٣٢﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل ينصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿٢٣٢﴾ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴿٢٣٢﴾ أي الاعتاظ بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأضرار الذنوب ﴿٢٣٢﴾ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٢٣٢﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك ، فامثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذكرون .

البَلاغَةُ : ١ - ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن أطلق اسم الكل على الأكثر فهو مجاز مرسل لأنه لو انقضت العدة لما جاز له إمساكها والله تعالى يقول ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ .

٢ - ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لأن النعمة يراد بها نعم الله والكتاب والسنة من أفراد هذه النعم .

٣ - ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ بين كلمة « اعلموا » و « عليم » من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق .

٤ - ﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ يراد بأزواجهن « المطلقين » لهن فهو من باب المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كان .

فَكَايِدَة : قال الإمام الفخر : الحكمة في إثبات حق الرجعة أن الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشق عليه المفارقة أو لا ؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان إذ قد تظهر المنجة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة أثبت تعالى حق المراجعة مرتين ، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده ^(١) .

قال الله تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين . . إلى . . ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعضل ، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع لأن الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه وربما أضععت الطفل أو حرمت الرضاع انتقاماً من الزوج وإيذاءً له في ولده ، لذلك وردت

هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم ، ثم أعقب ذلك ببيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدة فيه رعاية لحق الزوج ، كما ذكر تعالى موضوع خطبة المرأة في حالة العدة ، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر أو كامل المهر بعد الفراق أو الطلاق .

اللفظ : ﴿فَصَالًا﴾ الفصل والفصل : الفطام سمي به لأن الولد ينفصل عن لبن أمه إلى غيره من الأقوات قال المبرد : الفصل أحسن من الفصل لأنه إذا انفصل عن أمه فقد انفصلت عنه فبينهما فصل كالقتال والضراب ﴿تشاور﴾ التشاور : استخراج الرأي ومثله المشاورة والمشورة مأخوذ من الشور وهو استخراج العسل ﴿يذرون﴾ يتركون وهذا الفعل لا يستعمل منه الماضي ولا المصدر ﴿عرضتم﴾ التعريض : الإيحاء والتلويح من غير كشف وإظهار ، مأخوذ من عرض الشيء أي جانبه كقول الفقير للمحسن : جئت لأنظر إلى وجهك الكريم ﴿خطبة﴾ بكسر الخاء طلب النكاح وبالضم الموعظة كخطبة الجمعة والعديد ﴿أكنتم﴾ سترتم وأضمرتم والإكنان : السر والخفاء ﴿عقدة النكاح﴾ من العقد وهو الشد وفي المثل « يا عاقد اذكر حلاً » قال الراغب : العقدة اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرها ﴿حليم﴾ يميل العقوبة فلا يعجل بها للعاصي ﴿المقتر﴾ الفقير يقال : أقتر الرجل إذا افتقر .

سبب النزول : روي أن رجلاً من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها مهراً ثم طلقها قبل أن يمسيها فنزلت الآية ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ فقال له النبي ﷺ (متعها ولو بقلنسوتك)^(١) .

* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ

التفسير : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن لمدة سنتين كاملتين ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيام ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ أي لا يضر الوالدان بالولد فيفترطاً في تعهده ويقصراً في ما ينبغي له ، أو يضار أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضر أباه بتربيته ، وينتزع الأب الولد منها إضراراً بها مع رغبتها في إرضاعه ليغيظ أحدهما صاحبه ، قاله مجاهد ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أي وعلى الوارث مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها والمراد به وارث الأب وقيل : وارث الصبي ، والأول اختيار

ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَیَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٥٢﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

الطبري ﴿فإن أرادا فصلاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما﴾ أي فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعةً لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر ، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تُعنى بإرضاعه ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ أي على النساء اللواتي يموت أزواجهن أن يكتفن في العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حداً على أزواجهن وهذا الحكم لغير الحامل أما الحامل فعدتها ، وضع الحمل لقوله تعالى ﴿وأولاتُ الأحمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ﴿فإذا بلغن أَجَلَهُنَّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ أي فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهن بالزواج وفعل ما أباحه لهن الشرع من الزينة والتعرض للخطاب ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفى عنهن أزواجهن في العدة ، بطريق التلميح لا التصريح قال ابن عباس : كقول الرجل : وددت أن الله يسر لي امرأةً سالحة ، وإن النساء لمن حاجتي ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي ولا إثم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن ﴿علم الله أنكم ستذكروهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكروهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج ، فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن بالنكاح سراً إلا بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدة ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿واعلموا أن الله غفورٌ حلیم﴾ أي يحوذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه . ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل

حَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾

المساس فقال ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس «الجماع» وقبل أن تفرضوا لهن مهراً ، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ أي فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن المتعة تطبيقاً لخاطرهن وجبراً لوحشة الفراق ، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر ، الموسر بقدر يساره ، والمعسر بقدر إعساره ، تمتعاً بالمعروف حقاً على المؤمنين المحسنين ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ أي وإذا طلقتموهن قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهن مهراً معيناً فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمى لهن لأنه طلاق قبل المسيس ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ أي إلا إذا أسقطت المطلقة حقها أو أسقطولي أمرها الحق إذا كانت صغيرة ، وقيل : هو الزوج لأنه هو الذي يملك عقدة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعه لها واختاره ابن جرير ، وقال الزمخشري : القول بأنه الولي ظاهر الصحة (١) ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ الخطاب عام للرجال والنساء قال ابن عباس : أقربها للتقوى الذي يعفو ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم ، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة والإحسان والجميل بين الزوجين ، فإذا كان الطلاق قد تم لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعاً لروابط المصاهرة وشائج القربى .

البَلَاغَةُ : ﴿والوالدات يرضعن﴾ أمرٌ أُخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه أي ليرضعن كالأية السابقة ﴿والمطلقات يتربصن﴾ .

٢ - ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تسترضعوا المراضع لأولادكم ، كما أن فيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لأن ما قبله ﴿فإن أرادا فصلاً﴾ وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء .

٣ - ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ ذكر العزم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح ، فإذا نهى عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى .

(١) هذا القول مروى عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري : وصلح الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة ساقها بالطف بيان فانظرها في الكشف ٢١٧/١ .

٤ - ﴿ما لم تمسوهن﴾ كَتَى تعالى بالمسّ عن الجماع تأديباً للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به .

٥ - ﴿وأن تعفوا﴾ و﴿لا تنسوا الفضل﴾ الخطاب عام للرجال والنساء ولكنه ورد بطريق التغليب .

٦ - ﴿واعلموا أن الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة .

الفوائد : الأولى : التعبير بلفظ « الوالدات » دون قوله « المطلقات » أو النساء المطلقات لاستعطافهن نحو الأولاد ، فحصول الطلاق لهنّ لا ينبغي أن يجرمهنّ عاطفة الأمومة .

الثانية : أضاف تعالى الولد في الآية الكريمة إلى كل من الأبوين في قوله ﴿والدة بولدها﴾ و﴿مولود بولده﴾ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق عليه ، فالولد ليس أجنبياً عن الوالدين هذه أمه وذاك أبوه فمن حقهما أن يشفقا عليه ولا تكون العداوة بينهما سبباً للإضرار به .

الثالثة : الحكمة في إيجاب المتعة للمطلقة هي جبر إيجاش الطلاق قال ابن عباس : إن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب ، وإن كان موسراً متعها بخادم .

الرابعة : روي أن الحسن بن علي متّع زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت المرأة « متاع قليل من حبيب مفارق » وسبب طلاقه إياها ما روي أنه لما أصيب عليّ كرم الله وجهه وبويع الحسن بالخلافة قالت له : لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين ! فقال : يُقتل عليّ وتظهرين الشبهة ؟ إذهبي فأنت طالق ثلاثاً ، فتلفعت بجلبابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إليها بعشرة آلاف متعة وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت ذلك ، فلما أخبره الرسول بكى وقال : لولا أنني طلقته ثلاثاً لراجعتها^(١) .

قال الله تعالى : ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى .. إلى .. يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ من آية (٢٣٨) إلى نهاية آية (٢٤٢)

المناسكة : توسّطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك لحكمة بليغة ، وهي أن الله تعالى لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق بيّن بعد ذلك أمر الصلاة ، لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها ولهذا كان ﷺ إذا حزبه هم فزع إلى الصلاة فالطلاق يؤلّد الشحنة والبغضاء ، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح وتنتهي عن الفحشاء والمنكر ، وذلك أفضل طريق لتربية النفس الإنسانية .

اللفت : ﴿حافظوا﴾ المحافظة : المداومة على الشيء والمواظبة عليه ﴿الوسطى﴾ مؤنث

الأوسط ، ووسط الشيء خيره وأعدله قال أعرابي يمدح الرسول ﷺ :

يا أوسط الناس طراً في مفاخرهم وأكرم الناس أمّا برّةً وأبا
﴿قانتين﴾ أصل القنوت في اللغة : المداومة على الشيء وقد خصّه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها
على وجه الخشوع والخضوع قال تعالى ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ ﴿فرجالاً﴾ جمع راجل وهو القائم على
القدمين قال الراغب : اشتقّ من الرجل راجلٌ للماشي بالرجل ويقال : رجل راجلٌ أي قويٌّ على المشي^(١)
﴿ركباناً﴾ جمع راكب وهو من يركب الفرس والدابة ونحوهما .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ
مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَا فَلَاحُ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

التفسير : ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى﴾ أي واطلبوا أيها المؤمنون وداوموا على
أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي داوموا على
العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع أي قوموا لله في صلاتكم خاشعين ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبناً﴾ أي
فإذا كنتم في خوفٍ من عدوٍ أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿فإذا أمنتهم فاذكروا
الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع
الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم وهذه كقوله ﴿فإذا أطمأننتهم فأقيموا الصلاة﴾ والذكرُ
في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان قال الزمخشري : المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم
بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة ﴿والذين
يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهنّ متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ أي والذين يموتون من رجالكم
ويتركون زوجاتهم على هؤلاء أن يوصوا قبل أن يموتوا بأن تمتّع أزواجهنّ بعدهنّ حولاً كاملاً ، يُتفق
عليهنّ من تركتهنّ ولا يُخرجنّ من مساكنهنّ - وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر
وعشرة أيام ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ أي فإن خرجن مختارات
راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزني والتطيب والتعرض
للخطاب ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي هو سبحانه غالبٌ في ملكه حكيم في صنعه ﴿وللمطلقات متاع

بالمعروف حقاً على المتقين ﴿أي واجباً على الأزواج أن يمتنع المطلقات بقدر استطاعتهم جبراً لوحشة الفراق وهذه المتعة حقٌ لازم على المؤمنين المتقين لله﴾ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴿أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة يبين الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها .

البلاغَة : ١ - ﴿الصلاة الوسطى﴾ عطف خاص على عام لبيان مزيد فضلها .

٢ - ﴿فإن خفتهم﴾ ﴿فإذا أمتهم﴾ بين لفظ خفتهم وأمتهم طباق وهو من المحسنات البديعية قال أبو السعود : وفي إيراد الشرطية بكلمة « إن » المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف ، وإيراد الثانية بكلمة « إذا » المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار^(١) .

تنبية : الصلاة الوسطى على الراجح من الأقوال هي صلاة العصر لأنها وسط بين الفجر والظهر والمغرب والعشاء ويقوي هذا ما ورد في الصحيحين (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً) وفي الحديث (الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله) أخرجه الشيخان وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة .

قال الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف . . . إلى . . . وإنك لمن المرسلين﴾ من آية (٢٤٢) إلى نهاية آية (٢٥٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها ، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل ، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات ، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشد الحياة الكريمة ، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع ، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره ، ولهذا أمر تعالى بالقتال وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة ، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها ، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله .

اللفظة : ﴿ألوف﴾ جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف ، ومعناه كثرة كاثرة وألوف مؤلفة ﴿حذر﴾ خشية وخوف ﴿يقبض ويبسط﴾ القبض : ضم الشيء والجمع عليه والمراد به التقدير والبسط ضده والمراد به التوسيع قال أبو تمام :

تعوّد بسط الكف حتى لو أنه دعاها لقبض لم تجبه أنامله

﴿الملا﴾ الأشراف من الناس سموا بذلك لأنهم يملأون العين مهابة وإجلالاً ﴿فصل﴾ انفصل من مكانه يقال : فصل عن الموضع انفصل عنه وجاوزه ﴿مبتليكم﴾ مختبركم ﴿يظنون﴾ يستيقنون ويعلمون ﴿فتة﴾ الفتة : الجماعة من الناس لا واحد له كالرھط والنفر ﴿أفرغ﴾ أفرغ الشيء صبّه وأنزله .

* ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ^{٢٤} إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ^{٢٧} وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم أبعث لنا ملكاً نقاتل

الْفِصْيَر : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾ أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة ﴿حذر الموت﴾ أي خوفاً من الموت وفراراً منه ، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفاً ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أي أماتهم الله ثم أحياهم ، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم « حزقيل » فعاشوا بعد ذلك دهرًا ، وقيل : هربوا من الطاعون فأماتهم الله قال ابن كثير : وفي هذه القصة عبرة على أنه لا يغني حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصّرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل ينكرون ويحسدون ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع لأقوالكم ، عليم بنياتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها ، وكما أن الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرب أجلاً ولا يبعده﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضْعَافاً كثيرة ﴿أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله ، ولا إلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير ، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضْعَافاً كثيرة ؟ لأنه قرض لأغنى الأغنياء رب العالمين جل جلاله وفي الحديث (من يقرض غير عديم ولا ظلوم ^(١)) ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي يقتّر على من يشاء ويوسع على من يشاء ابتلاءً وامتحاناً ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك ؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام كما دلت عليه الآية ﴿إذ قالوا لنبيّ لهم أبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ أي حين قالوا لنبيّهم « شمعون » - وهو من نسل

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث النزول ، وانظر مختصر ابن كثير ٢٢٢/١ .

فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ
 أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ
 نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ
 سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ

هارون^(١) أقم لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿٢٤٦﴾ قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴿٢٤٧﴾ أي قال لهم نبيهم : أحشى أن يفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجنبوا عن لقائه ﴿٢٤٨﴾ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴿٢٤٩﴾ أي أي سبب لنا في ألا نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد ؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجن ﴿٢٥٠﴾ فلما كُتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم ﴿٢٥١﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا ، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ، قال القرطبي : وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة ، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جُبنت وانقادت لطبعها^(٢) ﴿٢٥٢﴾ والله عليم بالظالمين ﴿٢٥٣﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصياناً لأمره تعالى ﴿٢٥٤﴾ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴿٢٥٥﴾ أي أخبرهم نبيهم بأن الله تعالى قد ملّك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم ﴿٢٥٦﴾ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴿٢٥٧﴾ أي قالوا معترضين على نبيهم كيف يكون ملكاً علينا والحال أننا أحق بالملك منه لأن فينا من هو من أولاد الملوك وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا ؟ ﴿٢٥٨﴾ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴿٢٥٩﴾ أي أجابهم نبيهم على ذلك الاعتراض فقال : إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم ، والعمدة في الاختيار أمران : العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة ، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب ، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد ، وقد خصّه الله تعالى منها بحظ وافر قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم ، وشكل حسن ، وقوة شديدة في بدنه ونفسه^(٣) ، ﴿٢٦٠﴾ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴿٢٦١﴾ أي يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرث أو مال ﴿٢٦٢﴾ والله واسع عليم ﴿٢٦٣﴾ أي واسع الفضل عليم بمن هو أهل له فيعطيه إياه . . . ولما طلبوا آية تدل على اصطفاة الله لطالوت أجابهم إلى ذلك ﴿٢٦٤﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه ﴿٢٦٥﴾ أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿٢٦٦﴾ أن يأتيكم التابوت الذي أخذ منكم ، وهو كما قال الزمخشري : صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿٢٦٧﴾ فيه سكينه من

ءَالَ مُوسَىٰ وَءَالَ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ۖ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ۖ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلْكُوا اللَّهَ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ﴿٢٤٨﴾ أي في التابوت السكون والطمأنينة والوقار وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون ﴿٢٤٩﴾ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴿٢٤٩﴾ أي إن في نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿٢٤٩﴾ فلما فصل طالوت بالجنود ﴿٢٤٩﴾ أي خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفاً أخذ بهم في أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد ﴿٢٤٩﴾ قال إن الله مبتليكم بنهر ﴿٢٤٩﴾ أي مختبركم بنهر وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين ﴿٢٤٩﴾ فمن شرب منه فليس مني ﴿٢٤٩﴾ أي من شرب منه فلا يصحبي - وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب - ﴿٢٤٩﴾ ومن لم يطعمه فإنه مني ﴿٢٤٩﴾ أي من لم يشرب منه ولم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي ﴿٢٤٩﴾ إلا من اغترف غرفة بيده ﴿٢٤٩﴾ أي لكن من اغترف قليلاً من الماء ليل عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك ، فأذن لهم برشفة من الماء تذهب بالعطش ﴿٢٤٩﴾ فشربو منه إلا قليلاً منهم ﴿٢٤٩﴾ أي شرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش قال السدي : شرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقى معه أربعة آلاف ﴿٢٤٩﴾ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ﴿٢٤٩﴾ أي لما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم اعتراهم الخوف فقال فريق منهم ﴿٢٤٩﴾ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴿٢٤٩﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة ﴿٢٤٩﴾ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴿٢٤٩﴾ أي قال الذين يعتقدون بقاء الله وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت ﴿٢٤٩﴾ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿٢٤٩﴾ أي كثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله ومشئته ، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله ﴿٢٤٩﴾ والله مع الصابرين ﴿٢٤٩﴾ أي معهم بالحفظ والرعاية والتأييد ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله ﴿٢٤٩﴾ ولما برزوا لجالوت وجنوده ﴿٢٤٩﴾ أي ظهرُوا في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار جالوت المدرب على الحروب ﴿٢٤٩﴾ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴿٢٤٩﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا أولاً : ربنا أفض علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك ﴿٢٤٩﴾ وثبت أقدامنا ﴿٢٤٩﴾ أي ثبتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

سبيلاً إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده وهي الدعوة الثالثة قال تعالى إخباراً عنهم ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأنيده إجابة لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرتهم ﴿وقتل داود جالوت﴾ أي وقتل داود - وكان في جيش المؤمنين مع طالوت - رأس الطغيان جالوت واندحر جيشه ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ أي أعطى الله تعالى داود الملك والنبوة وعلمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه قال ابن كثير : كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي لولا أن يدفع الله شرّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة ، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار ﴿ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين﴾ أي ذو تفضلٍ وإنعامٍ على البشر حيث لم يمكن للشر من الاستعلاء ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ أي وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عز وجل .

البَلاغَةُ : قال أبو حيان : تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان أموراً كثيرة منها الاستفهام الذي أجري مجرى التعجب في قوله ﴿ألم تر إلى الذين﴾ والحذف بين ﴿موتوا ثم أحياهم﴾ أي فماتوا ثم أحياهم ، والطباق في قوله ﴿موتوا﴾ و﴿أحياهم﴾ وكذلك في قوله ﴿يقبض﴾ و﴿يسسط﴾ والتكرار في قوله ﴿فضلٍ على الناس﴾ و﴿لكن أكثر الناس﴾ والالتفات في ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ والتشبيه بدون الأداة في قوله ﴿قرضاً حسناً﴾ شبه قبوله تعالى إنفاق العبد في سبيله بالقرض الحقيقي فأطلق اسم القرض عليه ، والتجنيس المغاير في قوله ﴿فيضاعفه﴾ وقوله ﴿أضعافاً﴾^(١) .

٢ - ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ فيه استعارة تمثيلية فقد شبه حالهم والله تعالى يفيض عليهم بالصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله ، ظاهره وباطنه فيلقي في القلب برداً وسلاماً وهُدوءاً واطمئناناً .

الفَوَائِد : الأولى : أسند الاستقراض إلى الله في قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ وهو المنزه عن الحاجات ترغيباً في الصدقة كما أضاف الإحسان إلى المريض والجائع والعطشان إلى نفسه تعالى في قوله جلَّ

وعلا في الحديث القدسي « ابن آدم مرضت فلم تعدني » و « استطعمتك فلم تطعمني » و « استسقيتك فلم تسقني » الحديث الذي رواه الشيخان .

الثانية : روي أنه لما نزلت الآية الكريمة جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ! قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله يده قال : فإنني قد أقرضت ربي حائطي - أي بستاني وكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل ^(١) ، وفي رواية قالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح وخرجت منه مع عيالها .

الثالثة : قال البقاعي : ولعل ختام بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبي ﷺ من واضح الدلالة على صحة رسالته لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل ^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . . . إلى . . . والكافرون هم الظالمون ﴾

من آية (٢٥٣) إلى نهاية آية (٢٥٤) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل ، وتفضيل داود عليهم بالملك والنبوة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين ، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل ، ذكر في هذه الآية أن المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر .

اللفظة : « درجات » جمع درجة وهي المنزلة الرفيعة السامية « البيئات » المعجزات « وأيدناه » قويناه من التأييد بمعنى التقوية « روح القدس » القدس : الطهارة وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم « خلة » الخلة : الصداقة والمودة سميت بذلك لأنها تتخلل الأعضاء أي تدخل خلالها ومنه الخليل « شفاعة » مأخوذة من الشفع بمعنى الضم ، والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصر له وسائلاً عنه .

* تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

النفسير : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبيائهم يا محمد هم رسل الله حقاً ، وقد فضلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية « منهم من كلم الله » أي منهم من خصه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام « ورفع بعضهم درجات » أي ومنهم من خصه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة ، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل « وآتيناه عيسى ابن مريم البيئات » أي

(١) أخرجه البزار والطبراني عن ابن مسعود . (٢) عاين التأويل ٣ / ٦٥٠ .

الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدَنَّهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿وأيَّدَنَّهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى بن مريم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم ، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا ، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ أي ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم ، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكن الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة ، وكل ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه ، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه فيكون كالبيع ، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب ، ولا شافعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله رب العالمين ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً ، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿تلك الرسل﴾ الإشارة بالبعيد لبعده مرتبتهم في الكمال .

٢ - ﴿منهم من كلم الله . .﴾ الآية تفصيلٌ لذلك التفضيل ويسمى هذا في البلاغة : التقسيم وكذلك في قوله ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ وبين لفظ « آمن » و« كفر » طباق .

٣ - الإطناب وذلك في قوله ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ حيث كرر جملة ﴿ولو شاء الله﴾ .

٤ - ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ قصر صفة على الموصوف ، وقد أكدت بالجملة الإسمية وبضمير

الفصل .

فَكَايِدَةٌ : روي عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل « والظالمون هم الكافرون » ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم يخلص منه إلا من عصمه الله .

تَنْبِيْهُ : يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إليه الزمخشري حيث قال : أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون ، وإثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج ﴿ومن كفر﴾ مكان ﴿ومن لم يحج﴾ ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ .

قال الله تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . إلى . . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ من آية (٢٥٥) إلى نهاية آية (٢٥٧) .

المناسكة : لما ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، ويين أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين ، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يستدعي الصراع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع ، فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا متفاوتين في الفضل إلا أنهم جميعاً جاءوا بدعوة واحدة هي « دعوة التوحيد » فرسالتهم واحدة ودينهم واحد ، وأنه لا إكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه .

اللفظة : ﴿الحي﴾ ذو الحياة الكاملة ومعناه الباقي الدائم الذي لا سبيل للفناء عليه ﴿القيوم﴾ القائم بتدبير الخلق ﴿سنة﴾ بكسر السين النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور قال الشاعر :

وسنان أقعده النعاس فرئقت في عينه سنة وليس بنائم
﴿يؤوده﴾ يثقله ويتعبه ﴿العلي﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه ﴿إكراه﴾ الإكراه : حمل الشخص على ما يكره بطريق القسر والجبر ﴿الطاغوت﴾ من الطغيان وهو كل ما يطغي الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿الوثقى﴾ مؤثث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثق ﴿انقصام﴾ الانقصام : الانكسار قال الفراء : الانقصام والانقصام لغتان وبالفاء أفصح وقال بعضهم : الفصم انكسار بغير بينونة والقصم انكسار ببينونة .

سَبَبُ الزَّوْلِ : كان لرجل من الأنصار ابنان تنصرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفر من التجار يحملون الزيت ، فلزمهما أبوهما وقال : لا أدعكما حتى تسلما فنزلت ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾^(١) . الآية .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ أي هو الله جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد ، ذو الحياة الكاملة ، الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ

عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمٰتِ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

والتدبير ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أي لا يأخذه نعاس ولا نوم كما ورد في الحديث (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه) ، ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي جميع ما في السموات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى قال ابن كثير : وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يعلم ما هو حاضر ومشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أمامهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أي لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أعلمهم إياه على السنة الرسل ﴿ وسع كرسية السموات والأرض ﴾ أي أحاط كرسية بالسموات والأرض لبطوته وسعته ، والسموات السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة ، وروي عن ابن عباس ﴿ وسع كرسية ﴾ قال : علمه بدلالة قوله تعالى ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً ﴾ فأخبر أن علمه وسع كل شيء ^(١) وقال الحسن البصري : الكرسي هو العرش قال ابن كثير : والصحيح أن الكرسي غير العرش وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ﴿ ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السموات والأرض ومن فيهما وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ أي لا إكراه ولا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام ، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله فقد تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿ لا انفصام لها ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم ، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك

(١) قال ابن جرير : وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن ولأن أصل الكرسي العلم ، ومنه يقال للعلماء كراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال أوتاد الأرض انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير .

والضلال ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ما كثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً .

البَلَاغَةُ : ١ - في آية الكرسي أنواع من الفصاحة وعلم البيان منها حسن الافتتاح لأنها افتتحت بأجل أسماء الله تعالى ، وتكرار اسمه ظاهراً ومضمراً في ثمانية عشر موضعاً ، والإطناب بتكرير الصفات ، وقطعُ الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف ، والطباقُ في ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أفاده صاحب البحر المحيط .

٢ - ﴿استمسك بالعروة الوثقى﴾ استعارة تمثيلية حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالحبل المحكم ، وعدم الانفصام ترشيحاً .

٣ - ﴿من الظلمات إلى النور﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور قال في تلخيص البيان : وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد ، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر ، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب ، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب ^(١) .

فكائِدَة : أفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة .

تنبيه : آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله وفيها اسم الله الأعظم كما جاء في الحديث الشريف : (اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث : سورة البقرة وآل عمران وطه) قال هشام : أما البقرة فقوله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي آل عمران ﴿الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي طه ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ قال ابن كثير : وقد اشتملت على عشر جملٍ مستقلة ، متعلقة بالذات الإلهية وفيها تمجيد الواحد الأحد ^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه . . إلى . . يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ من آية (٢٥٨) إلى نهاية آية (٢٦٠) .

المناسِكة : لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية ، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين ، ذكر هنا نموذجاً عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله ، فذكر ههنا قصصاً ثلاثة : الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم والثانية والثالثة في إثبات الحشر ، والبعث بعد الفناء .

اللفكة : ﴿حاجَّ﴾ المحاجة : المغالبة يقال : حاججته فحججته ، وحاجَّه أي بادلته الحجة

﴿فبهت﴾ انقطع وسكت متحيراً قال العذري :

فما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبهتُ حتى ما أكاد أجيب
﴿خاوية﴾ ساقطة ﴿عروشها﴾ العرش : سقف البيت ، وكلُّ ما يهيا ليظلُّ أو يكنَّ فهو عريش ﴿يتسنَّه﴾
يتغيَّر ويتبدَّل من تسنَّهت النخلة إذا أتت عليها السنون وغيرتها ﴿ننشزها﴾ نركب بعضها فوق بعض من
النشاز وهو الرفع يقال لما ارتفع من الأرض نشز ومنه نشوز المرأة ﴿فصرهنَّ﴾ ضمهنَّ إليك ثم اقطعهنَّ من
صار الشيء يصوره إذا قطعه .

ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال
أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله
لا يهدي القوم الظالمين ﴿٢٥٨﴾ أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أني يحيي هذه الله بعد
موتها فأما الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر

النفسير : ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر ،
المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إلى ذلك المارد وهو « النمرود بن كنعان » الذي جادل إبراهيم في
وجود الله ؟ ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حمله بطره بنعم الله على إنكار وجود الله ،
فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان ﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت﴾ أي حين قال له إبراهيم
مستدلاً على وجود الله إن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده رب العالمين ﴿قال أنا
أحيي وأميت﴾ أي قال ذلك الطاغية وأنا أيضاً أحيي وأميت ، روي أنه دعا برجلين حكم عليهما
بالإعدام فأمر بقتل أحدهما فقال : هذا قتلته ، وأمر بإطلاق الآخر وقال : هذا أحييته ، ولما رأى الخليل
حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشدَّ إفحاماً ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي
بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ أي إذا كنت تدعي الألوهية وأنتك تحيي وتميت كما يفعل رب
العالمين جل جلاله فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيتها فأطلعها من المغرب بقدرتك
وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فبهت الذي كفر﴾ أي أحرس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة ، وأصبح مبهوراً
دهشاً لا يستطيع الجواب ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة
والبرهان بخلاف أوليائه المتقين ﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ وهذه هي القصة الثانية
وهي مثل لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إلى علمك كذلك مثل الذي مرَّ على قرية وقد سقطت
جدرانها على سقوفها وهي قرية بيت المقدس لما خربها بختنصر ﴿قال أني يحيي هذه الله بعد موتها﴾ أي
قال ذلك الرجل الصالح واسمه « عزير » على الرأي الأشهر : كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها
ودمارها ؟ قال ذلك استعظماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب

إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٗ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۖ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمِنَ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۖ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

والدمار ، وكان راكباً على حماره حيناً مرَّ عليها ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ أي قال له ربه بواسطة الملك كم مكثت في هذه الحال ؟ قال يوماً ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال : أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ أي بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لن يتسنه﴾ أي إن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنبٌ وتينٌ وعصير فوجدها على حالها لم تفسد ﴿وانظر إلى حمارك﴾ أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلًا من البلي ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحماً بقدرتنا ﴿فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال أيقنت وعلمت علم مشاهدة أن الله على كل شيء قدير ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء والمعنى : اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان ، ولهذا خاطبه ربه بقوله ﴿قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبك﴾ أي أولم تصلِّق بقدرتي على الإحياء ؟ قال بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرةً وسكون قلب بروية ذلك ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهنَّ إليك﴾ أي خذ أربعة طيور فضمهنَّ إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً﴾ أي فرِّق أجزاءهن على رؤوس الجبال ﴿ثم ادعهنَّ يأتينك سعيًا﴾ أي نادهنَّ يأتينك سرعات قال مجاهد : كانت طاووساً وغراباً وحمامةً وديكاً فذبجهن ثم فعل بهن ما فعل ثم دعاهن فأتين سرعات ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي لا يعجز عما يريد حكيم في تدبيره وصنعه . قال المفسرون : ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماءها ولحومها ثم أمسك برؤوسها عنده وجزأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيراً كما كانت وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل . ذكره ابن كثير .

البَلَاغَةُ ١٠: ﴿ألم تر﴾ الرؤية قلبية والاستفهام للتعجيب .

٢ - ﴿يحيي ويميت﴾ التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار ، والصيغة تفيد القصر ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ لأن المبتدأ والخبر وردا معرفتين والمعنى أنه وحده سبحانه هو الذي يحيي ويميت ، وبين كلمتي « يحيي » و « يميت » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ « المشرق » و « المغرب » .

٣ - ﴿فبهت الذي كفر﴾ التعبير بالنص السامي يشعر بالعلة وأن سبب الحيرة هو كفره ولو قال : فبهت الكافر لما أفاد ذلك المعنى الدقيق .

٤ - ﴿أتى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ موت القرية هو موت السكان فهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال ويسمى المجاز المرسل .

٥ - ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ نسترها به كما يستر الجسد باللباس قال أبو حيان : الكسوة حقيقة هي ما وراء الجسد من الثياب واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطى العظم وهي استعارة في غاية الحسن^(١) .

الفَوَائِد : الأولى : قال مجاهد : ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان ، وكافران فالؤمنان « سليمان بن داود » و « ذو القرنين » والكافران « النمرود » و « بختنصر »^(٢) الذي خرب بيت المقدس .

الثانية : لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التليس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد ، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال ﴿إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه .

الثالثة : سأل الخليل ربه بقوله ﴿كيف تحيي الموتى﴾ ليس عن شك في قدرة الله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ويدل عليه وروده بصيغة ﴿كيف﴾ وموضوعها السؤال عن الحال ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم) ومعناه : ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أخرى وأولى .

قال الله تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله . . إلى . . وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾

من آية (٢٦١) إلى نهاية آية (٢٦٩) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان : أولياء الله وهم المؤمنون ، وأولياء الطاغوت وهم الكافرون ثم أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان ، ذكر هنا ما يرغب في الإنفاق في

سبيل الله وخاصة في أمر الجهاد لأعداء الله ، لأن الجهاد في سبيل الحق له ميادين ثلاثة : أولها الإقناع بالحجة والبرهان وثانيها الجهاد بالنفس وثالثها الجهاد بالمال ، فلما ذكر فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال .

اللفظ : ﴿الْمَنْ﴾ أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه ، وأن يذكره النعمة على سبيل التطاول والتفضل قال الشاعر :

أفسدت بالْمَنْ ما أسديت من حَسَن ليس الكريم إذا أسدى بمَنان
﴿رئاء الناس﴾ لا يريد بإنفاقه رضى الله وإنما يريد ثناء الناس وأصله من الرؤية وهو أن يرى الناس ما يفعله حتى يشنوا عليه ويعظموه ﴿صفوان﴾ الصفوان : الحجر الأملس الكبير قال الأخفش : وهو جمع واحده صفوانه وقيل : هو اسم جنس كالحجر ﴿وابل﴾ الوابل : المطر الشديد ﴿صلداً﴾ الصلْدُ : الأملس من الحجارة وهو كل ما لا ينبت شيئاً ومنه جبين أصلد ﴿بربوة﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض يقال : ربوة ورابية وأصله من ربا الشيء إذا زاد وارتفع ﴿طل﴾ الطل : المطر الخفيف الذي تكون قطراته صغيرة وقال قوم منهم مجاهد : الطل الندى ﴿إعصار﴾ الإعصار : الريح الشديدة التي تهب من الأرض وترتفع إلى السماء كالعمود ويقال لها : الزوبعة ﴿تيمموا﴾ تقصدوا ﴿تغمضوا﴾ من أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه وهذا كالأغضاء عند المكروه .

سَبَبُ النُّزُول : نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك ، حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار ، فصار رسول الله ﷺ يقلبها ويقول : ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم ، وأتى عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم فقال يا رسول الله : كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسى ولعيالى أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها ربي ، فقال له رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ، فنزلت فيها الآية ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله . .﴾ (١) الآية .

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسْعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا

التفسير : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ قال ابن كثير : هذا مثل ضرب به الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثل حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿في كل سنبل مائة حبة﴾ أي كل سنبل منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلَّتْ سبعمائة حبة ، وهذا تمثيل لمضاعفة

أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا
 أَذَى ۖ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ
 النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَنُفِلَ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَا
 يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
 مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ

الأجر لمن أخلص في صدقته ولهذا قال تعالى ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل عليم بنية المنفق ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى﴾ أي لا يقصدون بانفاقهم إلا وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمن على من أحسنوا إليه كقوله قد أحسنت إليك وجبرتُ حالك ، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا يعترهم فزع يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائت من زهرة الدنيا ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ أي رد السائل بالتي هي أحسن والصفح عن إلحاحه ، خير عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذل السؤال ﴿والله غني حليم﴾ أي مستغن عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره . . ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ أي لا تحبطوا أجرها بالمن والأذى ﴿كالذي ينفق ماله رياء الناس﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يصدق بقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فمثلته كمثل صفوان عليه تراب﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الطائر أرضاً طيبة منتبة ﴿فأصابه وابل فتركه صلداً﴾ أي فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ولهذا قال تعالى ﴿لا يقدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي لا يجدون له ثواباً في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها أصلاً ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد . . ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي ينفقونها طلباً لمرضاته وتصديقاً ببقائه تحقيقاً للثواب عليه ﴿كمثل جنّة بربرة﴾ أي كمثل بستان كثير الشجر بمكان مرتفع من الأرض ، وخصّت بالبربرة لحسن شجرها وزكاه ثمرها ﴿أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جنّة مضاعفة ، ضعفي ثمر غيرها من الأرض ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف أو يكفيها الندى

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان﴾ أي يجب أحدكم أن تكون له حديقة غناء فيها من أنواع النخيل والأعنان والثمار الشيء الكثير ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تمر الأنهار من تحت أشجارها ﴿له فيها من كل الثمرات﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدر على الكسب ﴿فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحترقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبين الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتصدقوا منه ﴿ولستم بأخذيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتكموه إِلَّا إِذَا تَسَاهَلْتُمْ وَأَغْمَضْتُمْ الْبَصَرَ فكيف تؤدون منه حق الله !! ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ أي أنه سبحانه غني عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء . . ثم حذر تعالى من وسوسة الشيطان فقال ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم ويغريكم بالبخل ومنع الزكاة ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرةً للذنوب وخلفاً لما أنفقتموه زائداً عن الأصل ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ أي يعطي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ أي من أعطي الحكمة فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿وما يذكر إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إِلَّا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى .

البلاغة : ١ - ﴿كمثل حبة﴾ شبه سبحانه الصدقة التي تُنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى فأصبحت سبعائة حبة ، ففيه تشبيه « مرسل مجمل » لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه قال أبو حيان : وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر ^(١) .

٢ - ﴿أنبت سبع سنابل﴾ إسناد الإنبات إلى الحبة إسناد مجازي ويسمى « المجاز العقلي » لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى .

٣ - ﴿منأً ولا أذى﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول لأن الأذى يشمل المن .

٤ - ﴿كمثل صفوان عليه تراب﴾ فيه تشبيه يسمى « تشبيهاً تمثيلاً » لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله ﴿كمثل جنةٍ بربوة﴾ .

٥ - ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة . .﴾ الآية ، لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذا النوع يسميه علماء البلاغة « استعارة تمثيلية » وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبه به فقط وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه ، والهمزة للاستفهام والمعنى على التبعيد والنفي أي ما يود أحدٌ ذلك .

٦ - ﴿تغمضوا فيه﴾ المراد به هنا التجاوز والمساهلة لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك ففي الكلام مجاز مرسل أو استعارة ^(٢) .

الفوائد : الأولى : قال الزمخشري : المن أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، وفي نوابغ الكلم « صنوان من منح سائله ومن ، ومن منع نائله وضمن » و « طعم الآلاء أحلى من المن وهي أمرٌ من الآلاء مع المن » ^(٣) وقال الشاعر :

وإن امرءً أسدى إليّ صنيعاً وذكر فيها مرةً للثيم

الثانية : المطر أوله رش ثم طش ثم طل ثم نضح ثم هطل ثم وبل والمطر الوابل الشديد الغزير .

الثالثة : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ « فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴾ أيود أحدكم أن تكون له جنة ؟ قالوا : الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس ضربت مثلاً بعمل لرجلٍ غني يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله « أخرج به البخاري .

الرابعة : قال الحسن البصري : هذا مثلٌ قلّ والله من يعقله : شيخ كبير ، ضعف جسمه ، وكثر

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٠٤ . (٢) الفتوحات الإلهية ١/ ٢٢٣ . (٣) الكشاف ١/ ٢٣٨ والآلاء بالفتح شجرٌ حسن المنظر مر الطعم

كذا في الصحاح .

صبياناه أفقر ما كان إلى جنته فجاءها الإيعصار فأحرقها ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا .

قال الله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر . . إلى . . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ من آية (٢٧٠) إلى نهاية آية (٢٧٤) .

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير ، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإعلاء كلمته ، وترغب في إخفاء الصدقات لأنها أبعد عن الرياء ، فوجه المناسبة ظاهر .

اللفظة : ﴿ فنعما ﴾ أصلها « نعم ما » أدغمت الميان فصارت نعما قال الزجاج : أي نعم الشيء هو ، ﴿ أحصروا ﴾ الحصر : الحبس أي حبسوا أنفسهم على الجهاد وقد تقدم معنى الحصر ﴿ التعفف ﴾ من العفة يقال : عف عن الشيء أمسك عنه وتنزه عن طلبه والمراد التعفف عن السؤال ﴿ بسياهم ﴾ السيا : العلامة التي يعرف بها الشيء ويقال : سيمياء كالكيمياء وأصلها من السمة بمعنى العلامة قال تعالى ﴿ سياهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ ﴿ إلحاف ﴾ الإلحاف : الإلحاح في السؤال يقال : ألحف : إذا ألح ولج في السؤال والطلب .

سبب النزول : عن سعيد بن جبير أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ : (لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم) فنزلت هذه الآية ﴿ ليس عليك هدام ﴾ مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام ^(١) .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَأَصْدَقْتُمْ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُومُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ

التفسير : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ أي ما بذلتم أيها المؤمنون من مال أو نذرتم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله ، من معين أو نصير ينصرهم من عذاب الله ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ أي إن تظهروا صدقاتكم فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ أي وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أي يزيل بجميل أعمالكم سيئاتكم ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي هو سبحانه مطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم ، والآية ترغيب في الإسرار

وَجِهَ اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٦﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ الْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٧﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٨﴾

﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ أي ليس عليك يا محمد أن تهدي الناس فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد ، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب ، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام ﴿وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم﴾ أي أي شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم لأن ثوابه لكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ خبر بمعنى النهي أي لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرض دنيوي ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئاً من حسناتكم ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ لا يسألون الناس الحافاً أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد ، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً أصلاً فلا يقع منهم إلحاح وقيل معناه : إن سألوا سألوا بلطف ولم يلحوا ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي ما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، في جميع الأوقات ، من ليل أو نهار ، وفي جميع الأحوال من سر وجهر ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ بين أنفقتم ونفقة جناس الاشتقاق وكذلك بين نذرتم ونذر .

٢ - ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ في الإيداء والإخفاء طباق لفظي ، وكذلك بين لفظ « الليل والنهار » و « السر والعلانية » وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ إطناب لورودها بعد قوله ﴿يوف إليكم﴾ الذي معناه يصلكم وافياً غير منقوص .

فَكَايْدَةٌ : قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطنع إليك فأنشره وأنشدوا :

يُخْفِي صَنَائِعَهُ وَاللَّهُ يُظْهِرُهَا إِنَّ الْجَمِيلَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَ

قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ . . . إِلَى . . . ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{***} من آية (٢٧٥) إلى نهاية آية (٢٨١) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا ، وحضّ على الصدقة ورغب في الإنفاق في سبيل الله ، ذكر هنا ما يقابل ذلك وهو الربا الكسب الخبيث ذو الوجه الكالح الطالح ، الذي هو شح وقذارة ودنس ، بينما الصدقة عطاء وساحة وطهارة ، وقد جاء عرضه مباشرة بعد عرض ذلك الوجه الطيب من الإنفاق في سبيل الله ليظهر الفارق بجلاء بين الكسب الطيب والكسب الخبيث وكما قيل « وبضدها تتميز الأشياء » .

الْفَكْرَةُ : ﴿الربا﴾ لغة : الزيادة يقال : ربا الشيء إذا زاد ومنه الربوة والرابية ، وشرعاً : زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل ﴿يتخبطه﴾ التخبط : الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي : خبط في عشواء وتورط في عمياء ، وتخبطه الشيطان إذا مسّه بخبلٍ أو جنون ﴿المس﴾ الجنون وأصله من المسّ باليد كأن الشيطان يمسّ الإنسان فيحصل له الجنون ﴿سلف﴾ مضى وانقضى ومنه سالف الدهر أي ماضيه ﴿يمحق﴾ المحق : نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال يقال : محقه الله فانمحق وامتحق ﴿أثيم﴾ كثير الإثم المتماذي في الذنوب والآثام .

سَبَبُ الزَّوْلِ : كان لبني عمرو من ثقيف ديونٌ ربا على بني المغيرة فلما حلّ الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله . . . الآية فقالت ثقيف : لا يد لنا « أي لا طاقة لنا » بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رءوس أموالهم فقط^(١) .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا

النَّفْسِيرُ : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه ، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سوياً ، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيأهم يعرفون بها عند الموقف هتكا لهم وفضيحة ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب

الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَآتَقُوا اللَّهَ وَذَرَوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَآتَقُوا

استحلالهم ما حرّمه الله ، وقولهم : الربا كالبيع فلماذا يكون حراماً ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿ وأحلّ الله البيع وحرم الربا ﴾ أي أحلّ الله البيع لما فيه من تبادل المنافع ، وحرم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع ، لأن فيه زيادة مقطوعة من جهد المدين ولحمه ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿ وأمره إلى الله ﴾ أي أمره موكل إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحلّه بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم ﴿ يمحّق الله الربا ويربّي الصدقات ﴾ أي يذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر ، ويكثر الصدقات وينميها وإن كانت نقصاناً في الشاهد ﴿ والله لا يحب كل كفّار أثيم ﴾ أي لا يحب كل كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار ، ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي صدّقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنة ، ولا يخافون يوم الفرع الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون ، واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقاً ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم قال ابن عباس : يقال لأكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب ﴿ وإن تبتّم فلکم رءوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ أي إن رجعتُم عن الربا وتركتُموه فلکم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ أي إذا كان المستدين معسراً فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه : إمّا أن تقضي وإمّا أن تُرّبّي ﴿ وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن تجاوزتم عمّا لكم عنده فهو أكرم وأفضل ، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل

يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

والأجر العظيم ثم حذر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح فقال ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي احذروا يوماً سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفى كل نفس حسابها وأنتم لا تظلمون ، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن ونزولها انقطع الوحي ، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد قال ابن كثير : هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى .

البالغة : ١ - ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب) وهو أعلى مراتب التشبيه حيث يجعل المشبه مكان المشبه به كقول الشاعر : كأن ضياء الشمس غرة جعفر والأصل في الآية أن يقال : الربا مثل البيع ولكنه بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً يقاس عليه فشبهوا به البيع .

٢ - ﴿أحل الله البيع وحرم الربا﴾ بين لفظ «أحل» و «حرم» طباق وكذلك بين لفظ «يمحق» و «يربى» .

٣ - ﴿كفار أثيم﴾ صيغة فعال وفعل للمبالغة فقلوه ﴿كفار أثيم﴾ أي عظيم الكفر شديد الإثم .

٤ - ﴿فأذنوا بحرب﴾ التنكير للتهويل أي بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله أفاده أبو السعود .

٥ - ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى « الجناس الناقص » لاختلاف الشكل .

٦ - ﴿واتقوا يوماً﴾ التنكير للتفخيم والتهويل .

الفوائد : الأولى : عبر بقوله ﴿يأكلون الربا﴾ عن الانتفاع به لأن الأكل هو الغالب في المنافع وسواء في ذلك المعطي والآخذ لقول جابر في الحديث الشريف « لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال : هم سواء »

الثانية : شبه تعالى المرايين بالمصروعين الذين تتخبطهم الشياطين ، وذلك لأن الله عز وجل أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون قال سعيد بن جبير تلك علامة أكل الربا يوم القيامة .

الثالثة : يقول شهيد الإسلام سيد قطب عليه الرحمة عند هذه الآية ﴿لا يقومون﴾ إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ما نصه « إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب ، وما كان أى تهديد معنوى

ليبلغ إلى الحسن ما تبلغه هذه الصورة الحية المجسّمة ، صورة الممسوس المصروع ، ولقد مضت معظم التفسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة هو القيام يوم البعث ، ولكنها - فيما نرى - واقعة في هذه الأرض أيضاً على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس في حكم النظام الربوي ، إن العالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية ، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي ، ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك^(١) وهذا رأي حسن .

الرابعة : أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (كان رجلٌ يداينُ الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعلّ الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله ف تجاوز عنه)^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدَيْنٍ . . . إِلَى . . . وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾
من آية (٢٨٢) إلى نهاية آية (٢٨٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الربا وبيّن ما فيه من قباحة وشناعة ، لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه وهو كسب خبيث يمقته الإسلام ويحرمه ، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن ، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع ، وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية .

اللفظ : ﴿ وَلِيُمْلِلْ ﴾ من الإيلاء وهو أن يُلقى عليه ما يكتبه يقال : أملّ وأملّ ﴿ يَبْخَسْ ﴾ البخس : النقص ﴿ تَسَامَوْا ﴾ السأم والسامة : الملل من الشيء والضجر منه ﴿ أَقْسَطْ ﴾ القسط : بكسر القاف العدل يقال : أقسط الرجل إذا عدل ، وبفتح القاف الجور يقال : قسط أي جار ومنه ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ ﴿ تَضِلُّ ﴾ قال أبو عبيد : معنى تضل أي تنسى والضلال عن الشهادة نسيان جزءٍ منها ﴿ أَدْنَى ﴾ أقرب ﴿ تَرْتَابُوا ﴾ تشكوا من الريب بمعنى الشك ﴿ فَرِهَانٌ ﴾ جمع رهن وهو ما يدفع إلى الدائن توثيقاً للدين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا

التفسير : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ أي إذا تعاملتم بدین مؤجل فاكْتُبُوهُ ، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدراتها وميقاتها ﴿ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين

(١) في ظلال القرآن ٨٢/٣ . (٢) انظر الأدوار التي مرّ بها تحريم الربا والحكمة التشريعية في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٨٩ .

يَا بَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيِّخَسْ مِنْهُ شَيْعًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً

﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علمه الله ﴿فليكتب وليملل الذي عليه الحق﴾ أي وليملل على الكاتب ويلقي عليه المدين وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿وليتق الله ربّه ولا يبيخس منه شيئاً﴾ أي وليخش الله رب العالمين ولا ينقص من الحق شيئاً ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً﴾ أي إن كان المدين ناقص العقل مبذراً أو كان صبيهاً أو شيخاً هرمًا ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل﴾ أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لعمي أو خرس أو عجمة فليملل قيمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين ، فليشهد رجل وامرأتان ممن يوثق بدينهم وعدالتهم ﴿أن تضلّ إحداها فتذكر إحداها الأخرى﴾ أي تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكرها الأخرى ، وهذا علة لوجوب الأثنين لنقص الضبط فيهن ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك ﴿ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ أي لا تملوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً ، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى ، وأثبت للشهادة لثلاً تنسى ، وأقرب أن لا تشكوا في قدر الدين والأجل ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾ أي إلا إذا كان البيع حاضراً يداً بيد والثمن مقبوضاً ﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أي أشهدوا على حقكم مطلقاً سواء كان البيع ناجزاً أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ أي لا يضر صاحب الحق الكتاب والشهود ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ أي إن فعلتم ما نهيتم عنه فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿واتقوا﴾

فَإِنْ أَمِنْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّمٌ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

الله ويعلمكم الله ﴿﴾ أي خافوا الله وراقبوه بمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ﴿﴾ والله بكل شيء عليم ﴿﴾ أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ﴿﴾ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ﴿﴾ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم ، فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه ﴿﴾ فإن آمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴿﴾ أي فإن آمن الدائن المدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤتمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة ﴿﴾ ولا تكتُموا الشهادة ومن يكتُمها فإنه إيم قلبه ﴿﴾ أي إذا دعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتُموها فإن كتمانها إثم كبير ، يجعل القلب أثماً وصاحبه فاجراً ، وخُصَّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء ، إذا صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ﴿﴾ والله بما تعملون عليم ﴿﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد .

البَلَاغَةُ : ١ - في الآية من ضروب الفصاحة « الجناس المغاير » في قوله ﴿ تداينتم بدين ﴾ وفي ﴿ استشهدوا شهيدين ﴾ وفي ﴿ أؤتمن أمانته ﴾ وفي ﴿ يعلمكم .. وعليم ﴾ .

٢ - الطباق في قوله ﴿ صغيراً أو كبيراً ﴾ وفي ﴿ أن تضل .. وتذكر ﴾ لأن الضلال هنا بمعنى النسيان .

٣ - وفي الآية أيضاً الإطناب في قوله ﴿ فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا ياب كاتب ﴾ وفي ﴿ فليملل الذي عليه الحق .. فإن كان الذي عليه الحق ﴾ وفي ﴿ أن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى ﴾ .

٤ - الإيجاز بالحذف وذلك كثير وقد ذكر أمثلته صاحب البحر المحيط .

٥ - كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ﴿ واتقوا الله ﴾ ﴿ ويعلمكم الله ﴾ ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لإدخال الروعة وتربية المهابة في النفوس .

٦ - ﴿ وليتق الله ربّه ﴾ جمع ما بين الإسم الجليل والنعته الجميل مبالغة في التحذير .

فَكَايْدَةُ : العلم نوعان : كسبي ووهبي ، أما الأول فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة ، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وهذا العلم يسمى العلم اللدني ﴿ وآتيناه من لدنا علماً ﴾ وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله :

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

لَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ءَ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

المناسكة : ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين الخ فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء ، والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة ، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد .

اللفظة : ﴿إِصْرًا﴾ الإصر في اللغة : الثقل والشدة قال النابغة :

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما عرفوا

وسميت التكاليف الشاقة إصرًا لأنها تثقل كاهل صاحبها كما يسمى العهد إصرًا لأنه ثقل . ﴿طاقة﴾ الطاقة : القدرة على الشيء من أطاق الشيء وهو مصدر جاء على غير قياس الفعل ﴿اعف عنا﴾، العفو : الصفح عن الذنب ﴿واغفر لنا﴾ الغفران : ستر الذنب ومحوه .

سبب النزول : لما نزل قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ الآية ، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله فقالوا : كُلفنا من الأعمال ما نطبق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها فقال ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : ﴿سمعنا وعصينا﴾ قولوا ﴿سمعنا وأطعنا﴾ (فلما قرأها القوم وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ ونسخها الله تعالى فأنزل ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (١) الآية .

التفسير : ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السموات والأرض المطلع على ما فيهن ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي يعفو عمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي صدق محمد ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحي وكذلك المؤمنون ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي الجميع من النبي والأتباع صدق بوحداية الله ، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما

غُفِرَ أَنْكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

فعل اليهود والنصارى بل نؤ من بجميع رسل الله دون تفريق ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ أي أجبننا دعوتك وأطعنا أمرك ففسألك يا الله المغفرة لما اقترفناه من الذنوب وإليك وحدك يا الله المرجع والمآب . ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير ، وجزاء ما اقترفت من شر ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم والمعنى لا تعذبنا يا الله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿ربنا ولا تحمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم قتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة ﴿ربنا ولا تحمِلنا ما لا طاقة لنا به﴾ أي لا تحمِلنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ أي امحُ عنا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي أنت يا الله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا ، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين ، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا برسالة نبيك ﷺ . روي أنه عليه السلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة : قد فعلت .

البلاغة : ١ - تضمنت الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء منها «الطباق» في قوله ﴿وإن تبدوا . . أو تخفوه﴾ وبين « يغفر » و « يعذب » ومنها الطباق المعنوي بين ﴿كسبت﴾ و﴿اكتسبت﴾ لأن كسب في الخير واكتسب في الشر .

٢ - ومنها الجناس ويسمى جناس الاشتقاق في قوله ﴿آمن . . والمؤمنون﴾ .

٣ - ومنها الإطناب في قوله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ .

٤ - ومنها الإيجاز بالحذف في قوله ﴿والمؤمنون﴾ أي آمنوا بالله ورسله ومواضع أخرى .

فائدة : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه) أخرجه البخاري وفي رواية لمسلم أن ملكاً نزل من السماء فأتى النبي ﷺ فقال له : « أبشُر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبيُّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة آل عمران من السور المدنيّة الطويلة ، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين من أركان الدين هما : الأول : ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جل وعلا. الثاني : التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله . . أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية ، والنبوة ، وإثبات صدق القرآن ، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم « اليهود » وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخبائهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر ، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم « النصارى » الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن ، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة ، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام ، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتفريعات لليهود ، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب ، أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة ، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر ، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات ، فقد انتصروا في بدر ، وهزموا في أحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل ، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس ، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، ليميز بين الخبيث والطيب ، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تشييط همم المؤمنين ، ثم ختمت بالتفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيها من إتقان وإبداع ، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم ، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة ، التي بها يتحقق الخير ، ويعظم النصر ، ويتم الفلاح والنجاح ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

فضلاًها : عن النّوّاس بن سمعان قال سمعت النبي ﷺ يقول : (يُؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران)^(١) .

التسمية : سميت السورة بـ «آل عمران» لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى ، وماتجلى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى عليها السلام .

قال الله تعالى : ﴿الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم .. إلى .. إن الله لا يخلف الميعاد﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٩)

اللفظة : ﴿الحي﴾ الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ﴿القيوم﴾ القائم على تدبير شئون العباد ﴿يصوركم﴾ التصوير : جعل الشيء على صورة معينة أي يخلقكم كما يريد ﴿الأرحام﴾ جمع رحم وهو محل تكون الجنين ﴿محكمات﴾ المحكم : ما كان واضح المعنى قال القرطبي : «المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه : ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر تعالى بعلمه دون خلقه مثل الحروف المقطعة في أوائل السور ، هذا أحسن ما قيل فيه»^(٢) ﴿أم الكتاب﴾ أصل الكتاب وأساسه وعموده ﴿زيج﴾ ميل عن الحق يقال : زاغ زيفاً أي مال ميلاً ﴿تأويله﴾ التأويل : التفسير وأصله المرجع والمصير من قولهم آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه ﴿الراسخون﴾ الرسوخ : الثبوت في الشيء والتمكن منه قال الشاعر :

لقد رسخت في القلب مني مودةً ليلي أبت أيامها أن تغيرا^(٣)

سبب النزول : نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم «عبد المسيح» أميرهم و«الأيسم» مشيرهم و«أبو حارثة بن علقمة» حبرهم ، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه فقالوا تارة عيسى هو «الله» لأنه كان يحيي الموتى ، وتارة هو «ابن الله» إذ لم يكن له أب ، وتارة إنه «ثالث ثلاثة» لقوله تعالى «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال «فعلت وقلت» فقال لهم رسول الله ﷺ : أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يموت !! قالوا : بلى ، قال أستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه !! قالوا بلى ، قال أستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك ؟ قالوا : لا ، قال أستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم ؟ قالوا : لا ، قال أستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث !! قالوا بلى فقال ﷺ فكيف يكون كما زعمتم ؟ فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول السورة إلى نيف وثمانين آية^(٤) .

(١) أخرجه مسلم . (٢) القرطبي ٩/٤ . (٣) القرطبي ١٩/٤ . (٤) الفخر الرازي ١٦٥/٧ وابن كثير المختصر ٢٨٨/١ .

الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٤﴾ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ

التفسير : ﴿الم﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدم في أول البقرة ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي لا رب سواه ولا معبود بحق غيره ﴿الحي القيوم﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون عباده ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ أي نزل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي العظيمين « التوراة » و « الإنجيل » من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وقيل : المراد بالفرقان القرآن وكرر تعظيماً لشأنه^(١) ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ أي غالب على أمره لا يغلِب ، منتقم من عصاه ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يغيب ولا يغرب عن علمه أمر من الأمور ، فهو مطلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبح ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أي لا رب سواه ، متفرد بالوحدانية والألوهية ، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ، وفي الآية رد على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى فنبه تعالى بكونه مصوراً في الرحم ، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿فيه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ أي فيه آيات بينات ووضحات الدلالة ، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام ، هن أصل الكتاب وأساسه ﴿وأخر متشابهات﴾ أي وفيه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس ، فمن رد المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى ، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي فأما من كان في قلبه ميل عن الهدى إلى الضلال

(١) وهو قول قتادة والربيع واختار ابن جرير أن الفرقان مصدر بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله ﴿نزل عليك الكتاب﴾ .

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾
 رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ
 لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

فيتبع المتشابه منه ويفسره على حسب هواه ﴿ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ أي طلباً لفتنة الناس في دينهم ، وإيهاماً للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله ، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه﴾ على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله فادعوا ألوهيته وتركوا المحكم وهو قوله تعالى ﴿إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾ الدال على أنه عبد من عباد الله ورسول من رسله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ أي لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ أي الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ﴿كلٌ من عند ربنا﴾ أي كلٌ من المتشابه والمحكم حقٌ وصدق لأنه كلام الله ، قال تعالى ﴿وما يذكُر إلا أولوا الأبواب﴾ أي ما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة ﴿ربنا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي لا تَمْلُهَا عن الحق ولا تَضِلَّنَا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ أي بعد أن هديتنا إلى دينك القويم وشرعك المستقيم ﴿وهبْ لنا من لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك رحمةً تثبتنا بها على دينك الحق ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان ﴿ربنا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جامع الخلاق في ذلك اليوم الرهيب «يوم الحساب» الذي لا شك فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي وعده حق وأنت يا رب لا تخلف الموعد ، كقوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ؟ !

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ عبّر عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية كأنه هو الحقيقي بأن يطلق عليه اسم الكتاب .

٢ - ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كناية عما تقدمه وسبقه من الكتب السماوية فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره .

٣ - ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي أنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل فهو من باب عطف العام على الخاص حيث ذكر أولاً الكتب الثلاثة ثم عمّ الكتب كلها لإفادة الشمول مع العناية بالخاص .

٤ - ﴿هَٰذَا أَمُّ الْكِتَابِ﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله فهي بمنزلة الأم له ، وكأن سائر القرآن يتبعها أو يتعلق بها كما يتعلق الولد بأمه ويفزع إليها في مهمه ^(١) .

٥ - ﴿والراسخون في العلم﴾ وهذه استعارة والمراد بها المتمكنون في العلم تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوارة وهو أبلغ من قوله والثابتون في العلم^(١) .

الفوائد : الأولى : روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ تلا ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ الآية ثم قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحذروهم » .

الثانية : قال القرطبي : أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم : أن المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ولم يكن لأحد إلى علمه سبيل ، قال بعضهم : وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدجال ، وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور^(٢) .

الثالثة : آيات القرآن قسماً : محكمات ومتشابهات كما دلت عليه الآية الكريمة ، فإن قيل : كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة هود أن القرآن كله محكم ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ وما جاء في الزمر أن القرآن كله متشابه ﴿نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ ؟ ! فالجواب أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن في صدد فقوله ﴿أحكمت آياته﴾ بمعنى أنه ليس به عيب وأنه كلام حق فصيح الألفاظ ، صحيح المعاني وقوله ﴿كتاباً متشابهاً﴾ بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضاً ، فلا تعارض بين الآيات .

الرابعة : روى البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ ، قال : ما هو ؟ قال قوله تعالى ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ وقال : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وقال تعالى : ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ وقال ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فقد كتموا في هذه الآية ، وفي النازعات ذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، وفي فصلت ذكر خلق الأرض قبل خلق السماء ، وقال : ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ فكانه كان ثم مضى . فقال ابن عباس : ﴿فلا أنساب بينهم﴾ في النفخة الأولى ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وأما قوله ﴿ما كنا مشركين﴾ ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول : لم نكن مشركين ، فختم الله على أفواههم فتتطق جوارحهم بأعمالهم فعند ذلك عُرف أن الله لا يكتُم حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، وخلق الله الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين ، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والأكام وما بينها في يومين

(١) تلخيص البيان ص ١٧ . (٢) القرطبي ٩ / ٤ .

آخرين فذلك قوله ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين ، وقوله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ فسمى نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك ، ويحك فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله .

قال الله تعالى : ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم . . إلى . والمستغفرين بالأسحار﴾ من آية (١٠) إلى نهاية آية (١٧)

المناسكة : لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يثبتهم الله على الإيمان ، حكى عن الكافرين سبب كفرهم وهو اغترارهم في هذه الحياة بكثرة المال والبنين ، ويبن أنها لن تدفع عنهم عذاب الله ، كما لن تغني عنهم شيئاً في الدنيا ، وضرب على ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان ، وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم ، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد ، ثم أعقب تعالى ذلك بذكر شهوات الدنيا ومُتَع الحياة التي يتنافس الناس فيها ، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خير للأبرار .

اللفظ : ﴿تغني﴾ الإغناء : الدفع والنفع ﴿وقود النار﴾ الوقود بفتح الواو الخطب الذي توقد به النار وبالضم مصدر بمعنى الاقتاد ﴿دأب﴾ الدأب : العادة والشأن وأصله من دأب الرجل في عمله إذا جد فيه واجتهد ثم أطلق الدأب على العادة والشأن لأن من دأب على شيء أمدأ طويلاً صار له عادة ﴿آية﴾ علامة ﴿فئة﴾ جماعة وسميت الجماعة من الناس فئة لأنه يُفَاء إليها في وقت الشدة ﴿عبرة﴾ العبرة : الاتعاظ ومنه يقال : اعتبر ، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء ومنه عبور النهر ، فالاعتبار انتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم ﴿زَيْن﴾ التزيين : تحسين الشيء وتجميله في عين الإنسان ﴿الشهوات﴾ الشهوة : ما تدعو النفس إليه وتشتهيه والفعل منه اشتهى ويجمع على شهوات ﴿القناطر﴾ جمع قنطار وهو العقدة الكبيرة من المال أو المال الكثير الذي لا يحصى ﴿المقنطرة﴾ المضعفة وهو للتأكيد كقولك ألوف مؤلفة وأضعاف مضاعفة قاله الطبري ، وروي عن الفراء أنه قال : القناطر جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسع قناطر^(١) ﴿المسومة﴾ المعلمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر تجلب الأنظار وقيل المسومة : الراعية وقال مجاهد وعكرمة : إنها الخيل المطهّمة الحسان^(٢) ﴿المأب﴾ المرجع يقال : أب الرجل إياباً ومآباً قال تعالى ﴿إن إلينا إيابهم﴾ ﴿الأسحار﴾ السحر : الوقت الذي قبل طلوع الفجر .

سبب النزول : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر ، ورجع إلى المدينة جمع اليهود فقال لهم : يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أنني نبي مرسل ، فقالوا يا محمد : لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نफراً من قريش كانوا أغماراً - يعني جهالاً - لا علم لهم بالحرب ، إنك والله لو

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿٥٠﴾
كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥١﴾ قُلْ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا اسْتَغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصْرَةِ فَقَدْ
تَقَبَّلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٣﴾

قاتلنا لعرفت أنا نحن الرجال ، وأنت لم تلق مثلنا فأنزل الله ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾^(١) الآية

النفسير : ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد ، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿من الله شيئاً﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسجَر وتوقد به النار ﴿كذاب آل فرعون﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون ، وصنيعهم مثل صنيعهم ﴿والذين من قبلهم﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿كذبوا بآياتنا﴾ أي كذبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿والله شديد العقاب﴾ أي أليم العذاب شديد البطش ، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم ، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء . ﴿قل للذين كفروا﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿ستغلبون﴾ أي تهزمون في الدنيا وتُحْشَرُونَ إلى جهنم ﴿أي تجمعون وتساقون إلى جهنم﴾ وبئس المهاد ﴿أي بئس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم﴾ ﴿قد كان لكم آية﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿في فتنتين التقتا﴾ أي في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ أي طائفة مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿وأخرى كافرة﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿يرونهم مثليهم﴾ أي يرى المؤمنون الكافرين أكثر منهم مرتين ﴿رأى العين﴾ أي رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال ، وقيل : المراد يرى الكافرون المؤمنين ضعفيهم في العدد ، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في عين الكافرين ليرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم ، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿رأى العين﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ أي يقوي بنصره من يشاء ﴿إن في ذلك لعبرة﴾ أي لآية وموعظة ﴿لأولي الأبصار﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة . ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء ، وأن النصر لا يكون بكثرة العدد والعتاد ، وإنما يكون بمعونة الله

زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ
ذَلِكَ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَشْيَارِ ﴿١٧﴾

وتأييده كقوله ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية فقال ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي حُسْنُ إِلَيْهِمْ وَحُبُّ إِلَى نَفْسِهِمْ المِيلَ نحو الشهوات ، وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، والالتذاذ بهن أكثر وفي الحديث (ما تركتُ بعدي فتنةً أضُرَّ على الرجال من النساء)^(١) ثم ذكر ما يتولد منهن فقال ﴿وَالْبَنِينَ﴾ وإِنَّمَا ثَمَرُ الْبَنِينَ لَأَنَّهُمْ ثَمَرَاتُ الْقُلُوبِ وَقَرَّةُ الْأَعْيُنِ كما قال القائل :

وإنما أولادنا بيننا أبادنا تمشي على الأرض
لو هبَّت الريح على بعضهم لامتنت عيني عن الغمض

وقدّموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ أي الأموال الكثيرة المكدّسة من الذهب والفضة ، وإنّما كان المال محبوباً لأنه يحصل به غالب الشهوات ، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله ﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خصّ بالذكر ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة ﴿وَالْحَرْثِ﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقاتهم ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إنّما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَأْبِ﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ﴾ أي قل يا محمد أخبركم بخير مما زَيْنَ لِلنَّاسِ من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ؟ والاستفهام للتقرير ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي للمتقين يوم القيامة جناتٌ فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكنين فيها أبد الآباد ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزّهة عن الدنس والخبث ، الحسي والمعنوي ، لا يتغوّطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن ، ولا يعترين ما يعترى نساء الدنيا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله وأي رضوان ، وقد جاء في الحديث (أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بالعباد ﴿أي عليم بأحوال العباد يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء . ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال ﴿الذين يقولون ربنا إنا آمنّا﴾ أي آمنّا بك وبكتبك ورسلك ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ أي اغفر لنا بفضلك ورحمتك ذنوبنا ونجنا من عذاب النار ﴿الصابرين والصادقين والقانتين﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء ، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء ، والمطيعين لله في الشدة والرخاء ﴿والمنفقين﴾ أي الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ أي وقت السحر قبيل طلوع الفجر .

البلاغَة : ﴿من الله﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ﴿شيئاً﴾ التنكير للتقليل أي لن تنفعهم أي نفع ولو قليلاً ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ الجملة إسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه ﴿كذبوا بآياتنا فأخذهم الله﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر والأصل فأخذناهم ﴿لكم آية﴾ الأصل « آية لكم » وقدم للإعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والتنكير في آية للتفخيم والتهويل أي آية عظيمة ومثله التنكير في ﴿رضوان من الله﴾ وقوله تعالى ﴿ترونها﴾ و﴿رأي العين﴾ بينهما جناس الاشتقاق ﴿حب الشهوات﴾ يراد به المشتبهات قال الزمخشري : عبر بالشهوات مبالغة كأنها نفس الشهوات ، وتنبهاً على خستها لأن الشهوة مستزلة عند الحكماء ﴿بخير من ذلكم﴾ إيهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفة للذين اتقوا عند ربهم ﴿قال أبو السعود : التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم﴾^(١) ﴿القناطير المقنطرة﴾ بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص .

فائدة : الأولى : من هو المزين للشهوات ؟ قيل : هو الشيطان ويدل عليه قوله تعالى ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ وتزين الشيطان : وسوسته وتحسينه الميل إليها وقيل : المزين هو الله ويدل عليه ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وتزين الله للابتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى وهو ظاهر قول عمر : « اللهم لا صبر لنا على ما زينتنا إلا بك »^(٢) .

الثانية : تخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة ، لأن النفس أصفى ، والروح أجمع ، والعبادة أشق فكانت أقرب إلى القبول ، قال ابن كثير : كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول يا نافع : هل جاء السحر ؟ فإذا قال نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو . . . إلى . . . ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾

من آية (١٨) إلى نهاية آية (٢٥)

المناسكة : لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله ﴿الذين يقولون ربنا إنا آمنّا﴾ أردفه بأن بيّن أن دلائل الإيمان ظاهرة جليلة فقال ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ ثم بيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي

ارتضاه الله لعباده ، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله ، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً ، وإعراضهم عن قبول حكم الله .

اللغة : ﴿شهد﴾ الشهادة : الإقرار والبيان ﴿القسط﴾ العدل ﴿الدين﴾ أصل الدين في اللغة : الجزاء ويطلق على الملة وهو المراد هنا ﴿الإسلام﴾ الاسلام في اللغة : الاستسلام والانقياد التام قال ابن الأنباري : المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم : سلم الشيء لفلان أي خلس له فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿حاجوك﴾ جادلوك ونازعوك ﴿غرمهم﴾ فتنهم ﴿يفترون﴾ يكذبون .

سَبَبُ النَّزُول : لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حَبْرَان من أحبار الشام ، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت فقالا له : أنت محمد ؟ قال نعم ، قالا : وأنت أحمد ؟ قال نعم ، قالا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك ، فقال لهما رسول الله ﷺ : سلاني ، فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ الآية فأسلم الرجلان وصدقوا برسول الله ﷺ^(١)

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾
إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بَعَايَتْ لَهُ مِنْ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

التفسير : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ أي بين وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية ، قال الزمخشري : شبهت دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿والملائكة وأولو العلم﴾ أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿قائماً بالقسط﴾ أي حال كونه مقبلاً للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿العزیز﴾ الحكيم أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام ، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام ، إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر ، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد ، فكانوا ممن ضل عن علم ﴿بغياً بينهم﴾ أي حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعاً فيجازيه على كفره ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدين فقل

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

لهم : أنا عبد لله قد استسلمت بكليتي لله ، وأخلصت عبادتي له وحده ، لا شريك له ولا يذ ولا صاحبة ولا ولد ﴿ومن اتبعني﴾ أي أنا وأتباعي على ملة الإسلام ، مستسلمون منقادون لأمر الله ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين﴾ أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب ﴿أأسلمتم﴾ أي هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ أي فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفَعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أي وإن أعرضوا فلن يضروك يا محمد إذ لم يكلفك الله بهدائيتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب والغرض منها تسلية النبي ﷺ ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها ، روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا : أسلمنا فقال عليه السلام لليهود : أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبدته ورسوله ! فقالوا : معاذ الله ، فقال للنصارى : أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله ! فقالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك قوله عز وجل ﴿وإن تولوا﴾ ^(١) . ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ أي يكذبون بما أنزل الله ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله ، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله ، قال ابن كثير : « قتل بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره » ﴿ويقتلون الذين يأمرُونَ بالقسط من الناس﴾ أي يقتلون الدعاة إلى الله الذين يأمرُونَ بالخير والعدل ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أي أخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجه المهيئ ، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم : الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وقتل الدعاة إلى الله قال تعالى مبيناً عقاب إجرامهم ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات ، ولم يبق لها أثر في الدارين ، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه . . ثم ذكر تعالى طرفاً من لجأ وعناد أهل الكتاب فقال ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ^ط وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّتَ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ! فالصيغة صيغة تعجيب للرسول أو لكل مخاطب قال الزمخشري : يريد أحبار اليهود وأنها حصلوا نصيباً وافراً من التوراة ﴿يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته ، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله ، وهو استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ، وجملة ﴿وهم معرضون﴾ تأكيد للتولي أي وهم قوم طبعتهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل ، والآية كما يقول المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم إثنان فحكم عليهما بالرجم فأبوا وقالوا : لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجاء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما ، فغضبوا فشنع تعالى عليهم بهذه الآية ^(١) ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افتراءهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلا مدة يسيرة - أربعين يوماً - مدة عبادتهم للعجل ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي غرهم كذبهم على الله ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب !! وهو استعظام لما يدهمهم من الشدائد والأحوال ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ أي نالت كل نفس جزاءها العادل ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب .

البَلاغَةُ : ١ - ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ الجملة معرفة الطرفين فتفيد الحصر أي لا دين إلا الإسلام .

٢ - ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ التعبير عن اليهود والنصارى بقوله « أوتوا الكتاب » لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم فإن الاختلاف مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة .

٣ - ﴿بآيات الله فإن الله﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس .

٤ - ﴿أسلمت وجهي﴾ أطلق الوجه وأراد الكل فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٥ - ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ الأصل في البشارة أن تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى « الأسلوب التهكمي » حيث نزل الإنذار منزلة البشارة السارة كقوله ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ وهو أسلوب مشهور .

(١) انظر القصة في صحيح البخاري كتاب التفسير .

فَكَايْدَةٌ : قال القرطبي : في هذه الآية دليل على فضل العلم ، وشرف العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء ، ويكفي في شرف العلم قوله لنبيه ﷺ : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقوله ﷺ : (إن العلماء ورثة الأنبياء) وفي حديث ابن مسعود أن من قرأ قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ الآية فإنه يجاء به يوم القيامة فيقول الله تعالى : عبدي عهد إليّ عهداً وأنا أحقُّ من وقى ، أدخلوا عبدي الجنة ^(١) .

لطيفة : من أطرف ما قرأت في بيان فضل العلم تلك المحاورة اللطيفة بين العقل والعلم حيث يقول القائل وقد أبدع وأجاد :

علمُ العليم وعقلُ العاقل اختلفا	من ذا الذي منها قد أحرز الشرفا
فالعلم قال : أنا أحرزتُ غايته	والعقل قال : أنا الرحمن بي عُرِفَا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له	بأينا الله في فرقانه اتّصفا
فبان للعقل أن العلم سيّده	فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

* * *

قال الله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ . . . إِلَى . . . فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٣٢)

المناسبة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام ، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين ، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأمر رسوله بالدعاء والابتهاال إلى الله بأن يعز جند الحق وينصر دينه المبين .

اللغة : ﴿اللهم﴾ أصله يا أله حذفت أداة النداء واستعيض عنها بالميم المشددة هكذا قال الخليل وسيبويه ﴿تنزع﴾ تسلب ويعبر به عن الزوال يقال : نزع الله عنه الشر أي أزاله ﴿تولج﴾ الإيلاج : الإدخال يقال : ولج يلج ولوجاً ومنه ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ ﴿أمدأ﴾ الأمد : غاية الشيء ومنتهاه وجمعه آماد ﴿تقاة﴾ تقية وهي مداراة الإنسان مخافة شره .

سبب النزول : أ - لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم ، قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم !! هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم فأنزل الله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ . . .﴾ الآية ^(٢) .

ب - عن ابن عباس أن « عبادة بن الصامت » - وكان بديراً تقياً - كان له حلف مع اليهود ، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة : يا نبي الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم على العدو فأنزل الله ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية ^(٣) .

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

التفسير : ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي قل : يا الله يا مالك كل شيء ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿بيدك الخير﴾ إنك على كل شيء قدير ﴿أي بيدك وحدك خزان كل خير وأنت على كل شيء قدير﴾ ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل ، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس ، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع ، والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير ، وقال الطبري : « وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال : يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم من النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء » (١) ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدٍّ ولا تضيق . . ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً فقال ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه قال الزمخشري : نهوا أن يوالوا الكافرين لقراءة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشرون ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴿أي من يوال الكفرة فليس من دين الله في شيء﴾ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴿أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم ، فأظهروا موالاتهم باللسان دون

(١) تفسير الطبري ٣٠٩/٥ وللشهيد سيد قطب قول رائع في معنى الآية الكريمة نقله بإيجاز من الظلال يقول قدس الله روحه « وسواء كان معنى لإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذاك ، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك ، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة - يعني الشمس - وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء ، شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاء النهار ، و شيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام ، شيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء ، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف . . كذلك الحياة والموت يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج ، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة ، خلایا حية منه تموت وتذهب ، وخلایا جديدة فيه تنشأ وتعمل ، هكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للعقل البشري ، ولا يستطيع إنسان أن يدعي أنه هو الذي يصنع من هذا كله شيئاً ، ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير ، وإنما هي حركة خفية هائلة تدبرها يدُ القادر المبدع اللطيف المدير . . ظلال القرآن ١٧٠/٣ .

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ
نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

القلب ، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي « إِنَّا لَنَبِشُ فِي وَجْهِهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ » ﴿٣٢﴾ ويحذركم
الله نفسه ﴿٣١﴾ أي يخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى ﴿٣٠﴾ وإلى الله المصير ﴿٢٩﴾ أي المنقلب والمرجع فيجازي كل
عامل بعمله ﴿٢٩﴾ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴿٢٩﴾ أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة
الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية ﴿٢٩﴾ ويعلم ما في السموات وما في الأرض ﴿٢٩﴾ أي
عالم بجميع الأمور ، يعلم كل ما هو حادث في السموات والأرض ﴿٢٩﴾ والله على كل شيء قدير ﴿٢٩﴾ وهو
سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره ، وهو تهديد عظيم ﴿٢٩﴾ يوم تجد كل نفس ما عملت
من خير محضراً ﴿٢٩﴾ أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضراً لا يغيب عنه ، إن خيراً فخير وإن شراً
فشر ، فإن كان عمله حسناً سره ذلك وأفرحه ﴿٢٩﴾ وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴿٢٩﴾ أي
وإن كان عمله سيئاً تمنى أن لا يرى عمله ، وأحب أن يكون بينه وبين عمله القبيح غاية في نهاية البعد أي
مكاناً بعيداً كما بين المشرق والمغرب ﴿٢٩﴾ ويحذركم الله نفسه ﴿٢٩﴾ أي يخوفكم عقابه ﴿٢٩﴾ والله رءوف بالعباد ﴿٢٩﴾ أي
رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ﴿٢٩﴾ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴿٢٩﴾
أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأنني رسوله يحبكم الله ﴿٢٩﴾ ويغفر لكم ذنوبكم والله
غفور رحيم ﴿٢٩﴾ أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب قال ابن
كثير : « هذه الآية الكريمة حكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب
في دعواه تلك حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله » (١) ثم قال تعالى : ﴿٢٩﴾ قل أطيعوا الله
والرسول ﴿٢٩﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿٢٩﴾ فإن تولَّوا ﴿٢٩﴾ أي أعرضوا عن الطاعة ﴿٢٩﴾ فإن الله لا يحب
الكَافِرِينَ ﴿٢٩﴾ أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿٢٩﴾ يوم لا يخزي الله النبي والذين
آمنوا معه .

البَلَاغَةُ : جمعت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة ما يلي :

١ - الطباق في مواضع مثل « تؤتي وتنزع » و « تعز وتذل » و « الليل والنهار » و « الحي والميت »
و « تخفوا وتبدوا » وفي « خير وسوء » و « محضراً وبعيداً » .

٢ - والجناس الناقص في « مالك الملك » وفي « تحبون ويحبكم » وجناس الاشتقاق بين « تتقوا وتقاة » وبين « يغفر وغفور » .

٣ - رد العجز على الصدر في ﴿تولج الليل في النهار﴾ ﴿وتولج النهار في الليل﴾ .

٤ - التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

٥ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ أي من تشاء أن تؤتيه ومثلها وتنزع ، وتعز ، وتذل .

٦ - ﴿تولج الليل في النهار﴾ قال في تلخيص البيان : وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن إدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا فما ينقصه من الليل يزيد في النهار والعكس ، ولفظ الإيلاج أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطف المازجة وشديد الملازمة .

٧ - ﴿تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ والحي والميت مجاز عن المؤمن والكافر فقد شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت^(١) والله أعلم .

فكائِدَة : في الاختصار على ذكر الخير ﴿بيدك الخير﴾ دون ذكر الشر تعليمٌ لنا الأدب مع الله فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه خلقاً وتقديراً ﴿قل كل من عند الله﴾ .

تَبْيِيْهٌ : روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبه قال فيحبه أهل السماء ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض) .

قال الله تعالى : ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً . . إلى . . وسبَّح بالعشي والإيكار﴾

من آية (٣٣) إلى نهاية آية (٤١)

الْمَنَاسِبَةُ : لما بين تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم ، بين علو درجات الرسل وشرف مناصبهم ، فبدأ بآدم أولهم ، وثنى بنوح أبي البشر الثاني ، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد إسماعيل ، ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج فيه عيسى عليه السلام ، وأعقب ذلك بذكر ثلاث قصص : قصة ولادة مريم ، وقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى ، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير .

الْفَكْرَةُ : ﴿اصطفى﴾ اختار وأصله من الصفوة أي جعلهم صفوة خلقه ﴿محمرراً﴾ مأخوذ من

(١) هذا على رأي من فسّر الآية بالوجه الآخر وهو أن المراد يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وهو قول الحسن البصري .

الحرية وهو الذي يجعل حراً خالصاً ، والمراد الخالص لله عز وجل الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ﴿أُعِيذُهَا﴾ عاذ بكذا : اعتصم به ﴿وكفلها﴾ الكفالة : الضمان يقال كفلَ كَفْلًا فهو كافل ، وهو الذي ينفق على إنسانٍ ويهتم بمصالحه وفي الحديث (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين) ﴿المحارب﴾ الموضع العالي الشريف ، قال أبو عبيدة : سيد المجالس وأشرفها ومقدمها وكذلك هو من المسجد^(١) ﴿حضوراً﴾ من الحصر وهو الحبس ، وهو الذي يحبس نفسه عن الشهوات ، وللمفسرين في معناه قولان نختار منهما ما اختاره المحققون : أنه الذي لا يأتي النساء لا لعجز بل للعفة^(٢) ﴿عاقراً﴾ عقيم لا تلد والعاق من لا يولد له من رجلٍ أو امرأة ﴿رمزاً﴾ الرمز : الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما قال الطبري : الائمة بالشفقتين وقد يستعمل في الحاجبين والعينين^(٣) ﴿العشي﴾ من حين زوال الشمس إلى غروبها ﴿الإيكار﴾ من طلوع الشمس إلى وقت الضحى قال الشاعر :

فلا الظلُّ من برد الضحى تستطيعه ولا الفياء من برد العشي تذوق

* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

النفسير : ﴿إن الله اصطفى آدم﴾ أي اختار للنبوّة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿ونوحاً﴾ شيخ المرسلين ﴿وآل إبراهيم﴾ أي عشيرته وذوي قريبه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿وآل عمران﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿على العالمين﴾ أي عالمي زمانهم قال القرطبي : وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتقى والصلاح ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوال العباد عليهم بضماثرهم ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها «حنّة بنت فاقد» ﴿ربّ إنني نذرت لك ما في بطني﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿محراً﴾ أي مخلصاً للعبادة والخدمة ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي ﴿فلما وضعتها قالت ربّ إنني وضعتها أنثى﴾ أي لما ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار يا ربّ إنها أنثى قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم قال تعالى ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أولم

(١) البحر المحيط ٢/٤٣٣ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٨/٣٩ . وبنحوه في الطبري والقرطبي . (٣) الطبري ٦/٣٨٦ .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا أَنَّى لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٢٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٢٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٩﴾

تقله ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ أي ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وهبتها بل هذه أفضل والجملة من معترضتان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علق بها من عظام الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين ﴿وإني سميتها مريم﴾ من تنمة كلام امرأة عمران والأصل إني وضعتها أنثى وإني سميتها مريم أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرب ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي أجيئها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم ، فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ أي قبلها الله قبولاً حسناً قال ابن عباس : سلك بها طريق السعداء ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ أي ربّاه تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿وكفلها زكريا﴾ أي جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها ، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً ، قال مجاهد : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿قال يا مريم أنسى لك هذا﴾ ؟ أي من أين لك هذا ؟ ﴿قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب ﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربه متوسلاً ومتضرعاً ﴿قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ أي أعطني من عندك ولداً صالحاً - وكان شيخاً كبيراً وامراته عجوزاً وعاقراً - ومعنى طيبة صالحة مباركة ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي مجيبٌ لدعاء من ناداك ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾ أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائماً في الصلاة ﴿أن الله يبشرك بيحيى﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي مصدقاً بوعيسى مؤمناً برسالته ، وسمى عيسى كلمة الله لأنه خلق بكلمة « كن » من غير أب ﴿وسيداً﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿وحصوراً﴾ أي يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك ، وما قاله بعض المفسرين أنه كان عتيماً فباطل لا يجوز على الأنبياء لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء ^(١) ﴿ونبياً من الصالحين﴾ أي ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير : وهذه بشارة

(١) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عياض « إعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم إنه كان عتيماً أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذائق المفسرين وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كآفة حصور أو يمنع نفسه من الشهوات ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام » انتهى .

قَالَ رَبِّ اَنْتَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اَللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيْ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ اَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ اَيَّامٍ اِلَّا رَمَزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْاِبْكَرِ ﴿٤١﴾

ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾^(١) ﴿قال رب أنتى يكون لى غلام﴾ أى كيف يأتينا الولد ﴿وقد بلغنى الكبر﴾ أى أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿وامراتى عاقرة﴾ أى عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وتسعين سنة ، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكل من السبين مانع من الولد ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ أى لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر ﴿قال رب اجعل لى آية﴾ أى علامة على حمل امرأتى ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ أى علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سوى صحيح والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله ﴿واذكر ربك كثيرا﴾ أى اذكر الله ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة ، فقد منع عن الكلام ولم يمنع عن الذكر لله والتسبيح له وذلك أبلغ في الإعجاز ﴿وسبح بالعشي والإبكار﴾ أى نزه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله . وقيل : المراد صلّ لله ، قال الطبري : يعنى عظم ربك بعبادته بالعشي والإبكار .

البلاغَة : ١ - ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ جملتان معترضتان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود .

٢ - ﴿وإني أعيدها﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد .

٣ - ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ شبهها في نموها وترعرعها بالزراع الذي ينمو شيئاً فشيئاً ، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق الاستعارة التبعية .

٤ - ﴿فنادته الملائكة﴾ المنادي جبريل وعبر عنه باسم الجماعة تعظيماً له لأنه رئيسهم .

٥ - ﴿بالعشي والإبكار﴾ بين كلمتي العشي والإبكار طباق وهو من المحسنات البديعية .

الفوائد : الأولى : روي أن « حنة » امرأة عمران كانت عجوزاً عاقراً فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنّت إلى الولد وتمنته وقالت : اللهم إن لك عليّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته ثم هلك عمران وهي حامل وهذا سر النذر^(٢) .

الثانية : قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ قال :

والآية فيها دلالة على كرامات الأولياء ، وفي السنة بهذا نظائر كثيرة وساق بسنده عن جابر قصة الجفنة وخلاصتها أن النبي ﷺ جاع أياماً فدخل على ابنته فاطمة الزهراء يسألها عن الطعام فلم يكن عندها شيء وأرسلت إليها جارتها برغيفين وقطعة لحم فوضعتها في جفنة ثم رأت الجفنة وقد امتلأت لحماً وخبزاً .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ .. إلى .. هذا صراطٌ مستقيم﴾ من آية (٤٢) إلى نهاية آية (٥١)

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة ولادة «يحيى بن زكريا» من عجوز عاقرة وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً ، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات ، فذكر قصة ولادة السيد المسيح عيسى من غير أب وهي شيء أعجب من الأول ، والغرض من ذكر هذه القصة الرد على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى ، فذكر ولادته من مريم البتول ليدل على بشريته ، وأعقبه بذكر ما أيد به من المعجزات ليشير إلى رسالته ، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات ، وليس له شيء من أوصاف الربوبية .

اللفظة : ﴿أنباء﴾ جمع نبأ وهو الخبر الهام ﴿نوحيه﴾ الوحي : إلقاء المعنى في النفس في خفاء ﴿أقلامهم﴾ القلم معروف وهو الذي يكتب به وقد يطلق على السهم الذي يقترع به وهو المراد هنا ﴿المسيح﴾ لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك^(١) ﴿وجيهاً﴾ شريفاً ذا جاهٍ وقدر ، والوجاهة الشرف والقدرة ﴿المهد﴾ فراش الطفل ﴿كهلاً﴾ الكهل : ما بين الشاب والشيخ والمرأة كهلة ﴿الأكمه﴾ الذي يولد أعمى ﴿الأبرص﴾ المصاب بالبرص وهو بياض يعتري الجلد وداء عضال .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُومُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُومُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَتَّجِدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمُهُمْ

التفسير : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة أي جبريل يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصك بالكرامات ﴿وطهرك﴾ من الأدناس والأقذار ومما اتهمك به اليهود من الفاحشة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ أي اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ أي إلزمي عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي صلي لله مع المصلين ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ

إليكم ﴿٤٩﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إنما هو من الانبياء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ أي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كل يريد لها في كفه ورعايته ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ أي يتنازعون فيمن يكفلها منهم ، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير . . روي أن حنة حين ولدتها لفقتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأبحار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترحوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها^(١) قال ابن كثير : وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه﴾ أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب ﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ أي اسمه عيسى ولقبه المسيح ، ونسبه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ أي سيذاً ومعظماً فيهما ﴿ومن المقربين﴾ عند الله ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلاً قال الزمخشري « ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة^(٢) ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز ﴾ ومن الصالحين ﴿أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح﴾ قالت رب أنسى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴿أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج ؟﴾ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ﴿أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسبب من الوالدين وبغير سبب﴾ ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخير ولا حاجة إلى سبب ، يقول له كن فيكون ﴿ويعلمه الكتاب﴾ أي الكتابة ﴿والحكمة﴾ أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء ﴿والتوراة والإنجيل﴾ أي ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل قال ابن كثير : وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم ﴿أنسى قد جئتكم بآية من ربكم﴾ أي بأنني قد جئتكم بعلامة تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات ، وآية صدقي ﴿أننى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾ أي

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِيَ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٠﴾

أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله. قال ابن كثير : وكذلك كان يفعل ، يصوّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله ^(١) ، وهذه المعجزة الأولى ﴿وأبرء الأكمه والأبرص﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص ، وهذه المعجزة الثانية ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ أي أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته ، وقد أحيى أربعة أنفس : عازر وكان صديقاً له ، وابن العجوز ، وبنت العاشر ، وسام بن نوح هكذا ذكر القرطبي وغيره ، وكرر لفظ « بإذن الله » دفعاً لتوهم الألوهية ، وهذه المعجزة الثالثة ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكّون فيها فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته وهذه هي المعجزة الرابعة ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدّقين بآيات الله ، ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال ﴿ومصدقاً لما بين يديّ من التوراة﴾ أي وجئتكم مصدّقاً لرسالة موسى ، مؤيداً لما جاء به في التوراة ﴿ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ أي ولأحلّ لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى قال ابن كثير : وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيديني الله به من المعجزات وكرّر تأكيداً ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جلّ وعلا ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي فإن تقوى الله وعبادته ، والإقرار بوحديته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه .

البلاغَة : ١ - ﴿وإذ قالت الملائكة﴾ أطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له ويسمى المجاز المرسل .

٢ - ﴿اصطفاك وطهرك واصطفاك﴾ تكرر لفظ اصطفاك كما تكرر لفظ « مريم » وهذا من باب الإطناب .

٣ - ﴿ولم يمسنني بشر﴾ كنى عن الجماع بالمس كما كنى عنه بالحرث واللباس والمباشرة .

٤ - ﴿ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم﴾ بين لفظ «أحلّ» و«حرّم» من المحسنات البديعية الطباق ،

كما ورد الحذف في عدة مواضع والإطناب في عدة مواضع ، وهناك نواحٍ بلاغية أخرى ضربنا عنها صفحاً خشية الإطالة .

فَكَايْدَةٌ : جاء التعبير هنا بقوله ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ وفي قصة يحيى ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ والسُرُّ في ذلك هو أن خلق عيسى من غير أب إبداع واختراع من غير سبب عادي فناسبه ذكر الخلق ، وهناك الزوجة والزوج موجودان ولكن وجود الشيخوخة والعقم مانعٌ في العادة من وجود الولد فناسبه ذكر الفعل والله أعلم .

تَبْيِيْهُ : قال بعض العلماء : الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا « مريم » هي الإشارة من طرفٍ خفي إلى ردِّ ما قاله النصارى من أنها زوجته فإنَّ العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أبٍ له ولهذا قال في الآية ﴿اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾ (١)

قال الله تعالى : ﴿فلما أحسنَّ عيسى منهم الكفر . . إلى . . فإن تولوا فإنَّ الله عليهم بالفسدين﴾
من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٦٣)

الْمَنَاسِكَةُ : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالسيد المسيح ، ثم أعقبها بذكر معجزاته وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام ، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإنَّ الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله « اليهود » على قتله فنجَّاه الله من شرهم ورفعاه إلى السماء .

اللُّغَاةُ : ﴿أحسنَّ﴾ عرف وتحقيق وأصله من الإحساس وهو الإدراك ببعض الحواس الخمس ﴿الحواريون﴾ جمع حواري وهو صفوة الرجل وخاصته ومنه قيل للحضرىات حواريات لخلوص ألوانهن وبياضهن قال الشاعر :

فقل للحواريات يَبْكِينَ غِرْنَا ولا تَبْكُنَا إِلَّا الكلابُ النوايحُ

والحواريون أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله ﷺ سمَّوا حواريين لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم ﴿مكروا﴾ المكر : الخداع وأصله السعي بالفساد في خفية قال الزجاج : يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم ، ومكرُ الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكى عن الفراء وغيره ﴿نبتهل﴾ نتضرع في الدعاء ، وأصل الابتهاال : الاجتهاد في الدعاء باللعن ، والبهلة اللعنة .

سَبَبُ الزُّوْلِ : لما قدم وفد نصارى نجران ، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى ، قالوا للرسول ﷺ : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال : وما أقول ؟ قالوا : تقول إنه عبد قال : أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً قط من غير أب ؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ الآية وروي أنه عليه السلام لما دعاهم إلى

الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك ، فقال : كذبتُم يمنعكم من الإسلام ثلاث : قولكم اتخذ الله ولداً ، وأكلكم الخنزير ، وسجودكم للصليب فقالوا : فمن أبوه فأنزل الله ﴿إِنْ مِثْلُ عِيسَى . . إِلَى قَوْلِهِ ثُمَّ نَبْتَهْلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة ، فقال بعضهم لبعض : إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً فقالوا أما تعرض علينا سوى هذا ؟ فقال : الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية ^(١) .

* فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا لِمَكَرِّ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأَخَذَكُمْ بِتَبَاتُكُمُ فِيهَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ

النفسير : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال وإرادتهم قتله ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله قال مجاهد : أي من يتبعني إلى الله ﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا متقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي آمنا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكْتُبْنَا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ، ثم أخبر تعالى عن اليهود المتأمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال ﴿وَمَكْرُؤًا لِمَكَرِّ اللَّهِ﴾ أي أرادوا قتله فنجاه الله من شرهم ورفعهم إلى السماء دون أن يمَسَّ بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن «يهوذا» وسمي مكرراً من باب المشاكلة ^(٢) ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي أقواهم مكرراً بحيث جعل تدميرهم في تدميرهم وفي الحديث (اللهم امكُرْ لي ولا تمكُرْ علي) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعهم إلى السماء سالماً دون أذى قال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إلي ثم متوفيك بعد ذلك ، وقد ذكره الطبري فقال : وقال آخرون معنى ذلك : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، ومتوفيك بعد إنزالي إِيَّاكَ إِلَى الدُّنْيَا ^(٣) ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي خلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال

(١) القرطبي ١٠٣/٤ وأسباب النزول للواحدي ص ٥٨ . (٢) المشاكلة : الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى وقد تقدم .

(٣) الطبري ٤٥٨/٦ وأما قول بعض المفسرين انه توفي ثلاث ساعات من نهار ثم رفع وقول بعضهم المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد رده المحققون قال القرطبي : « والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس » .

كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

الحسن : طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا بنبتك ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة وقال في تفسير الجلالين : ﴿الذين اتبعوك﴾ أي صدقوا بنبتك من المسلمين والنصارى ﴿فوق الذين كفروا﴾ وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف ﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أي ثم مصيركم إلى الله فأقضي بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ أي أما الكافرون بنبتك المخالفون لملك فإني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي ، وبالأخرة بنار جهنم ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيؤفيهم أجورهم﴾ أي وأما المؤمنون فيعطيههم جزاء أعمالهم الصالحة كاملة غير منقوصة ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي لا يحب من كان ظالماً فكيف يظلم عباده ؟ ﴿ذلك نتلوهُ عليك﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿من الآيات والذكر الحكيم﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم ﴿خلقهُ من ترابٍ ثم قال له كن فيكون﴾ أي خلق آدم من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان ، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من جادلك في أمر عيسى بعدما وضع لك الحق واستبان ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسكم وأنفسكم﴾ أي هلموا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي ﴿ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول : اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى ، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية عن ابن عباس أنه قال « لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » قال أبو

حيان : « وفي ترك النصارى الملاعة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته »^(١) ثم قال تعالى ﴿إِنْ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يوجد إله غير الله ، وفيه ردٌّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليهم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿فلما أحسَّ﴾ قال أبو حيان : فيها استعارة إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يُعلم ويفطن به بإطلاق الحسّ عليه من نوع الاستعارة .

٢ - ﴿والله خير الماكرين﴾ بين لفظ مكروا والماكرين جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة .

٣ - ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ فيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة .

٤ - ﴿الحق من ربك﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى الرسول لتشريفه عليه الصلاة والسلام .

٥ - ﴿فلا تكن من الممترين﴾ هو من باب الإلهاب والتهيج لزيادة التثبيت أفاده أبو السعود .

لطيفة : قال صاحب البحر المحيط : سأل رجل الجنيد فقال : كيف رضي الله سبحانه لنفسه المكر وقد عاب به غيره ، فقال : لا أدري ما تقول ولكن أنشدني فلان الظهراني :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

ثم قال له : قد أجبتك إن كنت تعقل^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء . . إلى . . والله ذو الفضل العظيم﴾ من آية (٦٤) إلى نهاية آية (٧٤)

المناسكة : لما أقام القرآن الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح ، دعا الفريقين « اليهود والنصارى » إلى التوحيد ، والافتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، إذ كانت ملته الخنيفية السمحة وهي ملة الإسلام ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً كما زعم كل من الفريقين ، ثم بين أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمد ﷺ وأمته .

اللغة : ﴿سواء﴾ السواء : العدل والنصف قال أبو عبيدة : يقال قد دعاك إلى السواء فاقبل منه قال زهير :

أروني خطة لا ضيم فيها يُسوى بيننا فيها السواء

﴿أولى﴾ أحقُّ ﴿ودت﴾ تمت ﴿تلبسون﴾ اللبس : الخلط يقال : لبس الأمر عليه إذا اشتبه واختلط ﴿وجه النهار﴾ أوله سميّ وجهاً لأن أول ما يواجهه من النهار أوله قال الشاعر :

من كانَ مسروراً بمقتل مالك فليأتِ نسوتنا بوجهِ نهار^(١)

سَبَبُ النُّزُولِ : روي عن ابن عباس أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إبراهيم فقالت اليهود : ما كان إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إلا نصرانياً فأنزل الله ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ الآية^(٢) .

قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٣١﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمُتَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ هَٰ أَ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمُتَحَاجُّونَ

النَّصِير : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ أي قل لهم يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ أي أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد اليهود والنصارى عزيزاً وعيسى ، وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرّموا ، روي أن الآية لما نزلت قال عدي بن حاتم ما كنا نعبدكم يا رسول الله ، فقال ﷺ أما كانوا يحلون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم ؟ فقال : نعم فقال النبي ﷺ هو ذاك ﴿فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أي فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحدون مسلمون ، مقرّون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ أي والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرون كثيرة فكيف يكون من أهلها ؟ ﴿أفلا تعقلون﴾ بطلان قولكم ؟ فقد كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألفا سنة فكيف يقول بذلك عاقل ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصمتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه ﴿فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم﴾ أي فلم تخاصموا وتجادلوا في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم ؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة ؟ ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي والله يعلم الحق من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك ، قال أبو حيان : « وهذا استدعاء لهم أن يسمعوا كما تقول لمن تخبره بشيء لا يعلمه : اسمع فإنني أعلم ما لا تعلم »^(٣) ثم أكذبهم الله تعالى

فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

في دعوى إبراهيم فقال ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾ أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية ، فإن اليهودية ملة محرقة عن شرع موسى ، وكذلك النصرانية ملة محرقة عن شرع عيسى ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم ﴿وما كان من المشركين﴾ أي كان مسلماً ولم يكن مشركاً ، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم عزيز بن الله ، والمسيح بن الله ، وردّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ﴿وهذا النبي﴾ أي محمد ﷺ ﴿والذين آمنوا﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿والله ولي المؤمنين﴾ أي حافظهم وناصرهم . . ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله ﴿ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ أي تمنّوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم ﴿وما يشعرون﴾ أي ما يفتنون لذلك ، ثم وبّخهم القرآن على فعلهم القبيح فقال ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿وأنتم تشهدون﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾ أي لم تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشبهة والتحريف والتبديل ؟ ﴿وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك ، ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم ، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام فقال ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾ قال ابن كثير : وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجاهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ^(١) ﴿واكفروا آخراً﴾ أي اكفروا بالإسلام

وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكَ قُلْ إِنْ أَهْدَىٰ اللَّهُ هُدًىٰ لِّأَحَدٍ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾

آخر النهار ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يشكون في دينهم فيرجعون عنه ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هذا من تنمة كلام اليهود حكاية الله عنهم والمعنى : لا تصدقوا ولا تظهروا سرهم وتطمثوا لأحد إلا إذا كان على دينكم ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي قل لهم يا محمد الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله ، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبت عليه كما هدى المؤمنين ، والجملة اعتراضية ، ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود فقال ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ أي يقول اليهود بعضهم لبعض : لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم ، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدقه وإلا فكذبوه ، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحد بالنبوة إلا إذا كان على دينكم ، خشية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم ، فإذا أقررتهم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة ، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي قل لهم يا محمد أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿والله واسع عليم﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ أي يختص بالنبوة من شاء ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي فضله واسع عظيم لا يُحَدُّ ولا يُمنع .

البَلَاغَةُ : جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما يأتي : المجاز في قوله ﴿إلى كلمة﴾ حيث أطلق اسم الواحد على الجمع ، والتشبيه في قوله ﴿أرباباً﴾ حيث شبه طاعتهم لرؤساء الدين في أمر التحليل بالرب المستحق للعبادة ، والطباق في قوله ﴿الحق بالباطل﴾ والجناس التام في قوله ﴿يُضِلُّونَكُمْ وما يُضِلُّون﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿أولى﴾ و﴿ولي﴾ والتكرار في عدة مواطن ، والحذف في عدة مواطن ^(١) .

فكائِدَة : كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى « هرقل » ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام واستشهد فيه بالآية الكريمة التي فيها إخلاص الدعوة لعبادة الله وحده ، ونص الكتاب كما هو في صحيح مسلم « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين - يعني الفلاحين والخدم - ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ^(٢) » .

(١) نقلاً عن البحر المحيط . (٢) انظر صحيح البخاري ومسلم .

قال الله تعالى : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك . . إلى . . بعد إذ أنتم مسلمون﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٠)

المناسكة : لما حكى تعالى قبائح أهل الكتاب ، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر ، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم من الناحيتين : المالية والدينية ، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه ، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل .

اللفظة : ﴿قنطار﴾ القنطار المال الكثير وقد تقدم ﴿قائماً﴾ ملازماً ومداوماً على مطالبته ﴿الأميين﴾ المراد بهم العرب وأصل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب والعرب كانوا كذلك ﴿يلوون﴾ من اللوى وهو اللف والقتل تقول : لويت يده إذا قتلته والمراد أنهم يقتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزل إلى العبارات المحرفة ﴿لا خلاق﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله ﴿ربانيين﴾ جمع رباني وهو المنسوب إلى الرب قال الطبري معناه : كونوا حكماً علماء^(١) .

سبب النزول : عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ هل لك بينة ؟ قلت : لا ، قال لليهودي : احلف قلت : إذا يحلف فيذهب بما لي فأنزل الله ﴿إن الذين يشترون بعهد الله . .﴾^(٢) الآية .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ

التفسير : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ أي من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير أداه إليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ أي ومنهم من لا يؤتمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنته قرشي على دينار فجحدته ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي إلا إذا كنت ملازماً له ومُشهداً عليه ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين - يعني العرب - روي أن اليهود قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباءه﴾ والخلق لنا عبيد ، فلا سبيل لأحدٍ علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا ، وقيل إنهم قالوا إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون ، روي أنهم لما قالوا ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ قال نبي الله ﷺ : كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت

لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنَّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِيذِينَ إِمَّا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَإِمَّا كُنْتُمْ
تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر^(١) ، ثم قال تعالى ﴿بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله
يجب المتقين﴾ أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكن من أدى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ وأتقى
الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ أي يستبدلون
بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل
﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى ﴿ولا يكلمهم الله ولا
ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أي لا يكلمهم كلام أنس ولطف ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة ﴿ولا
يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ أي لا يطهرهم من أضرار الأوزار ، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبه من
المعاصي ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال
قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه قال ابن عباس : يحرفونه بتأويله على غير مراد
الله ﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ أي لتظنوا أن هذا المحرف من كلام الله وما هو إلا
تضليل وبهتان ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ أي ينسبونه إلى الله وهو كذب على الله
﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كذبوا وافتروا على الله ، ثم قال تعالى رداً على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم
أن يعبدوه ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة﴾ أي لا يصح ولا ينبغي لأحد من البشر
أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ أي ثم يقول للناس
اعبدوني من دون الله ، والنفي في مثل هذه الصيغة ﴿ما كان﴾ إنما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً
ثبوته والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة
والشريعة فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله
فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه ؟ ﴿ولكن كونوا ربانيين﴾ أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيين قال ابن
عباس : حكماء علماء حلماء والمعنى : لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء
فقهاء مطيعين لله ﴿بما كنتم تعلمون الناس الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي بتعليمكم الناس الكتاب
ودراستكم إياه ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله -

ملائكة أو أنبياء - لأنَّ مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أي أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله ، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله ؟ والاستفهام إنكاري تعجبي .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ذلك بأنهم قالوا﴾ الإشارة بالبعيد للإيدان بكمال غلوهم في الشر والفساد .

٢ - ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ فيه إيجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل أموال الأميين سبيل .

٣ - ﴿يشترون بعهد الله﴾ فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال .

٤ - ﴿ولا يكلمهم الله﴾ مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم وكذلك في الآتي بعدها .

٥ - ﴿ولا ينظر إليهم﴾ قال الزمخشري : مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم لأن من اعتد بإنسان التفث إليه وأعاره نظر عينيه .

٦ - بين لفظ ﴿اتقى﴾ و﴿المتقين﴾ جناس الاشتقاق وبين لفظ ﴿الكفر﴾ و﴿مسلمون﴾ طباق .

فكائِدَة : روي أن رجلاً قال لابن عباس : « إِنَّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فماذا تقولون ؟ قالوا نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم » ذكره ابن كثير .

قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة . . . إلى وما لهم من ناصرين﴾ من آية (٨١) إلى نهاية آية (٩٠)

المناسكة : لما ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه ، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به ، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته ، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره ، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته ؟ ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان ويبيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه .

اللغة : ﴿ميثاق﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه وقد تقدم ﴿إصري﴾ عهدي وأصله في اللغة الثقل قال الزمخشري : وسمي إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد^(١) ﴿الفاسقون﴾ الخارجون عن

طاعة الله ﴿طَوْعاً﴾ انقياداً عن رغبة ﴿كَرْهاً﴾ إجباراً وهو كاره ﴿الأسباط﴾ جمع سبط وهو ابن الإبن والمراد به هنا قبائل بني إسرائيل من أولاد يعقوب ﴿يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون يقال : أنظره يعني أمهله والنظرة الإمهال ﴿الخاسرون﴾ الخسران : انتقاص رأس المال يقال : خسر فلان أي أضاع من رأس ماله ﴿الضالون﴾ التائهون في مهامه الكفر .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن ابن عباس قال : ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة فإني قد ندمت ؟ فنزلت الآية ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا... إلى قوله إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم^(١) .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

التفسير : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيين ﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة قال الطبري : المعنى لهما آتيتكم أيها النبيون من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أي لصدقته ولتنصرنه ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننَّ به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي أقدرتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي ؟ ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ أي اعترفنا ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي أعرض ونكث عهده ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيتغي أهل الكتاب ديناً غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله ؟ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ولله استسلم وانقاد وخضع أهل السموات والأرض ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ أي طائعين ومكرهين قال قتادة : المؤمن أسلم طائعاً والكافر أسلم كارهاً حين لا ينفعه ذلك^(٢) قال ابن كثير : فالؤمن مستسلم بقلبه وقلبه لله طوعاً ، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع^(٣) ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي

(١) أخرجه النسائي وانظر القرطبي ١٢٩/٤ . (٢) الطبري ٥٧٦/٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٢٩٧/١ .

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا
بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ
أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا
كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ

يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله ﴿٩١﴾ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ﴿٩٢﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك آمنا بالله وبالقرآن المنزل علينا ﴿٩٣﴾ وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴿٩٤﴾ أي آمنا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحي ، والأسباط هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب ﴿٩٥﴾ وما أوتى موسى وعيسى ﴿٩٦﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿٩٧﴾ والنبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿٩٨﴾ أي وما أنزل على الأنبياء جميعهم ﴿٩٩﴾ لا نفرق بين أحدٍ منهم ﴿١٠٠﴾ أي لا نؤمّن بالبعث ونكفر بالبعث كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمّن بالكل ﴿١٠١﴾ ونحن له مسلمون ﴿١٠٢﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحداً أبداً ، ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال ﴿١٠٣﴾ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴿١٠٤﴾ أي يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿١٠٥﴾ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿١٠٦﴾ أي مصيره إلى النار مخلداً فيها ﴿١٠٧﴾ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴿١٠٨﴾ استفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم أي كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿١٠٩﴾ وشهدوا أن الرسول حق ﴿١١٠﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله ﴿١١١﴾ وجاءهم البينات ﴿١١٢﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿١١٣﴾ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١١٤﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة ، قال الحسن : هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم ، وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم ﴿١١٥﴾ ﴿١١٦﴾ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴿١١٧﴾ أي جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين ﴿١١٨﴾ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعظون ﴿١١٩﴾ أي ماكثين في النار أبد الأبد ، لا يُقترّ عنهم العذاب ولا هم يمهلون ﴿١٢٠﴾ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو ﴿١٢١﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿١٢٢﴾ فإن الله غفور رحيم ﴿١٢٣﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿١٢٤﴾ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً ﴿١٢٥﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿١٢٦﴾ لن تقبل توبتهم ﴿١٢٧﴾ أي لا تقبل

مَلَأَ الْأَرْضَ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿وأولئك هم الضالون﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي ، ثم أخبر تعالى عمّن كفر ومات على الكفر فقال ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم موجه ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

البَلَاغَةُ : ١ - الالتفات ﴿لما آتيتكم﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر لأن قبله ﴿ميثاق النبيين﴾ .

٢ - بين لفظ ﴿اشهدوا﴾ و﴿الشاهدين﴾ جناس الاشتقاق وكذلك بين لفظ ﴿كفروا﴾ و﴿كفراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ - الطباق بين ﴿طوعاً﴾ و﴿كرهاً﴾ وكذلك يوجد الطباق بين لفظ الكفر والإيمان .

٤ - ﴿وأولئك هم الضالون﴾ قصر صفة على موصوف ومثله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ .

٥ - ﴿وما أوتي موسى وعيسى والنبيون﴾ هو من باب عطف العام على الخاص .

٦ - ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم والعدول إلى صيغة فعيل للمبالغة .

فَكَايِدَةٌ : الآيات الكريمة قسمت الكفار إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم تاب توبة صادقة فنفعته وإليهم الإشارة بقوله ﴿إلا الذين تابوا بعد ذلك﴾ .

٢ - وقسم تاب توبة فاسدة فلم تنفعه وإليهم الإشارة بقوله ﴿كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً﴾ .

٣ - وقسم لم يتب أصلاً ومات على الكفر وإليهم الإشارة بقوله ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ .

تَبْيِيْهُ : روى الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال فيقول: نعم فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذتُ عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك) .

قال الله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ . . . إِلَى . . . آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

من آية (٩٢) إلى نهاية آية (١٠٣)

المناسكبة : لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة ، وبيّن أن الكافر لو أراد أن يفتدى نفسه بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك ، ذكر هنا استطراداً ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة ، ثم عاد الكلام لرفع الشبهات التي أوردتها أهل الكتاب حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام ، ثم جاء بعده التحذير من مكائدهم ودسائسهم التي يدبرونها للإسلام والمسلمين لتفرقة الصف وتشيت الشمل .

اللفظة : ﴿البر﴾ كلمة جامعة لوجوه الخير والمراد بها هنا الجنة ﴿حلاً﴾ حلالاً وهو مصدر نعت به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿اسرائيل﴾ هو يعقوب عليه السلام ﴿بكة﴾ اسم لمكة فتسمى « بكة » و « مكة » سميت بذلك لأنها تبك أي تدق أعناق الجبابرة فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله ﴿مباركاً﴾ البركة : الزيادة وكثرة الخير ﴿مقام إبراهيم﴾ محل قيام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت ﴿عوجاً﴾ العوج : الميل قال أبو عبيدة : في الدين والكلام والعمل ، وبالفتح عَوْجٌ في الحائط والجذع ﴿يعتصم﴾ يتمسك ويلتجئ وأصله المنع قال القرطبي : وكل متمسك بشيء معتصم وكل مانع شيئاً فهو عاصم^(١) ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ ﴿شفا﴾ الشفا : حرف كل شيء وحده ومثله الشفير ، وشفا الحفرة : حرفها قال تعالى ﴿على شفا جرف هار﴾

سبب النزول : يروى أن « شاس بن قيس » اليهودي مرّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون ، فغاضه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، ثم أمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم « بُعث » وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار - وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس - ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاح السلاح ، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : (أبعدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم) ؟ فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيداً من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(٢) الآية .

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا

التفسير : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة

لَبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ

حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿١٣﴾ وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴿١٤﴾ أي وما تبدلوا من شيء في سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء ﴿١٥﴾ كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ﴿١٦﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل ﴿١٧﴾ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴿١٨﴾ أي إلا ما حرمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإيل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم ﴿١٩﴾ من قبل أن تنزل التوراة ﴿٢٠﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة ﴿٢١﴾ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴿٢٢﴾ أي قل لهم يا محمد اتنوني بالتوراة واقروها علي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم قال الزمخشري : وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله فلما حاجهم بكتابهم وبكتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة ، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ ﴿٢٣﴾ ﴿فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿قل صدق الله﴾ أي صدق الله في كل ما أوحى إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائفة كلها ﴿وما كان من المشركين﴾ برأه مما نسبته اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية ، وفيه تعريض بإشراكهم ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿مباركاً وهدى للعالمين﴾ أي وضع مباركاً كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره ، ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض لأنه قبلتهم ، ثم عدد تعالى من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿مقام إبراهيم﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، وفيه زمزم والحطيم ، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود ، أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقيقته أن يكون قبلة للمسلمين ؟ ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحرم بدعوة الخليل إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ أي فرض لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿ومن كفر فإن الله غني عن

وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ ءَامَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ ۖ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمُ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمُ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

العالمين ﴿١٠١﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغن عن عبادته وعن الخلق أجمعين ، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه قال ابن عباس : من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه ^(١) ، ثم أخذ يبيّن أهل الكتاب على كفرهم فقال ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أي لم تجحدوا بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن﴾ أي لم تصرفون الناس عن دين الله الحق ، وتمنعون من أراد الإيمان به ؟ ﴿تبغونها عوجاً﴾ أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجة ، وذلك بتغيير صفة الرسول ، والتلبس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً ﴿وأنتم شهداء﴾ أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد ووعيد ، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين : الضلال والاضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدّوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾ أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب ﴿يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ أي يصيروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان ، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنّهم كما في سبب النزول واللفظ في الآية عام ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ إنكار واستبعاد أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تنزل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حي بين أظهركم ؟ ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ أي من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق ، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ أي اتقوا الله تقوى حقة أو حق تقواه قال ابن مسعود : « هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر » ^(٢) والمراد بالآية ﴿حق تقاته﴾ أي كما يحق أن يتقى وذلك باجتنب جميع معاصيه ﴿ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً ولا

قُلُوبُكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢٦﴾

تتفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداءً ألداءً فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة نوجزها فيما يلي :

- ١ - ﴿قل فاتوا بالتوراة﴾ الأمر للتبكيك والتوبيخ للدلالة على كمال القبح .
- ٢ - ﴿للذي ببكة﴾ أي للبيت الذي ببكة وفي ترك الموصوف من التفضيم ما لا يخفى .
- ٣ - ﴿ومن كفر﴾ وضع هذا اللفظ « موضع ومن لم يحج » تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركة قال أبو السعود : « ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبار ما لا مزيد عليه وهي قوله ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ حيث أثمرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار ، على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذم الناس ، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص ، والإيهام ثم التبيين ، والإجمال ثم التفصيل » (١) .
- ٤ - ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ شبه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية والجامع بينهما النجاة في كل .
- ٥ - ﴿شفا حفرة﴾ شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة وهوة سحيقة ففيه استعارة تمثيلية والله أعلم .

تنبيه : وردت الآيات الكريمة لدفع شبهتين من شبه أهل الكتاب :

الشبهة الأولى : أنهم قالوا للنبي ﷺ إنك تدعي أنك على دين إبراهيم وقد خالفت شريعته فأنت تبيح لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم ؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل﴾ الآية .

الشبهة الثانية : قالوا إن « بيت المقدس » قبلة جميع الأنبياء وهو أول المساجد وأحق بالاستقبال فكيف تترك يا محمد التوجه إليه ثم تزعم أنك مصدق لما جاء به الأنبياء فرد الله تعالى بقوله ﴿إن أول بيت

وضع للناس للذي ببكة الآية .

قال تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . إلى قوله . . بما عصوا وكانوا يعتدون﴾

من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٢)

المناسكة : لما حذر تعالى من مكاييد أهل الكتاب ، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم ، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف ، ثم ذكر ما حلّ باليهود من الذل والصغار بسبب البغي والعدوان .

اللفت : ﴿أمة﴾ طائفة وجماعة ﴿البيّنات﴾ الآيات الواضحات ﴿المعروف﴾ ما أمر به الشرع واستحسنه العقل السليم ﴿المنكر﴾ ما نهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم ﴿الأدبار﴾ جمع دبر وهو مؤخر كل شيء يقال : ولاء دبره أي هرب من وجهه ﴿ثقفوا﴾ وجدوا وصودفوا ﴿حبل﴾ من الله ﴿الحبل معروف والمراد به هنا : العهد وسمي حبلًا لأنه سبب يحصل به الأمن وزوال الخوف ﴿بأءوا﴾ رجعوا ﴿المسكنة﴾ الفقر .

وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ
وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

النفسير : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ أي ولتقم منكم طائفة للدعوة إلى الله ﴿ويأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات﴾ أي لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه بسبب اتباع الهوى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ أي لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ أي يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة ، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتُم بعد إيمانكم﴾ هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال والمعنى أما أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ : أكفرتُم بعد إيمانكم أي بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي ذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ أي وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبداً ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي هذه آيات الله نتلوها عليك يا محمد حال كونها متلبسة بالحق ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي وما كان الله ليظلم أحداً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون ﴿ولله ما في السموات وما في

تَكْفُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٧﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٦٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٠﴾ لَن يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٧١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَءَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِءَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿٧٢﴾ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٣﴾

الأرض ﴿٦٦﴾ أي الجميع ملك له وعبيد ﴿٦٧﴾ وإلى الله ترجع الأمور ﴿٦٨﴾ أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس ولهذا قال ﴿٦٩﴾ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴿٧٠﴾ أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم ، روى البخاري عن أبي هريرة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال : خير الناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام ﴿٧١﴾ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴿٧٢﴾ وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال « من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها »^(١) ثم قال تعالى ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾ أي لو آمنوا بما أنزل على محمد وصدقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ أي منهم فئة قليلة مؤمنة كالنجاشي وعبد الله بن سلام ، والكثرة الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله ، ﴿لن يضرركم إلا أذى﴾ أي لن يضرركم إلا ضرراً يسيراً بألستهم من سب و طعن ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ أي يهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً ﴿ثم لا ينصرون﴾ أي ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لا ينصرون بالجملة استثنائية ﴿ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا﴾ أي لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين قال ابن عباس : بعهد من الله وعهد من الناس ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ أي لزمهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار ، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .
- ٢ - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه قصر صفة على موصوف حيث قصر الفلاح عليهم .
- ٣ - ﴿تَبْيِضٌ وَجْوهٌ وَتَسْوَدُ وَجْوهٌ﴾ بين كلمتي ﴿تبييض﴾ و ﴿تسود﴾ طباق .
- ٤ - ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ مجاز مرسل أطلق الحال وأريد المحل أي ففي الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة .
- ٥ - ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ فيه استعارة حيث شبه الذل بالخباء المضروب على أصحابه وقد تقدمت في البقرة
- ٦ - ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ التنكير للتفخيم والتهويل .

فَكَايْدَةٌ : قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ جملة مستأنفة ولهذا ثبتت فيها النون قال الزمخشري : « وعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم مخدولون منتفٍ عنهم النصر ، ولو جزم لكان نفي النصر مقيداً لقتالهم بينا النصر وعدٌ مطلق »^(١)

تَبْيِضٌ : الاختلاف الذي أشارت إليه الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ إنما يراد به الاختلاف في العقيدة وفي أصول الدين وأما الاختلاف في الفروع كما اختلف الأئمة المجتهدون فذلك من اليسر في الشريعة كما نبه على ذلك العلماء ولا بن تيمية رحمه الله رسالة قيمة اسمها « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » فارجع إليها فإنها رائعة ومفيدة .

قال الله تعالى : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ .. إِلَى .. إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

من آية (١١٣) إلى نهاية آية (١٢٠)

الْمَنَاسِكَةُ : لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة ، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة واحدة ففيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئاً ، وأعقب ذلك بالنهاي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء ونبه إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين .

اللِّغْزُ : ﴿أَنَاءٌ﴾ أوقات وساعات مفردها إِنَى على وزن مَعَى ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ يُجْحَدُوهُ من الكفر بمعنى الجحود ، سمي منعُ الجزاء كفراً لأنه بمنزلة الجحد والستر ﴿صَرَ﴾ الصرُّ : البرد الشديد قاله ابن

عباس وأصله من الصرير الذي هو الصوت ويراد به الريح الشديدة الباردة ﴿حرث﴾ زرع وأصله من حرث الأرض إذا شقها للزراع والبذر ﴿بطانة﴾ بطانة الرجل : خاصته الذين يفضي إليهم بأسراره شبه ببطانة الثوب لأنه يلي البدن ﴿لا يألونكم﴾ أي لا يقصرون قال الزمخشري : يقال ألا في الأمر يألوا إذا قصر فيه ﴿خبالاً﴾ الخبال : الفساد والنقصان ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل ﴿عتتم﴾ العنت : شدة الضرر والمشقة ﴿الأنامل﴾ أطراف الأصابع .

سَبَبُ النُّزُولِ : لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم : لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ (١) الآية .

* لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ

التفسير : ﴿ليسوا سواء﴾ أي ليس أهل الكتاب مستوين في المساوىء ، وهنا تم الكلام ثم ابتدأ تعالى بقوله ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿يتلون آيات الله﴾ آناء الليل وهم يسجدون ﴿أي يتعبدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿أي يؤمنون بالله على الوجه الصحيح﴾ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴿أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون﴾ ويسارعون في الخيرات ﴿أي يعملونها بمبادرين غير متاقلين﴾ وأولئك من الصالحين ﴿أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴿أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله﴾ والله عليم بالمتقين ﴿أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر المتقين ، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال﴾ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴿أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً﴾ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿أي مغلدون في عذاب جهنم﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ ﴿أي مثل ما ينفقونه في الدنيا بقصد الشاء وحسن الذكر كمثل ريح عاصفة فيها بردٌ شديد﴾ أصابت حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴿أي أصابت تلك

أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
 الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ
 وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُوكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ
 مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧٩﴾ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا
 الرِّيحُ الْمَدْمَرَةُ زَرَعَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْمَعَاصِي فَأَفْسَدَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ ؛ فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحِقُّ
 اللَّهُ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ كَمَا يَذْهَبُ هَذَا الزَّرْعُ بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ أَي
 وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب ، ثم حذر تعالى من
 اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ بَطَانَةَ يَطْلَعُونَهُمْ عَلَى أَسْرَارِهِمْ فَقَالَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ﴾ أَي لَا
 تَتَّخِذُوا الْمُنَافِقِينَ أَصْدِقَاءَ تُوَدُّونَهُمْ وَتَطْلَعُونَهُمْ عَلَى أَسْرَارِكُمْ وَتَجْعَلُونَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ
 خَبَالًا﴾ أَي لَا يَقْصُرُونَ لَكُمْ فِي الْفَسَادِ ﴿ودوا ما عنتم﴾ أَي تَمَنَّاوْا مَشَقَّتَكُمْ وَمَا يُوقِعُكُمْ فِي الضَّرَرِ الشَّدِيدِ
 ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ أَي ظَهَرَتْ أَمَارَاتُ الْعَدَاوَةِ لَكُمْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَهُمْ لَا يَكْتَفُونَ بِبَغْضَائِكُمْ
 بِقُلُوبِهِمْ حَتَّى يَصْرَحُوا بِذَلِكَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ أَي وَمَا يَبْطُونَهُ لَكُمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ أَكْثَرُ
 مِمَّا يَظْهَرُونَهُ ﴿قد بيَّنا لكم الآيات﴾ أَي وَضَحْنَا لَكُمْ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى وَجوبِ الْإِخْلَاصِ فِي الدِّينِ ،
 وَمَوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعَادَاةِ الْكَافِرِينَ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَي إِن كُنتُمْ عَقْلَاءَ ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الْهَزْ
 وَالتَّحْرِيكِ لِلنَّفُوسِ كَقَوْلِكَ إِن كُنْتَ مُؤْمِنًا فَلَا تُؤْذِ النَّاسَ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الْمَعْنَى : إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ عَنْ اللَّهِ
 أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ، ثُمَّ يَتَنَسَّجُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كِرَاهِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾
 أَي هَآأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ خَاطِثُونَ فِي مَوَالَاتِكُمْ إِذْ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ، تَرِيدُونَ لَهُمُ النِّفْعَ وَتَبْذُلُونَ لَهُمُ
 الْمَحَبَّةَ وَهُمْ يَرِيدُونَ لَكُمْ الضَّرَرَ وَيُضْمِرُونَ لَكُمْ الْعَدَاوَةَ ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أَي وَأَنْتُمْ تُوْمِنُونَ
 بِالْكِتَابِ الْمُنْزَلِ كُلِّهَا وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَبْغِضُونَكُمْ ، فَمَا بِالْكَفْرِ تُحِبُّونَهُمْ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ كِتَابِكُمْ ؟ وَفِيهِ
 تَوْبِيخٌ شَدِيدٌ بِأَنَّهُمْ فِي بَاطِلِهِمْ أَصْلَبُ مِنْكُمْ فِي حَقِّكُمْ ﴿وَإِذَا الْقُوكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أَي وَهَذَا مِنْ خَبْثِهِمْ إِذْ
 يَظْهَرُونَ أَمَامَكُمْ الْإِيمَانَ نِفَاقًا ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أَي وَإِذَا خَلَتْ مَجَالِسُهُمْ
 مِنْكُمْ عَضُوا أَطْرَافَ الْأَصَابِعِ مِنْ شِدَّةِ الْحَنَقِ وَالْغَضَبِ لِمَا يَرُونَ مِنْ ائْتِلَافِكُمْ ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ
 وَالتَّأْسَفِ لِمَا يَفُوتُهُمْ مِنْ إِذَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ هُوَ دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ أَي قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَدَامَ اللَّهُ
 غَيْظَكُمْ إِلَى أَنْ تَمُوتُوا ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَي إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَا تَكْنَهُ سَرَائِرُكُمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ
 وَالْحَسَدِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِمَا يَتَرَقَّبُونَ نَزُولَهُ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ بِالْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ﴿إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ
 تَسُؤْهُمْ﴾ أَي إِن أَصَابَكُمْ مَا يَسُرُّكُمْ مِنْ رِخَاءٍ وَخَصْبٍ وَنَصْرَةٍ وَغَنِيمَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ سَاءَتْ لَهُمْ ﴿وإِن تُصِبْكُمْ

(١) هذا قول الطبري وكثير من المفسرين وقيل المراد منه : التفرغ والإغاطة والمعنى أنهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك كذا في

وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

سيئة يفرحوا بها ﴿١﴾ أي وإن أصابكم ما يضركم من شدة وجذب وهزيمة وأمثال ذلك سرتهم ، فبين تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة ﴿٢﴾ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴿٣﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم ، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿٤﴾ إن الله بما يعملون محيط ﴿٥﴾ أي هو سبحانه عالم بما يدبرونه لكم من مكائد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة .

البلاغَة : ١ - ﴿من أهل الكتاب أمة﴾ جيء بالجملة اسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع ﴿يتلون آيات الله﴾ للدلالة على التجدد ومثله في ﴿يسجدون﴾ .

٢ - ﴿وأولئك من الصالحين﴾ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل .

٣ - ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ فيه تشبيه وهو من نوع التشبيه التمثيلي شبه ما كانوا ينفقونه في المفاخر وكسب الثناء بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته حطاماً .

٤ - ﴿لا تتخذوا بطانة﴾ شبه دخلاء الرجل وخواصه بالبطانة لأنهم يستبطنون دخيل أمره ويلازمونه ملازمة شعاره لجسمه ففيه استعارة أفاده في تلخيص البيان^(١) .

٥ - ﴿عضوا عليكم الأنامل﴾ قال أبو حيان : يوصف المغتاط والنادم بعض الأنامل فيكون حقيقة ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين^(٢) .

٦ - في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة وذلك في قوله ﴿إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة ، كما أن فيها جناس الاشتقاق في ﴿ظلمهم﴾ و ﴿يظلمون﴾ وفي ﴿الغيظ﴾ و ﴿غيظكم﴾ وفي ﴿تؤمنون﴾ و ﴿آمناء﴾ .

لطيفة : عبر بالمس في قوله ﴿إن تمسكم حسنة﴾ وبالإصابة في قوله ﴿وإن تصبكم سيئة﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء وحتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مساً خفيفاً وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذي يرثي له الشامت فإنهم لا يرثون بل يفرحون ويسرون وهذا من أسرار بلاغة التنزيل ، نقلاً عن حاشية الكشف

قال الله تعالى : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال . . إلى . . وأطيعوا الله

والرسول لعلكم ترحمون﴾

من آية (١٢١) إلى نهاية آية (١٣٢)

المناسبة : يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة ، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال ، والآيات تتحدث عن غزوة « أحد » بالإسهاب وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضاً ليدكرهم بنعمته تعالى عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة قليلون في العدد والعدد ، وهذه الآية هي افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أنزل فيها ستون آية ، ومناسبة الآيات لما قبلها أنه تعالى لما حذر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في هم الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تشييط المنافقين لهم وعلى رأسهم أبي بن سلول رأس النفاق فللمناسبة واضحة ، روى الشيخان عن جابر قال « فينا نزلت ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ﴾ قال نحن الطائفتان : بنو حارثة ، وبنو سلمة وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ﴾ » .

اللفظة : ﴿ غَدَوْتُ ﴾ خرجت غداة وهي الساعات الأولى من الصبح ﴿ تَفْشَلَا ﴾ الفشل : الجبن والضعف ﴿ تَبَوَّءَ ﴾ تنزل يقال : بوائته منزلاً وبوائت له منزلاً أي أنزلته فيه وأصل التبوىء اتخاذ المنزل ﴿ أذلة ﴾ أي قلة في العدد والسلاح ﴿ فورهم ﴾ الفور : السرعة وأصله شدة الغليان من فارت القدر إذا غلت ثم استعملت للسرعة تقول : من فوره أي من ساعته ﴿ مسومين ﴾ بفتح الواو بمعنى معلمين على القتال وبكسرهما بمعنى لهم علامة وكانت سيماهم يوم بدر عمام بيضاء ﴿ طرفاً ﴾ طائفة وقطعة ﴿ يكتبهم ﴾ الكبت : الهزيمة والإهلاك وقد يأتي بمعنى الغيظ والإذلال ﴿ خائبين ﴾ الخيبة : عدم الظفر بالمطلوب .

سبب النزول : ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كسرت ربايعيته يوم أحد وشج في رأسه ، فجعل يسلي الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا ربايعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى ؟ فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُسْكِرُونَ ﴿١٢٣﴾

التفسير : ﴿ وإذ غدوت من أهلك ﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلك ﴿ تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أي تنزل المؤمنين أماكنهم لقتال عدوهم ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ أي حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع وهما « بنو سلمة » و « بنو حارثة » وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألف من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل « عبد الله بن أبي » بثلاث الجيش وقال : علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فهم الحيان من الأنصار بالرجوع فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ وذلك قوله تعالى ﴿ والله وليهما ﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم ، ثم ذكرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهم ويتسلوا عملاً

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَاتَّقُوا وَيَأْتُواكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ

أصابعهم من الهزيمة يوم أحد فقال ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد وال سلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعُدَّة ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي اشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم ﴿بلى أن تصبروا وتتقوا﴾ بلى تصديق للوعد أي بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتيقيتم الله وأطعتم أمره ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ أي يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أي يزدكم الله مدداً من الملائكة معلمين على السلاح ومدربين على القتال^(١) ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العُدَّة والعُدَّة ، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده ، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿العزيز الحكيم﴾ أي الغالب الذي لا يغلب في أمره الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ أي ذلك التدبير الإلهي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، ويهدم ركناً من أركان الشرك ﴿أو يكتسبهم﴾ أي يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم ، وقد فعل تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسر سبعين وأعز الله المؤمنين وأذل الشرك والمشركين ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ هذه الآية وردت اعتراضاً وهي في قصة أحد ، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الشريف قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدِّم ؟ ! فنزلت ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ أي فالله مالك أمرهم فإذا أن يهلكهم ، أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من

(١) وقيل معنى مسومين : أي معلمين بعلامة قال عروة بن الزبير : كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمام بيض قد أرسلوها بين أكتافهم ، انظر الطبري والكشاف .

غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٧﴾
وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٨﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٩﴾

يشاء والله غفور رحيم ﴿﴾ أي له جل وعلا ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴿﴾ هذا نهى من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه قال ابن كثير : كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين يقول الدائن : إِمَّا أَنْ تَقْضِيَ وَإِمَّا أَنْ تُرْبِي ! فإن قضاه وإلاّ زاده في المدة وزاده في القدر وهكذا كلّ عام فرجاً تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً^(١) ﴿﴾ واتقوا الله ﴿﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿﴾ لعلكم تفلحون ﴿﴾ أي لتكونوا من الفائزين ﴿﴾ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴿﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيئت للكافرين ﴿﴾ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴿﴾ أي اطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله .

البَلاغَةُ : ١ - ﴿﴾ إذ تقول ﴿﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية باستحضار صورتها في الذهن .

٢ - ﴿﴾ أن يمدكم ربكم ﴿﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع إضافته للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم أفاده أبو السعود .

٣ - ﴿﴾ يغفر ويعذب ﴿﴾ بينهما طباق .

٤ - ﴿﴾ أضعافاً مضاعفة ﴿﴾ جناس الاشتقاق .

٤ - ﴿﴾ لا تأكلوا الربا ﴿﴾ سمي الأخذ أكلاً لأنه يثول إليه فهو مجاز مرسل .

تَبْيِيْهُ : ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيّد ولا للشرط ، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية ، وللتشجيع عليهم بأنّ في هذه المعاملة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيناً حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة قال أبو حيان : « نهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فرجاً استغرق بالنزول اليسير مال المدين ، وأشار بقوله ﴿﴾ مضاعفة ﴿﴾ إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عاماً بعد عام ، والربا محرم بجميع أنواعه ، فهذه الحال ليس قيداً في النهي^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿﴾ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . . إلى . . وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴿﴾ من آية (١٣٣) إلى نهاية آية (١٤٨)

المناسِكة : لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة

بدر ، عقبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله ، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول ، ثم يبين أن الابتلاء سنة الحياة ، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين ، ثم توالى الآيات الكريمة في بيان الدروس والعبر من غزوة أحد .

اللفظة : ﴿وسارعوا﴾ بادروا ﴿السراء﴾ الرخاء ﴿الضرأ﴾ الشدة والضيق ﴿والكاظمين﴾ كظم الغيظ : رده في الجوف يقال : كظم غيظه أي لم يظهره مع قدرته على إيقاعه بالعدو مأخوذ من كظم القربة إذا ملاًها وشد رأسها ﴿فاحشة﴾ الفاحشة : العمل الذي تنهى في القبح ﴿خلت﴾ مضت ﴿سنن﴾ السنن : جمع سنة وهي الطريقة التي يقتدى بها ومنها سنة النبي ﷺ والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذابين ﴿قرح﴾ جرح بالفتح والضم قال الفراء : هو بالفتح الجرح وبالضم ألمه ^(١) ، وأصل الكلمة الخلوص ومنه ماء قراح ﴿نداولها﴾ نصرّفها والمداولة : نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال : تداولته الأيدي إذا انتقل من شخص إلى شخص ﴿وليمحّص﴾ التمهّيص : التخليص يقال : تمحصته إذا خلّصته من كل عيب وأصله في اللغة : التنقية والإزالة ﴿ويمحق﴾ المحق : نقص الشيء قليلاً قليلاً ﴿أعقابكم﴾ جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال : انقلب على عقبه أي رجع إلى ما كان عليه ﴿مؤجلاً﴾ له وقت محدّد لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وكأين﴾ كم وهي للتكثير وأصلها أي دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير ﴿رييون﴾ جمع ربّي نسبة إلى الربّ كالربانيين وهم العلماء الأتقياء العابدون لربهم وقيل : نسبة إلى الربة وهي الجماعة ﴿استكانوا﴾ خضعوا وذلّوا وأصله من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد .

* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

النفيس : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامثال أوامره ﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾ أي إلى جنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض كما قال في سورة الحديد « عرضها كعرض السماء والأرض » والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها ؟ ﴿أعدت للمتقين﴾ أي هيئت للمتقين لله ﴿الذين ينفقون في السراء والضرأ﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر ، وفي الشدة والرخاء ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي يمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿والعافين عن الناس﴾ أي يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي ارتكبوا ذنباً

وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيَمِحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحَقَ

قبيحاً كالكبائر^(١) ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي تذكروا عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا الله وهي جملة اعتراضية لتطيب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة ولبيان أن الذنوب - وإن جلَّت - فإن عفوه تعالى أجل ورحمته أوسع ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ونعم أجر العاملين﴾ أي نعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله ، ثم ذكر تعالى تنمة تفصيل غزوة أحد بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح فقال ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هذا بيان للناس﴾ أي هذا القرآن^(٢) فيه بيان شاف للناس عامة ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة ، وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس ، ثم أخذ يسليهم عما أصابهم من الهزيمة في وقعة أحد فقال ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من قتل أو هزيمة ﴿وأنتم الأعلى﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم فإن كانوا قد أصابوكم يوم أحد فقد أبلتكم فيهم يوم بدر ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ أي إن أصابكم قتل أو جراح فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم ﴿وتلك الأيام نداؤها بين الناس﴾ أي الأيام دول ، يوم لك ويوم عليك ، ويوم تُساء ويوم تُسر ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد

(١) قال ابن عباس : الفاحشة الزنا وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة .

(٢) اختار الطبري وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره والمعنى : هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك

الأمم السابقة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين .

الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ

ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخدلوا عن نبيه يوم أحد ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ أي ينقيهم ويظهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿ويمحق الكافرين﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة بدون ابتلاء وتمحيص ؟ ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ أي ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد ؟ قال الطبري المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه^(١) ! ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ أي كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدته ، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قُتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا ، ونزل لما أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل وقال المنافقون : إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي ليس محمد إلا رسول مضت قبله رسل ، والرسل منهم من مات ومنهم من قُتل ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم ؟ ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله ، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا ، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر فقال ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ أي بإرادته ومشئته ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ أي كتب لكل نفس أجلاً كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو ، فالجبن لا يزيد في الحياة ، والشجاعة لا تنقص منها ، والحذر لا يدفع القدر والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناها منها وليس له في الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم ، فيتبين تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة لأنها مبدولة للبر والفاجر ﴿ومن يرد

ثَوَابِ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

ثواب الآخرة نؤتيه منها أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطينه الأجر كاملاً مع ما قسمنا له من الدنيا كقوله ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون^(١) وعبيد صالحون قاتلوا فقتل منهم من قتل ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾ أي ما جبنوا ولا ضعفت همهم لما أصابهم من القتل والجراح ﴿وما ضعفوا﴾ عن الجهاد ﴿وما استكانوا﴾ أي ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم ﴿والله يحب الصابرين﴾ أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله ﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلا طلب المغفرة من الله ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك ﴿وثبت أقدامنا﴾ أي ثبتنا في مواطن الحرب ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي انصرنا على الكفار ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالنعمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته ، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتد به عند الله .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - ﴿عرضها السموات والأرض﴾ أي كعرض السموات والأرض حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه يسمى هذا « التشبيه البليغ » .

٢ - ﴿سارعوا إلى مغفرة﴾ من باب تسمية الشيء باسم سببه أي إلى موجبات المغفرة .

٣ - ﴿السراء والضراء﴾ فيه الطباق وهو من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ استفهام يقصد منه النفي أي لا يغفر .

٥ - ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة﴾ الإشارة بالبعيد للإشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل .

(١) ذهب الطبري إلى أن معنى ﴿ربيون كثير﴾ أي جموع كثيرة وهذا قول قتادة وعن الحسن أن المراد علماء كثيرون .

٦ - ﴿ونعم أجر العاملين﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك .

٧ - ﴿وليعلم الله﴾ هو من باب الالتفات لأنه جاء بعد لفظ ﴿نداوها﴾ فهو التفات من الحاضر إلى الغيبة ، والسر في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله .

٨ - ﴿وما محمد إلا رسول﴾ قصر موصوف على صفة .

٩ - ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ قال في تلخيص البيان : هذه استعارة والمراد بها الرجوع عن دينه ، فشبه سبحانه الرجوع في الارتياب بالرجوع على الأعقاب^(١) .

الفوائد : الأولى : في هذه الآيات الكريمة ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ أمهات مكارم الأخلاق من البذل وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين والتوبة من الذنوب ، وكل منها مصدر لفصائل لا تدخل تحت الحصر .

الثانية : قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية فلا يستحق دخول الجنة من لم يتطهر من الذنوب والآثام .

الثالثة : تخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصف الجنة بالسعة والبسطة فإذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها ؟ قال ابن عباس : كسبع سماوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض^(٢) .

الرابعة : كتب هرقل إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال عليه السلام : (سبحانه الله أين الليل إذا جاء النهار)^(٣) .

الخامسة : أمر تعالى بالمسارعة إلى عمل الآخرة في آيات عديدة ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ و﴿سابقوا إلى مغفرة﴾ و﴿فاستبقوا الخيرات﴾ و﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون و﴿وأما لعمل الدنيا فأمر بالهويني﴾ و﴿فامشوا في مناكبها﴾ و﴿وآخرون يضرّبون في الأرض﴾ فتدبر السرّ الدقيق .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا . . إلى . . أوقلتهم لإلى الله تحشرون﴾

من آية (١٤٩) إلى نهاية آية (١٥٨)

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أحد وما فيها من العظات والعبر ، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة ، وتأمّرهم على الدعوة الإسلامية بتبسيط عزائم المؤمنين .

اللغة : ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً وأصله القوة ومنه قيل للوالي سلطان ﴿مثنوى﴾ المثنوى :

المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه من قولهم ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿تحسونهم﴾ تقتلونهم قال الزجاج : الحس الاستئصال بالقتل وأصله الضرب على مكان الحس قال الشاعر :

حسناهم بالسيف حساً فأصبحت بقيتهم قد شردوا وتبددوا

﴿تصعدون﴾ الإصعاد : الذهاب والإبعاد في الأرض ، والفرق بينه وبين الصعود أن الإصعاد يكون في مستوى من الأرض ، والصعود يكون في ارتفاع ﴿لا تلون﴾ أي لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم وأصله من لي العنق للالتفات ﴿أخراكم﴾ أخركم ﴿أثابكم﴾ جازاكم ﴿أمنة﴾ أمناً واطمئناناً ﴿يغشى﴾ يستر ويغطي ﴿وليمحص﴾ التمهيص : التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب ﴿استزلهم﴾ أوقعهم في الزلة وهي الخطيئة ﴿غزى﴾ جمع غاز وهو الخارج في سبيل الله .

سَبَبُ النُّزُولِ : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ فأنزل الله ﴿ولقد صدقكم الله وعده . . . إلى قوله منكم من يريد الدنيا﴾ يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد^(١) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤١﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْمَوْلَىٰ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

النَّفْسِير : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ أي يردوكم إلى الكفر ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ أي ترجعوا إلى الخسران ، ولا خسران أعظم من أن تبدلوا الكفر بالإيمان قال ابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿بل الله مولاكم﴾ بل للإضراب أي ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصرهم ﴿وهو خير الناصرين﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره ، ثم بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفرع ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ﴿ومأواهم النار﴾ أي مستقرهم النار ﴿وبئس مَثْوَى الظالمين﴾ أي بئس مقام الظالمين نار جهنم ، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون وفي الحديث (نصرت بالرعب مسيرة شهر) ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أي وفي الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ أي

وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا حَبَّوْنَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نَّاعَسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ قَتْلُونَهُمْ قِتْلًا ذُرِيًّا وَتَحْصِدُونَهُمْ بَسِيفَتِكُمْ بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ ﴿١٥٤﴾ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ أَيُّ حَتَّى إِذَا جَبَيْتُمْ وَضَعْتُمْ وَاخْتَلَفْتُمْ فِي أَمْرِ الْمَقَامِ فِي الْجَبَلِ ﴿١٥٥﴾ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ ﴿١٥٦﴾ أَيُّ عَصَيْتُمْ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ أَنْ كَانَ النَّصْرَ حَلِيفَكُمْ ، رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ خَسِينَ مِنَ الرَّمَاةِ فَوْقَ الْجَبَلِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ : لَا تَبْرَحُوا أَمَا كُنْتُمْ حَتَّى وَلَوْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفَتُنَا الطَّيْرُ ، فَلَمَّا التَّقَى الْجَيْشَانِ لَمْ تَقْوُ خَيْلَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الثَّبَاتِ بِسَبَبِ السَّهَامِ الَّتِي أَخَذْتُمْ فِي جَوْهَهُمْ مِنَ الرَّمَاةِ فَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ ، فَلَمَّا رَأَى الرَّمَاةَ ذَلِكَ قَالُوا : الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ وَنَزَلُوا لَجَمْعِ الْأَسْلَابِ ، وَثَبَتَ رِئِيسُهُمْ وَمَعَهُ عَشْرَةٌ فَجَاءَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ فَقَتَلُوا الْبَقِيَّةَ مِنَ الرَّمَاةِ وَنَزَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسِيفِهِمْ مِنْ خَلْفِ ظُهُورِهِمْ فَانْقَلَبَ النَّصْرُ إِلَى هَزِيمَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿١٥٧﴾ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ ﴿١٥٨﴾ أَيُّ مِنْ بَعْدِ النَّصْرِ ﴿١٥٩﴾ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴿١٦٠﴾ أَيُّ الْغَنِيمَةِ وَهُمْ الَّذِينَ تَرَكُوا الْجَبَلِ ﴿١٦١﴾ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿١٦٢﴾ أَيُّ ثَوَابِ اللَّهِ وَهُمْ الْعَشْرَةُ الَّذِينَ ثَبَتُوا فِي مَرْكَزِهِمْ مَعَ أَمِيرِهِمْ «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَبْرِ» ثُمَّ اسْتَشْهَدُوا ﴿١٦٣﴾ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿١٦٤﴾ أَيُّ رَدَّكُمْ بِالْهَزِيمَةِ عَنِ الْكُفَّارِ لِيَمْتَحِنَ إِيمَانُكُمْ ﴿١٦٥﴾ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴿١٦٦﴾ أَيُّ صَفَحَ عَنْكُمْ مَعَ الْعَصِيَّانِ ، وَفِيهِ إِعْلَامٌ أَنَّ الذَّنْبَ كَانَ يَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ عَنْهُمْ وَلِهَذَا قَالَ ﴿١٦٧﴾ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾ أَيُّ ذُو مَنٍّ وَنِعْمَةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْأَوَاقَاتِ وَالْأَحْوَالِ ﴿١٦٩﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ ﴿١٧٠﴾ أَيُّ اذْكُرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ وَلِيَتِمَّ الْأَدْبَارُ تَبْعُدُونَ فِي الْفِرَارِ وَلَا تَلْتَفِتُونَ إِلَى مَا وَرَاءَكُمْ وَلَا يَقِفُ وَاحِدٌ مِنْكُمْ لِآخِرِ ﴿١٧١﴾ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴿١٧٢﴾ أَيُّ وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَنَادِيكُمْ مِنْ وَرَاءَكُمْ يَقُولُ (إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ، إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، مَنْ يَكُرُّ فَلَهُ الْجَنَّةُ) وَأَنْتُمْ تَمْنَعُونَ فِي الْفِرَارِ ﴿١٧٣﴾ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ﴿١٧٤﴾ أَيُّ جَازَاكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ غَمًّا بِسَبَبِ غَمِّكُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ وَمَخَالَفَتِكُمْ أَمْرَهُ ﴿١٧٥﴾ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴿١٧٦﴾ أَيُّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿١٧٧﴾ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴿١٧٨﴾ أَيُّ مِنْ الْهَزِيمَةِ ، وَالْغَرَضُ بَيَانُ الْحِكْمَةِ مِنَ الْغَمِّ ، وَهُوَ أَنَّ يَنْسِيَهُمُ الْحُزْنَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ وَمَا أَصَابَهُمْ وَذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِهِمْ ﴿١٧٩﴾ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ أَيُّ أَيُّ يَعْلَمُ الْمَخْلُصُ مِنْ غَيْرِهِ ﴿١٨١﴾ ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نَّاعَسًا ﴿١٨٢﴾ وَهَذَا امْتِنَانٌ مِنْهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَيُّ ثُمَّ أَرْسَلَ عَلَيْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْغَمِّ الشَّدِيدِ النَّعَاسَ لِلْسَكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَلِتَأْمَنُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فَالْخَائِفُ لَا يَنَامُ ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ : « غَشِينَا النَّعَاسُ وَنَحْنُ

(١) ذهب الطبري إلى أن الباء بمعنى على والمعنى : فجَازَاكُمْ عَلَى مَعْصِيَتِكُمْ وَمَخَالَفَتِكُمْ أَمْرَ الرَّسُولِ غَمًّا عَلَى غَمِّ ، كَقَوْلِهِ ﴿وَلَا صُلْبَ لَكُمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ﴾ أَيُّ عَلَى جَذُوعِ النَّخْلِ ، وَقَدْ رَجَحَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ الْقَيْمِ وَعَتَمَدَةُ ابْنُ كَثِيرٍ .

الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَأْتِيهَا

في مصافنا يوم أحد ، قال فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ، ويسقط وأخذه ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمانة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص ، وبقي أهل النفاق في خوف وفرع فقال ﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ أي يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون المخلصون ﴿ وطائفة قد أهتمهم أنفسهم ﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إلا نجاتها وهم المنافقون ، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال ، فبعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمانة فناموا ، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفرع والجزع ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظن أهل الجاهلية ، قال ابن كثير : وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأمله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة ^(١) ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء ، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين الأمر كله بيد الله يصرفه كيف شاء ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ أي يبطنون في أنفسهم ما لا يظهر ون لك ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نقتل ولكن أكرهنا على الخروج ، وهذا تفسير لما يبطنون قال الزبير : أرسل علينا النوم ذلك اليوم وإني لأسمع قول «معتب بن قشير» والنعاس يغشاني يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ^(٢) ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ أي قل لهم يا محمد لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم ، فقدر الله لا مناص منه ولا مفر ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم ﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿ وليمحص ما في قلوبكم ﴾ أي ولينقي ما في قلوبكم ويطهره فعل بكم ذلك ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أي عالم بالسرائر مطلع على الضمائر وما فيها خير أو شر ، ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أحد فقال ﴿ إن الذين تولوا منكم ﴾ أي انهزموا منكم من المعركة ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿ إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ أي إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿ ولقد عفا الله

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٣٠ . (٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٤٢ .

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

عنهم ﴿أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم﴾ ﴿إن الله غفور حلیم﴾ أي واسع المغفرة حلیم لا يعجل العقوبة لمن عصاه ، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ أي لا تكونوا كالمنافقين ﴿وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض﴾ أي وقالوا لإخوانهم من أهل النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب ﴿أو كانوا غزى﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ﴿والله يحيي ويميت﴾ ردُّ على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحي المميت فلا يمنع الموت قعود ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله﴾ أي استشهدتم في الحرب والجهاد ﴿أو متم﴾ أي جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم ﴿لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم ، فأتروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته ، ولله در القائل حيث يقول :

فإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ أي يرجعوكم من الإيمان إلى الكفر وهو من باب الاستعارة وقد تقدم .

٢ - بين لفظ ﴿آمنوا﴾ و﴿كفروا﴾ في الآية طباق وكذلك بين ﴿يخفون﴾ و﴿يبدون﴾ وبين ﴿فاتكم﴾ و﴿أصابكم﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ لم يقل وبئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مثوى الظالمين النار أفاده أبو السعود^(١) .

٤ - ﴿ذو فضل على المؤمنين﴾ التنكير للتفخيم وقوله ﴿على المؤمنين﴾ دون عليهم فيه الإظهار في موضع الإضمار للتشريف والإشعار بعلّة الحكم .

٥ - ﴿يظنون بالله ظنً﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿فتوكل . . والمتوكلين﴾ .

٦ - ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ فيه استعارة تشبيهاً للمسافر في البر بالساحب الضارب في البحر . لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقاً لها واستعانة على قطعها كذا في تلخيص البيان^(١)

فكائدة : من الذين ثبتوا في المعركة بأحد الأسد المقدام « أنس بن النضر » عم أنس بن مالك ، فلما هزم المسلمون وأشاع المنافقون أن محمداً ﷺ قد قتل قال : اللهم إني أعتر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم بسيفه فلقبه « سعد بن معاذ » فقال : أين يا سعد ؟ والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ومثّل به المشركون فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه ورؤي وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم^(٢) .

فكائدة : روى ابن كثير عن ابن مسعود قال : إن النساء كنَّ يوم أحد خلف المسلمين يُجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرّ أنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به أفرد النبي ﷺ في تسعة وهو عاشرهم فلما أرهقوه قال : رحم الله رجلاً ردّهم عنا فلم يزل يقول ذلك حتى قتل سبعة منهم ، فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطيع أن تأكلها ، وحزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً ، وصلى عليه يومئذ سبعين صلاة .

قال الله تعالى : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم . . إلى . . عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾

من آية (١٥٩) إلى نهاية آية (١٦٨)

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أحد ، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غم واضطراب ، وأرشدتهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء ، وفي هذه الآيات الكريمة اشادة بالقيادة الحكيمة ، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ فقد وسعهم عليه السلام بخلقه الكريم وقلبه الرحيم ، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدة وإنما خاطبهم باللطف واللين ، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته ، وتوحدت تحت قيادته ، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة ، وعن المنّة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة .

اللفظة : ﴿فظاً﴾ اللفظ الجافي قال الواحدي هو الغليظ سيىء الخلق قال الشاعر :

أخشى فظاظه عمّ أو جفاء أخٍ وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

﴿غليظ القلب﴾ هو الذي لا يتأثر قلبه ولا يرقّ ومن ذلك قول الشاعر :

يُكَيّ علينا ولا نبكي على أحدي ؟ لنحن أغلظ أكباداً من الإيل^(٣)

﴿انفضوا﴾ تفرقوا وأصل الفض الكسر ومنه قولهم : لا يفضض الله فاك ﴿يغل﴾ الغلول : الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال : غل فلان في الغنيمة أي أخذ شيئاً منها في خفية ﴿باء﴾ رجع ﴿سخط﴾ السخط : الغضب الشديد ﴿مأواه﴾ منزله ومثواه ﴿يزكيهم﴾ يطهرهم ﴿من﴾ المنة : الإينعام والإحسان ﴿فادرءوا﴾ الدرء : الدفع ومنه ﴿ويدراً عنها العذاب﴾ .

سَبَبُ النَّزُولِ : فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعل النبي ﷺ أخذها فأنزل الله ﴿وما كان لنبي أن يغلب﴾ (١) الآية .

فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَقْمِنِ أَتَّبِعْ

التفسير : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي فسبب رحمة من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت هيناً لئن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب ، تعاملهم بالغلظة والجفا ، لتفرقوا عنك ونفروا منك ، ولما كانت الفظاظ في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ أي فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد ، واطلب لهم من الله المغفرة ، وشاورهم في جميع أمورهم ليقتدي بك الناس قال الحسن « ما شاور قوم قط إلا هُتدوا لأرشد أمورهم » (٢) وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿فإذا عزمْتَ فتوكل على الله﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوض أمرك إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي يحب المعتمدين عليه ، المفوضين أمورهم إليه ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي إِنْ أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَكُمْ فَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَغْلِبَكُمْ ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي وَإِنْ أَرَادَ خَذْلَانَكُمْ وَتَرَكَ مَعُونَتَكُمْ فَلَا نَاصِرَ لَكُمْ ، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله ، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي وعلى الله وحده فليجأ وليعتمد المؤمنون ﴿وما كان لنبي أن يغلب﴾ أي ما صح ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبي من الأنبياء أن يخون في الغنيمة ، والنفي هنا نفى للشأن وهو أبلغ من نفى الفعل لأن المراد أنه لا يتأتى ولا يصح أن يتصور فضلاً عن أن يحصل ويقع ﴿ومن يغلب يأت بما غل يوم القيامة﴾ أي ومن يخون من غنائم المسلمين شيئاً يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة فضيحة له على رءوس الأشهاد ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ أي تعطى جزاء ما عملت وافياً غير منقوص

رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمَ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿١٦٣﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٤﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٥﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَأَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٨﴾ أَي تَنَال جَزَاءَهَا الْعَادِلُ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ ، فَلَا يَزَادُ فِي عِقَابِ الْعَاصِي ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ الْمُطِيعِ ﴿١٦٩﴾ أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ﴿١٧٠﴾ أَي لَا يَسْتَوِي مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَطَلَبَ رِضْوَانَهُ ، وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَاسْتَحَقَّ سَخَطَهُ وَبَاءَ بِالْخُسْرَانِ ﴿١٧١﴾ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿١٧٢﴾ أَي مَصِيرُهُ وَمَرْجَعُهُ جَهَنَّمَ وَبَثَّتِ النَّارُ مُسْتَقَرًّا لَهُ ﴿١٧٣﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴿١٧٤﴾ أَي مُتَفَاوِتُونَ فِي الْمَنَازِلِ قَالَ الطَّبْرِيُّ : هُمْ مُخْتَلِفُو الْمَنَازِلِ عِنْدَ اللَّهِ ، فَلَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ الْكِرَامَةُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ ، وَلَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ الْمَهَانَةُ وَالْعِقَابُ الْأَلِيمُ ﴿١٧٥﴾ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾ أَي لَا تُخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُ الْعِبَادِ وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَلَّةِ الْعَظْمَى عَلَيْهِمْ بَعِثَهُ خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أَي وَاللَّهُ لَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حِينَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا عَرَبِيًّا مِّنْ جَنْسِهِمْ ، عَرَفُوا أَمْرَهُ وَخَبَرُوا شَأْنَهُ ، وَخَصَّ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالذِّكْرِ وَإِنْ كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِعُونَ بِبِعْتِهِ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أَي يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْوَحْيَ الْمُنَزَّلَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أَي يَطْهَرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَدَنَسِ الْأَعْمَالِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أَي يَعْلَمُهُمُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ وَالسُّنَّةَ الْمُطَهَّرَةَ ﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أَي وَإِنَّهُ الْحَالُ وَالشَّأْنُ كَانُوا قَبْلَ بَعْتِهِ فِي ضَلَالٍ ظَاهِرٍ ، فَنَقَلُوا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَصَارُوا أَفْضَلَ الْأُمَمِ ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أَي أَوْ حِينَ أَصَابَتْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كَارِثَةٌ يَوْمَ أَحَدٍ فَقُتِلَ مِنْكُمْ سَبْعُونَ ﴿قَدْ أَصَابَتْكُمْ مِثْلُهَا﴾ أَي فِي بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ سَبْعِينَ وَأَسْرَئْتُمْ سَبْعِينَ ﴿قُلْتُمْ أَأَنَّى هَذَا﴾ ؟ أَي مِنْ أَيْنَ هَذَا الْبَلَاءُ ، وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْنا الْهَزِيمَةُ وَقَدْ وَعَدْنَا بِالنَّصْرِ ، وَمَوْضِعُ التَّقْرِيعِ قَوْلُهُمْ ﴿أَنَّى هَذَا﴾ ؟ مَعَ أَنَّهُمْ سَبَبُ النِّكْصَةِ وَالْهَزِيمَةِ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾ أَي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : إِنْ سَبَبُ الْمُصِيبَةِ مِنْكُمْ أَنْتُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ أَمْرَ الرُّسُولِ وَحِرْصِكُمْ عَلَى الْغَنِيمَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَي وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ أَحَدٍ ، يَوْمَ التَّقَى جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ وَجَمْعُ الْمُشْرِكِينَ فَبِقَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرِهِ وَبِإِرَادَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ وَتَقْدِيرِهِ الْحَكِيمِ ، لِيَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي لِيَعْلَمَ أَهْلَ الْإِيمَانِ الَّذِينَ صَبَرُوا وَثَبَّتُوا وَلَمْ يَتَزَلَّزَلُوا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ أَي لِيَعْلَمَ أَهْلَ النِّفَاقِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي

لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

ابن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أُحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنكم تلحقون حرباً لقاتلنا معكم ، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾ أي بإظهارهم هذا القول صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون ﴿والله أعلم بما يكتُمون﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا﴾ أي وليعلم الله أيضاً المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين إِنْ كَانَ عَدَمُ الْخُرُوجِ يَنْجِي مِنَ الْمَوْتِ فَادْفَعُوا الْمَوْتَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ ، والغرض منه التوبيخ والتبكيت وأن الموت آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ . . وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ بينهما مقابلة وهي من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ﴾ تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر .

٣ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلَ﴾ أي ما صح ولا استقام والنفي هنا للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل .

٤ - ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال أبو حيان : «هذا من الاستعارة البديعية جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به ، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً فنكص عن اتباعه ورجع بدونه» (١) .

٥ - ﴿بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ التنكير للتهويل أي بسخط عظيم لا يكاد يوصف .

٦ - ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة ، فالؤمن من درجته مرتفعة والكافر درجته متضعة (٢) .

٧ - ﴿لِلْكَفَرِ . . وَلِلْإِيمَانِ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يَبْدُونَ . . وَيَخْفُونَ﴾ .

٨ - ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق ، وهو من المحسنات البديعية .

تنبية : في هذه الآية ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ دلالة على اختصاص نبيينا بكمال الأخلاق ، ومن عجيب أمره ﷺ أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة ثم كان أدناهم إلى التواضع ، فكان أشرف الناس نسباً وأوفرهم حسباً وأزكاهم عملاً وأسماهم كرمًا وأفصحهم بياناً وكلها من دواعي العظمة ، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب ويخصف النعل ويركب الحمار ويجلس على الأرض ويحيب دعوة العبد المملوك فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل .

فائدة : التوكل على الله من أعلى المقامات لوجهين : أحدهما محبة الله للعبد ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ والثاني الضمان في كنف الرحمن ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً . . إلى . . والله بما تعملون خبير﴾

من آية (١٦٩) إلى نهاية آية (١٨٠)

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتابع أحداث أحد ، وتكشف عن أسرار المنافقين ومواقفهم المخزية ، وتوضح الدروس والعبر من تلك الغزوة المجيدة .

اللفت : ﴿يستبشرون﴾ يفرحون وأصله من البشارة لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه قال ابن عطية : وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة وإنما هي بمعنى الفعل المجرد كقوله تعالى ﴿واستغنى الله﴾ ﴿الفرح﴾ بالفتح الجرح وبالضم ألم الجرح وقد تقدم ﴿حسبنا﴾ كافينا مأخوذ من الإحساب بمعنى الكفاية قال الشاعر :

فتملاً بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شيع وري

﴿حظاً﴾ الحظ : النصيب ويستعمل في الخير والشر وإذا لم يقيّد يكون للخير ﴿غلي﴾ الإملاء : التأخير والإمهال قال القرطبي : والمراد بالإملاء هنا طول العمر ورغد العيش^(٢) ﴿يميز﴾ يميز يقال : ماز وميز أي فصل الشيء من الشيء ومنه ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ﴿يجتبي﴾ يختار ﴿سيطوقون﴾ من الطوق وهو القلادة أي يلزمون به لزوم الطوق في العنق .

سبب النزول : أ - عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لثلاً يزهّدوا في الجهاد ولا ينكّلوا عند الحرب فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾^(٣) الآية .

ب - عن جابر بن عبد الله قال : لقيني رسول الله ﷺ فقال يا جابر : ما لي أراك منكساً مهتماً ؟

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٢٢ . (٢) القرطبي ٤/٢٨٦ . (٣) أسباب النزول ص ٧٣ والقرطبي ٤/٢٦٨ .

قلت يا رسول الله : استشهد أبي وترك عيالا وعليه دين فقال : ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً^(١) - وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب - فقال له : يا عبد الله تمن أعطك قال يا رب : أسألك أن تردني الى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون ، قال يا رب : فأبلغ من ورائي فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾^(٢).

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

التفسير : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ أي لا تظنن الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أمواتاً لا يحسون ولا يتنعمون ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ أي بل هم أحياء متنعمون في جنات الخلد يرزقون من نعيمها غدواً وعشياً قال الواحدي : الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي هم منعمون في الجنة فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي بأن لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم في جنات النعيم ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ أكد استبشارهم ليذكر ما تعلق به من النعمة والفضل والمعنى : يفرحون بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب ، فالنعمة ما استحقوه بطاعتهم ، والفضل ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ أي الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أحد قال ابن كثير : وهذا كان يوم «حمراء الأسد»^(٣) وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ثم ندموا لم لا تتموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريبهم أن بهم قوة وجلداً ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر أحداً فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ^(٤) . ﴿للذين أحسنوا

(١) كفاحاً : أي مواجهة بدون حجاب ولا رسول . (٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي كذا في القرطبي ٢٦٨ / ٤ .

(٣) حمراء الأسد مكاناً على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة . (٤) مختصر ابن كثير ٣٣٨ / ١ .

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيََاءَهُ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْلِيَ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْلِيَ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

منهم واتقوا أجر عظيم ﴿١٧٣﴾ أي لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو - على ما به من جراح وشدائد - الأجر العظيم والثواب الجزيل ﴿١٧٤﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ﴿١٧٥﴾ أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم : إن قريشاً قد جمعت لكم جمعاً لا تحصى فخافوا على أنفسهم فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً ﴿١٧٦﴾ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿١٧٧﴾ أي قال المؤمنون الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جل وعلا ﴿١٧٨﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ﴿١٧٩﴾ أي فرجعوا بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب ﴿١٨٠﴾ لم يمسهم سوء ﴿١٨١﴾ أي لم ينلهم مكروه أو أذى ﴿١٨٢﴾ واتبعوا رضوان الله ﴿١٨٣﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿١٨٤﴾ والله ذو فضل عظيم ﴿١٨٥﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد ﴿١٨٦﴾ إنما ذلکم الشیطان یخوف أولیاءه ﴿١٨٧﴾ أي إنما ذلکم القائل ﴿١٨٨﴾ إن الناس قد جمعوا لكم ﴿١٨٩﴾ بقصد تشييط العزائم هو الشیطان یخوفکم أولیاءه وهم الکفار لترهبوهم ﴿١٩٠﴾ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿١٩١﴾ أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم ، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقاً أن تعصوا أمري فتهلكوا ، والمراد بالشیطان « نعيم ابن مسعود الأشجعي » الذي أرسله أبوسفيان ليثبت المسلمين ، قال أبو حيان : وإنما نسب إلى الشیطان لأنه ناشيء عن وسوسته وإغوائه وإلقائه ^(١) ﴿١٩٢﴾ ولا یحزنک الذین یسارعون فی الکفر ﴿١٩٣﴾ تسلیة للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذین یبادرون نحو الکفر بأقوالهم وأفعالهم ، ولا تبال بما یظهر منهم من آثار الکید للإسلام وأهله ﴿١٩٤﴾ إنهم لن یضرؤا الله شیئاً ﴿١٩٥﴾ أي إنهم بکفرهم لن یضرؤا الله شیئاً وإنما یضرؤون أنفسهم ﴿١٩٦﴾ یرید الله ألا یجعل لهم حظاً فی الآخرة ﴿١٩٧﴾ أي یرید تعالی بحکمته ومشیتته ألا یجعل لهم نصیباً من الثواب فی الآخرة ﴿١٩٨﴾ ولهم عذاب عظیم ﴿١٩٩﴾ أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظیم فی نار جهنم ﴿٢٠٠﴾ إن الذین اشتروا الکفر بالإیمان لن یضرؤا الله شیئاً ولهم عذاب أليم ﴿٢٠١﴾ أي الذین استبدلوا الکفر بالإیمان وهم المنافقون المذكورون قبل ، لن یضرؤا الله بکفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم ﴿٢٠٢﴾ ولا یحسبن الذین کفروا أنما نطلي لهم خیر لأنفسهم ﴿٢٠٣﴾ أي لا یظنن الکافرون أن إمهالنا لهم بدون جزاء وعذاب ، وإطالنا لأعمارهم خیر لهم ﴿٢٠٤﴾ إنما نطلي لهم لیزدادوا إثماً ﴿٢٠٥﴾ أي إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تَوَمَّنُوا ۖ وَتَتَّقُوا ۖ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَاللَّهُ مِيرَتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿١٧٩﴾ ولهم عذاب مهين ﴿١٨٠﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ﴿١٧٩﴾ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴿١٧٩﴾ هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيميز له المؤمن من المنافق والمعنى لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يتتبعهم ويفصل بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل في غزوة أحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق قال ابن كثير « أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيها وليه ويفضح بها عدوه ، يُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر ، كما ميز بينهم يوم أحد » (١) . ﴿١٨٠﴾ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴿١٨٠﴾ قال الطبري : وأولى الأقوال بتأويله : أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء كما ميز بينهم يوم أحد بالبأساء وجهاد عدوه (٢) ﴿١٧٩﴾ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴿١٧٩﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على حال المنافقين ﴿١٧٩﴾ فآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿١٧٩﴾ أي آمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحى من الله ﴿١٧٩﴾ وَإِنْ تَوَمَّنُوا ۖ وَتَتَّقُوا ۖ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ أي وَإِنْ تَصَدَّقُوا رُسُلِي وَتَتَّقُوا رَبَّكُمْ بِطَاعَتِهِ فَلَكُمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ ﴿١٧٩﴾ لما بلغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله ، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله والمعنى لا يحسبن البخل أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه ، بل هو مضرّة عليه في دينه ودنياه ﴿١٧٩﴾ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴿١٧٩﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخل شرٌّ لهم ﴿١٧٩﴾ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١٧٩﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في صحيح البخاري (من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثعباناً عظيماً - له زبيبتان فيأخذن بلهزمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﷻ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ۖ الْآيَةُ ۖ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ) أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿١٧٩﴾ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ أي مطلع على أعمالكم .

الْبَلَاغَةُ : قال في البحر : تضمنت هذه الآيات فناً من البلاغة والبدیع : الإطناب في ﴿يستبشرون﴾ وفي ﴿لن يضروا﴾ وفي آسم الجلالة في مواضع ، والطباق في ﴿أمواتاً بل أحياء﴾ وفي

﴿الكفر بالإيمان﴾ والاستعارة في ﴿اشتروا الكفر﴾ وفي ﴿يسارعون في الكفر﴾ وفي ﴿الخبث والطيب﴾ إذ يراد به المؤمن والمنافق والحذف في مواضع^(١).

فَكَايْدَة : قوله تعالى ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار قال السيوطي في الإكليل : يستحب قول هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة .

قال الله تعالى : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير . . إلى . . والله على كل شيء قدير﴾ من آية (١٨١) إلى نهاية آية (١٨٩)

المناسكة : بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أحد وما فيها من أحداث جسيمة ، وتناولت الآيات ضمن ما تناولت مكائد المنافقين ودسائسهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإسلام والغدر بالمسلمين وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله ، أعقبه تعالى بذكر دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق التشكيك والبلبله ، والكيد والدس ، ليحذر المؤمن من خطرهم كما حذرهم من المنافقين ، والآيات الكريمة تتحدث عن اليهود وموقفهم المخزي من الذات الإلهية ، واتهامهم لله عز وجل بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر ، ثم نقضهم للعهود ، وقتلهم للأنبياء ، وخيانتهم للأمانة التي حملهم الله إياها ، إلى آخر ما هنالك من جرائم وشنائع اتصف بها هذا الجنس الملعون .

اللفظة : ﴿عهد إلينا﴾ أوصانا ﴿بقربان﴾ القربان : ما يذبح من الأنعام تقرباً إلى الله تعالى ﴿البيئات﴾ الآيات الواضحات والمراد به هنا المعجزات ﴿الزُّبُر﴾ جمع زبور وهو الكتاب من الزُّبر وهو الكتابة ، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالرُّكوب بمعنى المركوب قال الزجاج : الزبور كل كتاب ذي حكمة ﴿زحزح﴾ الزحزحة : التنحية والإبعاد تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فاز﴾ ظفر بما يؤمل ونجا مما يخاف ﴿الغرور﴾ مصدر غره يغره غروراً أي خدعه ﴿متاع﴾ المتاع : ما يُتمتع به ويُنتفع ثم يزول ﴿تلبلون﴾ لتمتحن من بلاء أي امتحنه ﴿عزم الأمور﴾ أصل العزم ثبات الرأي على الشيء والمراد هنا صواب التدبير والرأي وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه ﴿بمفازة﴾ بمنجاة من قولهم فاز فلان إذا نجا .

سَبَبُ النُّزُول : أ - عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق ذات يوم بيت مدراس اليهود ، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فنحاص بن عازوراء» وكان من علمائهم وأخبارهم فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر وضرب وجهه «فنحاص» ضربة شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو

الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : انظر إلى ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال يا رسول الله : إنَّ عدو الله قال قولاً عظيماً ، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فغضبتُ لله وضربتُ وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله ردّاً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾^(١) الآية .

ب - عن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ - منهم كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وفنحاص بن عازوراء - وغيرهم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً ، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا بهذا صدقناك فنزلت هذه الآية ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾^(٢) الآية .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٨﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٩﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلا نؤمنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ **النَّفْسِيرُ** : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ هذه المقالة الشنيعة مقالة أعداء الله اليهود عليهم لعنة الله زعموا أن الله فقير ، وذلك حين نزل قوله تعالى ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قالوا : إن الله فقير يقترض منا كما قالوا ﴿يد الله مغلولة﴾ قال القرطبي : وإنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا ، وغرضهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ أي إنه فقير على قول محمد لأنه اقترض منا^(٣) ﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم ونكتب جريمتهم الشنيعة بقتل الأنبياء بغير حق ، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة : ذوقوا عذاب النار المحرقة الملهبة ﴿ذلك بما قدمتم أيديكم﴾ أي ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق ، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم ، وعدل الله تعالى فيكم ، قال الزمخشري : ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن^(٤) ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا﴾ أي هم الذين قالوا إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ أي أمرنا بأن لا نصدق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدم قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله ، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وإظهاراً لكذبهم : قد

(١) أسباب النزول للواحي ص ٧٦ ومختصر ابن كثير ١/ ٣٤٢ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/ ١٢١ .

(٣) القرطبي ٤/ ٢٩٤ (٤) الكشف ١/ ٣٤٤ .

وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾
* لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

جاءتكم رسل قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتهم
﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ أي فلم كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان
بالله والتصديق برسله ؟ ثم قال تعالى مسلياً لرسوله ﷺ ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسول من قبلك﴾ أي لا
يجزئك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذبت أسلافهم من قبل رسول الله فلا تحزن
فلك بهم أسوة حسنة ﴿جاءوا بالبينات﴾ أي كذبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات
الواضحة ﴿والزُّبُرِ والكتاب المنير﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بالحكم والمواعظ ، والكتاب الواضح
الجلي كالطورا والإنجيل ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفس مية لا محالة
كقوله ﴿كل من عليها فان﴾ ﴿وإنما تُوفَّقون أجوركم يوم القيامة﴾ أي تُعطون جزاء أعمالكم وأفعالكم يوم
القيامة ﴿فمن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي فمن نُحِيَ عَنِ النَّارِ وَأُبْعِدَ عَنْهَا ، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ
فَقَدْ فَازَ بِالسَّعَادَةِ السَّامِيَةِ وَالنَّعِيمِ الْمَخْلَدِ ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي ليست الدنيا إلا دار
الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور قال ابن كثير : الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية
زائلة ^(١) ﴿لتبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي والله لتمتحنن وتختبرن في أموالكم بالفقر والمصائب ، وفي
أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿ولتسمعنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيرًا﴾ أي ولينالكن من اليهود والنصارى والمشركين - الأذى الكثير ، وهذا إخبار منه جل
وعلا للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجَّار ، وأمرهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن
الجنة حَقَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَلِهَذَا قَالَ ﴿وإن تصبروا وتتقوا﴾ أي وإن تصبروا على المكاره وتتقوا الله في الأقوال
والأعمال ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها
لأنها مما أمر الله بها ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد
المؤكد على اليهود في التوراة ﴿لتبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ أي لتظهرن ما في الكتاب من أحكام الله ولا

يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحَمَّدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

تحفونها ، قال ابن عباس : هي لليهود أخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه^(١) ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿فبئس ما يشترون﴾ أي بش هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ أي لا تظنن يا محمد الذين يفرحون بما أتوا من إخفاء أمرك عن الناس ﴿ويجبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ أي ويجبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب مؤلم قال ابن عباس : نزلت في أهل الكتاب سألمهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أتوا من كتابهم إياه ما سألمهم عنه^(٢) ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي له سبحانه جميع ما في السموات والأرض فكيف يكون من له ما في السموات والأرض فقيراً ؟ والآية رد على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم .

البالغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي :

- ١ - ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ أكد اليهود الجملة بـ ﴿إن الله فقير﴾ على سبيل المبالغة ، فحيث نسبوا إلى أنفسهم الغنى لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد كأن الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد وهذا دليل على تمردهم في الكفر والطغيان .
- ٢ - ﴿سنكتب ما قالوا﴾ فيه مجاز يسمى المجاز العقلي أي ستكتب ملائكتنا ولما كان الله لا يكتب وإنما يأمر بالكتابة أسند الفعل إليه مجازاً .
- ٣ - ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تزوال بهن .
- ٤ - ﴿تأكله النار﴾ إسناد الأكل إلى النار بطريق الاستعارة إذ حقيقة الأكل إنما تكون في الإنسان والحيوان وكذلك توجد استعارة في قوله ﴿ذائقة الموت﴾ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسة اللسان .
- ٥ - ﴿متاع الغرور﴾ قال الزمخشري : « شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه والشيطان هو المدلس الغرور »^(٣) فهو من باب الاستعارة .

٦ - ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ كذلك توجد استعارة في النبذ والاشتراء شبه عدم التمسك والعمل به بالشئ الملحق خلف ظهر الإنسان وباشتراء ثمن قليل ما تعوضوه من الحطام على كتم آيات الله .

٧ - وفي الآيات الكريمة من المحسنات البديعية الطباق في ﴿فقير وأغنياء﴾ والمقابلة ﴿زحزح عن النار وأدخل الجنة﴾ وفي ﴿لتبينته . . ولا تكتمونه﴾ والجناس المغاير في ﴿قول الذين قالوا﴾ وفي ﴿كذبوك فقد كذب﴾ .

فَكَايْدَة : صيغة فعّال في الآية ﴿وما ربك بظلام﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب مثل عطار ونجار وتماز كلها ليست للمبالغة وإنما هي للنسب قال ابن مالك .

ومع فاعل وفعّال فُعل في نسب أغنى من الياء قبل

تنبيه : إنما وصف تعالى عيش الدنيا ونعيمها بأنه متاع الغرور ، لما تمنّيه لذاتها وشهواتها من طول البقاء وأمل الدوام فتخدعه ثم تصرعه ، ولهذا قال بعض السلف : الدنيا متاعٌ متروك يوشك أن يضمحلّ ويزول ، فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم والله المستعان .

قال الله تعالى : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات . . إلى آخر السورة﴾ من آية (١٩٠) إلى نهاية آية (٢٠٠)

المناسكة : بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة ، وختمها بذكر دلائل الوحدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد ، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك ، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق ، جاءت الآيات الكريمة تنير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال ، فلفتت الأنظار إلى التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور « الكون الفسيح » بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور « القرآن العظيم » وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ .

اللفظة : ﴿الألباب﴾ العقول ﴿باطلاً﴾ عبثاً بدون حكمة ﴿سبحانك﴾ تنزيه لله عن السوء ﴿أخزيته﴾ أذلّته وأهنته ﴿كفرّ عنا﴾ استر وامح ﴿الأبرار﴾ جمع بر أو بارّ وهم المستمسكون بالشرعية ﴿فاستجاب﴾ بمعنى أجاب ﴿نُزْلاً﴾ النُّزُل : ما يهبط للنزول وهو الضيف من أنواع الإكرام ﴿رابطوا﴾ المراقبة : ترصد العدو في الثغور .

سَبَبُ النُّزُولِ : عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ (١) الآية .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبِرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي

التفسير : ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي إن في خلق السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿لآياتٍ لأولي الألباب﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته ، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكير والاستدلال لا كما تنظر البهائم ، ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ أي يذكرون الله بالستهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم ، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ أي يتدبرون في ملكوت السموات والأرض ، في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿ربنا ما خلقت هذا بطلا﴾ أي ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثاً من غير حكمة ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ أي ننزهك يا الله عن العبث فأجرنا واحمنا من عذاب جهنم ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتاه﴾ أي من أدخلته النار فقد أذللته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رءوس الأشهاد ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله ، والمراد بالظالمين الكفار كما قال ابن عباس وجمهور المفسرين وقد صرح به في البقرة ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿أن آمنوا بربكم فآمنوا﴾ أي يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدقنا بذلك واتبعناه ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي ألحقنا بالصالحين قال ابن عباس : الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر ويؤيده ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ فلا تكرر إذا ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي أعطنا ما وعدتنا على السنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع قاله ابن

لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَأَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا الْأَكْفَرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغْرُنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزْلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا

عباس ﴿ولا تخزننا يوم القيامة﴾ أي لا تفضحننا كما فضحت الكفار ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنشى﴾ أي أجاب الله دعاءهم بقوله إني لا أبطل عمل من عمل خيراً ذكراً كان العامل أو أنشى قال الحسن : ما زالوا يقولون ربنا ، ربنا ، حتى استجاب لهم ^(١) ﴿بعضكم من بعض﴾ أي الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، فإذا كنتم مشتركين في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الأجر ^(٢) ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم﴾ أي هجروا أوطانهم فارين بدينهم ، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار ﴿وأودوا في سبيلي﴾ أي تحملوا الأذى من أجل دين الله ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ أي وقاتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي ﴿لا كفرن عنهم سيئاتهم﴾ أي الموصوفون بما تقدم لأحون ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي ﴿ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ أي ولادخلنهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء وهي الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم نبه تعالى إلى ما عليه الكفار في هذه الدار من النعمة والغبطة والسرور ، ويبين أنه نعيم زائل فقال ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ أي لا يخدعنك أيها السامع تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ أي إنما يتنعمون بذلك قليلاً ثم يزول هذا النعيم ، ومصيرهم في الآخرة إلى النار ، وبئس الفراش والقرار نار جهنم . ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي لكن المتقون لله لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلدين فيها أبداً ﴿نزلاً من عند الله﴾ أي ضيافة وكرامة من عند الله ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ أي وما عند الله من الثواب والكرامة للأخيار الأبرار ، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل ، ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب فقال ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾ أي ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن

(١) القرطبي ٣١٨/٤ . (٢) قال الطبري : بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين ، وما ذكرناه رأي الجلالين وهو أظهر .

أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَسْتَرْوْنَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا^٤ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سلام وأصحابه ، والنجاشي وأتباعه ﴿خاشعين لله﴾ أي خاضعين متذللين لله ﴿لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا﴾ أي لا يحرقون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرض من الدنيا خسيس كما فعل الأحرار والرهبان ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي ثواب إيمانهم يعطونه مضاعفًا كما قال ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي سريع حسابه لنفوذ علمه بجميع المعلومات ، يعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب ، قال ابن عباس والحسن : نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاة جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه : قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي ، فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نصلي على عالج من علوج الحبشة فأنزل الله ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾^(١) الآية . ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ أي اصبروا على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿وصابروا﴾ أي غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب ﴿ورابطوا﴾ أي لازموا ثغوركم مستعدين للكفاح والغزو ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الإطناب في قوله ﴿ربنا﴾ حيث كرر خمس مرات والغرض منه المبالغة في التضرع .
- ٢ - الطباق في قوله ﴿السموات والأرض﴾ و﴿الليل والنهار﴾ و﴿قياماً وقعوداً﴾ و﴿ذكر أو أنسى﴾ .
- ٣ - الإيجاز بالحذف ﴿ما وعدتنا على رسلك﴾ أي على السنة رسلك وكذلك في قوله ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا﴾ أي قائلين ربنا .
- ٤ - الجناس المغاير في قوله ﴿آمنوا . . فآمننا﴾ وفي ﴿عمل عامل﴾ وفي ﴿منادٍ يُنادي﴾ .
- ٥ - ﴿آيات لأولي الألباب﴾ التنكير للتفخيم ودخلت اللام في خبر إنَّ لزيادة التأكيد .
- ٦ - الاستعارة في قوله ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا﴾ استعير التقلب للضرب في الأرض لطلب المكاسب والله أعلم .

الفوائد : الأولى : إنما خصص التفكير بالخلق للنهي عن التفكير في الخالق ففي الحديث الشريف (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله قدره) وذلك لعدم الوصول إلى

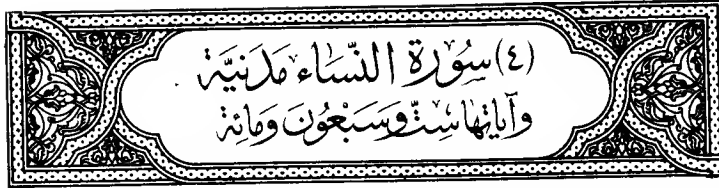
كنه ذاته وصفاته قال بعض العلماء : المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس لأنه تعالى ليس كمثله شيء .

الثانية : تكرر النداء بهذا الاسم الجليل ﴿ربنا﴾ خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلب رحمة الله بندائه بهذا الاسم الشريف الدال على التربية والملك والإصلاح .

الثالثة : سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أعجب ما رآته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مسّ جلده جلدي ثم قال (ذريني أتعبد لربي عز وجل) فقلت : والله إني لأحب قربك وأحب هواك ، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر صبّ الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله : ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال (ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿إن في خلق السموات والأرض . . .﴾ الآيات ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)^(١) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران »

(١) أخرجه ابن مردويه وانظر ابن كثير ٣٤٨ / ١ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة ، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية ، التي تنظم الشئون الداخلية والخارجية للمسلمين ، وهي تُعنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة ، والبيت ، والأسرة ، والدولة ، والمجتمع ، ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت « سورة النساء » !!

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجب الأولياء والأوصياء ، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج ، واستنقذتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة .

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها ، وحفظت كيانها ، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر ، والميراث ، وإحسان العشرة .

* كما تعرضت بالتفصيل إلى « أحكام الموارث » على الوجه الدقيق العادل ، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة ، وتحدثت عن المحرمات من النساء « بالنسب ، والرضاع ، والمصاهرة » .

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبينت أنها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية ، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً ، وإنما هو عطاء يوثق المحبة ، ويديم العشرة ، ويربط القلوب .

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته ، وحق الزوجة على زوجها ، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية ، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين ، وبينت معنى « قوامة الرجل » وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير ، وإنما هي قوامة نصيح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته .

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى « دائرة المجتمع » فأمرت بالإحسان في كل شيء ، وبينت أن

أساس الإحسان التكافل والتراحم ، والتناصح والتسامح ، والأمانة والعدل ، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان .

* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها ، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء .

* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية .

* واستتبع الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين ، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكائدهم وخطرهم .

* كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام .

* ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصارى في أمر المسيح عيسى بن مريم حيث غالوا فيه حتى عبدوه ثم صلبوه^(١) مع اعتقادهم بألوهيته ، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين ، وقد دعتهم الآيات الى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السمحة الصافية « عقيدة التوحيد » وصدق الله حيث يقول : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

التَّيْمِيَّةُ : سميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » في مقابلة « سورة النساء الصغرى » التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . إِلَى . . . إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلُونَ سَعيراً ﴾

من آية (١) الى نهاية آية (١٠) .

اللَّفْكَر : ﴿ بَثٌّ ﴾ نشر وفرق ومنه ﴿ وزرابي مبنوثة ﴾ ﴿ الأرحام ﴾ جمع رحم وهو في الأصل مكان تكون الجنين في بطن أمه ثم أطلق على القرابة ﴿ رقيقاً ﴾ الرقيق : الحفيظ المطلع على الأعمال ﴿ حُوباً ﴾ الحُوب : الذنب والاثم ﴿ تعولوا ﴾ قملوا وتجوروا يقال : عال الميزان إذا مال ، وعال الحاكم إذا جار ﴿ صدقاتهن ﴾ جمع صدقة وهو المهر ﴿ نَحْلَةً ﴾ هبة وعطية ﴿ السفهاء ﴾ ضعفاء العقول والمراد به هنا المبدرون للأموال ﴿ أنستم ﴾ أبصرتم من أنس الشيء أبصره ﴿ بداراً ﴾ أي مبادرة بمعنى مسارعة أي يسارع في تبذيرها قبل أن يكبر اليتيم فيتسلمها منه ﴿ سديداً ﴾ من السداد بمعنى الاستقامة .

يهودي فما هذا الإله ؟

(١) أي زعموا أنه صلب وقد أحسن من قال : إذا صلب الإله بفعل عبدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا
أَلْحَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

سَبَبُ النُّزُولِ : أ - عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في
اليتامى﴾ فقالت : يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجهها ،
فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها فيعطيهما مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن ذلك إلا أن
يُقسطوا لهنَّ ويبلغوا لهنَّ أعلى سنتهن في الصَّدَاق ، فأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنَّ ، وإن
الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ويستفتونك في النساء﴾ (١) الآية

ب - عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من غطفان يقال له « مرثد بن زيد » ولي مال ابن أخيه وهو يتيم
صغير فأكله فأنزل الله ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ (٢) الآية .

النَّفْسِيرُ : افتتح الله جل ثناؤه سورة النساء بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده
لا شريك له ، منبهاً لهم على قدرته ووحدانته فقال ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ
واحدة﴾ أي خافوا الله الذي أنشأكم من أصلٍ واحد وهو نفس أبيكم آدم ﴿وخلق منها زوجها﴾ أي أوجد
من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ﴿وبثَّ منها رجالاً كثيراً ونساءً﴾ أي نشر وفرَّق من آدم وحواء
خلائق كثيرين ذكوراً وإناثاً ﴿واتقوا الله الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي خافوا الله الذي يناشد بعضكم
بعضاً به حيث يقول : أسألك بالله ، وأنشدك بالله ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿إن الله كان عليكم
رقيباً﴾ أي حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم ، وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين : في
أول الآية ، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده ، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل
على أهمية هذه الرابطة الإنسانية ، فالناس جميعاً من أصل واحد ، وهم إخوة في الإنسانية والنسب ، ولو
أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان ، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر
واليابس ، وتقضي على الكهل والوليد ، ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيراً وأمر بالمحافظة على أموالهم
فقال ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ أي أعطوا اليتامى الذين مات آبائهم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا ﴿ولا
تبدلوا الخبيث بالطيب﴾ أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلal وهو مالكم ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى

وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَدْنَىٰ ۖ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٢٦﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٢٧﴾ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٢٨﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ

أموالكم ﴿٢٦﴾ أي لا تخطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعاً ﴿٢٧﴾ إنه كان حوباً كبيراً ﴿٢٨﴾ أي ذنباً عظيماً ، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف ، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله ، ثم أرشد تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال ﴿٢٩﴾ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴿٣٠﴾ أي إذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيّق الله عليه ﴿٣١﴾ ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً ﴿٣٢﴾ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴿٣٣﴾ أي إن خفتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة ﴿٣٤﴾ أو ما ملكت أيما نكحكم ﴿٣٥﴾ أي اقتصروا على نكاح الإماء للملك اليمين إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات ﴿٣٦﴾ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴿٣٧﴾ أي ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا وتحجروا ﴿٣٨﴾ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴿٣٩﴾ أي أعطوا النساء مهورهن عطية عن طيب نفس ﴿٤٠﴾ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ﴿٤١﴾ أي فإن طابت نفوسهن بهبة شيء من الصداق ﴿٤٢﴾ فكلوه هنيئاً مريئاً ﴿٤٣﴾ أي فخذوا ذلك الشيء الموهوب حلالاً طيباً ﴿٤٤﴾ ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ﴿٤٥﴾ أي لا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قياماً للأبدان ولمعاشكم فيضيعوها قال ابن عباس : السفهاء هم الصبيان والنساء وقال الطبري : لا تؤت سفهاء ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره ، صبيّاً كان أو رجلاً ، ذكراً كان أو أنثى ﴿٤٦﴾ وارضوهم فيها واكسوهم ﴿٤٧﴾ أي أطعموهم منها واكسوهم ﴿٤٨﴾ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴿٤٩﴾ أي قولاً ليناً كقولكم إذا رشتهم سلمنا إليكم أموالكم ﴿٥٠﴾ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ﴿٥١﴾ أي اختبروا اليتامى حتى إذا بلغوا سن النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح ﴿٥٢﴾ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴿٥٣﴾ أي إن أبصرتم منهم صلاحاً في دينهم ومالهم فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير ﴿٥٤﴾ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴿٥٥﴾ أي لا تسرعوا في إنفاقها وتبذروها قائلين نفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ﴿٥٦﴾ ومن كان غنياً فليستعفف ﴿٥٧﴾ أي من كان منكم غنياً أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجراً على وصايته ﴿٥٨﴾ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴿٥٩﴾ أي

(١) اختار الطبري أن المعنى إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء إذ انكحتموهن ، وما أثبتناه هو الموافق لسبب النزول وهو اختيار ابن كثير . (٢) الطبري ٥٦٥ / ٧ .

بِالْمَعْرُوفِ فَلِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٧﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرٌ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٨﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٩﴾ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١١﴾

ومن كان فقيراً فليأخذ بقدر حاجته الضرورية وبقدر أجرة عمله ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ أي فإذا سلمتم إلى اليتامى أموالهم بعد بلوغهم الرشد فأشهدوا على ذلك لئلا يجحدوا تسلمها ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي كفى بالله محاسباً ورقيباً، ثم بيّن تعالى أن للرجال والنساء نصيباً من تركة الأقرباء فقال ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت كما للبنات والنساء حظ أيضاً الجميع فيه سواء يستوون في أصل الورثة وإن تفاوتوا في قدرها، وسببها أن بعض العرب كانوا لا يورثون النساء والأطفال وكانوا يقولون: إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة فأبطل الله حكم الجاهلية ﴿مما قلَّ منه أو كثر﴾ أي سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي نصيباً مقطوعاً فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فأرزقوهم منه﴾ أي إذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت واليتامى والمساكين من غير الوارثين فأعطوهم شيئاً من هذه التركة تطبيقاً لحاظرهم ﴿وقولوا لهم قولا معروفاً﴾ أي قولا جميلاً بأن تعتذروا إليهم أنه للصغار وأنكم لا تملكونه ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعفاً خافوا عليهم﴾ نزلت في الأوصياء أي تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم وعامل اليتامى الذين في حَجْرِكَ بمثل ما تريد أن يُعامل به أبنائك بعد فقْدِكَ ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً﴾ أي فليتقوا الله في أمر اليتامى وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ أي يأكلونها بدون حق ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾ أي ما يأكلون في الحقيقة إلا نارا تتأجج في بطونهم يوم القيامة ﴿وسيصلون سعيراً﴾ أي سيدخلون نارا هائلة مستعرة وهي نار السعير .

البَلاغَةُ : تضمنت الآيات من ضروب الفصاحة والبيان ما يلي :

١ - الطباق في ﴿غنياً وفقيراً﴾ وفي ﴿قلَّ أو كثر﴾ وفي ﴿رجالاً ونساء﴾ وفي ﴿الخبث بالطيب﴾ .

٢ - والجناس المغاير في ﴿دفعتم فادفعوا﴾ وفي ﴿قولوا قولاً﴾ .

٣ - والإطْئاب في ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ . . فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿وفي﴾ للرجال نصيب مما ترك الولدان . . وللنساء نصيب مما ترك الولدان والأقربون .

٤ - والمجاز المرسل في ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ أي الذين كانوا يتامى فهو باعتبار ما كان وكذلك ﴿يأكلون في بطونهم ناراً﴾ مجاز مرسل وهو باعتبار ما يثول إليه كقوله ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ أي عنياً يثول إلى الخمر .

٥ - المقابلة اللطيفة بين ﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾ . . ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

٦ - والإيجاز في مواضع مثل ﴿رجالاً كثيراً ونساءً﴾ أي ونساء كثيرات . . الخ .

الفوائد : الأولى : في الافتتاح بتذكير الناس أنهم خلقوا من نفسٍ واحدة تمهيد جميل وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام الأنكحة والموارث والحقوق الزوجية وأحكام المصاهرة والرضاع وغيرها من الأحكام الشرعية .

الثانية : الأغلب أنه إذا كان الخطاب بـ ﴿يا أيها الناس﴾ وكان للكافرين فقط أو للكافرين وغيرهم أعقب بدلائل الوجدانية والربوبية مثل ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ و﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ وإذا كان الخطاب للمؤمنين أعقب بذكر النعم كما هنا أفاده صاحب البحر^(١) .

الثالثة : ذكرُ البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد والمبالغة فهو كقولك : أبصرتُ بعيني وسمعتُ بأذني ومثله قوله تعالى ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ .

الرابعة : أضاف تعالى أموال اليتامى إلى الأوصياء مع أنها أموال اليتامى للتنبيه إلى « التكافل بين الأمة » والحث على حفظ الأموال وعدم تضييعها فإن تبذير السفية للمال فيه مضرّة للمجتمع كله .

« كلمة حول تعدد الزوجات »

مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة وهي ليست تشريعاً جديداً انفرد به الإسلام ، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود وبصورة غير إنسانية فنظّمه وشدّبه وجعله علاجاً ودواءً لبعض الحالات الاضطرابية التي يعاني منها المجتمع وفي الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع أن يحل « مشكلة إجتماعية » هي من أعقد المشاكل التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلاً . . إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كفتاه فماذا نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال ؟ أنحرم المرأة من نعمة الزوجية و« نعمة الأمومة » ونتركها تسلك طريق الفاحشة

والرذيلة ، أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الاسرة وسلامة المجتمع ؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في المانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات وهي حالة اختلال اجتماعي فكيف يواجهها المشرع ؟ لقد حلّ الإسلام المشكلة بتشريعه الإسلامي الرائع ، بينما وقفت المسيحية حائرة مكتوفة الأيدي لا تُبدي ولا تُعيد . . إن الرجل الأوروبي لا يبيع له دينه التعدد ، لكنه يبيع لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة ، يرى الوالد منهم فتاته مع عشيقها فيُسّر ويغتبط بل ويمهد لها جميع السبل المؤدية لراحتهما حتى أصبح ذلك عرفاً سارياً اضطرت معه الدول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه ، ووافقت على قبول مبدأ « تعدد الزوجات » ولكن تحت ستار المخادنة وهو زواج حقيقي لكنه غير مسجل بعقد ، ويستطيع الرجل ان يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حق من الحقوق ، والعلاقة بينها جسد لا علاقة أسرة وزوجية ، فأعجب من منع « تعدد الزوجات » بالحلال وإباحته بالحرام حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية .

ربّ إن الهدى هُداك وآيا تك حق تهدي بها من تشاء .

قال الله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ . . . إِلَى . . . يَدْخُلُهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ من آية (١١) إلى نهاية آية (١٤) .

النَّاسِكَةُ : لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال ، أعقبه بذكر أحكام المواريث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحاً لما سبق من الإجمال فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات ، ثم ذكر نصيب الأبناء والأمهات ، ثم نصيب الأزواج والزوجات ، ثم نصيب الإخوة والأخوات .

الْفَكْرَةُ : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ الوصية : العهد بالشيء والأمر به ولفظ الإيصاء أبلغ وأدل على الاهتمام من لفظ الأمر لأنه طلب الحرص على الشيء والتمسك به ﴿فريضة﴾ أي حقاً فرضه الله وأوجبه ﴿كلالة﴾ أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد أي لا أصل له ولا فرع لأنها مشتقة من الكل بمعنى الضعف يقال : كل الرجل إذا ضعف وذهبت قوته ﴿حدود الله﴾ أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها .

سَبَبُ النِّزُول : روي أن امرأة « سعد بن الربيع » جاءت رسول الله ﷺ بإبنتها فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما سعد معك بأحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا تُنكحان إلا بمال فقال ﷺ : يقضي الله في ذلك فنزلت آية المواريث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك^(١) .

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَءِ آبَاءُؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ ۚ

النفسير : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي للذكر مثل حظ الأنثيين ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي إِنْ كَانَ الْوَارِثُ إِنَاثًا فَقَطْ اثْنَتَيْنِ فَأَكْثَرُ ﴿فَلَهُنَّ ثُلَاثَا مَا تَرَكَ﴾ أي فللبنتين فأكثر ثلثا التركة ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي وَإِنْ كَانَتْ الْوَارِثَةُ بِنْتًا وَاحِدَةً فَلَهَا نِصْفُ التَّرَكَةِ . . . بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد ثم ذكر ميراث الأبوين لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل فقال تعالى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي من تركة الميت ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي إِنْ وَجَدَ لِلْمَيْتِ ابْنًا أَوْ بِنْتَ لِأَنَّ الْوَلَدَ يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ﴾ أي فَإِنْ لَمْ يَوْجَدْ لِلْمَيْتِ أَوْلَادٌ وَكَانَ الْوَارِثُ أَبُوَاهُ فَقَطْ أَوْ مَعَهُمَا أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ ﴿فَلَأُمُّهُ الثُّلُثُ﴾ أي فللأم ثلث المال أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين والباقي للأب ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَأُمُّهُ السُّدُسُ﴾ أي فَإِنْ وَجَدَ مَعَ الْأَبَوَيْنِ إِخْوَةً لِلْمَيْتِ « اثْنَانِ فَأَكْثَرُ » فالأم ترث حينئذٍ السدس فقط والباقي للأب ، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ أي إِنْ حَقَّ الْوَرِثَةُ يَكُونُ بَعْدَ تَنْفِيْذِ وَصِيَّةِ الْمَيْتِ وَقَضَاءِ دِيُونِهِ فَلَا تَقْسَمُ التَّرَكَةُ إِلَّا بَعْدَ ذَلِكَ ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي إِنَّهُ تَعَالَى تَوَلَّى قِسْمَةَ الْمَوَارِثِ بِنَفْسِهِ وَفَرَضَ الْفَرَائِضَ عَلَى مَا عَلَّمَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ ، فَقَسَمَ حَيْثُ تَوَجَّدَ الْمَصْلَحَةُ وَتَوَفَّرَتِ الْمَنْفَعَةُ وَلَوْ تَرَكَ الْأَمْرَ إِلَى الْبَشَرِ لَمْ يَعْلَمُوا أَيُّهُمْ أَنْفَعُ لَهُمْ فَيَضَعُونَ الْأَمْوَالَ عَلَى غَيْرِ حِكْمَةٍ وَلِهَذَا أَتْبَعَهُ بِقَوْلِهِ ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إِنَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ بِمَا يَصْلَحُ لَخَلْقِهِ حَكِيمٌ فِيمَا شَرَعَ وَفَرَضَ . . . ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة فقال ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إِنْ لَمْ يَكُنْ لَزَوَّجَاتِكُمْ أَوْلَادٌ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي مِنْ مِّيرَاثِهِنَّ ، وَالْحَقُّ بِالْوَلَدِ فِي ذَلِكَ وَلَدُ الْإِنِّ بِالْإِجْمَاعِ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دِينَ﴾ أي مِنْ بَعْدِ الْوَصِيَّةِ وَقَضَاءِ الدِّينِ ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ أي وَلِزَوَّجَاتِكُمْ وَاحِدَةً فَأَكْثَرُ الرُّبْعِ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ إِنْ لَمْ يَكُنْ

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

لكم ولد منهم أو من غيرهن ﴿فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾ أي فإن كان لكم ولد منهم أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنهما ما لا يخفي . ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ أي وإن كان الميت يورث كلالة أي لا والد له ولا ولد وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿أو امرأة﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأة تورث كلالة ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي وللمورث أخ أو أخت من أم ﴿فلكل واحد منهما السدس﴾ أي فلأخ من الأم السدس وللأخت للأم السدس أيضاً ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ أي فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء ، قال في البحر : وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أي في حدود الوصية بالثلث لقوله عليه السلام (الثلث والثلث كثير) ﴿وصية من الله﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿والله عليم حليم﴾ أي عالم بما شرع حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره ﴿تلك حدود الله﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حدّها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بين ، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وذلك الفوز العظيم﴾ أي الفلاح العظيم ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول ويتجاوز ما حدّه تعالى له من الطاعات ﴿يدخله نارا خالداً فيها﴾ أي يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرج منها أبداً ﴿وله عذاب مهين﴾ أي وله عذاب شديد مع الإهانة والإذلال والعذاب والנקال .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات من أصناف البديع ما يلي :

١ - الطباق في لفظ ﴿الذكر والانثى﴾ وفي ﴿ومن يطع ومن يعص﴾ وفي ﴿آبائكم وأبنائكم﴾ .

٢ - الإطناب في ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ و﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ والفائدة التأكيد على تنفيذ ما ذكر .

٣ - جناس الاشتقاق في ﴿وصية يوصي﴾ . ٤ - المبالغة في ﴿عليم ، حليم﴾ .

فكائدة : استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ أنه تعالى أرحم من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم ويؤيده ما ورد « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » .
تبينه : وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤنة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، فنفقاته أكثر والتزاماته أضخم فهو إلى المال أحوج^(١) .

قال الله تعالى : ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم . . إلى قوله تعالى . . وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢١) .

المناسبة : لما بين سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث ، بين حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام ، ثم أعقبه بالتحذير عن عادات الجاهلية من ظلم النساء ، وأكل مهرهن ، وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الشريفة .

اللفظ : ﴿واللاتي﴾ جمع التي على غير قياس ﴿الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة والمراد بها هنا الزنا ﴿واللذان﴾ تشية الذي ﴿التوبة﴾ أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح ﴿كرها﴾ بفتح الكاف بمعنى الإكراه وبضمها بمعنى المشقة ﴿حملته أمه كرها﴾ ﴿تعضلوهن﴾ تمنعهن يقال عضل المرأة إذا منعها الزواج ﴿بهتانا﴾ ظلماً وأصله الكذب الذي يتحير منه صاحبه ﴿أفضى﴾ وصل إليها ، وأصله من الفضاء وهو السعة ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ عهداً شديداً مؤكداً وهو عقد النكاح .

وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ تَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

سبب النزول : روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الرجل جاء ابنه من غيرها أو وليه فورث امرأته كما يرث ماله وألقى عليها ثوباً ، فإن شاء تزوجها بالصدّاق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً . .﴾^(٢) .

التفسير : ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي اللواتي يزين من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت﴾ أي فإن ثبتت بالشهود جريمتهن فاحبسوهن في البيوت ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أي احبسوهن فيها إلى الموت ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ أي يجعل الله لهن مخلصاً بما يشرعه من الأحكام قال

(١) انظر الحكمة التشريعية في كتابنا المواريث في الشريعة الإسلامية ص ١٨ . (٢) زاد المسير ٣٩ / ٢ .

وَالَّذَانِ يَأْتِيَاهُمَا مِنْكَ فَقَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْعَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿١٨﴾ يَأْتِيَاهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَلْحَشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ

ابن كثير : كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكّن من الخروج منه إلى أن تموت ، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم ^(١) «واللذان يأتياها منكم» أي واللذان يفعلان الفاحشة والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب «فأذوهما» أي بالتوبيخ والتقريع والضرب بالنعال «فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما» أي فإن تابا عن الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفوا عن الإيذاء لهما «إن الله كان تواباً رحيماً» أي مبالغاً في قبول التوبة واسع الرحمة . قال الفخر الرازي : « خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية ، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة » ^(٢) «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة» أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالة مقدراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب «ثم يتوبون من قريب» أي يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت «فأولئك يتوب الله عليهم» أي يتقبل الله توبتهم «وكان الله عليماً حكيماً» أي عليماً بخلقته حكيماً في شرعه «وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن» أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة ^(٣) وفي الحديث (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغفر) «ولا الذين يموتون وهم كفار» أي يموتون على الكفر فلا يقبل إيمانهم عند الاحتضار «أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً» أي هيأنا وأعدنا لهم عذاباً مؤلماً «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا» أي لا يحل لكم أن تجعلا النساء كالمات ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهًا عنهن قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاءوا تزوجها أحدهم ، وإن شاءوا زوجوها غيرهم ، وإن شاءوا منعوها الزواج ^(٤) «ولا تعضلوهن لتذهبن ببعض ما آتيتموهن» أي ولا يحل

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٦٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/ ٢٣٥ . (٣) قال الشهيد سيد قطب في الظلال : « فهذه توبة المضطر لجأت به الغواية وأحاطت به الخطيئة ، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة ، وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشئ صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة ولا تدل على تبدل في الطبع ولا في الاتجاه » . (٤) القرطبي ٥/ ٩٤ .

بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتَانًا وَإِنَّمَا مَثَنَاءٌ ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

لكم أن تمنعوهن من الزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصَّدَاق ﴿١٩﴾ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴿٢٠﴾ أي إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنا وقال ابن عباس : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ أي فإن كرهتم صحبتهم فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن فعسى أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تقرُّ به أعينكم ، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير وفي الحديث الصحيح (لا يَفْرُكُ «أي لا يبغض» مؤمنٌ مؤمنةٌ إن كره منها خلقاً رضي منها آخر) ثم حذّر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق فقال ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ أي وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ أي والحال أنكم كنتم قد دفعتم مهراً كبيراً يبلغ قنطاراً ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ أي فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر ﴿أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً﴾ استفهام إنكاري أي أتأخذونه باطلاً وظلماً ؟ ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهن بالمعاشرة الزوجية ؟ ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ أي أخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً هو « عقد النكاح » قال مجاهد : الميثاق الغليظ عقدة النكاح وفي الحديث (اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله) (١) .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع وهي بإيجاز كما يلي :

١ - المجاز العقلي في قوله ﴿يتوفاهن الموت﴾ والمراد يتوفاهن الله أو ملائكته .

٢ - الاستعارة في ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي .

٣ - الجناس المغاير في ﴿فإن تابا . . توأبا﴾ وفي ﴿كرهتموهن . . أن تكرهوا﴾ .

٤ - المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ لتعظيم الأمر والمبالغة فيه .

فَكَايْدَةٌ : كنى الله تعالى عن الجماع بلفظ الإفضاء ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ لتعليم المؤمنين الأدب الرفيع قال ابن عباس : « الإفضاء في هذه الآية الجماع ولكن الله كريم يكتفي » (٢) .

تَبْيِيْهُ : خطب عمر رضي الله عنه فقال : أيها الناس لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدقَ امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية ، فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا ؟ يقول تعالى ﴿وَأْتِيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾ فقال رضي الله عنه : أصابت امرأة وأخطأ عمر^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ . . . إِلَى . . . وَنَدْخَلَكُمْ مَدْخَلَ كَرِيماً﴾ من الآية (٢٢) إلى نهاية الآية (٣١) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما أوصى تعالى بحسن معاشره الأزواج ، وحذر من إيذائهن أو أكل مهورهن ، عقبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع .

اللفظ : ﴿سلف﴾ ماضي ﴿مقتاً﴾ المقت : البغض الشديد لمن تعاطى القبيح وكان العرب يسمون زواج الرجل امرأة أبيه « نكاح المقت » ﴿ربائبكم﴾ جمع ربيبة وهي بنت المرأة من آخر سميت به لأنها تربت في حجر الزوج ﴿حجورك﴾ جمع حجر أي في تربيتكم يقال : فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته قال أبو عبيدة : في حجورك أي في بيوتكم ﴿حلائل﴾ جمع حليلة بمعنى الزوجة سميت بذلك لأنها تحل لزوجها ﴿محصنين﴾ متعفين عن الزنى ﴿مسافحين﴾ السفاح : الزنى وأصله في اللغة من السفح وهو الصب وسمي سفاحاً لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة وقضاء الشهوة ﴿طولاً﴾ سعة وغي ﴿أخذان﴾ جمع خِذْن وهو الصديق للمرأة يزني بها سرّاً ﴿العنت﴾ الفجور وأصله الضرر والفساد ﴿سنن﴾ جمع سنة وهي الطريقة ﴿نصليه﴾ ندخله .

سَبَبُ النِّزُول : أ - لما توفي « أبو قيس بن الأسلت » وكان من صالحه الأنصار ، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت : إني أعدك ولداً !! ولكنني آتي رسول الله ﷺ استأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ . . .﴾ الآية^(٢) .

ب - عن أبي سعيد الخدري قال : أصبنا سبايا يوم اوطاس لهن أزواج ، فكرهنا أن نقع عليهن فسالنا النبي ﷺ فنزلت ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . . .﴾ الآية قال : فاستحللناهن^(٣) .

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

النَّفْسِير : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوج آبائكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿إنه كان فاحشة ومقتاً﴾ أي فإن نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة ، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة والبشاعة ، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه ؟ ﴿وساء سبيلاً﴾ أي بش ذلك النكاح القبيح الخبيث

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ
 اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخُوتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي جُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ
 اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بَيْنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بَيْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ
 تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ^١ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ
 إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِحْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرُ مُسَفِّحِينَ
 طَرِيقًا، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى الْمَحْرَمَاتُ مِنَ النِّسَاءِ فَقَالَ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أَيَّ حُرْمٍ عَلَيْكُمْ نِكَاحِ الْأُمَّهَاتِ
 وَشَمِلَ اللَّفْظُ الْجَدَّاتُ مِنْ قَبْلِ الْأَبِ أَوْ الْأُمِّ ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وَشَمِلَ بَنَاتُ الْأَوْلَادِ وَإِنْ نَزَلْنَ ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾
 أَيَّ شَقِيقَةٍ كَانَتْ أَوْ لِأَبٍ أَوْ لِأُمٍّ ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أَيَّ أَخَوَاتِ آبَائِكُمْ وَأَخَوَاتِ أَجْدَادِكُمْ ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ
 الْأُخْتِ﴾ أَيَّ بِنْتِ الْأَخِ وَبِنْتِ الْأُخْتِ وَيَدْخُلُ فِيهِنَّ أَوْلَادُهُنَّ ، وَهَؤُلَاءِ الْمَحْرَمَاتُ بِالنِّسْبِ وَهُنَّ كَمَا تَقْدُمُ
 « الْأُمَّهَاتُ ، الْبَنَاتُ ، الْأَخَوَاتُ ، الْعَمَّاتُ ، الْخَالَاتُ ، بَنَاتُ الْأَخِ ، بَنَاتُ الْأُخْتِ » ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي
 ذِكْرِ الْمَحْرَمَاتِ مِنَ الرِّضَاعِ فَقَالَ ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ نَزَلَ اللَّهُ الرِّضَاعَةَ
 مَنْزِلَةَ النِّسْبِ حَتَّى سَمَّى الْمَرْضِعَةَ أُمًّا لِلرَّضِيعِ أَيَّ كَمَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ ، كَذَلِكَ يَحْرُمُ عَلَيْكَ
 أُمُّكَ الَّتِي أَرْضَعْتِكَ ، وَكَذَلِكَ أَخْتُكَ مِنَ الرِّضَاعِ ، وَلَمْ تَذَكَرِ الْآيَةُ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ بِالرِّضَاعِ سِوَى
 « الْأُمَّهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ » وَقَدْ وَضَحَتْ السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ أَنَّ الْمَحْرَمَاتِ بِالرِّضَاعِ سَبْعٌ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي النِّسْبِ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ (يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النِّسْبِ) ^(١) ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْمَحْرَمَاتُ بِالمَصَاهِرَةِ فَقَالَ ﴿وَأُمَّهَاتُ
 نِسَائِكُمْ﴾ أَيَّ وَكَذَلِكَ يَحْرُمُ نِكَاحُ أُمِّ الزَّوْجَةِ سِوَا دُخُولِ الزَّوْجَةِ أَوَّلًا لَمْ يَدْخُلْ لِأَنَّ مَجْرَدَ الْعَقْدِ عَلَى الْبِنْتِ
 يَحْرُمُ الْأُمَّ ﴿وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي جُورِكُمْ﴾ أَيَّ بَنَاتِ أَزْوَاجِكُمُ اللَّاتِي رَبَّيْتُمُوهُنَّ ، وَذَكَرُ الْحَجَرُ لَيْسَ
 لِلْقَيْدِ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْغَالِبِ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّهَا تَكُونُ مَعَ أُمِّهَا وَيَتَوَلَّى الزَّوْجُ تَرْبِيَّتَهَا وَهَذَا بِالْإِجْمَاعِ ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ
 اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بَيْنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بَيْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الدُّخُولُ هُنَا كُنَايَةً عَنِ الْجَمَاعِ أَيَّ مِنْ نِسَائِكُمْ
 اللَّاتِي أَدْخَلْتُمُوهُنَّ السَّرَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَخَلْتُمْ بِأُمَّهَاتِهِنَّ وَفَارَقْتُمُوهُنَّ فَلَا
 جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي نِكَاحِ بَنَاتِهِنَّ ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أَيَّ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ نِكَاحُ زَوَاجَاتِ
 أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ وَلَدْتُمُوهُنَّ مِنْ أَصْلَابِكُمْ بِخِلَافِ مَنْ تَبَنَيْتُمُوهُنَّ فَلَكُمْ نِكَاحُ حَلَائِلِهِنَّ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ
 الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أَيَّ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ مَعًا فِي النِّكَاحِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
 فَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَيَّ غَفُورًا لِمَا سَلَفَ رَحِيمًا بِالْعِبَادِ ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا
 مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أَيَّ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ نِكَاحُ الْمُتَزَوِّجَاتِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ فَيَحِلُّ لَكُمْ
 وَطْؤُهُنَّ بَعْدَ الْاِسْتِبْرَاءِ وَلَوْ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ لِأَنَّ بِالسَّبْيِ تَنْقَطِعُ عَصْمَةُ الْكَافِرِ ﴿وَلَا تَمْسُكُوا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا
 مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ
 أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ
 فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ

بعصم الكوافر ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي هذا فرض الله عليكم ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي
 أحل لكم نكاح ما سواهن ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ أي إرادة أن تطلبوا النساء بطريق
 شرعي فتدفعوا لهن المهور حال كونكم متزوجين غير زانين ﴿فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن
 فريضة﴾ أي فما تلذذتم به من النساء بالنكاح فاتوهن مهورهن فريضة فرضها الله عليكم بقوله ﴿وآتوا
 النساء صدقاتهن نحلة﴾ ثم قال تعالى ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة﴾ أي لا إثم
 عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهن كقوله ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ قال
 ابن كثير : أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ﴿إن
 الله كان عليماً حكيماً﴾ أي عليماً بمصالح العباد حكماً فيما شرع لهم من الأحكام ﴿ومن لم يستطع منكم
 طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة أن يتزوج الحرائر المؤمنات ﴿فمما
 ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون ﴿والله
 أعلم بإيمانكم﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر ﴿بعضكم من
 بعض﴾ أي إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهن قرب أمة خير من حرة ، وفيه
 تأنيس لهم بنكاح الإماء فالعبرة بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾
 أي تزوجوهن بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي ادفعا لهن مهورهن عن
 طيب نفس ولا تبخسوهن منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات ﴿محصنات غير مسافحات﴾ أي
 عفيفات غير مجاهرات بالزنى ﴿ولا متخذات أخدان﴾ أي ولا متسترات بالزنى مع أخدانهن قال ابن
 عباس : الخِدْنُ هو الصديق للمرأة يزني بها سراً فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن^(١)
 ﴿فإذا أحصن فإن أتبن بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ أي فإذا أحصن بالزواج ثم
 زنين فعليهن نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنى ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾ أي إنما يباح نكاح
 الإماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنى ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ أي صبركم وتعففكم عن نكاحهن

وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَاتُمْ تَهَوَّنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سِعَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

أفضل لثلاثي يصير الولد رقيقاً وفي الحديث (من أراد أن يلقي الله طاهراً مطهراً فليتكح الحرائر)^(١) ﴿والله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ أي يريد الله أن يفصل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿ويتوب عليكم﴾ أي يقبل توبتكم فيما اقترتموه من الإثم والمحارم ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ كرره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد أي يجب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام ، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ أي ويريد الفجرة أتباع الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أي يريد تعالى بما يسر أن يسهل عليكم أحكام الشرع ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ أي عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن إتباع الشهوات ، ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ أي إلا ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلها الله قال ابن كثير : الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها^(٢) ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ إن الله كان بكم رحماً ﴿أي لا يسفك بعضكم دم بعض ، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر ، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم﴾ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴿أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتدياً ظلماً لا سهواً ولا خطأ﴾ فسوف نصليه ناراً ﴿أي ندخله ناراً عظيمة يحترق فيها﴾ وكان ذلك على الله يسيراً ﴿أي هيناً يسيراً لا عسر فيه لأنه تعالى لا يعجزه شيء﴾ ﴿إن تحتبئوا كبائر ما تهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي

(١) أخرجه ابن ماجه عن أنس مرفوعاً . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٣٧٨ .

إن تتركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عز وجل عنها نمنح عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي نُدْخِلْكُمْ الجنة دار الكرامة والنعيم ، التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - المجاز المرسل في ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ أي حرّم عليكم نكاح الأمهات فهو على حذف مضاف .

٢ - الطباق في ﴿حرّمت .. وأحلّ﴾ وفي ﴿محصنين .. ومسافحين﴾ وفي ﴿كبائر .. وسيئاتكم﴾ لأن المراد بالسيئات الصغائر من الذنوب .

٣ - الكناية في ﴿اللاتي دخلتم بهن﴾ فهو كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها ، وضرب عليها الحجاب .

٤ - الاستعارة في ﴿وآتوهن أجورهن﴾ استعار لفظ الأجور للمهور ، لان المهر يشبه الاجر في الصورة .

٥ - الجناس المغاير في ﴿تتكحوا ما نكح﴾ وفي ﴿أرضعنكم .. من الرضاعة﴾ وفي ﴿محصنات .. فإذا أحصن﴾ والإطناب في مواضع ، والحذف في مواضع .

الفَوَائِد : الأولى : استنبط العلماء من آية المحرمات القاعدة الآتية وهي « العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات » .

الثانية : حمل بعض الروافض والشيعة قوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ على نكاح المتعة وهو خطأ فاحش لأن الغرض من الاستمتاع هنا التمتع بالأزواج عن طريق الجماع لانكاح المتعة فقد ثبت حرمة نكاح المتعة بالسنة والإجماع ولا عبرة بما خالف ذلك^(١) .

الثالثة : قال ابن عباس : الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب .

الرابعة : روى سعيد بن جبیر أن رجلاً قال لابن عباس : الكبائر سبع ؟ قال : هي إلى السبعمة أقرب منها إلى السبع ، ولكن لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار ، ذكره القرطبي .

قال تعالى : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض .. إلى .. إن الله كان عفواً غفوراً﴾ من الآية (٣٢) إلى نهاية الآية (٤٣) .

(١) انظر تفصيل البحث وأدلة التحريم للمتعة في كتابنا روائع البيان ١/ ٤٥٧ فيه بحث هام .

النَّاسِكَةُ : لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث ، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خص الله به كلاً من الجنسين لأنه سبب للحسد والبغضاء ، ثم ذكر تعالى حقوق كل من الزوجين على الآخر ، وأرشد إلى الخطوات التي ينبغي التدرج بها في حالة النشوز والعصيان .

اللغة : ﴿موالي﴾ المولى : الذي يتولى غيره يقال للعبد مولى وللسيد مولى لأن كلاً منهما يتولى الآخر والمراد به هنا الورثة والعصبة ﴿قوامون﴾ قوام : مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته أي يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية ﴿قانتات﴾ مطيعات وأصل القنوت دوام الطاعة ﴿نشوزهن﴾ عصيانهن وترفعهن وأصله المكان المرتفع ومنه تلّ ناشز ويقال : نشزت المرأة إذا ترفعت على زوجها وعصته ﴿المضاجع﴾ جمع مضجع وهو المرقد ﴿شفاق﴾ الشقاق : الخلاف والعداوة مأخوذ من الشق بمعنى الجانب لأن كلاً من المتشاقين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية ﴿الجُنُب﴾ البعيد الذي ليس له قرابة تربطه بجاره ، وأصل الجنابة : البعد ﴿مختالاً﴾ المختال : ذو الخيلاء والكبر ﴿مثقال﴾ وزن ﴿الغائط﴾ الحدث وأصله المطمئن من الأرض وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا منخفضاً من الأرض فكني عن الحدث بالغائط .

سَبَبُ النُّزُول : أ - عن مجاهد قال : قالت « أم سلمة » يا رسول الله : يغزو الرجال ولا نغزو وإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ فَأَنْزِلْ اللَّهُ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) الآية .

ب - روي أن سعد بن الربيع - وكان نقيباً من نقباء الأنصار - نشزت عليه امرأته « حبيبة بنت زيد » فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال : أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتص منه فنزلت ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ فقال ﷺ : (أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير)^(٢) .

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً^(٣) وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ^(٤)

التفسير : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خص الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أو الدين ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض قال الزمخشري : نهوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار قال الطبري : كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر^(٥) ﴿واسألوا الله من فضله﴾ أي وسلوا الله من فضله يعطكم فإنه كريم وهاب ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات ﴿ولكل جعلنا مولى﴾

(١) أسباب النزول ص ٨٥ (٢) الكشف ١/ ٢٩٠ . (٣) الطبري ٨/ ٢٦٧ .

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَعَاتَوْهُمْ نَصِيحُهُمْ^{٢٤} إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٢٥﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ^{٢٦} فَالْصَّالِحَاتُ قَنِتَتْنَ حَفِظَتْنَ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا^{٢٧} إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٢٨﴾

مما ترك الوالدان والأقربون ﴿٢٤﴾ أي ولكل إنسان جعلنا عصبته يرثون ماله مما تركه الوالدان والأقارب من الميراث ﴿٢٥﴾ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم ناصيحتهم ﴿٢٦﴾ أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ قال الحسن : كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وقال ابن عباس : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ولكل جعلنا موالى﴾ نسخت^(١) ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أي مطلعاً على كل شيء وسيجازيكم عليه . . ثم بين تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في المسؤولية والتوجيه فقال ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي قائمون عليهن بالأمر والنهي ، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير ، وخصهم به من الكسب والإنفاق ، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب قال أبو السعود : « والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزاقه الرأي ومزيد القوة ، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك »^(٢) ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل ، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان : قسم صالحات مطيعات ، وقسم عاصيات متمردات ، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن ، قائمات بما عليهن من حقوق ، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويحمل ستره وفي الحديث (إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه) ﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ هذا القسم الثاني وهن النساء العاصيات المتمردات أي واللاتي يتكبرن ويتعاليين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإصلاح ﴿فعظوهن وأهجووهن في المضاجع واصربوهن﴾ أي فخوفوهن الله بطريق النصيحة والإرشاد ، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجووهن في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن قال ابن عباس : الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره^(٣) ، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لا يذائهن ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨٤ . (٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٣٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨٦ .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۚ لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٧﴾ . . انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين ! ﴿وإن خفتُم شقاقَ بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ أي وإن خشيتُم أيها الحكام مخالفةً وعداوةً بين الزوجين فوجهوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة ﴿إن يريدَا إِصْلَاحًا يوفِّقُ اللَّهُ بينهما﴾ أي إن قصدا إِصْلَاحَ ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك في وساطتهما وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي عليماً بأحوال العباد حكماً في تشريعه لهم ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إِحْسَاناً﴾ أي وحدوه وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنأً أو غيره ، واستوصوا بالوالدين برّاً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً ﴿وبذي القربى واليتامى والمساكين﴾ أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة ﴿والجار ذي القربى﴾ أي الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿والجار الجنب﴾ أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه ﴿والصاحب بالجنب﴾ قال ابن عباس : هو الرفيق في السفر ، وقال الزخشي : « هو الذي صحبتك إما رفيقاً في سفر ، أو جاراً ملاصقاً ، أو شريكاً في تعلم علم ، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك ، من له أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وقيل : هي المرأة » ^(١) ﴿وابن السبيل﴾ أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ أي المماليك من العبيد والإماء ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ أي متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم ، وهذه آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق ، ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن كثير من مواعظ البلغاء ، ونصائح الحكماء . ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال ﴿الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق ، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات ، وهي مع ذلك عامة ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ أي يخفون ما عندهم من المال والغنى ، ويخفون نعمة عليه السلام الموجود في التوراة ^(٢) ﴿وأعتدنا

(١) الكشف ٣٩٣/١ وهذا الرأي اختيار الطبري أيضاً . (٢) هذا ما رجحه الطبري وأبو السعود .

لِّلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ
يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يُوذِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَعَصُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

للكافرين عذاباً مهيناً ﴿٣٧﴾ أي هياناً للجاحدين نعمة الله عذاباً أليماً مع الحزني والإذلال لهم ﴿٣٨﴾ والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ﴿٣٩﴾ أي ينفقونها للفتور والشهرة لا ابتغاء وجه الله ﴿٤٠﴾ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴿٤١﴾ أي ولا يؤمنون بالإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر ، والآية في المنافقين ﴿٤٢﴾ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴿٣٨﴾ أي من كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب ﴿٣٩﴾ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴿٤٠﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي ماذا يضيرهم وأي تبعية ووبال عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله ؟ قال الزمخشري : وهذا كما يقال للمنتقم : ما ضرك لو عفوت ؟ وللعاق : ما كان يرزؤك لو كنت باراً ؟ وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة (١) وكان الله بهم عليماً ﴿٤١﴾ وعيد لهم بالعقاب أي سيجازيهم بما عملوا ﴿٤٢﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴿٤٠﴾ أي لا يبخس أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة وذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير ﴿٤١﴾ وإن تك حسنة يضاعفها ﴿٤٢﴾ أي وإن كانت تلك الذرة حسنة ينمها ويجعلها أضعافاً كثيرة ﴿٤٣﴾ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴿٤٤﴾ أي ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة ﴿٤٥﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴿٤٦﴾ أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين تأتي من كل أمة بنبيها يشهد عليها ، وتأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان ؟ ! كيف يكون موقفهم ؟ وكيف يكون حالهم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتفريع ﴿٤٧﴾ يومئذ يوذد الذين كفروا وعصوا الرسول ﴿٤٨﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله ﴿٤٩﴾ لو تسوى بهم الأرض ﴿٥٠﴾ أي لو يدفنوا في الأرض ثم تسوى بهم كما تسوى بالموتى ، أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً كقوله ﴿٥١﴾ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴿٥٢﴾ وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة ﴿٥٣﴾ ولا يكتُمون الله حديثاً ﴿٥٤﴾ أي لا يستطيعون أن يكتُموا الله حديثاً لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه (٢) . ثم أمر تعالى باجتنب الصلاة في حال السكر والجنابة

(١) الكشف ٣٩٥/١ .

(٢) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر وقيل : إن الجملة معطوفة على السابق أي يوذون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لم يكتُموا ولم يكذبوا في قولهم ﴿٥٥﴾ والله ربنا ما كنا مشركين ﴿٥٦﴾ لأنهم إذا كتموا افترضوا فلدنة الأمر يتمنون أن تسوى بهم الأرض ، انظر الكشف ٣٩٦/١ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ أي لا تصلوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه أنه قال « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت « قل يا أيها الكافرون * أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾^(١) الآية ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بإنزال أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ أي وإن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو مسافرين وأنتم محدثون أو أحدثتم ببول أو غائط ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء ﴿أو لامستم النساء﴾ قال ابن عباس : هو الجماع ﴿فلم تجدوا ماء﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به ﴿فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿إن الله كان عفواً غفوراً﴾ أي يرخّص ويسهّل على عباده لئلا يقعوا في الحرج .

البَلَاغَةُ : تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ - الإطناب في قوله ﴿نصيب مما اكتسبوا . . ونصيب مما اكتسبن﴾ وفي ﴿حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ وفي ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ .

٢ - الاستعارة في ﴿مما اكتسبوا﴾ شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالاكْتِسَاب واشتق من لفظ الاكْتِسَاب اكتسبوا على طريقة الاستعارة التبعية .

٣ - الكناية في ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع وكذلك في ﴿لامستم النساء﴾ قال ابن عباس معناه : جامعتم النساء كما كنى عن الحدث بالغائط في قوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ .

٤ - صيغة المبالغة في ﴿الرجال قوامون﴾ لأن فعال من صيغ المبالغة ومجيء الجملة إسمية لإفادة الدوام والاستمرار .

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

٥ - السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع في قوله ﴿فكيف إذا جئنا﴾ يراد بها التقرير والتوبيخ .

٦ - جناس الاشتقاق في ﴿حافظات . . بما حفظ﴾ وفي قوله ﴿بشheid . . وشheid﴾ .

٧ - التعريض في ﴿مختالاً فخوراً﴾ عرّض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي لاحتقار الناس .

٨ - الحذف في عدة مواضع مثل ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحساناً .

الفوائد : الأولى : لم يذكر الله تعالى في الآية إلا « الإصلاح » في قوله ﴿إن يريد إصلاحاً﴾ ولم يذكر ما يقابله وهو التفريق وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي على الحكّمين أن يبذلا جهدهما للإصلاح لأن في التفريق خراب البيوت وتشيت الأولاد وذلك مما ينبغي أن يجتنب .

الثانية : ختم تعالى الآية بهذين الإسمين العظيمين ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ وذلك لتهديد الأزواج عند التعسف في استعمال الحق فكأن الآية تقول : لا تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن وأكبر درجة منهن فإن الله عليٌّ قاهرٌ ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن ، فالله أعلى منكم وأقدر عليكم منكم عليهن فاحذروا عقابه .

الثالثة : روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ اقرأ عليّ القرآن فقلت يا رسول الله : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم فإنني أحب أن أسمع من غيري ! فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال : حسبك الآن فنظرت فإذا عيناه تذرفان .

تنبيه : ورد النظم الكريم ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ ولوقال : بتفضيلهم عليهن لكان أخصراً وأوجز ولكن التعبير ورد بتلك الصيغة لحكمة جليلة وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضو من جسم الإنسان وكذلك العكس ، فالرجل بمنزلة الرأس ، والمرأة بمنزلة البدن ولا ينبغي أن يتكبر عضو على عضو ، فالأذن لا تغني عن العين ، واليد لا تغني عن القدم ، ولا عار على الشخص أن يكون قلبه أفضل من معدته ورأسه أشرف من يده فالكل يؤدي دوره بانتظام ولا غنى لواحدٍ عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله ﴿بعضهم على بعض﴾ فظهر أن الآية في نهاية الإيجاز والإعجاز .

« كلمة حول تأديب النساء »

لعل أخبث ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الإسلامية زعمهم أن الإسلام أهان المرأة حين سمح للرجل أن يضربها ويقولون : كيف يسمح القرآن بضرب المرأة ﴿واهجر وهن في المضاجع واضربوهن﴾ أفليس هذا إهانة للمرأة واعتداءً على كرامتها ؟ !

والجواب : نعم لقد أذن الحكيم العليم بضربها ولكن متى يكون الضرب ؟ ولمن يكون ؟ إن الضرب - ضرباً غير مبرح - كما ورد به الحديث الشريف أحد الطرق في معالجة نشوز المرأة وعصيانها لأمر الزوج ، فحين تسيء المرأة عشرة زوجها وتركب رأسها وتسير بقيادة الشيطان وتقلب الحياة الزوجية إلى

جحيم لا يطاق فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة ؟ ! لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء فأمر بالصبر والأناة ، ثم بالوعظ والإرشاد ، ثم بالهجر في المضاجع ، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل فلا بد من سلوك طريق آخر هو الضرب غير المبرح لكسر الغطرسة والكبرياء ، وهذا أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها ، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأكبر كان حسناً وجميلاً وما أحسن ما قيل « وعند ذكر العمى يُستحسن العَوْر » فالضرب طريق من طرق العلاج ينفع في بعض الحالات التي يستعصي فيها الإصلاح باللفظ والإحسان والجميل ﴿فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ !!

قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . . إلى . . وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾
من الآية (٤٤) إلى نهاية الآية (٥٧) .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف - أحد أئمة اليهود - إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقاً نحن أم محمد ؟ فقال : اعرضوا علي دينكم فقال أبو سفيان : نحن ننحز للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ، ونقري الضيف ، ونعمر بيت ربنا ، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم !! فقال : دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . .﴾^(١) الآية .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى شيئاً من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً . . أعقبه بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله ، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائغة وما أعد لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعادنا الله منها .

الْفَكْرَةُ : ﴿راعنا﴾ راقبنا وانظرنا وهي كلمة سب في العبرية وكان اليهود يقولونها ويعنون بها معنى الرعونة ﴿أقوم﴾ أعدل وأصوب ﴿نظمس﴾ الطمس : المحو وإذهاب أثر الشيء ﴿فتيل﴾ الفتيل : الخيط الذي في شق النواة ﴿الجبث﴾ اسم الصنم ثم صار مستعملاً لكل باطل ﴿الطاغوت﴾ كل ما عبد من دون الله من حجر أو بشر أو شيطان وقيل هو اسم للشيطان ﴿نقيراً﴾ النكير : النقطة التي على ظهر النواة ﴿نصليهم﴾ ندخلهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

النَّفْسِيرُ : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ الاستفهام للتعجب من سوء حالهم والتحذير عن مولاتهم أي ألم تنظر يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أئمة اليهود ﴿يشترون الضلالة﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإيمان ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿والله أعلم

بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ بُعْدَائِكُمْ ۗ أَيُّ هُوَ تَعَالَى أَعْلَمُ بَعْدَاوَةَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الضَّالِّينَ مِنْكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۗ أَيُّ حَسْبِكُمْ أَن يَكُونَ اللَّهُ وَلِيًّا وَنَاصِرًا لَّكُمْ فَتَقُوا بِهِ وَاعْتَمِدُوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ فَهُوَ تَعَالَى يَكْفِيكُمْ مَكْرَهُمْ . . ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود اللعناء فقال ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي من هؤلاء اليهود فريق يبدلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً فقد غيروا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان سمعنا قولك وعصينا أمرك قال مجاهد : سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه ، وهذا أبلغ في الكفر والعناد ﴿وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أي اسمع ما نقول لا سمعت والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير أي لا سمعت مكرهاً ولكن اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعك الله وهو دعاء بالصمم أو بالموت ﴿وَرَاعِنَا﴾ أي ويقولون في أثناء خطابهم راعنا وهي كلمة سب من الرعونة وهي الحمق ، فكانوا سخرية وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ولهذا قال تعالى ﴿لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ أي فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإسلام قال ابن عطية : وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير^(١) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي عوضاً من قولهم سمعنا وعصينا ﴿وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا﴾ أي عوضاً عن قولهم غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي لكان ذلك القول خيراً لهم عند الله وأعدل وأصوب ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً قال الزمخشري : أي ضعيفاً ركيكاً لا يُعْبَأُ بِهِ^(٢) وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسل . . ثم توعدهم تعالى بالطمس وإذهاب الخواص فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي مصدقاً للتوراة ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي نطمس منها الخواص من أنف أو عين أو حاجب حتى تصير كالأدبار ، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان وهو قول ابن عباس^(٣) ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٦٤ . (٢) الكشف ١/ ٤٠١ . (٣) وهو اختيار الطبري حيث قال : أي من قبل أن نطمس أبصارها ونمحو آثارها فسويها كالأفقاء فنجعل أبصارها في أدبارها فيمشون القهقري .

أَلَسَّيْتُ^ج وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^ج
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ
فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ

لعلنا أصحاب السبت ﴿﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قرده وخنازير ﴿﴾ وكان أمر الله مفعولاً ﴿﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة ﴿﴾ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴿﴾ أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ﴿﴾ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴿﴾ أي من أشرك بالله فقد اختلق إثماً عظيماً قال الطبري : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبريته شركاً بالله . . . (١) ثم ذكر تعالى تركية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال ﴿﴾ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴿﴾ أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى ؟ والاستفهام للتعجب من أمرهم قال قتادة : ذلكم أعداء الله اليهود زكوا أنفسهم فقالوا ﴿﴾ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴿﴾ وقالوا : لا ذنوب لنا (٢) ﴿﴾ بل الله يزكي من يشاء ﴿﴾ أي ليس الأمر بتزكيته بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار ﴿﴾ ولا يُظلمون فتيلاً ﴿﴾ أي لا ينقصون من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثل للقللة كقوله ﴿﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴿﴾ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴿﴾ هذا تعجب من افتراءهم وكذبهم أي انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيته أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ؟ ﴿﴾ وكفى به إثماً مبيناً ﴿﴾ أي كفى بهذا الافتراء وزراً بيناً وجرماً عظيماً ﴿﴾ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴿﴾ الاستفهام للتعجب والمراد بهم أيضاً اليهود أعطوا حظاً من التوراة وهم مع ذلك يؤمنون بالأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الرحمن ﴿﴾ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴿﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه قال ابن كثير : يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم (٣) قال تعالى إخباراً عن ضلالهم ﴿﴾ أولئك الذين لعنهم الله ﴿﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿﴾ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴿﴾ أي من يطرده من رحمته فمن ينصره من عذاب الله ؟ ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم ﴿﴾ أم لهم نصيب من الملك ﴿﴾ أي أم لهم حظ من الملك ؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس

فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٦﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٧﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْسِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٦٠﴾

لهم من الملك شيء ﴿٥٦﴾ فإذا لا يؤتون الناس نقيراً أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم ، والنقير مثل في القلة كالفتيل والقطير وهو النكتة في ظهر النواة ، ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل فقال ﴿٥٧﴾ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴿٥٨﴾ قال ابن عباس : حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى : بل أيحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرف بها العرب ويحسدون المؤمنين على ازدياد العز والتمكين ؟ ﴿٥٩﴾ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً أي فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلا شيء تخصون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم ؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم ﴿٦٠﴾ فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه أي من اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله ﴿٥٧﴾ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴿٥٨﴾ وكفى بجهنم سعيراً أي كفى بالنار المسعرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم . . ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال ﴿٥٩﴾ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ﴿٦٠﴾ أي سوف ندخلهم نارا عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿٥٧﴾ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب أي كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب ، قال الحسن : تُنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فعادوا كما كانوا وقال الربيع : جلد أحدهم أربعون ذراعاً ، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه ، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وفي الحديث (يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن ضرسه مثل أحد) (١) ﴿٥٩﴾ إن الله كان عزيزاً حكيماً أي عزيز لا يمتنع عليه شيء حكيم لا يعذب إلا بعدل ﴿٥٧﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴿٥٨﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿٥٩﴾ لهم فيها أزواج مطهرة ﴿٦٠﴾ أي

(١) أخرجه أحمد في المسند .

لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقدار والأذى قال مجاهد : مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمنى والولد ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ أي ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس ولا حرفيه ولا برد قال الحسن : وُصف بأنه ظليل لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحرّ والسموم ، وفي الحديث (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها)^(١) .

البلاغة : تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبلاغة والبديع ما يلي بالإيجاز :

١ - المجاز المرسل في ﴿أم يحسدون الناس﴾ المراد به محمد ﷺ من باب تسمية الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين .

٢ - الاستعارة في ﴿يشترتون الضلالة﴾ وفي ﴿ليذوقوا العذاب﴾ لأن أصل الذوق باللسان فاستعير إلى الألم الذي يصيب الإنسان وفي ﴿ليأ بالستهم﴾ لأن أصل الليّ قتل الحبل فاستعير للكلام الذي قصد به غير ظاهره وفي ﴿نطمس وجوهاً﴾ وهي عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عُميت سطورها وأشكلت حروفها .

٣ - الاستفهام الذي يراد به التعجب في ﴿ألم تر﴾ في موضعين .

٤ - التعجب بلفظ الأمر في ﴿انظر كيف يفترون﴾ وتلوين الخطاب في ﴿يفترون﴾ وإقامته مقام الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار .

٥ - الاستفهام الذي يراد منه التوبيخ والتقريع في ﴿أم لهم نصيب﴾ وفي ﴿أم يحسدون﴾ .

٦ - التعريض في ﴿فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ عرّض بشدة بخلهم .

٧ - الطباق في ﴿وجوه .. وأدبار﴾ وفي ﴿آمنوا .. وكفروا﴾ .

٨ - جناس الاشتقاق في ﴿نلعنهم .. ولعنا﴾ وفي ﴿يؤتون .. وآتاهم﴾ وفي ﴿ظلاً ظليلاً﴾ .

٩ - الإطناب في مواضع ، والحذف في مواضع .

قال الله تعالى : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات ... إلى .. وكفى بالله علماً﴾

من آية (٥٨) إلى نهاية آية (٧٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود ، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله وأداء

(١) أخرجه الشيخان .

الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، ثم ذكر صفات المنافقين التي ينبغي الحذر منها والبعد عنها .

الفقرة : ﴿نَعَمَّا﴾ أصلها نعم ما أي نعم الشيء يعظكم به ﴿تَأْوِيلًا﴾ مآلاً وعاقبة ﴿يَزْعُمُونَ﴾ الزعم : الاعتقاد الظني قال الليث : أهل العربية يقولون : زعم فلان إذا شكوا فيه فلم يعرفوا أكذب أو صدق وقال ابن دريد : أكثر ما يقع على الباطل ومنه قولهم « زعموا مطية الكذب » ﴿تَوْفِيقًا﴾ تأليفاً والوفاق والوفق ضد المخالفة ﴿بَلِيغًا﴾ مؤثراً ﴿شَجَرًا﴾ اختلف واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاط بعضها في بعض ﴿حَرَجًا﴾ ضيقاً وشكاً قال الواحدي : يقال للشجر الملتف الذي لا يكاد يوصل إليه حرج .

سَبَبُ النُّزُول : أ - روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق « عثمان بن طلحة » باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلولى عليّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج أمر علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان : أذيت وأكرهت ثم جئت تترفق !! فقال لقد أنزل الله في شأنك قرآناً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ . . . ﴿وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْآيَةَ فَاسْلَمَ عُثْمَانُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم)﴾ (١) .

ب - عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين يقال له « بشر » كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي : تعال نتحاكم إلى محمد فقال المنافق : بل نتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » - وهو الذي سماه الله الطاغوت - فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله لليهودي على المنافق ، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق وقال : تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب فأتيا عمر فقال اليهودي : كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمنا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك فقال عمر للمنافق : أكذلك هو ؟ فقال : نعم فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيفه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد - أي مات - وقال : هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ﴾ . . . ﴿(٢) الْآيَةَ﴾ .

* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا

التفسير : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن الامانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواء كانت حقوق الله أو العباد قال الزمخشري : الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة ، (٣) والمعنى يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الامانات إلى أربابها قال ابن كثير : يأمر تعالى بأداء الامانات إلى أهلها وهو يعم جميع الامانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على

(١) الفخر الرازي ١٠ / ١٣٨ وأسباب النزول ص ٩٠ . (٢) الكشاف ١ / ٤٠٦ والقرطبي ٥ / ٢٦٤ . (٣) الكشاف ١ / ٤٠٥ .

وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ

عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغيرها ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها (١) ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فيه وعد ووعد أي سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة ، وأطيعوا الأحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وفي قوله ﴿مِنْكُمْ﴾ دليل على أن الأحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين حسناً ومعنى ، لحماً ودماً ، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي فإن اختلفتم في أمر من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقاً وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق أي فردوه إلى الله والرسول والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول الفائل : إن كنت ابني فلا تحالفني ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومالاً . . ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يدعون الإيمان وقلوبهم خاوية منه فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تعجب من أمر من يدعي الإيمان ثم لا يرضى بحكم الله أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت قال ابن عباس هو « كعب بن الأشرف » أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول عليه السلام ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي والحال أنهم قد أمروا بالإيمان بالله والكفر بما سواه كقوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً أي ويريد الشيطان بما زين لهم أن يحرفهم عن الحق والهدى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين تعالوا فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ

صُدُّوْا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا
بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ
وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ

صدوداً﴾ أي رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ أي
كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي أيقدرون أن يدفعوا عنهم
العذاب ؟ ﴿ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للاعتذار
عما اقترفوه من الأوزار يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما
أردنا رفض حكمك قال تعالى تكذيباً لهم ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ أي هؤلاء المنافقون
يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام المعسول
﴿فأعرض عنهم﴾ أي فأعرض عن معاقبتهم للمصلحة ولا تظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك
سترهم حتى يبقوا على وجلٍ وحذرٍ ﴿وعظهم﴾ أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات ﴿وقل
لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم
يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً ، ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال ﴿وما أرسلنا من رسول إلا
ليطاع بإذن الله﴾ أي لم نرسل رسولاً من الرسل إلا ليطاع بأمر الله تعالى فطاعته طاعة لله ومعصيته
معصية لله ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله﴾ أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا
أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم
﴿واستغفر لهم الرسول﴾ أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم ﴿لوجدوا الله
تواباً رحيماً﴾ أي لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق فقال
﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم﴾ اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون
مؤمنين حتى يجعلوك حكماً بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور ﴿ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك وينقادوا انقياداً تاماً
كاملاً لقضائك ، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة ، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان ﴿ولو أنا
كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من
قبلهم من المشقات وشددنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك
على بني إسرائيل ﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ أي ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ
لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ
وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله
وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وآجلهم وأشدّ تثبيتاً لإيمانهم ، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق
﴿وإذا لا تأتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي أرشدناهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى جنات النعيم ، ثم
ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله فقال ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ أي
ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله ويحجب ما نهى الله عنه ورسوله ، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته في
دار الخلد مع المقربين ﴿من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في
الآخرة وهم الأنبياء الأطهار والصديقون الأبرار وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء الأخيار وهم الذين
استشهدوا في سبيل الله ثم مع بقية عباد الله الصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ أي ونعمت رفقة هؤلاء
وصحبتهم ، وحسن رفيق أولئك الأبرار ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي ﷺ في شكواه
التي قبض فيها يقول ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ فعلمت
أنه خير^(١) ﴿ذلك الفضل من الله﴾ أي ما أعطيه المطيعون من الأجر العظيم إنما هو بمحض فضله تعالى
﴿وكفى بالله علماً﴾ أي وكفى به تعالى مجازياً لمن أطاع عالماً بمن يستحق الفضل والإحسان .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة والبدیع ما يلي باختصار :

- ١ - الاستفهام المراد به التعجب في ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ .
- ٢ - الالتفات في ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ تفخياً لشأن الرسول وتعظيماً لاستغفاره ولو
جرى على الأصل لقال ﴿واستغفرت لهم﴾ .
- ٣ - إيراد الأمر بصورة الإخبار وتصديره بـ «إِنَّ» المفيدة للتحقيق في قوله ﴿إن الله
يأمركم﴾ للتفخيم وتأكيد وجوب العناية والامثال .
- ٤ - الجناس المغاير في ﴿يضلهم ضلالاً﴾ وفي ﴿قل لهم .. قولاً﴾ وفي ﴿يسلموا تسليماً﴾
وفي ﴿يصدون .. صدوداً﴾ وفي ﴿فأفوز فوزاً﴾ .
- ٥ - الاستعارة في قوله ﴿فيما شجر بينهم﴾ استعار ما اشتبك وتضايق من الشجر

للتنازع الذي يدخل به بعض الكلام في بعض استعارة للمعقول بالمحسوس .

٦ - تكريم الاسم الجليل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾
لتربية المهابة في النفوس .

٧ - الإطناب في مواضع والحذف في مواضع .

فَكَايْدَةٌ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إنك لأحب إليّ من نفسي وأحب إليّ من أهلي ، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم . . ﴾^(١) الآية .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم . . . إلى . . ومن أصدق من الله حديثاً﴾
من آية (٧١) إلى نهاية آية (٨٧) .

المناسكة : لما حذر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله ، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه ، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغته الكفار ، ثم بيّن حال المتخلفين عن الجهاد المشبطين للعزائم من المنافقين وحذر المؤمنين من شرهم .

اللفظة : ﴿ثَبَاتٌ﴾ جمع ثبته وهي الجماعة أي جماعة بعد جماعة ﴿بروج﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع والقصر العظيم والمراد به هنا الحصون ﴿مشيدة﴾ مرتفعة البناء ﴿بيت﴾ دبر الأمر ليلاً ، والبيات أن يأتي العدو ليلاً ومنه قول العرب : أمرٌ بيّت ليليل ﴿أذاعوا به﴾ أشاعوه ونشروه ﴿يستنبطونه﴾ يستخرجونه مأخوذ من استنبط الماء إذا استخرجته ومنه استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ﴿حرّض﴾ التحريض : الحث على الشيء ﴿تنكيلاً﴾ تعذيباً والنكال : العذاب ﴿كفل﴾ نصيب وأكثر ما يستعمل الكفل في الشر ﴿مقيتاً﴾ مقتدرًا من أقات على الشيء قدر عليه قال الشاعر :

وذِي ضِعْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيَتًا

سَبَبُ النُّزُول : عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا : يا نبيّ الله لقد كنا في عزٍ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ؟ فقال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفّوا فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة . . ﴾^(٢) الآية .

(١) أخرجه ابن مردويه . (٢) أسباب النزول ص ٩٦ والقرطبي ٥ / ٢٨١ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٦﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبِطُنَّ ۖ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِيتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٨﴾ * فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٩﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ

النفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين ، سريةً بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف ، فخيرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿وإن منكم من ليبطن﴾ أي ليشاقلن ويتخلفن عن الجهاد ، والمراد بهم المنافقون وجعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ أي قتل وهزيمة ﴿قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي قال ذلك المنافق قد تفضل الله علي إذ لم أشهد الحرب معهم فأقتل ضمن من قتلوا ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ أي ليقولن هذا المنافق قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة يا ليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظاً وافراً من الغنيمة ، وجملة ﴿كأن لم تكن﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم ، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام ، ولما ذم تعالى المبطلين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه فقال ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ وهذا وعد منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواء غلب أو غلب أي من يقاتل في سبيل الله لأعلاء كلمة الله فيستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيهِ ثواباً جزيلاً فهو فائز بإحدى الحسنيين : الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث (تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وإيمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة) ^(١) ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد ؟ ! وقوله ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ بَيِّنًا لِلْمُسْتَضْعِفِينَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانَ يَدْعُو لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ فيقول : اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ الْخِمْيَارِيَّ الصَّحِيحَ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أَيِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ لِكَشْفِ الضَّرِّ عَنْهُمْ قَائِلِينَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَهِيَ مَكَّةُ إِذْ أَنهَا كَانَتْ مَوْطِنَ الْكُفْرِ وَلِذَا هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْهَا ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بِالْكَفْرِ وَهُمْ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ مَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ وَمَنَعُوا مِنْ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ فِيهَا ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أَيِ اجْعَل لَّنَا مِنْ هَذَا الضِّيقِ فَرَجًا وَمُخْرَجًا وَسَخَّرَ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا وَنَاصِرًا ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُمْ فَجَعَلَ لَهُمْ خَيْرَ وَلِيٍّ وَنَاصِرٍ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ فَتَحَ مَكَّةَ وَلَمَّا خَرَجَ مِنْهَا وَلَّى عَلَيْهِمْ «عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ» فَأَنْصَفَ مَظْلُومَهُمْ مِنْ ظَالِمِهِمْ ، ثُمَّ شَجَعَ تَعَالَى الْمَجَاهِدِينَ وَرَغَبَهُمْ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ يُقَاتِلُونَ لِهَدَفِ سَامٍ وَغَايَةِ نَبِيلَةٍ وَهِيَ نَصْرَةُ دِينِ اللَّهِ وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ فَهُوَ تَعَالَى وَلِيَّهُمْ وَنَاصِرُهُمْ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أَيِ وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ الدَّاعِي إِلَى الْكُفْرِ وَالطَّغْيَانِ ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أَيِ قَاتِلُوا يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ أَنْصَارُ وَعَاوَنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّكُمْ تَغْلِبُونَهُمْ ، فَشَتَانُ بَيْنَ مَنْ يُقَاتِلُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَبَيْنَ مَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ ، فَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي يَغْلِبُ لِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ ، وَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَهُوَ الْمَخْذُولُ الْمَغْلُوبُ وَلِهَذَا قَالَ ﴿إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أَيِ سَعْيُ الشَّيْطَانِ فِي حُدُودِهِ ضَعِيفٌ فَكَيْفَ بِالْقِيَاسِ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ ؟ ! قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : كَيْدُ الشَّيْطَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى جَنْبِ كَيْدِ اللَّهِ لِلْكَافِرِينَ أَوْ ضَعْفُ شَيْءٍ وَأَوْهَنُهُ ^(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَيِ أَلَا تَعْجَبُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَوْمٍ طَلَبُوا الْقِتَالَ وَهُمْ بِمَكَّةَ فَقِيلَ لَهُمْ : أَمْسِكُوا عَنْ قِتَالِ الْكَافِرِ فَلَمْ يَحْنِ وَقْتُهُ وَأَعَدُّوا نَفْسَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أَيِ فَلَمَّا فُرِضَ عَلَيْهِمْ قِتَالُ الْمُشْرِكِينَ إِذَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يَخَافُونَ وَيَجْبَنُونَ وَيَفْزَعُونَ مِنَ الْمَوْتِ كَخَشْيَتِهِمْ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ لَوْ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ لِيَسْتَفُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ فَلَمَّا أُمِرُوا بِمَا كَانُوا يُوَدُّونَهُ جَزَعُ بَعْضِهِمْ وَخَافَ مِنْ مُوَاجَهَةِ النَّاسِ خَوْفًا شَدِيدًا ^(٢) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أَيِ وَقَالُوا جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ رَبَّنَا لِمَ فَرَضْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ

لَوْلَا أُخِّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ۖ قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٦﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۖ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ قَالَ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٧﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

قريب ﴿٧٦﴾ لولا للتخصيض بمعنى هلاً أي هلاً أخرتنا إلى أجل قريب حتى نموت بأجلنا ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء ! ﴿٧٧﴾ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴿٧٦﴾ أي قل لهم يا محمد إن نعيم الدنيا فإن نعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامثل أمره ﴿٧٧﴾ ولا تظلمون فتيلاً ﴿٧٦﴾ أي لا تُنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلاً وهو الخيط الذي في شق النواة قال في التسهيل : إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به ، فلما أمروا به كرهوه لا شكاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت ، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام ^(١) ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴿٧٧﴾ أي في أي مكانٍ وجدتم فلا بد أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة فلا تخشوا القتال خوف الموت ﴿٧٧﴾ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ﴿٧٧﴾ أي إن تصب هؤلاء المنافقين حسنة من نصر وغنيمة وشبه ذلك يقولوا هذه من جهة الله ومن تقديره لما علم فينا من الخير ﴿٧٧﴾ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴿٧٧﴾ أي وإن تنلهم سيئة من هزيمة وجوع وشبه ذلك يقولوا هذه بسبب اتباعنا لمحمد ودخولنا في دينه يعنون بشؤم محمد ودينه قال السدي : يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿٧٧﴾ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴿٧٧﴾ قل كل من عند الله ﴿٧٧﴾ أمر الله بأن يرد زعمهم الباطل ويلقمهم الحجر ببيان أن الخير والشر بتقدير الله أي قل يا محمد هؤلاء السفهاء : الحسنه والسيئة والنعمة والنقمة كل ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً لا خالق سواه فهو وحده النافع الضار وعن إرادته تصدر جميع الكائنات ﴿٧٧﴾ فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴿٧٧﴾ أي ما شأنهم لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله ؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم . . ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان ﴿٧٧﴾ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴿٧٧﴾ الخطاب لكل سامع أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً ، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما ارتكبت يداك كقوله ﴿٧٧﴾ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴿٧٧﴾ . . ثم قال تعالى مخاطباً الرسول ﴿٧٧﴾ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴿٧٧﴾ أي وأرسلناك يا محمد رسولا للناس أجمعين تبلغهم شرائع الله وحسبك

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٤٨/١ واختار هذا القرطبي وأبو حيان وهو الأرجح قال في البحر : الظاهر أن القائلين هذا هم منافقون لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان ولهذا جاء السياق بعده ﴿٧٧﴾ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴿٧٧﴾ وهذا لا يصدر إلا من منافق أه البحر ٩٢٨/٣ .

شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

أن يكون الله شاهداً على رسالتك ، ثم رغب تعالى في طاعة الرسول فقال ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله لأنه مبلغ عن الله ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظاً لأعمالهم ومحاسباً لهم عليها إن عليك إلا البلاغ ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيئت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ أي ويقول المنافقون : أملك يا محمد طاعة كقول القائل « سمعاً وطاعة » فإذا خرجوا من عندك دبر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم وهو الخلاف والعصيان لأمرك ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أي يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله﴾ أي اصفح عنهم وفوض أملك إلى الله وثق به ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي فهو سبحانه ينتقم لك منهم وكفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه ، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ أي لو كان هذا القرآن مختلفاً كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه منزّه عن ذلك فأخبره صدق ، ونظمه بليغ ، ومعانيه محكمة ، فدلّ على أنه تنزيل الحكيم الحميد ﴿وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ أي إذا جاء المنافقين خبرٌ من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي لو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردّوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلهم الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول ورحمته بإتزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم ، ثم أمر الرسول بالجهاد فقال ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك فإنك موعود بالنصر ولا تهتم بتخلف

مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ^ط وَمَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فُحِيتُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ^ز إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ^ط لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ^ق وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

المنافقين عنك ﴿وحرّض المؤمنين﴾ أي شجّعهم على القتال ورجّبهم فيه ﴿عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا﴾ هذا وعدٌ من الله بكفهم و﴿عسى﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شرّ الكفرة الفجار ، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وفتح مكة ﴿والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً﴾ أي هو سبحانه أشدّ قوة وسطوة ، وأعظم عقوبة وعذاباً ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أي من يشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفلٌ منها﴾ أي ومن يشفع شفاعة مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ أي مقتدرًا فيجازي كل أحدٍ بعمله ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أي إذا سلّم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلّم أو ردّوا عليه بمثل ما سلّم ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد أي الله الواحد الذي لا معبود سواه ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحدٍ للجزاء والحساب ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي لا أحد أصدق في الحديث والوعد من الله رب العالمين .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة في قوله ﴿يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي يبيعون الفانية بالباقية فاستعار لفظ الشراء للمبادلة وهو من لطيف الاستعارة .
- ٢ - الاعتراض في ﴿كأن لم يكن بينكم وبينه مودة﴾ .
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿يخشون الناس كخشية الله﴾ .
- ٤ - الطباق بين ﴿الأمّن أو الخوف﴾ .
- ٥ - جناس الاشتقاق في ﴿أصابنكم مصيبة﴾ وفي ﴿حييتم فحيوا﴾ وفي ﴿يشفع شفاعة﴾ وفي ﴿يبت . . ويبيتون﴾ .
- ٦ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار في ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ ؟
- ٧ - المقابلة في قوله ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾

وكذلك في قوله ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ وهذه من المحسنات البديعية وهي أي يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب .

تنبيه : لا تعارض بين قوله تعالى ﴿قل كل من عند الله﴾ أي كل من الحسنة والسيئة وبين قوله ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ إذ الأولى على الحقيقة أي خلقاً وإيجاداً والثانية تسبباً وكسباً بسبب الذنوب ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أو نقول : نسبة الحسنة إلى الله ، والسيئة إلى العبد هو من باب الأدب مع الله في الكلام وإن كان كل شيء منه في الحقيقة كقوله ﷺ (الخير كله بيدك والشر ليس إليك) والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين . . . إلى . . . ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ من آية (٨٨) إلى نهاية آية (٩٦) .

المناسكة : لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية ، عقبه بذكر نوع آخر من أحوال المنافقين الشنيعة ، ثم ذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد ، وأمر بالتثبت قبل الإقدام على قتل إنسان لئلا يُفضي إلى قتل أحد من المسلمين ، ثم ذكر تعالى مراتب المجاهدين ومنازلهم الرفيعة في الآخرة .

الغفرة : ﴿أركسهم﴾ ردهم إلى الكفر أو نكسهم وأصل الركن رد الشيء مقلوباً قال الشاعر :
فأركسوا في حميم النار إنهم كانوا عصاةً وقالوا الإفك والزورا^(١)
﴿حصرت﴾ ضاقت من الحصر وهو الضيق ﴿السلم﴾ الاستسلام والإنقياد ﴿ثقفتموهم﴾ صادفتموهم ووجدتموهم ﴿فتبينوا﴾ فتشبتوا ﴿أركسوا فيها﴾ قلبوا فيها .

سبب النزول : أ - عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناساً ممن كان معه ، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم : نقتلهم ، وقال بعضهم : لا ، فأنزل الله ﴿فما لكم في المنافقين فئتين . . .﴾ الآية فقال ﷺ : (إنها طيبة تنفي الحبث كما تنفي النار خبث الحديد) أخرجه الشيخان .

ب - يروى أن « الحارث بن يزيد » كان شديداً على النبي ﷺ فجاء مهاجراً وهو يريد الإسلام فلقيه « عياش بن أبي ربيعة » - والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر - فقتله فأنزل الله ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾^(٢) الآية .

ج - عن ابن عباس قال : لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً . . .﴾^(٣) الآية .

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت . (٢) أسباب النزول ص ٩٧ . (٣) رواه البخاري .

* فَأَلْكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۖ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۚ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۖ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ ۖ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ ۚ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَسَلَّمَ ۖ فَأَجَلٌ لَّكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ

النفسير : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين ، بعضكم يقول تقتلهم وبعضكم يقول لا تقتلهم والحال أنهم منافقون والله نكسهم وردّهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿أتريدون أن تهّدوا من أضلّ الله﴾ أي أتريدون هداية من أضله الله ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضعين والمعنى لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير لأن الله حكم بضلالهم ﴿ومن يضلّل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي من يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى والإيمان ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فتستووا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفاراً ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ أي لا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ أي إن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرم ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا تستصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا الذين ينتهون ويلجأون إلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحلف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ وهذا استثناء أيضاً من القتل أي وإلا الذين جاءوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لطفه بكم أن كفّهم عنكم ولو شاء لقواهم وجراهم عليكم فقاتلوكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي فإن لم يتعرضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقاتلوهم طالما سلموكم ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ أي ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم قال أبو السعود : هم قوم من «أسد وغطفان» كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا

كُلَّ مَارَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ۚ فَإِنْ لَّمْ يَعْتَزِّلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فُخْذُوهُمْ
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا
خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ
عَدُوِّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مَتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

عهدوهم ليأمنوا قومهم^(١) ﴿٩١﴾ كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴿٩٢﴾ أي كلما دعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين
عادوا إليه وقلبوا فيه على أسوأ شكل فهم شر من كل عدو شرير ﴿٩٣﴾ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم
ويكفوا أيديهم ﴿٩٤﴾ أي فإن لم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿٩٥﴾ فخذوهم واقتلوهم
حيث ثقفتموهم ﴿٩٦﴾ أي فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم ﴿٩٧﴾ وأولئك جعلنا لكم عليهم
سلطاناً مبيناً ﴿٩٨﴾ أي جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم وخيانتهم ﴿٩٩﴾ وما
كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ﴿١٠٠﴾ أي لا ينبغي لمؤمن ولا يليق به أن يقتل مؤمناً إلا على وجه الخطأ لأن
الإيمان زاجر عن العدوان ﴿١٠١﴾ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقية مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ﴿١٠٢﴾
أي ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ فعليه إعتاق رقية مؤمنة لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، وعليه
كذلك دية مؤداة إلى ورثة المقتول إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية ، وقد أوجب الشارع في
القتل الخطأ شيئين : الكفارة وهي تحرير رقية مؤمنة في مال القاتل ، والدية وهي مائة من الإبل على العاقلة
﴿١٠٣﴾ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقية مؤمنة ﴿١٠٤﴾ أي إن كان المقتول خطأ مؤمناً وقومه كفاراً
أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لثلاث استعينا بها على المسلمين ﴿١٠٥﴾ وإن كان من
قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقية مؤمنة ﴿١٠٦﴾ أي وإن كان المقتول خطأ من قوم كفره
بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم ويجب أيضاً على القاتل إعتاق
رقية مؤمنة ﴿١٠٧﴾ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ﴿١٠٨﴾ أي فمن لم يجد الرقية فعليه صيام
شهرين متتابعين عوضاً عنها شرع تعالى لكم ذلك لأجل التوبة عليكم ﴿١٠٩﴾ وكان الله عليماً حكيماً ﴿١١٠﴾ أي
عليماً بخلقه حكماً فيما شرع . . ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة فقال
﴿١١١﴾ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴿١١٢﴾ أي ومن يقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله
فجزاؤه جهنم مغلداً فيها على الدوام ، وهذا محمول عند الجمهور على من استحل قتل المؤمن كما قال ابن

(١) انظر تفصيل حكم القاتل عمداً في البحر ٣/ ٣٢٦ وفي ابن كثير ١/ ٤٢٢ من المختصر .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَنَزَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾

عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً ﴿٩٤﴾ وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴿٩٥﴾ أي ويناله السخط الشديد من الله والطرده من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة ﴿٩٦﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ﴿٩٤﴾ أي إذا سافرتكم في الجهاد لغزو الأعداء فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر ﴿٩٥﴾ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴿٩٦﴾ أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه ﴿٩٤﴾ تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴿٩٥﴾ أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطام سريع الزوال ﴿٩٤﴾ فعند الله مغانم كثيرة ﴿٩٥﴾ أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعدّه لكم من جزيل الثواب والنعيم ﴿٩٤﴾ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ﴿٩٥﴾ أي كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام ومن عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمناً وقيسوا حاله بحالكم ﴿٩٦﴾ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿٩٤﴾ أي مطلعاً على أعمالكم فيجازيكم عليها ، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال ﴿٩٤﴾ لا يستوي القاعدون من المؤمنين - غير أولي الضرر - والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴿٩٥﴾ أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعداء كالأعمى والأعرج والمريض قال ابن عباس : هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها ، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله : هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله ﴿٩٤﴾ غير أولي الضرر ﴿٩٥﴾ فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴿٩٤﴾ أي فضّل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعداء درجة لاستوائهم في النية كما قال ﷺ : (إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم حبسهم العذر) (١) ﴿٩٤﴾ وكلاً وعد الله الحسنى ﴿٩٥﴾ أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضرر لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿٩٤﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴿٩٥﴾ أي وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم ﴿٩٤﴾ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴿٩٥﴾ أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث (إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) (٢) .

البَلَاغَةُ : تضمنت هذه الآيات من البلاغة والبيان والبدیع أنواعاً نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام بمعنى الإنكار في ﴿فما لكم في المنافقين﴾ ؟ وفي ﴿أتريدون أن تهدوا﴾ ؟ .
- ٢ - الطباق في ﴿أن تهدوا من أضلَّ الله﴾ وكذلك ﴿القاعدون .. والمجاهدون﴾ .
- ٣ - والجناس المغاير في ﴿تكفرون كما كفروا﴾ وفي ﴿مغفرة .. وغفوراً﴾ .
- ٤ - الإطناب في ﴿فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم .. وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين﴾ وكذلك في ﴿أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ .
- ٥ - الاستعارة في ﴿إذا ضربتم في سبيل الله﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء واستعار السبيل لدين الله ، ففيه استعارة الضرب للجهاد ، واستعارة السبيل لدين الله .
- ٦ - المجاز المرسل في ﴿فتحرير رقبة﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق مملوك .

الفَوَائِد : القتل العمد من أعظم الجرائم في نظر الإسلام ولهذا كانت عاقبته في غاية التغليب والتشديد وقد قال ﷺ : (من أعان على قتل مسلم مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه آيسٌ من رحمة الله)^(١) وفي الحديث أيضاً (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن)^(٢) ولهذا أفتى ابن عباس بعدم قبول توبة القاتل ، أعادنا الله من ذلك .

تَنْبِيْهُ : أمر تعالى في القتل الخطأ بإعتاق رقبة مؤمنة والحكمة في هذا - والله أعلم - أنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار إذ أن إطلاقها من قيد الرق إحياء لها ، والعبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فما الذين فضَّلوا برادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾ وقوله ﷺ في مرضه الذي مات فيه (الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون) ومن يطلع على معاملة الزوج في أمريكا يتضح له جلياً صحة ما نقول . وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار ، وتحرم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب ، باسم الاستعمار والانداب ، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنيَّة الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد ؟ !

قال الله تعالى : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ... إلى .. وكان فضل الله عليك عظيماً﴾

من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١١٣) .

(١) أخرجه ابن ماجه . (٢) أخرجه البيهقي .

المناسكة : لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار ، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر ، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب ، ثم لما كان الجهاد والهجرة سبباً لحدوث الخوف بين تعالى صلاة المسافر وطريقة صلاة الخوف ، ثم أتبع ذلك بذكر أروع مثل في الانتصار للعدالة سجله التاريخ ألا وهو إنصاف رجل يهودي اتهم ظليماً بالسرقة وإدانة الذين تأمروا عليه وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة المنورة .

اللفظ : ﴿مُرَاغِمًا﴾ مذهباً ومتحولاً مشتق من الرغام وهو التراب قال ابن قتيبة : المرأغم والمهاجر واحد وأصله أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مرأغماً لهم أي مغاضباً فقليل للمذهب مرأغماً وسمي مصيره إلى النبي ﷺ هجرة^(١) ﴿سعة﴾ اتساعاً في الرزق ﴿تَقْصُرُوا﴾ القصر : النقص يقال قصر صلاته إذا صلى الرباعية ركعتين قال أبو عبيد : فيها ثلاث لغات قصرت الصلاة وقصرتها وأقصرتها^(٢) ﴿تَغْفُلُونَ﴾ الغفلة : السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ﴿مَوْقُوتًا﴾ محدود الأوقات لا يجوز إخراجه عن وقته ﴿تَهْنَأُوا﴾ تضعفوا ﴿خَصِيماً﴾ الخصيم بمعنى المخاصم أي المنازع والمدافع ﴿خَوَانًا﴾ مبالغاً في الخيانة .

سَبَبُ النُّزُول : أ - عن ابن عباس قال : كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة - وكانوا يستخفون بالإسلام - فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها على الخروج فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ . . .﴾^(٣) الآية .

ب - كان ضمرة بن القيس من المستضعفين بمكة وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم فأنزل الله ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٤) .

ج - روي أن رجلاً من الأنصار يقال له « طُعْمَة بن أبيرق » من بني ظفر سرق درعاً من جاره « قتادة ابن النعمان » في جراب دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند « زيد بن السمين » اليهودي فالتصمت الدرع عند طُعْمَة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال : دفعها إلي طُعْمَة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ . . .﴾ الآية وهرب طُعْمَة إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله^(٥) .

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٣٤ . (٢) القرطبي ٥ / ٣٦٠ . (٣) مختصر ابن كثير ١ / ٤٢٧ .

(٤) القرطبي ٥ / ٣٤٩ . (٥) أبو السعود ١ / ٣٨٠ .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

التفسير : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي توفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تقول لهم الملائكة في أي شيء كنتم من أمر دينكم ؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع قالوا معتردين : كنا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ ؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخاً : أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر إلى دار تقدر فيها على إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة ؟ قال تعالى بياناً لجزائهم ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي مقرهم النار وساءت مقراً ومصيراً ، ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة فقال ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لكن من كان منهم مستضعفاً كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة ولا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ أي لعل الله أن يعفو عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار ، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا ترغيب في الهجرة أي من يفارق وطنه ويهرب فراراً بدينه من كيد الأعداء يجد مهاجراً ومتجولاً في الأرض كبيراً يرغم به أنف عدوه ويجد سعة في الرزق فأرض الله واسعة ورزقه سابع على العباد ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون﴾ ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجراً من أرض الشرك فاراً بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي سائراً على العباد رحماً بهم ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي وإذا سافرتم للغزو أو التجارة أو غيرها فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن

إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٥١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ

خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة ، وذكر الخوف ليس للشرط وإنما هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين ويؤيده حديث « يعلى بن أمية » قال قلت لعمر بن الخطاب : إن الله يقول ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد أمن الناس فقال : عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي إن الكافرين أعداء لكم مظهرون للعداوة ولا يمنعونهم فرصة اشتغالكم بمناجاة الله أن يقتلوكم ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي وإذا كنت معهم يا محمد وهم يصلون صلاة الخوف في الحرب فلتأتم بك طائفة منهم وهم مدججون بأسلحتهم احتياطاً ولتقم الطائفة الأخرى في وجه العدو ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة فلتأت الطائفة التي لم تصل إلى مكانها لتصلي خلفك ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي وليكونوا حذرين من عدوهم متاهين لقتالهم بحملهم السلاح ﴿وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرة ، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلون والمعنى لا تتشاغلوا بأجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم ولكن أقيموها على ما أمرتم به ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفت عنها ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي كونوا متيقظين واحترزوا من عدوكم ما استطعتم ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي أعد لهم عذاباً مخزياً مع الإهانة ، روى ابن كثير عند هذه الآية عن أبي عياش الزرقني قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعُسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد - وهم بيننا وبين القبلة - فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال : فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ (١) الآية ثم أمر تعالى بكثرة ذكره عقب صلاة الخوف فقال ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي فإذا فرغت من الصلاة

فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿٤٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿٤٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿٤٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿٤٨﴾

فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم واذكروه في جميع الحالات لعله ينصركم على عدوكم ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾ أي فإذا أمنتكم وذهب الخوف فأتوا الصلاة وأقيموها كما أمرتم بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شروطها ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي فرضاً محدوداً بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه ، ثم حث تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد فقال ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جدوا فيهم وقاتلوهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴿إن تكونوا تألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ أي إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإنهم يتألمون أيضاً منه كما تتألمون ولكنكم ترجون من الله الشهادة والثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم ﴿وكان الله علماً حكيماً﴾ أي علماً بمصالح خلقه حكيماً في تشريعه وتدبيره ، قال القرطبي : نزلت هذه الآية في حرب أحد حيث أمر ﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألا يخرج معه إلا من حضر في تلك الوقعة ، وقيل : هذا في كل جهاد (١) . ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن متلبساً بالحق لتحكم بين الناس بما عرفك الله وأوحى به إليك ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ أي لا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم ، والمراد به « طعمة بن أبيرق » وجماعته ﴿واستغفر الله﴾ أي استغفر الله مما هممت به من الدفاع عن طعمة اطمئناناً لشهادة قومه بصلاحه ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أي لا تخاصم وتدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ أي لا يحب من كان مفرطاً في الخيانة منهمكاً في المعاصي والآثام ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ أي يستترون من الناس خوفاً وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه ﴿وهو معهم إذ يبیتون ما لا يرضى من القول﴾ أي وهو معهم جل وعلا عالم بهم وبأحوالهم يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ أي لا يعزب عنه شيء منها

هَآأَنَّمْ هَتُولَآ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١١٦﴾
 وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٧﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٨﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ
 احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ
 إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٢٠﴾

ولا يفوت . . ثم قال تعالى توبيخاً لقوم طُعْمَة ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ أي ها أنتم يا
 معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين في الدنيا ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ أي فمن يدافع
 عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ ﴿أم من يكون عليهم وكيلًا﴾؟؟ أي من يتولى الدفاع عنهم
 ونصرتهم من بأس الله وانتقامه ؟ ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة فقال ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم
 نفسه﴾ أي من يعمل أمراً قبيحاً يسوء به غيره كاتهام بريء أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ثم
 يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن
 عباس : عرض الله التوبة بهذه الآية على بني أبيرق ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله
 عليماً حكيماً﴾ أي من يقترب إثماً متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليماً بذنبه حكيماً في عقابه
 ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ أي من يفعل ذنباً صغيراً أو إثماً كبيراً ﴿ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً
 مبيناً﴾ أي ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمّل جرماً وذنباً واضحاً ، ثم بين تعالى فضله على
 رسوله فقال ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة
 ورحمته بالعصمة لهمت جماعة منهم أن يضلوك عن الحق ، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرىء
 صاحبهم « طُعْمَة » من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضل الله عز وجل على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة
 ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي وبال إضلالهم راجع عليهم ﴿وما يضررونك من شيء﴾ أي وما
 يضررونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي أنزل الله عليك
 القرآن والسنة فكيف يضلونك وهو تعالى ينزل عليك الكتاب ويوحى إليك بالأحكام ﴿وعلمك ما لم تكن
 تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ أي علمك ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمور الغيبية وكان فضله
 تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع في ﴿قالوا فيم كنتم﴾ ؟ وفي ﴿ألم تكن أرض الله واسعة﴾ ؟
- ٢ - إطلاق العام وإرادة الخاص ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ أريد بها صلاة الخوف .
- ٣ - الجناس المغاير في ﴿يعفو . . عفواً﴾ وفي ﴿يهاجر . . مهاجراً﴾ وفي ﴿يختانون . . خواناً﴾ وفي ﴿يستغفر . . غفوراً﴾ .
- ٤ - إطلاق الجمع على الواحد في ﴿توفاهم الملائكة﴾ يراد به ملك الموت وذكر بصيغة الجمع تفخياً له وتعظيماً لشأنه .
- ٥ - طباق السلب ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ .
- ٦ - الاطناب بتكرار لفظ الصلاة تنبيهاً على فضلها ﴿فأقيموا الصلاة﴾ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً .

قال الله تعالى : ﴿لا خير في كثير من نجواهم . . إلى . . فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ .

من آية (١١٤) إلى نهاية آية (١٣٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قصة طُعْمَة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتأمرهم في السر لا يقاتل البريء بها ، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن كل تدبير في السر يعلمه الله ، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح ، ثم ذكر تعالى أن مخالفة أمر الرسول ﷺ جرمٌ عظيم وحذرٌ من الشيطان وطرق إغوائه ، ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن ، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إما بالوفاق أو بالفراق .

اللفت : ﴿نجواهم﴾ النجوى : السر بين الإثنين قال الواحدي : ولا تكون النجوى إلا بين اثنين ﴿يشاqq﴾ يخالف والشقاق : الخلاف مع العداوة لأن كلاً من المتخالفين يكون في شق غير شق الآخر ﴿مريداً﴾ المرید : العاتي المتمرد من مرد إذا عتا وتجبر قال الأزهري : مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد ﴿فليبتكن﴾ البتك : القطع ومنه سيف باتك أي قاطع ﴿محيصاً﴾ مهرباً من حاص إذا هرب ونفر وفي المثل « وقعوا في حيص بيص » أي فيما لا يقدر على التخلص منه ﴿خليلاً﴾ من الخلعة وهي صفاء المودة قال ثعلب : سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته قال بشار :

قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلاً^(١)
 ﴿الشح﴾ شدة البخل ﴿المعلقة﴾ هي التي ليست ذات بعل ولا مطلقة .

سَبَبُ النُّزُولِ : أ - لما سرق « طُعْمَةُ بْنُ أَبِي رَافٍ » وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله ﴿ وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴾ (١) الآية .

ب - قال قتادة : تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحقُّ بالله منكم ، وقال المؤمنون : نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ (٢) الآية .

* **لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴿١١٨﴾ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴿١١٩﴾ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** ﴿١٢٠﴾ **إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا** ﴿١٢١﴾ **لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَازِنُنِي عِبَادِي نَصِيبًا مِّمَّا كَسَبُوا** ﴿١٢٢﴾

التفسير : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ ﴾ أي لا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أي إلا نجوى من أمر بصدقةٍ ليعطيها سرّاً أو أمر بطاعة الله قال الطبري : المعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير ، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمين (٣) ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ أي ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي فسوف نعطيهِ ثواباً جزيلاً هو الجنة قال الصاوي : والتعبير بسوف إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء ﴿ وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴾ أي يخالف أمر الرسول فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ أي نولِّهِ ما تولى ونصله جهنم ﴿ أَي نتركه مع اختياره الفاسد وندخله جهنم عقوبة له ﴾ وساءت مصيراً ﴿ أَي وساءت جهنم مرجعاً لهم ﴾ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴿ أَي لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد ﴾ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴿ أَي فقد بُعد عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً ﴾ إن يدعون من دونه إلا إناثاً ﴿ أَي ما يدعو هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث « اللات والعزى ومناة » قال في التسهيل : كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة (٤) ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ أي وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَازِنُنِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٥)

(١) القرطبي ٣٨٥/٥ . (٢) أسباب النزول ص ١٠٤ . (٣) الطبري ٢٠١/٩ . (٤) وهذا اختيار الطبري وقيل : إن المراد بالإناث الملائكة كتوله تعالى ﴿ لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ تَسْمِيَةُ الْأُنْثَى ﴾ فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله .

وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنُهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيْنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيْكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ

عبادك نصيباً مفروضاً ﴿١﴾ أي أبعد الله عن رحمته فأقسم الشيطان قائلاً : لأتخذن من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم نصيباً أي حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة « إبعث بعث النار فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون » ﴿٢﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنُهُمْ ﴿٣﴾ أي لأصرفنهم عن طريق الهدى وأعدهم الأمانى الكاذبة وألقي في قلوبهم طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب ﴿٤﴾ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ ﴿٥﴾ أي ولأمرنهم بتقطيع أذان الأنعام قال قتادة : يعني تشقيقتها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿٦﴾ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ ﴿٧﴾ أي ولأمرنهم بتغيير خلق الله كخصاء العبيد والحيوان والوشم وغيره وقيل : المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي ^(١) وإحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل ﴿٨﴾ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله ﴿٩﴾ أي ومن يتول الشيطان ويطعه ويترك أمر الله ﴿١٠﴾ فقد خسر خسراناً مبيناً ﴿١١﴾ أي خسر دينه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة وأي خسران أعظم من هذا ؟ ثم قال تعالى عن إبليس ﴿١٢﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيْنُهُمْ ﴿١٣﴾ أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالكاذب والأباطيل قال ابن كثير : هذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى في ذلك ^(٢) ﴿١٤﴾ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴿١٥﴾ أي وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً قال ابن عرفة : الغرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه ، فهو مزين الظاهر فاسد الباطن ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ ﴿١٧﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم ﴿١٨﴾ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٩﴾ أي ليس لهم منها مفر ولا مهرب ، ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرار فقال ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢١﴾ أي مخلصين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال ﴿٢٢﴾ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴿٢٣﴾ أي وعداً لا شك فيه ولا ارتياب ﴿٢٤﴾ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿٢٥﴾ أي ومن أصدق من الله قولاً ؟ والاستفهام معناه النفي أي لا أحد أصدق قولاً من الله قال أبو السعود : والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعده الله الصادق لأوليائه ^(٣) ﴿٢٦﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيْكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿٢٧﴾ أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيتكم أيها المسلمون ولا بأمانى أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح قال الحسن البصري : ليس بالإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن

(١) هذا مروي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وهو اختيار الطبري . (٢) مختصر ابن كثير ٤٣٩ / ١ . (٣) أبو السعود ٣٨٤ / ١ .

أَلِكْتَبِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزِيهِ ۖ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ
الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۚ
قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ
لَهُنَّ وَتَرْتَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ۚ وَالْمُسْتَضَعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ۖ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا

بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواء كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ أي يدخلهم الله الجنة ولا يُنقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم كيف لا والمجازي أرحم الراحمين !! وإنما قال ﴿وهو مؤمن﴾ ليبين أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان ، ثم قال تعالى ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ ؟ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انتقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله ﴿وهو محسن﴾ أي مطيع لله مجتنب لنواهيه ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن ، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي صفيّاً اصطفاً لمحبتة وخلته قال ابن كثير : فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ^(١) ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية ﴿ويستفتونك في النساء﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء ﴿قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ أي قل لهم يا محمد : يبين الله لكم ما سألتهم في شأنهن ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن ﴿في يتامى النساء اللاتي لا توتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾ أي ويفتيكم أيضاً في اليتيمات اللواتي ترغبون في نكاحهن لجمالهن أو لمالهن ولا تدفعون لهن مهورهن كاملاً فنهاهم الله عز وجل عن ذلك قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة واحبها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها ، فحرم الله ذلك ونهى عنه ﴿والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي ويفتيكم في

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ

المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر ، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء ويقولون : كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً ! فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ أي وما تفعلوه من عدل وبر في أمر النساء واليتامى فإن الله يجازيكم عليه قال ابن كثير : وهذا تهيج على فعل الخيرات وامثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء ^(١) ، ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ أي وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمايتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشب وأجمل منها ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً﴾ أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقة أو كسوة أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته ، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت : هذا الرجل يكون له امرأتان إحداها قد عجزت أو هي دمية وهو لا يحبها فتقول : لا تطلقني وأنت في حل من شأني ^(٢) ﴿والصلح خير﴾ أي والصلح خير من الفراق ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي جبلت الأنفس على الشح وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقوقها من النفقة والاستمتاع ، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي وإن تحسنوا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجور عليهن ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء . . ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق ، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة فقال ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسووا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع ﴿ولو حرصتم﴾ أي ولو بذلتم كل جهدكم لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان ﴿فلا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة ، شبهت بالشيء المعلق بين السماء والأرض ، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء ، وهذا من أبلغ التشبيه ﴿وإن تصلحوا وتتقوا﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه ، فإن

وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٤٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ع وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ^ع وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ^ع فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ع وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٤١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ع وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٤٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ^ع وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٤٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^ع وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٤٤﴾

الله يغنيه بفضل له ولطفه ، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجه ، وعيشاً أهنأ من عيشه ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ أي واسع الفضل على العباد حكيماً في تدبيره لهم ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم﴾ أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة ﴿أن اتقوا الله﴾ أي وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم لأنه مستغن عن العباد وهو المالك لما في السموات والأرض ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ أي غنياً عن خلقه ، محموداً في ذاته ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي كفى به حافظاً لأعمال عباده ﴿إن يشأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين غيركم ﴿وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي قادراً على ذلك ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلم يطلب الأخس ولا يطلب الأعلى ؟ فليسأل العبد ربه خيرى الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة في ﴿أسلم وجهه لله﴾ استعار الوجه للقصد والجهة وكذلك في قوله ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها كان كأنه أحضرها وحمل على ملازمتها فاستعار الإحضار للملازمة (١) .

٢ - الجناس المغاير في ﴿ضل . ضللاً﴾ وفي ﴿خسر . خسراناً﴾ وفي ﴿أحسن . محسن﴾ وفي ﴿صلحاً . والصلح﴾ وفي ﴿تميلوا كل الميل﴾ .

٣ - التشبيه في ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ وهو مرسل مجمل .

٤ - الإطناب والإيجاز في عدة مواضع .

تبيينه : العدل المقصود في هذه الآية هو العدل في المحبة القلبية فقط وإلا لتناقضت الآية مع

الآية السابقة ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول (اللهم هذا قسّمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك) يعني بذلك المحبة القلبية ويدل على هذا قوله تعالى ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ ، وأما ما يدعو إليه بعض من يتسمون بـ « المجتهدين » من وجوب الزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فلا عبرة به لأنه جهل بفهم النصوص وهو باطل محض تردّد الشريعة الغراء ، والسنة النبوية المطهرة ، وكفانا الله شر علماء السوء .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط . . إلى . . وكان الله شاكراً عليماً﴾ من الآية (١٣٥) إلى نهاية الآية (١٤٧) .

المناسكة : لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن ، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام ، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً ، وحذّر من اتباع الهوى ، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل ، ثم أعقب ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخزية وما لهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم .

اللفظ : ﴿تلووا﴾ اللي : الدفع يقال لويت فلاناً حقّه إذا دفعته ومطلته ومنه الحديث (ليّ الواجد ظلم) أي مظل الغني ظلم ﴿يخوضوا﴾ الخوض : الاقتحام في الشيء ومنه خوض الماء ﴿نستحوذ﴾ الاستحواذ : الاستيلاء والتغلب يقال استحوذ على كذا إذا غلب عليه ومنه قوله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ ﴿مذبذبين﴾ الذبذبة : التحريك والاضطراب يقال ذبذبت فذبذب والمذبذب المتردّد بين أمرين ﴿الدرك﴾ بسكون الراء وفتحها بمعنى الطبقة وهي لما تسافل قال ابن عباس : الدرك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض ، والدركات بعضها أسفل من بعض ^(١) .

* يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أُولَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ أي يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قوامين﴾ حتى لا يكون منهم جور أبداً ﴿شهداء لله﴾ أي تقيمون شهادتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه ، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحمًا وإشفاقاً ﴿فالله أولى بهما﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحهما فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس قال ابن كثير : أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل

خَيْرًا ﴿١٣٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُلِيتُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

على كل حال ^(١) ﴿وإن تَلُوتُوا أو تُعْرَضُوا﴾ أي وإن تلووا أَلَسْتُمْ عَنْ شَهَادَةِ الْحَقِّ أَوْ تُعْرَضُوا عَنْ إِقَامَتِهَا رَأْسًا ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازيكم عليه ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ أي اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه ﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها من قبل القرآن قال أبو السعود : المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية ^(٢) ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد كل البعد ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم أزدادوا كُفْرًا﴾ هذه الآية في المنافقين ^(٣) آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ماتوا على الكفر قال ابن عباس : دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر وقال ابن كثير : يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع فيه ثم عاد إلى الإيمان ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإنه لا توبة له بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى ^(٤) ولهذا قال تعالى ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾ أي لم يكن الله ليساعدهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى الجنة قال الزمخشري : ليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة لم يقبل منهم ولم يغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون ، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجع منه الثبات ، والغالب أنه يموت على شر حال ^(٥) ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ عبر تعالى بلفظ ﴿بشر﴾ تهكماً بهم أي أخبر يا محمد المنافقين بعذاب النار الأليم ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين ﴿أيتغنون عندهم العزة﴾ أي يطلبون بموالة الكفار القوة والغلبة ؟ والاستفهام إنكاري أي إن الكفار لا عزة لهم فكيف تُبغى منهم ! ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ أي العزة لله ولأوليائه قال ابن كثير والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله ﴿وقد نزل عليكم في

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٧ . (٢) أبو السعود ١/ ٣٨٩ . (٣) وقيل إنها في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعباسي ثم أزدادوا كُفْرًا بكفرهم بمحمد وهو قول قتادة واختاره الطبري .

(٤) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٨ . (٥) الكشف ١/ ٤٤٧ .

وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٠٢﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ الْكِتَابِ ۚ أَي نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْقُرْآنِ ، والخطاب لمن أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي أنزل عليكم أنه إذا سمعتم القرآن يكفر به الكافرون ويستهزئ به المستهزئون ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي لا تجلسوا مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله حتى يتحدثوا بحديث آخر ويتركوا الخوض في القرآن ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ أي إنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي يجمع الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم لأن المرء مع من أحب ، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم . . ثم ذكر تعالى تربصهم بالسوء بالمؤمنين فقال ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي ينتظرون بكم الدوائر ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي غلبة على الأعداء وغنيمة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي فأعطونا مما غنمتموه من الكافرين ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي ظفرٌ عليكم يا معشر المؤمنين ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا للمشركين ألم نغلبكم وتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم وثبطنا عزائم المؤمنين حتى انتصرتهم عليهم ؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم لأننا نواليكم ولا نترك أحداً يؤذيكم قال تعالى بياناً لمآل الفريقين ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يحكم بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي لن يمكن الكفرة من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم^(١) قال ابن كثير : وذلك بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة^(٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقق دمائهم ، وقد أعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة ، فسمي تعالى جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبال خداعهم راجع عليهم ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ أي يصلون وهم متثاقلون متكاسلون ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ﴿يُرَاءُونَ

(١) ذكر القرطبي خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها وهو الذي رجحناه وقيل : إن المراد بالسبيل الحجة وقيل هذا يوم القيامة وقد رجحه الطبري حيث قال : يعني حجة يوم القيامة واستدل له بما روي أن رجلاً سأل علياً عن هذه الآية فقال : أدن مني ثم قرأ عليه ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي يوم القيامة وقد ضعَّف هذا الرأي ابن العربي انظر القرطبي

وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١٢﴾ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١١٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١١٧﴾

الناس ﴿١﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسמعة ولا يقصدون وجه الله ﴿٢﴾ ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿٣﴾ أي لا يذكرون الله سبحانه إلا ذكراً قليلاً ﴿٤﴾ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿٥﴾ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان ، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم ﴿٦﴾ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿٧﴾ أي لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين ﴿٨﴾ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ﴿٩﴾ أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى السعادة والهدى ، ثم حذر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين فقال ﴿١٠﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿١١﴾ أي لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة ﴿١٢﴾ أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴿١٣﴾ أي أتريدون أن تجعلوا لله حجة بالغة عليكم أنكم منافقون ؟ قال ابن عباس : كل سلطان في القرآن حجة ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴿١٥﴾ أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات قال ابن عباس : أي في أسفل النار ، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله ، والنار دركات كما أن الجنة درجات ﴿١٦﴾ ولن تجد لهم نصيراً ﴿١٧﴾ أي لن تجد لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله ﴿١٨﴾ إلا الذين تابوا ﴿١٩﴾ وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق ﴿٢٠﴾ وأصلحوا ﴿٢١﴾ أي أعماهم ونياتهم ﴿٢٢﴾ واعتصموا بالله ﴿٢٣﴾ أي تمسكوا بكتاب الله ودينه ﴿٢٤﴾ وأخلصوا دينهم لله ﴿٢٥﴾ أي لم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله ﴿٢٦﴾ فأولئك مع المؤمنين ﴿٢٧﴾ أي في زمرة يوم القيامة ﴿٢٨﴾ وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴿٢٩﴾ أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنة ﴿٣٠﴾ ما يفعل الله بعذابكم إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴿٣١﴾ أي أي منفعة له سبحانه في عذابكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به الثأر ، أم يدفع به الضر ويستجلب النفع وهو الغنى عنكم ؟ ﴿٣٢﴾ وكان الله شاكراً عليماً ﴿٣٣﴾ أي شاكراً لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - المبالغة في الصيغة في ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي مبالغين في العدل .

٢ - الطباق بين ﴿غنياً وفقيراً﴾ وبين ﴿آمَنُوا ثم كفروا﴾ .

٣ - الجناس الناقص في ﴿آمَنُوا آمَنُوا﴾ لتغير الشكل .

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿يُخَادِعُونَ﴾ خادعون .. خادعهم ﴿وفي﴾ جامع .. جميعاً ﴿وفي﴾ شكرتم .. شاكراً .

٥ - الاسلوب التهكمي في ﴿بشر المنافقين﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكماً .

٦ - الاستعارة في ﴿وهو خادعهم﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل ، والله تعالى منزّه عن الخداع .

٧ - الاستفهام الإنكاري في ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ ؟ والغرض منه التقرير والتوبيخ .

الفوائد : الأولى : قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا﴾ ليس تكراراً وإنما معناه اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه كقول المؤمن ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي ثبتنا على الصراط المستقيم .

الثانية : سمى تعالى ظفر المؤمنين فتحاً عظيماً ونسبه إليه ﴿فَتَحْ مِنْ اللَّهِ﴾ وظفر الكافرين نصيباً ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ ولم ينسبه إليه وذلك لتعظيم شأن المسلمين ، وتخسيس حظ الكافرين .

الثالثة : قال المفسرون : النار سبع دركات وأولها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية وقد تسمى بعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها ، كذا في البحر .

تنبيه : المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ وقد شرط تعالى للتوبة على الكافر الانتهاء عن الكفر فقط ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ وأما المنافق فشرط عليه أربعاً : التوبة ، والإصلاح ، والاعتصام ، وإخلاص الدين له فقال ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ فدل على أن المنافقين شر من كفر به وأولاهم بمقتته ، وأبعدهم من الإنابة إليه ثم قال ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين منه أجراً عظيماً﴾ ولم يقل « وسوف يؤتيهم » بغضاً لهم وإعراضاً عنهم وتفضيلاً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق ، زادنا الله فهماً لأسرار كتابه .

قال الله تعالى : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم .. إلى .. أولئك سنؤتيهم أجراً

عظيماً﴾ من آية (١٤٨) إلى نهاية آية (١٦٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة ، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح ، إلا في حق من زاد ضرره وعظم خطره ، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر ، ثم تحدث عن اليهود وعدد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله ، وعبادتهم للعجل ،

وادعائهم صلب المسيح ، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم شنيعة .
اللفظة : ﴿جهرة﴾ عياناً ﴿بهتاناً﴾ البهتان : الكذب الذي يُتَحِيرُ فيه من شدته وعظمته ﴿شبه﴾
 وقع الشبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه ﴿وأعتدنا﴾ هيأنا ﴿الراسخون﴾ المتمكنون من العلم .
سَبَبُ النُّزُول : روي أن كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود قالوا يا محمد : إن كنت نبياً فأتنا بكتاب
 من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة جملةً فأنزل الله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من
 السماء . .﴾ (١) الآية .

* لَا يُجِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ
 تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ
 اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ
 الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾

التفسير : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ أي لا يحب الله الفحش في
 القول والإيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظلمه وأن يذكره بما فيه من سوء قال
 ابن عباس : المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً (١) ﴿وكان الله سميعاً
 عليماً﴾ أي سميعاً لدعاء المظلوم عليماً بالظالم ﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي إن أظهرتم
 أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عمن أساء إليكم ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ أي كان مبالغاً
 في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذه ، قال الحسن : يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن
 تقتدوا بسنة الله تعالى (٢) حث تعالى على العفو وأشار إلى أنه عفو مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم
 وعجزكم ؟ ! ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآية في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا
 بمحمد ﷺ وغيره ، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل ، وكفرهم بالرسول كفراً بالله تعالى
 ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله﴾ التفريق بين الله ورسوله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسوله ،
 وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم وقد فسره تعالى بقوله بعده ﴿ويقولون
 نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض قال قتادة : أولئك أعداء الله اليهود
 والنصارى ، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى
 وكفروا بالقرآن ومحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسوله (٣) ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك
 سبيلاً﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان ولا واسطة بينهما ﴿أولئك هم الكافرون حقا﴾ أي هؤلاء
 الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يتيقناً ولو ادعوا الإيمان ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي

(١) مجمع البيان ١٣٣/٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٤٥٢/١ . (٣) أبو السعود ٣٩٣/١ . (٤) الطبري ٣٥٤/٩ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٦﴾
يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا
مُبِينًا ﴿١٥٧﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ
وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٨﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بَعَايَتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ

هَيَّا لَنَا هَذَا عَذَابًا شَدِيدًا مع الإهانة والخلود في نار جهنم ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم﴾ أي صدقوا الله وأقروا بجميع الرسل وهم المؤمنون أتباع محمد ﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بجميعهم ﴿أولئك سوف نؤتيهم أجورهم﴾ أي سنعطهم ثوابهم الكامل على الإيمان بالله ورسوله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة ، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعتن والعناد ، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أقطع وأشنع تسلياً للنبي ﷺ للتأسي بالرسول فقال ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرننا الله جهرة﴾ أي سألوا موسى رؤية الله عز وجل عياناً ﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ أي جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وخلق البحر وغيرها قال أبو السعود : وهذه المسألة - وهي طلب رؤية الله - وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم ^(١) ﴿فعفونا عن ذلك﴾ أي عفونا عما ارتكبوه مع عظم جرميتهم وخيانتهم ﴿وأتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة ظاهرة تظهر صدقه وصحة نبوته قال الطبري : وتلك الحجة هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها ^(٢) ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ أي رفعنا الجبل فوقهم لما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة بسبب الميثاق ليقبلوه ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ أي ادخلوا باب بيت المقدس مطأطين رءوسكم خضوعاً لله فخالقوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة استهزاء ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أي لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالقوا واصطادوا ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي عهداً وثيقاً مؤكداً ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي فسبب نقضهم الميثاق لعناهم وأذلناهم و﴿ما﴾ لتأكيد المعنى ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ أي وبجحودهم بالقرآن العظيم ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿وقولهم غلبنا﴾ أي

قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٦﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبُظْلِمَ قَوْلُهُم لِلنَّبِيِّ ﷺ قُلُوبُنَا مَغْشَاةٌ بِأَغْشِيَةِ لَا تَعِي مَا تَقُولُهُ يَا مُحَمَّد ، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي بَلْ خَتَمَ تَعَالَى عَلَيْهَا بِسَبَبِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ فَلَا يُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ أَي وَبِكُفْرِهِمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا وَرَمِيهِمْ مَرْيَمَ بِالزَّانِي وَقَدْ فَضَّلَهَا اللَّهُ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أَي قَتَلْنَا هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَى سَبِيلِ « التَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ » كَقَوْلِ فِرْعَوْنَ ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وَإِلَّا فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ زَنَى وَأُمُّهُ زَانِيَةٌ وَلَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أَي وَمَا قَتَلُوا عِيسَى وَلَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ قَتَلُوا وَصَلَبُوا مَنْ أُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَّهُهُ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ : رَوَى أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَنَافِقُ لِعِيسَى فَخَرَجَ لِيَدُلَّ عَلَيْهِ فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شَبَّهُهُ فَأَخَذَ وَصُلْبَ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ عِيسَى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أَي وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي شَأْنِ عِيسَى لَفِي شَكٍّ مِنْ قَتْلِهِ ، رَوَى أَنَّهُ لَمَّا رُفِعَ عِيسَى وَأُلْقِيَ شَبَّهُهُ عَلَى غَيْرِهِ فَقَتَلُوهُ قَالُوا : إِنْ كَانَ هَذَا الْمَقْتُولُ عِيسَى فَأَيْنَ صَاحِبُنَا ؟ وَإِنْ كَانَ هَذَا صَاحِبُنَا فَأَيْنَ عِيسَى ؟ فَاخْتَلَفُوا فَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ عِيسَى وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَيْسَ هُوَ عِيسَى بَلْ هُوَ غَيْرُهُ ، فَأَجْمَعُوا أَنَّ شَخْصًا قَدْ قُتِلَ وَاخْتَلَفُوا مَنْ كَانَ (١) ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أَي مَا لَهُمْ بِقَتْلِهِ عِلْمٌ حَقِيقِي وَلَكِنْهُمْ يَتَّبِعُونَ فِيهِ الظَّنَّ الَّذِي تَخِيلُوهُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أَي وَمَا قَتَلُوهُ مُتَقِينِينَ أَنَّهُ هُوَ بَلْ شَاكِينَ مُتَوَهِّمِينَ وَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّهِمْ فَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَيًّا بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ (٢) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَي عَزِيزًا فِي مَلَكِهِ حَكِيمًا فِي صَنْعِهِ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أَي لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِعِيسَى وَبأنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ حِينَ يَعَايِنُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُهُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا يَمُوتُ يَهُودِي حَتَّى يُؤْمِنَ بِعِيسَى قِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ إِنْ ضَرَبْتَ عُنُقَ أَحَدِهِمْ ؟ قَالَ : يَلْجُلُجُ بِهَا لِسَانُهُ وَكَذَا صَحَّ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعُكْرَمَةَ وَابْنِ سِيرِينَ (٤) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أَي يَشْهَدُ عِيسَى عَلَى الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوهُ وَعَلَى النَّصَارَى بِأَنَّهُمْ دَعَوْهُ ابْنَ اللَّهِ ﴿فَبُظْلِمَ مِنْ

(١) الْبِيضَاوِيُّ ص ١٤١ . (٢) التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ ١/ ١٦٣ . (٣) مِنْهَا مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانُ (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكُنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكِيمًا عَدْلًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخَنَازِيرَ وَيُضَعُ الْحِزْيَةَ) الْحَدِيثُ وَانْظُرْ كِتَابَ « التَّصْرِيحِ بِمَا تَوَاتَرَ فِي نَزُولِ الْمَسِيحِ » لِلْكَشْمِيرِيِّ تَحْقِيقُ الْأَسْتَاذِ عَبْدِ الْفَتَّاحِ أَبُو غَدَّة . (٤) اخْتَارَ الطَّبْرِيُّ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي « قَبْلَ مَوْتِهِ » يَعُودُ عَلَى عِيسَى وَيُصْبِحُ الْمَعْنَى : لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا وَيُؤْمِنُ بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى لَمَّا يَنْزِلُ قَرَبَ السَّاعَةِ ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ هُوَ اخْتِيَارُ أَبِي السَّعُودِ وَالْكَشَّافِ وَالْجَلَالِينِ .

مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٧﴾ لَكِنَّ الرَّاخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٨﴾

الذين هادوا حرمننا عليهم طيباتٍ أحلت لهم ﴿١٦٦﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرمننا عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محللة لهم ﴿١٦٧﴾ وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴿١٦٨﴾ أي ومنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله قال مجاهد : صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق ﴿١٦٦﴾ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴿١٦٧﴾ أي تعاطيهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة ﴿١٦٨﴾ وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴿١٦٩﴾ أي بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿١٧٠﴾ وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴿١٧١﴾ أي وهياً لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجه ﴿١٧٢﴾ لكن الراسخون في العلم منهم ﴿١٧٣﴾ أي لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبد الله بن سلام وجماعته ﴿١٧٤﴾ والمؤمنون ﴿١٧٥﴾ أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب ﴿١٧٦﴾ يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴿١٧٧﴾ أي يؤمنون بالكتب والأنبياء ﴿١٧٨﴾ والمقيمِينَ الصلاة ﴿١٧٩﴾ أي أمدح المقيمِينَ الصلاة فهو نصبٌ على المدح ﴿١٨٠﴾ والمؤتون الزكاة ﴿١٨١﴾ أي المعطون زكاة أموالهم ﴿١٨٢﴾ والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿١٨٣﴾ أي والمؤمنون بوحدة الله وبالبعث بعد الموت ﴿١٨٤﴾ أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴿١٨٥﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهـم ثواباً جزيلاً على طاعتهم وهو الخلود في الجنة .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿تبدوا . . أو تخفوه﴾ وبين ﴿نؤ من . . ونكفر﴾ .
- ٢ - التعريض والتهمك في ﴿قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ قالوه على سبيل التهمك والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون برسالته .
- ٣ - زيادة الحرف لمعنى التأكيد ﴿فبما نقضهم﴾ أي فبنقضهم .
- ٤ - الاستعارة في ﴿الراسخون في العلم﴾ استعار الرسوخ للثبوت في العلم والتمكن فيه وكذلك الاستعارة في ﴿قلوبنا غلف﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك أي لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة .
- ٥ - الاعتراض في ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ رداً لمزاعمهم الفاسدة .
- ٦ - الإلتفات في ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ والأصل سيؤتيهم وتنكير الأجر للتفخيم .

٧ - المجاز المرسل في ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ حيث أطلق الكل وأريد البعض وكذلك في ﴿كفرهم بآيات الله﴾ لأنهم كفروا بالقرآن والإنجيل ولم يكفروا بغيرهما .

الضوابط : قال في التسهيل : إن قيل كيف قالوا فيه رسول الله وهم يكفرون به ويسبونونه ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدها : أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء ، والثاني : أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه كأنهم قالوا : رسول الله عندكم أو بزعمكم والثالث : أنه من قول الله لا من قولهم فيوقف قلبه وفائدته تعظيم ذنبهم وتقبيح قولهم إنا قتلناه وقوله تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ ردُّ على اليهود وتكذيبُ لهم وردُّ على النصارى في قولهم إنه صلب حتى عبدوا الصليب من أجل ذلك ، والعجب كل العجب من تناقضهم في قولهم إنه إله أو ابن إله ثم يقولون إنه صلب^(١) .

تنبيه : دلَّ قوله تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ على أن الله تعالى نجَّى رسوله عيسى من شر اليهود الخبيثاء فلم يُقتل ولم يصلب وإنما صلبوا شخصاً غيره ظنوه عيسى وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبونهم عيسى ، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل ، وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرَّع وبكى مع زعمهم أنه هو « الله » أو « ابن الله » وأنه جاء ليخلص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب ولقد أحسن من قال :

عجباً للمسيح بين النصارى	وإلى أي والدٍ نسبوه !
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد ضربه صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً	وصحيحاً فأين كان أبوه ؟
حين خلَّى ابنه رهين الأعادي	أتراهم أرضوه أم أغضبوه ؟
فلئن كان راضياً بأذاهم	فاحمدوهم لأنهم عذبوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه	واعبدوهم لأنهم غلبوه

قال الله تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين . . إلى . . والله بكل شيء عليم﴾ .
من آية (١٦٣) إلى نهاية آية (١٧٦) آخر السورة الكريمة .

المناسكة : لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح ، ذكر تعالى هنا أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان ، وأنه أرسل سائر المرسلين مبشرين ومنذرين ، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو في شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة ، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى وليس ابن زنى كما يزعم اليهود فكلا الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط ، ثم ختمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من رعاية حقوق الورثة من الأقرباء .

* إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

اللفظ: ﴿تغلو﴾ الغلو: مجاوزة الحد ومنه غلا السعر ﴿يستكف﴾ يأنف والاستنكاف الأنفة والترفع قال الزجاج: مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك ﴿برهان﴾ البرهان: الدليل والمراد به هنا المعجزات ﴿اعتصموا﴾ لاذوا ولجأوا والعصمة الامتناع ﴿الكلالة﴾ من لا ولد له ولا والد وقد تقدم.

سبب النزول: جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى قال: وأي شيء أقول فيه؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال لهم: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله قالوا: بلى فأنزل الله ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ الآية (١).

التفسير: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدم ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل الخ خص تعالى بالذكر هؤلاء تشریفاً وتعظيماً لهم وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال تعالى ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ وقدم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه والنصارى في تقديسه ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ أي وخصصنا داود بالزبور قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ (٢) ﴿ورسلنا قد قصصناهم عليك من قبل﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿ورسلنا لم نقصصهم عليك﴾ أي ورسلنا آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ أي وخص الله موسى بأن كلمه بلا واسطة ولهذا سمي التكليم، وإنما أكد ﴿تكليماً﴾ رفعا لاحتمال المجاز قال ثعلب: لولا التأكيد لجاز أن تقول: قد كلمت لك فلاناً بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولا فلما قال تكليماً لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى (٣) ﴿رسلنا مبشرين ومنذرين﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول لو أرسل إلي رسول لآمنت وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه، ثم ذكر تعالى رداً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد فقال

لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءُكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَهْأَى إِلَى مَرْيَمَ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب يعجز عنه كل بليغ ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي كفى الله شاهداً فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا عن طريق الرشاد ضلالاً بعيداً لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال فضللهم في أقصى الغايات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ قال الزمخشري : أي جمعوا بين الكفر والمعاصي ^(١) ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم ماتوا على الكفر ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مغلّدين فيها أبداً ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا يستعظمه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشرعية السمحة من عند ربكم ﴿فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي صدّقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن الإيمان خيراً لكم ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم إذ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي علماً بأحوال العباد حكماً فيما دبره لهم ، ولما ردّ تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الردّ على ضلالات النصارى في إفراطهم في تعظيم المسيح حيث عبدوه من دون الله فقال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحدّ في أمر الدين بافراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي ما عيسى إلا رسول من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾

(١) وقال الطبري : أي جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر .

وَرُوحٌ مِّنْهُ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ۚ أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ ۚ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧٦﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿٧٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ

أي وقد خلق بكلمته تعالى « كُنْ » من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿ وروحٌ منه ﴾ أي ذو روح مبتدأة من الله وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى ، وإنما أضيف إلى الله تشریفًا وتكریمًا ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ أي آمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم ، أو الله ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، فنهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزّه عن التركيب وعن نسبة المركب إليه ﴿ انتهوا خيرًا لكم ﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيرًا لكم ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أي تنزه الله عن أن يكون له ولد ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ تنبيه على غناه عن الولد أي كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولد أو معين لأنه مالك كل شيء ، ثم ردّ تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إله عن أن يكون عبداً لله ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ أي لا يستنكفون أيضاً أن يكونوا عبيداً لله ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ﴾ أي يوفيههم ثواب أعمالهم ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي بإعطائهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ﴾ أي وأما الذين أنفوا وتعظّموا عن عبادته فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً ﴿ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالعجزات الباهرة ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ﴾ أي صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ﴿ فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفضلٍ ﴾ أي سيدخلهم في جنته دار الخلود ﴿ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ أي

مِّنْهُ وَفَضِّلْ وَيَهْدِهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ ۖ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ بَيِّنْ لِلَّهِ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

يهدىهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله﴾ أي يستفتونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والد أو ولد من يرثه؟ ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ أي قل لهم من مات وليس له والد أو ولد وهي الكلاله ﴿وله أخت﴾ فلها نصف ما ترك ﴿أي وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها﴾ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴿أي وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد﴾ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ﴿أي إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما﴾ وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴿أي وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخوات فللذكر منهم مثل نصيب الأختين﴾ بَيِّنْ لِلَّهِ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴿أي بَيِّنْ لِلَّهِ لَكُمْ أَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ خَشِيَةً أَن تَضِلُّوا﴾ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿أي يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم فهو تعالى العالم بمصالح العباد في المحيا والممات .

الْبَلَاغَةُ : ١ - تخصيص بعض الأنبياء بالذكر ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ الخ للتشريف وإظهار فضل المذكورين وفيه تشبيه يسمى «مرسلاً مفصلاً» .

٢ - قوله ﴿يا أهل الكتاب﴾ اللفظ للعموم ويراد منه الخصوص وهم «النصارى» بدليل قوله بعده ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ وهي قوله النصارى .

٣ - قوله ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ فيه قصر وهو من نوع قصر موصوف على صفة .

٤ - في قوله ﴿يشهدون . . وشهيداً﴾ جناس الاشتقاق .

الفوائد: لفظة « من » تكون للتبعض وقد تأتي لابتداء الغاية كما في قوله تعالى ﴿وروح منه﴾ يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيد ناظر الإمام الواقدي ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلا هذه الآية ﴿وروح منه﴾ فقال الواقدي قال تعالى ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ فيجب إذا كان عيسى جزءاً من الله أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزءاً منه فانقطع النصراني وأسلم ، وفرح الرشيد بذلك فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة عظيمة (١) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة المائدة من السور المدنية الطويلة ، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهاب مثل سورة البقرة ، والنساء ، والأنفال ، إلى جانب موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب ، قال أبو ميسرة : المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة ^(١) .

* نزلت هذه السورة منصرفاً رسول الله ﷺ من الحديبية ، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل ، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار .

* أما الأحكام التي تناولتها السورة فنلخصها فيما يلي : « أحكام العقود ، الذبائح ، الصيد ، الإحرام ، نكاح الكتابيات ، الردة ، أحكام الطهارة ، حدّ السرقة ، حدّ البغي والإفساد في الأرض ، أحكام الخمر والميسر ، كفارة اليمين ، قتل الصيد في الإحرام ، الوصية عند الموت ، البحيرة والسائبة ، الحكم على من ترك العمل بشريعة الله » إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية .

* وإلى جانب التشريع قصّ تعالى علينا في هذه السورة بعض القصص للعظة والعبرة ، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشرذمة الباغية من « اليهود » حين قالوا لرسولهم ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ وما حصل لهم من التشرّد والضياع إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة .

* ثم قصة ابني آدم وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر ، ممثلة في قصة « قابيل وهاويل » حيث قتل قابيل أخاه هاويل وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريء الطاهر ، والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية : نموذج النفس الشريرة الأثيمة ، ونموذج النفس الخيرة الكريمة ﴿ فسوّكت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ كما ذكرت السورة قصة « المائدة » التي كانت معجزة لعيسى بن مريم ظهرت على يديه أمام الحواريين . والسورة الكريمة تعرض أيضاً لمناقشة

(١) القرطبي ٣٠/٦ .

« اليهود والنصارى » في عقائدهم الزائفة ، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وحرفوا التوراة والإنجيل ، وكفروا برسالة محمد عليه السلام إلى آخر ما هنالك من ضلالات وأباطيل ، وقد ختمت السورة الكريمة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يدعى السيد المسيح عيسى بن مريم على رءوس الأشهاد ويسأله ربه تبكيتاً للنصارى الذين عبدوه من دون الله ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ ويا له من موقف مخزٍ لأعداء الله ، تشيب لهوله الرءوس ، وتتفطر من فزعه النفوس !!

فضلهما : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها^(١) .

التسمية : سميت سورة « المائدة » لورود ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً وقصتها أعجب ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العليّ الكبير .

قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . . إلى . . . أولئك أصحاب الجحيم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللفظة : ﴿العقود﴾ أصل العقد في اللغة : الربط تقول عقدتُ الحبل بالحبل ثم استعير للمعاني قال الزمخشري : العقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل قال الخطيئة :

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم شددوا العناج وشددوا فوقه الكرباً^(٢)

﴿بهيمة الأنعام﴾ البهيمة ما لا نطق له لما في صوته من الإيهام والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿القلائد﴾ جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدي من لحاء الشجر ليُعلم أنه هدي ﴿يجرمكم﴾ يكسبكم يقال : جرم ذنباً أي كسبه وأجرم اكتسب الإثم ﴿شنآن﴾ الشنآن : البغض ﴿الموقوذة﴾ الوقذ : ضرب الشيء حتى يسترخي ويشرف على الموت ﴿النصب﴾ صنمٌ وحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده وجمعه أنصاب كذا في اللسان ﴿الأزلام﴾ القداح جمع زكَم كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة ضرب بالقداح وهو الاستقسام بالأزلام^(٣) ﴿مخمصة﴾ مجاعة لأن البطون فيها تخمض أي تضمض والخمض ضمور البطن ﴿الجوارح﴾ الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والصقر والشاهين .

سبب النزول : عن ابن عباس أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون الشعائر وينحرون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . . .﴾^(٤) الآية .

(١) أخرجه أحمد . (٢) الكشف ١/ ٤٦٦ . (٣) البحر ٣/ ٤١٠ . (٤) الطبري ٩/ ٤٦٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

النَّفْسِيرُ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم أي يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود وهو لفظ يشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وربه وبين الإنسان والإنسان قال ابن عباس : العقود العهود وهي ما أحلَّ الله وما حرَّم وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام (١) ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي أُبِيحَ لَكُمْ أَكْلُ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ بَعْدَ ذَبْحِهَا إِلَّا مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَهِيَ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ الْخ ﴿غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي أُحِلَّتْ لَكُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْتَحِلُّوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ مُحَرَّمُونَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يَقْضِي فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ لِأَنَّهُ الْحَكِيمُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي لَا تَسْتَحِلُّوا حُرُمَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَدُوا حَدُودَهُ قَالَ الْحَسَنُ : يَعْنِي شَرَائِعَهُ الَّتِي حَدَّهَا لِعِبَادِهِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ (٢) ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أي وَلَا تَسْتَحِلُّوا الشَّهْرَ الْحَرَامَ بِالْقِتَالِ فِيهِ ، وَلَا مَا أُهْدِيَ إِلَى الْبَيْتِ أَوْ قُلَّدَ بِقِلَادَةٍ لِيَعْرِفَ أَنَّهُ هَدْيٌ بِالتَّعَرُّضِ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ ﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي وَلَا تَسْتَحِلُّوا قِتَالَ الْقَاصِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ لِحَجٍّ أَوْ عَمْرَةٍ ، نَهَى تَعَالَى عَنِ الْإِغَارَةِ عَلَيْهِمْ أَوْ صَدْهِمٍ عَنِ الْبَيْتِ كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَ ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي إِذَا تَحَلَّلْتُمْ مِنَ الْإِحْرَامِ فَقَدْ أُبِيحَ لَكُمْ الصَّيْدُ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَغْضُ قَوْمٍ كَانُوا قَدْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي تَعَاوَنُوا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرَكِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَعَلَى كُلِّ مَا يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي خَافُوا

(١) هذا القول اختاره الطبري والزخشري ، والأرجح العموم فهو أمرٌ بالوفاء بكل عقد وهو اختيار صاحب البحر وجمع من المفسرين قال ابن أسلم هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين كذا في ابن كثير . (٢) القول الأول أرجح وهو اختيار الطبري لعموم الآية .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَمُوتُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

عقابه فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي حرّم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة والدم المسفوح ولحم الخنزير قال الزمخشري : كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التي تموت حتف أنفها والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون لم يحرم من فُزد - أي فصد - له ^(١) وإنما ذكر لحم الخنزير ليبين أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ما ذكر عليه غير اسم الله أو ذبح لغير الله كقولهم باسم اللات والعزى والمنخنقة هي التي تُحنق بحبلٍ وشبهه ﴿والموقوذة﴾ هي المضروبة بعصا أو حجر ﴿والمتردية﴾ هي التي تسقط من جبل ونحوه ﴿والنطيحة﴾ هي التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت بالنطح ﴿وما أكل السبع﴾ أي أكل بعضه السبع فمات ﴿إلا ما ذكيتم﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت قال الطبري معناه : إلا ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهوراً ^(٢) ﴿وما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي وما ذُبِحَ على الأحجار المنصوبة قال قتادة : النصبُ حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويدبحون لها فنهى الله عن ذلك قال الزمخشري : كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يدبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح قال في الكشف : كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معازم الأمور ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها : نهاني ربي ، وعلى بعضها أمرني ربي ، وبعضها غُفْلٌ فإن خرج الأمر مضى لغرضه وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أعاد ^(٣) ﴿ذلكم فسق﴾ أي تعاطيه فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي استأثر الله به علام الغيوب ^(٤) ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أي انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن ترجعوا عن دينكم قال ابن عباس : يئسوا أن ترجعوا إلى دينهم أبداً ﴿فلا تحشَوْهم واخلشون﴾ أي لا تخافوا المشركين ولا تهابوهم وخافون أنصركم عليهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أي أكملت لكم الشريعة ببيان الحلال والحرام ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ بالهداية والتوفيق إلى أقوم طريق ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي اخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وهو

(١) الكشف ١/٤٦٨ . (٢) الطبري ٩/٥٠٢ .

(٣) الكشف ١/٤٦٩ . (٤) هذا إذا قلنا إن الإشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام لعوده على أقرب المذكور وهو قول ابن عباس وهو الراجح واختار الطبري أن الإشارة تعود إلى المحرمات وكل صحيح .

الْإِسْلَامَ دِينًا قَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠١﴾ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورُهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴿١٠٢﴾

الدين المرضي الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿١٠٠﴾ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴿١٠١﴾ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴿١٠٢﴾ أي فمن أُلجأته الضرورة إلى تناول شيء من المحرمات المذكورة ، في مجاعة حال كونه غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك ، فإن الله لا يؤاخذ به بأكله ، لأن الضرورات تبيح المحظورات ﴿١٠٣﴾ يسألونك ماذا أحل لهم ﴿١٠٤﴾ أي يسألونك يا محمد ما الذي أحل لهم من المطاعم والمأكول ؟ ﴿١٠٥﴾ قل أحل لكم الطيبات ﴿١٠٦﴾ أي قل لهم أبيح لكم المستلذات وما ليس منها بخبيث ، وحرّم كل مستقذر كالخنافس والفئران وأشباهاها ﴿١٠٧﴾ وما علمتم من الجوارح ﴿١٠٨﴾ أي وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب ونحوها مما يُصطاد به ﴿١٠٩﴾ مكليين ﴿١١٠﴾ أي معلمين للكلاب الاصطياد قال الزمخشري : المكلب مؤدب الجوارح ورائضها واشتقاقه من الكلب لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب ﴿١١١﴾ تعلمونهن مما علمكم الله ﴿١١٢﴾ أي تعلمونهن طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد ، وهذا جزء مما علّمه الله للإنسان ﴿١١٣﴾ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴿١١٤﴾ أي فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد إذا لم تأكل منه ، فإن أكلت فلا يحل أكله لحديث (إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل ، وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسكه على نفسه) ﴿١١٥﴾ وعلامة المعلم أن يسترسل إذا أرسل ، وينزجر إذا زجر ، وأن يمسك الصيد فلا يأكل منه ، وأن يذكر اسم الله عند إرساله فهذه أربع شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلم ﴿١١٦﴾ وادكروا اسم الله عليه ﴿١١٧﴾ أي عند إرساله ﴿١١٨﴾ واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴿١١٩﴾ أي راقبوا الله في أعمالكم فإنه سريع المجازاة للعباد ﴿١٢٠﴾ اليوم أحل لكم الطيبات ﴿١٢١﴾ أي أبيح لكم المستلذات من الذبائح وغيرها ﴿١٢٢﴾ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴿١٢٣﴾ أي ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم ﴿١٢٤﴾ وطعامكم حل لهم ﴿١٢٥﴾ أي ذبائحكم حلال لهم فلا حرج أن تطعموهم وتبيعوهم لهم ﴿١٢٦﴾ والمحصنات من المؤمنات ﴿١٢٧﴾ أي وأبيح لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات ﴿١٢٨﴾ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴿١٢٩﴾ أي وزواج الحرائر من الكتابيات (يهوديات أو نصرانيات) وهذا رأي الجمهور وقال عطاء : قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذ ﴿١٣٠﴾ إذا آتيتموهن أجورهن ﴿١٣١﴾ أي إذا دفعتم لهن مهورهن ﴿١٣٢﴾ محصنين غير مسافحين ﴿١٣٣﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى ﴿١٣٤﴾ ولا متخذين

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّيْ وَاتَّقُوا اللَّهَ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَفِ إِذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنْتُمْ مُحَدَّثُونَ ﴿٦١﴾ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ أَيُّ أَيُّ غَسَلُوا الْوُجُوهَ وَالْأَيْدِي مَعَ الْمَرَافِقِ ﴿٦٢﴾ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ أَيُّ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَغَسَلُوا أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ أَيُّ مَعَهُمَا قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : وَفَائِدَةُ الْمَجِيءِ بِالْغَايَةِ ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ لِدَفْعِ ظَنٍّ مِنْ يَحْسِبُهَا مَمْسُوحَةً لِأَنَّ الْمَسْحَ لَمْ تُضْرَبْ لَهُ غَايَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ وَفِي الْحَدِيثِ (وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ) (١) وَهَذَا الْحَدِيثُ يَرُدُّ عَلَى الْإِمَامِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّ الرَّجْلَيْنِ فَرَضُهُمَا الْمَسْحُ لَا الْغَسْلُ ، وَالْآيَةُ صَرِيحَةٌ لِأَنَّهَا جَاءَتْ بِالنَّصْبِ ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فَهِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْمَغْسُولِ وَجِيءَ بِالْمَسْحِ بَيْنَ الْمَغْسُولَاتِ لِإِفَادَةِ التَّرْتِيبِ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا﴾ أَيُّ إِنْ كُنْتُمْ فِي حَالَةِ جُنَابَةٍ فَطَهَرُوا بِغَسْلِ جَمِيعِ الْبَدَنِ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أَيُّ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ وَيُضْرَكُمُ الْمَاءُ ، أَوْ كُنْتُمْ مُسَافِرِينَ وَلَمْ تَجِدُوا الْمَاءَ ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أَيُّ أَتَى مِنْ مَكَانِ الْبَرَّازِ ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أَيُّ جَامِعْتُمُوهُنَّ ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أَيُّ وَلَمْ تَجِدُوا الْمَاءَ بَعْدَ طَلْبِهِ فَاقْصِدُوا التُّرَابَ الطَّاهِرَ لِلتَّيَمُّمِ بِهِ ﴿فَاْمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أَيُّ امْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِالتُّرَابِ بِضَرْبَتَيْنِ كَمَا وَضَّحَتِ السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أَيُّ مَا يُرِيدُ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْوُضُوءِ وَالْغَسْلِ وَالتَّيَمُّمِ تَضْيِيقًا عَلَيْكُمْ ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ يَطْهَرُكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَأَدْنَسِ الْخَطَايَا بِالْوُضُوءِ وَالتَّيَمُّمِ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ بِبَيَانِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَلِتَشْكُرُوهُ عَلَى نِعْمَتِهِ الَّتِي لَا تَحْصَى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّي وَاتَّقُوا اللَّهَ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الْخُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالنِّعْمَةُ هُنَا الْإِسْلَامُ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ وَالْعِزَّةِ أَيُّ اذْكُرُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ الْعَظْمَىٰ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَعَهْدِهِ الَّي عَاهَدَكُمْ

(١) الطبري ٩/ ٥٩٠ .

(٢) الكشف ١/ ٤٧٤ .

وَأَطَعْنَا^ج وَاتَّقُوا اللَّهَ^ج إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا^ج أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ^ج وَاتَّقُوا اللَّهَ^ج إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

الْجَحِيمِ ﴿٥٣﴾

عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ﴿واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي اتقوا الله فإنه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله﴾ أي كونوا مبالغين في الاستقامة بشهادتكم لله وصيغة قوأم للمبالغة ﴿شهداء بالقسط﴾ أي تشهدون بالعدل ﴿ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم ﴿إعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها قال الزمخشري : وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحبأؤه^(١) ؟ ! ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وعد الله المؤمنين المطيعين ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ أي لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم وهو الجنة ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مآل الكافرين المجرمين وأنهم في دركات الجحيم دائمون في العذاب قال أبو حيان : وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع ، وفي الكافرين جاءت الجملة إسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصحاب النار فهم دائمون في عذاب الجحيم^(٢) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾ فيه استعارة استعار الشعيرة وهي العلامة للمتعبادات التي تعبد الله بها العباد من الحلال والحرام .

٢ - ﴿ولا القلائد﴾ أي ذوات القلائد وهي من باب عطف الخاص على العام لأنها أشرف الهدى كقوله ﴿من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال﴾ .

٣ - ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٤ - ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ أطلق العام وأراد به الخاص وهو الذبائح .

٥ - ﴿محصنين غير مسافحين﴾ بينهما طباق لأن معنى محصنين أي أعفاء ومسافحين أي زناة .

٦ - ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فعبر عن إرادة الفعل بالفعل وأقام المسبب مقام السبب للملاسة بينهما^(١) ، وفي الآية إيجاز بالحذف أيضاً أي إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون .

الفوائد : الأولى : يحكى أن أصحاب الكِنْدِيِّ - الفيلسوف - قال له أصحابه : أيها الحكيم إعمل لنا مثل هذا القرآن فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلل تحليلاً عاماً ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في مجلدات^(٢) .

الثانية : جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء الذي عبر عنه الشاعر الجاهلي بقوله :

وهل أنا إلا من غُزِيَّةٍ إن غوتُ غويتُ وأن ترشد غُزِيَّةٍ أرشد

وجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ وشتان بين المبدئين .

الثالثة : روي أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين : آية في كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ! قال أي آية تعني ؟ قال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية فقال عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ فيه ، والساعة التي نزلت فيها ، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم . . . إلى . . . فلاتأس على القوم

الفاستقين﴾ من آية (١١) إلى نهاية آية (٢٦) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام ، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام ، ذكر هنا نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام ودفع الشرور عنهم والآثام ، ثم أعقبه ببيان نعمته تعالى على أهل الكتاب « اليهود والنصارى » وأخذ العهد والميثاق عليهم ولكنهم نقضوا العهد فالزمهم الله العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، ثم دعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن ، والتمسك بشريعة خاتم المرسلين ، وترك ما هم عليه من ضلالات وأوهام .

(١) أفاده الزمخشري في الكشاف ٤٧٣/١ . (٢) القرطبي ٣١/٦ . (٣) أخرجه الشيخان .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ * وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ
أَثْنَى عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ

اللُّغَةَ : ﴿نَقِيبًا﴾ النقيب : كبير القوم الذي يبحث عن أحوالهم ومصالحهم فهو كالكفيل عن
الجماعة ﴿وعزرتموهم﴾ التعزير : التعظيم والتوقير ﴿سواء السبيل﴾ قصد الطريق ووسطه ﴿قاسية﴾
صلبة لا تعي خيراً والقاسية والعاتية بمعنى واحد ﴿خائنة﴾ خيانة ويجوز أن يكون صفة للخائن كما يقال :
رجل طاغية وراوية للحديث ﴿فأغرينا﴾ هيجنا وألزمنا مأخوذاً من الغراء ، وغري بالشيء إذا لصق به
﴿فترة﴾ انقطاع ﴿يتيهون﴾ التيه : الحيرة والضياغ .

سَبَبُ الزَّوْلِ : أراد بنو النضير أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي وأن يغدروا به وبأصحابه
فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ . .﴾ (١) الآية .

النَّفْسِيرُ : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم
بحفظه إياكم من أعدائكم ﴿إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك
﴿فكفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي عصمكم من شرهم وردَّ أذاهم عنكم ﴿واتقوا الله﴾ بامثال أوامره
واجتناب نواهيه ﴿وعلى الله فليتكول المؤمنون﴾ أي فليثق المؤمنون بالله فإنه كافيههم وناصرهم ، ثم
ذكر تعالى أحوال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من الخيانة ونقض الميثاق فقال ﴿ولقد أخذ الله ميثاق
بني إسرائيل﴾ أي عهدهم المؤكد باليمين ﴿وبعشنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي وأمرنا موسى بأن يأخذ
اثني عشر نقيباً - والنقيب كبير القوم القائم بأمورهم - من كل سبطٍ نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء
بالعهد توثقاً عليهم قال الزمخشري : لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير
إلى «أريحاء» بأرض الشام كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم : إني كتبتها لكم داراً وقراراً
فجاهدوا من فيها فإني ناصركم ، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سبطٍ نقيباً فاختار النقباء وسار بهم فلما دنا
من أرض كنعان بعثهم يتجسسون الأخبار فرأوا قوماً أجسامهم عظيمة ولهم قوة وشوكة فهابوهم ورجعوا
وحدثوا قومهم وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يرون فنكثوا الميثاق وتحذثوا إلا اثنين منهم (٢) وقال
الله إني معكم ﴿أي ناصركم ومعينكم﴾ ﴿لئن أقمت الصلاة وآتيت الزكاة﴾ اللام للقسمة أي
وأقسم لكم يا بني إسرائيل لئن أدبتم ما فرضت عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وآمنت برسلي
وعزرتموهم﴾ أي وصدقتم برسلي ونصرتموهم ومنعتموهم من الأعداء ﴿وأقرضتم الله قرصاً حسناً﴾ أي
بالإئفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ﴿لا كفرن عنكم سيئاتكم﴾ أي لأمحون عنكم ذنوبكم ، وهذا

اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا لَا كِفْرَنَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دَخْلَنَكُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۚ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

جواب القسم قال البيضاوي : وقد سُدَّ مسدَّ جواب الشرط ^(١) ﴿وَلَا دَخْلَنَكُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي من كفر بعد ذلك الميثاق ، فقد أخطأ الطريق السويّ وضلّ ضلالاً لا شبهة فيه ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق طردناهم من رحمتنا ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي جافة جافية لا تلين لقبول الإيمان ^(٢) ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ قال ابن كثير : تأولوا كتابه - التوراة - على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا على الله ما لم يقل ^(٣) ، ولا جرم أعظم من الاجترار على تغيير كلام الله عز وجل ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا نصيباً وافياً مما أمروا به في التوراة ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي لا تزال يا محمد تظهر على خيانة منهم بنقض العهود وتدبير المكائد ، فالغدر والخيانة عادتهم وعادة أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا تعاقبهم واصفح عمن أساء منهم ، وهذا منسوخ بآية السيف والجزية كما قال الجمهور ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي ومن الذين ادعوا أنهم أنصار الله وسمّوا أنفسهم بذلك أخذنا منهم أيضاً الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فتركوا ما أمروا به في الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي ألزمتنا وألصقنا بين فرق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة قال ابن كثير : ولا يزالون متباغضين متعادين ، يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وكل فرقة تمنع الأخرى دخول معبدها ^(٤) . . وهكذا نجد الأمم الغربية - وهم أبناء دين واحد - يتفتن بعضهم في إهلاك بعض ، فمن مخترع للقبلة الذرية إلى مخترع للقبلة الهيدروجينية وهي مواد مدمرة لا يمكن أن يتصور العقل ما تحدثه من تلف بالغ وهلاك شامل ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ثم قال تعالى ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

(١) البيضاوي ص ١٤٧ قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

(٢) هذا قول ابن عباس كما في البحر . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٧ . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٨ .

يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْعًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ الْمَمْلُوكَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

تهديد لهم أي سيلقون جزاء عملهم القبيح ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ الخطاب لليهود والنصارى أي يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبين لكم الكثير مما كنتم تكتُمونه في كتابكم من الإيمان به ، ومن آية الرجم ، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسحوا قرده وغير ذلك مما كنتم تخفونه ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي يتركه ولا يبيته وإنما يبين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادته على صدقه ، ولو ذكر كل شيء لفضحكم قال في التسهيل : وفي الآية دليل على صحة نبوته لأنه بين ما أخفوه في كتبهم وهو أمي لم يقرأ كتبهم ^(١) ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ أي جاءكم نور هو القرآن لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ أي يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾ أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ هودين الإسلام ، ثم ذكر تعالى إفراط النصارى في حق عيسى حيث اعتقدوا ألوهيته فقال ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ أي جعلوه إلهاً وهم فرقة من النصارى زعموا أن الله حل في عيسى ولهذا نجد في كتبهم «وجاء الرب يسوع» وأمثاله ، ويسوع عندهم هو عيسى ^(٢) ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ أي قل لهم يا محمد لقد كذبتُم فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعاً ؟ فعيسى عبد مقهور قابل للفناء كسائر المخلوقات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ولو كان إلهاً لقدر على تخليص نفسه من الموت ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي من الخلق والعجائب ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي هو قادر على أن يخلق ما يريد ولذلك خلق عيسى من غير أب ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي لا يعجزه شيء ، ثم

(١) التسهيل ١٧٢/١ . (٢) قال أبو حيان : ذكر سبحانه أن من النصارى من قال إن المسيح هو الله ، ومنهم من قال هو ابن الله ، ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة ، ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من تستر بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحظتهم إلى القول بـ « الاتحاد والوحدة » كالحلاج والصفار وابن اللباج وأمثالهم وإنما ذكرتهم نصحاً لدين الله وقد أُلغِ جُهله من ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله وأوليأؤه ، البحر المحيط ٤٤٨/٣ .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ۖ يَتَقَوَّمُ أَدْرُكُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ يَتَقَوَّمُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ

حكى عن اليهود والنصارى افتراءهم فقال ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحباؤه لأننا على دينه قال ابن كثير : أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا^(١) ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ ؟ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وافتراءكم ؟ ﴿بل أنتم بشرٌ ممن خلق﴾ أي أنتم بشر كسائر الناس وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي يغفر لمن شاء من عباده ويعذب من شاء لا اعتراض لحكمه ولا راد لأمره ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب ، ثم دعاهم إلى الإيمان بخاتم المرسلين فقال ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسل ودروس من الدين ، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ومدتها خمسمائة وستون سنة لم يُبعث فيها رسول ﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ أي لثلاث تحتجوا وتقولوا : ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ هو محمد ﷺ ﴿والله على كل شيء قدير﴾ قال ابن جرير : أي قادر على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه ، ثم ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود فقال ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل يا قوم تذكروا نعمة الله العظيمة عليكم واشكروه عليها ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾ أي حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إلى معالم الدين وجعلكم تعيشون كالمملوك لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإغراقه قال البيضاوي : لم يُبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء^(٢) ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ أي من أنواع الإنعام والإكرام من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ونحوها ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ قال البيضاوي : هي أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين^(٣) ومعنى ﴿التي كتب الله لكم﴾

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٩ . (٢) البيضاوي ص ١٤٨ . (٣) البيضاوي ص ١٤٨ .

لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَّادَامَا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

أي التي وعدكموها على لسان أبيكم إسرائيل وقضى أن تكون لكم ﴿ولا تترددوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ أي ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابة قال في التسهيل : روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهموا أن يرجعوا إلى مصر ^(١) ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين﴾ أي عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لنا على قتالهم وهم العمالة من بقايا عاد ﴿وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ أي لن ندخلها حتى يسلموها لنا من غير قتال ﴿فإن يخرجوا منها فإننا داخلون﴾ أي لا يمكننا الدخول ما داموا فيها فإن خرجوا منها دخلناها ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما﴾ أي فلما جبنوا حرصهم رجلان من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه وفيهما الصلاح واليقين ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ أي قالوا لهم لا يهولنكم عظم أجسامهم ، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فإذا دخلتم عليهم باب المدينة غلبتموهم بإذن الله ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ أي اعتمدوا على الله فإنه ناصرهم إن كنتم حقاً مؤمنين ﴿قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون﴾ وهذا إفراط في العصيان ومع سوء الأدب بعبارة تفتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله ، وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ : لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتل إنا معك مقاتلون ؟ ! ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي قال موسى حينذاك معتذراً إلى الله متبرئاً من مقالة السفهاء : يا رب لا أملك قومي ، لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التيه أربعين سنة والمعنى : قال الله لموسى إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يهتدون إلى الخروج منها ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ أي لا تحزن عليهم فإنهم فاسقون مستحقون

للعقاب قال في التسهيل : روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه^(١) .

البلاغة : ١ - ﴿أن يسطوا إليكم أيديهم﴾ بسط الأيدي كناية عن البطش والفتك ، وكف الأيدي كناية عن المنع والحبس .

٢ - ﴿وبعثنا منهم﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى المتكلم ومقتضى الظاهر وبعث وإنما التفات اعتناءً بشأنه .

٣ - ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فيه استعارة استعار الظلمات للكفر والنور للإيمان .

٤ - ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ فيه تشبيه بليغ أي كالمملوك في رغد العيش وراحة البال فحذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٥ - الطباق بين ﴿يعفر . . ويعذب﴾ .

٦ - ﴿أنعم الله عليهما﴾ جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين .

الفوائد : الأولى : إنما سميت الأرض المقدسة أي المطهرة لسكنى الأنبياء المطهرين فيها فشرفت وطهرت بهم فالظرف طاب بالظروف .

الثانية : قال بعض العارفين لبعض الفقهاء : أين تجدد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فسكت ولم يردّ عليه فتلا عليه هذه الآية ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ ففي الآية دليل على أن المحب لا يعذب حبيبه ذكره ابن كثير .

قال الله تعالى : ﴿وآتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق . . . إلى . . . ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء

قدير﴾
من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين ، ذكر قصة ابني آدم وعصيان « قابيل » أمر الله وإقدامه على قتل النفس البريئة التي حرمها الله ، فاليهود اقتفوا في العصيان أوّل عاصٍ لله في الأرض ، فطبيعة الشر فيهم مستقاة من ولد آدم الأول ، فاشتبهت القصة من حيث التمرد والعصيان ، ثم ذكر تعالى عقوبة قطع الطريق والسراق الخارجين على أمن الدولة والمفسدين في الأرض .

اللفظة : ﴿قرباناً﴾ القربان ما يُتقرب به إلى الله ﴿تبوء﴾ ترجع يقال : باء إذا رجع إلى المباءة

* وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ وَهِيَ الْمَنْزِلُ ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ سَوَّيْتُ وَهَيَّيْتُ يُقَالُ : طَاعَ الشَّيْءُ إِذَا سَهَلَ وَانْقَادَ وَطَوَّعَهُ لَهُ أَيَّ سَهْلِهِ ﴿يَبْحَثُ﴾ يَفْتَشُ وَيَنْقَبُ ﴿سَوَاءٌ﴾ السَّوَاءُ : الْعَوْرَةُ ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ كَلِمَةٌ تَحْسَرُ وَتَلْهَفُ قَالَ سَيُيَوِّهُ : كَلِمَةٌ تُقَالُ عِنْدَ الْمَلَكَةِ ﴿يَنْفُوا﴾ نَفَاهُ : طَرْدُهُ وَأَصْلُهُ الْإِهْلَاكُ وَمِنْهُ التَّفَايَةُ لِرَدْيِ الْمَنَاعِ ﴿خَزْيٌ﴾ الْخُزْيُ : الْفُضِيحَةُ وَالذِّلُّ يُقَالُ أَخْزَاهُ اللَّهُ أَيَّ فَضَحَهُ وَأَذَلَهُ ﴿الْوَسِيلَةُ﴾ كُلُّ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ﴿نِكَالًا﴾ عَقُوبَةٌ .

سَبَبُ النُّزُولِ : عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَهْطًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاجْتَنَبُوا الْمَدِينَةَ - اسْتَوْخَمُوهَا - فَبَعَثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا ، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِي النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَأَقُوا النَّعَمَ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَثَارِهِمْ فَجَاءَ بِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ وَأُلْقُوا فِي الْحَرَةِ حَتَّى مَاتُوا فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . .﴾ (١) الْآيَةُ .

التفسير : ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ اقْرَأْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْحَسَدَةَ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ خَبِرَ « قَابِيلَ وَهَابِيلَ » ابْنَيْ آدَمَ مُلْتَبِسَةً بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَذَكَرَهُمْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ فَهِيَ قِصَّةُ حَقٍّ ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ أَيُّ حِينَ قَرَّبَ كُلُّ مِنْهُمَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ هَابِيلَ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ قَابِيلَ قَالَ الْمَفْسُرُونَ : سَبَبُ هَذَا الْقُرْبَانِ أَنْ حَوَّاءَ كَانَتْ تَلِدُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرًا وَأُنْثَى وَكَانَ يَزُوجُ الذَّكَرَ مِنْ هَذَا الْبَطْنِ الْأُنْثَى مِنَ الْبَطْنِ الْآخَرِ فَلَمَّا أَرَادَ آدَمُ أَنْ يَزُوجَ قَابِيلَ أُخْتِ هَابِيلَ وَيَزُوجَ هَابِيلَ أُخْتِ قَابِيلَ رَضِيَ هَابِيلَ وَأَبَى قَابِيلَ لِأَنَّ تَوَامَتَهُ كَانَتْ أَجَلُ فَقَالَ لَهَا آدَمُ : قُرْبَا قُرْبَانًا فَمِنْ أَيْكُمَا تُقْبِلُ تَزُوجُهَا ، وَكَانَ قَابِيلَ صَاحِبَ زَرْعٍ فَقَرَّبَ أَرْدَلُ زَرْعِهِ وَكَانَ هَابِيلَ صَاحِبَ غَنَمٍ فَقَرَّبَ أَحْسَنَ كَبْشٍ عِنْدَهُ فَقَبِلَ قُرْبَانُ هَابِيلَ بَأَن نَزَلَتْ نَارٌ فَأَكَلَتْهُ فَازْدَادَ قَابِيلَ حَسَدًا وَسَخَطًا وَتَوَعَّدَهُ بِالْقَتْلِ (٢) ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أَيُّ قَالَ قَابِيلَ لِأَخِيهِ هَابِيلَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ : لَمْ ؟ قَالَ لِأَنَّهُ تَقْبِلُ قُرْبَانَكَ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ قُرْبَانِي قَالَ : وَمَا ذَنْبِي ؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ مِمَّنْ اتَّقَى رَبَّهُ وَأَخْلَصَ نِيَّتَهُ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ : تَوَعَّدَهُ بِالْقَتْلِ لِفِرْطِ الْحَسَدِ لَهُ عَلَى تَقْبِلِ قُرْبَانِهِ فَأَجَابَهُ بِأَنَّكَ أَتَيْتَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ بِتَرْكِ التَّقْوَى لَا مِنْ قِبَلِي وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ لَا تُقْبَلُ إِلَّا مِنْ مَوْءٍ مَتَّقٍ لِلَّهِ (٣) ﴿لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أَيُّ لَنْ مَدَدْتَ إِلَيَّ يَدَكَ ظَلَمًا لِأَجْلِ قَتْلِي مَا كُنْتُ لِأَقَابِلَكَ بِالْمِثْلِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْمَعْنَى : مَا أَنَا بِمُجْتَنِصٍ لِنَفْسِي ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ لَا أَمُدُّ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنِّي أَخَافُ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : قِيلَ : كَانَ هَابِيلَ أَقْوَى مِنَ الْقَاتِلِ وَلَكِنَّهُ تَحَرَّجَ عَنْ قَتْلِ أَخِيهِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ (٤) ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أَيُّ إِنْ قَتَلْتَنِي فَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَنَّكَ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ : الْمَعْنَى إِنْ سَبَقَ

(١) الفرطبي ١٤٨/٦ . (٢) الكشف ٤٨٤/١ والقرطبي ١٣٤/٦ . (٣) البيضاوي ص ١٤٩ . (٤) الكشف ٤٨٥/١ .

الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَتُوبِلَتَيَّ أُعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

بذلك قَدَّرَ فاختياري أن أكون مظلوماً ينتصر الله لي لا ظالماً^(١) وقال ابن عباس : المعنى لا أبدؤك بالقتل لترجع بإثم قتلي إن قتلتي ، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي فتصير من أهل النار ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي عقاب من تعدى وعصى أمر الله ﴿فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ أي زينت له نفسه وسهلت له قتل أخيه فقتله فخر وشقي قال ابن عباس : خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه﴾ أي أرسل الله غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض ليرى القاتل كيف يستر جسد أخيه قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر له فدفنه ، وكان ابن آدم هذا أول من قُتل ، وروي أنه لما قتله تركه بالعراء ولم يدر كيف يدفنه حتى رأى الغراب يدفن صاحبه فلما رآه قال ﴿يا ويلنا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾ أي قال قابيل متحسراً يا ويلى ويا هلاكي أضعفت أن أكون مثل هذا الطير فأستر جسد أخي في التراب كما فعل هذا الغراب ؟ ﴿فأصبح من النادمين﴾ أي صار نادماً على عدم الاهتمام إلى دفن أخيه لا على قتله قال ابن عباس : ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبةً له^(٢) ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض﴾ أي من أجل حادثة « قابيل وهابيل » وبسبب قتله لأخيه ظالماً فرضنا وحكمنا على بني إسرائيل أن من قتل منهم نفساً ظالماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إهدار الدم كالردة وقطع الطريق ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ أي فكأنه قتل جميع الناس قال البيضاوي : من حيث انه هتك حرمة الدماء وسنَّ القتل وجراً للناس عليه ، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها^(٣) ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ أي ومن تسبَّب لبقاء حياتها واستنقاذها من الهلكة فكأنه أحيا جميع الناس قال ابن عباس في تفسير الآية : من قتل نفساً واحدة حرَّمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً ومن امتنع عن قتل نفسٍ حرَّمها الله وصان حرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً^(٤) ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ أي بعدما كتبنا على بني إسرائيل هذا التشديد العظيم وجاءتهم رسلنا بالمعجزات الساطعات والآيات الواضحات ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في

(١) البحر ٤٦٣/٣ . (٢) القرطبي ١٤٢/٦ . (٣) البيضاوي ص ١٥١ . (٤) مختصر ابن كثير ٥٠٩/١ .

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ

الأرض لمسرفون ﴿٣٥﴾ أي ثم إنهم بعد تلك الزواجر كلها يسرفون في القتل ولا يبالون بعظمته قال ابن كثير : هذا تقرير لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها وقال الرازي : إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى ، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود (١) ، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطَاع الطريق فقال ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون الله ودينه وأوليائه ويحاربون رسوله ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يفسدون في الأرض بالمعاصي وسفك الدماء ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ أي يُقَتَّلُوا جِزَاءً بِغِيهِمْ ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي يُقَتَّلُوا وَيُصَلَّبُوا جِزَاءً لغيرهم ، والصيغة للتكثير ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ معناه أن تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمُ الْيَمْنَى وَأَرْجُلُهُمُ الْيَسْرَى ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يُطْرَدُوا وَيُيَعَدُّوا مِنْ بِلَدٍ إِلَى بِلَدٍ آخَرَ (٢) ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ذلك الجزاء المذكور ذلٌ لهم وفضيحة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو عذاب النار ، قال بعض العلماء : الإمام بالخيار إن شاء قتل ، وإن شاء صلب ، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل ، وإن شاء نفى وهو مذهب مالك . وقال ابن عباس : لكل رتبة من الحراقة رتبة من العقاب فمن قتل قُتِلَ ، ومن قتل وأخذ المال قُتِلَ وَصُلِبَ ، ومن اقتصر على أخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف ، ومن أخاف فقط نُفِيَ من الأرض ، وهذا قول الجمهور (٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي لكن الذين تابوا من المحاربين وقُطَاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب يقبل توبته ويغفر زلته ، ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى والعمل الصالح فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته قال قتادة : تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا بنعيم الأبد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَا تُبَلِّغُونَ﴾ أي لو كان لكل كافر جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه ﴿لَيُفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُبَلِّغُونَ مِنْهُمْ

(١) التفسير الكبير ١١/٢١١ . (٢) قال الشافعي : النفي من بلد إلى بلد لا يزال يطلب وهو هارب فزعاً وقال أبو حنيفة : النفي السجن واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه . (٣) الفخر الرازي ١١/٢١٥ .

جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبِلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

ولهم عذاب أليم ﴿٣٦﴾ أي وأراد أن يفتدي بها نفسه من عذاب الله ما نفعه ذلك وله عذاب مؤلم موجه ﴿٣٧﴾ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴿٣٨﴾ أي دائم لا ينقطع وفي الحديث (يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَلَأُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ ؟ فيقول نعم فيقال له : قد كنت سئلت ما هو أيسرُ من ذلك ألا تشرك بي فأبيت فيؤمر به إلى النار) (١) ثم ذكر تعالى عقوبة السارق فقال ﴿٣٧﴾ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴿٣٨﴾ أي كل من سرق رجلاً كان أو امرأة فاقطعوا يده ﴿٣٩﴾ جزاءً بما كسبوا ﴿٤٠﴾ أي مجازاة لهما على فعلهما القبيح ﴿٣٦﴾ نكالاً من الله ﴿٣٧﴾ أي عقوبة من الله ﴿٣٨﴾ والله عزيز حكيم ﴿٣٩﴾ أي حكيم في شرعه فلا يأمر بقطع اليد ظلماً ﴿٤٠﴾ فمن تاب من بعد ظلمه ﴿٣٦﴾ أي رجع عن السرقة ﴿٣٧﴾ وأصلح ﴿٣٨﴾ أي أصلح سيرته وعمله ﴿٣٩﴾ فإن الله يتوب عليه ﴿٤٠﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة ﴿٣٦﴾ إن الله غفور رحيم ﴿٣٧﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة ، ثم نبه تعالى على واسع ملكه وأنه لا معقّب لحكمه فقال ﴿٣٨﴾ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴿٣٩﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والملك الباهر وبيده ملكوت السموات والأرض والاستفهام للتقرير ﴿٤٠﴾ يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير ﴿٣٦﴾ أي يعذب من يشاء تعذيبه ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء .

الْبَلَاغَةُ : ١ - الطباق بين كلمة ﴿قتل . . وأحيا﴾ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين ﴿يعذب . . ويغفر﴾ .

٢ - ﴿يحاربون الله﴾ هو على حذف مضاف أي يحاربون أولياء الله لأن الله لا يُحَارَب ولا يُغَالَب فالكلام على سبيل المجاز .

٣ - الاستعارة ﴿ومن أحياها﴾ لأن المراد استبقاها ولم يتعرض لقتلها ، وإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

٤ - ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به﴾ قال الزمخشري : هذا تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه من الوجوه (٢) .

٥ - طباق السلب ﴿لئن بسطت . . ما أنا بباسط يدي﴾ .

الفوائد : الأولى : النفي من الأرض كما يكون بالطرد والإبعاد يكون بالحبس ولهذا قال مالك رحمه الله : النفي : السجنُ ينفي من سعة الدنيا إلى ضيقها قال الشاعر وهو في السجن :

خرجنا عن الدنيا وعن وصل أهلها فلسنا من الأحياء ولسنا من الموتى
إذا جاءنا السَّجان يوماً لحاجةٍ عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا^(٢)

الثانية : السرُّ في تقديم السارق على السارقة هنا وتقديم الزانية على الزاني في قوله ﴿الزانية والزاني فاجلدوا﴾ أن الرجل على السرقة أجراً ، والزنى من المرأة أشنع وأقبح فناسب ذكر كلٍ منهما المقام .

الثالثة : قال الأصمعي : قرأت يوماً هذه الآية ﴿والسارق والسارقة﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً فقال الأعرابي : كلامٌ من هذا ؟ قلت : كلام الله قال : ليس هذا بكلام الله أعيدُ فأعدت وتنبهتُ فقلت ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال : نعم هذا كلام الله فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا . قلت : فمن أين علمتَ أنني أخطأتُ ؟ فقال يا هذا : عزَّ فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع^(٣) .

الرابعة : اعترض بعض الملحدِّين على الشريعة الغراء في قطع يد السارق بالقليل من المال ونظم ذلك شعراً فقال :

يدٌ بخمسٍ مئين عسجدٍ وُديتُ ما بالها قُطعتُ في رُبُع دينار ؟
تحكَّم مالنا إلا السكوتُ له وأن نعوذَ بمولانا من النار

فأجابه بعض العلماء بقوله :

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذلُّ الخيانة فافهم حكمةَ الباري
أي لما كانت أمانة كانت ثمينة ، فلما خانت هانت ، ويا له من قول سديد .

« كلمة وجيزة حول قطع يد السارق »

يعيب بعض الغربيين على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق ويزعمون أن هذه العقوبة صارمة لا تليق بمجتمع متحضر ويقولون : يكفي في عقوبته السجن ردعاً له ، وكان من أثر هذه الفلسفة التي لا تستند على منطقٍ سليم أن زادت الجرائم وكثرت العصابات وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق الذين يهددون الأمن والاستقرار ، يسرق السارق وهو آمن مطمئن لا يخشى شيئاً اللهم إلا ذلك السجن الذي يُطعم ويكسى فيه فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه القانون الوضعي ثم يخرج منه وهو إلى الإجرام أميل وعلى الشر أقدر ، يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تعداد الجرائم وزيادتها يوماً بعد يوم ،

وذلك لقصور العقل البشري عن الوصول إلى الدواء الناجع والشفاء النافع لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة ، أما الإسلام فقد استطاع أن يقتلع الشر من جذوره ويداً واحدة تقطع كافية لردع المجرمين فيأله من تشريع حكيم !!

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ . . إِلَى . . وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ اللَّهِ حِكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١) من آية (٤١) إلى نهاية آية (٥٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قصة ابني آدم وإقدام الأخ على قتل أخيه بسبب البغي والحسد وذكر أحكام الحراة والسركة ، أعقبه بذكر أمر المنافقين وأمر اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وتربصهم به وبأصحابه الدوائر ، وأمر رسوله ﷺ ألا يحزن لما يناله من أذى من أعداء الإنسانية فالله سيعصمه من شرهم ، وينجيهم من مكرهم ، ثم ذكر ما أنزل الله من أحكام نورانية في شريعة التوراة .

اللفظة : ﴿يَحْزَنُكَ﴾ الحزن والحزن خلاف السرور ﴿السحت﴾ : الحرام سمي بذلك لأنه يسحت الطاعات أي يذهبها ويستأصلها وأصل السحت : الهلاك قال تعالى ﴿فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي يستأصلكم ويهلككم ﴿الأخبار﴾ جمع خبر وهو العالم مأخوذ من التحبير وهو التحسين ﴿وقفينا﴾ أتبعنا ﴿مهيمناً﴾ المهيمن : الرقيب على الشيء الحافظ له ، من هيمن عليه أي راقبه ويأتي بمعنى العالي والمرتفع على الشيء^(٢) ﴿شرعة﴾ الشرعة : السنّة والطريقة يقال : شرع لهم أي سنّ لهم ﴿منهاجاً﴾ المنهاج : الطريق الواضح

سبب النزول : عن البراء بن عازب قال : مرّ على النبي ﷺ بيهودي محمّاً مجلوداً فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا نعم فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيم على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿إِنْ أَوْتَيْتُمْ هَذَا فَخْذُوهُ﴾ يقولون : اتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا^(٣) .

* يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ

التفسير : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ على وجه التسلية أي لا تتأثر يا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ أي من المنافقين الذين لم يجاوزوا الإيمان أفواههم يقولون

وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ
 إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ
 لَمْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ
 أَكْثَلُونَ لِلْحَسَنِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ
 حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا

بألسنتهم آمنوا وقلوبهم كافرة ﴿ومن الذين هادوا﴾ أي ومن اليهود ﴿سماعون للكذب﴾ أي هم مبالغون
 في سماع الأكاذيب والأباطيل وفي قبول ما يفتريه أخبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه ﴿سماعون
 لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي مبالغون في قبول كلام قوم آخرين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً في
 العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر ، والسماعون للكذب بنو قريظة ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾
 أي يزِيلونه ويُمِيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام
 أخرى قال ابن عباس : هي حدود الله في التوراة غيروا الرجم بالجلد والتحميم^(١) - يعني تسويد الوجه -
 ﴿يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ أي إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا وإن أمركم
 بالرجم فلا تقبلوا قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ أي ومن يرد
 الله كفره وضلالته فلن يقدر أحداً على دفع ذلك عنه ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ أي لم
 يرد الله أن يطهر قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم ﴿لهم في الدنيا
 خزي﴾ أي ذلٌ وفضيحة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ هو الخلود في نار جهنم قال أبو حيان : والآية
 جاءت تسلياً للرسول ﷺ وتخفيفاً عنه من ثقل حزنه على مسارعته في الكفر وقطعاً لرجائه من فلاحهم^(٢)
 ﴿سماعون للكذب﴾ أي الباطل كرره تأكيداً وتفخياً ﴿أكثلون للحسنة﴾ أي الحرام من الرشوة والربا
 وشبه ذلك ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ أي إن تحاكموا إليك يا محمد فيما شجر بينهم من
 الخصومات فأنت خير بين أن تحكم بينهم وبين أن تعرض عنهم قال ابن كثير : أي إن جاءوك يتحاكمون
 إليك فلا عليك ألا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم^(٣)
 ﴿وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ أي لأن الله عاصمك وحافظك من الناس ﴿وإن حكمت فاحكم
 بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل والحق وإن كانوا ظلمةً خارجين عن
 طريق العدل لأن الله يحب العادلين ، ثم قال تعالى منكرأ عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة ﴿وكيف
 يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ أي كيف يحكمك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك

حَكَرَ اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ
بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا
تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشَوْهُمْ وَلَا تَتَسَوَّروا بِيَائَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾
وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ

وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به ؟ قال الرازي : هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه ﷺ
بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم ، فعدلوا عما
يعتقدونه حكماً حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم^(١) ثم يتولون من
بعد ذلك أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضع لهم الحق وبأن ﴿وما أولئك
بالمؤمنين﴾ أي ليسوا بمؤمنين لأنهم لا يؤمنون بكتابهم « التوراة » لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق لما
فيه قال في التسهيل : وهذا إلزام لهم لأن من خالف كتاب الله وبذلك فدعواه الإيمان باطلة^(٢) ، ثم مدح
تعالى التوراة بأنها نور وضيء فقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها
بيان واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ أي يحكم
بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿للذين هادوا﴾ أي يحكمون بالتوراة لليهود لا
يخرجون عن حكمها ولا يُبدّلونها ولا يُحرفونها ﴿والرّبّانيون والأحبار﴾ أي العلماء منهم والفقهاء ﴿بما
استحفظوا من كتاب الله﴾ أي بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿وكانوا
عليه شهداء﴾ أي رقباء لئلا يُبدّل ويُغَيَّر ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي لا تخافوا يا علماء اليهود
الناس في إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ والرجم بل خافوا مني في كتمان ذلك ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً
قليلاً﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والعرض الخسيس ﴿ومن لم يحكم بما
أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ أي من لم يحكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر وقال الزمخشري : ومن
لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصف لهم بالعنوّ في كفرهم
حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها^(٣) قال أبو حيان : والآية وإن كان
الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم^(٤) . . وكل آية وردت في الكفار
تجرّ بذيلها على عصاة المؤمنين ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ أي فرضنا على اليهود في التوراة
أن النفس تُقتل بالنفس ﴿والعين بالعين﴾ أي تُفقأ بالعين إذا فقت بدون حق ﴿والأنف بالأنف﴾ أي
يُجَدع بالأنف إذا قطع ظلماً ﴿والأذن بالأذن﴾ أي تقطع بالأذن ﴿والسن بالسن﴾ أي يقلع بالسن
﴿والجروح قصاص﴾ أي يُقتص من جانيها بأن يُفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه وهذا في الجراح التي

(١) الفخر الرازي ٢٣٦/١١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٧٨/١ . (٣) الكشف ٤٩٦/١ . (٤) البحر ٤٩٢/٣ .

قِصَاصٌ ۖ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ ۖ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ۚ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا

يمكن فيها الماثلة ولا يخاف على النفس منها ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال ابن عباس : أي فمن عفا عن الجاني وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجرٌ للطالب^(١) وقال الطبري : من تصدَّق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له أي للمتصدق ويكفر الله ذنوبه لعفوه وإسقاطه حقه^(٢) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي أتبعنا على آثار النبيين بعيسى بن مريم وأرسلناه عقيهم مصدقاً لما تقدمه من التوراة ﴿وآتيناہ الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي مُعْتَرِفاً بأنها من عند الله ، والتكرير لزيادة التقرير ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وهادياً وواعظاً للمتقين ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي وآتينا عيسى بن مريم الإنجيل وأمرناه وأتباعه بالحكم به ﴿ومَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي المتمردون الخارجون عن الإيمان وطاعة الله ﴿وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ أي مصدقاً للكتب السماوية التي سبقتها ﴿ومُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب قال الزمخشري : أي رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات^(٣) قال ابن كثير : اسم المهيم يتضمن ذلك فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كل كتابٍ قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره^(٤) ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي لا توافقهم على أغراضهم الفاسدة عادلاً عما جاءك في هذا القرآن قال ابن كثير : أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء^(٥) ﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾ أي لكل أمة جعلنا شريعة وطريقاً بيناً واضحاً خاصاً بتلك

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٥٢٢ . (٢) الطبري ١٠/ ٣٦٩ . (٣) الكشف ١/ ٤٩٧ . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٥٢٤ .

(٥) ابن كثير المختصر ١/ ٥٢٤ .

الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

الأمة قال أبو حيان : لليهود شرعة ومنهاج وللنصارى كذلك والمراد في الأحكام وأما المعتقد فواحد لجميع الناس توحيد وإيمان بالرسول وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء ^(١) ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أي لو أراد الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشرعية واحدة لا ينسخ شيء منها الآخر ﴿ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي شرع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يعرضون ، فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العصي ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم من طاعة الله واتباع شرعه ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي معادكم ومصيركم أيها الناس إلى الله يوم القيامة فيخبركم بما اختلفتم فيه من أمر الدين ويجازيكم بأعمالكم ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ أي أحكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ولا تتبع أهواءهم الزائفة ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كذبة كفرة خونة ﴿فإن تولّوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى أيتولون عن حكمك ويتغنون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية ؟ ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه ، وأصدق في بيانه ، وأحكم في تشريعه لقوم يصدقون بالعلي الحكيم !!

البلاغه : ١ - ﴿يا أيها الرسول﴾ الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتعظيم .

٢ - ﴿يسارعون في الكفر﴾ إثارة كلمة « في » على كلمة « إلى » للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه إلى بعض آخر ^(٢) .

٣ - ﴿سماعون للكذب﴾ صيغة فعال للمبالغة أي مبالغون في سماع الكذب .

٤ - ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ تنكير الخزي للتفخيم وتكرير لهم ﴿ولهم في الآخرة﴾ لزيادة التقرير والتأكيد وبين كلمتي « الدنيا والآخرة » طباق .

٥ - ﴿وكيف يحكمونك﴾ تعجيب من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون به ولا بكتابه .

٦ - ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان ببعدهم في العتو والمكابرة .
٧ - ﴿فلا تخشوا الناس﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات والأصل « فلا يخشوا » .

٨ - ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي بادروا فعل الخيرات وفيه استعارة حيث شبهه بالمتسابقين على ظهور الخيل إذ كل واحد ينافس صاحبه في السبق لبلوغ الغاية المقصودة^(١) .

الفوائد : قال الفخر الرازي : خاطب الله محمداً ﷺ بقوله ﴿يا أيها النبي﴾ في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله ﴿يا أيها الرسول﴾ إلا في موضعين أحدهما ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ والثاني في هذه السورة أيضاً وهو قوله ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشریف وتعظيم^(٢) .

تنبيه : يقول شهيد الإسلام « سيد قطب » طيب الله ثراه في تفسير الظلال ما نصه « إن الجاهلية في ضوء هذا النص القرآني البليغ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ هي حكم البشر للبشر وعبودية البشر للبشر ورفض ألوهية الله والخروج من عبوديته إلى عبودية غير الله ، إنه مفرق الطريق فلما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية ولا وسط ولا بديل ، إما أن تنفذ شريعة الله في حياة الناس أو ينفذ حكم الجاهلية وشريعة الهوى ومنهج العبودية لغير الله ، والجاهلية ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع يوجد بالأمس واليوم وغداً والناس إما أنهم يحكمون بشريعة الله ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً فهم إذا مسلمون وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر فهم في جاهلية وهم خارجون عن شريعة الله »^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء .. إلى .. وكثير منهم ساء ما يعملون﴾
من آية (٥١) إلى نهاية آية (٦٦)

المناسكة : لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق ، حذر تعالى في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى ، ثم عدّ جرائم اليهود وما اتهموا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال .

اللفظة : «دائرة» واحدة الدوائر وهي صروف الدهر ونوازلها قال الراجز :

تردُّ عنكَ القَدَرُ المَقْدُورَا ودائرتِ الدَّهْرُ أنْ تَدُورَا^(٤)

﴿حبطت﴾ بطلت وذهبت ﴿تنقمون﴾ تنكرون وتعيون ﴿السحت﴾ الحرام وقد تقدم ﴿مغلولة﴾ مقبوضة والغل : القيد يوضع في اليد وهو كناية عن البخل ، وغله وضع القيد في يده ﴿أطفأها﴾ الإطفاء : الإخماد حتى لا يبقى هناك أثر ﴿مقتصدة﴾ أي عادلة غير متغالية من القصد وهو الاعتدال .

(١) تلخيص البيان ص ٣١ . (٢) الفخر الرازي ١١ / ٢٣١ . (٣) ظلال القرآن ٦ / ١٨٣ بإيجاز . (٤) الطبري ١٠ / ٤٠٤ .

سَبَبُ النَّزُولِ : ١- عن ابن عباس قال : كان « رفاعَةُ بن زيد » و « سُوَيْدُ بن الحارث » قد أظهرَا الإسلامَ ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونها فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا... ﴾ (١) الآية .

ب - عن ابن عباس قال : جاء نفرٌ من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام ، فقال : أو من بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله « ونحن له مسلمون » فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : والله ما نعلم أهل دينٍ أقلَّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٢) الآية .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا الْفُصَيْرَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ نهى تعالى المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرهم معاشره المؤمنين (٣) ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي هم يدٌ واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال ، وملة الكفر واحدة ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أي من جملتهم وحكمه حكمهم قال الزخشي : وهذا تغليظ من الله وتشديد في مجانبه المخالف في الدين واعتزاله كما قال ﷺ (لا تراءى نارهما) (٤) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا يهديهم إلى الإيمان ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي شك ونفاق كعبد الله بن أبي وأصحابه يسارعون في مؤالاتهم ومعاونتهم ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ أي يقولون معتذرين عن موالاته الكافرين نخاف حوادث الدهر وشروره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم الأمر لمحمد قال تعالى رداً على مزاعمهم الفاسدة ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ يعني فتح مكة (٥) وهذه بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أي يهلكهم بأمر من عنده لا يكون فيه سببٌ لمخلوق كاللقاء الرعب في قلوبهم كما فعل ببني النضير ﴿ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ أي يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاته أعداء الله من اليهود والنصارى ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم ﴿ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾ أي حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الإيمان إنهم لمعكم

(١) أسباب النزول للواحي ص ١١٤ . (٢) القرطبي ٢٣٣/٦ ومجمع البيان ٢١٤/٣ . (٣) البحر ٥٠٧/٣ .

(٤) الكشف ٤٩٩/١ . (٥) هذا قول السدي وقال ابن عباس : هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين على جميع الخلق بانتصاره عليهم .

خَاسِرِينَ ﴿٥٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ءَفْءٌ فَيُؤْتِيهِمْ وَيُؤْتِيَهُمْ ءُذْلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَةً عَلَى الْكَافِرِينَ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٤﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ

بالنصرة والمعونة كما حكى تعالى عنهم ﴿وإن قوتلتهم لننصرنكم﴾ ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ خطاب على وجه التحذير والوعيد والمعنى : يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدله بدين آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر ^(١) ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ أي فسوف يأتي الله مكانهم بأناس مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ أي رحاء متواضعين للمؤمنين أشداء متعززين على الكافرين قال ابن كثير : وهذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعزراً على عدوه ^(٢) كقوله تعالى ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لئن الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين متسرلاً بالعزة حيال الكافرين والمنافقين ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لامهم فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الإفضال والإحسان عليم بمن يستحق ذلك ، ثم لما نهاهم تعالى عن موالاة الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاة فقال ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود والنصارى بأولياكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله عز وجل قال في التسهيل : ذكر تعالى الولي بلفظ المفرد إفراداً لله تعالى بهما ، ثم عطف على اسمه تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع ، ولو قال ﴿إنما أولياؤكم﴾ لم يكن في الكلام أصل وتبع ^(٣) ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي من يتول الله ورسوله والمؤمنين فإنه

(١) في الآية إعلام بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإسلام فرق كثيرة منهم من ارتد في عهد رسول الله ﷺ ومنهم من عهد أبي بكر ، وقد ارتد بنو حنيفة قوم « مسيلمة الكذاب » وكتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد : فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك فأجابه عليه السلام : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . (٢) مختصر ابن كثير ٥٢٨/١ . (٣) التسهيل ١٨١/١ .

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَٰلِكَ مُتَوَبِّعًا عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم ﴿٥٧﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُوًا ولعبًا ﴿٥٨﴾ أي لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من دينكم ويهزءون ﴿٥٨﴾ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ﴿٥٩﴾ أي من هؤلاء المستهزئين اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم تودّوهم وتحبّوهم وهم أعداء لكم ، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه بل يجب أن تبغضوه وتعادوه ﴿٥٩﴾ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴿٥٩﴾ أي اتقوا الله في موالاة الكفار والفجار إن كنتم مؤمنين حقاً ، ثم بين تعالى جانباً من استهزائهم فقال ﴿٥٩﴾ وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هُزُوًا ولعبًا ﴿٥٩﴾ أي وإذا أذنتم إلى الصلاة ودعوتهم إليها سخروا منكم ومن صلاتكم قال في البحر : حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا : ابتدعت شيئاً لم يكن للأنبياء فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت فأنزل الله هذه الآية (١) نبّه تعالى على أن من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يتخذ ولياً بل يهجر ويطرد ، وهذه الآية جاءت كالتركيب للآية قبلها ﴿٥٩﴾ ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون ﴿٥٩﴾ أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس ، ونفى العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا ﴿٥٩﴾ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا ﴿٥٩﴾ أي قل يا محمد : يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا ﴿٥٩﴾ إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ﴿٥٩﴾ أي إلا إيماننا بالله وبما جاء به رسل الله قال ابن كثير : أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعاً (٢) ﴿٥٩﴾ وأن أكثركم فاسقون ﴿٥٩﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم ﴿٥٩﴾ قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك ﴿٥٩﴾ أي هل أخبركم بما هو شر من هذا الذي تعيبونه علينا ؟ ﴿٥٩﴾ متوابعاً عند الله ﴿٥٩﴾ أي ثواباً وجزاء ثابتاً عند الله قال في التسهيل : ووضع الثواب موضع العقاب تهكماً بهم نحو قوله ﴿٥٩﴾ فبشرهم بعذاب أليم ﴿٥٩﴾ (٣) ﴿٥٩﴾ من لعنه الله ﴿٥٩﴾ أي طرده من رحمته ﴿٥٩﴾ وغضب عليه ﴿٥٩﴾ أي سخط عليه بكفره وانهاكه في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿٥٩﴾ وجعل منهم القردة والخنازير ﴿٥٩﴾ أي ومسخ بعضهم قردهً وخنازير ﴿٥٩﴾ وعبد الطاغوت ﴿٥٩﴾ أي وجعل منهم من عبد الشيطان بطاعته ﴿٥٩﴾ أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴿٥٩﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح

(١) البحر ٥١٥/٣ وقال أبو السعود عند هذه الآية : روي أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله يقول :

أحرق الله الكاذب ، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ وأهله نيام فتطايرت منه شرارة في البيت فأحرقت وأهله جميعاً أبو السعود ٤٠/٢ .

(٢) مختصر ابن كثير ٥٣٠/١ . (٣) التسهيل ١٨٢/١ .

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ^١ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١١﴾
وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتُ^٢ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ لَوْلَا
يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتُ^٣ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ
اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ^٤ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ

والفضائح شرُّ مكاناً في الآخرة وأكثر ضللاً عن الطريق المستقيم قال ابن كثير والمعنى : يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر^(١) ؟ قال القرطبي : ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم : يا إخوة القردة والخنزير فنكسوا رؤوسهم افتضاحاً وفيهم يقول الشاعر :

فلعنة الله على اليهود إن اليهود إخوة القردة^(٢)

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ الضمير يعود إلى المنافقين من اليهود أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي والحال قد دخلوا إليك كفاراً وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا بما سمعوا منك يا محمد من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ والزواجر ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من كفرهم ونفاقهم وفيه وعيد شديد لهم ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي وترى كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم ﴿وَأَكْلِهِمُ السَّحْتُ﴾ أي أكلهم الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي هلاً يزرعهم علماءهم وأحبارهم ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتُ﴾ أي عن المعاصي والآثام وأكل الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي بئس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله قال ابن عباس : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية - يعني على العلماء - وقال أبو حيان : تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعباد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله وأنشد ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملو كُ وأحبار سوء ورهبانها^(٣)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي قال اليهود اللعناء إن الله بخيل يقتّر الرزق على العباد قال ابن عباس : مغلوله أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون إنه بخيل^(٤) ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ أي أبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء قال أبو السعود : وتضييق الرزق ليس لقصور في فيضه بل لأن إنفاقه تابع

(١) ابن كثير ١/ ٥٣١ . (٢) القرطبي ٦/ ٢٣٦ . (٣) البحر المحيط ٣/ ٥٢٢ . (٤) الطبري ١٠/ ٤٥٢ .

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾

لمشيئته المبنية على الحكيم وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيق عليهم (١) ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي وليزيدنهم هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم وطغياناً فوق طغيانهم إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً قال الطبري : أعلم تعالى نبيه أنهم أهل عتو وتمرد على ربهم وأنهم لا يذعنون لحق وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه يسلي بذلك نبيه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إياه (٢) ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي ألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتى لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾ أي كلما أرادوا إشعال حرب على رسول الله ﷺ أطفاها الله ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين قال ابن كثير : أي من سجيئتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ أي لا يحب من كانت هذه صفته (٣) ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا﴾ أي لو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان واتقوا محارم الله فاجتنبوها ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ أي محونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ أي ولأدخلناهم مع ذلك في جنات النعيم ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم﴾ أي ولو أنهم استقاموا على أمر الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أنزل إليهم في هذا الكتاب الجليل الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي لوسع الله عليهم الأرزاق وأغدق عليهم الخيرات بإفاضة بركات السماء والأرض عليهم ﴿منهم أمةٌ مقتصة﴾ أي منهم جماعة معتدلة مستقيمة غير غالية ولا مقصرة ، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام والنجاشي وسلمان ﴿وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون﴾ أي وكثير منهم أشرار بشس ما يعملون من قبيح الأقوال وسوء الفعال .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ بين لفظ «أعزة» و «أذلة» طباق وهو

من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ ﴿من فوقهم﴾ و «من تحت أرجلهم» .

- ٢ - ﴿لومة لائم﴾ في تنكير لومة ولائم مبالغة لا تخفى لأن اللومة المرة من اللوم .
- ٣ - ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ هذا على سبيل التهيج .
- ٤ - ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا﴾ يسمى مثل هذا عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجباً للإنكار والنقمة مع أن الأمر بالعكس .
- ٥ - ﴿مثوبة عند الله من لعنه الله﴾ هذا من باب التهكم حيث استعملت المثوبة في العقوبة .
- ٦ - ﴿شر مكاناً﴾ نسب الشر للمكان وهو في الحقيقة لأهله وذلك مبالغة في الذم .
- ٧ - ﴿يد الله مغلولة﴾ غلُّ اليد كناية عن البخل وبسطها كناية عن الجود .
- ٨ - ﴿أوقدوا ناراً للحرب﴾ إيقاد النار في الحرب استعارة لأن الحرب لا نار لها وإنما شبهت بالنار لأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها .
- ٩ - ﴿أأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ استعارة أيضاً عن سبوغ النعم وتوسعة الرزق عليهم كما يقال : عمه الرزق من فوقه إلى قدمه .
- الفوائد :** الأولى : روي أن عمر بلغه أن كاتباً نصرانياً قد استعمله أبو موسى الأشعري فكتب إلى أبي موسى : لا تكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذ خونهم الله ، ولا تُدنوهم إذ أقصاهم الله فقال له أبو موسى : لا قوام للبصرة إلا به فقال عمر : مات النصراني فماذا تفعل^(١) .
- الثانية : قُتِلَ مسيلمة الكذاب في عهد أبي بكر على يد « وحشي » قاتل حمزة وكان يقول : قتلتُ خير الناس في الجاهلية - يريد حمزة - وشرَّ الناس في الإسلام - يريد مسيلمة الكذاب .^(٢)
- الثالثة : قال المفسرون : « عسى » من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع في خيرٍ فعله فهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به^(٣) .
- الرابعة : قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿لولا ينهاهم الربانيون﴾ فيها تحضيضٌ لعلمائهم للنهي عن ذلك فإنَّ ﴿لولا﴾ إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض^(٤) .
- ***
- قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . . . إلى . . . ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ من آية (٦٧) إلى نهاية آية (٨١) .
- المناسكَة :** لما حذر تعالى المؤمنين من موالة الكافرين ، وكانت رسالته ﷺ تتضمن الطعن في

(١) البحر ٥٠٧/٣ . (٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٠٣٤ . (٣) الرازي ١٦/ ١٢ . (٤) البيضاوي ص ١٥٦ .

أحوال الكفرة والمخالفين ، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولأتباعه أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة ، ووعدده بالحفظ والنصرة ، ثم ذكر تعالى طرفاً من عقائد أهل الكتاب الفاسدة وبخاصة النصراني الذين يعتقدون بالوهية عيسى وأنه ثالث ثلاثة ، وردّ عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع .

اللفظة : ﴿يعصمك﴾ العصمة : الحفظ والحماية ﴿طغياناً﴾ الطغيان : تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه ﴿تأس﴾ تحزن يقال : أسى يأسى ، والأسى : الحزن قال :
وانحلبت عيناه من فرط الأسى^(١)

﴿خلت﴾ مضت ﴿صديقة﴾ الصديق : المبالغ في الصدق وفِعِيل من أبنية المبالغة كما يقال رجل سيكيت أي مبالغ في السكوت وسيكّر أي كثير السكر ﴿يؤفكون﴾ يُصرفون عن الحق يقال : أفكه إذا صرفه ومنه ﴿أجئتنا لتأفكنا﴾ ﴿تغلو﴾ الغلو : التجاوز في الحد والتشدد في الأمر يقال : غلا في دينه غلواً تشدد فيه حتى جاوز الحد .

سبب النزول : أ - عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : (لما بعثني الله برسالته ضقتُ بها ذرعاً وعرفتُ أن من الناس من يكذبني فأنزل الله ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾^(٢) الآية) .

ب - وعن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : ألسنتُ تُقرُّ أن التوراة حقٌّ من عند الله ؟ قال : بلى فقالوا : فإننا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها فأنزل الله ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل . . .﴾^(٣) الآية .

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ^ط وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ^ع وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ^ع

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

التفسير : ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ هذانداءٌ تشریف وتعظيم ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربانية أي بلغ رسالة ربك غير مراقب أحداً ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ قال ابن عباس : المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك فإن كنت شيئاً منه فما بلغت رسالته ، وهذا تأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته ﴿والله يعصمك من الناس﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء قال الزمخشري : هذا وعدٌ من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى : والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرُك في مراقبتهم ؟ روي أن رسول الله ﷺ كان يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة آدم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله عز وجل^(٤) ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قضي له بالكفر لا يهتدي أبداً ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي قل يا محمد هؤلاء اليهود والنصارى

(١) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٢) أسباب النزول ص ١١٥ . (٣) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٤) القرطبي ٦/ ٢٤٢ . (٥) الكشف ١/ ٥١٤ .

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ

لستم على شيء من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتقيموا أحكامهما على الوجه الأكمل ، ومن إقامتهما الإيمان بمحمد ﷺ ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ قال ابن عباس : يعني القرآن العظيم ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ اللام للقسم أي وأقسم ليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم غلواً في التكذيب وجحوداً لنبوتك^(١) وإصراراً على الكفر والضلال ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي لا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتهم ودأبهم ، وهذه تسلية للنبي ﷺ وليس ينهي عن الحزن^(٢) ثم قال تعالى ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله وهم المسلمون ﴿والذين هادوا﴾ وهم اليهود ﴿والصابغون﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب ﴿والنصارى﴾ وهم أتباع عيسى ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾ أي من آمن من هؤلاء المذكورين إيماناً صحيحاً خالصاً لا يشوبه ارتياب بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً يقربه من الله ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فلا خوفٌ عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا بعد معاينتهم جزيل ثواب الله^(٣) قال ابن كثير : والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وعملت عملاً صالحاً - ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين - فمن اتصف بذلك فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما تركوه وراء ظهورهم^(٤) ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله ورسوله قال في البحر : هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم وما اجتراحه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم ، وهؤلاء أخلاف أولئك فغير بدع ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شنيئة من أسلافهم^(٥) ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ أي أرسلنا لهم الرسل ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ أي كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف أهواءهم وشهواتهم ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ أي كذبوا طائفة من الرسل يقتلون طائفة أخرى منهم قال البيضاوي : وإنما جيء بـ « وقتلوا » موضع « قتلوا » على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظَةً على رءوس الآي^(٦) ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنه﴾ أي وظن بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاءٌ وعذاب بقتل الأنبياء

(١) الطبري ٤٧٤/١٠ . (٢) القرطبي ٢٤٥/٦ . (٣) الطبري ٤٧٦/١٠ . (٤) مختصر ابن كثير ٥٣٥/١ . (٥) البحر ٥٣١/٣ .

(٦) البيضاوي ص ١٥٧ .

اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِيْ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكِ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَتَكْذِيبِ الرِّسْلِ اغْتِرَاراً بِإِمْهَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ أي تمادوا في الغي والفساد فعموا عن الهدى وصموا عن سماع الحق وهذا على التشبيه بالأعمى والأصم لأنه لا يهتدي إلى طريق الرشدي في الدين لإعراضه عن النظر ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ قال القرطبي : في الكلام إضمار أي أوقعت بهم الفتنة فتابوا فتاب الله عليهم ^(١) ﴿ثم عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أي عمي كثير منهم وصم بعد تبين الحق له ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي عليم بما عملوا وهذا وعيد لهم وتهديد ، ثم ذكر تعالى عقائد النصارى الضالة في المسيح فقال ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ قال أبو السعود : هذا شروع في تفصيل قبائح النصارى وإبطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء الذين قالوا إن مريم ولدت إلهاً هم «اليعقوبية» زعموا أن الله تعالى حل في ذات عيسى واتحد به ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ^(٢) ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي أنا عبدٌ مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم الذي يذل له كل شيء ويخضع له كل موجود قال ابن كثير : كان أول كلمة نطق بها وهو صغير أن قال ﴿إني عبد الله﴾ ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله بل قال ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ ^(٣) وقال القرطبي : ردَّ الله عليهم ذلك بحجة قاطعة مما يُقرُّون به فقال ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ فإذا كان المسيح يقول : يا رب ، ويا الله فكيف يدعون نفسه أم كيف يسألها ؟ هذا محال ^(٤) ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ أي من يعتقد بالوهية غير الله فلن يدخل الجنة أبداً لأنها دار الموحدين ﴿ومأواه النار﴾ أي مصيره نار جهنم ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي فلا ناصر ولا منقذ له من عذاب الله ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ أي أحد ثلاثة آلهة وهذا قول فرقة من النصارى يسمون «النسطورية والملكانية» القائلين بالتثليث وهم يقولون : إن الإلهية مشتركة بين الله ، وعيسى ، ومريم وكل واحدٍ من هؤلاء إله ولهذا اشتهر قولهم «الأب والابن وروح القدس» ^(٥) ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ أي والحال أنه ليس في الوجود إلا إله واحدٌ موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن المثل والنظير ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾ أي وإن لم يكفوا عن القول بالتثليث ﴿ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ أي ليمسَّنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾

(١) القرطبي ٢٤٨/٦ . (٢) أبو السعود ٤٩/٢ . (٣) ابن كثير ٥٣٦/١ .

(٤) القرطبي ٢٤٩/٦ . (٥) قال السدي : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار وقال في البحر : يقولون جوهر واحد وثلاثة أقانيم «أب وابن وروح قدس» وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد ، وهذا معلوم البطلان ببداهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحداً وإن الواحد لا يكون ثلاثة .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٦﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿١٧٧﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۗ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٧٨﴾ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١٧٩﴾

الاستفهام للتوبيخ أي أفلا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول ؟ ﴿والله غفور رحيم﴾ أي يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا قال البيضاوي : وفي هذا الاستفهام ﴿أفلا يتوبون﴾ تعجب من إصرارهم على الكفر ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل﴾ أي ما المسيح إلا رسولٌ كالرسل الخالية الذين تقدموه خصه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خص بعض الرسل ، فإن أحياء الموتى على يده فقد أحيى العصا في يد موسى . وجعلت حية تسعى وهو أعجب ، وإن خلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب ، وكل ذلك من جنبه عز وجل وإنما موسى وعيسى مظاهر شئونه وأفعاله ﴿وأمه صديقة﴾ أي مبالغة في الصدق ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ أي أنه مخلوق كسائر المخلوقين مركب من عظم ولحم وعروق وأعصاب وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لا بد أن يكون في حاجة إلى إخراجِه ومن يكن هذا حاله فكيف يُعبد ، أو كيف يُتوهم أنه إله ؟ ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ تعجب من حال الذين يدعون ألوهيته هو وأمه أي أنظر كيف نوضح لهم الآيات الباهرة على بطلان ما اعتقدوه ﴿ثم انظر أتى يؤفكون﴾ أي كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النهار ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً﴾ أي قل يا محمد أتوجهون عبادتكم إلى من لا يقدر لكم على النفع والضرر ؟ (١) ﴿والله هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وتضمنت الآية الإنكار عليهم حيث عبدوا من هو متصف بالعجز عن دفع ضرر أو جلب نفع ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم وتفرطوا كما أفرط أسلافكم فتقولوا عن عيسى إنه إله أو ابن إله قال القرطبي : وغلو اليهود قولهم في عيسى إنه ليس ولد رُسْدة - أي هو ابن زنا - وغلو النصارى قولهم إنه إله (٢) ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي لا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبي ﷺ ﴿وأضلوا كثيراً﴾ أي أضلوا كثيراً من الخلق باغوائهم لهم ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي ضلوا عن الطريق الواضح المستقيم قال القرطبي : وتكرير ضلوا للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد ، والمراد الأسلاف الذين سبوا

(١) قال في البحر : لما بين تعالى بدليل النقل والعقل انتفاء الألوهية عن عيسى ودعاهم للتوبة وطلب الغفران أنكر عليهم ووبخهم من وجه آخر وهو عجز عيسى على دفع ضرر وجلب نفع وأن من كان لا يدفع عن نفسه حري أن لا يدفع عنكم ؛ البحر ٣/ ٥٣٨ . (٢) القرطبي

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا
قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾

الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى^(١) ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله عز وجل في الزبور ، والإنجيل قال ابن عباس : لعنوا بكل لسان ، لعنوا على عهد موسى في التوراة ، وعلى عهد داود في الزبور ، وعلى عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد محمد في القرآن^(٢) قال المفسرون : إن اليهود لما اعتدوا في السبب دعا عليهم داود فمسخهم الله قرده ، وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى دعا عليهم عيسى فمسخوا خنازير ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ، ثم بيّن تعالى حالهم الشنيع فقال ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح فعلوه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي بشس شيئاً فعلوه قال الزمخشري : تعجيب من سوء فعلهم مؤكداً بالقسم فيا حسرتا على المسلمين في إغراضهم عن التناهي عن المنكر كأنه ليس من الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله من المبالغات في هذا الباب^(٣) وقال في البحر : وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر ، والتجاهر به ، وعدم النهي عنه ، والمعصية إذا فعلت ينبغي أن يُستتر بها لحديث (من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر) فإذا فعلت جهاراً وتواطأ الناس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فعلها وسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها^(٤) ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ترى كثيراً من اليهود يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين والمراد «كعب بن الأشرف» وأصحابه ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي بشس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا هو المخصوص بالذم أي بشس ما قدموه لآخرتهم سخط الله وغضبه عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي وفي عذاب جهنم مخلدون أبد الأبدين ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدقون بالله ونبِيِّهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله عز وجل .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ في هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه^(٥) .

٢ - ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أضاف الاسم الجليل إليهم تلطفاً معهم في الدعوة .

٣ - ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لم يقل عليهم وإنما وضع الظاهر مكان الضمير للتسجيل

(١) القرطبي ٢٥٢/٦ . (٢) البحر ٣/٥٣٩ . (٣) الكشف ١/٥١٩ . (٤) البحر ٣/٥٤٠ . (٥) أبو السعود ٤٦/٢ .

عليهم بالرسوخ في الكفر .

٤ - ﴿والله بصير بما يعملون﴾ صيغة المضارع بدل الماضي ﴿بما عملوا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ومراعاةً لرئوس الآيات .

٥ - ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتحويل الأمر وتربية المهابة .

٦ - الاستعارة ﴿فعموا وصموا﴾ استعار العمى والصمم للإعراض عن الهداية والإيمان

٧ - ﴿انظر كيف نبين﴾ ثم انظر أنني يؤفكون﴾ قال أبو السعود : تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ «ثم» لإظهار ما بين العجبيين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمرٌ بديع بالغ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق وإعراضهم عنها أعجبٌ وأبدعٌ^(١) .

٨ - ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ تقبيحٌ لسوء أعمالهم وتعجيبٌ منه بالتوكيد مع القسم .

الفوائد : قال بعض المحققين في قوله تعالى ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً﴾ إذا كان هذا في حق عيسى النبي فما ظنك بولي من الأولياء هل يملك لهم نفعاً أو ضرراً ؟ !

تنبية : قال ابن كثير : دلت الآية ﴿وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ على أن مريم ليست بنبيّة كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة «سارة» ونبوة «أم موسى» استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ وحكى الأشعري الإجماع على ذلك^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود . . إلى . . واتقوا الله الذي إليه تُحْشَرُونَ﴾

المناسكة : لما ذكر تعالى أحوال اليهود والنصارى وما هم عليه من الزيغ والضلال ، ذكر هنا أنَّ اليهود في غاية العداوة للمسلمين ، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة ، وذكر أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم ، ثم لما استقصى المناظرة مع أهل الكتاب عاد إلى بيان الأحكام الشرعية فذكر منها كفارة اليمين ، وتحريم الخمر والميسر ، وجزاء قتل الصيد في حالة الإحرام .

اللفظة : ﴿قَسَّيْسِينَ﴾ القَسُّ والقَسْيَس اسم لرئيس النصارى ومعناه العالم ﴿رهباناً﴾ جمع راهب وأصله من الرهبة بمعنى المخافة ، والرهبانية والترهب التبعُد في الصومعة^(٣) ﴿تفيض﴾ الفيض أن يمتلئ الإناء ويسيل من شدة الامتلاء يقال : فاض الماء وفاض الدمع قال الشاعر :

ففاضتْ دموعُ العينِ منِّي صَبَابَةً على النحرِ حتى بلَّ دمعِي مَحْمَكِي

(١) أبو السعود ٥٠ / ٢ . (٢) ابن كثير ٥٣٧ / ١ . (٣) القرطبي ٢٥٨ / ٦ .

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا^ط وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي^ج ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّي^سينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ^{٨٧} وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ^{٨٨}

﴿رجس﴾ قال الزجاج : الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل ويقال للعذرة والأقذار رجس لأنها قذارة ونجاسة ﴿الجحيم﴾ النار الشديدة الاتقاد ﴿الصيد﴾ كل ما يصطاد من حيوانٍ وطيْرٍ وغيره فالصيد يطلق على المصيد قال الشاعر :

صيدُ الملوكِ أرانبٌ وُثْعالبٌ وإذا ركبْتُ فصيدي الأبطالُ

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني إذا أكلت هذا اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي وإني حرّمت عليّ اللحم فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾^(١) الآية .

ب - عن أنس قال : كنتُ ساقِي القوم يوم حرّمت الخمر في بيت « أبي طلحة » وما شراهم إلا الفضيخ والبسر والتمر ، وإذا منادٍ ينادي إن الخمر قد حرّمت قال : فأريقت في سكك المدينة فقال أبو طلحة إذهب فأهرقها فقال بعض القوم قُتل قومٌ وهي في بطونهم فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا﴾^(٢) .

التفسير : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ اللام للقسام أي قسماً لتجدن يا محمد اليهود والمشركين أشدَّ الناس عداوةً للمؤمنين ﴿ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾ نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه قال الزمخشري : وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق ، ولين عريكة النصاري وسهولة ميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبّه على زيادة عداوتهم بتقديمهم على الذين أشركوا^(٣) ﴿ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً﴾ تعليل لقرب مودتهم أي كونهم أقرب مودة بسبب أن منهم علماء وعُباداً ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ أي يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود قال البيضاوي : وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات ، محمود وإن كان من كافر^(٤) ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ أي إذا سمعوا القرآن المنزّل على محمد رسول الله ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ أي فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله لركة قلوبهم وتأثرهم بكلام الله الجليل ﴿مما عرفوا من الحق﴾ أي من أجل معرفتهم أنه كلام الله وأنه حق ﴿يقولون ربنا آمنا﴾ أي يقولون يا ربنا صدقنا بنبيك وكتابك ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي مع أمة محمد عليه السلام الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة قال ابن

(١) أسباب النزول ١١٧ والقرطبي ٦ / ٢٦٠. (٢) القرطبي ٦ / ٢٩٣ وأسباب النزول ١٢٠. (٣) الكشاف ١ / ٥٢١. (٤) البيضاوي ص ١٥٩.

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ^١ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا^٢ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا^٣ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ^٤ فَكَفَرْتُمْ^٥ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ

عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم « جعفر بن أبي طالب » بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم^(١) ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ أي ما الذي يمنعنا عن الإيمان ويصدنا عن اتباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير ؟ قالوا ذلك في جواب من عيَّهم بالإسلام من اليهود قال في البحر : هذا إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان منهم مع قيام موجب وهو عرفان الحق^(٢) ﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين من عباده الأبرار ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ أي جازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ أي ذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيته ، ثم أخبر تعالى عن حال الأشقياء فقال ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي جحدوا بآيات الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ فهم أهل الجحيم المعذبون فيها قال أبو السعود : وذكرهم بمقابلة المصدقين بآيات الله جمعاً بين الترغيب والترهيب^(٣) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ روى الطبري عن عكرمة قال : كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ هموا بالخِصاء وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية^(٤) أي لا تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرَّمنها على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزهداً ﴿ولا تعتدوا﴾ أي ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي يبغض المتجاوزين الحد ، والإسلام يدعو إلى القصد بدون إفراط أو تفريط ولهذا قال ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي كلوا ما حلَّ لكم وطاب مما رزقكم الله قال في التسهيل : أي تمتعوا بالماكل الحلال وبالنساء وغير ذلك ، وإما خص الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإنسان^(٥) ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ هذا استدعاء إلى التقوى بالطف الوجه كأنه يقول : لا تضيّعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عز وجل فتكون عليكم الحسرة العظمى فإن الإيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم لا والله ،

(١) ابن كثير ١/ ٥٣٩ (٢) البحر ٤/ ٦ . (٣) أبو السعود ٢/ ٥٥ . (٤) الطبري ١٠/ ٥١٤ . (٥) التسهيل ص ١٨٦ .

مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ مَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ

وبلى والله ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي ولكن يؤاخذكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أي كفارة اليمين عند الحنث أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تطعمون منه أهليكم قال ابن عباس : أي من أعدل ما تطعمون أهليكم وقال ابن عمر : الأوسط الخبز والتمر ، والخبز والزبيب ، وخير ما تطعم أهلنا الخبز واللحم^(١) ﴿أو كسوتهم﴾ أي كسوة المساكين لكل مسكين ثوب يستر البدن ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي إعتاق عبد مملوك لوجه الله قال في البحر : وأجمع العلماء على أن الحانث مُحَيَّرٌ بين الإطعام والكسوة والعتق^(٢) ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام^(٣) ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتُمْ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أي احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا للضرورة قال ابن عباس : أي لا تحلفوا وقال ابن جرير : أي لا تتركوها بغير تكفير ﴿كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ قال ابن عباس : الخمر جميع الأشربة التي تُسكر ، والميسر القمار كانوا يتقمارون به في الجاهلية ﴿والأنصاب والأزلام﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخُدَّام الأصنام قال ابن عباس ومجاهد : الأنصاب حجارة كانوا يذبحون قرايبنهم عندها والأزلام : قداح كانوا يستقسمون بها^(٤) ﴿رجسٌ من عمل الشيطان﴾ أي قدر ونجسٌ تعافه العقول ، وخبيثٌ مستقذر من تزيين الشيطان ﴿فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم ﴿إنما يُريدُ الشيطان أن يُوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم بالقمار ﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ أي ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي هي عماد دينكم قال أبو حيان : ذكر تعالى في الخمر والميسر مفسدتين : إحداها دنيوية ، والأخرى دينية ، فأما الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتثول بشاربها إلى التقاطع ، وأما الميسر فإن الرجل لا

(١) ابن كثير ٥٤٣/١ . (٢) البحر ١١/٤ . (٣) شرط الاحناف والحنابلة التابع في الأيام وقال الشافعي ومالك لا يجب التابع واختار الطبري أنه كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزاءه كذا في الطبري ٥٦٢/١٠ . (٤) البحر المحيط ١٤/٤ .

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ
 الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ شَيْئًا مِّنَ
 الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾
 يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شيء له وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده ، وأما الدينية فالخمر لغلبة
 السرور والطرب بها تلهي عن ذكر الله وعن الصلاة ، والميسر - سواء كان غالباً أو مغلوباً - يلهي عن ذكر
 الله ^(١) ﴿فهل أنتم منتهون﴾ الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر أي انتهوا ولذلك قال عمر : انتهينا ربنا انتهينا
 قال في البحر : وهذا الاستفهام من أبلغ ما يُنهى به كأنه قيل : قد ثلّي عليكم ما فيهما من المفسد التي
 توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم ^(٢) ؟ ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا﴾ أي
 أطيعوا أمر الله وأمر رسوله واحذروا مخالفتها ﴿فإن توليتم﴾ أي أعرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله
 ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي ليس عليه هدايتكم وإنما عليه تبليغكم الرسالة وجزاءكم علينا
 قال الطبري : وهذا من الله وعيد لمن تولى عن أمره ونهيه يقول تعالى ذكره لهم : فإن توليتم عن أمري ونهي
 فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي ^(٣) وقال أبو حيان : وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمن أن
 عقابكم إنما يتولاه المرسل لا الرسول ^(٤) ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا﴾ قال
 ابن عباس : لما نزل تحريم الخمر قال قوم كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر فنزلت فأخبر تعالى أن
 الإثم والذم إنما يتعلق بفعل المعاصي والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا
 الصالحات﴾ أي ليس عليهم جناحٌ فيما تناولوه من المأكول والمشروب إذا اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان
 والأعمال الصالحة ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ أي اتقوا المحرم وآمنوا بتحريمه بمعنى اجتنبوا ما حرمه الله معتقدين
 حرمة ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ أي ثم استمروا على تقوى الله واجتناب المحارم وعملوا الأعمال الحسنة
 التي تقر بهم من الله ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب المتقربين إليه بالأعمال الصالحة قال في التسهيل :
 كرر التقوى مبالغة وقيل : الرتبة الأولى : إتقاء الشرك ، والثانية : إتقاء المعاصي ، والثالثة : إتقاء ما لا بأس به
 حذراً مما به البأس ^(٥) ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبْلُوَنَّكم اللهُ شَيْئًا مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي
 ليختبرنكم الله في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنال صغاره الأيدي وكباره الرماح قال
 البيضاوي : نزل في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى : بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم
 بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعنأ برماحهم وهم محرمون ^(٦) قال في البحر : وكان الصيد مما
 تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة ^(٧) ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾

(١) (٢) البحر المحيط ١٥/٤ . (٣) الطبري ١٥/١٠ . (٤) البحر ١٥/٤ .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٧/١ . (٦) البيضاوي ص ١٦٠ . (٧) البحر ١٦/٤ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

أي لِيَتَمِيزَ الْخَائِفُ مِنَ اللَّهِ بِطَرِيقِ الْغَيْبِ لِقُوَّةِ إِيمَانِهِ مَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ لضعفِ إيمانه ﴿فَمَنْ اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليمٌ﴾ أي فمن تعرّض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار فله عذابٌ مؤلمٌ موجهٌ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحجٍّ أو عمرة ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ أي من قتل الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاءٌ مماثلٌ ما قتل من النعم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي يحكم بالمثُلِ حكمان عادلان من المسلمين ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي حال كونه هدياً يُنَحَرُ وَيُتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى مَسَاكِينِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلصَّيْدِ مِثْلٌ مِنَ النَّعْمِ كَالْعَصْفُورِ وَالْجُرَادِ فَعَلَيْهِ قِيَمَتُهُ ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينٍ﴾ أي وإذا لم يجد المحرم مثلاً ما قتل من النعم فَيَقْوَمُ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ ثُمَّ يُشْتَرَى بِهِ طَعَامٌ فَيَصْرَفُ لِكُلِّ مَسْكِينٍ مَدٌّ مِنْهُ ﴿أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي عليه مثل ذلك الطعام صياماً يصومه عن كل مدٍّ يوماً لِيَذُوقَ سُوءَ عَاقِبَةِ هَتَكَه لِحُرْمَةِ الْإِحْرَامِ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ : عَدَّدَ تَعَالَى مَا يَجِبُ فِي قَتْلِ الْمَحْرَمِ لِلصَّيْدِ ، فَذَكَرَ أَوَّلًا الْجَزَاءَ مِنَ النَّعْمِ ، ثُمَّ الطَّعَامَ ، ثُمَّ الصِّيَامَ وَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَالْجُمْهُورُ أَنَّهَا عَلَى التَّخْيِيرِ وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْعَطْفُ بـ « أَوْ » وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا عَلَى التَّرْتِيبِ ^(١) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أي غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ مُنْتَقِمٌ مِمَّنْ عَصَاهُ ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ أي أَحَلَّ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ صَيْدَ الْبَحْرِ سِوَاءَ كُنْتُمْ مُحْرَمِينَ أَوْ غَيْرَ مُحْرَمِينَ ﴿وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي وَمَا يُطْعَمُ مِنْ صَيْدِهِ كَالسَّمَكِ وَغَيْرِهِ مَنْفَعَةً وَقَوَاتًا لَكُمْ وَزَادًا لِلْمَسَافِرِينَ يَتَزَوَّدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾ أي وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ مُحْرَمِينَ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي خَافُوا اللَّهَ الَّذِي تَبْعَثُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَهُوَ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ .

الْبَلَاغَةُ : ١ - بين لفظاً عداوة . . ومودة ﴿طَبَاقٌ وَهُوَ مِنَ الْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعَةِ .

٢ - ﴿تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي تَمَتَّلَى بِالدَّمْعِ فَاسْتَعِيرَ لَهُ الْفِيضُ الَّذِي هُوَ الْانْصِبَابُ

عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها^(١) .

٣ - ﴿تحرير رقبة﴾ مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق إنسان .

٤ - ﴿فهل أنتم متهون﴾ الاستفهام يراد به الأمر أي انتهوا وهو من أبلغ ما يُنهى به قال أبو السعود : ولقد أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صُدّرت الجملة بـ «إنما» وقرنا بالأصنام والأزلام ، وسُمّي رجساً من عمل الشيطان ، وأمر بالاجتناب عن عينيها وجعل ذلك سبباً للفلاح ، ثم ذكر ما فيهما من المفساد الدنيوية والدينية ، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام ﴿فهل أنتم متهون﴾ إيذاناً بأن الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى^(٢) .

فكائِدَة : التعبير بقوله تعالى ﴿فاجتنبوه﴾ نصٌّ في التحريم ولكنه أبلغ في النهي والتحريم من لفظ «حُرِّمَ» لأن معناه البعد عنه بالكلية فهو مثل قوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ لأن القرب منه إذا كان حراماً فيكون الفعل محرماً من باب أولى وكذلك هنا .

تنبيه : لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام الشرعية إلا بالإيجاز أما هنا فقد ذكرت العلة بالتفصيل فذكر تعالى منها إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، والصدّ عن سبيل الله وذكره ، وشغل المؤمنين عن الصلاة ، ووصف الخمر والميسر بأنها رجس وأنها من عمل الشيطان وأن الشيطان يريد إغواء الإنسان وكل ذلك ليشير إلى ضرر وخطر هاتين الرذيلتين «القمار والخمر» فتدبر أسرار القرآن العظيم^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . إلى قوله .. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١٠٨) .

المناسكَة : لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أن الصيد على المحرم حرام ، ونهى عن قتل الطير والوحش في حالة الإحرام ، ذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس إذ ركّز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى لأحد ، فكما أن الحرم سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة .

اللفكَة : ﴿البحيرة﴾ من البحر وهو الشق قال أبو عبيدة : وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن في آخرها ذكرٌ شقوا أذنها وخلّوا سبيلها فلا تُركب ولا تُحلب^(٤) ﴿السائبة﴾ البعير يسيّب بنذرٍ ونحوه ﴿وصيلة﴾ الوصيلة من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن وكان السابع ذكراً وأنثى قالوا قد وصلت

(١) انظر حاشية الكشف ١/ ٥٢١ . (٢) أبو السعود ٢/ ٥٦ . (٣) روائع البيان ١/ ٥٦٢ . (٤) البحر ٤/ ٢٨ .

أخاها فلم تُذبح^(١) ﴿حام﴾ : الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال قد حمى ظهره فلا يُركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء ﴿عثر﴾ ظهر يقال : عثرت منه على خيانة أي اطلعت وظهرت لي ﴿الأوليان﴾ تشنية أولى بمعنى أحق .

سَبَبُ النَزُولِ : أ - عن ابن عباس قال : كان قومٌ يسألون النبي ﷺ استهزاء فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . .﴾ الآية^(٢) .

ب - وعن ابن عباس قال : كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من « بني سهم » فتوفي بأرض ليس بها مسلم ، فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبساً جاماً من فضة مخصوصاً بالذهب ، فاستحلفهما رسول الله ﷺ ما كتمتما ولا اطلعتما !! ثم وجد الجاهل بمكة فقالوا : اشتريناه من عدي وقيم فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجاهل للسهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا فأخذوا الجاهل وفيهم نزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم . . .﴾ الآية^(٣) .

* **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٩٧﴾ **أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿٩٨﴾ **مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** ﴿٩٩﴾ **قُلْ لَا يَسْتَوِي**

النَّفْسِيرُ : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ أي جعل الله الكعبة المشرقة وهي البيت المحرم صلاحاً ومعاشاً للناس لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سبب لاتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم ، يلوذ به الخائف ، ويأمن فيه الضعيف ، ويربح فيه التجار ، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ﴿والشهر الحرام﴾ أي الأشهر الحرم « ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب » قياماً لهم لأمنهم القتال فيها ﴿والهدي والقلائد﴾ أي الهدى الذي يهدي للحرم من الأنعام ، والبُدن ذوات القلائد التي تُقلد من شجر الحرم لتأمن هي وأصحابها جعلها الله أيضاً قياماً للناس ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ أي جعل هذه الحرمة للبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتعلموا أيها الناس أن الله يعلم تفاصيل أمور السموات والأرض ويعلم مصالحكم لذلك جعل الحرم آمناً يسكن فيه كل شيء ، فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم ﴿إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ أي اعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن عصاه وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأتاب ، فلا تُيسننكم نعمته ولا تُطمعنكم رحمته ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ أي ليس على الرسول إلا أداء الرسالة

الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥٠﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ
تُبَدَّلْ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٥١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا

كَافِرِينَ ﴿٥٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وتبليغ الشريعة وقد بلغ ما وجب عليه فلا عذر لأحد في التفريط ﴿٥٠﴾ والله يعلم ما تُبدون وما تكتُمون ﴿٥١﴾ أي لا
يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها قال أبو حيان : الجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى
أنه مطلع على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً ﴿٥٢﴾ قل لا يستوي الخبيث والطيب
ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴿٥٣﴾ أي قل يا محمد لا يتساوى الخبيث والطيب ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث
وهو مثل ضربه الله للتمييز بين الحلال والحرام ، والطيع والعاصي ، والرديء والجيد قال القرطبي : اللفظ
عام في جميع الأمور يتصور في المكاسب ، والأعمال ، والناس ، والمعارف من العلوم وغيرها ، فالخبيث
من هذا كله لا يفلح ولا يُنجب ولا تحسن له عاقبة وإن كثر ، والطيب - وإن قل - نافع حميد جميل العاقبة ﴿٥٤﴾
وقال أبو حيان : الظاهر أن الخبيث والطيب عامان فيندرج تحتها المال وحرامه ، وصالح العمل وفاسده ،
وجيد الناس ورديتهم ، وصحيح العقائد وفاسدها ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ
بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْثاً﴾ ﴿٥٥﴾ فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴿٥٦﴾ أي فاتقوا الله
بامثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول لتفلحوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم ﴿٥٧﴾ يا أيها الذين
آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدل لكم تسؤلكم ﴿٥٨﴾ أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن طهرت
لكم ساءتكم قال الزمخشري : أي لا تكثرُوا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن
أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها ﴿٥٩﴾ وإن تسألوا عنها حين ينزل
القرآن تبدل لكم ﴿٦٠﴾ أي وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف
التي تسؤلكم فلا تسألوا عنها ﴿٦١﴾ عفا الله عنها ﴿٦٢﴾ أي عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها
وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها ﴿٦٣﴾ والله غفور حلیم ﴿٦٤﴾ أي واسع المغفرة عظيم الفضل
والإحسان ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿٦٥﴾ قد سأله قوم من قبلكم ﴿٦٦﴾ أي سأل أمثال هذه المسائل
قوم قبلكم فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها ولهذا قال ﴿٦٧﴾ ثم أصبحوا بها كافرين ﴿٦٨﴾ أي صاروا بتركهم
العمل بها كافرين وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أمرُوا بها تركوها فهلكوا
﴿٦٩﴾ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴿٧٠﴾ كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها

(١) البحر ٢٧/٤ . (٢) القرطبي ٣٢٧/٦ . (٣) البحر ٢٧/٤ . (٤) الكشف ٥٣٣/١ (٥) وقال ابن عباس في تفسير الآية : لا تسألوا
عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مسألة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم ، وإما لخبر يسوءكم مثل الذي قال أين أبي ؟ ولكن إذا نزل
القرآن بشيء وابتدأكم ربكم بأمر فحيث إن سألتم عن بيانه بين لكم وأبدى . نقلاً عن البحر المحيط ٣١/٤ .

يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ذَكَرَ بَحْرًا أَوْ شَقِيقًا وَحَرَمًا رَكِبَهَا وَهِيَ الْبَحِيرَةُ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ : إِذَا قَدِمْتُ مِنْ سَفَرِي أَوْ بَرْتُ مِنْ مَرَضِي فَنَاقَتِي سَائِبَةٌ ، وَجَعَلَهَا كَالْبَحِيرَةِ فِي تَحْرِيمِ الْإِتِّفَاعِ بِهَا ، وَإِذَا وَلَدَتْ الشَّاةُ أَثْنَى فَهِيَ لَهُمْ وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا فَهُوَ لَاهِتَهُمْ وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا وَأَثْنَى قَالُوا وَصَلَتْ أَخَاهَا وَهِيَ الْوَصِيلَةُ ، وَإِذَا أَتَتْجَتَ مِنْ صُلْبِ الْفَحْلِ عَشْرَةُ أَبْطَنَ قَالُوا قَدْ حَمَى ظَهْرَهُ وَهُوَ الْحَامُ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَبْطَلَ هَذِهِ الْعَادَاتُ كُلَّهَا فَلَا بَحِيرَةَ وَلَا سَائِبَةَ وَلَا وَصِيلَةَ وَلَا حَامَ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ أَيُّ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ يَخْتَلِقُونَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَيَنْسِبُونَ التَّحْرِيمَ إِلَيْهِ فَيَقُولُونَ اللَّهُ أَمَرْنَا بِهَذَا وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ أَنَّ هَذَا افْتِرَاءٌ لَهُمْ يَقْلُدُونَ فِيهِ الْآبَاءَ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أَيُّ وَإِذَا قِيلَ لَهُؤُلَاءِ الضَّالِّينَ هَلُمُّوا إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيمَا حَلَلْتُمْ وَحَرَّمْتُمْ ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أَيُّ يَكْفِينَا دِينَ آبَائِنَا ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ وَالْغَرَضُ التَّوْبِيخُ أَيُّ أَتَيْتَعُونَ آبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ ؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أَيُّ احْفَظُوهَا عَنْ مَلَابَسَةِ الْمَعَاصِي وَالْإِصْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ وَالزُّمُورِ إِصْلَاحُهَا ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أَيُّ لَا يَضُرُّكُمْ ضَلَالٌ مِّنْ ضَلَّ مِنَ النَّاسِ إِذَا كُنْتُمْ مَهْتَدِينَ قَالَ الزُّمَخْشَرِيُّ : كَانَ الْمُسْلِمُونَ تَذْهَبُ أَنْفُسُهُمْ حَسْرَةً عَلَى الْكُفْرَةِ يَتَمَنُّونَ دُخُولَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ فَقِيلَ لَهُمْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ بِإِصْلَاحِهَا وَالْمَشْيِ بِهَا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لَا يَضُرُّكُمْ الضَّلَالُ عَنْ دِينِكُمْ إِذَا كُنْتُمْ مَهْتَدِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ (١) وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَلَا يَتَوَهَّمَنَّ أَحَدٌ أَنَّ فِي الْآيَةِ رَخِصَةً فِي تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْإِهْتِدَاءِ أَنْ يَنْكَرَ وَقَدْ رَوَى أَنَّ الصَّدِيقَ قَالَ يَوْمًا عَلَى الْمَنْبَرِ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا غَيْرَ مَوْضِعِهَا وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنْ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يَغَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ (٢) ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أَيُّ مُصِيرُكُمْ وَمُصِيرُكُمْ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ فِي جَزَائِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ قَالَ الْبَيْضاوِيُّ : هَذَا وَعْدٌ وَوَعِيدٌ لِلْفَرِيقَيْنِ ، وَتَنْبِيْهُ عَلَى أَنْ أَحَدًا لَا يُوْأَخِذُ بِذَنْبٍ غَيْرِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ أَيُّ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا شَارَفَ أَحَدُكُمْ عَلَى الْمَوْتِ

(١) الْكَشَافُ ٥٣٤/١

(٢) أَبُو السَّعُودِ ٦٥/٢ وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ (ائْتَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَاوُا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شَحًّا مَطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً ، وَإِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ .

ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنَّ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَعِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٦٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَعَاخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَعِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٧﴾ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴿١٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٩﴾

وظهرت علائمه فينبغي أن يشهد على وصيته ﴿اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم﴾ أي يشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو اثنان من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت﴾ أي إن أنتم سافرتم فقام بكم الأجل ونزل بكم الموت ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة﴾ أي توقفونهما من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عدياً وتميماً بعد العصر عند المنبر ﴿فيقسمان بالله إن ارتبتم﴾ أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما قال أبو السعود : أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانة وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله ﴿لا نشترى به ثمناً ولو كان ذا قربي﴾ أي يحلفان بالله قائلين : لا نحابي بشهادتنا أحداً ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نقسم له قريباً لنا ﴿ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين﴾ أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إنا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثماً﴾ أي فإن اطلع بعد حلفهما على خيانتها أو كذبها في الشهادة ﴿فأخراهم يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾ أي فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسمع والاعتبار من شهادتهما لأنها خانا ﴿وما اعتدنا إنا إذا لمن الظالمين﴾ أي وما اعتدنا فيما قلنا فيها من الخيانة إنا إذا كذبنا عليهم نكون من الظالمين ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ أي خافوا ربكم وأطيعوا أمره ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿الهدى والقلائد﴾ عطفُ القلائد على الهدى من عطف الخاص على العام، خُصَّتْ

بالذكر لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر .

٢ - ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ أطلق المصدر البلاغ وأراد به التبليغ للمبالغة .

٣ - ﴿الخبيث والطيب﴾ بينهما طباقٌ ، وبين ﴿أصابتكم مصيبة﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿شهادة بينكم﴾ جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى يراد منها الأمر أي ليشهد بينكم .

الفوائد: قال الإمام الشاطبي : الإكثار من الأسئلة مذموم وله مواضع نذكر منها عشرة :
أحدها : السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم : من أبي ؟

ثانيها : أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرجل عن الحج : أكلٌ عام ؟

ثالثها : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ويدل عليه : « ذروني ما تركتكم » .

رابعها : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات .

خامسها : أن يسأل عن علة الحكم في التعبدات كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة .

سادسها : أن يبلغ بالسؤال حدّ التكلف والتعمق كسؤال بني إسرائيل عن البقرة وما هي وما لونها ؟

سابعها : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ولذلك قال سعيد : أعراقي أنت ؟

ثامنها : السؤال عن التشابهات ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم.. الخ.

تاسعها : السؤال عما حصل بين السلف وقد قال عمر بن عبد العزيز : تلك دماء كف الله عنها يدي فلا أُلطِّخ بها لساني .

عاشرها : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام ففي الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم^(١) .

قال الله تعالى : ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم . . . إلى . . . آخر السورة الكريمة﴾ .

من آية (١٠٨) إلى نهاية آية (١٢٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الوصية عند دنو الأجل وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة ، أعقبه بذكر اليوم المهول المخيف وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للجزاء والحساب ، ثم ذكر المعجزات التي أيدها عبده ورسوله « عيسى » ومنها المائدة من السماء ، وختم السورة الكريمة ببراءة السيد المسيح من دعوى الألوهية .

(١) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي ٢١٧٦/٦ .

* يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ^ط قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ^ط وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ^ط وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ^ط وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ^ط وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ^ط وَإِذْ كَفَفْتُ

اللفظة : ﴿كففت﴾ منعتُ وصرفتُ ومنه الكفيف لأنه منع الرؤية ﴿أيديتك﴾ قوّيتك مأخوذ من الأيد وهو القوة ﴿أوحيت﴾ الوحي : إلقاء المعنى الى النفس خفية وهو على أقسام : وحي بمعنى الإلهام ووحى بمعنى الإعلام في اليقظة والنام ، ووحى بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام ^(١) ﴿مائدة﴾ المائدة : الخوان الذي عليه الطعام أي السفرة فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة ^(٢) ﴿الرقيب﴾ المراقب الشاهد على الأفعال ﴿أبدأ﴾ أي بلا انقطاع .

التفسير : ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ أي اذكروا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء ﴿فيقول ماذا أجبتهم﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم ؟ وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتهم الى الإيمان والتوحيد ؟ ﴿قالوا لا علم لنا﴾ أي لا علم لنا إلى جنب علمك قال ابن عباس : أي لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ^(٣) ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ أي تعلم ما لا نعلم مما ظهر وبطن قال أبو السعود : وفيه إظهار للشكوى وردّ للأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء إلى ربهم في الانتقام منهم ^(٤) ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ قال ابن كثير : يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام بما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات أي اذكر نعمتي عليك في خلقي إياك من أم بلا ذكر وجعلني إياك آية قاطعة على كمال قدرتي ، وعلى والدتك جعلتك برهاناً على براءتها مما اتهمها به الظالمون من الفاحشة ^(٥) وقال القرطبي : هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال : اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول لعيسى كذا ^(٦) وذكر بلفظ الماضي ﴿إذ قال﴾ تقريباً للقيامة لأن ما هو آت قريب ﴿إذ أيّدتك بروح القدس﴾ أي حين قوّيتك بالروح الطاهرة المقدسة « جبريل » عليه السلام ﴿تكلّم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي تكلّم الناس في المهد صبيّاً وفي الكهولة نبياً ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين علمتك الكتابة والحكمة وهي العلم النافع مع التوراة والإنجيل ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني﴾ أي واذكر أيضاً حين كنت تصوّر الطين كصورة الطير

(١) القرطبي ٣٦٣/٦ . (٢) البحر ٣٠/٤ . (٣) القرطبي ٣٦١/٦ قال ابن كثير : وهذا من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء فانت المطلع على كل شيء فعلنا كلاً شيء بالنسبة لعلمك المحيط .
(٤) أبو السعود ٧٠/٢ . (٥) ابن كثير ٥٦١/١ . (٦) القرطبي ٣٦٢/٦ .

بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

بتيسيري وأمرني ﴿فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيراً بأمر الله ومشيتته ﴿وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني﴾ أي تشفي الأعمى الذي لا يبصر والأبرص الذي استعصى شفاؤه بأمرني ومشيتي ﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ أي تحيي الموتى بأمرني ومشيتي ، وكرر لفظ ﴿بإذني﴾ مع كل معجزة رداً على من نسب الربوبية إلى عيسى ولبيان أن تلك الخوارق من جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات﴾ أي واذكر حين منعت اليهود من قتلك لما همّوا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم بالحجج والمعجزات ﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي قال الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك ما هذه الخوارق إلا سحرٌ ظاهر واضح ﴿وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ وهذا أيضاً من الامتنان على عيسى أي واذكر حين أمرت الخواريين وقذفت في قلوبهم أن صدّقوا بي وبرسولي عيسى بن مريم ﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي قال الخواريون صدّقنا يا رب بما أمرتنا واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان خاضعون لأمر الرحمن ﴿إذ قال الخواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ أي واذكر حين قال الخواريون يا عيسى هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء علينا ؟ قال القرطبي : وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ويجوز أن يكون ذلك صدر من كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ (١) وقال أبو حيان : وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزل مائدة من السماء وهذا ما ذهب إليه الزمخشري (٢) وأما غيره من أهل التفسير فأتبعوا على أن الخواريين كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى وأنهم لم يشكوا في ذلك حتى قال الحسن : لم يشكوا في قدرة الله وإِنما سأله سؤال مستخبر هل ينزل أم لا ؟ فإن كان ينزل فاسأله لنا (٣) فسؤا لهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا﴾ أي قال الخواريون نريد بسؤا لنا المائدة أن نأكل منها تبركاً وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ أي ونعلم علماً

(١) القرطبي ٣٦٤/٦ . (٢) قال الزمخشري : فإن قلت : كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم ؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لها فدعواهم كانت باطلة وإنهم شاكين وهذا كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ! الكشف ٥٤٠/١ . (٣) البحر ٥٣/٤ .

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً
مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ
عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي
إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ

يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوى النبوة ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ أي نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾ أجاوبهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة وروى أنه لما أراد الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبيكي قال أبو السعود : نادى عيسى ربه مرتين : مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع ^(١) ﴿تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولن يأتي بعدنا ﴿وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك وارزقنا يا الله فإنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد ﴿قال الله إني منزلها عليكم﴾ أي أجاب الله دعاءه فقال إني سأنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿فمن يكفر بعد منكم فإنني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ أي من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفي الحديث (أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا ألا يدخروا لغير ولا يخونوا فخانوا وادخروا ورفعوا لغير فمسخوها قردة وخنازير) ^(٢) قال في التسهيل : جرت عادة الله عز وجل بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأعطيتها ، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير ^(٣) ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ هذا عطف قصة على قصة ﴿إذ قال الحواريون﴾ ﴿وإذ قال الله يا عيسى﴾ قال ابن عباس : هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل ^(٤) والمعنى : اذكر للناس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى بن مريم في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيئاً لهم قائلاً : يا عيسى أأنت دعوت الناس إلى عبادتك والاعتقاد بالوهيتك وألوهية أمك ؟ ! قال القرطبي : إنما سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقرير ^(٥) ﴿قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ أي إن كان ذلك صدر مني فإنك لا تخفى عليك شيء وأنت العالم بأني لم أقله ، وهذا اعتذار وبراءة من ذلك القول ومبالغة في الأدب وإظهار الذلة والمسكنة في حضرة ذي الجلال ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ أي تعلم حقيقة

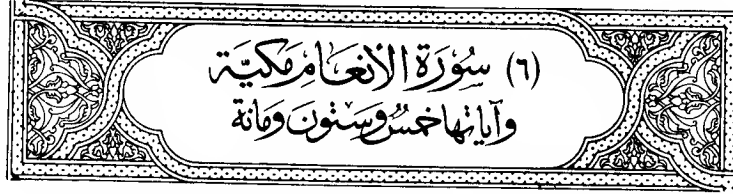
(١) أبو السعود ٧٣/٢ . (٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير . (٣) التسهيل ١٩٤/١ . (٤) البحر ٥٨/٤ . (٥) القرطبي ٣٧٥/٦ .

تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

ذاتي وما انطوت عليه ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت عليه من صفات الكمال إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا وعلمك محيط بما كان وما يكون ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به قال الرازي : وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه أمرين معاً ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي قلت لهم اعبدوا الله خالقي وخالقكم فانا عبد مثلكم ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم﴾ أي كنت شاهداً على أفعالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أي فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت يا الله الحفيظ لأعمالهم ، والشاهد على أفعالهم ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ أي وأنت المطلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ أي إن تعذبهم فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره الحكيم في صنعه ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ أي يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم لأنه يوم الجزاء ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي لهم جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أثابهم وجازاهم ذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره ومشيتته وهو القادر على كل شيء .

تنبية : روى الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رب أنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقول عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى يا جبريل : اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فأسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله يا جبريل : اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول « العقيدة وأصول الإيمان » وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، فهي لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم والحج والعقوبات وأحكام الأسرة ، ولم تذكر أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام ، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا على المنافقين ، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان ، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - قضية الألوهية ٢ - قضية الوحي والرسالة ٣ - قضية البعث والجزاء .

* نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية ، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة ، والدلائل الباهرة ، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين . ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدتهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما : ١ - أسلوب التقرير ٢ - أسلوب التلقين .

* أما الأول : « أسلوب التقرير » فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته ، وسلطانه وقهره ، في صورة الشأن المسلّم ، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحسّ الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام فيأتي بعبارة « هو » الدالة على الخالق المدبر الحكيم ، استمع قوله تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ . . . ﴿ وهو الله في السموات والأرض ﴾ . . . ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ . . . ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ . . . ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ . . . الخ .

* أما الثاني : « أسلوب التلقين » فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه ، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها ، ويأتي هذا

الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب استمع إلى الآيات الكريمة ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ . . ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ . . ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به﴾ . . ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل . ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية^(١) ، تقرر حقائقها ، وثبتت دعائمتها ، وتفنّد شبه المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة ، فهي تذكر توحيد الله جلّ وعلا في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة ، وتذكر موقف المكذّبين للرسول وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة ، وتذكر يوم البعث والجزاء ، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق ، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . . وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أبنائه الرسل وترشد الرسول ﷺ إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم في احتمال المشاق وفي الصبر عليها ، وتعرض لتصوير حال المكذّبين يوم الحشر، وتفيض في هذا بالسوان مختلفة ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتنفيذ والإبطال ، ثم تختم السورة بعد ذلك - في ربيع كامل - بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة ، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿قل تعالوا أتت ما حرّم ربكم عليكم﴾ . . الآية وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة . وهو أنه خليفة في الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي « الابتلاء والاختبار » في القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كما له المقصود من هذا الخلق وذلك النظام ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ .

التسمية : سميت بـ « سورة الأنعام » لورود ذكر الأنعام فيها ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ . . ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم المذكورة فيها ، ومن خصائصها ما روي عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح^(٢) .

(١) يقول الإمام الرازي : « امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة : أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، وثانيهما أنه شيعها سبعون ألفاً من الملائكة ، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدّين » ويقول الإمام القرطبي : إن هذه السورة أصل في حاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة . (٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٢٣٢ .

قال الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . . . إِلَى . . . وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (١٨) .

اللفظ : ﴿يعدلون﴾ يسوون به غيره ويجعلون له عدلاً وشريكاً يقال : عدل فلاناً بفلان أي سواه به ﴿تمترون﴾ تشكّون يقال امترى في الأمر إذا شك فيه ﴿قرن﴾ القرن : الأمة المقترنة في مدة من الزمان ومنه حديث (خير القرون قرني) وأصل القرن مائة سنة ثم أصبح يطلق على الأمة من الناس التي تعيش في ذلك العصر قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي كنتَ فيهم وخلفت في قرنٍ فأنْتَ غريب^(١)
﴿مدراراً﴾ غزيرة دائمة ﴿قرطاس﴾ القرطاس : الصحيفة التي يكتب فيها ﴿لبسنا﴾ خلطنا يقال لبستُ عليه الأمر أي خلطته عليه حتى اشتبه ﴿حاق﴾ نزل بهم وأصابهم ﴿ولياً﴾ ناصرأ ومعيناً .

سبب النزول : روي أن مشركي مكة قالوا : يا محمد والله لا تؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنتك رسوله فأنزل الله ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي

التفسير : ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعلياً لعباده أن يحمده بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ندَّ له ولا شريك ، ولا نظير ولا مثيل ومعنى الآية : احمدا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع ، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة ، بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة ، ومسالكة متنوعة ، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منور الأكوان قال في التسهيل : وفي الآية ردُّ على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار ، وقولهم إن الخير من النور والشر من الظلمة ، فإن المخلوق لا يكون إلهاً ولا فاعلاً لشيء من الحوادث^(٣) ﴿ثم الذين كفروا بربههم

(١) القرطبي ٦ / ٣٩١ . (٢) أسباب النزول ص ١٢٢ . (٣) التسهيل ٢ / ٢ .

الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٣٢﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣٤﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَسَوْهُ

يعدلون ﴿٣٥﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم فيساوون به أصناماً نحتوها بأيديهم ، وأوهاماً ولدوها بخيالهم ، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم قال ابن عطية : والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرها قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وإحسنت إليك ثم تشمتني ؟ أي بعد وضوح هذا كله ^(١) ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ أي خلق أباكم آدم من طين ﴿ثم قضى أجلاً﴾ أي حكم وقدر لكم أجلاً من الزمن تموتون عند انتهائه ﴿وأجل مسمى عنده﴾ أي وأجل آخر مسمى عنده لبعثكم جميعاً ، فالأجل الأول الموت والثاني البعث والنشور ﴿ثم أنتم تموتون﴾ أي ثم أنتم أيها الكفار تشكون في البعث وتنكرونه بعد ظهور تلك الآيات العظيمة ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ أي هو الله المعظم المعبود في السموات والأرض قال ابن كثير : أي يعبد ويوحده ويقرله بالألوهية من في السموات والأرض ويدعونه رغماً ورهباً ويسمونه الله ^(٢) ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ أي يعلم سركم وعلمكم ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ أي من خير أو شر وسيجازيكم عليه ، ثم أخبر تعالى عن عنادهم وإعراضهم فقال ﴿وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي إلا تركوا النظر فيها ولم يلتفتوا إليها قال القرطبي : والمراد تركهم النظر في الآيات التي يجب ان يستدلوا بها على توحيد الله عز وجل ، والمعجزات التي أقامها لنبه ﷺ التي يستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به عن ربه ^(٣) ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ أي كذبوا بالقرآن الذي جاءهم من عند الله ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ أي سوف يحل بهم العقاب ان عاجلاً أو أجلاً ويظهر لهم خبر ما كانوا به يستهزئون ، وهذا وعيد بالعذاب والعقاب على استهزائهم ، ثم حضهم تعالى على الاعتبار بمن سبقهم من الأمم فقال ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ أي ألا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم الأنبياء ألم يعرفوا ذلك ؟ ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ أي منحناهم من أسباب السعة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعطكم يا أهل مكة ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ أي أنزلنا المطر غزيراً متتابعاً يدر عليهم درأً ﴿وجعلنا الأنهار تجري

بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨١﴾ قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُمُ إِلَى

من تحتهم ﴿٨٢﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار ﴿٨٣﴾ فأهلكناهم بذنوبهم ﴿٨٤﴾ أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم ، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض ﴿٨٥﴾ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٨٦﴾ أي أحدثنا من بعد إهلاك المكذبين قوماً آخرين غيرهم قال أبو حيان : وفيه تعريض للمخاطبين بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴿٨٩﴾ أي لو أنزلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً على ورقٍ كما اقترحوا ﴿٩٠﴾ فلمسوه بأيديهم ﴿٩١﴾ أي فعاینوا ذلك ومسوه باليد ليرتفع عنهم كل إشكال ويزول كل ارتياب ﴿٩٢﴾ لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين ﴿٩٣﴾ أي لقال الكافرون عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنتاً وعناداً ما هذا إلا سحرٌ واضح ، والغرض أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل ﴿٩٤﴾ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴿٩٥﴾ أي هلاً أنزل على محمد ملك يشهد بنبوته وصدقه و﴿٩٦﴾ لولا ﴿٩٧﴾ بمعنى هلاً للتحضيض قال أبو السعود : أي هلاً أنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبي وهذا من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعييت بهم العلل ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ﴿١٠٠﴾ أي لو أنزلنا الملك كما اقترحوا وعاینوه ثم كفروا لحق إهلاكهم ﴿١٠١﴾ كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالاً ﴿١٠٢﴾ ثم لا يُنْظَرُونَ ﴿١٠٣﴾ أي ثم لا يمهلون ولا يؤخرون ، والآية كالتعليل لعدم إجابة طلبهم ، فإنهم - في ذلك الاقتراح - كالباحث عن حشفة بظلفه ﴿١٠٤﴾ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴿١٠٥﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته ﴿١٠٦﴾ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴿١٠٧﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم ، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملك قال ابن عباس : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿١٠٨﴾ ، ثم قال تعالى تسلياً للنبي ﷺ ﴿١٠٩﴾ ولقد استهزى برسلي من قبلك ﴿١١٠﴾ أي والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم ﴿١١١﴾ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴿١١٢﴾ أي أحاطونزل هؤلاء المستهزئين بالرسول عاقبة استهزائهم ، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار ﴿١١٣﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا

(١) البحر المحيط ٧٧/٤ . (٢) أبو السعود ٨٣/٢ . (٣) وقيل : المعنى لو أنزلنا ملكاً لماتوا من هول رؤيته إذ لا يطيقون رؤيته وهو

منقول عن ابن عباس كذا في القرطبي ٢٩٣/٦ . (٤) ابن كثير ٥٦٩/١ المختصر .

يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الْغَايُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٢٠﴾

كيف كان عاقبة المكذبين ﴿١٤﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المستهزئين الساخرين : سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب لتعتبروا بآثار من خلا من الأمم كيف أهلكهم الله وأصبحوا عبرة للمعتبرين ﴿١٥﴾ قل لمن ما في السموات والأرض ﴿١٦﴾ أي قل يا محمد لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً؟ والسؤال لإقامة الحجة على الكفار فهو سؤال تبكيت ﴿١٧﴾ قل لله أي قل لهم تقريراً وتنبيهاً هي لله لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة لأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم ﴿١٨﴾ كتب على نفسه الرحمة ﴿١٩﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً وإحساناً والغرض التلطف في دعائهم إلى الإيمان وإنابتهم إلى الرحمن ﴿٢٠﴾ ليجمعنكم (١) إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴿٢١﴾ أي ليحشرنكم من قبوركم مبعوثين إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه ليجازيكم بأعمالكم ﴿٢٢﴾ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴿٢٣﴾ أي أضاعوها بكفرهم وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون ولهذا لا يقام لهم وزن في الآخرة وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم ﴿٢٤﴾ وله ما سكن في الليل والنهار ﴿٢٥﴾ أي لله عز وجل ما حل واستقر في الليل والنهار لجميع عباده وخلقته وتحت قهره وتصرفه ، والمراد عموم ملكه تعالى لكل شيء ﴿٢٦﴾ وهو السميع العليم ﴿٢٧﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿٢٨﴾ قل أغير الله أخْذُ ولياً ﴿٢٩﴾ الاستفهام للتوبيخ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين أغير الله أخْذُ معبوداً ؟ ﴿٣٠﴾ فاطر السموات والأرض ﴿٣١﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿٣٢﴾ وهو يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴿٣٣﴾ أي هو جل وعلا يرزق ولا يرزق قال ابن كثير: أي هو الرازق لخلقهم من غير احتياج إليهم (٢) ﴿٣٤﴾ قل إني أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴿٣٥﴾ أي قل لهم يا محمد إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم لله من هذه الأمة ﴿٣٦﴾ ولا تكوننَّ من المشركين ﴿٣٧﴾ أي وقيل لي : لا تكوننَّ من المشركين قال الزمخشري ومعناه : أُمِرْتُ بالإسلام ونُهِيتُ عن الشرك (٣) ﴿٣٨﴾ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴿٣٩﴾ أي قل لهم أيضاً إني أخاف إن عبتُ غير ربي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ﴿٤٠﴾ من يصرف عنه يومئذٍ فقد رَحِمَهُ ﴿٤١﴾ أي من يصرف

(١) قال أبو السعود : هذا جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي والله ليجمعنكم في القبور . الخ . (٢) مختصر أبْن كثير ١ / ٥٧٠ . (٣) الكشاف ٢ / ٧ .

عنه العذاب فقد رحمه الله ﴿وذلك هو الفوز المبين﴾ أي النجاة الظاهرة ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ أي إن تنزل بك يا محمد شدة من فقرٍ أو مرضٍ فلا رافع ولا صارف له إلا هو ولا يملك كشفه سواه ﴿وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ أي وإن يصبك بخيرٍ من صحةٍ ونعمةٍ فلا رادَّ له لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضرر قال في التسهيل : والآية برهان على الوجدانية لانفراد الله تعالى بالضر والخير وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف براهين ورد على المشركين ^(١) ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾ قال ابن كثير : أي هو الذي خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء وهو الحكيم في جميع أفعاله الخبير بمواضع الأشياء ^(٢) .

البَلاغَةُ : ١ - ﴿الحمد لله﴾ الصيغة تفيد القصر أي لا يستحق الحمد والثناء إلا الله رب العالمين .

٢ - ﴿جعل الظلمات والنور﴾ فيه من المحسنات البديعية الطباق .

٣ - ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ فيه استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته ووضع الرب ﴿ربهم﴾ موضع الضمير لزيادة التشنيع والتقبيح .

٤ - ﴿سركم وجهركم﴾ بينهما طباق .

٥ - ﴿من قرن﴾ أي أهل قرن فهو مجاز مرسل .

٦ - ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ أي المطر عبَّر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء فهو مجاز أيضاً .

٧ - ﴿استهزى برسلى﴾ تنكير رسل للتفخيم والتكثير .

٨ - ﴿السميع العليم﴾ من صيغ المبالغة .

فكائِدَة : في القرآن العظيم خمس سور ابتدأت بـ ﴿الحمد لله﴾ وهي سورة الفاتحة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ والانعام ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ وسورة الكهف ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ وسورة سبأ ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ وسورة فاطر ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ .

قال الله تعالى : ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل لله . . إلى . . فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾ من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٥) .

المناسِبة : لما أفاض جلّ ذكره في إقامة الدلائل والبراهين على قدرته ووحدانيته من أول السورة الكريمة ذكر هنا شهادته تعالى على صدق نبوة محمد عليه السلام ثم ذكر موقف الجاحدين للقرآن المكذبين للوحي ، وحسرتهم الشديدة يوم القيامة .

اللفكَة : ﴿لأنذرکم﴾ الإنذار : إخبار فيه تخويف ﴿فتنتهم﴾ الفتنة الاختبار ﴿أكثّ﴾ جمع

كِنان وهو الغطاء ﴿وقرأ﴾ ثقلًا يقال وقرت أذنه إذا ثقلت أو صُمّت ﴿أساطير﴾ خرافات وأباطيل جمع أسطورة قال الجوهري الأساطير : الأباطيل والترهات^(١) ﴿ينأون﴾ يبعدون يقال نأى عنه إذا ابتعد ﴿بغته﴾ فجأة يقال : بغته إذا فجأه ﴿فرطنا﴾ فرط : قصّر مع القدرة على ترك التقصير قال أبو عبيد : فرط : ضيّع ﴿أوزارهم﴾ ذنوبهم جمع وزر ﴿يزرون﴾ يحملون ﴿لهو﴾ اللهو : صرف النفس عن الجد إلى الهزل ، وكل ما شغلك فقد أهلك .

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - روي أن رؤساء مكة قالوا يا محمد : ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم ؟ فأنزل الله ﴿قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم . . .﴾^(٢) الآية .
ب - عن ابن عباس أن «أبا سفيان» و«الوليد بن المغيرة» و«النضر بن الحارث» جلسوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر : ما يقول محمد ؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فأنزل الله ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه . . .﴾^(٣) الآية .

ج - روي أن «الأخنس بن شريق» التقى بـ «أبي جهل بن هشام» فقال له : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غيرنا فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب «بنو قصي» باللواء ، والسقاية ، والحجابه ، والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك . . .﴾^(٤) الآية .

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾
النَّفْسِيرُ : ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ أي قل لهم يا محمد أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادق في دعوى النبوة ؟ ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ أي أجبهم أنت وقل لهم الله يشهد لي بالرسالة والنبوة وكفى بشهادة الله لي شهادة قال ابن عباس : قال الله لنبيه محمد ﷺ قل لهم أي شيء أكبر شهادة فإن أجابوك وإلا فقل لهم الله شهيد بيني وبينكم^(٥) ﴿وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة قال ابن جزي : والمقصود بالآية الاستشهاد بالله - الذي هو أكبر شهادة - على صدق رسول الله ﷺ وشهادة الله بهذا هي علمه بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وإظهار معجزته الدالة على صدقه^(٦) ﴿أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ استفهام توبيخ أي أنكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله؟

(١) مجمع البيان ٢٨٦/٤ . (٢) أسباب النزول ص ١٢٢ . (٣) القرطبي ٤١٤/٦ .

(٤) التفسير الكبير ٢٠٥/١٢ . (٥) البحر ٩٠/٤ . (٦) التسهيل ٥/٢ .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۚ وَالَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
 أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٦﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ
 كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ
 فَكَيْفَ تَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ آلِهَةٌ أُخْرَى بَعْدَ وَضُوحِ الْأَدْلَةِ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ؟ ﴿٢٨﴾ قُلْ لَا
 أَشْهَدُ ۚ أَيُّ قُلْ لَهُمْ لَا أَشْهَدُ بِذَلِكَ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا أَشْهَدُ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ
 أَحَدٌ ، فَرَدَّ صَمَدٌ ۚ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ۚ أَيُّ وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ
 الْكَفَّارَ بَيْنَ جَاهِلٍ وَمَعَانِدٍ فَقَالَ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ
 وَالنَّصَارَى الَّذِينَ عَرَفُوا وَعَانَدُوا يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِحُلِيَّتِهِ وَنَعْتِهِ عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ كَمَا
 يَعْرِفُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَلَدَهُ لَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ أَصْلًا قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : وَهَذَا اسْتِشْهَادٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ بِمَعْرِفَةِ أَهْلِ
 الْكِتَابِ وَبَصَحَةِ نَبَوْتِهِ ^(١) ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ لِأَنَّهُمْ لَمْ
 يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ وَضُوحِ الْآيَاتِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾
 الِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ وَمَعْنَاهُ النَّفْيُ أَيُّ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ اخْتَلَقَ عَلَى اللَّهِ الْكَذْبَ أَوْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ وَالْمُعْجَزَاتِ
 الْبَاهِرَةِ وَسَمَّاهَا سِحْرًا قَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَكَلِمَةُ ﴿أَوْ﴾ لِلإِذْنِ بِأَنَّ كِلَا مِنْ الْإِفْتِرَاءِ وَالتَّكْذِيبِ وَحْدَهُ بِالْغُ
 غَايَةِ الْإِفْرَاطِ فِي الظُّلْمِ ، فَكَيْفَ وَهُمْ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا فَأَتَّبَتُوا مَا نَفَاهُ اللَّهُ وَنَفَوْا مَا أَثْبَتَهُ ! قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى
 يُؤْفَكُونَ ^(٢) ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ لَا يُفْلِحُ الْمُفْتَرِي وَلَا الْمَكْذِبُ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَدْعَى الرِّسَالَةِ لَوْ
 كَانَ كَاذِبًا لَكَانَ مُفْتَرِيًّا عَلَى اللَّهِ فَلَا يَكُونُ مُحَلًّا لظُهُورِ الْمُعْجَزَاتِ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ
 أَشْرَكُوا﴾ أَيُّ أَذْكَرُ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا لِلْحِسَابِ وَنَقُولُ لَهُمْ عَلَى رِءُوسِ الْأَشْهَادِ ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ
 كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أَيُّ أَيْنَ أَهْتَكُمُ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ ؟ قَالَ الْبَيْضاوِيُّ : وَالْمُرَادُ مِنَ الْاسْتِفْهَامِ
 التَّوْبِيخُ وَ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أَيُّ تَزْعُمُونَهُمْ آلِهَةٌ وَشُرَكَاءُ مَعَ اللَّهِ فَحُذَفَ الْمَفْعُولَانِ وَلَعَلَّهُ يَحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْتِهِمْ
 حِينَئِذٍ لِيَفْقِدُوهُمَا فِي السَّاعَةِ الَّتِي عَلِقُوا بِهَا الرَّجَاءَ فِيهَا ^(٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُلُّ زَعْمٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ كَذِبٌ ^(٤)
 ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتُهُمْ﴾ أَيُّ لَمْ يَكُنْ جَوَابُهُمْ حِينَ اخْتَبَرُوا بِهَذَا السُّؤَالَ وَرَأَوْا الْحَقَائِقَ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا
 وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أَيُّ أَقْسَمُوا كَاذِبِينَ بِقَوْلِهِمْ وَاللَّهُ يَا رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : تَبَرَّءُوا
 مِنَ الشَّرِكِ وَانْتَفُوا مِنْهُ لَمَّا رَأَوْا مِنْ تَجَاوُزِهِ وَمَغْفَرَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَغْفِرُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ
 ذُنُوبَهُمْ فَإِذَا رَأَى الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ قَالُوا تَعَالَوْا نَقُولُ : إِنَّا كُنَّا أَهْلُ ذُنُوبٍ وَلَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ ، فَيُخْتَمُ عَلَى
 أَفْوَاهِهِمْ وَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ^(٥) ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيُّ أَنْظِرْ
 يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِنَفْيِ الْإِشْرَاقِ عَنْهَا أَمَامَ عِلَامِ الْغُيُوبِ ، وَهَذَا لِلتَّعْجِيبِ مِنْ كَذِبِهِمْ

يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقَرَأُوا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٥٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا

الصريح ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونونه من شفاعة آلهتهم وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء ، ثم وصف تعالى حال المشركين حين استماع القرآن فقال ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ أي ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك يا محمد حين تتلو القرآن ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنةً﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي ثقلاً وصماً يمنع من السمع قال ابن جزى : والمعنى أن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه وعبر بالأكنة والوقر مبالغة ^(١) ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي مهما رأوا من الآيات والحجج البينات لا يؤمنوا بها لفرط العناد ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك يجادلون عن القرآن ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ أي هؤلاء المشركون المكذبون ينهون الناس عن القرآن وعن اتباع محمد عليه السلام ويبعدون هم عنه ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك قال ابن كثير : فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع ولا يعود وباله إلا عليهم وما يشعرون ^(٢) ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين إذ عرضوا على النار لرأيت أمراً عظيماً تشيب لهوله الرءوس قال البيضاوي : وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً شنيعاً ^(٣) وإنما حذف ليكون أبلغ ما يقدره السامع ﴿فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ أي تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات الله ﴿ونكون من المؤمنين﴾ أي إذا رجعنا إلى الدنيا نصدق ونؤمن بالله إيماناً صادقاً فتمنوا العودة ليصلحوا العمل ويتداركوا الزلل قال تعالى رداً لذلك التمني ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم فتمنوا ذلك ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ أي لو ردوا - على سبيل الفرض لأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت - لعادوا إلى الكفر والضلال وإنهم لكاذبون في وعدهم بالإيمان ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ أي

الْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَّا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٤١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ الْكُفَّارُ الْفَجَّارُ مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا بَعَثَ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أَيْ لَوْ تَرَىٰ حَالَهُمْ إِذْ حُسِبُوا لِلْحِسَابِ أَمَامَ رَبِّ الْأَرْبَابِ كَمَا يُوقِفُ الْعَبْدَ الْجَانِي بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ لِلْعِقَابِ ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ لِلتَّهْوِيلِ مِنْ فِطْرَةِ الْمَوْقِفِ ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ بِحَقٍّ ؟ وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيعِ عَلَى التَّكْذِيبِ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ أَيْ قَالُوا بَلَىٰ وَاللَّهِ إِنَّهُ لِحَقٌّ ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَيْ ذُوقُوا الْعَذَابَ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَتَكْذِيبِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ فَقَالَ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أَيْ لَقَدْ خَسِرَ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ بِالْبَعْثِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أَيْ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْقِيَامَةُ فَجْأَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفُوا وَقْتُهَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : سَمِيتِ الْقِيَامَةَ بِالسَّاعَةِ لِسُرْعَةِ الْحِسَابِ فِيهَا^(١) ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ أَيْ قَالُوا يَا نَدَامَتُنَا عَلَىٰ مَا قَصَرْنَا وَضَيَّعْنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَثْقَالَ ذُنُوبِهِمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ : وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِاسْتِحْقَاقِهِمْ آصَارَ الْآثَامِ^(٢) وَقَالَ ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ لِأَنَّ الْعَادَةَ حَمْلُ الْأَثْقَالِ عَلَى الظُّهُورِ ، قَالَ ابْنُ جَزَى : وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ تَحْمِيلِ الذُّنُوبِ ، وَقِيلَ إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَهَا عَلَى ظُهُورِهِمْ حَقِيقَةً فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْكَافِرَ يَرْكَبُهُ عَمَلُهُ بَعْدَ أَنْ يَتِمَّثَلَ لَهُ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرْكَبُ عَمَلُهُ بَعْدَ أَنْ يَتِمَّثَلَ لَهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ^(٣) ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أَيْ بَشْسٌ مَا يَحْمِلُونَهُ مِنَ الْأَوْزَارِ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أَيْ بَاطِلٌ وَغُرُورٌ لِقَصْرِ مَدَّتِهَا وَفَنَاءِ لَذَّتِهَا ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ الْآخِرَةُ وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ خَيْرٌ لِّعِبَادِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ لِأَنَّهَا دَائِمَةٌ لَا يَزُولُ عَنْهُمْ نَعِيمُهَا وَلَا يَذْهَبُ عَنْهُمْ سُرُورُهَا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ؟ ثُمَّ سَلَّىٰ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ لِتَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ فَقَالَ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أَيْ قَدْ أَحْطَيْنَا عَلِمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ وَحْزَنِكَ وَتَأْسَفِكَ عَلَيْهِمْ قَالَ الْحَسَنُ : كَانُوا يَقُولُونَ إِنَّهُ سَاحِرٌ وَشَاعِرٌ وَكَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيْ فَإِنَّهُمْ فِي دَخِيلَةٍ نَفْسِهِمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ بَلْ يَعْتَقِدُونَ صِدْقَكَ وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ عَنْ عِنَادٍ فَلَا تَحْزَنَ لِتَكْذِيبِهِمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمَّى الْأَمِينَ فَعَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُكَذِّبُ فِي شَيْءٍ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَجْحَدُونَ فَكَانَ أَبُو جَهْلٍ يَقُولُ : مَا نَكْذِبُكَ يَا مُحَمَّدُ وَإِنَّكَ عِنْدَنَا لِمُصَدِّقٌ وَإِنَّمَا نَكْذِبُ مَا جِئْنَا بِهِ^(٤) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ

(١) القرطبي ٤١٢/٦ . (٢) البيضاوي ص ١٦٩ . (٣) التسهيل ٧/٢ . (٤) البحر المحيط ٤/١١٢ .

أَتَنَّهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ كَانَ كِبُرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ
 اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٠﴾

فصبروا على ما كُذِّبُوا ﴿٣٩﴾ أي صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء ﴿٣٩﴾ وأوذوا حتى أتاهم
 نصرنا ﴿٣٩﴾ أي وأوذوا في الله حتى نصرهم الله ، وفي الآية إرشاد إلى الصبر ، ووعد له بالنصر ﴿٣٩﴾ ولا مبدل
 لكلمات الله ﴿٣٩﴾ قال ابن عباس : أي لمواعيد الله ، وفي هذا تقوية للوعد ﴿٣٩﴾ ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴿٣٩﴾
 أي ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذِّبُوا وأوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسللوا
 تحزن فإن الله ناصر كما نصرهم ﴿٣٩﴾ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴿٣٩﴾ أي إن كان إعراضهم عن الإسلام قد
 عظم وشق عليك يا محمد ﴿٣٩﴾ فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض ﴿٣٩﴾ أي إن قدرت أن تطلب سربا ومسكنا
 في جوف الأرض ﴿٣٩﴾ أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ﴿٣٩﴾ أي مصعدا تصعد به إلى السماء فتأتيهم بآية مما
 اقترحوه فافعل ﴿٣٩﴾ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴿٣٩﴾ أي لو أراد الله هداهم إلى
 الإيمان فلا تكونن يا محمد من الذين يجهلون حكمة الله ومشيئته الأزلية .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ فيه تشبيه يسمى « المرسل المجمل » .

٢ - ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تزعمونهم شركاء .

٣ - ﴿انظر كيف كذبوا﴾ الصيغة للتعجب من كذبهم الغريب .

٤ - ﴿وفي آذانهم وقرا﴾ عبّر بالأكنة في القلوب والوقر في الأذان وهو تمثيل بطريق الاستعارة
 لإعراضهم عن القرآن .

٥ - ﴿يقول الذين كفروا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم .

٦ - ﴿ينهون وينأون﴾ بينهما من المحسنات البديعية الجناس الناقص .

٧ - ﴿وإنهم لكاذبون﴾ وردت الصيغة مؤكدة بمؤكدين « إن » و « اللام » للتنبية على أن الكذب
 طبيعتهم .

٨ - ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب وهوى﴾ تشبيه بليغ حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة
 كقول الخنساء : « فإنما هي إقبال وإدبار » .

٩ - ﴿أفلا تعقلون﴾ الاستفهام للتوبيخ .

١٠ - ﴿كذبت رسل﴾ تنوين رسل للتفخيم والتكثير .

تنبيهه : قال الإمام الفخر : قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ يقتضي له جواباً وقد حُذِفَ تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ، وأشباهه كثير في القرآن والشعر ، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ألا ترى أنك لو قلت لغلامك : والله لئن قمتُ إليك - وسكتَ عن الجواب - ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب ، والقتل ، والكسر ، وعظم خوفه لأنه لم يدر أي الأقسام تبغي ، ولو قلت : والله لئن قمتُ إليك لأضربنك فأتيتَ بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف^(١)

قال الله تعالى : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله . . إلى . . والله أعلم بالظالمين﴾ من آية (٣٦) إلى نهاية آية (٥٨) .

المناسكة : لما ذكر الله تعالى إعراض المشركين عن القرآن وعن الإيمان بالنبى عليه السلام ، ذكر في هذه الآيات السبب في ذلك وهو أن القرآن نور وشفاء يهتدي به المؤمنون ، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، ثم ذكر اقتراح المشركين بعض الآيات وشبههم بالصم البكم الذين لا يعقلون .

اللغز : ﴿تضرعوا﴾ التضرع من الضراعة وهي الذلة يقال : ضرع فهو ضارِعٌ ﴿البأساء﴾ من البؤس وهو الفقر ﴿الضرء﴾ من الضر وهو البلاء قال القرطبي : البأساء في الأموال ، والضرء في الأبدان ، هذا قول الأكثر^(٢) ﴿مبلسون﴾ المبلس : اليأس من الخير من أبلس الرجل إذا يئس ومنه «إبليس» لأنه أبلس من رحمة الله عز وجل^(٣) ﴿دابِر﴾ الدابر : الآخر ودابر القوم : خلفهم من نسلهم قال قطرب : يعني استؤصلوا وأهلكوا قال الشاعر :

فأهلكو بعذابٍ حصَّ دابِرهـم فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا^(٤)

﴿يصدفون﴾ صَدَفَ عن الشيء أعرض عنه ﴿تطرد﴾ الطرد : الإبعاد مع الإهانة ﴿الفاصلين﴾ الحاكمين .

سبب النزول : عن ابن مسعود قال : مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده «صهيب» ، وخبَّاب ، وبلال ، وعمَّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد : أَرْضَيْتَ هؤُلاءِ من قومك ! أفنحن نكون تبعاً لهم ! أهؤُلاءِ الذين منَّ الله عليهم ! اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم إتبعتك فأنزل الله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ الآية^(٥) .

(١) التفسير الكبير ١٢ / ١٩٠ . (٢) القرطبي ٦ / ٤٢٤ . (٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٣ .

(٤) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ٦ / ٤٢٧ . (٥) أسباب النزول ص ١٢٤ .

* إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

التفسير : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أي إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء ، وهنا تم الكلام ثم ابتداء فقال ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ قال ابن كثير : يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد ، وهذا من باب التهكم بهم والإذراء عليهم ^(١) وقال الطبري : يعني والكفار يبعثهم الله مع الموتى ، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ، ولا يعقلون دعاءً ، ولا يفقهون قولاً ، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينزعجون عن تكذيب رسل الله ^(٢) ﴿ثم إليه يرجعون﴾ أي ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه﴾ أي قال كفار مكة هلاً نزل على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة قال القرطبي وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله ^(٣) ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ أي هو تعالى قادر على أن يأتيهم بما اقترحوا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة ﴿وما من دابة في الأرض﴾ أي ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ أي ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ أي إلا طوائف مخلوقة مثلكم خلقها الله وقدر أحوالها وأرزاقها وآجالها قال البيضاوي : والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية ^(٤) ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً من أمر الدين يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بيناه وقيل : إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويكون المعنى : ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه ^(٥) ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي يجمعون فيقضي بينهم قال الزمخشري : يعني الأمم كلها من الدواب والطيور فيعوضها وينصف بعضها من بعض كما روي أنه يأخذ للجاء من القرناء ^(٦) ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن صم لا يسمعون كلام الله سماع قبول بكم لا ينطقون بالحق خابطون

(١) ابن كثير ٥٧٦/١ (٢) الطبري ٣٤١/١١ (٣) القرطبي ٤١٩/٦ (٤) البيضاوي ص ١٧٠ .

(٥) هذا اختيار الطبري والزمخشري والجلالين ورجح أبو حيان في البحر المحيط أن المراد بالكتاب القرآن العظيم ثم قال : وهذا الذي يقتضيه

سياق الآية والمعنى وبه بدأ ابن عطية (٦) الكشف ١٦/٢

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ إِلَٰهَ تَدْعُونَ
فِي كُفْرٍ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ
بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ
لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا
أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٥﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

في ظلمات الكفر قال ابن كثير : وهذا مثل أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع ، أبكم وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه ^(١) ! ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ الله يجعله على صراطٍ مستقيم﴾ أي من يشأ الله إضلاله يضلله ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾ استفهام تعجيب أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون ؟ ﴿أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ أي أندعون غير الله لكشف الضر عنكم؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم ﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ أي بل تخصونه تعالى بدعائكم في الشدائد فيكشف الضر الذي تدعونه إلى كشفه إن شاء كشفه ﴿وتنسئون ما تشركون﴾ أي تتركون الآلهة فلا تدعونها لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ هذه تسليية لرسول الله ﷺ أي والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك فكذبوهم ﴿فأخذناهم بالباس والضراء﴾ أي بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ لولا للتحضيض أي فهلا تضرعوا حين جاءهم العذاب ، وهذا عتاب على ترك الدعاء وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام ما يدعوههم إلى التضرع ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ أي ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ أي زين لهم المعاصي والإصرار على الضلال ﴿فلما نسوا ما ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي لما تركوا ما وعظوا به ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أي من النعم والخيرات استدراجاً لهم ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ أي فرحوا بذلك النعيم وازدادوا بطراً ﴿أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون﴾ أي أخذناهم بعدابنا فجأة فإذا هم يائسون قانطون من كل خير ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ أي على نصر الرسل وإهلاك الكافرين قال الحسن : مكر بالقوم ورب الكعبة ، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ^(٢) وفي الحديث (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ
 الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾
 وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ
 كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
 وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

استدراج ثم قرأ ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة
 فإذا هم مبلسون﴾^(١) ﴿قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المكذبين المعاندين
 من أهل مكة أخبروني لو أذهب الله حواسكم فأصمكم وأعماكم ﴿وختم على قلوبكم﴾ أي طبع على قلوبكم
 حتى زال عنها العقل والفهم ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم
 إذا سلبه الله منكم ؟ ﴿انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾ أي انظر كيف نبين ونوضح الآيات
 الدالة على وحدانيتنا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون ﴿قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو
 جهرة﴾ أي قل هؤلاء المكذبين أخبروني إن أتاكم عذاب الله العاجل فجأة أو عياناً بالليل أو بالنهار ﴿هل
 يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي ما يهلك بالعذاب إلا أنتم لأنكم كفرتم
 وعاندتم ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالشواب ،
 وإنذار الكافرين بالعقاب ، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحه الكافرون من الآيات ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف
 عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فمن آمن بهم وأصلح عمله فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون والمراد
 أنهم لا يخافون ولا يحزنون لأن الآخرة دار الجزاء للمتقين ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا
 يفسقون﴾ أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسهم العذاب الأليم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله
 قال ابن عباس : يفسقون أي يكفرون^(٢) ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ أي قل يا
 محمد هؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات لست أدعي أن خزائن الله
 مفوضة إلي حتى تقترحوا علي تنزيل الآيات ولا أدعي أيضاً أنني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول
 العذاب ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ أي ولست أدعي أنني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء
 وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب قال الصاوي : وهذه الآية نزلت حين قالوا له إن كنت رسولاً
 فاطلب من ربك أن يوسع علينا ويغني فقرنا وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا
 بيده^(٣) . والمعنى : إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على

(١) أخرجه الإمام أحمد . (٢) زاد المسير ٤٢/٣ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ١٦/٢

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ

عدم صحة رسالتي ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي ما أتبع فيما أدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحيه إلي ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ أي هل يتساوى الكافر والمؤمن والضال والمهتدي ؟ ﴿أفلا تتفكرون﴾

تقريع وتوبيخ أي أستمعون فلا تتفكرون ؟ ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ أي خوف يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر قال أبو حيان : وكأنه قيل : أنذر بالقرآن من يرجى إيمانه وأما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم ^(١) ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ أي ليس لهم غير الله ولي ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿لعلهم يتقون﴾ أي أنذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك يا محمد الذين يعبدون ربهم دوماً في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنو من رضاه قال الطبري : نزلت الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ : لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك ^(٢) وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ أي لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم كقول نوح ﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾ قال الصاوي : هذا كالتعليل لما قبله والمعنى لا تؤاخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله ، وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون وإلا فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله ﴿يريدون وجهه﴾ ^(٣) ﴿وما من حسابك عليهم من شيء﴾ وهذا التأكيد لمطابقة الكلام والمعنى لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم ؟ وقيل إن المراد بالحساب الرزق ، والمعنى ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنما يرزقك وإياهم الله رب العالمين ^(٤) ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ أي لا تطردهم فإنك إن طردتهم تكون من الظالمين ، وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله ^(٥) ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أي ابتلينا الغني بالفقير والشریف بالوضيع ﴿ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أي ليقول الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء من الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا !! قالوا ذلك إنكاراً واستهزاء كقولهم ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي الله أعلم بمن يشكر فيهديه ومن يكفر فيخزيه ، والاستفهام للتقرير ﴿وإذا جاءك

(١) البحر ١٣٤/٤ (٢) الطبري ٣٧٤/١١ (٣) حاشية الصاوي ١٧/٢ (٤) ذهب إلى هذا الطبري وبعض المفسرين .

(٥) القرطبي ٤٣٤/٦ .

عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ
 نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَسْبَتَيْنِ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ
 مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي
 مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم ﴿٥٤﴾ قال القرطبي: نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام) ^(١) وأمر ﷺ بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطيباً لقلوبهم ﴿٥٥﴾ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴿٥٦﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً ﴿٥٧﴾ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴿٥٨﴾ أي خطيئة من غير قصد قال مجاهد: أي لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر ﴿٥٩﴾ ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴿٦٠﴾ أي ثم تاب من بعد ذلك الذنب وأصلح عمله فإن الله يغفر له ، وهو وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح ﴿٦١﴾ وكذلك نفصل الآيات ﴿٦٢﴾ أي كما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين كذلك نبين ونوضح لكم أمور الدين ﴿٦٣﴾ ولتستبين سبيل المجرمين ﴿٦٤﴾ أي ولتوضح وتظهر طريق المجرمين فينكشف أمرهم وتستبين سبلهم ﴿٦٥﴾ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴿٦٦﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إني نهيت أن أعبد هذه الأصنام التي زعمتموها آلهة وعبدتموها من دون الله ﴿٦٧﴾ قل لا أتبع أهواءكم ﴿٦٨﴾ أي في عبادة غير الله ، وفيه تنبيه على سبب ضلالهم ﴿٦٩﴾ قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴿٧٠﴾ أي قد ضللت إن أتبع أهواءكم ولا أكون في زمرة المهتدين ﴿٧١﴾ قل إني على بينة من ربي ﴿٧٢﴾ أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿٧٣﴾ وكذبتكم به ﴿٧٤﴾ أي وكذبتكم بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿٧٥﴾ ما عندي ما تستعجلون به ﴿٧٦﴾ أي ليس عندي ما أبادركم به من العذاب قال الزمخشري: يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم ﴿٧٧﴾ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ إن الحكم إلا لله ﴿٨٠﴾ أي ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلا لله وحده ﴿٨١﴾ يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴿٨٢﴾ أي يخبر الخبر الحق ويبينه البيان الشافي وهو خير الحاكمين بين عباده ﴿٨٣﴾ قل لو أن عندي ما تستعجلون به ﴿٨٤﴾ أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه ﴿٨٥﴾ لقضي الأمر بيني وبينكم ﴿٨٦﴾ أي لعجلته لكم لأستريح منكم ولكنه بيد الله قال ابن عباس: لم أهملكم ساعةً ولا هلكتكم ^(٢) ﴿٨٧﴾ والله أعلم بالظالمين ﴿٨٨﴾ أي هو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم وإن شاء أخر عقوبتهم ، وفيه وعيد وتهديد .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ فيه استعارة لأن الموتى عبارة عن الكفار لموت قلوبهم .

٢ - ﴿يطير بجناحيه﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل كقوله ﴿الزمناء طائره في عنقه﴾ .

٣ - ﴿صم وبكم﴾ تشبيه بليغ أي كالصم البكم في عدم السماع وعدم الكلام فحذفت منه الأداة ووجه الشبه .

٤ - ﴿إياه تدعون﴾ فيه قصر أي لا تدعون غيره لكشف الضر ، فهو قصر صفة على موصوف .

٥ - ﴿فقطع دابر﴾ كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال .

٦ - ﴿الأعمى والبصير﴾ استعارة عن الكافر والمؤمن .

٧ - ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ في هاتين الجملتين من أنواع البديع ما يسمى ردّ الصدر على العجز .

فَكَايْدَة : قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ هذا إيذان بوجود الحمد عند هلاك الظلمة وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم ^(١) .

فَكَايْدَة : قال بعض المفسرين : إن الواجب في الدعاء بالإخلاص به لأنه تعالى قال ﴿يريدون وجهه﴾ وهكذا جميع الطاعات لا ينبغي أن تكون لشيء من أغراض الدنيا .

قال الله تعالى : ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . . إلى . . عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾
من آية (٥٩) إلى نهاية آية (٧٣) .

المناسكبة : لما أقام تعالى الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته ، أعقبه بذكر الأدلة على صفاته القدسية : علمه ، وقدرته ، وعظمته ، وجلاله ، وسائر صفات الجلال والجمال ، ثم ذكر نعمته على العباد بإنجائهم من الشدائد ، وقدرته على الانتقام ممن خالف أمره وعصى رسله .

اللغة : ﴿كرب﴾ الكرب : الغم الذي يأخذ بالنفس ﴿شيعاً﴾ الشيعة : الفرقة تتبع الأخرى ويجمع على شيع وأشياع ﴿أبسلوا﴾ الإيسال : تسليم الإنسان نفسه للهلاك ﴿عدل﴾ فدية ﴿حميم﴾ الحميم : الماء الحار ﴿حيران﴾ الحيرة : التردد في الأمر لا يبتدي إلى مخرج منه ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ﴿الشهادة﴾ ما كان مشاهداً ظاهراً للعيان ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون .

* وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

النفسير : ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ أي عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغيبة الخفية لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي ويعلم ما في البر والبحر من الحيوانات جملة وتفصيلاً وفي كل عوالم وعجائب وسعها علمه وقدرته ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ أي ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أو لا وكم تنبت ومن يأكلها ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ أي ولا شيء فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجل في اللوح المحفوظ^(١) قال أبو حيان: ^(٢) وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات : بدأ أولاً بأمر معقول لا ندركه نحن بالحس وهو ﴿مفاتيح الغيب﴾ ثم ثانياً بأمر ندرك كثيراً منه بالحس وهو ﴿البر والبحر﴾ ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض فدل ذلك على أنه تعالى عالم بالكليّات والجزئيات^(٣) ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ينمكم بالليل ويعلم ما كسبتم من العمل بالنهار قال القرطبي: وليس ذلك موتاً حقيقة بل هو قبض الأرواح ، قال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم^(٤) ، وفي هذا اعتبار واستدلال على البعث الأخروي ﴿ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجلٌ مسمى﴾ أي ثم يوقظكم في النهار لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم ، والضمير عائد على النهار لأن غالب اليقظة فيه وغالب النوم بالليل ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ أي ثم مرجعكم إليه يوم القيامة ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي يخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ثم ذكر تعالى

(١) البحر المحيط ٤/ ١٤٦ . (٢) كتب شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال حول هذه الآية كلاماً رائعاً نجتزئ منه بعض فقرات ، قال طيّب الله ثراه « وهذه الآية صورة لعلم الله الشامل المحيط الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو ، من حي وميت ، ويابس ورطب ، إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وراء حدود هذا الكون المشهود ، وإن الوجدان ليرتدش وهو يرتاد أستار الغيوب المخنومة في الماضي والحاضر والمستقبل ، البعيدة الأماد والآفاق والأغوار ، مفتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو ، ويجول في مجاهل البر ، وفي غيايات البحر ، المكشوفة كلها لعلم الله ، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك ، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله ، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض لا يند منه شيء عن علم الله المحيط ، إنها جولة تدير الرؤوس وتذهل العقول ، جولة في أغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول ، وهي ترسم هكذا بدقة كاملة شاملة في بضع كلمات . . . ألا إنه الإعجاز » في ظلال القرآن ٧/ ٢٤٧ . (٣) القرطبي ٥/ ٧ (٤) زاد المسير ٥٥/ ٣ .

تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتَ

جلال عظمته وكبريائه فقال ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ويُرسل عليكم حفظة﴾ أي ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون قال أبو السعود : وفي ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لأن المكلف إذا علم أن أعماله تُحفظ عليه وتعرض على رءوس الشهداء كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح ^(١) ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح والمعنى أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل فهم مأمورون بحفظ ابن آدم ما دام حياً فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له ﴿وهم لا يفرطون﴾ أي لا يقصرون في شيء مما أمروا به من الحفظ والتوفي ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي ثم يردُّ العباد بعد البعث إلى الله خالقهم ومالكهم الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلا بالعدل ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ أي له جل وعلا الحكم وحده يوم القيامة وله الفصل والقضاء لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن ، يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا كما ورد به الحديث وروي أنه يحاسب الناس في مقدار حلب شاة ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ أي قل يا محمد هؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر ؟ ﴿تدعونه تضرعاً وخفية﴾ أي تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين الضراعة ، تضرعاً بالستكم وخفية في أنفسكم قال ابن عباس المعنى : تدعون ربكم علانية وسراً قائلين ﴿لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ أي لئن خلصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكونن من المؤمنين الشاكرين والغرض : إذا خفتم الهلاك دعوتهم فإذا نجاكم كفرتموه قال القرطبي : وبخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره ^(٢) ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ومن كل كرب وغم ﴿ثم أنتم تشركون﴾ تفرع وتوبيخ أي ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ أي قل يا محمد هؤلاء الكفرة إنه تعالى قادر على إهلاككم بإرسال الصواعق من السماء وما تلقيه البراكين من الأحجار والحُمم وكالرجم بالحجارة والظوفان والصيحة والريح كما فعل بمن قبلكم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ بالخسف والزلازل والرجفة كما فعل

أَرْجُلُكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعَا وَيَذِيقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصِرْفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ
فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي

بقارون وأصحاب مدين ﴿أو يلبسكم شيعة ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ أي يجعلكم فرقا متحزبين
يقاتل بعضكم بعضاً قال البيضاوي : أي يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم^(١)
وقال ابن عباس : أي يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقا^(٢) ، والكل متقارب والغرض منه الوعيد
﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ أي انظر كيف نبين ونوضح لهم الآيات بوجوه العبر
والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه
الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك
﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شيعة ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال
رسول الله ﷺ : هذه أهون أو أيسر^(٣) ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾ أي وكذب بهذا القرآن قومك يا
محمد - وهم قريش - وهو الكتاب المنزل بالحق ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أي لست عليكم بحفيظ
ومتسلط إنما أنا منذر ﴿لكل نبي مستقر﴾ أي لكل خبر من أخبار الله عز وجل وقت يقع فيه من غير
خلف ولا تأخير ﴿وسوف تعلمون﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي سوف تعلمون ما يحل بكم من
العذاب ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي إذا رأيت هؤلاء الكفار يخوضون في القرآن بالطعن
والتكذيب والاستهزاء ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم حتى
يأخذوا في كلام آخر ويدعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن قال السدي : كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين
وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبوه واستهزءوا به فأمرهم الله ألا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث
غيره^(٤) ﴿وإمّا ينسيتك الشيطان﴾ أي إن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم فجالستهم ثم تذكرت
﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ أي لا تجلس بعد تذكر النهي مع الكفرة والفساق الذين
يهزءون بالقرآن والدين قال ابن عباس : أي قم إذا ذكرت النهي ولا تقعد مع المشركين ﴿وما على الذين
يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار على استهزائهم وإضلالهم
إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أي ولكن عليهم أن يذكروهم وينعوههم
عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير^(٥) ، ويظهروا لهم الكراهة لعلهم يجتنبون الخوض في

(١) البيضاوي ص/ ١٧٣ . (٢) زاد المسير ٣/ ٥٩ . (٣) أخرجه البخاري . (٤) الطبري ١١/ ٤٣٧ .

(٥) ذهب الطبري إلى أن معنى الآية : ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله ليتقوا الله .

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَرِّبْ بِهِ ۚ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُزِدْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ ۖ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ ۖ إِلَى الْهُدَىٰ اثْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأَمْرًا لِّنُسَلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ

القرآن حياءً من المؤمنين إذا رأوهم قد تركوا مجالستهم قال ابن عطية : ينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحددين وأهل الجدل والخوض فيه ^(١) ﴿وذري الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ أي اترك هؤلاء الفجرة الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً ولهواً باستهزائهم به ﴿وغرَّتْهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً ﴿وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أي وذكر بالقرآن الناس مخافة أن تُسَلِّمَ نفسٌ للهلاك وتُرهن بسوء عملها ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ أي ليس لها ناصرٌ ينجيها من العذاب ولا شفيع يشفع لها عند الله ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي وإن تُعْطِ تلك النفس كل فدية لا يقبل منها قال قتادة : لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يقبل منها ^(٢) ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا﴾ أي أسلموا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة ﴿لهم شرابٌ من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ أي هؤلاء الضالين شرابٌ من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ، ونارٌ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فلهم مع الشراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم ﴿قل أَدْعُوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد أنعبد ما لا ينفعنا إن دعوانه ولا يضرنا إن تركناه ؟ والمراد به الأصنام ﴿ونُزِدْ على أعقابنا﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ أي بعد أن هدانا الله للإسلام ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ أي فيكون مثلنا كمثله الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوة سحيقة ﴿حيران﴾ أي متحيراً لا يدري أين يذهب ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى اثننا﴾ أي إلى الطريق الواضح يقولون اثننا فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي قل هؤلاء الكفار إن ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ أي أمرنا بأن نستسلم لله عز وجل ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا ، وهذا تمثيل لمن ضلَّ عن الهدى وهو يُدعى إلى الإسلام فلا يُجيب قال ابن عباس : هذا مثلٌ ضرب به الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله ، كمثله رجلٌ ضلَّ عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه مناد يا فلان بن فلان هلُمَّ إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلُمَّ إلى

وَاتَّقَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق يقول : مثل من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الهلكة والندامة ^(١) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا﴾ أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون إليه يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي هو سبحانه الخالق المالك المدبر للسموات والأرض ومن فيهما خلقهما بالحق ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ﴿يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي واتقوه واتقوا عقابه والشدائد يوم يقول كن فيكون قال أبو حيان: وهذا تمثيل لإخراج الشيء من العدم إلى الوجود وسرعته لا أن ثم شيئاً يؤمر ^(٢) ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ أي قوله الصدق الواقع لا محالة وله الملك يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية وهي نفخة الإحياء ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم ما خفي وما ظهر وما يغيب عن الحواس والأبصار وما تشاهدونه بالليل والنهار ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي الحكيم في أفعاله الخبير بشئون عباده .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ استعار المفاتيح للأمر الغيبية كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات قال الزمخشري : جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال ، فهو سبحانه العالم بالمغيبات وحده ^(٣) .

٢ - ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز .

٣ - ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ وضع الظاهر موضع الضمير «معهم» للتسجيل عليهم بشناعة ما ارتكبوا حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق والتعظيم .

٤ - ﴿ونرد على أعقابنا﴾ عبّر بالرد على الأعقاب عن الشك لزيادة تقبيح الأمر وتشنيعه .

٥ - ﴿تعدل كل عدل﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - من المحسنات البديعية الطباق في كل من ﴿رطبٍ ويابسٍ﴾ و ﴿الليل والنهار﴾ و ﴿فوق

وتحت ﴿و﴾ ينفعنا ويضرنا ﴿و﴾ الغيب والشهادة ﴿و﴾ السجع في ﴿شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم﴾ والله أعلم .

تنبيه : قال الحاكم : دلّ قوله تعالى ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب^(١) ، انتهى أقول : هذا كذب وبهتان لأن الغيب لا يعلمه إلا الله .

قال الله تعالى : ﴿واذ قال إبراهيم لأبيه آزر . . إلى . . وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى الحجج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان ، ذكر هنا قصة أب الأنبياء « إبراهيم » لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم الأصنام ، فإنه جاء بالتوحيد الخالص الذي يتنافى مع الإشراف بالله ، وجميع الطوائف والملل معترفةً بفضل إبراهيم وجلالة قدره ، ثم ذكر شرف الرسل من أبناء إبراهيم ، وأمر رسوله بالاعتداء بهديهم الكريم .

اللغة : ﴿ملكوت﴾ ملك والواو والتاء للمبالغة في الوصف كالرغبوت والرهبوت من الرغبة والرغبة ﴿جن﴾ ستره بظلمته قال الواحدي : جنّ عليه الليل وأجنّه الليل ويقال لكل ما سترته جنّ وأجنّ ومنه الجنة ، والجنّ والجنون ، والجنين وكل هذا يعود أصله إلى الستروالاستتار^(٢) ﴿بازغاً﴾ طالعاً يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع قال الأزهري : كأنه مأخوذ من البزغ وهو الشق لأنه بنوره يشق الظلمة شقاً^(٣) ﴿أفل﴾ غاب يقال : أفل أفولاً إذا غاب ﴿سلطاناً﴾ حجة ﴿يلبسوا﴾ يخلطوا يقال : لبس الأمر خلطه ولبس الثوب اكتسى به ﴿اجتبناهم﴾ اصطفيناهم ﴿قراطيس﴾ جمع قرطاس وهو الورق قال الشاعر :

استودع العلم قرطاساً فضيعة فبئس مستودع العلم القراطيس

﴿غمرات﴾ الغمرة : الشدة المذهلة وأصله من غمرة الماء وهي ما يغطي الشيء ﴿خولناكم﴾ أعطيناكم وملكناكم والتحويل : المنح والإعطاء ﴿ضلّ عنكم﴾ ضاع وبطل .

سبب النزول : عن سعيد بن جبیر أن « مالك بن الصيّف » من اليهود جاء يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان حبراً سمياً - فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى ؟ فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿وما قدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . .﴾^(٤) الآية .

(١) محاسن التأويل ٦/٢٣٤٣ . (٢) تفسير الرازي ١٣/٤٦ .

(٣) تهذيب اللغة مادة بزغ . (٤) أسباب النزول ص ١٢٦ والقرطبي ٧/٣٧ .

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَأُ اتَّخَذُ أَصْنَامًا هَٰؤُلَاءِ إِلَهَةً ۖ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ دَعِيتُكَ وَفَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ﴿٧٦﴾ قَالَ لَا أَحِبُّ ٱلْأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ﴿٧٧﴾ قَالَ لَا أَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ

النفسير : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَأُ اتَّخَذُ أَصْنَامًا هَٰؤُلَاءِ إِلَهَةً ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك عبدة الأوثان وقت قول إبراهيم - الذي يدعون أنهم على ملته - لأبيه أزر منكراً عليه اتَّخَذُ أَصْنَامًا آلهة تعبدها وتجعلها رباً دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك ؟ ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ دَعِيتُكَ وَفَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي فأنت وقومك في ضلال عن الحق مبين واضح لا شك فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي نُرِي إِبْرَاهِيمَ الْمَلِكُ الْعَظِيمَ وَالسُّلْطَانَ الْبَاهِرَ ﴿ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أي وليكون من الراسخين في اليقين أريناه تلك الآيات الباهرة قال مجاهد : فُرِجَتْ لَهُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضُ فَرَأَىٰ بَصَرَهُ الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَىٰ وَالْمَلَكُوتِ الْأَسْفَلَ ^(١) ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ﴾ أي فلما ستر الليلُ بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ أي على زعمكم قاله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم لأجل أن يعرفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله قال الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٌّ إلى ألا يكون شيء منها إلهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها ، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وقوله ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطلٌ ، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة ^(٢) ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ ٱلْأَفْلِينَ ﴾ أي فلما غاب الكوكب قال لا أحب عبادة من كان كذلك ، لأن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال لأن ذلك من صفات الأجرام ﴿ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ أي فلما رأى القمر طالعا منتشرا الضوء قال هذا ربي على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ أي فلما غاب القمر قال إبراهيم لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين ، وفيه تعريض لقومه بأنهم على ضلال ﴿ فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ﴾ أي هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إشراككم

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ

وأصنامكم قال أبو حيان: لما أوضح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ، وأكبر جرماً وأعم نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبين أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث^(١) وقال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلما انتفتت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾^(٢) ﴿إني وجهت وجهي﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿لذي فطر السموات والأرض﴾ أي الله الذي ابتدع العالم وخلق السموات والأرض ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿وما أنا من المشركين﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره ﴿وحاجه قومه﴾^(٣) أي جادلوه وناظروه في شأن التوحيد قال ابن عباس: جادلوه في أهتهم وخوفه بها فأجابهم منكرأ عليهم ﴿قال أتُحاجونني في الله﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿وقد هدان﴾ أي وقد بصّرني وهداني إلى الحق ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ أي لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما ترعمون ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبيني شيء من المكروه فيكون ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿أفلا تتذكرون﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعتلون؟ وفي هذا تنبيه لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ أي كيف أخاف أهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة! ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ أي أينا أحق بالأمن أنحن

(١) البحر المحيط ٤/ ١٦٧ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٩٢ .

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن قول إبراهيم عن الكوكب ﴿هذا ربي﴾ إنما كان في حال الطفولة قبل استحكام النظر في معرفة الله جل وعلا، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر، وأن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح البراهين، وما يدل عليه قوله تعالى ﴿وحاجه قومه﴾ وقوله ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ فاللحاق مقام مناظرة - كما قال الحافظ ابن كثير - لا مقام نظر، وحاشا للخليل أن يشك في الرب الجليل وهو أب الأنبياء وإمام الخلفاء، وقد ساق «الفخر الرازي» اثنتي عشرة حجة في تأييد مذهب الجمهور في تفسيره الكبير ج ١٣ ص ٤٧ وهذا اختيار أساطين المفسرين كالقرطبي والزنجشري وأبي السعود وابن كثير وصاحب البحر المحيط والله أعلم .

تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْاٰمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ جَنَّاتُ
ءَاتَيْنَهَا ءِبْرٰهِيْمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ؕ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ؕ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ ءِيسٰحَ وَيَعْقُوْبَ
كُلًّا هَدِيْنًا وَنُوْحًا هَدِيْنًا مِّنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ ؕ ءَايُوْبَ وَيُوْسُفَ وَمُوْسٰى وَهٰرُوْنَ ؕ وَكَذٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيٰى وَعِيسٰى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِلْيَاسَ وَيُوْنُسَ

وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتهم بالواحد
الديان؟ ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أولئك لهم الأمن وهم
مهتدون﴾ أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد ، روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها
أصحاب النبي ﷺ فقالوا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ : ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه
﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾^(١) ﴿وتلك جنتنا آتينها إبراهيم على قومه﴾ الإشارة
إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيد الله بها خليله عليه السلام أي هذا الذي احتج به إبراهيم على
وحداية الله من أقول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على
قومه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ أي بالعلم والفهم والنبوة ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ أي حكيم يضع
الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء ﴿وهبنا له إسحق ويعقوب﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد
لتقر عينه ببقاء العقب ﴿كلأ هدينا﴾ أي كلأ منها أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة قال
ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السن وأيس من الولد ، وبشر بنوته وبأن
له نسلًا وعقباً وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر
من بلادهم لعبادة الله ، فعوضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقر بهم عينه^(٢) ﴿ونوحاً
هدينا من قبل﴾ أي من قبل إبراهيم ، وذكر تعالى نوحاً لأنه أب البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم ثم
ذكر شرف آبائه ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ أي ومن ذرية إبراهيم^(٣) هؤلاء الأنبياء الكرام ، وبدأ
تعالى بذكر داود وسليمان لأنها جمعاً الملك مع النبوة وسليمان بن داود فذكر الأب والابن ﴿وأيوب
ويوسف﴾ قرنهما لاشتراكهما في الامتحان والبلاء ﴿وموسى وهارون﴾ قرنهما لاشتراكهما في الأخوة
وقدم موسى لأنه كليم الله ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم
نجزي من كان محسناً في عمله صادقاً في إيمانه ﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس﴾ قرن بينهم لاشتراكهم
في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ﴿كل من الصالحين﴾ أي الكاملين في الصلاح ﴿وإسماعيل
واليسع ويونس ولوطاً﴾ اسماعيل هو ابن إبراهيم ، ويونس بن متى ، ولوط بن هاران وهو ابن أخ إبراهيم

(١) الحديث أصله في الصحيحين . (٢) مختصر ابن كثير ٥٩٦/١ . (٣) الضمير في ﴿ذريته﴾ فيه قولان : قيل إنه يرجع إلى نوح واختاره
الفراء وابن جرير وقيل : إنه يرجع إلى إبراهيم وهو قول عطاء واختاره أبو السعود لأن مساق الآية لبيان شئون إبراهيم العظيمة .

وَلَوْ طَآءَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَ ۖ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ۚ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ۖ يَجْعَلُونَهُ قِرَاطِيسَ يُبَدِّلُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي كلاً من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات كثيرة ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب ^(١) ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم ؟ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربانية والنبوة والرسالة ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرنا يا محمد فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبينا ^(٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَ﴾ أي هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديون فتأس واقتد بسيرتهم العطرة ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير لجميع الخلق ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظّموه حقّ تعظيمه ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل ، والقائلون هم اليهود اللعناء تفوهوا بهذه العظيمة الشنّعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المعاندين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل ؟ ﴿يَجْعَلُونَهُ قِرَاطِيسَ يُبَدِّلُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي تكتبونه في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون

(١) البحر ١٧٣/٢ . (٢) قيل إن المراد بهم أهل المدينة من الأنصار وهو قول ابن عباس وقيل هم النبيون الثانية عشر المذكورون في هذه

الآية وهو قول قتادة واختيار الزجاج وابن جرير .

ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ

قال الطبري : وما كانوا يكتُمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته ^(١) ﴿وعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أي عَلَّمْتُمْ يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لَمْ تَعْلَمُوا به من قبل لا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي قل لهم في الجواب : الله أنزل هذا القرآن ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون ، وهذا وعيدٌ لهم وتهديد على إجرامهم ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿مصدق الذي بين يديه﴾ أي يصدق كتب الله المنزل كالطوراة والإنجيل ﴿ولتنذر أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ﴿والذين يؤمنون بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي والذين يصدقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها قال الصاوي : خصَّ الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات ^(٢) ﴿ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً﴾ استفهام معناه النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء وأن داداً ﴿أو قال أوحى إليّ ولم يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي زعم أن الله بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله ﴿ومن قال سأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي ومن ادعى أنه سينظم كلاماً يماثل ما أنزله الله كقول الفجار ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ قال أبو حيان : نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يُذكر لسخفه ^(٣) ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : خلصوا أنفسكم من العذاب قال الزمخشري : المعنى يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم ، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ^(٤) ﴿اليوم تجزّون عذاب الهون﴾ أي تجزون العذاب الذي

(١) الطبري ٥٢٧/١١ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣١/٢ . (٣) البحر المحيط ١٨٠/٤ . (٤) الكشف ٣٦/٢

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ
لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾

يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ أي بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي تكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاة عراة غرلاً كما ورد في الحديث (أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده . .) (١) ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعتم أنهم فيكم شركاء﴾ أي وما نرى معكم آلهتكم الذين زعتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أي تقطع وصلكم وتشتت جمعكم ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتموه من الشفعاء والشركاء .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ حكاية حال ماضية أي أريناه .

٢ - ﴿لأكوننَّ من القوم الضالين﴾ فيه تعريض بضلال قومه ، وبين لفظ ﴿الهداية والضلالة﴾ طباق وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وجهت وجهي﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٤ - ﴿هدى الله﴾ الإضافة للتشريف وبين ﴿هدى﴾ و ﴿يهدي﴾ جناس الاشتقاق أيضاً .

٥ - ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحد من الرسل .

٦ - ﴿من أنزل الكتاب﴾ استفهام للتبكيك والتوبيخ .

٧ - ﴿تبدونها وتخفون﴾ بينهما طباق .

٨ - ﴿أم القرى﴾ مكة المكرمة وفيه استعارة حيث شبهت بالأم لأنها أصل المدن والقرى .

٩ - ﴿في غمرات الموت﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما يعطوهم من كُرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه وسميت غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان (٢) .

(١) الحديث من رواية الشيخين ومعنى « غرلاً » أي غير مخنوقين . (٢) تلخيص البيان ص ٣٧ .

تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿آزر﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون : إنه اسم للصنم ، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين أنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري « يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة . . » الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿إن الله فالحق الحب والنوى . . إلى . . ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾

من آية (٩٥) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسكة: لما ذكر تعالى أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة ، ذكر هنا الأدلة الدالة على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله .

اللغة: ﴿فالحق﴾ الفلق : الشق ، وانفلق الصبح انشق ﴿سكناء﴾ السكن ما يسكن إليه الإنسان ويأنس به ، والسكن : الرحمة ﴿حسباناً﴾ أي بحساب قال الزمخشري : الحسبان مصدر حسب كما أن الحسبان مصدر حسب ونظيره الكفران والشكران^(١) ﴿متراكباً﴾ بعضه فوق بعض ﴿قنوان﴾ جمع قنوا وهو العذيق أي عنقود النخلة ﴿ويئعه﴾ أي نُضِجَهِ وإدراكه يقال : يئعت الشجرة وأيئعت إذا نضجت ﴿خرقوا﴾ اختلقوا كذباً وإفكاً ﴿بديع﴾ مبدع وهو الخالق على غير مثال سابق ، والإبداع الإتيان بشيء لم يسبق إليه ولهذا يقال لمن أتى في فن من الفنون لم يسبقه فيه غيره إنه أبدع ﴿نصرّف﴾ التصريف : نقل الشيء من حال إلى حال .

سبب النزول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال كفار قريش لأبي طالب إماً أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والنبل منها وإماً أن نسب إلهه ونهجوهم فنزلت ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم . .﴾^(٢) الآية وفي رواية أخرى أن المشركين قالوا يا محمد : لتنتهين عن سبك آلهتنا أولنجهون ربك^(٣) فنزلت .

* **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴿٩٥﴾
التفسير: عاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين بعجائب الصنع ولطائف التدبير فقال سبحانه : ﴿إن الله فالحق الحب والنوى﴾ أي يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها قال القرطبي : أي يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة^(٤) ﴿يُخْرِجُ

(١) الكشف ٢/ ٣٩. (٢) القرطبي ٧/ ٦١ . (٣) أسباب النزول ص ١٢٧ . (٤) القرطبي ٧/ ٤٤ .

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ

الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ﴿٩٦﴾ أي يخرج النبات الغض الطري من الحب اليابس ، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي وعن ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر ﴿٩٧﴾ ذلكم الله فأتى توفكون ﴿٩٨﴾ أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان ! ﴿٩٩﴾ فالق الإصباح ﴿١٠٠﴾ أي شاق الضياء عن الظلام وكاشفه قال الطبري : شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ﴿١٠١﴾ وجعل الليل سكناً ﴿١٠٢﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿١٠٣﴾ والشمس والقمر حسباناً ﴿١٠٤﴾ أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد ، ويعرف بها حساب الأزمان والليل والنهار ﴿١٠٥﴾ ذلك تقدير العزيز العليم ﴿١٠٦﴾ أي ذلك التيسير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء العليم بمصالح خلقه وتديبرهم ﴿١٠٧﴾ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿١٠٨﴾ أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر ، وإنما امتن عليهم بالنجوم لأن سالكي القفار ، وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿١٠٩﴾ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴿١١٠﴾ أي بينا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق ﴿١١١﴾ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ﴿١١٢﴾ أي خلقكم وأبدعكم من نفس واحدة هي آدم عليه السلام ﴿١١٣﴾ فمستقر ومستودع ﴿١١٤﴾ قال ابن عباس : المستقر في الأرحام والمستودع في الأصلاب ، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم ، وقال ابن مسعود : مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها ﴿١١٥﴾ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴿١١٦﴾ أي بينا الحجج لقوم يفقهون الأسرار والدقائق قال الصاوي : عبر هنا بـ ﴿يفقهون﴾ إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمر خفي تتحير فيه الألياب ، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد ، ولذا عبر فيها بـ ﴿يعلمون﴾ ﴿١١٧﴾ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء ﴿١١٨﴾ أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبت من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجر قال الطبري : أي أخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح ﴿١١٩﴾ فأخرجنا منه خضراً ﴿١٢٠﴾ أي أخرجنا من النبات شيئاً غصناً أخضر ﴿١٢١﴾ نخرج به حباً متراكباً ﴿١٢٢﴾ أي نخرج من الخضر حباً متراكباً بعضه فوق بعض كسنايل الحنطة والشعير قال ابن عباس : يريد القمح والشعير والذرة والأرز ﴿١٢٣﴾ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴿١٢٤﴾ أي

(١) الطبري ٥٥٤/١١ . (٢) وفسر المستقر أيضاً بالاستقرار فوق الأرض والمستودع تحت الأرض واختار الطبري العموم.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٤/٢ . (٤) الطبري ٥٧٣/١١ .

مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ^ق أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ^ج إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ^ط وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

وأخرجنا من طلع النخل - والطلع أول ما يخرج من التمر في أكمائه - عناقيد قريبة سهلة التناول قال ابن عباس : يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع دانيةً ممن يجتنئها ﴿وجناتٍ من أعناب﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه﴾ أي وأخرجنا به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم قال قتادة : مشتبهاً ورقه مختلفاً ثمرة ، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والرائحة والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مرأً وبعضه مالحاً لا ينتفع بشيء منه ، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق ! فسبحان القدير الخلاق !! ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدقون بوجود الله قال ابن عباس : يصدقون أن الذي أخرج هذا النبات قادرٌ على أن يحيي الموتى ^(١) ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ أي وجعلوا الجن شركاء لله حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وخلقهم﴾ أي وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له ؟ وهذه غاية الجهالة ﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم﴾ أي واختلقوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات حيث قالوا : عزيز ابن الله والملائكة بناتُ الله سفهاً وجهالة ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ أي تنزه الله وتقديسه عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون وتعالى علواً كبيراً ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي مبدعها من غير مثالٍ سبق ﴿أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي كيف يكون له ولد وليس له زوجة ؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ أي وما من شيء إلا هو خالقه والعالم به ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء قال في التسهيل : والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين : أحدهما أن الولد لا يكون إلا من جنس والده والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد ، والثاني : أن الله خلق السموات والأرض ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء ^(٢) ثم أكد تعالى على وحدانيته وتفرد بالخلق والإيجاد فقال ﴿ذلكم

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٦٠﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿٦١﴾ وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٣﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٤﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٥﴾

الله ربكم لا إله إلا هو ﴿٦٠﴾ أي ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبر أموركم لا معبود بحق سواه ﴿٦١﴾ خالق كل شيء فاعبدوه ﴿٦٢﴾ أي هو الخالق لجميع الموجودات ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده ﴿٦٣﴾ وهو على كل شيء وكيل ﴿٦٤﴾ أي وهو الحافظ والمدبر لكل شيء ففوضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته ﴿٦٥﴾ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴿٦٦﴾ أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به وهو يراها ويحيط بها لشمول علمه تعالى للخفيات ﴿٦٧﴾ وهو اللطيف الخبير ﴿٦٨﴾ أي اللطيف بعباده الخبير بمصالحهم قال ابن كثير : ونفي الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء ، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية (١) ﴿٦٩﴾ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴿٧٠﴾ أي قد جاءكم البينات والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلال وتميزون بها بين الحق والباطل قال الزجاج : المعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر (٢) ﴿٧١﴾ فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها ﴿٧٢﴾ قال الزمخشري : المعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإياها نفع ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضرر بالعمى (٣) ﴿٧٣﴾ وما أنا عليكم بحفيظ ﴿٧٤﴾ أي لست عليكم بحافظ ولا رقيب وإنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ﴿٧٥﴾ وكذلك نصرف الآيات ﴿٧٦﴾ أي وكما بينا ما ذكر نبين الآيات ليعتبروا ﴿٧٧﴾ وليقولوا درست ﴿٧٨﴾ أي وليقولوا درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئت بهذا القرآن ، واللام لام العقاب ﴿٧٩﴾ ولنبينه لقوم يعلمون ﴿٨٠﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ﴿٨١﴾ اتبع ما أوحى إليك من ربك ﴿٨٢﴾ أي اتبع يا محمد القرآن الذي أوحاه الله إليك قال القرطبي : أي لا تشغل قلبك وخاطرك بهم بل اشتغل بعبادة الله (٤) ﴿٨٣﴾ لا إله إلا هو ﴿٨٤﴾ أي لا معبود بحق إلا هو ﴿٨٥﴾ وأعرض عن المشركين ﴿٨٦﴾ أي لا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم ﴿٨٧﴾ ولو شاء الله ما أشركوا ﴿٨٨﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم فلم يشركوا ولكنه سبحانه يفعل ما يشاء ﴿٨٩﴾ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴿٩٢﴾ أي وما جعلناك رقيباً على أعمالهم تجازيهم عليها ﴿٩٣﴾ وما أنت عليهم بوكيل ﴿٩٤﴾ أي ولست بموكل على أرزاقهم وأمورهم قال الصاوي : وهذا تأكيد لما قبله أي لست حفيظاً مراقباً لهم فتجبرهم على الإيمان وهذا كان قبل الأمر بالقتال (٥) ﴿٩٥﴾ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴿٩٦﴾ أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم ﴿٩٧﴾ فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴿٩٨﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً لعدم

(١) مختصر ابن كثير ٦٠٥/١ (٢) تفسير ابن الجوزي ٩٩/٣ (٣) الكشف ٤٣/٢ (٤) القرطبي ٦٠/٧

(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٧/٢

معرفتهم بعظمة الله قال ابن عباس : قال المشركون : لتنتهين عن سبك أهتنا أولنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم^(١) ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ أي كما زيننا لهؤلاء أعمالهم كذلك زيننا لكل أمة عملهم قال ابن عباس : زيننا لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفر ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أي ثم معادهم ومصيرهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذاب ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي حلف كفار مكة بأغلظ الأيمان وأشدّها ﴿لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها﴾ أي لئن جاءتهم معجزة أو أمر خارق لما اقترحوه ليؤمننَّ بها ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل لهم يا محمد أمر هذه الآيات عند الله لا عندي هو القادر على الإتيان بها دوني ﴿وما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءتهم لا يصدقون بها !! ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ أي ونحوّل قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أنزل من القرآن أول مرة قال الصاوي : وهو استئناف مسوق لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره فمن أراد له الهدى حوّل قلبه له ، ومن أراد الله شقاوته حوّل قلبه لها^(٢) ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي ونتركهم في ضلالهم يتخبطون ويترددون متحيرين .

(١) ابن كثير ٦٠٧/١. (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٩/٢.

٦ - بين لفظ ﴿أبصر وعمي﴾ طباق وبين لفظ ﴿بصائر وأبصر﴾ جناس الاشتقاق .

تنبيه : قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ الآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية فلم يقل تعالى : لا تراه الأبصار فمن ذهب إلى عدم رؤية الله في الآخرة كالمعتزلة فقد جانب الحق وضلّ السبيل بمخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المتواترة أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وأما السنة فما أخرجه البخاري (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته . .) الحديث وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً .

قال الله تعالى : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى . . إلى . . وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾
من آية (١١١) إلى نهاية آية (١٢٧) .

المناسكة : لما ذكر تعالى دلائل التوحيد والنبوة والبعث ، واقتراح المشركين بعض الآيات على رسول الله ﷺ ، ذكر هنا أن رؤية المعجزات لن تفيد من عميت بصيرته ، وأنه لو أتاهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة ، وإحياء الموتى حتى يكلموهم ، وحشر السباع والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول ما آمنوا بمحمد والقرآن لتأصلهم في الضلال .

اللفظة : ﴿قُبلاً﴾ مقابلة ومواجهة ومنه قولهم أتيْتُكَ قُبلاً لا دُبراً أي من قِبَل وجهك ﴿وحشرنا﴾ الحشر : الجمع مع سوق وكل جمع حشُر ومنه ﴿فحشر فنأدى﴾ . ﴿زخرف﴾ قال الزجاج : الزخرف الزينة وقال أبو عبيدة : كلُّ ما حسنته وزينته وهو باطل فهو زخرف ﴿ولتصغى﴾ صغى إلى الشيء مال إليه ومثله أصغى وفي الحديث (فأصغى إليها الإناء) وأصله الميل ﴿يقترفون﴾ اقترف : اكتسب وأكثر ما يكون في الشر يقال : قرف الذنب واقترفه أي اكتسبه ﴿يخرصون﴾ يكذبون قال الأزهري : أصله الظن فيما لا يستيقن ﴿صغار﴾ ذلة وهوان ﴿يشرح﴾ يوسّع والشرح : البسط والتوسعة ﴿حرجاً﴾ الحرج : شدة الضيق قال ابن قتيبة : الحرج الذي ضاق فلم يجد منفذاً^(٣) .

سبب النزول : عن ابن عباس أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث - وحمة لم يؤمن بعد - فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس فقال أبو جهل : أما ترى ما جاء به سفه عقولنا ، وسب أهتنا ، وخالف آباءنا قال حمزة : ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل الله ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه . . الآية^(٣) .

(١) تهذيب اللغة مادة خرص . (٢) غريب القرآن ص ١٦٠ . (٣) أسباب النزول ص ١٢٨ .

* وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا

التفسير : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾ هذا بيان لكذب المشركين في أيمانهم الفاجرة حين أقسموا ﴿لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ والمعنى : ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه من آية واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة وأحيينا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ كما اقترحوا ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله ، والغرض التيسر من إيمانهم ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ أي ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك قال الطبري : أي يجهلون أن الأمر بمشيئة الله ، يحسبون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا ، ومتى شاءوا كفروا ، وليس الأمر كذلك ، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته ، ولا يكفر إلا من خذلته فأضلته ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المشركين أعداءك يعادونك ويخالفونك كذلك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن ، فاصبر على الأذى كما صبروا قال ابن الجوزي : أي كما ابتليناك بالأعداء ابتلينا من قبلك من الأنبياء لعظم الثواب عند الصبر على الأذى ﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والشر ﴿زخرف القول غروراً﴾ أي يوسوسون بالكلام المزين والأباطيل الموهمة ليغروا الناس ويخدعوهم قال مقاتل : وكل إبليس بالإنس شياطين يضلونهم فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه : إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا ، فذلك وحي بعضهم إلى بعض ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكن حكمة الله اقتضت هذا الابتلاء قال ابن كثير : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيبته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإن الله كافيك وناصرك عليهم ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي ولتميل إلى هذا القول المزخرف لقلب الكفرة الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وليقرئوا ما هم مقترفون﴾ أي وليرضوا بهذا الباطل وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ أي قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم ؟ قال أبو حيان : قال

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نُكَلِّمُكَ بِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تَطْعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيُضْلُوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُم مَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ

مشركو قريش لرسول الله ﷺ : اجعل بيننا وبينك حكماً إن شئت من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت (١) ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان ، مفصلاً فيه الحق والباطل موضحاً الهدى من الضلال ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزلٌ من ربك بالحق﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حقٌ لتصديقه ما عندهم ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ أي فلا تكوننَّ من الشاكين قال أبو السعود : وهذا من باب التهيج والإلهاب وقيل : الخطاب للرسول والمراد به الأمة (٢) ﴿وتمَّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي تمَّ كلام الله المنزل صدقاً فيما أخبر ، وعدلاً فيما قضى وقدَّر ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا مغير لحكمه ولا راد لقضائه ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله﴾ أي إن تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلّوك عن سبيل الهدى قال الطبري : وإنما قال ﴿أكثر من في الأرض﴾ لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً أضلّالاً والمعنى : لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنك إن أطعتهم ضللت ضلالهم وكنتم مثلهم لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه (٣) ﴿إن يتبعون إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرصون﴾ أي ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلّدون آباءهم ظناً منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلا قومٌ يكذبون ﴿إن ربك هو أعلم من يضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي إن ربك يا محمد أعلم بالفريقين بمن ضلّ عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد قال في البحر : وهذه الجملة خبرية تتضمن الوعيد والوعد لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتها (٤) ﴿فكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ أي كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقاً مؤمنين قال ابن عباس : قال المشركون للمؤمنين إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله - يريدون الميتة - أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فنزلت الآية (٥) ﴿وما لكم ألا تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه﴾ أي وما المانع لكم من أكل ما ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكركم اسم ربكم عليه عند ذبحه ؟ ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه﴾ أي وقد

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٠٦ . (٢) أبو السعود ٤/ ٢٧٤ . (٣) الطبري ١٢/ ٦٤ . (٤) البحر المحيط ٤/ ٢١٠ . (٥) زاد المسير ٣/ ١١٢ .

عَلِمَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ

يُبَيِّنُ لَكُمْ رَبُّكُمْ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَوَضَحَ لَكُمْ مَا يَحْرَمُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ الْخَبِيثِ فِي آيَةِ الْمَحْرَمَاتِ إِلَّا فِي حَالَةِ الْاضْطِرَارِّ فَقَدْ أَهْلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ أَيْضًا فَمَا لَكُمْ تَسْتَمْعُونَ إِلَى الشَّبَهَاتِ الَّتِي يَشِيرُهَا أَعْدَاؤُكُمْ الْكَفَّارُ ؟ ﴿١١٩﴾ وَإِنْ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَانِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٢٠﴾ أَيِ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْكَفَّارِ الْمُجَادِلِينَ لِيُضِلُّوا النَّاسَ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللَّهِ بَلْ بِمَجْرَدِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ ﴿١٢١﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٢٢﴾ أَيِ الْمَجَاوِزِينَ الْحُدُودَ فِي الْإِعْتِدَاءِ فَيَحْلُلُونَ وَيَحْرَمُونَ بِدُونِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ ، وَفِيهِ وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ اعْتَدَى حُدُودَ اللَّهِ ﴿١٢٣﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴿١٢٤﴾ أَيِ أَتْرَكُوا الْمَعَاصِيَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً قَالَ مُجَاهِدٌ : هِيَ الْمَعْصِيَةُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَقَالَ السَّيِّدِي : ظَاهِرُهُ الزُّنَى مَعَ الْبَغَايَا وَبَاطِنُهُ الزُّنَى مَعَ الصَّدَاقِ وَالْأَخْذَانِ (١) ﴿١٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٦﴾ أَيِ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ وَالْمَعَاصِيَ وَيَأْتُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ سِيلِقُونَ فِي الْآخِرَةِ جَزَاءَ مَا كَانُوا يَكْتَسِبُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴿١٢٨﴾ أَيِ لَا تَأْكُلُوا أَهْلًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِمَّا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَالَّذِي يَذْبَحُ لِلْأَوْثَانِ ﴿١٢٩﴾ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴿١٣٠﴾ أَيِ وَإِنْ الْأَكْلَ مِنْهُ لَمَعْصِيَةٌ وَخُرُوجٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴿١٣٢﴾ أَيِ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوسُوسُونَ إِلَى الْمَشْرِكِينَ أَوْلِيَآئِهِمْ فِي الضَّلَالِ لِلْمُجَادَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِمْ : أَتَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلْتُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ ؟ يَعْنِي الْمَيْتَةَ ﴿١٣٣﴾ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٣٤﴾ أَيِ وَإِنْ أَطَعْتُمْ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ فِي اسْتِحْلَالِ الْحَرَامِ وَسَاعَدْتُمُوهُمْ عَلَى أَبْطَالِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ قَالِ الزَّمْخَشَرِيُّ : لِأَنَّ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي دِينِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ بِهِ ، وَمَنْ حَقَّ ذِي الْبَصِيرَةِ فِي دِينِهِ أَلَّا يَأْكُلَ مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَيْفَمَا كَانَ لِلتَّشْدِيدِ الْعَظِيمِ (٢) ﴿١٣٥﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴿١٣٦﴾ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ : لَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ مَثَلُ تَعَالَى بِأَنَّ شَبَّهَ الْمُؤْمِنَ بِالْحَيِّ الَّذِي لَهُ نُورٌ يَتَصَرَّفُ بِهِ كَيْفَمَا سَلَكَ ، وَالْكَافِرَ بِالْمُتَخَبِّطِ فِي الظُّلُمَاتِ الْمُسْتَقَرِّ فِيهَا لِيُظْهِرَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ (٣) وَالْمَعْنَى : أَوْ مَنْ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتِ أَعْمَى الْبَصِيرَةِ كَافِرًا ضَالًّا ، فَأَحْيَا اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ ، وَأَنْقَذَهُ مِنَ الضَّلَالَةِ بِالْقُرْآنِ ﴿١٣٧﴾ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴿١٣٨﴾ أَيِ وَجَعَلْنَاهُ مَعَ تِلْكَ الْهُدَايَةِ النُّورِ الْعَظِيمِ الْوَضَاءَ الَّذِي يَتَأَمَّلُ بِهِ الْأَشْيَاءَ فَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿١٣٩﴾ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴿١٤٠﴾ أَيِ كَمَنْ هُوَ يَتَخَبَّطُ فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ لَا يَعْرِفُ الْمَنْفَذَ وَلَا الْمَخْلَصَ ؟ قَالَ الْبَيْضاوي : وَهُوَ مَثَلُ مَنْ بَقِيَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَفَارِقُهَا

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمًا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٦﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١١٧﴾ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ
يُرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّكَ يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى

بحال^(١) ﴿كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون﴾ أي وكما بقي هذا في الظلمات يتخبط فيها كذلك
حسناً للكافرين وزينا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر
مجرميها ليمكروا فيها﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل بلدة مجرميها من
الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها قال ابن الجوزي : وإنما جعل الأكابر فُسَّاق كل قرية لأنهم أقرب إلى الكفر
بما أعطوا من الرياسة والسعة^(٢) ﴿وما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وما يشْعُرُونَ﴾ أي وما يدرون أن وبال هذا
المكر يحق بهم ﴿وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي وإذا جاءت
هؤلاء المشركين حجة قاطعة وبرهان ساطع على صدق محمد ﷺ قالوا لَنْ نصدق برسالته حتى نُعطى من
المعجزات مثل ما أُعطي رُسُلُ الله ، قال في البحر : وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا
موقنين غير معاندين لاتبعوا رسل الله تعالى ، وروي أن أبا جهل قال : زاحنا بني عبد مناف في الشرف
حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : من أنبي يُوحى إليه ! والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي
كما يأتية فنزلت الآية^(٣) ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أي الله أعلم من هو أهل للرسالة فيضعها فيه
وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ﴿سيصيب
الذين أجمعوا صغاراً عند الله وعذاب شديد بما كانوا يَمْكُرُونَ﴾ أي سيصيب هؤلاء المجرمين الذل
والهوان ، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر قال في البحر : وقدم الصغار
على العذاب لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبروا طلباً للعز والكرامة فقبلوا بالهوان والذل أولاً ثم
بالعقاب الشديد ثانياً ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ أي من شاء الله هدايته قذف في
قلبه نوراً فينفسح له وينشرح وذاك علامة الهداية للإسلام قال ابن عباس : معناه يوسع قلبه للتوحيد
والإيمان ، وحين سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا :
فهل لذلك من أمانة يُعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد
للموت قبل نزوله^(٤) ﴿ومن يرد أن يضله﴾ أي ومن يرد شقاوته وإضلاله ﴿يجعل صدره ضيقاً
حرجاً﴾ أي يجعل صدره ضيقاً شديداً الضيق لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ * لَهُمْ دَارُ
السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قال عطاء : ليس للخير فيه منفذ^(١) ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ أي كأنما يحاول الصعود إلى السماء
ويزاول أمراً غير ممكن قال ابن جرير : وهذا مثل ضرب به الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول
الإيمان إليه ، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه^(٢) ﴿كذلك يجعل الله
الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ أي مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق كذلك يلقي الله العذاب
والخذلان على الذين لا يؤمنون بآياته قال مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه وقال الزجاج : الرجس اللعنة
في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ أي وهذا الدين الذي أنت عليه يا محمد
هو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه فاستمسك به ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ أي بينا ووضحنا
الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ أي هؤلاء الذين يؤمنون
ويعتبرون ويتفكرون بالآيات دار السلام أي السلامة من المكروه وهي الجنة في نزل الله وضيافته ﴿وهو
وليهم بما كانوا يعملون﴾ أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاء لأعمالهم الصالحة قال ابن
كثير : وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر
الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام^(٣) .

البالغة : ١ - ﴿ولو شاء ربك﴾ التعرض لوصف الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام
﴿ربك﴾ لتشريف مقامه وللمبالغة في اللطف في التسلية^(٤)

٢ - ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ الخطاب للرسول ﷺ على طريق التهيج والإلهاب .

٣ - ﴿وتمت كلمة ربك﴾ أي تم كلامه ووحيه أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل .

٤ - ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ بين لفظ ﴿ظاهر﴾ و ﴿باطن﴾ طباق .

٥ - ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه﴾ الموت والحياة ، والنور والظلمة كلها من باب الاستعارة فقد
استعار الموت للكفر والحياة للإيمان وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال^(٥) .

٦ - ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به الرسول
ﷺ وبين لفظ الشرح والضيق طباق وهو من المحسنات البديعية .

(١) ابن كثير ١/٦١٧ . (٢) الطبري ١٢/١٠٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/٦١٨ .

(٤) أفاده أبو السعود . (٥) انظر البحر المحيط ٤/٢١٤ .

فَكَايْدَةٌ : الحكم أبلغ من الحاكم وأدلُّ على الرسوخ لأنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم^(١).

تَنْبِيْهُ : قال الرازي : دلَّت هذه الآية ﴿وإن كثيراً ليضلُّون بأهوائهم بغير علم﴾ على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلَّت على أن ذلك حرام^(٢).

قال الله تعالى : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس . . إلى . . قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ .

من آية (١٢٨) إلى نهاية آية (١٤٠) .

المناسكة : لما ذكر سبحانه أن البشر فريقان : مهتد وضال ، وذكر أن منهم من شرح الله صدره وأنار قلبه فأمن واهتدى ، ومنهم من اتبع الهوى وسار بقيادة الشيطان فضلَّ وغوى ، ذكر هنا أنه سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب ، لينال كلُّ جزاءه العادل على ما قدَّم في هذه الحياة .

اللغز : ﴿مثواكم﴾ مأواكم يقال ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿يقصّون﴾ يحكون يقال قصَّ الخبر يقصُّه قصاً أي حكاة ﴿ذراً﴾ خلق ﴿الحرث﴾ الزرع ﴿ليردوهم﴾ الإرداء : الإهلاك يقال أرداهُ يرديه أي أهلكه ﴿حجراً﴾ الحجر : الحرام وأصله المنع يقال حجره أي منعه والحجر : العقل سمي به لأنه يمنع عن القبائح قال تعالى ﴿هل في ذلك قسَمٌ لذي حجر﴾ ﴿سفهاً﴾ حماقة وجهالة والسفه : خفة العقل .

﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثوكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم^(٣)

التفسير : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي اذكر يوم يجمع الله الثقلين : الإنس والجن جميعاً للحساب قائلاً ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم قال ابن عباس : أضللتهم منهم كثيراً ، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي وقال الذين أطاعوهم من الإنس ربنا انتفع بعضنا ببعض قال البيضاوي : انتفع الإنس بالجن بأن دلّوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم^(٤) ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ أي وصلنا إلى الموت والقبر ووافينا الحساب ،

(١) محاسن التأويل ٦/ ٢٤٧٤ . (٢) التفسير الكبير ١٣/ ١٦٧ . (٣) البيضاوي ص ١٨١ .

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢١﴾ يَمَعَشِرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الرَّيَّانُ يُرْسِلُ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٢﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٢٣﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ

وهذا منهم اعتذاراً واعترافاً بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتحسر على حالهم ﴿قال النار مشواكم﴾ أي قال تعالى رداً عليهم النار موضع مقامكم وهي منزلكم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أي ماكثين في النار في حال خلود دائم إلا الزمان الذي شاء الله أن لا يخلدوا فيها قال الطبري : هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار^(١) وقال الزمخشري : يخلدون في عذاب النار الأبد كله إلا ما شاء الله أي إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير فقد روي أنهم يدخلون وادياً من الزمهرير فيتعاونون ويطلبون الرد إلى الجحيم^(٢) ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ أي حكيم في أفعاله عليم بأعمال عباده ﴿وكذلك نؤلي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسقط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب قال القرطبي : وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالماً آخر قال ابن عباس : إذا رضي الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم ، وإذا سخط الله على قوم ولى أمرهم شرارهم^(٣) وعن مالك بن دينار قال : قرأت في بعض كتب الحكمة إن الله تعالى يقول : «إني أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم»^(٤) ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ هذا النداء أيضاً يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم تأتكم الرسل يثلون عليكم آيات ربكم ؟ ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي يخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد ؟ ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ أي لم يجدوا إلا الاعتراف فقالوا : بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا قال ابن عطية : وهذا إقرار منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا﴾ ﴿وغرَّتْهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم الدنيا بنعيمها وبهرجها الكاذب ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي اعترفوا بكفرهم قال البيضاوي : وهذا ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم^(٥) ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾ أي إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإنذارهم سوء العاقبة لأن ربك عادل لم يكن ليهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً قال الطبري : أي إنما

(١) الطبري ١١٨/١٢ . (٢) الكشف ٥١/٢ . (٣) القرطبي ٨٥/٧ . (٤) الفخر الرازي ١٩٤/١٣ . (٥) البيضاوي ص ١٨٢ .

مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴿١٣٧﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٨﴾ إِنْ مَا تُوعِدُونَ لَا تُمْمِعْزِينَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٠﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ

أرسلنا الرسل يا محمد يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والغير^(١) ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته ، منازل ومراتب من عمله يلقيها في آخرته إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر ، قال ابن الجوزي : وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج^(٢) ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ أي ليس الله بلاه أو ساء عن أعمال عباده ، وفي ذلك تهديد ووعد ﴿وربك الغني﴾ أي هو جل وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ذو الرحمة﴾ أي ذو الفضل التام قال ابن عباس : ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، وقال غيره : بجميع الخلق ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين قال أبو السعود : وفيه تنبيه على أن ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد^(٣) ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أي لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ أي وأتى بخلق آخر أمثل منكم وأطوع ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ أي كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم قال أبو حيان : وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك^(٤) ﴿إن ما توعدون لا تومعزِينَ﴾ أي ما توعدون من مجيء الساعة والحشر لواقع لا محالة ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي لا تخرجون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتهم في الهرب متن كل صعب وذلول ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي قل لهم يا محمد يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعمِلوا ما أنتم عاملون ، والأمر هنا للتهديد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿إنني عامل﴾ أي عامل ما أمرني به ربي من الثبات على دينه ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أي فسوف تعلمون أينما تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم ؟ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا ينجح ولا يفوز بمطلوبه من كان ظالماً قال الزمخشري : في الآية طريق من الإنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن ، مع تضمن شدة الوعيد ، والثوق بأن المُنذر محق ، والمُنذر مبطل^(٥) ﴿وجعلوا لله مِمَّا ذَرَأَ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ أي جعل مشركو قريش لله مِمَّا خلق من الزرع والأنعام نصيباً ينفقونه على الفقراء ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها قال ابن كثير : هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين

(١) الطبري ١٢/١٢٤ . (٢) ابن الجوزي ٣/١٢٦ . (٣) أبو السعود ٢/١٣٨ . (٤) البحر ٤/٢٢٥ . (٥) الكشف ٢/٥٣ .

فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لَذِكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ

ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾ أي خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً^(١) ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم﴾ أي قالوا : هذا نصيب الله بزعمهم أي بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع قال في التسهيل : وأكثر ما يقال الزعم في الكذب^(٢) ﴿وهذا لشركائنا﴾ أي وهذا النصيب لأهتنا وأصنامنا قال ابن عباس : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سُمي لله ردوه إلى ما جعلوه للوثن وقالوا إن الله غني والأصنام أحوج^(٣) ولهذا قال : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله﴾ أي ما كان للأصنام فلا يصل إلى الله منه شيء ﴿وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ وما كان من نصيب الله فهو يصل إلى أصنامهم قال مجاهد : كانوا يسمون جزءاً من الحرث لله وجزءاً لشركائهم وأوثانهم فما ذهبت به الريح من نصيب الله إلى أوثانهم تركوه وما ذهب من نصيب أوثانهم إلى نصيب الله ردوه ، وكانوا إذا أصابتهم سنة « قحط » أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم ﴿سواء ما يحكمون﴾ أي بشس هذا الحكم الجائر حكمهم ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾ أي مثل ذلك التزيين في قسمة القربان بين الله وبين أهنتهم زين شياطينهم لهم قتل أولادهم بالوآد أو بنحرمهم لأهنتهم قال الزمخشري : كان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب^(٤) ﴿ليردوهم﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ أي لو شاء الله ما فعلوا ذلك القبيح ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي دعهم وما يخلقونه من الإفك على الله ، وهو تهديد ووعيد ﴿وقالوا هذه أنعام وحرت حِجْرٌ﴾ هذه حكاية عن بعض قبائحهم وجرائمهم أيضاً أي قال المشركون هذه أنعام وزروع أفردناها لأهتنا حرام ممنوعة على غيرهم ﴿لا يطمعها إلا من نشاء﴾ أي من خدمة الأوثان وغيرهم ﴿بزعمهم﴾ أي بزعمهم الباطل من غير حجة ولا برهان ﴿وأنعام حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي لا تركب كالبحائر والسوايب والحوامي ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿افتراء عليه﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿سيجزى بهم بما كانوا يفترون﴾ أي سيجزيهم

عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا
أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

على ذلك الافتراء ، وهو تهديد شديد ووعيد ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةً لذكورنا﴾ هذا إشارة إلى نوع آخر من أنواع قبائحهم أي قالوا ما في بطون هذه البحائر والسواحب حلال لذكورنا خاصة ﴿ومحرّم على أزواجنا﴾ أي لا تأكل منه الإناث ﴿وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء﴾ أي وإن كان هذا المولود منها ميتةً اشترك فيه الذكور والإناث ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحریم ﴿إنه حكيم عليم﴾ أي حكيم في صنعه عليم بخلقه ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾ أي والله لقد خسر هؤلاء السفهاء الذين قتلوا أولادهم قال الزمخشري : نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يثدون بناتهم مخافة السبي والفقر^(١) ﴿سفهاً بغير علم﴾ أي جهالة وسفاهة لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ أي حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة وشبهها ﴿افتراءً على الله﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أي لقد ضلوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح وما كانوا من الأصل مهتدين لسوء سيرتهم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾^(٢) .

البَلاغَةُ : ١ - ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أي أفرطتم في إضلال وإغواء الإنس ، ففيه إيجاز بالحذف ومثله ﴿استمتع بعضنا ببعض﴾ أي استمتع بعض الإنس ببعض الجن ، وبعض الجن ببعض الإنس .

٢ - ﴿النار مثواكم﴾ تعريف الطرفين لإفادة الحصر .

٣ - ﴿ألم يأتكم رسل﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع .

٤ - ﴿ولكل﴾ أي لكل من العاملين فالتنوين عوضٌ عن محذوف .

٥ - ﴿إنّ ما توعدون لآت﴾ صيغة الاستقبال ﴿توعدون﴾ للدلالة على الاستمرار التجددى ، ودخول إنّ واللام على الجملة للتأكيد لأن المخاطبين منكرون للبعث فلذا أكّد الخبر بمؤكدين .

٦ - ﴿ما رزقهم الله افتراءً على الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وضلالهم أفاده أبو السعود^(١) .

الفوائد : الأولى : قال السيوطي في الإكليل : قوله تعالى ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ الآية في معنى حديث (كما تكونون يولي عليكم)^(٢) وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجباً .

الثانية : الجمهور على أن الرسل من الإنس ولم يكن من الجن رسول وقوله تعالى ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ هو من باب التغليب كقوله ﴿يخرج منها اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرجان من البحر المالح دون العذب .

الثالثة : ذكر القرطبي في تفسيره أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتاً بين يدي رسول الله ﷺ فقال له الرسول : مالك تكون محزوناً؟ فقال يا رسول الله : إني أذنب في الجاهلية ذنباً فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت ! فقال له : أخبرني عن ذنبك ؟ فقال يا رسول الله : إني كنت من الذين يقتلون بناتهم فولدت لي بنت فتشفعت إليّ امرأتي أن أتركها فتركها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجه أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابعثها معي فسرت بذلك وزينتها بالحلي والثياب ، وأخذت عليّ الموائيق بألا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية بأني أريد أن ألقيتها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي فرحمتها ، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية حتى غلبني الشيطان فألقيتها في البئر منكوسة ومكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت فبكي رسول الله ﷺ وأصحابه وقال : لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات . . . إلى . . . وهم بربهم يعدلون﴾
من آية (١٤١) إلى نهاية آية (١٥٠)

المناسبة : لما أخبر تعالى عن المشركين أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله وحكى طرفاً من قبائحهم وجرائمهم ، ذكر تعالى هنا ما امتن به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراءً منهم عليه واختلاقاً ، ثم أعقبه باحتجاجهم على الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر ، وهذا أيضاً من جملة الكذب والبهتان والافتراء على الله .

اللفظة : ﴿معروشات﴾ مرفوعات على ما يحملها من العيدان ﴿حصاده﴾ الحصاد : جمع الثمر كالجذاذ ﴿حمولة﴾ الحمولة : الإيل التي تحمل الأثقال على ظهورها ﴿فرشاً﴾ الفرش : الصغار

(١) أبو السعود ١٤١/٢ . (٢) محاسن التأويل للقاسمي ٢٥٠٥/٦ . (٣) تفسير القرطبي ٩٧/٧ .

التي لا تصلح للحمل كالفُصلان والعجاجيل قال الزجاج : الفرشُ صغار الإبل قال الشاعر :

أورثني حمولةً وفرشاً أمشُها في كلِّ يومٍ مشاً
﴿الحوايا﴾ قال الواحدي : هي المباعر والمصارين واحدها حاوية وحاوية وقيل : الحوايا الأمعاء التي عليها
الشحوم سميت حوايا لأن البطن يحويها ﴿هلم﴾ هاتوا ﴿يعدلون﴾ يشركون به .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا
وغير مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾
ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكُمْ مِنْكُمْ أَمْ الْأَنْثَيْنِ أَمْ أَسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ

النَّفْسِيرُ : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ أي هو الذي أنعم عليكم
بأنواع النعم لتعبده وحده ، فخلق لكم بساتين من الكروم منها مرفوعات على عيدان ، ومنها متروكات
على وجه الأرض لم تعرش ﴿والنخل والزروع مختلفاً أكله﴾ أي وأنشأ لكم شجر النخيل المثمر بما هو
فاكهة وقوت ، وأنواع الزرع المحصل لأنواع القوت مختلفاً ثمره وحبّه في اللون والطعم والحجم والرائحة
﴿والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾ أي متشابهاً في اللون والشكل وغير متشابه في الطعم ﴿كلوا
من ثمره إذا أثمر﴾ أي كلوا أيها الناس من ثمر كل واحد مما ذكر إذا أدرك من رطبه وعنبه ﴿وآتوا حقه
يوم حصاده﴾ أي أعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد ما تجود به نفوسكم وقال ابن عباس : يعني
الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيّله ^(١) ﴿ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي ولا تسرفوا في الأكل لما
فيه من مضرة العقل والبدن قال الطبري : المختار قول عطاء أنه نهي عن الإسراف في كل شيء ^(٢) ﴿ومن
الأنعام حمولةً وفرشاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يُفرش للذبح « أي يضجع » قال
ابن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ﴿كلوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كلوا من
الثمار والزروع والأنعام فقد جعلها الله لكم رزقاً ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي طريقه وأوامره
في التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية ﴿إنه لكم عدوٌّ مبين﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان
فاحذروا كيده ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواع
أحل لكم أكلها ، من الضأن ذكراً وأنثى ، ومن المعز ذكراً وأنثى قال القرطبي : يعني ثمانية أفراد ، وكلُّ
فردٍ عند العرب يحتاج إلى آخر يُسمَّى زوجاً فيقال للذكر : زوجٌ وللأنثى زوجٌ ^(٣) ويراد بالزوجين من

(٣) القرطبي ١١٣/٧ .

(٢) الطبري ١٧٦/١٢ .

(١) مختصر ابن كثير ٦٢٤/١ .

أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرِينَ حَرَّمَ
 أَمْ الْأُنثِيَيْنِ أَمْآ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى
 اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى
 طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ
 اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ

الضأن : الكبش والنعجة ، ومن المعز : التيس والعنز ﴿قل الذكزين حرم أم الأنثيين﴾ ؟ هذا إنكار لما
 كانوا يفعلونه من تحريم ما أحل الله أي قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزجر : الذكزين من الضأن
 والمعز حرم الله عليكم أيها المشركون أم الانثيين منهما ؟ ﴿أمآ اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي أو ما
 حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ؟ ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ تعجيز وتوبيخ أي أخبروني
 عن الله بامر معلوم لا بافتراء ولا بتخرص إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله ﴿ومن الإبل
 اثنين ومن البقر اثنتين﴾ أي وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنتين هما الجاموس
 والبقرة ﴿قل الذكزين حرم أم الأنثيين أمآ اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ ؟ كرره هنا مبالغة في التقرير
 والتوبيخ قال أبو السعود : والمقصود إنكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار
 كذبهم في ذلك فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة ، وأولادها تارة أخرى (١) ﴿أم كنتم
 شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ زيادة في التوبيخ أي هل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم ؟
 وهذا من باب التهكم ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾ أي لا أحد
 أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يحرم بغير دليل ولا برهان ﴿إن الله لا يهدي القوم
 الظالمين﴾ عموم في كل ظالم ، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال ﴿قل لا
 أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس﴾
 أي قل يا محمد لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إلي من القرآن شيئاً محرماً على أي إنسان إلا أن يكون ذلك
 الطعام ميتة أو دماً سائلاً مصبوحاً أو يكون لحم خنزير فإنه قذر ونجس لتعوده أكل النجاسات ﴿أو فسقاً
 أهلاً لغير الله به﴾ أي أو يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النصب ، سمي
 فسقاً مبالغة كأنه نفس الفسق لأنه ذبح على اسم الأصنام ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور
 رحيم﴾ أي من أصابته الضرورة واضطرته إلى أكل شيء من المحرمات فلا إثم عليه إن كان غير باغ أي
 غير قاصد التلذذ بأكلها بدون ضرورة ولا عاد أي مجاوز قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك فالله غفور

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ
وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾
سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ

رحيم بالعباد ، ثم بين تعالى أن ما حرّمه على اليهود إنما كان بسبب بغْيهم وعصيانهم فقال ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم كل ذي ظفر قال ابن عباس : هي ذوات الظلف كالإبل والنعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز^(١) ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾ أي وحرّمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ أي إلا الشحم الذي علق بالظهر منها ﴿أو الحوايا﴾ أي الأمعاء والمصارين ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ كشحم الألية والمعنى أن الشحم الذي تعلّق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل وإنا لصادقون فيما قصصنا عليك يا محمد ، وفي ذلك تعريض بكذب من حرّم ما لم يحرم الله والتعريض بكذب اليهود ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ أي فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم فقل متعجباً من حالهم ربكم ذو رحمة واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم قال في البحر : وهذا كما تقول عند رؤية معصية عظيمة : ما أحلم الله تعالى! وأنت تريد ما أحلمه لإمهاله العاصي^(٢) ، ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد فقال ﴿ولا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي لا تغتروا بسعة رحمته فإنه لا يُردُّ عذابه وسطوته عن من اكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات فهو مع رحمته ذو بأس شديد ، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة ولا يغتر العاصي بحلم الله . ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ أي سيقول مشركو العرب لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا لا نحن ولا آباؤنا يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرّموا كان بمشيئة الله ولو شاء ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه ، فاحتجوا على ذلك بإرادة الله كما يقول الواقع في معصية إذا طلب منه الإقلاع عنها : هذا قدر الله لا مهرب ولا مفرّ منه ، ولا حجة في هذا لأنهم مكلفون بمأمورين بفعل الخير وترك القبيح ولكنها نزعة جبرية يحتاج بها السفهاء عندما تدمغهم الحجة قال تعالى في الرد عليهم ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ أي كذلك كذب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهكم أي قل لهم هل عندكم حجة أو برهان

الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤١﴾ قُلْ هَلْ شُهِدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٤٢﴾

على صدق قولكم فتظهره لنا ﴿١٤١﴾ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴿١٤٢﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنون والأوهام وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله عز وجل ﴿١٤٣﴾ قل لله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴿١٤٤﴾ أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فله الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع ، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف ﴿١٤٥﴾ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴿١٤٦﴾ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴿١٤٧﴾ أي قل لهم يا محمد احضروا لي من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرم هذه الأشياء التي تدعونها من البحيرة والسائبة وغيرهما ﴿١٤٨﴾ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴿١٤٩﴾ أي فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدقهم فإنه كذبٌ بحتٌ ﴿١٥٠﴾ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿١٥١﴾ أي ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿١٥٢﴾ وهم بربههم يعدلون ﴿١٥٣﴾ أي وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان .

البلاغَة : ١ - ﴿حولة وفرشاً﴾ بينهما طباق لأن الحمولة الكبار الصالحة للحمل ، والفرش الصغار الدانية من الأرض كأنها فرش .

٢ - ﴿خطوات الشيطان﴾ هذا من لطيف الاستعارة وهي أبلغ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان والسير في ركابه (١) .

٣ - ﴿غفور رحيم﴾ من صيغ المبالغة أي مبالغ في المغفرة والرحمة .

٤ - ﴿ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ جاءت الأولى جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الفعلية فناسب وصفه تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية ﴿ولا يُرد﴾ لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين ، وباب الرحمة أوسع (٢) أفاده في البحر .

فكائِدَة : في قوله تعالى ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً﴾ إيذان بأن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى ، وأن الله جل وعلا هو المشرع للأحكام والرسول مبلّغ عن الله ذلك التشريع كقوله ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ .

قال الله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ . . . إلى . . . وإنه لغفور رحيم﴾ من آية (١٥١) إلى الآية (١٦٥) نهاية السورة .

* قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا

المناسك : لما ذكر تعالى ما حرّمه الكفار افتراء عليه وذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان ، ذكر هنا ما حرّمه تعالى عليهم حقيقة من الأمور الضارة ، وذكر الوصايا العشر التي اتفقت عليها الشرائع السماوية وبها سعادة البشرية .

اللفظ : ﴿أتل﴾ أقرأ وأقص ﴿إملاق﴾ فقر يقال أملق الرجل إذا افتقر ﴿أشدّه﴾ قوته وهو بلوغ سن النكاح والرشد ، والأشدُّ جمع لا واحد له ﴿بالقسط﴾ بالعدل بلا بخس ولا نقصان ﴿السبيل﴾ جمع سبيل وهي الطريق ﴿شيعاً﴾ فرقاً وأحزاباً جمع شيعة وهي الفرقة تشيع وتتعصب لمذهبها ﴿قياً﴾ مستقيماً لا عوج فيه ﴿نسكي﴾ النسك جمع نسكة وهي الذبيحة وقال الزجاج : عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة^(١) .

التفسير : ﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم﴾ أي قل يا محمد تعالوا أقرأ الذي حرّمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي لا تعبدوا معه غيره ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، وذكر ضمن المحرمات لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده فكأنه قال : ولا تسيئوا إلى الوالدين قال أبو السعود : والسّر في ذلك المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما^(٢) ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر قال ابن الجوزي : المراد دفن البنات أحياء من خوف الفقر^(٣) ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي رزقكم ورزقهم عليناً فإن الله هو الرازق للعباد ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي لا تقربوا المنكرات الكبائر علانيتهاً وسرّها قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرّ ويستقبحونه في العلانية فحرّمه الله في السرّ والعلانية^(٤) ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾ أي لا تقتلوا النفس البريئة التي حرّم الله قتلها إلا بموجب وقد فسّره فول رسول الله ﷺ : (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ أي ذلكم المذكور هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمراً مؤكداً لعلكم تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا قال أبو حيان : وفي لفظ وصاكم من اللطف والرفقة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان^(٥) ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً رشيداً ،

(١) تفسير القرطبي ١٥٢/٧ . (٢) أبو السعود ١٤٦/٢ . (٣) زاد المسير ١٤٨/٣ . (٤) الطبري ٢١٩/١٢ . (٥) البحر ٢٥٢/٤ .

الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا^ج
 ذَالِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
 عَن سَبِيلِهِ ذَالِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ
 وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا

والنهي عن القرب يعم وجوه التصرف لأنه إذا نُهي عن أن يقرب المال فالنهي عن أكله أولى وأحرى والتي هي أحسن منفعة اليتيم وتشير ماله قال ابن عباس : هو أن يعمل له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أي بالعدل والتسوية في الأخذ والعطاء ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا نكلف أحداً إلا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه قال البيضاوي : أي إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، وذكره بعد وفاء الكيل لأن إيفاء الحق عسر فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم^(١) ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ أي اعدلوا في حكومتكم وشهادتكم ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أي أوفوا بالعهد إذا عاهدتم قال القرطبي : وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به^(٢) ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي لعلكم تتعظون ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ أي وبأن هذا ديني المستقيم شرعته لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق المتلوية فتفرقكم وتزيلكم عن سبيل الهدى عن ابن مسعود قال : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً خطباً ثم قال هذا سبيل الله ، ثم خطب خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ثم قرأ ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . . .﴾^(٣) الآية ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ كرر الوصية على سبيل التوكيد أي لعلكم تتقون النار بامثال أوامر الله واجتناب نواهيه قال ابن عطية : لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكرون﴾ والسير في الجادة المستقيمة يتضمن فعل الفضائل ولا بد لها من تقوى الله جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾^(٤) ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾ أي أعطينا موسى التوراة تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً وصالحاً قال الطبري : أي آتينا موسى الكتاب تماماً لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمة من الله عليه ومنه عظمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطاعة^(٥) ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين ﴿وهدى ورحمة لعلهم بقاء ربهم يؤمنون﴾ أي وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم ليصدقوا بقاء الله قال ابن عباس : كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا

(١) البيضاوي ص ١٨٤ . (٢) القرطبي ١٣٧/٧ . (٣) مختصر ابن كثير ٦٣٣/١ . (٤) البحر ٢٥٤/٤ . (٥) الطبري ٢٣٦/١٢

لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهْدًى وَرَحْمَةً ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا بِالْثَوَابِ وَالْعَذَابِ ﴿١﴾ ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتاب عظيم الشأن كثير المنافع مشتمل على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية ﴿فاتبعوه واطقوا لعلكم ترحمون﴾ أي تمسكوا به واجعلوه إماماً واحذروا أن تخالفوه لتكونوا راجين للرحمة ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين﴾ أي أنزلناه بهذا الوصف العظيم الجامع لخيرات الدنيا والآخرة كراهة أن تقولوا يوم القيامة ما جاءنا كتاب فتبعه وإنما نزلت الكتب المقدسة على اليهود والنصارى قال ابن جرير : فقطع الله بإنزاله القرآن على محمد ﷺ حجتهم تلك ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي وإنه الحال والشأن كنا عن معرفة ما في كتبهم ودراستهم غافلين لا نعلم ما فيها لأنها لم تكن بلغتنا ﴿أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين لكنا أهدى منهم إلى الحق وأسرع إجابة لأمر الرسول لمزيد ذكائنا وجدنا في العمل ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾ أي فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ قرآن عظيم ، فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده قال القرطبي : أي قد زال العذر بمجيء محمد ﷺ ﴿٢﴾ قال ابن عباس : بينة أي حجة وهو النبي ﷺ والقرآن ﴿٣﴾ ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله﴾ أي من أكفر من كذب بالقرآن ولم يؤمن به ﴿وصدَفَ عنها﴾ أي أعرض عن آيات الله قال أبو السعود : أي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال ﴿٤﴾ ﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ وعيد لهم أي سنثيب هؤلاء المعرضين عن آيات الله وحججه الساطعة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله وتكذيبهم لرسوله ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ أي ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعذيبها وهو وقت لا تنفع فيه توبتهم ﴿أو يأتي ربك﴾ أي يأتي بعض آيات ربك ﴿قال ابن عباس : أي يأتي أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره وقال الطبري : المراد أن يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه أو يأتيهم بعض آيات ربك وهو طلوع الشمس من مغربها﴾ ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي يوم يأتي بعض أشرار الساعة وحينئذ لا ينفع الإيمان نفساً كافرة آمنت في ذلك الحين ولا نفساً عاصية لم تعمل خيراً قال

مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

الطبري : أي لا ينفع من كان قبل ذلك مشركاً بالله أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله ، فحكم إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام الساعة^(١) وفي الحديث (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)^(٢) ﴿قل انتظروا إننا منتظرون﴾ أي انتظروا ما يحل بكم وهو أمر تهديد ووعد ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ أي فرقوا الدين فأصبحوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى فرقوا دين إبراهيم الحنيف ﴿لست منهم في شيء﴾ أي أنت يا محمد بريء منهم ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ أي جزاؤهم وعقابهم على الله هو يتولى جزاءهم ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ أي يخبرهم بشنيع فعالهم قال الطبري : أي أخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلون وأجازي كلهم بما كان يفعل^(٣) ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة واحدة جوزي عنها بعشر حسنات أمثالها فضلاً من الله وكرماً وهو أقل المضاعفة للحسنات فقد تنتهي إلى سبعمائة أو أزيد ﴿ومن جاء بالسيسة فلا يجزى إلا مثلاً﴾ أي ومن جاء بالسيسة عوقب بمثلها دون مضاعفة ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يُنقصون من جزائهم شيئاً وفي الحديث القدسي : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيسة فجزاء سيئة مثلاً أو أغفر »^(٤) فالزيادة في الحسنات من باب الفضل ، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق دين إبراهيم ﴿ديناً قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ديناً مستقيماً لا عوج فيه هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﴿وما كان من المشركين﴾ أي وما كان إبراهيم مشركاً ، وفيه تعريض بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عن دين إبراهيم ﴿قل إن صلاتي﴾ أي قل يا محمد إن صلاتي التي أعبد بها ربي ﴿ونُسُكِي﴾ أي ذبحي^(٥) ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي حياتي ووفاتي وما أقدمه في هذه الحياة من خيرات وطاقات ﴿لله رب العالمين﴾ أي ذلك كله لله خالصاً له دون ما أشركتم به ﴿لا شريك له﴾ أي لا أعبد غير الله ﴿وبذلك أُمِرْتُ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده أُمِرْتُ ﴿وأنا أول المسلمين﴾ أي

(١) الطبري ٢٦٦/١٢ . (٢) أخرجه البخاري . (٣) الطبري ٢٧٤/١٢ . (٤) رواه مسلم .

(٥) هذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنسك العبادة والأول أرجح

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

أول من أقرَّ وأذعن وخضع لله جلَّ وعلا ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا﴾ تقرير وتوبيخ للكفار ، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى : قل يا محمد أأطلب رباً غير الله تعالى ؟ ﴿وهو ربُّ كل شيء﴾ أي والحال هو خالق ومالك كل شيء فكيف يليق أن أتخذ إلهاً غير الله ؟ ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ أي لا تكون جنانية نفس من النفوس إلا عليها ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد ، ولا يؤخذ إنسانٌ بجريرة غيره ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وهذا وعيد وتهديد أي مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضاً قال الطبري : أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها^(١) ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر ، والعلم والجهل ، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ أي ليختبر شكركم على ما أعطاكم قال ابن الجوزي : أي ليختبركم فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب^(٢) ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم﴾ أي إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه ، قال في التسهيل : جمع بين الخوف والرجاء ، وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ أو في الآخرة لأن كل ما هو آت قريب^(٣) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ولا تتبعوا السُّبُلَ﴾ السُّبُل استعارة عن البدع والضلالات والمذاهب المنحرفة .

٢ - ﴿لا تكلف نفساً﴾ التنكير لإفادة العموم والشمول .

٣ - ﴿وبعهد الله﴾ الإضافة للتشريف والتعظيم .

٤ - ﴿يصدفون عن آياتنا﴾ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿عنها﴾ لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم .

٥ - ﴿قل انتظروا﴾ الأمر للتهديد والوعيد .

٦ - ﴿لا ينفع نفساً إيمانها . .﴾ الآية اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان باللف

وأصل الكلام : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنةً قبلُ إيمانها بعدُ ، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبلُ ما تكسبه من الخير بعدُ ، إلا أنه لفّ الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً ، أفاده صاحب الانتصاف^(١) .

٧ - بين ﴿ظهر﴾ و﴿بطن﴾ طباق وبين ﴿الحسنة﴾ و﴿السيئة﴾ طباق كذلك وهو من المحسنات البديعية .

٨ - ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال الشريف الرضي : ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب فهو من الاستعارة اللطيفة^(٢) .

فكائِدَة : وحدّ تعالى ﴿سبيله﴾ لأن الحق واحد وجمع ﴿السُّبُل﴾ لأن طرق الضلالة كثيرة ومتشعبة .

تنبية : قال الحافظ ابن كثير : كثيراً ما يقرن تبارك وتعالى في القرآن بين هاتين الصفتين ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ كقوله تعالى ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه^(٣) .

« تم تفسير سورة الأنعام بعونه تعالى وله الحمد والمنة »

* * *

(١) حاشية الكشف ٦٤/٢ . (٢) تلخيص البيان ص ٤٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٦٤٢/١ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة الأعراف من أطول السور المكية ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا ، وتقدير البعث والجزاء ، وتقدير الوحي والرسالة .

* تعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد الخالدة ، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء ، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين .

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد ، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجود له ، ثم حذرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم .

* وقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وبيان لكيد إبليس لآدم وذريته ، ولهذا وجه الله إلى أبناء آدم - بعد أن بين لهم عداوة إبليس لأبيهم - أربعة نداءات متتالية بوصف البُنية لآدم ﴿يا بني آدم﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة يحذّرهم بها من عدوهم الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمن حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلّة والمخالفة لأمر الله ﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما﴾ .

* كما تعرضت السورة الكريمة لمشهد من المشاهد الواقعة يوم القيامة ، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاور ومناظرة : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، وفرقة الكافرين أصحاب النار ، وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة ، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف وسميت باسمها السورة «سورة الأعراف» مشهد سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء على الحقيقة دون تمثيل ولا تخيل ، تبين ما يكون فيه من شماتة أهل الحق «أصحاب الجنة» بالمبطلين أصحاب النار ، وينطلق

صوت علوي يسجل عليهم اللعنة والطرده والحرمان ، وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ووقف عليه رجال يعرفون كلاً بسياهم ، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها ، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقترتها .

* وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب « نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب ، موسى » وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام وما لاقاه من قومه من جحود وعناد ، وتكذيب وإعراض ، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية ، وتحدثت عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ثم من أمنٍ ورخاء وكيف لما بدلوا نعمة الله وخالفوا أمره عاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قرده وخنازير .

* وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء ، وصورتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره ، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث ، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وتلك لعمر الحق أقبح صورة مزرية لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني وكان خزياً ووبالاً عليه ، لأنه لم يتتبع بهذا العلم ، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة ، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد ، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من أحجار وأصنام اتخذوها شركاء مع الله ، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصورتهم ويعلم مقلبيهم ومثواهم ، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحداية الرب المعبود في البدء والختام .

التسمية : سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها ، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلها ، روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة ، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم .

قال الله تعالى : ﴿ المص * كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه .. إلى .. ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٠) .

اللفظة : ﴿ حرج ﴾ ضيق يقال : حرج المكان أو الصدر إذا ضاق ﴿ بيئات ﴾ قال الراغب : البيئات والتبيت : قصد العدو ليلاً^(١) ﴿ قائلون ﴾ من القيلولة وهي النوم وسط النهار ، والقائلة : الظهيرة ﴿ مذهباً ﴾ مذموماً يقال ذامه أي ذمه وحقره ﴿ مدحوراً ﴾ مطروداً يقال دحره أي طرده وأبعده ﴿ سواتهما ﴾ السواة : العورة سميت بذلك لأن الإنسان يسوء ظهورها ﴿ طققا ﴾ شرعاً وأخذاً يقال : طقق

يطلق إذا ابتداء وأخذ ﴿يخصفان﴾ يرقعان ويلزقان ﴿ريشاً﴾ لباساً تتجملون به وأصل الريش : المال والجمال ومنه ريش الطير لأنه زينة له وجمال ﴿قبيله﴾ جنوده وأصل القبيل : الجماعة سواء كانوا من أصل أو أصول شتى ﴿فاحشة﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تنهى قبحه والمراد بها هنا الطواف حول البيت عراً وكل أمر قبيح يسمى فاحشة ، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ﴿١﴾ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿المص﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطعة وأن الحكمة في ذكرها بيان « إعجاز القرآن » بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله وروي عن ابن عباس معناه : أنا الله أعلم وأفصل ، وقال أبو العالية : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي لا يضق صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن ، ولتذكر وتعظبه المؤمنين لأنهم المنتفعون به ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزل إليكم من ربكم ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكهّان تولونهم أموركم ونطيعونهم فيما يشرعون لكم ﴿قليلًا ما تذكرون﴾ أي تتذكرون تذكراً قليلاً قال الخازن : أي ما تتعظون إلا قليلاً^(١) ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلها ﴿فجاءها بأسنا بيّناً﴾ أي جاءها عذابنا ليلاً ﴿أو هم قائلون﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار قال أبو حيان : وخصّ مجيء البأس بهذين الوقتين لأنها وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلة من المهلكين^(٢) ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا﴾ أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي إلا اعترفهم بظلمهم تحسراً وندامة ، وهيهات أن ينفع الندم ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أي لنسألن الأمم قاطبة هل بلغكم الرسل وماذا أجبتهم ؟ والمقصود من هذا السؤال

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٧﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كُنَّا غَايِبِينَ ﴿٦٨﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٧٢﴾

التقريع والتوبيخ للكفار ﴿٦٧﴾ ولنسألن المرسلين ﴿٦٨﴾ أي ولنسألن الرسل أيضاً هل بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ؟ قال في البحر : وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالا وعذاباً ، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثواباً ﴿٦٩﴾ فلنقصن عليهم بعلم ﴿٦٩﴾ أي فلنخبرنهم بما فعلوا عن علم منا قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿٧٠﴾ وما كنا غائبين ﴿٧٠﴾ أي ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم قال ابن كثير : يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقيق ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿٧١﴾ والوزن يومئذ الحق ﴿٧١﴾ أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحداً ﴿٧٢﴾ فمن ثقلت موازينه ﴿٧٢﴾ أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ﴿٧٢﴾ فأولئك هم المفلحون ﴿٧٢﴾ أي الناجون غداً من العذاب الفائزون بجزيل الثواب ﴿٧٢﴾ ومن خفت موازينه ﴿٧٢﴾ أي ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات ﴿٧٢﴾ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴿٧٢﴾ أي خسروا أنفسهم وسعادتهم ﴿٧٢﴾ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿٧٢﴾ أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله ، قال ابن كثير : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً يروى هذا عن ابن عباس ، وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة ، وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث (يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة) والكل صحيح فتارة توزن الأعمال ، وتارة محالها ، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم ﴿٧٣﴾ أقول : لا غرابة في وزن الأعمال ووزن الحسنات والسيئات بالذات ، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر والبرد ، واتجاه الرياح والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين لأعمال البشر ؟ ﴿٧٤﴾ ولقد مكناكم في الأرض ﴿٧٤﴾ أي جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكاناً وقراراً قال البيضاوي : أي مكناكم من سكنها وزرعها والتصرف فيها ﴿٧٤﴾ وجعلنا لكم فيها معاش ﴿٧٤﴾ أي ما تعيشون به وتحبون من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة ﴿٧٤﴾ قليلاً ما تشكرون ﴿٧٤﴾ أي ومع هذا الفضل والإنعام قليل منكم من يشكر ربه كقوله ﴿٧٥﴾ وقليل من عبادي الشكور ﴿٧٥﴾ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴿٧٥﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم ، وإنما ذكر

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٤﴾ قَالَ فَاهْبِطْ
مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾
قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

بلفظ الجمع تعظيماً له لأنه أبو البشر ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود
لآدم تكريماً له ولذريته ﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ أي سجد الملائكة كلهم أجمعون
إلا إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً ، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس وقد تقدم قول
الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين^(١) ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ أي
قال تعالى لإبليس أي شيء منعك أن تدع السجود لآدم ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿قال أنا خير
منه﴾ أي قال إبليس اللعين أنا أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ثم ذكر
العلة في الامتناع فقال ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ أي أنا أشرف منه لشرف عنصري على
عنصره ، لأنني مخلوق من نار والنار أشرف من الطين ، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو الله
تعالى قال ابن كثير : نظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم وهو أن الله خلق آدم
بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من
الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم ، والنار من شأنها الإحراق والطيش ، والطين محل النبات
والنمو والزيادة والإصلاح والنار محل العذاب ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار^(٢)
قال ابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس^(٣) ﴿قال
فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن
تستكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ أي الذليلين الحقيرين
قال الرخشي : وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر على
الله وضعه^(٤) ﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ استدرك اللعين فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث
لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده فأجابه تعالى بقوله ﴿قال إنك من المنظرين﴾ قال ابن
عباس : أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم
الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه^(٥) ويؤيده الآية الأخرى ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم
الوقت المعلوم﴾ ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أي فبسبب إغوائك وإضلالك
لي لأقعدن لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة الموصل للجنة كما يقعد القطاع للسابلة ﴿ثم لا تينهم
من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمالكهم﴾ أي آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع

(١) انظر التحقيق الذي كتبناه حول إبليس والأدلة التي ذكرناها على أنه من الجن وليس من الملائكة في صفحة ٤٨ من كتابنا « النبوة
والأنبياء » . (٢) مختصر ابن كثير ٨ / ٢ . (٣) البحر ٢٧٣ / ٤ . (٤) الكشف ٩٠ / ٢ . (٥) القرطبي ١٤٧ / ٧ .

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا
لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَسْأَلُكَ أَتَى أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَسَوَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ
سَوَاءٍ تَهُمَا وَقَالَ مَانِهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا
إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفَفَا خِصْفَانِ عَلَيْهِمَا

لأصدهم عن دينك قال الطبري : معناه لا تدينهم من جميع وجوه الحق والباطل ، فأصدهم عن الحق وأحسن لهم الباطل قال ابن عباس : ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لثلاث يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى ^(١) ﴿ثم لا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أي مؤمنين مطيعين شاكرين لنعمك ﴿قال اخرج منها مذمومًا مدحورًا﴾ أي اخرج من الجنة مذمومًا معيبًا مطرودًا من رحمتي ﴿لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ اللام موطئة للقسم أي لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأن جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين ، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرج وطرده ﴿فكلامن حيث شئتما﴾ أي كلا من ثمارها من أي مكان شئتما ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ أباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة عيَّنهما لهما ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أي ألقى لهما بصوت خفي لإغرائهما بالأكل من الشجرة ﴿ليُبدى لهما ما وُورِيَ عنهما من سواتهما﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ وهذا توضيح لوسوسة اللعين أي قال في وسوسته لهما : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين في الجنة ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يُخدع المؤمن بالله قال الألوسي : وإنما عبّر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعلٍ يجد فيه ^(٢) ﴿فدلّاهما بغرور﴾ أي خدعهما بما غرهما به من القسم بالله قال ابن عباس : غرهما باليمين وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحداً بالله كاذباً فغرهما بوسوسته وقسمه لهما ^(٣) ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما﴾ أي فلما أكلتا من الشجرة ظهرت عوراتهما قال الكلبي : تهافت عنهما لباسهما فأبصر كل منهما عورة صاحبه فاستحيا ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي أخذوا وشرعاً يلصقان ورقة على ورقة ليستترا به بعد أن كانت كسوتها

مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾
 قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
 وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنِي آدَمُ قَدْ
 أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْوُرٍ وَرِيشًا وَلِبَاسٌ أَتَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

من حلل الجنة قال القرطبي : أي جعلاً يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به ومنه خصف النعل^(١) وعن وهب ابن منبه قال : كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سواتهما^(٢) ﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ أي ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ قائلاً : ألم أحذركما من الأكل من هذه الشجرة وأخبركما بعداوة الشيطان اللعين ؟ روى أنه تعالى قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً قال : فوعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدأً^(٣) ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ اعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب وطلبا من الله المغفرة والرحمة قال الطبري : وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه^(٤) ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس ولهذا جاء بصيغة الجمع أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض حال كون بعضكم عدواً لبعض ، فالشيطان عدو للإنسان ، والإنسان عدو للشيطان كقوله ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتع وانتفاع إلى حين انقضاء آجالكم ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ أي في الأرض تعيشون وفيها تقبرون ومنها تخرجون للجزاء كقوله ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ ثم ذكر تعالى ما امتن به على ذرية آدم من اللباس والرياش والمتاع فقال ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً ﴾ أي أنزلنا عليكم لباسين : لباساً يستر عوراتكم ، ولباساً يزينكم وتتجملون به قال الزمخشري : الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته^(٥) ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ أي ولباس الورع والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر قال الشاعر :

وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

﴿ ذلك من آيات الله ﴾ أي إنزال اللباس من الآيات العظيمة الدالة على فضل الله ورحمته على عباده

(١) القرطبي ١٨١/٧ . (٢) الطبري ٣٥٥/١٢ . (٣) البحر ٢٨١/٤ . (٤) هذه الرواية نقلها الطبري عن الضحاك وفيها الإشارة إلى قوله تعالى ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ (٥) الكشف ٩٧/٢ .

يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿لعلهم يذكرون﴾ أي لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ أي لا يغوينكم الشيطان بإضلاله وفتنته ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ أي كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر العورات ، ونسب النزاع إليه لأنه المتسبب ، وهذا هدف اللعين أن يهتك السترة عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسنة والمعنوية ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ أي إن الشيطان يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها ، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيده ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشدَّ وأخوف ﴿إننا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أي جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكافرين ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ أي وإذا فعل المشركون فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عراً ﴿قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ أي اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بتقليد الآباء ﴿والله أمرنا بها﴾ أي أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثياب عصينا فيها الله ! وهذا افتراء على ذي الجلال قال البيضاوي : احتجاجوا بأمرين : تقليد الآباء ، والافتراء على الله سبحانه ، فأعرض عن الأول لظهور فساده ، ورد الثاني بقوله ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ ^(١) أي قل لهم يا محمد : الله منزّه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوئ الخصال ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علمٍ ونظرٍ صحيح ؟ ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ أي توجهوا بكليتكم إليه عند كل سجود ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي واعبدوه مخلصين له العباداة والطاعة قال ابن كثير : أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العباداة فإن الله تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنتين : أن يكون صواباً موافقاً للشرعية ، وأن يكون خالصاً من الشرك ^(٢) ﴿كما بدأكم تعودون﴾ أي كما بدأكم من الأرض تعودون إليها ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ أي هدى فريقاً منكم وأضل فريقاً منكم وهو الفعال لما يريد لا يسأل عما يفعل ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ هذا تعليل

للفريق الذين حقت عليهم الضلالة أي اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ أي يظنون أنهم على بصيرة وهداية .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿خرج منه﴾ أي ضيق من تبليغه فهو على حذف مضاف مثل ﴿واسأل القرية﴾ .

٢ - ﴿من ربكم﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأوامر^(١) .

٣ - ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بين ﴿ثقلت﴾ و ﴿خفت﴾ طباق وكذلك بين ﴿بياتاً﴾ و ﴿قائلون﴾ لأن البيات معناه ليلاً و ﴿قائلون﴾ معناه نهاراً وقت الظهيرة .

٤ - ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾ هو على حذف مضاف أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم .

٥ - ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ استعار الصراط المستقيم لطريق الهداية الموصل إلى جنان النعيم .

٦ - ﴿ويا آدم﴾ فيه إيجاز بالحذف أي وقلنا يا آدم .

٧ - ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ عبّر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها .

٨ - ﴿وقاسمهما إني لكما﴾ أكد الخبر بالقسم وبيان اللام لدفع شبهة الكذب وهو من الضرب الذي يسمى «إنكارياً» لأن السامع متردد .

٩ - ﴿فيها تحيون وفيها تموتون﴾ بين الجملتين طباق وهو من المحسنات البديعية .

تنبية : سميت العورة سوءاً لأن كشفها يسوء صاحبها قال العلماء : في الآية دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور وأنه مستهجن في الطباع ولذلك سميت سوءاً أقول : إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين ﴿ينزع عنها لباسهما ليريها سواتهما﴾ فمن دعا إلى تعري المرأة وشجّع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة الى نزع الحجاب بدعوى الحرية والمساواة فإنما هو عدو للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد ، وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخ والانحلال الخلقي ، وليست التقدمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف ولله در القائل :

يا ابنتي إن أردتِ آيةً حسن	وجمالاً يزينُ جسماً وعقلاً
فانبذي عادة التبرج نبذاً	فجمالُ النفوسِ أسمى وأعلى
يصنع الصّانعون ورداً ولكن	وردةُ الروض لا تُضارع شكلاً

قال الله تعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم . . إلى . . وما كانوا بآياتنا يحدون﴾

من آية (٣١) إلى نهاية آية (٥١) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام ، وذكر ما امتن به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات ، أمر هنا بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات وعند إرادة الصلاة ، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى طوائف : « أهل الجنة ، وأهل النار ، وأهل الأعراف » ومآل كل فريق من سعادة أو شقاء في دار العدل والجزاء .

اللفت : ﴿زيتكم﴾ الزينة : ما يتزين به المرء ويتجمل من ثياب وغيرها ﴿الفواحش﴾ جمع فاحشة وهي ما تنهى قبحة من المعاصي ﴿البغي﴾ الظلم والاستطالة على الناس ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً ﴿سَمَّ الخياط﴾ ثقب الإبرة ﴿مهاده﴾ فراش يمتده الإنسان ﴿غواش﴾ أغطية جمع غاشية قال ابن عباس : هي اللحف ﴿الأعراف﴾ السور المضروب بين الجنة والنار جمع عرف مستعار من عرف الديك ﴿بسيامهم﴾ بعلامتهم .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول : من يعيرني تطوفاً يجعله على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية ﴿يا بني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ : ألا يطوف بالبيت عريان^(١) .

* يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

التفسير : ﴿يا بني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد﴾ أي البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي المتعدين حدود الله فيما أحل وحرّم ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ أي قل يا محمد هؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على أنفسهم ما أحلت لهم من الطيبات ، من حرّم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنفعكم من النبات ، والمستلذات من المأكّل والمشارب ! والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار ، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد لأن الله حرم الجنة على الكافرين ﴿كذلك نفصل

وَمَا بَطَّنْ وَلَا لِإِثْمٍ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
 وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَذْنِبْنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
 يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَتَنْتَهَى عَنْهُنَّ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا
 عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
 أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتُوفَوْنَهُمْ قَالُوا أَيَنْ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

الآيات لقوم يعلمون ﴿٣٧﴾ أي نبين ونوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه
 ﴿٣٨﴾ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴿٣٩﴾ أي قل لهم يا محمد ما حرم الله إلا القبايح من الأشياء
 التي تفاحش قبحها وتناهى ضررها، سواء ما كان منها في السر أو في العلن ﴿٤٠﴾ والإثم والبغي بغير الحق ﴿٤١﴾ أي
 وحرم المعاصي كلها والعدوان على الناس ﴿٤٢﴾ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴿٤٣﴾ أي تجعلوا له شركاء في
 عبادته بدون حجة أو برهان ﴿٤٤﴾ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿٤٥﴾ أي تفتروا على الله الكذب في التحليل
 والتحريم ﴿٤٦﴾ ولكل أمة أجل ﴿٤٧﴾ أي لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة لهلاكها قال في البحر: هذا وعيد
 للمشركين بالعذاب إذا خالفوا أمر ربهم ^(١) ﴿٤٨﴾ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٤٩﴾ أي فإذا
 جاء وقت هلاكهم المقدر لهم لا يتأخر عنهم برهة من الزمن ولا يتقدم كقوله ﴿٥٠﴾ وتلك القرى أهلكناهم لما
 ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ^(٢) ﴿٥١﴾ والساعة مثل في غاية القلة من الزمان ﴿٥٢﴾ يا بني آدم إنا يأتينكم رسل
 منكم يقصون عليكم آياتي ﴿٥٣﴾ المراد ببني آدم جميع الأمم والمعنى إن يثبثكم رسلي الذين أرسلتهم إليكم
 يبينون لكم الأحكام والشرائع ﴿٥٤﴾ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٥٥﴾ أي فمن اتقى منكم
 ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون ﴿٥٦﴾ والذين كذبوا بآياتنا
 واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٥٧﴾ أي وأما من كذب واستكبر عن الإيمان بما جاء به
 الرسل فأولئك في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها أبداً ﴿٥٨﴾ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب
 بآياته ﴿٥٩﴾ الاستفهام للإنكار أي من أقبح وأشنع ممن تعمد الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة؟ ﴿٦٠﴾ أولئك
 ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴿٦١﴾ أي يصيبهم حظهم في الدنيا مما كُتب لهم وقدر من الأرزاق والأجال قال
 مجاهد: ما وعدوا به من خير أو شر ﴿٦٢﴾ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴿٦٣﴾ أي جاءت ملائكة الموت تقبض
 أرواحهم ﴿٦٤﴾ قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ﴿٦٥﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله أدعوهم
 ليخلصوكم من العذاب ، والسؤال للتبكي والتوبيخ ﴿٦٦﴾ قالوا ضلوا عننا ﴿٦٧﴾ أي قال الأشقياء المكذبون لقد

(١) البحر المحيط ٢٩٢/٤ . (٢) هذا الراجع في تفسير الآية أن المراد به أجل الأمم المكذبين للرسل وهو اختيار الطبري وابن كثير وأبي
 السعود وقيل: المراد أن كل إنسان له عمر ينتهي إليه لا يزيد ولا ينقص، والأول أرجح لأن اللفظ ورد ﴿ولكل أمة﴾ والله أعلم .

اللَّهُ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

غابوا عنا فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران ﴿قال ادخلوا في أمة قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة هؤلاء المكذبين بآياته : ادخلوا مع أمة أمثالكم من الفجرة في نار جهنم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ أي كلما دخلت طائفة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها قال الألوسي : يلعن الأتباع القادة يقولون : أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى ^(١) ، والمراد أن أهل النار يلعن بعضهم بعضاً كقوله تعالى ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً﴾ حتى إذا أدركوا فيها جميعاً أي تلاحقوا واجتمعوا في النار كلهم ﴿قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا﴾ أي قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلوهم يا ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان ﴿فاتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي أذقهم العذاب مضاعفاً لأنهم تسببوا في كفرنا ونظير هذه الآية ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ قال لكل ضعف أي لكل من القادة والأتباع عذاب مضاعف أما القادة فلضلالهم وإضلالهم ، وأما الأتباع فللكفرهم وتقليدهم ﴿ولكن لا تعلمون﴾ أي لا تعلمون هوله ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل﴾ أي قال القادة للأتباع : لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن متساوون في الضلال وفي استحقاق العذاب الأليم ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم ، قالوه لهم على سبيل التشفي لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب ^(٢) ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي كذبوا بآياتنا مع وضوحها واستكبروا عن الإيمان بها والعلم بمقتضاها ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ أي لا يصعد لهم عمل صالح كقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ قال ابن عباس : لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ، وقيل : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا قبضت أرواحهم

(١) روح المعاني ١١٦/٨ . (٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله ﴿فذوقوا العذاب﴾ من كلام الله للفریقین على سبيل التوبيخ وهو اختيار الطبري والظاهر أنه من كلام القادة للأتباع كما في البحر والله أعلم .

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ

ويؤيده حديث (إن العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا يجيئه ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب ، ويخرج منها كأتين ريح جيفة فلا يمر على ملاءٍ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له . .) (١) الحديث ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ أي لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مبالغة في التصوير ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي ومثل ذلك الجزء الفطيع نجزي أهل العصيان والإجرام ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي لهم فراش من النار من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي ومن فوقهم أغطية من النار ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ أي ومثل ذلك الجزء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدى حدود الله ، ولما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم فقال ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر قال في البحر : وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة (٢) ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ هذا هو الخبر أي هؤلاء المؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدى في جنات النعيم لا يُخرجون منها أبداً ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف كما ورد في الحديث (يدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل) (٣) وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي وفقنا لحصول هذا النعيم العظيم ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله عز وجل ﴿ونودوا أن تُلْكُم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي وتناديهم الملائكة أن هذه هي الجنة التي أعطيتُموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا قال القرطبي : ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله وفي الحديث (لن

(١) هذا من حديث أخرجه الإمام أحمد وانظره كاملاً في ابن كثير ١٨/٢ . (٢) البحر المحيط ٤/٢٩٨ . (٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

يُدخل أحداً منكم عمله الجنة . (١) الحديث ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾ هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقيق وقوعه أي ينادي أهل الجنة أهل النار يقولون : إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من النعيم والكرامة حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً ؟ قال أهل النار مجيبين : نعم وجدناه حقاً قال الزمخشري : وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم ، وشماتة بأهل النار ، وزيادة في غمهم (٢) لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ أي أعلن معلنٌ ونادى منادٍ بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم بالله ثم وصفه بقوله ﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾ أي الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أي وهم بملقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون ﴿وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم﴾ أي بين الفريقين حجاب وهو السور الذي ذكره بقوله ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ يمنع من وصول أهل النار للجنة ، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم أي بعلامتهم التي ميزهم الله بها قال قتادة : يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم (٣) ونادوا أصحاب الجنة أن سلامٌ عليكم﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم أن سلامٌ عليكم أي قالوا لهم : سلام عليكم قال تعالى ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يطمعون في دخولها ﴿وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال المفسرون : أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، يحبسون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم ، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، سألوا الله ألا يجعلهم معهم قال أبو حيان : وفي التعبير بقوله ﴿صُرِفَتْ﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قِبَلِهِمْ بل هم محمولون عليه والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم (٤) ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ أي من أهل النار وهم

(١) أخرجه مسلم وانظر القرطبي ٢٠٩/٧ . (٢) الكشف ١٠٦/٢ . (٣) الطبري ٤٦٣/١٢ . (٤) البحر المحيط ٤/٣٠٣ .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾
 أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ
 النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾
 الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نُسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا
 بِعَايَتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

رؤساء الكفرة ﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ أي أي شيء نفعتكم جمعكم للمال واستكباركم عن الإيمان ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ أي أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة ، والاستفهام استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة يوبخونهم بذلك ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي يقولون للمؤمنين ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين قال الألوسي : هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم : دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة^(١) ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار، وعن استغاثتهم بهم عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع والمعنى ينادونهم يوم القيامة أغيثونا بشيء من الماء لنسكن به حرارة النار والعطش أو مما رزقكم الله من غيره من الأشربة فقد قتلنا العطش ﴿قالوا إن الله حرمها على الكافرين﴾ أي منع الكافرين شراب الجنة وطعامها قال ابن عباس : ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول : قد احترقت فأفص علي من الماء ! فيقال لهم أجيئوهم فيقولون : إن الله حرمها على الكافرين^(٢) ، ثم وصف تعالى الكافرين بقوله ﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً﴾ أي هزءوا من دين الله وجعلوا الدين سخرية ولعباً ﴿وغرَّتْهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها القاتلة وهذا شأنها مع أهلها تغر وتضر، وتخدع ثم تصرع ﴿فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به قال الألوسي : الكلام خارج مخرج التمثيل أي نتركهم في النار وننسأهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغي ألا ينسى^(٣) وقال ابن كثير : أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه^(٤) ﴿وما كانوا بآياتنا يجدون﴾ أي وكما كانوا منكبين لآيات الله في الدنيا ، يكذبون بها ويستهزئون ، ننسأهم في العذاب .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿عند كل مسجد﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة

(١) روح المعاني ٨ / ١٢٦ . (٢) الطبري ١٢ / ٤٧٣ . (٣) روح المعاني ٨ / ١٢٧ . (٤) مختصر ابن كثير ٢ / ٢٤ .

- والطواف ، ولما كان المسجد مكان الصلاة أطلق ذلك عليه .
- ٢ - ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ كناية عن عدم قبول العمل ، فلا يقبل لهم دعاء أو عمل .
- ٣ - ﴿ حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيه تشبيه ضمنى أي لا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة ، وهو تمثيلٌ للاستحالة .
- ٤ - ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ قال صاحب البحر : هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كقوله ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾^(١) .
- ٥ - ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ بين « ظهر » و « بطن » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .
- فائدة :** يروى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذلك الطبيب لأحد العلماء : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان فقال له العالم : قد جمع الله تعالى الطب كله في نصف آية من كتابه قال وما هي ؟ قال قوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ فقال النصراني : ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب فقال العالم : قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة قال وما هي ؟ قال قوله (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيات يُقمن صلبه) الحديث فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم .. إلى .. وما كانوا مؤمنين ﴾
من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٧٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء وخسارتهم الفادحة في الآخرة ، ذكر هنا أنه لا حجة لأحد فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية ، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء فبدأ بنوح عليه السلام شيخ الأنبياء ثم أعقبه بذكر هود عليه السلام وموقف المشركين من دعوة الرسل الكرام .

اللفظة : ﴿ تأويله ﴾ عاقبة أمره وما يؤول إليه من آل يؤول إذا صار إليه ﴿ استوى ﴾ الاستواء : العلو والاستقرار قال الجوهري : استوى على ظهر الدابة استقر ، واستوى إلى السماء قصد ، واستوى الشيء إذا اعتدل ﴿ يغشي ﴾ يغطي ﴿ حثيثاً ﴾ سريعاً والحث : الإعجال والسرعة ﴿ تبارك ﴾ تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع قال الأزهري : تبارك أي تعالى وتعاظم وارتفع ﴿ تضرعاً ﴾ تذلاً واستكانة وهو إظهار الذل الذي في النفس مع الخشوع ﴿ وخفية ﴾ سراً ﴿ بئسراً ﴾ مبشرة بالمطر ﴿ أقلت ﴾ حملت ﴿ نكيداً ﴾ العسر القليل ﴿ آلاء ﴾ الآلاء النعم واحداها « لى » كمعى .

وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نَزِدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ

النفسير : ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾ أي ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم ﴿فصلناه على علم﴾ أي بينا معانيه ووضحنا أحكامه على علم منا حتى جاء قبيلاً غير ذي عوج ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وعدوا به من العذاب والنكال قال قتادة : تأويله عاقبته ﴿يوم يأتي تأويله﴾ هو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي يقول الذين ضيعوا وتركوا العمل به في الدنيا ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة وتحقق لنا صدقهم فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم قال الطبري : أقسم المساكين حين حل بهم العقاب أن رسل الله قد بلغتهم الرسالة ونصحت لهم وصدقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال^(١) ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب ؟ استفهام فيه معنى التمني ﴿أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال ؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة ، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام ، ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال القرطبي : لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلم العباد الثبوت في الأمور^(٢) ﴿ثم استوى على العرش﴾ أي استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رحمه الله : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رحمه الله : أخبار الصفات ثمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال : كيف ؟ ولم ؟ تؤمن بأن الله على العرش كيف شاء ، وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حاد ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيها ونكفي الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل^(٣) وقال القرطبي : لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته^(٤) ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعاً حتى يدركه ﴿والشمس والقمر والنجوم

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۚ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا نِّقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ۚ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ

مسخراتٍ بأمره ﴿٤٤﴾ أي الجميع تحت قهره ومشيئته وتسخيره ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي له الملك والتصرف التام في الكائنات ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي تعظم وتمجد الخالق المبدع رب العالمين ﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ أي أدعوا الله تذلاًّ وسراً بخشوع وخضوع ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي لا يحب المعتدين في الدعاء بالتشدد ورفع الصوت وفي الحديث (إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً) ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أي رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمثلون أوامره ويتركون زواجره ﴿وهو الذي يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ أي يرسل الرياح مبشرة بالمطر قال في البحر : ومعنى بين يدي رحمته أي أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجل النعم وأحسنها أثراً على الإنسان^(١) ﴿حتى إذا أقلّت سحَابًا ثَقَالًا﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحَابًا ثَقِيلاً بالماء ﴿سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي سَقْنَا السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿فانزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ أي أنزلنا في ذلك البلد الميت الماء فأخرجنا بذلك الماء من كل أنواع الثمرات ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ أي مثل هذا الإخراج نُخرج الموتى من قبورهم لعلكم تعتبرون وتؤمنون قال ابن كثير : وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال لعلكم تذكرون^(٢) ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ أي الأرض الكريمة التربة يُخرج النبات فيها وافياً حسناً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعدة فينتفع بها ﴿والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾ أي والأرض إذا كانت خبيثة التربة كالحرّة أو السبخة^(٣) لا يخرج النبات فيها إلا بعسر ومشقة وقليل لا خير فيه، وهذا مثل للكافر الذي لا ينتفع بالموعدة قال ابن عباس : هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالْمُؤْمِنُ طَيِّبٌ وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب ، والكافر خبيثٌ وعمله خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها^(٤) ﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أي كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين

(١) البحر المحيط ٤/٣١٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٢٧ . (٣) الحرّة : الأرض ذات الحجارة السود ، والسبخة : الأرض ذات الملح .

(٤) الطبري ١٢/٤٩٧ .

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبَلِغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَ كُرٌّ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ * وَإِلَىٰ عَادٍ

وجوه الحجج ونكرها آية بعد آية ، وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه ، وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بسماع القرآن قال الألوسي : أي مثل هذا التصريف البديع نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكرها لقوم يشكرون نعم الله تعالى ، وشكرها بالتفكير والاعتبار بها ^(١) ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا نوحاً ، ونوح شيخ الأنبياء لأنه أطولهم عمراً وهو أول نبي بعثه الله بعد إدريس ، ولم يلق نبي من الأذى مثل نوح ^(٢) ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وحدوا الله ولا تشركوا به فما لكم إله مستحق للعبادة غيره ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي إن أشركتم به ولم تؤمنوا فأنا أخاف عليكم عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلالٍ مبين﴾ أي قال الأشراف والسادة من قومه إنا لنراك يا نوح في ذهاب عن طريق الحق والصواب واضح جلي قال أبو حيان : ولم يجبه من قومه إلا أشرافهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرياسة ^(٣) ، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة﴾ ^(٤) ولكني رسول من رب العالمين ﴿أي ما أنا بضال ولكن أنا مرسل إليكم من عند ربكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة﴾ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما تعلمون ﴿أي أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم وأقصد صلاحكم وخيركم وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات ^(٥) ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجلٍ منكم﴾ أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجيب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم ﴿ليُنذِرَكُمْ ولتتقوا ولعلكم تُرْحَمُونَ﴾ أي ليخوفكم هذا الرسول من العذاب إن لم تؤمنوا ولتتقوا ربكم وتنالكم الرحمة بتقواه ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي كذبوا نوحاً مع طول مدة إقامته فيهم فأنجاه الله والمؤمنين معه في السفينة

(١) روح المعاني ٨ / ١٤٨ . (٢) انظر ترجمة نوح مفصلة في كتابنا « النبوة والأنبياء » . (٣) البحر ٤ / ٣٢٠ . (٤) لم يأت التركيب لست في ضلال مبين بل جاء في غاية الحسن ﴿ليس بي ضلالة﴾ لنفي أن يلتبس أو يختلط به ضلالة ما ، وهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال إذ لم يتعلق به ولا ضلالة واحدة ، أفاده صاحب البحر . (٥) مختصر ابن كثير ٢ / ٢٨ .

أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٦﴾ قَالَ أَمَلَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٩﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا مَا وَعَدْنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي أهلكنا المكذبين منهم بالغرق ﴿إنهم كانوا قوماً عَمِينَ﴾ أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يبصرونه ولا يهتدون له قال ابن عباس : عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد ^(١) ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي قال لهم رسولهم وحدوا الله فليس لكم إله غيره ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تحفون عذابه ؟ ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي قال السادة والقادة منهم ﴿إنا نراك في سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي نراك في خفة حلم وسخافة عقل وإننا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة ﴿قال يا قوم ليس بي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ليس بي كما تزعمون نقص في العقل ولكني مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي أبلغكم أوامر الله وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه ، أمينٌ على ما أقول لا أكذب فيه قال الزمخشري : وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مِمَّنْ نسبهم إلى السَفَاهَةِ والضَّلَالَةِ - بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة - أدبٌ حسنٌ وخلقٌ عظيم ، وتعليمٌ للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ^(٢) ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه ﴿واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي اذكروا نعمة الله حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح ﴿وزادكم في الخلق بَصَاطَةً﴾ أي زاد في أجسامكم قوةً وضخامةً ﴿فاذكروا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي أجئتنا يهود تنوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام ونبتراً منها ؟ ﴿فآتتنا بما وعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي فآتتنا بما وعدنا به من العذاب فلن نؤمن لك إن كنت من الصادقين في قولك ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس

وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَبَظُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿٧١﴾ فَأُنْجِيَنَّهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

وغضب ﴿أي قد حلّ بكم عذاب وغضب من الله﴾ المجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وأباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ﴿أي أخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان﴾ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿أي فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما يحل بكم وهذا غاية الوعيد والتهديد﴾ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴿أي أنجيناه هوداً والذين معه من المؤمنين رحمة منا لهم﴾ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴿أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم﴾ وما كانوا مؤمنين ﴿أي كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب قال أبو السعود : أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرفعوا عن ذلك أبداً فأهلكهم الله بالريح العقيم^(١) .

البلاغَة : ١ - ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ الآية على قلة ألفاظها جمعت معاني كثيرة استوعبت جميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر : من بقي له شيء فليطلبه وهذا الأسلوب البليغ يسمى « إيجاز قِصَر » ومداره على جمع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة .

٢ - ﴿سقناه لبلدٍ مَيّتٍ﴾ وصفُ البلد بالموت استعارةٌ حسنة لجذبه وعدم نباته كأنه كالجسد الذي لا روح فيه من حيث عدم الانتفاع به .

٣ - ﴿كذلك نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض نخرج الموتى من قبورهم فهو تشبيه « مرسل مجمل » ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشبه .

٤ - ﴿وقطعنا دابر﴾ قطع الدابر كناية لطيفة عن استئصالهم جميعاً بالهلاك .

تبليغه : ذكر العلامة الألوسي عند قوله تعالى ﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ عن الحسن البصري أنه قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ وأنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً فقال ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ ثم قال : وذكروا للدعاء آداباً كثيرة منها : أن يكون على طهارة ، وأن يستقبل القبلة ، وتحلية القلب من الشواغل ، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي ﷺ ورفع اليدين نحو السماء ، وإشراك المؤمنين فيه ، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير ، ووقت إفطار الصائم ، ويوم الجمعة وغير ذلك^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً . . إلى . . فكيف آسى على قوم كافرين﴾

من آية (٧٣) إلى نهاية آية (٩٣)

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيْنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا

المناسكة : لما ذكر تعالى في أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته ، وغرائب صنعته ، الدالة على توحيده وربوبيته ، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت ، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ، فذكر نوحاً وهوداً وأعقبه هنا بذكر قصة صالح وشعيب ، وموقف المعاندين للرسل الكرام .

اللفظة : ﴿ناقة﴾ الناقة : الأنثى من الجمال ، وعقر الناقة ضرب قوائمها بالسيف ﴿عَتَوْا﴾ استكبروا عتاً عتواً أي استكبر والليل العاتي : الشديد الظلمة ﴿جاثمين﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ﴿الرجفة﴾ الطامة التي يرجف لها الإنسان أي يتزعزع ويضطرب وأصل الرجف الاضطراب رجفت الأرض اضطربت ﴿الغابرين﴾ الباقين في عذاب الله ، والغابر بمعنى الباقي ويجيء بمعنى الماضي والذهاب ومنه قول الأعشى : في الزمن الغابر فهو من الأضداد كما في الصحاح ﴿يَغْنُوا﴾ يقيموا يقال غنى بالمكان إذا أقام به دهرًا طويلاً ﴿عَقَوْا﴾ كثروا ونموا من عفا النبات إذا كثر .

التفسير : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وحدوا الله ولا تشركوا به ﴿قد جاءكم آية من ربكم﴾ أي معجزة ظاهرة جليلة تدل على صحة نبوتي ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ هذا بيان للمعجزة أي هذه الناقة معجزتي إليكم وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم لأنها خلقت بغير واسطة قال القرطبي : أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد^(١) ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي اتركوها تأكل من رزق ربها ﴿ولا تمسوها بسوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ أي لا تتعرضوا لها بشيء من السوء أصلاً إكراماً لها لأنها آية الله ، والعذاب الأليم هو ما حل بهم حين عقروها ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أي خلفاء في الأرض قال الشهاب : لم يقل خلفاء عاد إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وبوآكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي أسكنكم في أرض الحجر تبون في سهولها قصوراً رفيعة ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم قال القرطبي : اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم فإن الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم^(٢) ﴿فاذكروا آية الله ولا تعتوا في الأرض مفسدين﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما تفضل به ولا تعيثوا في الأرض فساداً ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين

لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٥٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٦١﴾ وَمَا كَانَ

استضعفوا لمن آمن منهم ﴿٥٥﴾ أي قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح عليه السلام ﴿٥٦﴾ أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ﴿٥٧﴾ أي أن الله أرسله إلينا وإليكم ، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿٥٨﴾ قالوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ أي أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته قال أبو حيان : وعدوهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم ﴿٥٨﴾ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ في غاية الحسن إذ أمر رسالته معلوم واضح مسلم لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته ^(١) ﴿٥٩﴾ قال الذين استكبروا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٥٩﴾ أي قال المستكبرون نحن كافرون بما صدقتم به من نبوة صالح وإنما لم يقولوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ كَافِرُونَ إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقاتلتهم ﴿٥٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴿٥٦﴾ أي نحروا الناقة واستكبروا عن امتثال أمر الله ﴿٥٧﴾ وقالوا يا صالح أَتُنْتَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٧﴾ أي جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به إِنْ كُنْتَ يَا صَالِحُ حَقًّا رَسُولًا ، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً ﴿٥٨﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٥٨﴾ أَخَذَتْهُمُ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ فَصَارُوا فِي مَنَازِلِهِمْ هَامِدِينَ مَوْتَى لَا حِرَاكَ لَهُمْ قَالَ فِي الْبَحْرِ : أَخَذَتْهُمُ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا صَوْتُ كُلِّ صَاعِقَةٍ وَصَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ صَوْتُ فِي الْأَرْضِ فَقَطَعَتْ قُلُوبَهُمْ وَهَلَكُوا ^(٢) ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٥٩﴾ أي أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم : لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ الرِّسَالَةَ وَحَذَرْتُكُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَبَذَلْتُ وَسْعِي فِي نَصِيحَتِكُمْ وَلَكِنْ شَأْنُكُمْ الْإِسْتِمْرَارُ عَلَى بَغْضِ النَّاصِحِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ قَالَ الزَّخْشَرِيُّ ﴿٥٩﴾ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٥٩﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت - وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة - : يَا أَخِي كَمْ نَصَحْتُكَ وَكَمْ قُلْتُ لَكَ فَلَمْ تَقْبَلْ مِنِّي ^(٣) ؟ ﴿٥٩﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٩﴾ أي واذكر وقت أن قال لوط لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أَتَفْعَلُونَ تِلْكَ الْفِعْلَةَ الشَّنِيعَةَ الْمُنْتَاهِيَةَ فِي الْقَبِيحِ الَّتِي مَا عَمَلَهَا أَحَدٌ قَبْلَكُمْ فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَانِ ! وَالْفَاحِشَةُ هِيَ إِيْتَانِ الذَّكَورِ فِي الْأَدْبَارِ ، أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا فَعَلَهَا ثَمَّ

جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْخَرُجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ^١ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٧﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَنَظَرَ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٩﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَآوُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

وبخهم بأنهم أول من فعلها قال أبو حيان : ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه ، ومركوزاً في العقول فحشه
أتى به معرفاً بالألف واللام ﴿الفاحشة﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه ﴿إنه كان فاحشة﴾ فأتى به منكرأ ،
والجملة المنفية ﴿ما سبقكم﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها ، والمبالغة في
﴿من أحد﴾ حيث زيدت من تأكيد نفي الجنس ، وفي الإتيان بعموم ﴿العالمين﴾ جمعاً قال عمرو بن
دينار : ما رؤي ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط^(١) ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ هذا بيان
للفاحشة وهو توبيخ آخر أشنع مما سبق لتأكيد بآن وباللام أي إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم
شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء ثم أضرب عن الإنكار إلى
الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات فقال ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي لا عذر
لكم بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء قال أبو السعود : وفي التقييد بقوله ﴿شهوة﴾
وصف لهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء
النسل لا قضاء الشهوة^(٢) ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناسٌ يتطهرون﴾ أي
ما كان جوابهم للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح إلا أن قال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطاً وأتباعه
المؤمنين من بلدتكم لأنهم أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار ، قال ابن عباس
ومجاهد : ﴿إنهم أناسٌ يتطهرون﴾ أي يتقذرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء ، قالوا ذلك سخرية
واستهزاء بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي
أنجيناه من العذاب الذي حل بقومه وأهله المؤمنين إلا امرأته فلم تنج وكانت من الباقيين في ديارهم الهالكين
قال الطبري : أي أنجيناه لوطاً وأهله المؤمنين به إلا امرأته فإنها كانت للوط خاتنة وبالله كافرة فهلكت مع
من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب^(٣) ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي أرسلنا عليهم نوعاً من المطر
عجيباً هو حجارة من سجيل كما في الآية الأخرى ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ وشبه العذاب بالمطر
المدرار لكثرة حيث أرسل إرسال المطر ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي انظر أيها السامع إلى عاقبة
هؤلاء المجرمين كيف كانت ؟ وإلى أي شيء صارت ؟ هل كانت إلا البوار والهلاك ؟! ﴿وإلى مدين أخاهم
شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً داعياً لهم إلى توحيد الله
وعبادته قال ابن كثير : ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب « معان » من طريق الحجاز

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا
فَكَثَرْتُكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ
وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَلِمَاتٌ

وهم أصحاب الأيكة كما سذكروه^(١) ﴿٨٥﴾ قد جاءكم بينة من ربكم ﴿٨٥﴾ أي معجزة تدل على صدقي ﴿٨٥﴾ فأوفوا
الكيل والميزان ﴿٨٥﴾ أي أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به ﴿٨٥﴾ ولا تبخسوا
الناس أشياءهم ﴿٨٥﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها ﴿٨٥﴾ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴿٨٥﴾
أي لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿٨٥﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿٨٥﴾ أي ما أمرتكم به من
إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي
﴿٨٥﴾ ولا تقعدوا بكل صراطٍ تُوعِدُونَ وتصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿٨٥﴾ أي لا تجلسوا بكل طريق تخوفون من
آمن بالقتل قال ابن عباس : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه
ويصدونه ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ^(٢)
﴿٨٥﴾ وتبغونها عوجاً ﴿٨٥﴾ أي تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم
كما يقول الضالون في هذا الزمان : «هذا الدين لا ينطبق مع العقل» لأنه لا يتمشى مع أهوائهم الفاجرة
﴿٨٥﴾ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴿٨٥﴾ أي كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزة فاشكروا الله على نعمته
﴿٨٥﴾ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴿٨٥﴾ هذا تهديد لهم أي انظروا ما حلّ بالأُمم السابقة حين عصوا الرسل
كيف انتقم الله منهم واعتبروا بهم ﴿٨٥﴾ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا
حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴿٨٥﴾ أي إذا كان فريق صدقوني فيما جئتكم به وفريق لم يصدقوني
فاصبروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين قال أبو حيان : هذا الكلام من أحسن ما
تلف به في المحاوراة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك وهو من بارع التقسيم فيكون وعداً للمؤمنين
بالنصر ووعداً للكافرين بالعقوبة والخسار^(٣) ﴿٨٥﴾ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ﴿٨٥﴾ أي قال أشرف قومه
المستكبرين عن الإيمان بالله ورسوله ﴿٨٥﴾ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴿٨٥﴾
أقسموا على أحد الأمرين إما إخراج شعيب وأتباعه وإما العودة إلى ملتهم أي إلى الكفر والمعنى لنخرجنك
يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا أَوْ لَتَرَجِعَنَّ أَنْتَ وَهُمْ إِلَى دِينِنَا قَالَ شعيب مجيباً لهم ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ كَلِمَاتٌ

قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٩٥﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٩٦﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩٧﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَرَّ يَغْنَوُا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٩﴾

كارهين ﴿٩٥﴾ أي أخرجونا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم ولو كنا كارهين لذلك ؟ والاستفهام للإنكار ﴿٩٦﴾ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴿٩٧﴾ أي إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان وبصرنا بالهدى نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب ، وهذا تبيس للكفار من العودة إلى دينهم ﴿٩٨﴾ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴿٩٩﴾ أي لا ينبغي ولا يصح لنا أن نعود إلى ملتكم ودينكم إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضي فينا قضاؤه ﴿١٠٠﴾ وسع ربنا كل شيء علماً ﴿١٠١﴾ أي وسع علمه كل الأشياء ﴿١٠٢﴾ على الله توكلنا ﴿١٠٣﴾ أي اعتمادنا على الله وهو الكافي لمن توكل عليه ﴿١٠٤﴾ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴿١٠٥﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا ظلم وأنت خير الحاكمين ﴿١٠٦﴾ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴿١٠٧﴾ أي قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة : إذا اتبعتم شعيباً وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذا لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى قال تعالى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ أي فأخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا ميتين جاثمين على الركب ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ أي أهلك الله المكذبين كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعمين ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ إخبار عنهم بالخسار بعد الهلاك والدمار ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ قاله تأسفاً لشدة حزنه عليهم لأنهم لم يتبعوا نصحه ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ أي كيف أحزن على من لا يستحق أن يحزن عليه قال الطبري : أي كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم (١) ؟

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿هذه ناقة الله﴾ الإضافة للتشريف والتكريم .

٢ - ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ التنكير للتقليل والتحقير أي لا تمسوها بأدنى سوء .

٣ - ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

٤ - ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يسمى هذا النوع في علم البديع التعريض بما يوهم الذم ولذلك قال ابن عباس : عابوهم بما يمدح به .

٥ - ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر .

٦ - بين لفظ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ و﴿كَافِرُونَ﴾ طباقاً .

فَكَايْدَةٌ : الذي عقر الناقة هو «قُدار بن سالف» وإنما نسب الفعل إليهم جميعاً في قوله تعالى ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ لأنه كان برضاهم وأمرهم ، والراضي بالعمل القبيح شريك في الجريمة .

قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ . . . إِلَى . . . فَيَنْظُرَ كَيْفَ يَتَعْمَلُونَ﴾

من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١٢٩)

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء (نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب) وما حلّ بأقوامهم من العذاب والنكال حين لم تُجد فيهم الموعظة ، ذكر تعالى هنا سنته الإلهية في الانتقام من كذب أنبياءه وذلك بالتدرج معهم بالبأساء والضراء ، ثم بالنعمة والرخاء ، ثم بالبطش بهم إن لم يؤمنوا ثم أعقب ذلك بقصة موسى مع الطاغية فرعون وفيها كثير من العبر والعظات .

اللغز : ﴿البأساء﴾ شدة الفقر ﴿الضراء﴾ المرض ﴿عَفَوا﴾ كثروا ونموا ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿مَلَائِهِ﴾ أشراف قومه ﴿أَرْجَهُ﴾ آخر ﴿صَاغِرِينَ﴾ أذلاء ﴿تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتلتقم ﴿يَأْفِكُونَ﴾ الإفك : الكذب ﴿أَفْرَغُ﴾ الإفراغ : الصب أي أصببه علينا .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

النفسير : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ في الكلام حذف أي وما أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ فكذبه أهلها ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي عاقبناهم بالبؤس والفقر ، والمرض وسوء الحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي ثم أبدلناهم بالفقر والمرض ، الغنى والصحة ﴿حَتَّى عَفَوا﴾ أي حتى كثروا ونموا ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾ أي أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر وقد مسَّ آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا ، والغرض أن الله ابتلاهم بالسَّيِّئَةِ لينبئوا إليه فما فعلوا ، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ولهذا قال تعالى ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠١﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٠٢﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٠٣﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٤﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٥﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا

يشعرون ﴿١٠١﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة من حيث لا يدرون ﴿١٠٢﴾ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴿١٠٣﴾ أي ولو أن أهل القرى الذين كذبوا وأهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿١٠٤﴾ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴿١٠٥﴾ أي لو سئنا عليهم الخير من كل جانب وقيل : بركات السماء المطر ، وبركات الأرض الثمار ، قال السدي : فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق ﴿١٠٦﴾ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴿١٠٧﴾ أي ولكن كذبوا الرسل فعاقبناهم بالهلاك بسوء كسبهم ﴿١٠٨﴾ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيانا وهم نائمون ﴿١٠٩﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه ؟ ﴿١١٠﴾ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴿١١١﴾ أم هل آمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهراً جهاًراً وهم يلهون ويشغلون بما لا يُجدي كأنهم يلعبون ؟ ﴿١١٢﴾ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴿١١٣﴾ أي أفأمنوا استدراجه إياهم بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم ؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أخس من البهائم قال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف وجل ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن ﴿١١٤﴾ أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴿١١٥﴾ أي أولم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم ، والمراد بها كفار مكة ومن حولهم ﴿١١٦﴾ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴿١١٧﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم قال في البحر : أي قد علمتم ما حل بهم أفما تحذرون أن يحل بكم ما حل بهم فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا ﴿١١٨﴾ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴿١١٩﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تذكيراً سماع منتفع بهما ﴿١٢٠﴾ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴿١٢١﴾ أي تلك القرى المذكورة نقص عليك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة والرحم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع وما حدث أهول وأفظع ﴿١٢٢﴾ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴿١٢٣﴾ أي جاءتهم بالمعجزات والحجج القاطعات ﴿١٢٤﴾ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴿١٢٥﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها فحالهم واحد في العتو والضلال قال الزمخشري : أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء

لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٥١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٥٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا

الرسول إليهم إلى أن ماتوا مصرين لا يرجعون مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات (١) ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم النذر والآيات ، وفيه تحذير للسامعين ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفساقين﴾ أي ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامثال قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه هو ما فطروهم عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم فخالفوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع (٢) ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات ﴿إلى فرعون وملائته﴾ أي أرسلناه إلى فرعون - ملك مصر في زمن موسى - وقومه ﴿فظلموا بها﴾ أي كفروا ووجدوا بها ظلماً وعناداً ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين كيف أغرقناهم عن آخرهم بمراى من موسى وقومه ، وهذا أبلغ في النكال لأعداء الله ، وأشفى لقلوب أولياء الله ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أي إني رسول إليك من الخالق العظيم رب كل شيء وخالقه ومليكه ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ أي جدير بي وحق على أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قد جئتكم بأية من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي فخل واترك سبيل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم (٣) قال أبو حيان : ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله ﴿إني رسول من رب العالمين﴾ لينبئه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطل لا محق ، ولما كان قوله ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ أردفها بما يدل على صحتها وهو قوله ﴿قد جئتكم بأية من ربكم﴾ ولما قرر رسالته فرع عليها تبليغ الحكم وهو قوله ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ (٤) ﴿قال إن كنت جئت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ أي

(١) الكشف ٢/ ١٣٥- (٢) مختصر ابن كثير ٣٩/ ٢

(٣) قال المفسرون : كان سبب سكنى بني إسرائيل بمصر مع أن أباهم كان بالأرض المقدسة أن الأسباط - أولاد يعقوب - جاءوا مصر إلى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة فأحب موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم . (٤) البحر ٤/ ٣٥٥ .

هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ^١ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٦٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٦١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١٦٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٦٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١٦٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا

قال فرعون لموسى : إن كنت جئت بآية من ربك كما تدعي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك ، قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى ﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي فإذا بها حية ضخمة طويلة قال ابن عباس : تحولت إلى حية عظيمة فاعرة فاها مسرعة نحو فرعون و ﴿مبين﴾ أي ظاهر لا متخيل ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي أخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً عجيباً يغلب نورها نور الشمس قال ابن عباس : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾ أي قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته إن هذا عالمٌ بالسحر ماهرٌ فيه ، وقولهم ﴿عليم﴾ أي بالغ الغاية في علم السحر وخدعه وفنونه ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ أي يخرجكم من أرض مصر بسحره ﴿فماذا تأمرون﴾ أي بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره ؟ وبأي شيء تشيرون فيه ؟ قال القرطبي : قال فرعون : فماذا تأمرون وقيل : هو من قول الملأ أي قالوا لفرعون وحده ﴿فماذا تأمرون﴾ كما يخاطب الجبارون والرؤساء : ما ترون في كذا^(١) ، ﴿قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين﴾ أي أخر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما وأرسل في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة ﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أي يأتوك بكل ساحر مثله ماهر في السحر ، وكان رؤساء السحرة بأقصى صعيد مصر ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ في الكلام محذوف يدل عليه السياق وهو أنه بعث إلى السحرة وطلب أن يجمعوا له فلما جاءوا فرعون قالوا : إن لنا لأجراً عظيماً إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره ؟ ﴿قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾ أي قال فرعون : نعم لكم الأجر وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين أي من أعز خاصتي وأهل مشورتي قال القرطبي : زادهم على ما طلبوا ﴿قالوا يا موسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أي قال السحرة لموسى : اختر إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ عصاك أو نلقي نحن عصيتنا قال الزمخشري : تخييرهم إياه أدبٌ حسن كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يخوضوا في الجدال^(٢) هذا ما قاله الزمخشري ، والأظهر أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس وتوهم الغلبة وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول المعتد بنفسه : أبداً أو تبدأ ﴿قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس﴾ أي قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا العصي والحبال سحروا أعين الناس أي خيلوا إليهم ما لا حقيقة له كما قال تعالى ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾ واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴿أي أفزعوهم

بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِمَا عَاقِلَتْ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارِنَا

وأرهبوهم إرهاباً شديداً حيث خيلوها حيات تسعى وجاءوا بسحر عظيم يهابه من رآه قال ابن اسحق : صُفِّتْ خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفَ سَاحِرٍ مَعَ كُلِّ سَاحِرٍ حَبَالُهُ وَعَصِيَّتُهُ وَفِرْعَوْنُ فِي مَجْلِسِهِ مَعَ أَشْرَافِ مَمْلَكَتِهِ فَكَانَ أَوَّلُ مَا اخْتَلَفُوا بِسِحْرِهِمْ بَصَرَ مُوسَىٰ وَبَصَرَ فِرْعَوْنَ ، ثُمَّ أَبْصَارُ النَّاسِ بَعْدَ ثَمَّ أَلْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مَا فِي يَدِهِ مِنَ الْعَصِيِّ وَالْحَبَالِ فَإِذَا هِيَ حَيَاتٌ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ قَدْ مَلَأَتْ الْوَادِي يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً ^(١) * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * أَيُّ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ بِأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ تَبْتَلَعُ بِسُرْعَةٍ مَا يَزُورُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : * تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * لَا تَمُرُ بِشَيْءٍ مِنْ حَبَالِهِمْ وَخَشَبِهِمْ الَّتِي أَلْقَوْهَا إِلَّا التَّقَمَّتْ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَيُّ ثَبَتَ وَظَهَرَ الْحَقُّ لِمَنْ شَهِدَهُ وَحَضَرَهُ ، وَبَطَلَ إِفْكُ السِّحْرِ وَكَذِبُهُ وَغَيَابُهُ * فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * أَيُّ غُلِبَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ فِي ذَلِكَ الْمَجْمَعِ الْعَظِيمِ وَصَارُوا ذَلِيلِينَ * وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * أَيُّ خَرُّوا سَاجِدِينَ مُعْلِنِينَ إِيمَانَهُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ لِأَنَّ الْحَقَّ بِهِمْ قَالَ قَتَادَةُ : كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ كُفَّاراً سَحَرَةً وَفِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَّةٍ ^(٢) * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ * أَيُّ قَالَ فِرْعَوْنُ الْجَبَّارُ لِلْسَّحَرَةِ آمَنْتُمْ بِمُوسَىٰ قَبْلَ أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي ؟ وَالْمَقْصُودُ بِالْجُمْلَةِ التَّوْبِيخُ * إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا * أَيُّ صَنِيعَكُمْ هَذَا حِيلَةً اِحْتَلَمْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَمُوسَىٰ فِي مِصْرَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْمِيعَادِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا الْقِبْطَ وَتَسْكُنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ هَذَا تَمْوِيهاً عَلَى النَّاسِ لِئَلَّا يَتَّبِعُوا السَّحَرَةَ فِي الْإِيمَانِ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَيُّ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَا يَحِلُّ بِكُمْ ، وَهَذَا وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ سَاقَهُ بِطَرِيقِ الْإِجْمَالِ لِلتَّهْوِيلِ ثُمَّ عَقَّبَهُ بِالتَّفْصِيلِ فَقَالَ * لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ * أَيُّ لَا قِطْعَنَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ قَالَ الطَّبْرِيُّ : وَمَعْنَى * مِنْ خِلَافٍ * هُوَ أَنْ يَقْطَعَ مِنْ أَحَدِهِمْ يَدُهُ الْيُمْنَى وَرِجْلُهُ الْيُسْرَى وَرِجْلُهُ الْيُمْنَى فَيُخَالِفُ بَيْنَ الْعُضْوَيْنِ فِي الْقِطْعِ ^(٣) * ثُمَّ لَأُصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ * أَيُّ ثُمَّ أُصْلَبَكُمْ جَمِيعاً تَنْكِيلاً لَكُمْ وَلِأَمْثَالِكُمْ ، وَالصُّلْبُ التَّعْلِيقُ عَلَى الْخَشَبِ حَتَّى الْمَوْتِ * قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا رَاجِعُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْمَوْتِ لَا مُحَالَةَ فَلَا نَخَافُ مَا تَتَوَعَّدُنَا بِهِ وَلَا نُبَالِي بِالْمَوْتِ وَحَبْذا الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ * وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا * أَيُّ مَا تَكْرَهُ مِنَّا وَلَا تَعِيبُ

أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ أَمَلَاءُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكِ وَءِ الْهَتَكَ قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

علينا إلا إيماننا بالله وآياته !! كقوله ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ قال الزمخشري : أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان (١) ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ أي أفضْ علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب فرعون إيانا وتوفنا على ملة الإسلام غير مفتونين ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أئذِ موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويَذركِ وأهلك﴾ أي قال الأشراف لفرعون : أترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض بالخروج عن دينك وترك عبادة آلهتك !! وفي هذا إغراء لفرعون بموسى وقومه وتحريض له على قتلهم وتعذيبهم ﴿قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ أي قال فرعون مجبياً لهم : سنقتل أبناءهم الذكور ونستحيي نساءهم للاستخدام كما كنا نفعل بهم ذلك وإنا عالون فوقهم بالقهر والسلطان ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾ أي قال موسى لقومه تسلياً لهم حين تضجروا مما سمعوا : استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم واصبروا على حكم الله ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ أي الأرض كلها لله يعطيها من أراد من عباده ، أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر ﴿والعاقبة للمتقين﴾ أي النتيجة المحمودة لمن اتقى الله ﴿قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ أي أؤذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعدما جئتنا بها يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ أي لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم وينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد ، والغرض تحريضهم على طاعة الله ، وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملئك بني إسرائيل أرض مصر قال في البحر : سلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء (٢) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقاً وكذلك بين لفظ الضراء والسرء .

٢ - ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء﴾ شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول

فهو من باب الاستعارة أي وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف .

٣ - ﴿أفأمن أهل القرى﴾ تكررت الجملة والغرض منها الإنذار ويسمى هذا في علم البلاغة الإطناب ومثلها ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله﴾ قال أبو السعود : تكريرٌ للنكير لزيادة التقرير ، ومكرُ الله استعارةٌ لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب ^(١) .

٤ - ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ أكد الجملة بيان واللام لإزالة الشك من نفوس السحرة ويسمى هذا النوع من أضرب الخبر إنكارياً .
٥ - ﴿فوق الحق﴾ فيه استعارة استعير الوقع للثبوت والحصول والله أعلم .

تنبية : لما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان عدل إلى البطش والفتك بالسنان ، وهكذا حال كل ضال مبتدع إذا أعيته الحجة مال إلى التهديد والوعيد .

قول الله تعالى : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات﴾ . إلى . . لنكونن من الخاسرين ﴿ من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٤٩) .

المناسبة : لما كانت قصة الكليم مع الطاغية فرعون مملوءة بالعبر والعظات لذلك استطردت الآيات في الحديث عنهم فتحدثت عما حلَّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات ، وما ابتلاهم الله به من القحط والجذب ، والطوفان والجراد وغير ذلك من المصائب نتيجة إصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله ، ثم ذكرت أنواع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ومن أعظمها إهلاك عدوهم وقطعهم البحر مع السلامة والأمان .

اللفظة : ﴿السنين﴾ جمع سنّة وهي الجذب والقحط ﴿يطيروا﴾ يتشاءموا والأصل يتطيروا مأخوذ من الطيرة وهي زجر الطير ثم استعمل في التشاؤم ﴿الطوفان﴾ السيل المتلف المدمر ﴿القمل﴾ السوس وهي حشرات صغيرة تكون في الحنطة وغيرها تفسد الحبوب ﴿الرجز﴾ العذاب ، والرجس بالسين : النجس وقد يستعمل بمعنى العذاب ﴿اليم﴾ البحر ﴿يعكفون﴾ عكف على الشيء أقام عليه ولزمه ﴿متبر﴾ مهلك والتبار : الهلاك ﴿صعقاً﴾ مغشياً عليه يقال : صَعِقَ الرجل إذا أغمى عليه .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا

التفسير : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجذب والقحط ﴿ونقص من الثمرات﴾ أي وابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات قال المفسرون : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ^(٢) ﴿لعلهم يذكرون﴾ أي لعلهم

هَذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۚ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ

يتعظون وترق قلوبهم فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب ، ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن والشدائد لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً فقال ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾ أي إذا جاءهم الخصب والرخاء قالوا هذه لنا وبسعدنا ونحن مستحقون لذلك ﴿وإن تصيبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي وإذا جاءهم الجذب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين أي قالوا : هذا بشؤمهم قال تعالى رداً عليهم ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي إن ما يصيبهم من خير أو شر بتقدير الله وليس بشؤم موسى قال ابن عباس : الأمر من قيل الله ليس شؤمهم إلا من قبله وحكمه ^(١) ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي قال قوم فرعون لموسى : أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك قال الزمخشري : فإن قلت كيف سموها آية ثم قالوا ﴿لتسحرنا بها﴾ ؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية وإنما قصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي ^(٢) قال تعالى ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه وكادوا يهلكون قال ابن عباس : الطوفان كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ^(٣) ﴿والجراد﴾ أي وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكل زروعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم ﴿والقمل﴾ وهو السوس حتى نخر جوبهم وتبع ما تركه الجراد وقيل : هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه ﴿والضفادع﴾ جمع ضفدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم وإذا تكلم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه ﴿والدم﴾ أي صارت مياههم دماً فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً ﴿آيات مفصلات﴾ أي علامات ظاهرات فيها عبر وعظات ومع ذلك استكبروا عن الإيمان ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي استكبروا عن الإيمان بها لغلوهم في الإجماع ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي وحين نزل بهم العذاب المذكور ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بحق ما أكرمك به من النبوة قال الزمخشري : أي أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة ^(٤) ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل﴾ اللام لام القسم أي والله لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لنصدقنَّ بما جئت به ولنطلقنَّ سراح بني إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إلى أجلٍ هم بالغوه﴾

(١) روح المعاني ٣٢/٩ . (٢) الكشاف ١٤٦/٢ .

(٣) مختصر ابن كثير ٤٥/٢ . (٤) الكشاف ١٤٨/٢ .

قَالُوا يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِنَكْشِفَ عَنْكَ الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُم يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا آلِي بَرَكَاءٍ فِيهَا وُثِّقَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا

أي فلما كشفنا بدعاء موسى عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه ولا بدَّ قال ابن عباس : هو وقت الغرق ﴿إِذَا هُم يَنْكُثُونَ﴾ أي إذا هم ينقضون عهودهم ويصرون على الكفر ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاتهم بها ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ أي وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستذلون بالخدمة أرض الشام وملكناهم جميع جهاتها ونواحيها : مشارقها ومغاربها ﴿التي باركنا فيها﴾ بالخيرات وكثرة الثمرات ﴿وَوُثِّقَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي تمَّ وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم قال الطبري : وكلمته الحسنى هي قوله جل ثناؤه ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة . . .﴾ الآية ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على الأذى ﴿ودمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ أي خربنا ودمرنا القصور والعمارات التي كان يشيدها فرعون وجماعته وما كانوا يعرشون من الجنات والمزارع ، وإلى هنا تنتهي قصة فرعون وقومه ويتبدى الحديث عن بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام ، وأراهم من الآيات العظام ، تسلياً لرسوله عليه الصلاة والسلام مما رآه منهم قال تعالى ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي عبرنا ببني إسرائيل البحر وهو بحر القلزم عند خليج السويس الآن ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ أي مروا على قوم يلازمون على عبادة أصنام لهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أي اجعل لنا صنماً نعبده كما لهم أصنام يعبدونها قال ابن عطية : الظاهر أنهم استحسِنوا ما رأوا فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى اجعل لنا إلهاً تُفرد بالعبادة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي إنكم قوم تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والنظير قال الزمخشري : تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى ، والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكدته ،

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغِيرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَ كُرٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُرٍّ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ * وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّقْلَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ

لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع ^(١) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ﴾ أي هالك مدمر ما هم فيه من الدين الباطل وهو عبادة الأصنام ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي باطل عملهم مضمحل بالكلية لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾ أي أأطلب لكم معبوداً غير الله المستحق للعبادة والحال أن الله فضلكم على غيركم بالنعم الجليلة !! قال الطبري : فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم ^(٢) ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل النعم التي سلفت مني إليكم حين أنجيتكم من قوم فرعون يذيقونكم أفطع أنواع العذاب وأسوأه ثم فسر بقوله ﴿يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث لامتهانهم في الخدمة ﴿وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم﴾ أي وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم فنجاكم منه أفلا تشكرونه ؟ ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ أي وعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة وأكملناها بعشر ليالٍ فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة قال الزمخشري : روي أن موسى وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه « تغير رائحته » فتسوك فأوحى الله تعالى إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ! فأمره تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة ^(٣) ﴿وقال موسى لأخيه هرون أخلفني في قومي﴾ أي كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع ﴿وأصلح وأصلح أمرهم ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم لله﴾ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴿أي ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه فيه ونجاه ربه وكلمه من غير واسطة﴾ قال رب أرني أنظر إليك ﴿أي أرني ذاتك المقدسة أنظر إليها قال القرطبي : اشتاق إلى رؤية ربه لما أسمعته كلامه فسأل النظر إليه ^(٤)﴾ قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ أي أجابه ربه لن تستطيع رؤيتي في الدنيا فإن هذه البنية البشرية لا طاقة لها بذلك ولكن سأتحلي لما هو أقوى منك وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني أي تثبت لرؤيتي وإلا فلا طاقة لك ﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾

لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي نَخَذُ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ نَخَذُهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرًا قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُونَهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ

أي فلما ظهر من نور الله قدر نصف أمثلة الخنصر اندك الجبل وتفتت وسقط موسى مغشياً عليه من هول ما رأى قال ابن عباس : ما تجلَّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار تراباً وخرَّ موسى مغشياً عليه ^(١) وفي الحديث : فساخ الجبل ﴿ فلما أفاق قال سبحانه تبُّتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي فلما صحا من غشيته قال تنزيهاً لك يا رب وتبرئة أن يراك أحد في الدنيا تبُّتُ إِلَيْكَ من سؤاله رؤيتك في الدنيا وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك ﴿ قال يا موسى إنني اصطفتيك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ أي اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية وبتكليمي إياك بدون واسطة ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ أي خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم قال أبو السعود : والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدًا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها ^(٢) ﴿ وكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي كُتِبْنَا لَهُ كل شيء في الألواح التوراة ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي ليتعظوا بها ويزدجروا وتفصيلاً لكل التكليف الشرعية ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي خذ التوراة بجد واجتهاد شأن أولي العزم ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أي وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص ، والصبر أفضل من الانتصار كما قال تعالى ﴿ ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ قال ابن عباس : أمر موسى أن يأخذها بأشد ما أمر به قومه ^(٣) ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أي سترون منازل الفاسقين - فرعون وقومه - كيف أقفرت منهم ودُمِّروا لفسقهم لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم ، فإن رؤيتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها ، وأطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبرهم قال الزمخشري : وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يُصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم ^(٤) ﴿ وإن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ

(٤) الكشف ١٥٩/٢ .

(١) الطبري ٩٧/١٣ . (٢) أبو السعود ١٩٥/٢ . (٣) الطبري ١١٠/١٣ .

الرُّشْدَ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ
بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾
وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

لا يؤمنوا بها ﴿١﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية من الآيات المنزلة عليهم أو يروا كل معجزة ربانية لا يصدقوا بها ﴿٢﴾ وإن يروا سبيل الرُّشْد لا يتخذوه سبيلاً ﴿٣﴾ أي وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه ﴿٤﴾ وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴿٥﴾ أي وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه كقوله ﴿فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ ﴿٦﴾ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴿٧﴾ أي ذلك الانحراف عن هدي الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله ﴿٨﴾ وكانوا عنها غافلين ﴿٩﴾ أي وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ﴿١٠﴾ والذين كذبوا بآياتنا ﴿١١﴾ أي جحدوا بما أنزل الله ﴿١٢﴾ ولقاء الآخرة ﴿١٣﴾ أي وكذبوا بلقاء الله في الآخرة أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت ﴿١٤﴾ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ أي بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسانٍ وصلةٍ رحمٍ وصدقةٍ وأمثالها وذهب ثوابها لعدم الإيمان ﴿١٥﴾ هل يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أي هل يُثَابُونَ أو يعاقبون إِلَّا بما عملوا في الدنيا ؟ ﴿١٧﴾ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار ﴿١٨﴾ قال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذوه لهم السامري من الحلي ، فشكّل لهم منه عجلًا جسدًا لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خوار أي صوت كصوت البقر ^(١) ومعنى ﴿من بعده﴾ أي من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ﴿٢٠﴾ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴿٢١﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهًا مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق ، فإنه لا يملك قدرة الكلام ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة فكيف يتخذ إلهًا ؟ ﴿٢٢﴾ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴿٢٣﴾ أي عبدوا العجل واتخذوه إلهًا فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها ، وتكرير لفظ ﴿اتخذوا﴾ لمزيد التشنيع عليهم ﴿٢٤﴾ ولما سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ أي ندموا على جنائيتهم واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ﴿٢٥﴾ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴿٢٦﴾ أي تبينوا ضلالهم تبينًا جليًا كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿٢٧﴾ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ﴿٢٨﴾ أي لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته ﴿٢٩﴾ لنكوننَّ من الخاسرين ﴿٣٠﴾ أي لنكوننَّ من الهالكين قال ابن كثير : وهذا اعترافٌ منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عز وجل ^(٢) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقٌ كما أن بين لفظ ﴿طائرهم﴾

- و ﴿يطيروا﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .
- ٢ - ﴿ودمرنا ما كان يصنع﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ومثله ﴿وما كانوا يعرشون﴾ والأصل ما صنعوا وما عرشوا .
- ٣ - ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ أتى بلفظ تجهلون ولم يقل : جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبل ^(١) .
- ٤ - ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين ، والأصل أن يقال : سأريهم .
- ٥ - ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ هذا من باب الكناية فهو كناية عن شدة الندم لأن النادم يعرض على يده غماً .
- ٦ - بين لفظ ﴿مشارك﴾ و﴿مغارب﴾ طباقاً .

تنبية : مذهب أهل السنة قاطبة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لن تراني﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليل لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية ، لأنها لو كانت محالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴿فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد : إن الله قال لموسى : لن تراني ، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأجلبى للجل الذي هو أقوى منك وأشد ، فإن استقر وأطاق الصبر لهيتي أمكن أن تراني أنت ، وإن لم يُطق الجبل فأحرى ألا تطيق أنت فعلى هذا جعل الله الجبل مثلاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق ، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتاب الله ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فلا ينكرها إلا مبتدع .

فائدة : لما سمع الكليم موسى كلام الله اشتاق إلى رؤيته ، لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب يزيد في الشوق إليه والحنين وقد أحسن من قال :

وأفرح ما يكونُ الشوقُ يوماً
إذا دنتِ الدِّيارُ من الديار

لطيفة : السعادة والشقاوة بيد الله فموسى بن عمران رباه فرعون فكان مؤمناً ، وموسى السامري رباه جبريل وكان كافراً ، فلم تنفع تربية الأمين لموسى السامري ، ولم تضر تربية اللعين لموسى الكليم عليه السلام ، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

إذا المرء لم يُخلَقْ سعيداً من الأزل
فموسى الذي رباه جبريلُ كافراً

فقد خاب من ربّي وخاب المؤملُ
وموسى الذي رباه فرعونُ مُرسلاً

قال الله تعالى : ﴿ولما رجع موسى إلى قومه.. إلى .. إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾
من آية (١٥٠) إلى نهاية آية (١٧٠) .

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، وما أغدق الله عليهم من النعم ، وما قابلوها به من الجحود والعصيان ، وقد ذكرت الآيات قصة ﴿ أصحاب القرية ﴾ واعتداءهم يوم السبت بالاصطياد فيه وكيف أن الله تعالى مسخهم قردة ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين .

اللفظة : ﴿ أسفاً ﴾ الأسف : شدة الحزن أو الغضب يقال هو أسف وأسيف ﴿ ابن أم ﴾ أصلها ابن أمي وهي استعطاف ولين ﴿ تشمت ﴾ الشماتة : السرور بما يصيب الإنسان من مكروه وفي الحديث (وأعوذ بك من شماتة الأعداء) ﴿ الرجفة ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿ هدنا ﴾ تبنا يقال : هاد يهود إذا تاب ورجع فهو هائد قال الشاعر : إني امرؤٌ مما جنيتُ هائد ﴿ إصرهم ﴾ التكليف الشاقة وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحراك ﴿ الأغلال ﴾ جمع غُل وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ﴿ عزروه ﴾ وقروه ونصروه ﴿ أسباطاً ﴾ جمع سبط وهو ولد الولد أو ولد البنت ثم أطلق على كل قبيلة من بني إسرائيل ﴿ تأذن ﴾ أذن من الإيدان بمعنى الإعلام ﴿ يسومهم ﴾ يذيقهم ﴿ خلف ﴾ بسكون اللام من يخلف غيره بالسوء والشر وأما بفتح اللام فهو من يخلف غيره بالخير ومنه قولهم : « جعلك الله خير خلف لخير سلف » .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ بَلِّسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٢﴾

التفسير : ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ أي ولما رجع موسى من المناجاة ﴿ غضبان ﴾ مما فعلوه من عبادة العجل ﴿ أسفاً ﴾ أي شديد الحزن ﴿ قال بلسما خلفتموني من بعدي ﴾ أي بشئ ما فعلتموه بعد غيبيتي حيث عبدتم العجل ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور ؟ والاستفهام للإنكار ﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ أي طرح الألواح لما عراه من شدة الغضب ، وفرط الضجر غضباً لله من عبادة العجل ، وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظناً منه أنه قصر في كفهم عن ذلك وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه قال ابن عباس : لما عاين قومه وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها غضباً لله وأخذ برأس أخيه يجره إليه ^(١) ﴿ قال ابن أم ﴾ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ﴿ أي قال هارون يا ابن أمي - وهو نداء استعطاف وترفق ^(٢) - إن القوم استذلوني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك فأنا لم أقصر في نصحتهم ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ أي لا تُسئ إلي حتى يُسر الأعداء بي ويشمتوا بإهانتك إلي ولا تجعلني في عداد الظالمين بالموأخذة أو النسبة إلى التقصير قال مجاهد : ﴿ الظالمين ﴾ أي الذين عبدوا العجل ﴿ قال رب اغفر

(١) الطبري ١٣/ ١٢٣ (٢) قال ابن كثير : وإنما قال « ابن أم » ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾
وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن
مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ^ط وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ
سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُم بِمَا فَعَلُوا

لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴿١﴾ لما تحقق لموسى براءة هارون عليه السلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال ﴿اغفر لي ولأخي﴾ الآية قال الزمخشري : استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة ، وطلب ألا يتفرقا عن رحمة ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إن الذين عبدوا العجل - ذكر البقر - واتخذوه إلهاً سيصيبهم غضب شديد من الرحمن ، وينالهم في الدنيا الذل والهوان قال ابن كثير : أما الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً ، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا^(٢) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله قال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل^(٣) ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ أي عملوا القبائح والمعاصي ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقرارها وداموا على إيمانهم وأخلصوا فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ربك يا محمد من بعد تلك التوبة لغفور لذنوبهم رحيم بهم قال الألوسي : وفي الآية إعلام بأن الذنوب وإن جلّت وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجل ، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له :

يا ربَّ إِنِّ عَظُمْتُ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقد عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسَنُ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ؟^(٤)

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي سكن غضب موسى على أخيه وقومه ﴿أخذ الألواح﴾ أي ألواح التوراة التي كان ألقاها ﴿وفي نسختها هدى ورحمة﴾ أي وفيها نسخ فيها وكتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي هذه الرحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه الإتيان فيه للاعتذار عن عبادة العجل ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ أي فلما رجف بهم الجبل وصعقوا ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ أي قال موسى على وجه التضرع والاستسلام

السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٤٠﴾ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ

لأمر الله : لو شئت يا رب أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت فإننا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ ؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم : ﴿أرنا الله جهرة﴾ ؟ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول : لا تعذبنا يا الله بذنوب غيرنا قال الطبري في رواية السدي : إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة ، فإنك قد كلمته فأرنا فآخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي (١) « أقول : إذا كان هذا قول الأخيار من بني إسرائيل فكيف حال الأشرار منهم ؟ نعوذ بالله من خبث اليهود ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محتنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك ﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ أي تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدي من تشاء هدايته ﴿أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا﴾ أي أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة ﴿وأنت خير الغافرين﴾ أي أنت خير من صفح وستر ، تغفر السيئة وتبدها بالحسنة ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ هذا من جملة دعاء موسى عليه السلام أي حقق وأثبت لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا ﴿قال عذابي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشْأَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي قال تعالى أما عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي وأما رحمتي فقد عمّت خلقي كلهم قال أبو السعود : وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذاناً بأن الرحمة مقتضى الذات ، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد (٢) ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي ويعطون زكاة أموالهم ويصدقون بجميع الكتب والأنبياء ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً ﷺ النبي العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب قال البيضاوي : وإنما سمّاه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى ، ونبيّاً بالإضافة إلى العباد (٣) ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة

(١) الطبري ١٣ / ١٤٠ . (٢) أبو السعود ٢ / ٢٠١ . (٣) البيضاوي ص ٢

عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ^ج فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ^١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاعْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ^ط وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا^ج وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ^ط أَنْ اصْرَبْ

والإنجيل ﴿١﴾ أي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل قال ابن كثير : هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشرى أمهم ببعثته وأمرهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأحبارهم^(١) ﴿٢﴾ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴿٣﴾ أي لا يأمر إلا بكل شيء مستحسن ولا ينهي إلا عن كل شيء قبيح ﴿٤﴾ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴿٥﴾ أي يحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم ويحرم عليهم ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ﴿٦﴾ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴿٧﴾ أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والقصاص من القاتل عمداً كان القتل أو خطأ وشبه ذلك ﴿٨﴾ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ﴿٩﴾ أي فالذين صدقوا بمحمد وعظموه ووقروه ونصروا دينه ﴿١٠﴾ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴿١١﴾ أي واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد ﴿١٢﴾ أولئك هم المفلحون ﴿١٣﴾ أي هم الفائزون بالسعادة السرمدية ﴿١٤﴾ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴿١٥﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ لجميع الخلق أي قل يا محمد للناس إني رسول من عند الله إلى جميع أهل الأرض ﴿١٦﴾ الذي له ملك السموات والأرض ﴿١٧﴾ أي المالك لجميع الكائنات ﴿١٨﴾ لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴿١٩﴾ أي لا رب ولا معبود سواه فهو الإله القادر على الإحياء والإفناء ﴿٢٠﴾ فآمنوا بالله ورسوله ﴿٢١﴾ أي صدقوا بآيات الله وصدقوا برسوله المبعوث إلى جميع خلقه ﴿٢٢﴾ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ﴿٢٣﴾ أي آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء ﴿٢٤﴾ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴿٢٥﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره رجاء اهتدائكم إلى المطلوب ﴿٢٦﴾ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ﴿٢٧﴾ أي ومن بني اسرائيل جماعة مستقيمون على شريعة الله يهدون الناس بكلمة الحق لا يجورون قال الزمخشري : لما ذكر تعالى الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين : عبادة العجل ، وطلب رؤية الله ، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم ويرشدونهم على الاستقامة^(٢) ﴿٢٨﴾ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمَمًا ﴿٢٩﴾ أي وفرقنا بني اسرائيل فجعلناهم قبائل شتى اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من أولاد يعقوب

بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۖ وَاَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ۚ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠٠﴾ وَاِذْ قِيلَ لَهُمْ اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ ۚ وَادْخُلُوا الْبَابَ مُغْتَابًا ۚ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ ۖ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ۖ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ ۖ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ۖ اِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ۖ اِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ

قال أبو حيان : أي فرقناهم وميّزناهم أسباطاً ليرجع أمر كل سبط أي « قبيلة » إلى رئيسه ليخفف أمرهم على موسى ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج ، ولهذا فجر لهم اثنتي عشرة عيناً لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء ، وجعل لكل سبط نقيباً ليرجعوا في أمورهم إليه ^(١) ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه ﴾ أي حين استولى عليهم العطش في التيه ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾ أي أوحينا إليه أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ أي انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ أي قد عرف كل سبط وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم قال الطبري : لا يدخل سبطاً على غيره في شربه ^(٢) ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ أي جعلنا الغمام يكتهم من حر الشمس وبقيةهم من أذاها قال الألوسي : وكان الظل يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم ﴿ وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى ﴾ أي وأكرمناهم بطعام شهى هو « المن » وهي شيء حلو ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه و « السلوى » وهو طائر لذيق اللحم يسمى السَّانِي ، كل ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهدٍ منهم ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي وقلنا لهم كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ في الكلام محذوف تقديره : فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرضوها بالكفر لعذاب الله ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ﴾ أي واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة ومن أي مكان شئتم منها ﴿ وقولوا حطة ﴾ أي وقولوا حين دخولكم : يا الله حطّ عنا ذنوبنا ﴿ نغفر لكم خطيأتكم ﴾ أي منح عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ أي وسنزيد من أحسن عمله بامثال أمر الله وطاعته فوق الغفران دخول الجنان ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم ﴾ أي غير الظالمون منهم أمر الله بقولهم كلاماً لا يليق حيث قالوا بدل ﴿ حطة ﴾ حنطة في شعيرة وبدل أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله دخلوا يزحفون على أستاههم « أدبارهم » سخرية واستهزاء بأوامر الله ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ أي فأرسلنا عليهم عذاباً من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر سابقاً ولاحقاً قال أبو السعود : والمراد

يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصْيِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ

بالعذاب « الطاعون » روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً^(١) وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر أي وأسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حل بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت ؟ ألم يمسحهم الله قردة وخنازير ؟ قال ابن كثير : وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحر القلزم^(٢) ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيداهم يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ أي حين كانت الحيتان « الأسماك » تأتيتهم يوم السبت - وقد حُرِّمَ عليهم الصيد فيه - كثيرة ظاهرة على وجه الماء ﴿ويوم لا يسمتون لا تأتيتهم﴾ أي وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيتهم بل تغيب عنهم وتختفي ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرَّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمان الله قال القرطبي : روي أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نُهيْتُمْ عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلّة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها^(٣) ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطيد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيك إياهم^(٤) ؟ ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي قال الناهون : إنما نعظمهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصيح والتذكير ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ينزعون عما هم فيه من الإجماع قال الطبري : أي لعلمهم أن يتقوا الله فينبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه وتعذبهم الاعتداء في السبت^(٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلما تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً كلياً ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصْيَانِهِمْ﴾ أي وأخذنا الظالمين العصاة بعذاب شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿فَلَمَّا

(١) أبو السعود ٢/٢٠٥ . (٢) المختصر ٢/٥٨ . (٣) القرطبي ٧/٣٠٦ . (٤) المختصر ٢/٥٩ . (٥) الطبري ١٣/١٨٥ .

يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ

عَتَوْا عَمَّا نُهَوْا عَنْهُ ﴿١﴾ أي فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿٢﴾ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴿٣﴾ أي مسخناهم إلى قردة وخنازير ؛ والمعنى أنهم عذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مسخوا قردة وخنازير ، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق : فرقة عصت فحل بها العذاب ، وفرقة نهت ووعظت فنجأها الله من العذاب ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تُقارَف المعصية وقد سكّت عنها القرآن قال ابن عباس : ما أدري ما فعل بالفرقة الساكنة أنجوا أم هلكوا ؟ قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك ، فكساني حلة ^(١) ﴿٤﴾ وإذ تأذن ربك ليعيثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴿٥﴾ أي واذكر يا محمد حين أعلم ربك ليسلطن على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتياهم على المحارم ، وقد سلط الله عليهم بختنصر فقتلهم وسبأهم ، وسلط عليهم النصارى فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية ، وسلط عليهم محمد ﷺ فطهر الأرض من رجسهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية ، وسلط عليهم أخيراً « هتلر » فاستباح حماهم وكاد أن يبيدهم ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض ، ولا يزال وعد الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿٦﴾ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴿٧﴾ أي سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه ﴿٨﴾ وقطعناهم في الأرض أُمَمًا ﴿٩﴾ أي فرقناهم في البلاد طوائف وفرقا ففي كل بلدة فرقة منهم ، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا تكون لهم شوكة ، وما اجتمعوا في الأرض المقدسة في هذه الأيام إلا ليزبحوا بأيدي المؤمنين إن شاء الله كما وعد بذلك رسول الله ﷺ حيث قال : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود . .) الحديث أخرجه مسلم ثم بين تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاء بل فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال ﴿١٠﴾ منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴿١١﴾ أي منهم من آمن وهم قلة قليلة ومنهم من انحط عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق وهم الكثرة الغالبة ﴿١٢﴾ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴿١٣﴾ أي اختبرناهم بالنعم والنقم والشدة والرخاء لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي ﴿١٤﴾ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴿١٥﴾ قال ابن كثير : أي خلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم ^(٢) ﴿١٦﴾ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴿١٧﴾ أي يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرام ويقولون متبجحين : سيغفر الله لنا ما فعلناه ، وهذا اغترار منهم وكذب على الله ﴿١٨﴾ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴿١٩﴾ أي يرجون المغفرة وهم مصرّون على الذنب كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا

أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

أخذوه لا يُبالون من حلالٍ كان أو حرام ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ الاستفهام للتوبيخ والتفريع أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله ؟ فكيف يزعمون أنه سيغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام ؟ ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في هذا أعظم التوبيخ لهم أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ أي والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ الاستفهام للإنكار أي أفلا ينزجرون ويعقلون ؟ والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما أثروا الفانية على الباقية ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ أي يتمسكون في أمور دينهم بما أنزله الله ويحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها ﴿إننا لا نضيع أجر المصلحين﴾ أي لا نضيع أجرهم بل نجزيهم على تمسكهم وصلاحهم أفضل وأكرم الجزاء .

البلاغَة : ١ - ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ شبه الغضب بإنسان يرعد ويزبد ويزجر بصوته أمراً بالانتقام ثم اختفى هذا الصوت وسكت ، ففي الكلام « استعارة مكنية » ويا له من تصوير لطيف يستشعر جماله كل ذي طبع سليم وذوق صحيح .

٢ - بين لفظ « تضل » و « تهدي » طباق وكذلك بين لفظ « يحمي » و « يميت » .

٣ - ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة ، وهي أن يؤتى بمعينين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب .

٤ - ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال﴾ استعار الإصر والأغلال للأحكام والتكاليف الشاقة .

٥ - ﴿أفلا تعقلون﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والتأنيب .

فكائِدَة : الخَلَف بفتح اللام من يخلف غيره بالخير ، والخَلَف بسكون اللام من يخلف غيره في الشر ومنه قوله تعالى ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ وهذه الآية ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾ والله أعلم .

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ . إِلَى . . وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

من آية (١٧١) إلى نهاية آية (١٨٦) .

المناسكة : لما حكى تعالى عن بني إسرائيل عصيانهم وتمردهم على أوامر الله ، حكى هنا ما عاقبهم به من اقتلاع جبل الطور وسحقهم به إن لم يعملوا بأحكام التوراة ، ثم ذكر تعالى مثلاً لعلماء السوء في قصة الذي انسلخ عن آيات الله طمعاً في حطام الدنيا وضرب له مثلاً بالكلب اللاهث في حالتي التعب والراحة ، وكفى به تصويراً لنفسية اليهود في تكالبهم على الدنيا وعبادتهم للمال .

اللفظة : ﴿نتقنا﴾ التتق : الجذب بقوة قال أبو عبيدة : أصل التتق قلع الشيء من موضعه والرمي به^(١) ﴿ظلة﴾ الظلة : كل ما أظلك من سقف أو سحابة أو جناح حائط والجمع ظلل وظلال ﴿وظنوا﴾ علموا أو أيقنوا ﴿انسلخ﴾ الانسلاخ : الخروج يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية انسلخ منه وانسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه ﴿أخلد﴾ مال إلى الشيء وركن إليه وأصله اللزوم يقال أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به ومنه الخلود في الجنة ﴿يلهث﴾ قال الجوهري : لهث الكلب يلهث إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش^(٢) ﴿ذراً﴾ خلقنا ﴿يلحدون﴾ الإلحاد : الميل عن القصد والاستقامة يقال : ألحد في الدين ولحد فهو ملحد لانحرافه عن تعاليم الدين .

* وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٧﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ

التفسير : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ أي اذكر حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رؤوس بني إسرائيل ﴿كأنه ظلة﴾ أي كأنه سقيفة أو ظلة غمام ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ أي أيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمثلوا الأمر قال المفسرون : روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤوسهم وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم فلما نظروا إلى الجبل خرواً كل واحد منهم ساجداً خوفاً من سقوطه ثم قال تعالى ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي وقلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ أي اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ قال الطبري : أي واذكر يا محمد إذ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم فقرّرهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض بذلك^(٣) قال ابن عباس : مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بر بكم قالوا بلى شهدنا﴾ أي

(١) الرازي ٤/٤٥٧ . (٢) الصحاح مادة لهث .

(٣) للمفسرين في هذه الآية قولان : أحدهما أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم فأقروا وشهدوا بذلك وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة وقال به جماعة من الصحابة والثاني : أن هذا من باب التمثيل والتخييل والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكانه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم ألسنت بر بكم فقالوا بلى وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السعود والأول أصح .

وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفْهَلِكُمْ مَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٧﴾
وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكُهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٩﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٨٠﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمْ

وقرّهم على ربوبيته ووحدانيته فأقروا بذلك والتزموه ﴿١٧٦﴾ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴿١٧٧﴾ أي لثلاثا تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه ﴿١٧٨﴾ أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴿١٧٩﴾ أي ولكيلا تقولوا يوم القيامة أيضاً نحن ما أشركنا وإنما قلنا آباءنا واتبعنا منهاجهم فنحن معذورون ﴿١٨٠﴾ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴿١٧٦﴾ أي أفتهلكنا بإشراك من أشرك من آبائنا المضلين بعد اتباعنا منهاجهم على جهل منا بالحق ؟ ﴿١٧٧﴾ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴿١٧٨﴾ أي وكما بينا الميثاق نبين الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء ﴿١٧٩﴾ وأتل عليهم نبا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴿١٧٨﴾ أي وأتل يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم الذي علمناه علم بعض كتب الله فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها ﴿١٧٩﴾ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴿١٨٠﴾ أي فلاحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين قال ابن عباس : هو « بلعم بن باعوراء » كان عنده اسم الله الأعظم وقال ابن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك « مدين » داعياً إلى الله فرشاه الملك وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضل الناس بذلك ^(١) ﴿١٧٨﴾ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴿١٧٩﴾ أي لو شئنا لرفعناه إلى منزل العلماء الأبرار ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها وأثر لذاتها وشهواتها على الآخرة واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين ﴿١٨٠﴾ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴿١٧٨﴾ أي فمثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث ، وإن تركته على حاله لهث ، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر البلاغة ﴿١٧٩﴾ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴿١٧٨﴾ أي هذا المثل السيء هو مثل لكل من كذب بآيات الله ، وفيه تعريض باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي عليه الصلاة والسلام فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿١٨٠﴾ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴿١٧٩﴾ أي اقصص على أمتك ما أوحينا إليك لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون ﴿١٧٨﴾ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴿١٨٠﴾ أي بش مثلاً مثل القوم المكذبين بآيات الله ﴿١٧٩﴾ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴿١٨٠﴾ أي وما ظلموا

الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلٍ لَّنَعَمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتعدها ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ أي من هداه الله فهو السعيد الموفق ، ومن أضله فهو الخائب الخاسر لا محالة ، والغرض من الآية بيان أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ أي خلقنا لجهنم ليكونوا حطباً لها خلقاً كثيراً كائناً من الجن والإنس ، والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي لهم قلوب لا يفهمون بها الحق ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ أي لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ أي لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، وليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية وإنما المراد نفيها عما ينفعها في الدين ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ أي هم كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار ولهذا يُقَدِّمون على النار ﴿أولئك هم الغافلون﴾ أي الغارقون في الغفلة ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ أي لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها فسموه بتلك الأسماء ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ أي اتركوا الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق كما فعل المشركون حيث اشتقوا لأهتهم أسماء منها كالكالات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المثنان ﴿سيُجزون ما كانوا يعملون﴾ أي سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي ومن بعض الأمم التي خلقنا أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق وبه يعملون ويقضون قال ابن كثير : والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)^(١) وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان بل هم في كل زمان وفي كل مكان ، فالإسلام دائماً يعلو ولا يُعلى عليه وإن كثر الفساق وأهل الشر فلا عبرة فيهم ولا صولة لهم ، وفي الحديث بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بأن الإسلام في علو شرف وأهله كذلك إلى قرب الساعة ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن من أهل مكة وغيرهم سنأخذهم قليلاً وندنيهم من الهلاك من حيث لا يشعرون قال البيضاوي : وذلك بأن تتواتر عليهم النعم ، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وانها كافي الغي حتى تحق عليهم كلمة العذاب^(٢) ﴿وأملئ لهم﴾ أي وأمهلهم ثم آخذهم أخذ

وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٨﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٩﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٩٠﴾

عزيز مقتدر كما في الحديث الشريف (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي أخذي وعقابي قوي شديد وإنما سَمَاهُ كيداً لأن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلانٌ ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ أي أولم يتفكروا هؤلاء المكذبون بآيات الله فيعلموا أنه ليس بمحمد ﷺ جنون بل هو رسول الله حقاً أرسله الله هدايتهم ، وهذا نفي لما نسب له المشركون من الجنون في قولهم ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ ﴿ إن هو إلا نذيرٌ مبين ﴾ أي ليس محمد إلا رسول منذر أمره بين واضح لمن كان له لب أو قلب يعقل به ويعي ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ أي أولم ينظروا نظر استدلال في ملك الله الواسع مما يدل على عظم الملك وكمال القدرة ، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ ﴿ وما خلق الله من شيء ﴾ أي وفي جميع مخلوقات الله الجليل فيها والدقيق فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها وعظم شأن مالكتها ووحدتها خالقها ومبدعها ؟ ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ أي وأن يتفكروا لعلمهم يموتون عن قريب فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في الظهور والبيان ﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾ أي من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أي ويتركهم في كفرهم وتمردهم يترددون ويتحIRON .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿ وإذ أخذ ربك ﴾ فيه التفات من المتكلم إلى المخاطب والأصل ﴿ وإذ أخذنا والنكتة في ذلك تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب له ، ولا يخفى أيضاً ما في الإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴾ ربك ﴿ من التكريم والتشريف ، وفي الآية البيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ﴾ فانسلك منها ﴾ أي خرج منها بالكلية انسلاخ الجلد من الشاة قال أبو السعود : التعبير عن الخروج منها بالانسلاخ للإيذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال ^(١) ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ فيه تشبيه تمثيلي أي حاله التي هي مثل في السوء كحال أخس الحيوانات وأسفلها وهي حالة الكلب في دوام لهثه في حالتي التعب والراحة فالصورة منتزعة من متعدد ولهذا يسمى التشبيه التمثيلي ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ التشبيه هنا مرسل مجمل .

فَكَايْدَةٌ : روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ ألسنتُ بربكم قالوا بلى ﴾ أنه قال : لو قالوا نعم لكفروا ، ووجهه أن « نَعَمْ » تصديقٌ للمخبر بنفي أو إيجاب فكأنهم أقروا أنه ليس ربهم بخلاف « بلى »

فإنها حرف جواب وتختص بالنفي وتفيد إبطاله فالمعنى بلى أنت ربنا ولو قالوا نعم لصار المعنى نعم لست ربنا فهذا وجه قول ابن عباس فتنبه له فإنه دقيق .

تنبيه : في الحديث الشريف (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةُ) رواه الترمذي قال العلماء : معناه من حفظها وتفكر في مدلولها دخل الجنة وليس المراد حصر أسمائه تعالى في هذه التسعة والتسعين بدليل ما جاء في الحديث الآخر (اسألك بكل اسم سميت به نفسك ، او استأثرت به في علم الغيب عندك) وقد ذكر ابن العربي عن بعضهم أن لله تعالى ألف اسم .

قال الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا . . . إِلَى . . . وَيَسْبَحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

من آية (١٨٧) إلى آية (٢٠٦) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى موقف المستهزئين من دعوة الرسول ﷺ ذكر هنا طرفاً من عنادهم واستهزائهم بسؤالهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة ، ثم ذكر الحجج والبراهين على بطلان عقيدة المشركين في عبادة الأوثان والأصنام ، وختم السورة الكريمة ببيان عظمة شأن القرآن ووجوب الاستماع والإنصات عند تلاوته .

اللغة : ﴿مرساها﴾ استقرارها وحصولها من أرساه إذا أثبته وأقره ومنه رست السفينة إذا ثبتت ووقفت ﴿يُجَلِّيْهَا﴾ يظهرها ، والتجلية : الكشف والإظهار ﴿حَفِيٌّ﴾ الحفي : المستقصي للشيء المعteni بأمره قال الأعشى :

فإن تسألني عنِّي فيا ربَّ سائلٍ حفيٌّ عن الأعشى به حيث أصعداً^(١)
والإحفاء الاستقصاء ومنه إحفاء الشوارب وحفي عن الشيء إذا بحث للتعرف عن حاله ﴿العُرف﴾ المعروف وهو كل خصلة حميدة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس ﴿الأصال﴾ جمع أصيل قال الجوهري : والأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب^(٢) .

سبب النزول : روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم ؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾^(٣) .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيْهَا لِقَوْلِهَا إِلَّا هُوَ ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ

التفسير : ﴿يسألونك عن الساعة﴾ أي يسألونك يا محمد عن القيامة ﴿أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾ أي متى وقوعها وحدثها ؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب كقوله ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ أي قل لهم يا محمد لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه

وَالْأَرْضُ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْعَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَرَتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَّا صَالِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

إلا الله سبحانه ثم أكد ذلك بقوله ﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه بالذات فهو العالم بوقتها ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي عظمت على أهل السموات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدتها وأهوالها ^(١) ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك يا محمد عن وقتها كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفة ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علام الغيوب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت قال الإمام الفخر : والحكمة في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ^(٢) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ولا أدفع عنها شراً إلا بمشيئته تعالى فكيف أملك علم الساعة ؟ ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي لو كنت أعرف أمور الغيب لحصلت كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها ودفعت عني آفات ومضراتها ﴿وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب لاحترست من السوء ولكن لا أعلمه فلماذا يصيبني ما قدّر لي من الخير والشر ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقوم يصدقون بما جئتهم به من عند الله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً وحده من غير معين من نفس واحدة هي آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي وخلق منها حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفيفاً دون إزعاج لكونه نطفة في بادئ الأمر قال أبو السعود : فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب ، والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة ^(٣) ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت به إلى حين ميلاده ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي دعا الله مربيهما ومالك أمرهما ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَّا صَالِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي لئن رزقنا ولدًا صالحاً سوي الخلق لنشكرنك

(١) هذا قول قتادة وقيل المعنى : خفي علمها على أهل السموات والأرض . (٢) الفخر الرازي ٤ / ٤٨٤ . (٣) أبو السعود ٢

يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
عَلَى نَعْمَائِكَ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً﴾ أَي فلما وهبهما الولد الصالح السوي ﴿فَجَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيهَا﴾ أي جعل
هؤلاء الأولاد والذرية ^(١) شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه
وتقدس الله عما ينسبه إليه المشركون ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أيشركون مع الله
ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها
مع الله ؟ قال القرطبي : وجمع الضمير بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى
الناس ^(٢) ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصر عابديها ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي
ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء ، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة ؟ ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى
الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أي أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد لأنها جمادات ﴿سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ
أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ أي يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم قال ابن كثير : يعني أن هذه الأصنام
لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحأها كما قال إبراهيم ﴿يَا أَبْتَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ
وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ ^(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ﴾ أي إن الذين تعبدونهم من
دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطلش
وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك فلماذا قال ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أمرٌ على جهة
التعجيز والتبكيت أي أدعوهم في جلب نفع أو دفع ضرر إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة ^(٤) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ

(١) ذهبنا إلى هذا الرأي لجلالته ووضوحه وهو ما رجحه المحققون من أهل العلم ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في «آدم وحواء» وأن
الضمير في قوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُ شُرَكَاءَ﴾ يعود إليهما ورووا في ذلك أحاديث وأثار منها ما روي عن سمرة مرفوعاً قال : «لما ولدت حواء طاف
بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال سميه : عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان» رواه أحمد
والترمذي قال الحافظ ابن كثير : وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وقد وضحها رحمه الله ورجح أن الحديث موقوف وضعف ما ورد من آثار
ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ثم قال ابن كثير : وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في
هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق «آدم وحواء» وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أقول : وهو
الحق الذي لا محيد عنه (٢) القرطبي ٣٤١/٧ .

(٣) المختصر ٢/ ٧٥٠ (٤) قال الحافظ ابن كثير : أسلم معاذ بن جبل . ومعاذ بن عمرو بن الجموح وكانا شابين فكانا يعدوان في الليل على
أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً ، وكان لعمر بن الجموح - وهو سيد قومه - صنم يعبده ويطلبه فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على
رأسه ويلطخان به العذرة - النجس - فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطلبه ويضع عنده سيفاً ويقول له : انتصر ، ثم
يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك علم أن ما
عليه من الدين باطل فأنشد يقول

«تَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلْهًا مُسْتَدِنَ لَمْ تَكُ وَالْكَلْبُ جَمِيعاً فِي قَرْنٍ»

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً .

أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا
فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

يشون بها ﴿١٩٥﴾ أي أم لهم أيدي يبطشون بها ﴿١٩٦﴾ أي أم لهم أذان تسمع بها الأشياء ؟ ﴿١٩٧﴾ أم لهم أذان يسمعون بها ؟
أي أم لهم أذان تسمع بها الأصوات ؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع
ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئاً لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه ، والإنسان أفضل بكثير من
هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون
الذي لا يحس منه فائدة أبداً لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرة ؟ ! ﴿١٩٨﴾ قل ادعوا شركاءكم ﴿١٩٩﴾ أي قل لهم يا
محمد ادعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها علي ﴿٢٠٠﴾ ثم كيدون فلا تنظرون ﴿٢٠١﴾ أي ابدلوا جهدكم أنتم وهم
في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين ، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله قال
الحسن : خوفوا الرسول ﷺ بأهتهم فأمره تعالى أن يجابههم بذلك ﴿٢٠٢﴾ إن وليي الله الذي نزل الكتاب ﴿٢٠٣﴾ أي
إن الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزل علي القرآن ﴿٢٠٤﴾ وهو يتولى الصالحين ﴿٢٠٥﴾ أي هو جل وعلا يتولى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد ، وهو وليهم في الدنيا والآخرة
﴿٢٠٦﴾ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿٢٠٧﴾ كرهه ليعين أن ما
يعبدونه لا ينفع ولا يضر ﴿٢٠٨﴾ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون ﴿٢٠٩﴾ أي وإن تدعوا
هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد لا يسمعون دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ﴿٢١٠﴾ وتراهم
ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴿٢١١﴾ أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جامد لا تبصر لأن لهم
صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً ﴿٢١٢﴾ خذ العفو ﴿٢١٣﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق أي خذ
بالسهل اليسير في معاملة الناس ومعاشرتهم قال ابن كثير : وهذا أشهر الأقوال ويشهد له قول جبريل
للرسول ﷺ « إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » ﴿٢١٤﴾ وأمر
بالعرف ﴿٢١٥﴾ أي بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿٢١٦﴾ وأعرض عن الجاهلين ﴿٢١٧﴾ أي لا تقابل
السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم قال القرطبي : وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو
تأديب لجميع خلقه ﴿٢١٨﴾ ﴿٢١٩﴾ وإما ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴿٢٢٠﴾ أي وإما يصيبَنَّكَ يا محمد طائف من الشيطان

تَزَعُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَاصٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٦﴾

بالوسوسة والتشكيك في الحق ﴿فاستعذ بالله﴾ أي فاستجبر بالله والجا إليه في دفعه عنك ﴿إنه سميعٌ عليم﴾ أي سميعٌ لما تقول عليمٌ بما تفعل ﴿إن الذين اتقوا﴾ أي الذين اتصفوا بتقوى الله ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان﴾ أي إذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه ﴿تذكروا﴾ أي تذكروا عقاب الله وثوابه ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾ أي إخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة فإن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال ﴿ثم لا يقصرون﴾ أي لا يمسكون ولا يكفون عن إغوائهم ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي وإذا لم تأتهم بمعجزة كما اقترحوا ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي هلاً اختلقها يا محمد واخترعتها من عند نفسك؟! وهو تهكمٌ منهم لعنهم الله ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ أي قل لهم يا محمد ليس الأمر إلي حتى آتي بشيء من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ أمثل ما يوحى الله إلي ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ أي هذا القرآن الجليل حججٌ بيّنة ، وبراهين نيرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبصر الحق ويُدرك ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من أنواره والمتفعون من أحكامه ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ أي واذكر ربك سرّاً مستحضراً لعظمته وجلاله ﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي متضرعاً إليه وخائفاً منه ﴿ودون الجهر من القول﴾ أي وسطاً بين الجهر والسر ﴿بالغدو والآصال﴾ أي في الصباح والعشي ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ أي ولا تغفل عن ذكر الله ﴿إن الذين عند ربك﴾ أي الملائكة الأطهار ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي لا يتكبرون عن عبادة ربهم ﴿ويسبحونه﴾ أي يزهونه عما لا يليق به ﴿وله يسجدون﴾ أي لا يسجدون إلا لله .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿كأنك حفيٌ عنها﴾ التشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

٢ - ﴿فلما تغشاها﴾ التغشي هنا كناية عن الجماع وهو من الكنايات اللطيفة .

٣ - ﴿أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا . . ﴾ الخ هذا الأسلوب يسمى « الإطناب » وفائدته زيادة التقرير والتوبيخ .

٤ - ﴿يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ شبه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزغ وهو إدخال الإبرة وما شابهها في الجلد ففيه استعارة لطيفة .

٥ - ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه تشبيه بليغ وأصله هذا كالبصائر ، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو بليغ ويرى بعض العلماء أنه من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق المسبب على السبب لأن القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول أطلق عليه لفظ البصيرة .

لطيفة : حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سؤل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال إن هذا يطول ، رأيته لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع ؟ قال : أكابده وأرده جهدي قال : هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك ، فهذه فائدة الاستعاذة.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عُنيت بجانب التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ، فقد عاجلت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب ، وأحكام الأسر والغنائم .

✽ نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب « غزوة بدر » التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة « سورة بدر » لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب ، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال ، وبيّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة ، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود .

✽ ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، ورد البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف في مكة ، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها ، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة ، التي تمّ فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم ، وضعف في عددهم ، وعلى عدم تهيئتهم للقتال ، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده ، وقويت شوكته ، وامتد سلطانه ، فلا بدّ له من يوم يخرّ فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر نصراً للمؤمنين ، وهزيمة للمشركين .

✽ وفي ثانياً سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحملوا به ، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال .

✽ أما النداء الأول : فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ

كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴿١﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب .

* وأما النداء الثاني : فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿٢﴾ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴿٣﴾ كما صوّرت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق .

* وأما النداء الثالث : فقد بيّن فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿٤﴾ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم . . . الآية .

* وأما النداء الرابع : فقد نبههم فيه إلى أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة أيضاً ﴿٥﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴿٦﴾ .

* وأما النداء الخامس : فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى ، وذكرهم بأنها أساس الخير كله ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ، وبه يفرق بين الرشد والغيّ ، والهدى والضلال ﴿٧﴾ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم ﴿٨﴾ .

* وأما النداء السادس : وهو النداء الأخير فقد وضح لهم فيه طريق العزة ، وأسس النصر ، وذلك بالثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، واستحضار عظمة الله التي لا تحد ، وقوته التي لا تقهر ، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيراً ﴿٩﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴿١٠﴾ .

* وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين ، وأنه مهما تناءت ديارهم ، واختلفت أجناسهم ، فهم أمة واحدة ، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين ، كما أن ملة الكفر أيضاً واحدة ، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال ، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿١١﴾ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴿١٢﴾ .

* هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف ، وما أرشدت إليه من دروس وعبر ، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر .

قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال . . . إلى . . . لتولوا وهم معرضون﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٣) .

الغنى : ﴿الأنفال﴾ الغنائم جمع نفل بالفتح وهو الزيادة وسميت الغنائم به لأنها زيادة على القيام بحماية الدين والأوطان ، وتسمى صلاة التطوع نفلاً ، وولد الولد نافلة لهذا المعنى قال لبيد :
إنّ تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثي والعجل

﴿وجلّت﴾ الوجل : الخوف والفرع ﴿ذات الشوك﴾ الشوك : السلاح وأصلها من الشوك قال أبو عبيدة : ومجاز الشوك الحد يقال : ما أشدّ شوكه بني فلان أي حدّهم ^(١) ﴿تستغيثون﴾ الاستغاثة : طلب النصرة والعون ﴿مردفين﴾ متتابعين يتلو بعضهم بعضاً وردف وأردف بمعنى واحد أي تبع قال الطبري : العرب تقول : أردفته وردفته بمعنى تبعته وأتبعته قال الشاعر : إذا الجوزاء أردفت الثريا ^(٢) ﴿بنان﴾ البنان : جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين قال عنترة :

وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارها ويضرب عند الكرب كل بنان ^(٣)

﴿زحفاً﴾ الزحف : الدنو قليلاً مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على أليته قليلاً قليلاً ثم سمي به الجيش الكثير العدد لأنه لكثرت وتكاثفه يرى كأنه يزحف زحفاً ﴿متحيزاً﴾ منضماً يقال : تحيز أي انضم واجتمع إلى غيره ﴿باء﴾ رجع ﴿موهن﴾ مضعف ﴿تستفتحوا﴾ استفتح : أي طلب الفتح والنصرة على عدوه .

سَبَبُ الزَّوْلِ : أ - عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا ، فأما المشيخة فبنتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداءً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فأبوا واختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ الآية فقسّم الغنائم بينهم بالسوية ^(٤) .

ب - روي أن النبي ﷺ أخذ قبضة من تراب يوم بدر فرمى بها في وجوه القوم وقال : شأهت الوجوه فما بقي أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخره تراب من تلك القبضة وولوا مدبرين فنزلت ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . .﴾ الآية ^(٥) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ - الْمُنْفِيسُ : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتمها من بدر لمن هي ؟ وكيف تقسم ؟ ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أي قل لهم : الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿فاتقوا الله﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم قال عبادة بن الصامت : نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا ، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسّمها على السواء فكان في ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين ^(٦) ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ شرط حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿إنما المؤمنون﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت

(١) زاد المسير ٣/ ٣٢٤ . (٢) الطبري ١٣/ ٤١٥ . (٣) القرطبي ٧/ ٣٧٩ .

(٤) روح المعاني ٩/ ١٦٢ . (٥) الطبري ١٣/ ٤٤٥ . (٦) التسهيل ٢/ ٦٠ .

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾

قلوبهم ﴿١﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرد ذكره ، استعظماً لشأنه ، وتهيباً منه جلّ وعلا ﴿٢﴾ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴿٣﴾ أي إذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم وبقينهم بالله ﴿٤﴾ وعلى ربهم يتوكلون ﴿٥﴾ أي لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه قال في البحر : أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقامات عظيمة وهي : مقام الخوف ، ومقام الزيادة في الإيمان ، ومقام التوكل على الرحمن ﴿٦﴾ الذين يقيمون الصلاة ﴿٧﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿٨﴾ ومما رزقناهم ينفقون ﴿٩﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله ، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات ﴿١٠﴾ أولئك هم المؤمنون حقا ﴿١١﴾ أي المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقاً لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿١٢﴾ لهم درجات عند ربهم ﴿١٣﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنة ﴿١٤﴾ ومغفرة ﴿١٥﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿١٦﴾ ورزق كريم ﴿١٧﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم ﴿١٨﴾ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴿١٩﴾ الكاف تقتضي مشبهاً قال ابن عطية : شبهت هذه القصة التي هي إخراجهم من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراحتهم لما وقع ﴿٢٠﴾ فيها ، والمعنى : حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب وقال الطبري : المعنى : كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تبين ، والحق الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعد ما تبينوه هو القتال ﴿٢١﴾ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴿٢٢﴾ أي والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿٢٣﴾ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ﴿٢٤﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضح لهم الحق وبان ، وكان جدالهم هو قولهم : ما كان خروجنا إلا للغير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال ﴿٢٥﴾ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴿٢٦﴾ قال البيضاوي : أي يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه ، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم ، وفيه إيحاء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فرغهم ورعبهم ﴿٢٧﴾ وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴿٢٨﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إحدى الفرقتين أنها لكم غنيمة

(١) قال ابن الخطيب : ليقرأ هذه الآية وليتدبرها كل مؤمن ، وليعرضها على نفسه ، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليهنأ بما آتاه الله من فضل ، وما وهبه من خير ، وإن وجدها في واد وهو في واد ، فليجأ إلى الرحيم الودود ، وليجأ إلى اللطيف الحميد ، أن يصفى قلبه ويزيده إيماناً وتوكلاً ، ويوقفه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فنعم القريب ونعم المجيب ، وليكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية .

(٢) البحر ٤/٤٥٧ . (٣) الطبري ٤/٤٦١ . (٤) الطبري ١٣/٢٩٣ . (٥) البيضاوي ص ٢٠٩ .

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٦٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٦٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِـ

إِما العير أو النفير ﴿٦٧﴾ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴿٦٨﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محملة بتجارة قريش قال المفسرون : روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برأسه أبي سفيان ، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد : إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريشاً ، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة ، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل : يا أهل مكة النجاء النجاء ، غيركم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً ، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدرأ ، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا يا رسول الله : عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال : امض بنا لما شئت فإننا متبعوك ، وقام سعد بن معاذ فقال : والذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ وقال لأصحابه : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم^(١) ﴿٦٩﴾ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴿٦٧﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر ﴿٦٨﴾ ويقطع دابر الكافرين ﴿٦٩﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم قال في البحر : والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة ، وسلامة الأحوال ، وسفساف الأمور ، والله تعالى يريد معالي الأمور ، وإعلاء الحق ، والفوز في الدارين ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكم عياناً خذلانهم ، فنصركم وهزمهم ، وأذلهم وأعزكم^(٢) ﴿٦٧﴾ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴿٦٨﴾ متعلق بمحذوف تقديره : ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ما فعل والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿٦٩﴾ ولو كره المجرمون ﴿٦٧﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك ﴿٦٨﴾ إذ تستغيثون ربكم ﴿٦٩﴾ أي اذكروا حين تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على المشركين ، روي أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأخذه أبو بكر فلقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿٦٧﴾ فاستجاب لكم أني ممدكم بآلف من الملائكة ﴿٦٩﴾ أي استجاب الله الدعاء بأنني معينكم بآلف من الملائكة ﴿٦٩﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً قال

(١) البيضاوي ص ٢٠٩ بتصرف . (٢) البحر ٤/٤٦٤ .

قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا

المفسرون : ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يمين الجيش ، ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش ، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر ، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل ^(١) ﴿وما جعله الله إلا بشري﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ولتطمئنن به قلوبكم﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير فتقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وعدتكم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يُغلب يفعل ما تقضي به الحكمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عنده سبحانه وتعالى ، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشي الجميع النوم في وقت الخوف قال علي رضي الله عنه : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح » ^(٢) قال ابن كثير : وكان ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس ، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله ^(٣) ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ تعديد لنعمة أخرى ، وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية ، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر ﴿ليطهركم به﴾ أي من الأحداث والجنابات ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش ، قال البيضاوي : روي أنهم نزلوا في كتيب أعفر ، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال : كيف تُنصرون وقد غلبتم على الماء ، وأنتم تصلون محدثين مجنبن وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة ^(٤) ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي يقويها بالثقة بنصر الله ﴿ويثبت به الأقدام﴾ أي يثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل قال الطبري : ثبت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء فلبدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها ^(٥) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ثبتوا المؤمنين وقوا أنفسهم على أعدائهم ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفرع حتى ينهزموا ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي اضربوهم على الأعناق كقوله ﴿فضرب الرقاب﴾ وقيل : المراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ أي اضربوهم على أطراف الأصابع قال في التسهيل : وفائدة ذلك

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ١١٨/٢ . (٢) رواه أبو يعلى . (٣) المختصر ٩٠/٢ .

(٤) البيضاوي ص ٢١٠ . (٥) الطبري ٤٢١/١٣ .

فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٤﴾ ذَلِكَ كَذُوقُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٥﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٦﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَرِيدٌ

أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطل عن القتال فأمكن أسره وقتله ^(١) ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي ذلك العذاب الفظيع واقع عليهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله ﴿ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد فإن عذاب الله شديد له ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا ، مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ أي إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى ، أو بالفر للكر بأن يخيل إلى عدوه أنه منهزم ليغره مكيدة وهو من باب « الحرب خدعة » ﴿أو متحيزاً إلى فتن﴾ أي منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ أي فقد رجع بسخط عظيم ﴿ومأواه جهنم﴾ أي مقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المرجع والمآل ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم ، ولكن الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وما رميت إذ رميت﴾ أي وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضة من تراب لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير قال ابن عباس : أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخره من تلك الرمية فولوا مدبرين ^(٢) ﴿ولكن الله رمى﴾ أي بإيصال ذلك إليهم فالأمر في الحقيقة من الله ﴿وليبللي المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾ أي فعل ذلك ليقهر الكافرين ويُنعم على المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بنياتهم وأحوالهم ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ أي ذلك ^(٣) الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق ، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هذا خطاب

(١) التسهيل ٦٢/٢ . (٢) الطبري ١٣/٤٤٣ . (٣) ذلكم مبتدأ حذف خبره تقديره : ذلكم الذي حدث حق .

الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

لكفار قريش أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر ، وهذا على سبيل التهكم بهم قال الطبري في رواية الزهري : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم أينا كان أفجر ، وأقطع للرحم ، فأجبه اليوم - أي أهلكه - فأنزل الله ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ فكان أبو جهل هو المستفتح ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي وإن تكفوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته ، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نعد لنصره عليكم ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي دوموا على طاعة الله وطاعة رسوله يدم لكم العز الذي حصل ببدر ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره وأصله تتولوا حذف منه إحدى التاءين ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي تسمعون القرآن والمواظظ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بأذانهم دون قلوبهم ، فسمعهم كلا سماع لأن الغرض من السماع التدبر والانتعاظ ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي شر الخلق وشر البهائم التي تدب على وجه الأرض ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي الصم الذين لا يسمعون الحق ، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر ، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون : نحن صم بكم عما جاء به محمد ، وتوجهوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل ، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشر من الكلب والخنزير والحمير ، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخص من كل خسيس ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماع تفهم وتدبر ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي ولو فرض أن الله أسمعهم - وقد علم أن لا خير فيهم - لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لعلو رتبته وبعد منزلته في الشرف .

٢ - ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ استعار الدرجات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة .

- ٣ - ﴿كأنما يساقون الى الموت﴾ التشبيه هنا تمثيلي .
 ٤ - ﴿أن يحق الحق﴾ بينهما جناس الاشتقاق .
 ٥ - ﴿ذات الشوكة﴾ استعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدة بينهما .
 ٦ - ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك .
 ٧ - ﴿إذ تستغيثون﴾ صيغة المضارع لاستحضار صورتها الغريبة في الذهن .
 ٨ - ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .
 ٩ - ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ الخطاب للمشركين على سبيل التهكم كقوله ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ .
 ١٠ - ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ شبه الكفار بالبهائم بل جعلهم شراً منها ، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز ، إذ أن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع ، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق ، ويأكل والبهائم تأكل ، بقي أنه يضر والبهائم لا تضر فكيف لا يكون شراً منها ؟
تنبية : ذكر تعالى في هذه السورة أنه أمد المؤمنين بألف من الملائكة ، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدهم بثلاثة آلاف ، ولا تعارض بين الآيات فإنه تعالى ذكر هنا لفظ ﴿مردفين﴾ ومعناه متابعين فأمدهم أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف والله الموفق .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول . . إلى . . نعم المولى ونعم النصير﴾ من آية (٢٤) إلى نهاية آية (٤٠) .
المناسكة : لما ذكر تعالى الكافرين ، وشبههم بالأنعام السارحة لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله ، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول ، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب ، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة .

اللغة : ﴿مكاء﴾ المكاء : الصغير قال أبو عبيدة : والكثير في الأصوات أن تكون على فعال كالصراخ والخواار والدعاء والنباح^(١) ﴿تصدية﴾ التصدية : التصفيق يقال : صدى تصدية إذا صفق بيديه وأصله من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل ﴿فيركمه﴾ الركم : الجمع قال الليث : هو أن تجمع الشيء فوق الشيء حتى تجعله ركاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب^(٢) ﴿سلف﴾ مضى ﴿سنة﴾ الأولين ﴿عادة الله وسنته في إهلاك المكذبين من الأمم السالفة﴾ مولاكم ﴿ناصركم ومعينكم﴾ .

سبب النزول : أخرج ابن جرير عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم « سعد بن معاذ » فقالوا : أرسل لنا « أبا لبابة » فبعثه رسول الله ﷺ

إليهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى ؟ أنزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح ، قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي عن مكانها حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله فقال : لا والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول . . ﴾ الآية ثم نزلت توبته ^(١) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٤٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ أي أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس ، وبه تحيون الحياة الأبدية قال قتادة : هو القرآن فيه الحياة ، والثقة ، والنجاة ، والعصمة في الدنيا والآخرة ^(٢) ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء ، يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها ، فيفسخ عزائمها ، ويغير مقاصدها ، ويلهمه رشده ، أو يُزيغ قلبه عن الصراط السوي ، وفي الحديث : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن والكافر ، وبين الكافر والإيمان ^(٣) قال أبو حيان : وفي ذلك حضٌّ على المراقبة ، والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جلَّ وعلا ^(٤) ﴿وأنه إليه تحشرون﴾ أي وأنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع ، وتصل إلى الصالح والطالح ، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه ، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه وفي الحديث (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده) ^(٥) قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب ، فيصيب الظالم وغير الظالم ^(٦) ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن كنتم قلة أذلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ أي تخافون المشركين أن يختطفوكم بالقتل والسلب ، والخطف : الأخذ بسرعة ﴿فآواكم﴾ أي جعل لكم مأوى تحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة ﴿وأيدكم بنصره﴾ أي أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره

(١) روح المعاني للألوسي ١٩٥/٩ . (٢) الطبري ٤٦٨/١٣ . (٣) روح المعاني ١٩١/٩ .

(٤) البحر ٤٨١/٤ . (٥) رواه البخاري . (٦) حاشية الصاوي ١٢٢/٢ .

مَنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ

المؤزر حتى هزمتهم ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي منحكم غنائمهم حلالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة ، والغرض التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة ، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة ، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحونوا الله والرسول﴾ أي لا تحونوا دينكم ورسولكم بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وتحونوا أماناتكم﴾ أي ما ائتمنكم عليه من التكليف الشرعية كقوله ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . .﴾ الآية قال ابن عباس : خيانة الله سبحانه بترك فرائضه ، والرسول ﷺ بترك سنته وارتكاب معصيته ، والأمانات : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد^(١) ﴿وأنتم تعلمون﴾ أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده قال الإمام الفخر : وإنما كانت فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتصير حجاباً عن خدمة المولى^(٢) ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ أي إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم ، تفرقون به بين الحق والباطل كقوله ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب ، وتشرح الصدر ، وتزيد في العلم والمعرفة ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿ويغفر لكم﴾ أي يسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء ﴿وإذ يكر بك الذين كفروا﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم والمعنى : اذكر يا محمد حين تأمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿ليثبتوك﴾ أي يجسوك ﴿أو يقتلوك﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل ﴿أو يخرجوك﴾ أي من مكة ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ريك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿والله خير الماكرين﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً قال الطبري في روايته عن ابن عباس : إن نفرأ من أشراف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من العرب ،

ءَايْتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

سمعت باجتماعكم فأردت ان أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا : أجل فادخل ، فقال انظروا في شأن هذا الرجل - يعني محمداً ﷺ - فقال قائل : احبسه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ، فصرخ عدو الله وقال : والله ما هذا لكم برأي ، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع ، فقال الشيخ المذكور : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه القلوب بحديثه ؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم ، قالوا صدق فانظروا رأياً غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره ! قالوا : وما هو ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلدأ ، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، ويتفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن بني هاشم يقدرّون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه ، فصرخ عدو الله إبليس : هذا والله الرأي لا أرى غيره ، ففارقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن له بالهجرة ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أَوْ يُخْرِجُوكَ . . .﴾ الآية ﴿وَإِذَا تَنَلَّسَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي قالوا مكابرة وعناداً : قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطورها وليس كلام الله تعالى قال أبو السعود : وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد ، كيف لا ، ولو استطاعوا لما تأخروا ! فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين ؟ وقرعوا على العجز ، ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه ، مع أنفتهم ، وفرط استنكافهم أن يغلبوا لا سيما في باب البيان (٢) ؟! ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به ، وهذا تهكم منهم واستهزاء قال ابن كثير : وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفاههم (٣) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد ، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها قال ابن

وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٧﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ

عباس : لم تعذب أمة قط ونبيها فيها^(١) ، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ أي وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله ، وهو إشارة إلى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : نبي الله ﷺ ، والاستغفار ، أما النبي فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة^(٢) ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال؟ ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية ، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة ، ﴿وما كانوا أولياءه﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم ﴿إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون : نحن ولاه البيت والحرم ، نصد من نشاء ، وندخل من نشاء . والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة ، ولكن الله رفعه عنهم إكراماً لرسوله عليه السلام ، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّة﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيراً وتصفيقاً ، وكانوا يفعلونها إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم ، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون^(٣) ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة ، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يصرفون أموالهم ويبدلون منع الناس عن الدخول في دين الإسلام ، ولحرب محمد عليه السلام ، قال الطبري : لما أصيب كفار قريش يوم بدر ، ورجع فلهم إلى مكة قالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا فنزلت الآية^(٤) ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة﴾ أي فسيفنقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم ، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ثم يغلبون﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والانحجار ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾

الطَّيِّبِ وَيَجْعَلِ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾
 قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى
 لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ آتَنَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم ، فأعظم بها
 حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي ليفرق الله بين جند الرحمن
 وجند الشيطان ، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار ، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن
 ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ أي يجعل الكفار بعضهم فوق بعض ﴿فيركمه جميعاً﴾ أي
 يجعلهم كالركام مترامياً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ﴿فيجعلهم في جهنم﴾ أي فيقذف بهم في
 نار جهنم ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ، ثم
 دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة ، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿قل للذين
 كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، إن ينتهوا عن الكفر
 ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقاتل المؤمنين ، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام ﴿وإن يعودوا فقد
 مضت سنتُ الأولين﴾ أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين
 لأنبيائي ، فكذلك نفعل بهم ، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد ﴿وقاتلوهم
 حتى لا تكون فتنة﴾ أي قاتلوهم يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله
 وحده ، قال ابن عباس : الفتنة : الشرك ، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض وقال ابن جريج :
 حتى لا يفتن مؤمن عن دينه^(١) ﴿ويكون الدين كله لله﴾ أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين
 الإسلام قال الألوسي : واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً ، أو برجوعهم عنها خشية القتل^(٢) ، لقوله
 عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) ﴿فإن انتهوا فإن الله بما يعملون
 بصير﴾ أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم ، يشيهم على توبتهم وإسلامهم
 ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم﴾ أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا
 معشر المؤمنين أن الله ناصرهم ومعينهم عليهم ، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿نعم
 المولى ونعم النصير﴾ أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه ، ونعم النصير لكم فإنه لا
 يُغلب من نصره الله .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، شبه تمكنه تعالى من

قلوب العباد وتصريفها كما يشاء ، بمن يحول بين الشيء والشيء ، وهي استعارة لطيفة .

٢ - ﴿وإذ يمكر بك﴾ صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تأمر المشركين على صاحب الرسالة عليه السلام .

٣ - ﴿ويمكر الله﴾ إضافة المكر إليه تعالى على طريق « المشاكلة » بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر ، والمشاكلة ان يتفق اللفظ ويختلف المعنى وقد تقدم^(١) .

٤ - ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ تأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن حيث وضعوا المكاء والتصدية « التصفير والتصفيق » موضع الصلاة التي ينبغي ان تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة ، ولا تعرف حرمة بيوت الله ، وهو على حد قول القائل : « تحية بينهم ضرب وجيع » .

٥ - ﴿الخبيث من الطيب﴾ كناية عن المؤمن والكافر وبين لفظ « الخبيث » و « الطيب » طباق وهو من المحسنات البديعية .

تَبْيِيْهِ : روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيت فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ؟ ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك فقال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته^(٢) .

لَطِيْفَةٌ : حكي عن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملئوا عليهم امرأة ! فقال الرجل : أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم﴾ ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، فسكت معاوية رضي الله عنه .

قال الله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء . . . إلى . . . يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما أمر تعالى بقتال المشركين ، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر ، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم - وهي أموال المشركين - على طريق القهر والظفر ، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها ، ثم سرد بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة المجيدة « غزوة بدر » .

(١) انظر توضيح ذلك عند قوله تعالى ﴿الله يستهزى بهم﴾ من سورة البقرة . (٢) مختصر ابن كثير ٩٥/٢ .

اللفظة : ﴿العدوة الدنيا﴾ عدوة الوادي : جانبه وشفيره ، والدنيا تأنيث الأدنى أي الأقرب والمراد ما يلي جانب المدينة ﴿العدوى القصوى﴾ القصوى : تأنيث الأقصى أي الأبعد ، وكل شيء تنحى عن شيء فقد قصا والمراد ما يلي جانب مكة ﴿نكص﴾ النكوص : الإحجام عن الشيء ﴿كدأب﴾ الدأب : العادة ، وأصله في اللغة إدامة العمل يقال : فلان يدأب في كذا أي يدوم عليه ويواظب ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان مداوم على عاداته ﴿تثقفنهم﴾ قال الليث : يقال ثقفنا فلاناً في موضع كذا أي أخذناه وظفرنا به^(١) ﴿فشرد﴾ التشريد : التفريق والتبديد يقال : شردت القوم إذا قاتلتهم وطردهم عنها حتى فارقوها .

* وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٠﴾ إِذْ أَنْتُمْ
بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ

التفسير : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتموه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿فإن لله خمس﴾ قال الحسن : هذا مفتاح كلام ، الدنيا والآخرة لله^(٢) أي أن ذكر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم كقوله ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ قال المفسرون : تقسم الغنيمة خمسة أقسام ، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية ، والباقي يوزع على الغنائم ﴿وللرسول﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ ﴿ولذي القربى﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي ولهُؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات أبائهم ، والفقراء من ذوي الحاجة ، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ جواب الشرط محذوف تقديره : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامثلوا أمره بطاعته ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ أي وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿يوم الفرقان﴾ أي يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين ، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر لا يعجزه شيء ، ومنه نصركم مع قتلكم وكثرتهم ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ هذا تصوير للمعركة أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب الى المدينة ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ أي وأعدائكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة ﴿والركب أسفل منكم﴾ أي والعرير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم فيما يلي ساحل البحر ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ أي ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال لاختلفتم له ولكن الله بحكمته يسر وتمم ذلك قال كعب بن مالك : إنما خرج

لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلْبًا لَفِشَلْتُمْ وَلَتَنْتَرَعَتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(١) قال الرازي : المعنى لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلبتكم وكثرتهم^(٢) ، ﴿ولكن ليقيضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما أراد بقدرته ، من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، فكان أمراً متحققاً واقعاً لاحالة قال أبو السعود: والغرض من الآية أن يتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ، ليس إلا صنعاً من الله عز وجل خارقاً للعادات ، فيزدادوا إيماناً وشكراً ، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس^(٣) ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ أي فعل ذلك تعالى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان ﴿ويحيى من حي عن بينة﴾ أي ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان^(٤) ، فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ﴿وإن الله لسميعٌ عليمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم ﴿إذ يريكم الله في منامك قليلاً﴾ أي اذكر يا محمد حين أراك الله في المنام أعداءك قلة ، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم قال مجاهد : أراه الله إياهم في منامه قليلاً ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ﴿ولو أراكم كثيراً لفشلتم﴾ أي ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم ، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ لأنه معصوم بل قال ﴿لفشلتم﴾ إشارة إلى أصحابه ﴿ولتنتزعتم في الأمر﴾ أي ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم ﴿ولكن الله سلم﴾ أي ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي عليم بما في القلوب يعلم ما يغيب أحوالها من الشجاعة والجبن ، والصبر والجزع ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللهم في أعينهم﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالنام أي واذكروا يا معشر المؤمنين حين التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم ، وقللهم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم قال ابن مسعود : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل : أتراهم يكونون مائة^(٥) ؟ وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبهتوا وهابوا ، وفُلت شوكتهم ، ورأوا ما لم يكن في الحسبان ، وهذا من عظام آيات الله في تلك الغزوة ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي فعل ذلك فجراً المؤمنين على الكافرين ، والكافرين على المؤمنين ، لتقع الحرب ويلتحم القتال ، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين

(١) الطبري ١٣/ ٥٦٦ . (٢) تفسير الرازي ١٥/ ١٦٧ . (٣) أبو السعود ٢/ ٢٤٠ . (٤) ذهب الطبري الى أن المعنى : ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبت له وقطعت عذره ، وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبت له وظهرت لعينه فعلها وما ذهبنا إليه هو اختبار الجلائن وهو أوضح ويؤيده ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ . (٥) الطبري ١٣/ ٥٧٣ .

مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيعَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٤﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ

كفروا السفلى ﴿١١﴾ وإلى الله ترجع الأمور ﴿١٢﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرفها كيف يريد ، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد ، ﴿١٣﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴿١٤﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿١٥﴾ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴿١٦﴾ أي أكثروا من ذكر الله بألسنتكم لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿١٧﴾ وأطيعوا الله ورسوله ﴿١٨﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء ﴿١٩﴾ ولا تنازعوا فتفشلوا ﴿٢٠﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجنبوا عن لقاء عدوكم ﴿٢١﴾ وتذهب ريحكم ﴿٢٢﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم ، ويدخلكم الوهن والخور ﴿٢٣﴾ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴿٢٤﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها ، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون ﴿٢٥﴾ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء للناس ﴿٢٦﴾ أي لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً ، وطلباً للفخر والثناء ، والآية إشارة إلى قول أبي جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فنشرب فيها الخمر وننحر الجزور ، وتعزف علينا القيان - المغنيات - وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابونا أبداً^(١) قال الطبري : فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا^(٢) ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ﴿٢٧﴾ ويصدون عن سبيل الله ﴿٢٨﴾ أي ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿٢٩﴾ والله بما يعملون محيط ﴿٣٠﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه ﴿٣١﴾ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿٣٢﴾ أي واذكر وقت أن حسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام ، وخروجهم لحرب الرسول عليه السلام ﴿٣٣﴾ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ﴿٣٤﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿٣٥﴾ وإنني جارٌّ لكم ﴿٣٦﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿٣٧﴾ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ﴿٣٨﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولى الشيطان هارباً مولياً الأدبار ﴿٣٩﴾ وقال إنني بريء منكم ﴿٤٠﴾ أي بريء من عهد جواركم ، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿٤١﴾ إنني أرى ما لا ترون ﴿٤٢﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث (ما رؤي الشيطان يوماً هوفيه أصغر ،

(١) ذكر الطبري في روايته عن ابن عباس أن أبا سفيان لما نجا بالبعير أرسل إلى قريش يقول : ارجعوا فقد سلمت غيركم ونجت تجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال . (٢) الطبري ١٣ / ٥٧٨ .

الْعِقَابِ ﴿١٤﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُمْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَ هُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

الْحَرِيقِ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٧﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ

ولا أدهر ، ولا أحقر ، ولا أعظم منه في يوم عرفة ، إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه رأى جبريل يَزْعُ (الملائكة) (١) أي يصفها للحرب ﴿إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه قال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيت في صورة «سراقة بن مالك» فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله ، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة (٢) ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿غَرَّهُمْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به قال تعالى في جوابهم ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصر له لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به ، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيماً وشأناً هائلاً قال أبو حيان : وحذف جواب لو جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم (٣) أي لرأيت أمراً فظيماً لا يكاد يوصف ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم ، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ويقولون لهم : ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق ، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل : كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً (٤) ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي وأنه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب ، وصيغة ﴿ظلام﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوباً إلى الظلم فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى فتدبره ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ أي دأب هؤلاء الكفرة في الإجماع يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب

قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ^{٥٢} إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ فَاهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ

والكفر والإجرام ﴿كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾ أي قوي البطش شديد العذاب ، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم﴾ أي ذلك الذي حل بهم من العذاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحدٍ إلا بسبب ذنب ارتكبه ، وأنه لا يبدل النعمة بالنقمة ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان ، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية ، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين قال السدي : نعمة الله على قريش محمد ﷺ فكفروا به وكذبوه ، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب^(١) ﴿وأن الله سميع عليم﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ كره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيروا حالهم فغير الله نعمته عليهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالغرق ولهذا قال ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿وكلُّ كانوا ظالمين﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرَّضوها للعذاب ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان لذلك قال ابن عباس : نزلت في بني قريظة من اليهود ، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدتهم رسول الله ﷺ ألا يجاروه فنقضوا العهد^(٢) ﴿الذين عاهدت منهم﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألا يعينوا المشركين ﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿وهم لا يتقون﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود بني قريظة ألا يجاروه ولا يعاونوا عليه المشركين ، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر ، ثم قالوا : نسينا

مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وأخطأنا فعاهدكم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالوا الكفار يوم الخندق^(١) ﴿فإِذَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي فإن تظفر بهم في الحرب ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي فاقتلهم ونكل بهم تنكيلاً شديداً يشرد غيرهم من الكفرة المجرمين ﴿لعلهم يذكرون﴾ أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا والمعنى : اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك ﴿وإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي وإن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿فانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه والمعنى : وإما تخافن من قوم - بينك وبينهم عهد - خيانة فانْبِذْ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يجب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي لا يظنن هؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم في قبضتنا وتحت مشيئتنا وقهرنا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يعجزون ربهم ، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة ، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة : المادية ، والمعنوية قال الشهاب : وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام ، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان^(٣) ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي تخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم قال ابن زيد : هم المنافقون وقال مجاهد : هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي تُعْطُونَ جزاءه وافيّاً كاملاً يوم القيامة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ التنكير للتقليل .

٢ - ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ ذكره عليه السلام بلفظ العبودية وإضافته إلى الله للتشريف والتكريم .

٣ - ﴿بالعدوة الدنيا﴾ بين لفظ « الدنيا » و « القصوى » طباق .

٤ - ﴿ليهلك ويحيا﴾ استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان ، وبين « يهلك » و « يحيا » طباق .

٥ - ﴿وتذهب ربحكم﴾ أي تذهب قوتكم وشوكتكم وهو من باب الاستعارة أيضاً .

تنبية : يأمرنا الله تعالى بإعداد القوة لقتال الأعداء ، وقد جاء التعبير عاماً ﴿من قوة﴾ ليشمل القوة المادية ، والقوة الروحية ، وجميع أسباب القوة ، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية وهو لا يرى عندنا معامل للأسلحة ، وذخائر للحرب ، بل كلها مما يشتريه المسلمون من بلاد العدو ؟ فلا بد لنا من العودة إلى تعاليم الإسلام إذا ما أردنا حياة العزة والكرامة .

قال الله تعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . إلى . . إن الله بكل شيء عليم﴾
من آية (٦١) إلى آية (٧٥) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء ، أمرنا بالسلم بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إليه ، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة لرد العدوان ، وحرية الأديان ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان ، ثم تناولت الآيات الكريمة حكم الأسرى ، وختمت السورة بوجوب مناصرة المؤمنين بعضهم لبعض ، بسبب الولاية الكاملة وأخوة الإيمان .

اللفظ : ﴿جنح﴾ مال يقال : جنح الرجل إلى فلان إذا مال إليه وخضع له ، وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير ، ومنه قيل للأضلاع جوانح ﴿السلم﴾ المسالمة والصلح قال الزمخشري : وهي تؤنث تأنيث ضدها وهي الحرب قال الشاعر :

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع^(١)

﴿حرّض﴾ التحريض : الحث على الشيء وتحريك الهمة نحوه كالتحريض ﴿يثخن﴾ قال الواحدي : الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وأثخنه الجراح ، والثخانة : الغلظة ، والمراد بالإثخان هنا المبالغة في القتل والجراحات^(٢) .

سبب النزول : أ - عن عمر رضي الله عنه قال : لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون ، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة ، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله : ما ترى يا ابن الخطاب ! قلت : والله ما أرى ما رأى أبو

(١) الكشف ٢/٢٣٣ . (٢) الفخر الرازي ١٥/٢٠١ .

بكر ، ولكن أرى أن تمكّني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكّن حمزة من أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة على المشركين ، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان ، فقلت يا رسول الله : أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت ، فقال ﷺ : (أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . . ﴾ (١) الآية .

ب - لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر كان معه عشرون أوقية من ذهب ، فلم تحسب له من فدائه ، وكلف أن يفدي ابني أخيه فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب ، وقال النبي ﷺ (أضعفوا على العباس الفداء) فأخذوا منه ثمانين أوقية فقال العباس لرسول الله ﷺ : لقد تركتني أتكفّر قريشاً ما بقيت ، فقال له ﷺ : وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل ؟ فقال : أي الذهب ؟ فقال : إنك قلت لها : إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ! فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك ، فقال يا ابن أخي : من أخبرك بهذا ؟ قال : الله أخبرني فقال العباس : أشهد أنك صادق ، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم ، وأمر ابني أخيه فأسلما ففيهما نزلت ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى . . ﴾ (٢) الآية (٣) .

* وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا

الْفَضِيرُ : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ أي إن مالوا إلى الصلح والمهادنة فمل إليه وأجبههم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على السلامة ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ﴾ أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ﴿ فإن حسبك الله ﴾ أي فإن الله يكفيك وهو حسبك ، ثم ذكره بنعمته عليه فقال ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ أي قواك وأعانك بنصره وشد أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس : يعني الأنصار ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فأبدلهم بالعداوة حباً ، وبالتباعد قرباً قال القرطبي : وكان تأليف القلوب مع العصبيّة الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته ، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها ، وكانوا أشد خلق الله حمية ، فألف الله بينهم بالإيمان ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين (٣) ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما

أَلَقَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٤﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٦﴾ أَلَعَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٧﴾ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ

في الأرض من الأموال ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً ﴿١٤﴾ ولكن الله ألف بينهم ﴿١٥﴾ أي ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق ، فإنه المالك للقلوب بقلبها كيف يشاء ﴿١٦﴾ فإنه عزيز حكيم ﴿١٧﴾ أي غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة ﴿١٨﴾ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴿١٩﴾ أي الله وحده كافيك ، وكافي اتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد وقال الحسن البصري : المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ﴿٢٢﴾ أي حرض المؤمنين ورغبهم بكل جهدك على قتال المشركين ﴿٢٣﴾ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴿٢٤﴾ قال أبو السعود : هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم ﴿٢٥﴾ والمعنى : إِنْ يَوْجَدُ مِنْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَشْرُونَ صَابِرُونَ عَلَى شِدَائِدِ الْحَرْبِ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، بَعُونَ اللَّهُ وَتَأْيِيدُهُ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٢٧﴾ أي وَإِنْ يَوْجَدُ مِنْكُمْ مِائَةٌ - بِشَرِّ الصَّبْرِ عِنْدَ اللَّقَاءِ - تَغْلِبُ أَلْفًا مِنَ الْكَفَّارِ بِمِثْلَةِ اللَّهِ ﴿٢٨﴾ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢٩﴾ الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ أَيْ سَبَبُ ذَلِكَ بِأَنَّ الْكَفَّارَ قَوْمٌ جَهْلَةٌ لَا يَفْقَهُونَ حِكْمَةَ اللَّهِ ، وَلَا يَعْرِفُونَ طَرِيقَ النَّصْرِ وَسَبَبِهِ ، فَهُمْ يَقَاتِلُونَ عَلَى غَيْرِ احْتِسَابٍ وَلَا طَلَبِ ثَوَابٍ ، فَلِذَلِكَ يُغْلِبُونَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ ثَبَاتُ الْوَاحِدِ لِلْعَشْرَةِ فَرَضًا ، ثُمَّ لَمَّا شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ نَسَخَ وَأَصْبَحَ ثَبَاتُ الْوَاحِدِ لِلْأَتْنَيْنِ فَرَضًا ﴿٣٠﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴿٣١﴾ أَيْ رَفَعَ عَنْكُمْ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَيْكُمْ ﴿٣٢﴾ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴿٣٣﴾ أَيْ وَعَلِمَ ضَعْفَكُمْ فَرَحَّمَكُمْ فِي أَمْرِ الْقِتَالِ ﴿٣٤﴾ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴿٣٥﴾ أَيْ إِنْ يَوْجَدُ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ عَلَى الشَّدَائِدِ يَغْلِبُوا عَلَى مِائَتِينَ مِنَ الْكَفَرَةِ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ ﴿٣٧﴾ أَيْ وَإِنْ يَوْجَدُ مِنْكُمْ أَلْفٌ صَابِرُونَ فِي سَاحَةِ اللَّقَاءِ ، يَغْلِبُوا عَلَى أَلْفَيْنِ مِنَ الْأَعْدَاءِ ﴿٣٨﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٣٩﴾ أَيْ بِتَيْسِيرِهِ وَتَسْهِيلِهِ ﴿٤٠﴾ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤١﴾ هَذَا تَرْغِيبٌ فِي الثَّبَاتِ وَتَبْشِيرٌ بِالنَّصْرِ أَيْ اللَّهُ مَعَهُمْ بِالْحِفْظِ وَالرَّعَايَةِ وَالنَّصْرَةِ ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَهُوَ الْغَالِبُ ﴿٤٢﴾ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ ﴿٤٣﴾ عَتَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَلَى أَخْذِ الْفِدَاءِ ﴿٤٤﴾ وَالْمَعْنَى : لَا

(١) القول الأول معناه : حسبك الله وحده وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة « زاد المعاد » بأدلة مقنعة ،

والقول الثاني روي عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلّي في تفسير الجلالين ، والأول أرجح .

(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٢٤٧ . (٣) انظر سبب النزول .

الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا
 غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ
 اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ

ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل ؟ ﴿والله يريد الآخرة﴾ أي يريد لكم الباقي الدائم ، وهو ثواب الآخرة ، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي عزيز في ملكه لا يقهر ولا يغلب ، حكيم في تدبير مصالح العباد ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ أي لولا حكم في الأزل من الله سابق وهو ألا يعذب المخطيء في اجتهاده ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ أي لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم ، وروي أنها لما نزلت قال عليه السلام (لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر) ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ أي كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿طيباً﴾ أي من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم ، وفي الصحيح (وجعل رزقي تحت ظل رحمي) ﴿واتقوا الله﴾ أي خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة لمن تاب ، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ أي قل هؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء ، والمراد بهم أسرى بدر ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً ، وصدقاً في دعوى الإيمان ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿ويغفر لكم﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من الذنوب ﴿والله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة ، عظيم الرحمة لمن تاب وأتاب قال البيضاوي : نزلت في العباس رضي الله عنه حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه «عقيل» و«نوفل» فقال يا محمد : تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت ، فقال : أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها : إنني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه ، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعيالك ! ! فقال العباس : ما يدريك ؟ قال : أخبرني به ربي تعالى ، قال : فأشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنتك رسوله ، والله لم يطلع عليه أحد ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ! ! قال العباس : فأبدلني الله خيراً من ذلك ، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربي - يعني الموعود - بقوله تعالى ﴿ويغفر لكم﴾ (٣) ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ وإن كان هؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهرت من القول ودعوى الإيمان ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر

(١) هذا القول اختاره الرازي وضعف بقية الأقوال وهو أحد الأقوال المروية عن ابن عباس . انظر الفخر الرازي ٢٠٢/١٥ .

(٢) انظر تفصيل موضوع الفداء في التفسير الكبير للرازي . (٣) تفسير البيضاوي ٢١٧/١ .

خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَئِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

﴿فأمكن منهم﴾ أي ففواك ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم ، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عالم بجميع ما يجري ، يفعل ما تقضي به حكمته البالغة ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﴿وهاجروا﴾ أي تركوا وهجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله ، وهم المهاجرون ﴿والذين آووا ونصروا﴾ أي آووا المهاجرين في ديارهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصرة والإيثار ، ولهذا آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ أي وإن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين ، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره . ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام : المهاجرين ، الأنصار ، الذين لم يهاجروا ، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله ، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال ، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة ، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا وبين أنهم حرّموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله ، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفار فقال ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم في الكفر والضلال ملة واحدة فلا يتولاهم إلا من كان منهم ﴿إلا تفعلوه﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أمرتم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة ، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين ، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿والذين آووا ونصروا﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾

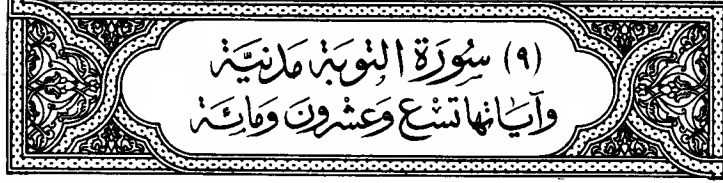
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَٰئِ
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

أي هؤلاء هم الكاملون في الإيمان ، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿لَهُمْ مغفرة ورزق كريم﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في جنات النعيم قال المفسرون : ليس في هذه الآيات تكرار ، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين ، وهذه تضمنت الشاء والتشريف ، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ هذا قسم رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي أصحاب القرباب بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه قال العلماء : هذه ناسخة للإرث بالحلف والإخاء ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي أحاط بكل شيء علماً ، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو ختم للسورة في غاية البراعة .

البلاغَة : ١ - ﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ هذا الأسلوب يسمى بـ « الإطناب » وفائدته التذكير بالمنة الكبرى والنعمة العظمى على الرسول والمؤمنين .

٢ - ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . .﴾ الآيات قال في البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد الطلب أثبت في جملة التخييف ، ثم ختمت الآيات بقوله ﴿والله مع الصابرين﴾ مبالغة في شدة المطلوبة ، وهذا النوع من البديع يسمى « الاحتباك » (١) . فله در التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته !

« تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع ، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة^(١) ، وروى الحافظ ابن كثير : أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك ، وبعث أبا بكر الصديق أميراً على الحج تلك السنة ، ليقوم للناس مناسكهم ، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام^(٢) نزلت في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم ، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ « غزوة تبوك » وكانت في حر شديد ، وسفر بعيد ، حين طابت الثمار ، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة ، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين ، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله ، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين ، ولهذا السورة الكريمة هدفان أساسيان - إلى جانب الأحكام الأخرى - هما :

أولاً : بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين ، وأهل الكتاب .

ثانياً : إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استنفرهم الرسول لغزو الروم .

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً ، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام ، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين ، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية ، وإياحة التعامل معهم ، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق ، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضاً ، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين ، وخانت طوائف اليهود « بنو النضير » و « بنو قريظة » و « بنو قينقاع » ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ونقضوا عهودهم مرات ومرات ، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم ، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوح وبصيرة ، لأن الناكثين لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة ، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين

(١) البخاري ٢٢٧/٨ . (٢) مختصر ابن كثير ١٢٣/٢ .

والمشركين من صلات ، فلا عهد ، ولا تعاهد ، ولا سلم ، ولا أمان ، بعد أن منحهم الله فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين ، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم ، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم . وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . . ﴾ الآيات .

* ثم تلتها الآيات في قتال الناقضين للعهود من أهل الكتاب ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . ﴾ الآية ، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية ، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا أهل الكتاب ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر ، وحقد على الإسلام والمسلمين .

* وعرضت السورة للهدف الثاني ، وهو شرح نفسيات المسلمين حين استنفرهم رسول الله ﷺ لغزو الروم ، وقد تحدثت الآيات عن المتأقلين منهم والمتخلفين ، والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين ، وفضحت أساليب نفاقهم ، وألوان فتنهم وتحذيلهم للمؤمنين ، حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته ، ولا دخيلة إلا كشفتها ، وتركتهم بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين ، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءاً من قوله تعالى ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك . . . ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾^(١) ولهذا سماها بعض الصحابة « الفاضحة » لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم ، قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، ما زال ينزل : ومنهم ، ومنهم ، حتى خفنا ألا تدع منهم أحداً^(٢) ، وروي عن حذيفة بن اليان أنه قال : إنكم تسمونها سورة التوبة ، وإنما هي سورة العذاب ، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه^(٣) ، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها قال ابن عباس : سألت علي بن أبي طالب لم لم يكتب في براءة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ؟ قال : لأن ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، ليس فيها أمان ، وقال سفيان بن عيينة : إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة ، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف ، ولا أمان للمنافقين^(٤) .

* وبالجملية فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت « الطابور الخامس » المندس بين صفوف المسلمين ألا وهم « المنافقون » الذين هم أشد خطراً من المشركين ، ففضحتهم وكشفت أسرارهم وغمازيمهم ، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تبق منهم دياراً ، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام ، أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً للتخريب والتدمير ، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين ، في مسجدهم الذي عرف باسم « مسجد الضرار » وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . . . ﴾ الآيات ولم يكذ النبي ﷺ

(١) الآيات من (٤٢ - ١١٠) ويكاد يكون جو السورة في النفاق والمنافقين . (٢) القرطبي ٦١/٨ .

(٣) الكشف ٢٤١/٢ . (٤) القرطبي ٦٣/٨ .

يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه : (انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه) فهدموه وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم ، وكيدهم ، وخبتهم ، وفضحهم إلى يوم الدين .

التَّيْمِيَّةُ : تسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسماً ، قال العلامة الزمخشري : لهذه السورة عدة أسماء : (براءة ، والتوبة ، والمقشقة ، والمبعثرة ، والمشردة ، والمخزية ، والفاضحة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمنكلة ، والمدممة ، وسورة العذاب) قال : لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وهي تقشقر من النفاق أي تبرئ منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين ، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها ، وتفضحهم ، وتنكل بهم ، وتشردهم ، وتخزيهم ، وتدمدم عليهم ^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .. إلى .. أجر عظيم ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللفظ : ﴿ براءة ﴾ برئت من الشيء : إذا قطعت ما بينك وبينه من سبب وأزلته عن نفسك ، قال الزجاج : برئت من الرجل والدين براءة ، وبرئت من المرض بُروءاً ^(٢) ﴿ فسيحوا ﴾ السياحة : السير في الأرض والذهاب فيها للتجارة أو العبادة أو غيرها ﴿ أذان ﴾ الأذان : الإعلام ومنه أذان الصلاة ﴿ مرصد ﴾ المرصد : الموضع الذي يرقب فيه العدو من قولهم : رصدت فلاناً إذا ترقبته قال الشاعر : إن المنية للفتى بالمرصد ^(٣) ﴿ استجارك ﴾ طلب جوارك أي أمانك ﴿ الإل ﴾ العهد والقرابة وأنشد أبو عبيدة :

أفسد الناس خلفو خلفوا قطعوا الإل وأعراف الرحم ^(٤)

﴿ نكثوا ﴾ النكث : النقض وأصله في كل ما قُتل ثم حل ﴿ وليجة ﴾ بطانة ودخيلة ، قال أبو عبيدة : كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة وأصله من الولوج ، فالداخل في القوم وليس منهم يسمى وليجة ^(٥) وقال الفراء : الوليجة : البطانة من المشركين يفشي إليهم سره ، ويعلمهم أمره .

سَبَبُ الزَّوْلِ : روي أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، وفيهم « العباس بن عبد المطلب » فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فغيروهم بالشرك ، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ فقال : وهل لكم من محاسن ؟ فقال : نعم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحجيج ، ونفك العاني - الأسير - فنزلت هذه الآية ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر .. الآية ^(٦) .

(١) الكشف ٢/٢٤١ . (٢) زاد المسير ٣/٣٩٢ . (٣) القرطبي ٨/٧٣ .

(٤) البحر المحيط ٥/٣ . (٥) الرازي ١٦/٥ . (٦) زاد المسير ٣/٤٠٧ .

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا
 أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ
 أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
 وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا
 عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا

التفسير : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي هذه براءة من المشركين
 ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله قال المفسرون : أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله
 ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك ،
 ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة ، فقام علي فنادى في الناس بأربع : ألا يقرب البيت الحرام بعد العام
 مشرك ، وألا يطوف بالبيت عريان ، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم ، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة
 فأجله إلى مدته ، والله بريء من المشركين ورسوله ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ أي سيروا آمنين
 أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه ، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿واعلموا أنكم
 غير معجزى الله﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة ﴿وأن الله محزى الكافرين﴾ أي مذموم في
 الدنيا بالأسر والقتل ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس﴾ أي إعلام
 إلى كافة الناس بتبرئ الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿يوم الحج الأكبر﴾ أي يوم النحر الذي هو
 أفضل أيام المناسك قال الزخشري : وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ^(١) ﴿أن الله
 بريء من المشركين ورسوله﴾ أي إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم ، ورسوله بريء منهم
 أيضاً ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من
 التماس في الضلال ﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتتم
 إلا الاستمرار على الغي والضلال ، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً ، ولا تُعجزونه هرباً ﴿وبشر
 الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي بشر الكافرين بعذاب مؤلم موجه يحل بهم قال أبو حيان : جعل الإنذار
 بشارة على سبيل الاستهزاء بهم ، وفي هذا وعيد عظيم لهم ^(٢) ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي
 إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتوا إليهم عهدهم قال في الكشف : وهو استثناء بمعنى
 الاستدراك أي لكن من وفى ولم ينكث فأتوا عليهم عهدهم ، ولا تجروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفي
 كالغادر ^(٣) ﴿ثم لم ينقصوكم شيئاً﴾ أي لم ينقصوا من شروط الميثاق شيئاً ﴿ولم يظاهروا عليكم
 أحداً﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ أي وفوا العهد

الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾ كَيْفَ

كاملاً إلى انقضاء مدته ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم قال البيضاوي : هذا تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى ^(١) قال ابن عباس : كان قد بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر ، فأتى ﷺ إليهم عهدهم ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ﴾ أي مضت وخرجت الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتالهم ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي اقتلوهم في أي مكان أو زمان من حل أو حرم ، قال ابن عباس : في الحل والحرم وفي الأشهر الحرم ^(٢) ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي بالأسر ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أي احبسوهم وامنعوهم من التقلب في البلاد قال ابن عباس : إن تحصنوا فاحصروهم أي في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي اقعدهم في كل طريق يسلكونه ، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم قال في البحر : وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال ^(٣) ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ أي فإن تابوا عن الشرك وأدوا ما فرض عليهم من الصلاة والزكاة ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي كفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي إن استأمنك مشرك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي أمنه حتى يسمع القرآن ويتدبره قال الزمخشري : المعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر ، لا عهد بينك وبينه ، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن ، فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ^(٤) أقول : هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق ، لأن المراد ليس النيل من الكافرين ، بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيتبعوه ، ويتركوا ما هم عليه من الضلال ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي ثم إن لم يسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين ، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام ، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا ، ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين فقال ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد أي كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله ورسوله ، ثم استدرك فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي لكن من عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد قال ابن عباس :

(١) البيضاوي ٢١٨ . (٢) زاد المسير ٣/٣٩٨ . (٣) البحر المحيط ٥/١٠ . (٤) الكشف ٢/٢٤٨ .

وَأِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾
 أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
 وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَلِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصْلُ
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكَفْرِ
 إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ

هم أهل مكة وقال ابن اسحاق : هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم ^(١) ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على العهد قال الطبري : أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء ^(٢) ﴿إن الله يحب المتقين﴾ أي يحب من اتقى ربه ، ووفى عهده ، وترك الغدر والخيانة ﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة﴾ أي لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة ، لأنه لا عهد لهم ولا أمان قال أبو حيان : وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد ^(٣) ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿وتأبى قلوبهم﴾ أي وتمتنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه قال الطبري : المعنى يعطونكم بالاستتھم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بالاستتھم ^(٤) ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي منعوا الناس عن اتباع دين الإسلام ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي بشس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿لا يرقبون في مؤمنٍ إلا ولا ذمة﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة هم المجاوزون الحد في الظلم والبغي ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فإخوانكم في الدين﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم ، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ أي وإن نقضوا عهودهم الموثقة بالأيمان ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوا الإسلام بالقدح والذم ﴿فقاتلوا أئمة

مَرَّةً أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ

الكفر ﴿أي رؤساء وصناديد الكفر﴾ ﴿إنهم لا إيمان لهم﴾ أي لا إيمان لهم ولا عهد يوفون بها ﴿لعلهم ينتهون﴾ أي كي يكفوا عن الإِجرام ، وينتھوا عن الطعن في الإسلام ، قال البيضاوي : وهو متعلق بـ « قاتلوا » أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه ، لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذنين^(١) ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾ تحريض على قتالهم أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين قوماً نقضوا العهد وطعنوا في دينكم ؟ ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ أي عزموا على تهجير الرسول ﷺ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجهم من بين أظهركم ﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾ أي هم البادئون بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة ، والباديء أظلم ، فما يمنعكم أن تقاتلوهم ؟ ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه﴾ ؟ أي أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه قال الزمخشري : يعني أن قضية الإيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه^(٢) . . ثم بعد الحض والحث أمرهم بقتالهم صراحة فقال ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ أي قاتلوهم يا معشر المؤمنين فقاتلكم لهم عذاب بأيدي أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم ﴿ويخزهم﴾ أي يذلهم بالأسر والقهر ﴿وينصركم عليهم﴾ أي يمنحكم الظفر والغلبة عليهم ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ أي يشف قلوب المؤمنين بإعلاء دين الله وتعذيب الكفار وخزيهم قال ابن عباس : هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : أبشروا فإن الفرج قريب^(٣) ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ أي يذهب ما بها من غيظ ، وغم ، وكرب ، وهو كالتأكيد لشفاء الصدور وفائدته المبالغة في جعلهم مسرورين بما بين الله عليهم من تعذيب أعدائهم قال الرازي : أمر تعالى بقتالهم وذكر فيه خمسة أنواع من الفوائد ، كل واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد ، فكيف بها إذا اجتمعت^(٤) ؟ ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ كلام مستأنف أي يمن الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام كأبي سفيان ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية ، حكيم لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة قال أبو السعود : ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجل ما يكون ، فكان إخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة^(٥) ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل حسبتم يا معشر المؤمنين أن تتركوا بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه ! ﴿ولمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي والحال أنه لم يتبين المجاهد منكم من غيره ، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه

(١) البيضاوي ص ٢١٩ . (٢) الكشف ٢/٢٥٢ . (٣) أبو السعود ٢/٢٥٨ . (٤) الفخر الرازي ٢/١٦ . (٥) أبو السعود ٢/٢٥٨ .

وَلِيَجْزِيَ^ج وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى^ط أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ

تعالى يعلم ذلك غيباً فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين ، والغرض من الآية : ان الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿والله خير بما تعملون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق للمشركين أن يعمرُوا شيئاً من المساجد ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر ، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هولك ، تملكه وما ملك » يعنون الأصنام ، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت ، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام^(١) والمعنى : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين : عمارة مساجد الله ، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿وفي النار هم خالدون﴾ أي ما كثون في نار جهنم أبداً ﴿إنما يعمرُ مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن المصدق بوحدانية الله ، الموقن بالآخرة ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ أي أقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿ولم يحش إلا الله﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحداً سواه ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة قال ابن عباس : كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنبيه ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ يقول : إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة^(٢) قال أبو حيان : وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن ، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين ان يكونوا مهتدين ، إذ من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من تُرجى له الهداية ، فكيف بمن هو عارٍ منها ؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجاء ، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة^(٣) ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ الخطاب للمشركين^(٤) ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : أ جعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت ، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله ؟ وهو رد على العباس حين قال : لئن كنتم سبقتُمونا بالإسلام والهجرة ، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقي

(١) الصاوي على الجلالين ١٤١/٢ . (٢) الطبري ٩٤/١٠ . (٣) البحر المحيط ٢٠/٥ . (٤) انظر سبب النزول .

اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢١﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

الحاج فترلت قال الطبري : هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام ، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والجهد في سبيله ^(١) لا يستوون عند الله أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين ، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق ، قال في البحر : ومعنى الآية إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، ولما نفى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم ، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة ، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ^(٢) ثم قال تعالى ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان والمعنى : إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان ، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن ، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً ، وأرفع ذكراً من سقاة الحاج ، وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ أي وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة ، ورضوان كبير من رب عظيم ﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ أي وجنات عالية ، قطوفها دانية ، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم ، تعجز العقول عن وصفه قال أبو حيان : لما وصف المؤمنين بثلاث صفات : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة : الرحمة ، الرضوان ، والجنان ، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان ، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد ، وثلث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان ^(٣) وقال الألوسي : ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيم مقيم جاء في غاية اللطافة ، لأن الهجرة فيها السفر ، الذي هو قطعة من العذاب ^(٤) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿براءة من الله ورسوله﴾ التنوين للتفخيم والتقيد بأنها من الله ورسوله لزيادة التفخيم والتحويل .

٢ - ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ هذا يسمى « الأسلوب التهكمي » لأن البشارة بالعذاب

(١) الطبري ٩٤/١٠ . (٢) البحر المحيط ٢٠/٥ . (٣) البحر ٢١/٥ . (٤) روح المعاني ٧٠/١٠ .

تهكم به .

٣ - ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ﴾ شبه مضي الأشهر وانقضاءها بالانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فهو من باب الاستعارة .

٤ - ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ذكر الاسم الجليل مكان الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب .

٥ - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الجملة مفيدة للحصر أي هم الفائزون لا غيرهم .

٦ - ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر تفخيم لسانها وحث على التنبه لهما .

٧ - ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم أي برحمة لا يبلغها وصف واصف .

فَكَايِدَة : عمارة المساجد نوعان : حسية ، ومعنوية ، فالحسية بالتشييد والبناء ، والمعنوية بالصلاة وذكر الله ، وقد ربط الباري جل وعلا بين العمارة والإيمان وفي الحديث (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان لأن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١) فالعمارة الحقيقية بالصلاة وذكر الله .

لطيفة : ذكر القرطبي أن أعرابياً قدم المدينة المنورة فقال : من يقرئني مما أنزل على محمد ﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة ﴿أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فقرأها عليه بالجر ﴿ورسوله﴾ فقال الأعرابي : وأنا أيضاً أبرأ من رسوله ، فاستعظم الناس الأمر وبلغ ذلك عمر فدعاه فقال يا أعرابي : أتبرأ من رسول الله ﷺ ؟ فقال يا أمير المؤمنين : قدمت المدينة فأقرأني رجل سورة براءة فقلت إن يكن الله برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال : ما هكذا الآية يا أعرابي ؟ قال فكيف يا أمير المؤمنين ! فقرأها عليه بالضم ﴿ورسوله﴾ فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما برىء الله ورسوله منه ، فأمر عمر ألا يقرئ الناس إلا عالم بلغة العرب^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ . إِلَى . وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٣٣) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قبائح المشركين ، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأقارب واجب

(١) رواه الترمذي . (٢) القرطبي ٢٤/١ .

بسبب الكفر ، ثم استطرد إلى تذكير المؤمنين بنصرهم في مواطن كثيرة ليعتزوا بدينهم ، ثم عاد إلى الحديث عن قبائح أهل الكتاب للتحذير من موالاتهم ، وأنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله .

الغفر : ﴿أولياء﴾ جمع ولي : وهو الناصر والمعين الذي يتولى شئون الغير وينصره ويقويه ﴿وعشيرتكم﴾ العشيرة : الجماعة التي يعتز ويحتمي بها الإنسان قال الواحدي : عشيرة الرجل أهله الأذنون وهو من العشيرة أي الصحبة لأنها من شأن القريبى ﴿كسادهاء﴾ كسد الشيء كساداً وكسوداً إذا بار ولم يكن له تفاق ﴿عيلة﴾ فقراً يقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل^(١)
﴿الجزية﴾ ما أخذ من أهل الذمة سميت جزية لأنهم أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن ﴿يضاهئون﴾ يشابهون والمضاهاة المماثلة والمحاكاة ﴿يؤفكون﴾ يصرفون عن الحق والإفك الصرف يقال : أفك الرجل أي قلب وصرف .

سبب النزول : قال الكلبي : لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته : لقد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده فيقولون : نشدناك الله إن تدعنا من غير شيء فنضيع ، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزلت الآية تعاتبهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء . .﴾^(٢) الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

النفسي : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ النداء بلفظ الإيمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله قال ابن مسعود : « إذا سمعت الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا فأرغها سمعك ، فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه » والمعنى : لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً تودونهم وتحبونهم ﴿إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليه إصراراً ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك^(٣) ﴿قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم﴾ أي إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والزوجات ومن سواهم ﴿وعشيرتكم﴾ أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وتجارة تخشون كسادهاء﴾ أي تخافون عدم نفاقها ﴿ومساكن ترضونها﴾ أي منازل

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدَبِّرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ۖ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ

تعجبكم الإقامة فيها ﴿أحبَّ إليكم من الله ورسوله﴾ هذا هو جواب كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿وجهادٍ في سبيله﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله ﴿فتربصوا﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ أي بعقوبته العاجلة أو الآجلة ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة ، وهذا وعيد لمن أثر أهله ، أو ماله ، أو وطنه ، على الهجرة والجهاد ، ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في موطن اللقاء فقال ﴿لقد نصركم الله في موطن كثيرة﴾ أي نصركم في مشاهد كثيرة ، وحروب عديدة ﴿ويوم حنين﴾ أي ونصركم أيضاً يوم حنين بعد الهزيمة التي منيتم بها بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم : لن نغلب اليوم من قلة ، وكنتم اثني عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف ، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئاً ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ أي وضافت الأرض على رحبها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي وليتم على أدباركم منهزمين قال الطبري : يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده ، وأنه ليس بكثرة العدد ، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء ، ويخلى القليل فيهزم الكثير ، قيل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال البراء : أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفر ، ولقد رأيته على بغلته البيضاء - وأبو سفيان أخذ بلجامها يقودها - فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شأهت الوجوه ففروا ، فما بقي أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه ^(١) ، وقال البراء : كنا والله إذا حمي البأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يخاذيه ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي أنزل بعد الهزيمة الأمن والطمأنينة على المؤمنين حتى سكنت نفوسهم قال أبو السعود : أي أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها ^(٢) ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ قال ابن عباس : يعني الملائكة ﴿وعذب الذين كفروا﴾ أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ أي وذلك عقوبة الكافرين بالله . ﴿ثم يتوب﴾

(١) الطبري ١٠/١٠٣ . (٢) أبو السعود ٢/٢٦٣ .

وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ

الله من بعد ذلك على من يشاء ﴿٢٦﴾ أي يتوب على من يشاء فيوفقه للإسلام ، وهو إشارة إلى إسلام هوازن ﴿والله غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ أي قدر لخبث باطنهم قال ابن عباس : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير ، وقال الحسن : من صافح مشركاً فليتوضأ^(١) ، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخبث اعتقادهم وكفرهم بالله جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في الوصف على حد قولهم : علي أسد أي كالأسد ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أي فلا يدخلوا الحرم ، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله قال أبو السعود : وقيل : المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث (وَأَلَّا يَحْجَ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ)^(٢) وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها علي في المواسم ﴿وإن خفتكم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ أي وإن خفتكم أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم من دخول الحرم أو من الحج فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من فضله وعطائه قال المفسرون : لما مُنِعَ المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم ، وكان المشركون يجلبون الأطعمة والتجارات اليهم في المواسم ، ألقي الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم : من أين تأكلون ؟ وكيف تعيشون وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب ؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة ، ورزقهم الغنائم والجزية^(٣) ﴿إن شاء﴾ أي يغنيكم بإرادته ومشيئته ﴿إن الله عليم حكيم﴾ قال ابن عباس : عليم بما يصلحكم ، حكيم فيما حكم في المشركين . . ولما ذكر حكم المشركين ذكر حكم أهل الكتاب فقال ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله واليوم الآخر وإن زعموا الإيمان ، فإن اليهود يقولون عزيز ابن الله ، والنصارى يعتقدون بالوهية المسيح ويقولون بالتثليث ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ أي لا يحرمون ما حرم الله في كتابه ، ولا رسوله في سنته ، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحرار والرهبان ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابههما ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي لا يعتقدون بدين الإسلام الذي هو دين الحق ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ هذا بيان للمذكورين أي من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل

(١) القرطبي ١٠٣/٨ وهو الذي نقل عن ابن عباس والحسن البصري ورجحه الفخر الرازي والألوسي وهو ظاهر الآية ، والجمهور على أنه على التشبيه . (٢) أبو السعود ٢٦٤/٢ . (٣) انظر الطبري ١٠٧/١٠ .

صَغُرُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِعُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٧﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾

﴿حتى يُعطوا الجزية عن يد﴾ أي حتى يدفعوا إليكم الجزية منقادين مستسلمين ﴿وهم صاغرون﴾ أي أذلاء حقيرون مهجورون بسلطان الإسلام ، ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائحهم فقال ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ أي نسب اللعناء إلى الله الولد ، وهو واحد أحد فرد صمد قال البيضاوي : وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة ، فلما أحياء الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله ^(١) ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ أي وزعم النصارى - أعداء الله - أن المسيح ابن الله قالوا : لأن عيسى ولد بدون أب ، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب ، فلا بد أن يكون ابن الله ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ أي ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان قال في التسهيل : يتضمن معنيين : أحدهما إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك ، والثاني أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وإنما هو مجرد دعوى كقولك لمن تكذبه : هذا قولك بلسانك ^(٢) ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ أي يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم : الملائكة بنات الله ﴿تشابهت قلوبهم﴾ ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً ! قال الرازي : الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطبتهم ، والله تعالى عجب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل ^(٣) ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ أي أطاع اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى : أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ قال عدي ابن حاتم : أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي إطرح عنك هذا الوثن ، قال وسمعتة يقرأ سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقلت يا رسول الله : لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام : ليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فيستحلون ؟ ! فقلت : بلى ، قال : فذلك عبادتهم ^(٤) ﴿والمسيح ابن مريم﴾ أي اتخذ النصارى رباً معبوداً ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أُمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿لا إله إلا هو﴾ لا معبود بحق سواه ﴿سبحانه عما يشركون﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم

(١) البيضاوي ص ٢٢٢ . (٢) التسهيل ٧٤/٢ . (٣) الرازي ٣٦/١٦ . (٤) الألوسي ٨٤/١٠ .

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

الحقيرة ، بمجرد جدالهم وافتراءهم ، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفمه ولا سبيل إلى ذلك ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ أي ويأبى الله إلا أن يعليه ويرفع شأنه ﴿ولو كره الكافرون﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة والدين الكامل وهو الإسلام ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿ولو كره المشركون﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره .

البَلاغَةُ : ١ - ﴿قربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ صيغته أمر وحقيقته وعيد كقوله ﴿إعملوا ما شئتم﴾ .

٢ - ﴿ويوم حنين﴾ من باب عطف الخاص على العام للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة .

٣ - ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة .

٤ - ﴿إنما المشركون نجس﴾ الصيغة لإفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً ومثله ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ أي كالأرباب في طاعتهم وامثال أوامرهم في التحريم والتحليل .

٥ - ﴿فلا يقربوا المسجد﴾ عبر عن الدخول بالقرب للمبالغة .

٦ - ﴿يطفئوا نور الله﴾ أراد به نور الإسلام فإن الإسلام بنوره المضيء وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضياؤها فهو من باب الاستعارة . وهي من لطائف الاستعارات .

لُطِيفَةٌ : قال العلامة القرطبي دل قوله تعالى ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان ، وقد أنشدوا في ذلك أبياتاً :

يقولون لي دار الأحبة قد دنت	وأنت كئيبٌ إن ذا لعجيب
فقلت : وما تغني ديارٌ قريبة	إذا لم يكن بين القلوب قريب

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ . . . إِلَى . . . فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾
من آية (٣٤) إلى نهاية آية (٤٥) .

المناسكة : لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية ، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس ، تحقيراً لشأنهم وتسفihاً لأحلامهم ، لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا ، وذلك نهاية الذل والدناءة ، ثم ذكر تعالى قبائحهم وقبائح المشركين ، ثم دعا إلى النفي العام وذكر موقف المنافقين المثبتين عن الجهاد في سبيل الله .

اللفظة : ﴿ الأحبار ﴾ علماء اليهود ﴿ الرهبان ﴾ علماء النصارى قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها^(١)
﴿ يكثرُونَ ﴾ أصل الكثر في اللغة : الجمع والضم ومنه حديث (ألا أخبركم بخير ما يكثر المرء ؟ المرأة الصالحة) أي يضمه لنفسه ويجمعه ، ثم غلب استعماله على المدفون من الذهب والفضة قال الطبري : الكثر كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها^(٢) ﴿ تكوى ﴾ الكي : إلصاق المحمي من الحديد وشبهه بالعضو حتى يتمزق الجلد وفي الأمثال « آخر الدواء الكي » ﴿ النسيء ﴾ التأخير يقال : نساء وأنساء إذا أخره ومنه حديث (وينسأ له في أثره) أي يؤخر له في أجله قال الزمخشري : النسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ﴿ ليواطئوا ﴾ أي ليوافقوا والمواطأة : الموافقة يقال : تواطأ القوم : إذا اتفقوا على أمر خفية ﴿ انفروا ﴾ النفر : الخروج بسرعة ومنه ﴿ ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ ﴿ أثاقلتم ﴾ أصله ثاقلتم بمعنى تباطأتم ولم تسرعوا ﴿ عرضاً ﴾ العرض : ما يعرض للانسان من منافع الدنيا سمي عرضاً لأنه لا يدوم وفي الحديث (الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر) ﴿ الشقة ﴾ المسافة البعيدة التي لا تقطع إلا بمشقة قال الجوهري : الشقة السفر البعيد^(٣) ، وكأنه مأخوذ من المشقة يقال : شقة شاقة .

سَبَبُ النُّزُول : لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين ، أمر الناس بالجهاد ، لغزو الروم ، وذلك في زمن عسرة من البأس ، وجذب من البلاد ، وشدة من الحر ، حين أثمرت النخل ، وطابت الثمار ، فعظم على الناس غزو الروم ، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال ، وشق عليهم الخروج إلى القتال فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَاقلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ . . . ﴾ الآية^(٤) .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن

التفسير : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن كثيراً من علماء اليهود « الأحبار » وعلماء النصارى « الرهبان » ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي ليأخذون أموال الناس بالحرام ، ويمنعونهم عن الدخول في دين

سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ

الإسلام قال ابن كثير : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال قال ابن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان في شبه من النصارى ^(١) ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات ﴿ثم لا ينفقونها في سبيل الله﴾ أي لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير قال ابن عمر : الكنز ما لم تؤد زكاته ، وما أدت زكاته فليس بكنز ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أسلوب تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم قال الزمخشري : وإنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم ^(٢) ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها قال ابن مسعود : والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً ، ولا درهم درهماً ، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حذته ^(٣) ، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطب جبهته ، فإذا جاءه أعرض بجانبه ، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره ، قال القرطبي : الكي في الوجه أشهر وأشنع ، وفي الظهر والجانب ألم وأوجع ، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء ^(٤) ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً : هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه وفي صحيح مسلم (ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار ، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ أي إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشر شهراً على منازل القمر ، فالمعتبر به الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿في كتاب الله﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ قال ابن عباس : كتبه يوم خلق السموات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله ﴿منها أربعة حرم﴾ أي منها أربعة شهور محرمة هي : « ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب » وسميت حرماً لأنها معظمة محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويحرم القتال فيها ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي ذلك

(١) المختصر ١٣٨/٢ . (٢) الكشف ٢٦٦/٢ . (٣) الطبري ١٢٤/١٠ . (٤) القرطبي ١٢٩/٨ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوْاطَّعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ

الشرع المستقيم ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بهتك حرمتهم وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد ، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ أي إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم قال المفسرون : كان العرب أهل حروب وغارات ، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره ، فربما أحلوا المحرم وحرموا صفر حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة ﴿يضلُّ به الذين كفروا﴾ أي يضل بسببه الكافرين ضلالاً على ضلالهم ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال هذا مكان هذا والعكس ﴿ليواطنوا عدة ما حرم الله﴾ أي ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرمه الله قال مجاهد : كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له ، فيقول أيها الناس : إني لا أعاب ولا أجاب ، ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمنا المحرم ، وأخرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فذلك قوله تعالى ﴿ليواطنوا عدة ما حرم الله﴾^(١) .
﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق السعادة ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله أتاقلتم إلى الأرض﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك والمعنى : ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم ، وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعه ؟ ! ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي ؟ ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء مستحق قليل لا قيمة له ، ثم توعدهم على ترك الجهاد فقال ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد

قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۚ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٧﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

مع رسول الله يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً ، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا ، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس : هو حبس المطر عنهم^(١) ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم ، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإنه سبحانه غني عن العالمين ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم قال الرازي : وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز ، فإذا توعد بالعقاب فعل^(٢) ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي إن لا تنصروا رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره : فسينصره الله دل عليه قوله ﴿فقد نصره الله﴾ والمعنى : إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين ، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ، وأسند إخراجهم إلى الكفار لأنهم ألجئوه إلى الخروج وتأمروا على قتله حتى اضطر إلى الهجرة ﴿ثاني اثنين﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﴿إذ هما في الغار﴾ أي حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثور ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطميناً وتطبيعاً : لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر ، روى الطبري عن أنس أن أبا بكر رضي الله عنه قال « بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار ، وأقدام المشركين فوق رؤوسنا فقلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »^(٣) وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﴿وأيدته بجنود لم تروها﴾ أي قواه بجنود من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي جعل كلمة الشرك سافلة دنيئة حقيرة ، أذل بها الشرك والمشركين ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ أي وكلمة التوحيد « لا إله إلا الله » هي الغالبة الظاهرة ، أعز الله بها المسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي قاهر غالب لا يُغلب ، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شيباً وشباناً ، مُشاةً وركباناً ، في جميع الظروف والأحوال ، في اليسر والعسر ، والمنشط والمكره

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا
خُرْجَنَا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ
لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُولُونَا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي جاهدوا بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله
﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي هذا النفير والجهاد خير من التثاقل إلى الأرض والخلود إليها
والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا إن كنتم تعلمون ذلك قال في البحر : والخيرية في الدنيا بغلبة العدو
ورئاسة الأرض ، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله ^(١) ، ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين
تخلفوا عن غزوة تبوك ، وموقف المبطين المنافقين منهم فقال ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ أي لو كان ما دعوا
إليه غنماً قريباً سهل المنال ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي وسفراً وسطاً ليس ببعيد ﴿لاتبعوك﴾ أي لخرجوا معك
لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي ولكن بعدت عليهم الطريق
والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا
لخرجنا معكم﴾ أي وسيحلفون لكم معتذرين ^(٢) بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا ،
ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم ، قال تعالى رداً عليهم وتكديماً لهم
﴿يهلكون أنفسهم﴾ أي يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيامهم الكاذبة ﴿والله يعلم أنهم لكاذبون﴾ أي
لكاذبون في دعواهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ تلتطف في
عتاب الرسول ﷺ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له عليه السلام ^(٣) والمعنى سأمحك الله يا محمد لم
أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار !! ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا
وتعلم الكاذبين﴾ أي وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الكاذب المنافق قال مجاهد :
نزلت في المنافقين قال أناس منهم استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم
فاقعدوا ^(٤) ، فقد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه
أهل الإيمان فقال ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يستأذنك يا محمد عن
الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أي كراهية الجهاد بالمال

(١) البحر ٤٤/٥ . (٢) هذا إخبار بغيب أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة وقد حصل كما أخبر القرآن
فكان ذلك من أوضح المعجزات القرآنية . (٣) قال المفسرون : من هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول ﷺ عند ربه ، وعلو قدره ،
وسمو منزلته ، بشره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب ، ولو قال له معاتباً : لم أذنت لهم ؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه حزناً وكمداً قال عون : هل
سمعت بمعاتبة أحسن من هذا ؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبه ، أقول : وما ذكره الزمخشري سوء أدب في مقام الرسول ﷺ . (٤) الطبري
١٤٢/١١ .

إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٥﴾

والنفس لأنهم يعلمون ما أعدّه الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه ؟ ﴿٥﴾ والله عليم بالمتقين ﴿٥﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿٥﴾ إنما يستأذّنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿٥﴾ أي إنما يستأذّنك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ﴿٥﴾ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴿٥﴾ أي شكّت قلوبهم في الله وثوابه فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً﴾ بين يحلون ويحرمون طباق وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ .

٣ - ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أرضيتم بنعيم الدنيا ولذائذها بدل نعيم الآخرة .

٤ - ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة .

٥ - ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ « كلمة الذين كفروا » استعارة عن الشرك كما أن « كلمة الله » استعارة عن الإيمان والتوحيد .

٧ - ﴿خَفَافاً وَثِقَالاً﴾ بينهما طباق .

٨ - ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على النفس .

٩ - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ خبر بقصد تقديم المسرة على المضرة وقد أحسن من قال : إن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب .

فَكَايِدَةٌ : روي أن اعرابياً قال لابن عمر : أخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فقال ابن عمر : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهرةً للأموال ، وما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً أزكيه ، وأعمل فيه بطاعة الله تعالى (١) !!

تنبية : دلت الآية ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ على عظيم فضل الصديق وجليل قدره ، إذ جعله الله صاحب الرسول في الغار ، ورفيقه في الهجرة ، ولهذا قال العلماء : من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لأنه رد كتاب الله تعالى .

لطيفة : عن حيان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، فرأيت شيخاً كبيراً هرمًا ، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت عليه فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك قال : فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي : استنفرنا الله خفافاً وثقلاً ، ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده الله فيقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل^(١) .

أقول : رحم الله تلك الأنفس الزكية التي باعت أرواحها في مرضاة الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة .. إلى .. والله عليم حكيم﴾ من آية (٤٦) إلى نهاية آية (٦٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد ، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد ، والمكر ، وإثارة الفتن بين المسلمين ، والفرح بأذاهم . وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفاً واندحاراً بتفريق الجماعة وتشيت الكلمة ، وذكر كثيراً من مثالبهم وجرائمهم الشنيعة .

اللفظ : ﴿انبعاثهم﴾ الانبعاث : الانطلاق في الأمر ﴿فببطهم﴾ التثبيط : رد الإنسان عن الفعل الذي هم به ﴿خبالاً﴾ الخبال : الشر والفساد في كل شيء ومنه المخبول للمعتوه الذي فسد عقله ﴿ولأوضعوا﴾ الإيضاع : سرعة السير قال الراجز :

يا ليتني فيها جذع أخبُّ فيها وأضع

يقال : وضع البعير إذا أسرع السير ، وأوضع الرجل إذا سار بنفسه سيراً حثيثاً^(٢) ﴿يجمحون﴾ جمح : نفر بإسراع من قولهم فرس جموح أي لا يرده اللجام ﴿يلمزك﴾ اللمز : العيب يقال : لمزه إذا عابه قال الجوهري : وأصله الإشارة بالعين ونحوها ورجل لماز أي عيَّاب^(٣) ﴿الغارمين﴾ الغارم : المديون قال الزجاج : أصل الغرم لزوم ما يشق ، والغرام العذاب اللازم الشاق وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً ولازماً ، وسمي الدين غراماً لكونه شاقاً على الإنسان^(٤) .

سبب النزول : لما أراد ﷺ الخروج إلى تبوك قال « للجد بن قيس » - وكان منافقاً - يا أبا وهب : هل لك في جلاّد بني الأصفر - يعني الروم - تتخذ منهم سراري ووصفاء ؟ فقال يا رسول الله : لقد عرف قومي أنني مغرم بالنساء ، وإنني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن فلا تفتني وأذن لي في القعود

(١) الطبري ١٣٨/١٠ . (٢) الرازي ٨١/١٦ . (٣) الصحاح للجوهري . (٤) البحر ٣٥/٥ .

* وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٤٦﴾
لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفِتْنَةً وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَوْدَعْنَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصَبِّكَ حَسَنَةً
وَأَعْيَنَكَ بِمَالِي ، فَأَعْرِضْ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ وقال : قد أذنت لك فأنزل الله ﴿ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَوْدَعْنَا فِي وَلَا
تَفْتَنِي﴾ ^(١) الآية .

الْخُفْيَاءُ : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّة﴾ أي ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزاد ، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿فثبطهم﴾ أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل ﴿وقيل أقعدوا مع القاعدين﴾ أي اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعدار ، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد ، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الأذى والمضرة ولهذا قال ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ﴿ولأضعوا خلالكم﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿وفيكُم سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قَوْلهم ويطيعونهم ^(٢) ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضمايرهم وظواهرهم ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي طلبوا لك الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أحد ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي دبروا لك المكائد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿وهم كارهون﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لفاقمهم ﴿ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَوْدَعْنَا لِي وَلَا تَفْتَنِي﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد أذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج قال ابن عباس : نزلت في «الجد ابن قيس» حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاذ بني الأصفر ، فقال يا رسول الله : أذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء ^(٣) ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه ، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم قال أبو السعود : وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن ترددهم في دركات الردى

(١) أسباب النزول ص ١٤٢ . (٢) وقال مجاهد : المعنى وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر ، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير . (٣) انظر سبب النزول .

نُسُوهُمْ وَإِنْ تُصَبِّكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَلْسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مِنْهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ

أسفل سافلين^(١) ﴿٥٠﴾ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿٥١﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، وفيه وعيد شديد ﴿٥٢﴾ إن تصبك حسنة تسوهم ﴿٥٣﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة ، سواء كانت ظفراً أو غنيمة ، يسوهم ذلك ﴿٥٤﴾ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ﴿٥٥﴾ أي وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ، أو هزيمة ومكروه يفرحوا به ويقولوا : قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والתיقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء ﴿٥٦﴾ ويتولوا وهم فرحون ﴿٥٧﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون^(٢) ﴿٥٨﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴿٥٩﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر ، ولا خوف ولا رجاء ، ولا شدة ولا رخاء ، إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿٦٠﴾ هو مولانا ﴿٦١﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿٦٢﴾ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿٦٣﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله ، ولا يعتمدوا على أحد سواه ﴿٦٤﴾ قل هل ترصدون بنا إلا إحدى الحسينين ﴿٦٥﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين : إما النصر ، وإما الشهادة ، وكل واحدة منهما شيء حسن !! ﴿٦٦﴾ ونحن نترصد بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴿٦٧﴾ أي ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين : أن يهلككم الله بعذاب من عنده يستأصل به شأفتكم ، أو يقتلكم بأيدينا ﴿٦٨﴾ فتربصوا إنا معكم مترصدون ﴿٦٩﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم ، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿٧٠﴾ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم ﴿٧١﴾ أي قل لهم أنفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكراهين ، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم قال الطبري : وهو أمر معناه الخير كقوله ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ والمعنى لن يتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً^(٣) ﴿٧٢﴾ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿٧٣﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين خارجين عن طاعة الله ، ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿وما منعهم أن يتقبل منهم نفقاتهم﴾ إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ﴿٧٤﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله ورسوله ﴿٧٥﴾ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴿٧٦﴾ أي ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم مثاقلون ﴿٧٧﴾ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴿٧٨﴾ أي ولا ينفقون

(١) أبو السعود ٢/ ٢٧٥ . (٢) قال القرطبي : المعنى يعرضوا عن الإيمان وهم معجبون بذلك . (٣) الطبري ١٠/ ١٥٢ .

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ
مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾
وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَّا يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
رِضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

أموالهم إلا بالإكراه لأنهم يعدونها مغرمًا قال في البحر : ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر
واتبعه بما هو مستلزم له وهو إتيانهم الصلاة كسالي ، وإيتاء النفقة وهم كارهون ، لأنهم لا يرجون بذلك
ثواباً ولا يخافون عقاباً ، وذكر من أعمال البر هذين العاملين الجليلين وهما : الصلاة ، والنفقة ، لأن
الصلاة أشرف الأعمال البدنية ، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية ^(١) ﴿فلا تعجبك أموالهم
ولا أولادهم إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا
من زينة الدنيا ، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد ، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة ، إنما يريد الله
بذلك استدراجهم ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا قال البيضاوي : وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها
من المتاعب ، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب ^(٢) ﴿وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾ أي ويموتوا
كافرين مشغولين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿ويخلفون بالله
إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ أي ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم ، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم
﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين ، فيظهرون
الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمن الفاجرة ﴿لو يجدون ملجأ﴾ أي حصناً يلجأون إليه ﴿أو مغارات﴾
أي سراديب يختفون فيها ﴿أو مدخل﴾ أي مكاناً يدخلون فيه ولو ضيقاً ﴿لو لَّوُوا إِلَيْهِ وَهُمْ
يَجْمَحُونَ﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسراعاً كالفرس الجموح ، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أن المنافقين
لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بآيمانهم الكاذبة
أنهم معكم ومنكم ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة
الصدقات ﴿فإن أعطوا منها رضوا﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنا فعلك ﴿وإن لم
يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال
المفسرون : كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له « ذو الخويصرة »
فقال : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ : (ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟) ^(٣) ، الحديث
﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما
أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلت قال أبو السعود : وذكر الله عز وجل للتعظيم

* إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه ^(١) ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي كفانا فضل الله وإنعامه علينا ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا ﴿إننا إلى الله راغبون﴾ أي إننا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم قال الرازي : وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل : لو جئتنا . . ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً ^(٢) ، ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ قال الطبري : أي لا تنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن ساهم الله جل ثناؤه ^(٣) والآية تقتضي حصر الصدقات وهي الزكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم ، والفقر الذي له بُلغة من العيش ، والمساكين الذي لا شيء له قال يونس : سألت اعرابياً أفقر أنت ؟ فقال : لا والله بل مسكين ، وقيل : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، والمسألة خلافية ﴿والعاملين عليها﴾ أي الجباة الذين يجمعون الصدقات ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم قوم من أشرف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام ، وروى الطبري عن صفوان بن أمية قال : لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي ^(٤) ﴿وفي الرقاب﴾ أي وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق ﴿والغارمين﴾ أي المديونين الذين أثقلهم الدين ﴿وفي سبيل الله﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿وابن السبيل﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فريضة من الله﴾ أي فرضها الله جل وعلا وحددها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمصالح العباد ، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة قال في التسهيل : وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه في المعنى بآية اللزم في الصدقات ^(٥) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿أعدوا له عُدَّة﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في قوله ﴿أعدوا مع القاعدین﴾ .

٢ - ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ قال الطيبي : فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الإيضاع وهو للإيل ، والأصل ولأوضعوا ركائب غائهم خلالكم ^(٦) .

(١) أبو السعود ٢/ ٢٧٧ . (٢) الرازي ١٦/ ٩٩ . (٣) الطبري ١٠/ ١٥٧ .

(٤) الطبري ١٠/ ١٦٢ . (٥) التسهيل ٢/ ٧٩ . (٦) روح المعاني ١٠/ ١١٢ .

٣ - ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ فيه استعارة حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند أو السوار بالمعصم ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار .

٤ - ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة . .﴾ الآية فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٥ - ﴿وعلى الله فليتوكل﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر ، وإظهار الاسم الجليل مكان الاضمار لتربية الروعة والمهابة .

٦ - ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ بينهما طباق وكذلك بين الرضا والسخط في قوله ﴿رضوا وإن لم يُعطوا إذا هم يسخطون﴾ .

٧ - ﴿عليم حكيم﴾ صيغة فعيل للمبالغة أي عظيم العلم والحكمة .

لطيفة : قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وقيل اقعدا مع القاعدين﴾ هذا ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت^(١) على حد قول القائل :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

تنبيه : قال ابن كثير : لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربتة يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه - يعني أقبل - فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، أغاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى ﴿وظهر أمر الله وهم كارهون﴾^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي . . إلى . . من ولي ولا نصير﴾

من آية (٦١) إلى نهاية آية (٧٤) .

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم ، وتحذيراً للمؤمنين من مكائدهم ، وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم ، وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ ، وإقدامهم على الإيمان الكاذبة ، واستهزاءهم بآيات الله وشريعته المطهرة ، إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة ، والأفعال الخبيثة .

اللغة : ﴿أذن﴾ قال الجوهري : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوي فيه الواحد والجمع^(٣) وقال الزمخشري : الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ،

سمي بالجارحة التي هي آلة السماع^(١) . قال الشاعر :

قد صرت أذنًا للوشاة سمیعة ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا
﴿مجادد﴾ المحادة : المخالفة والمعاداة كالمشاقة وهي أن يكون كل واحد من المتخاصمين في حد وشق غير ما
عليه صاحبه ﴿بخلاتهم﴾ الخلاق : النصيب كقوله ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ وقد تقدم ﴿وخضتم﴾
الخوض : الدخول في اللهو والباطل وهو مستعار من الخوض في الماء ﴿حطت﴾ بطلت وذهب ثوابها
﴿والمؤتفكات﴾ الائتفاك : الانقلاب ويراد بهم قوم لوط لأن أرضهم ائتكت بهم أي انقلبت ، وقيل هو
مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر كقول ابن الرومي :

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة أعاليها بل أن تسود الأراذل

سَبَبُ النَّزُول : أ - كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ويقولون فيه ما لا ينبغي ، فقال
بعضهم : لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا ، فقال « الجلاس بن سويد » : نقول ما شئنا
ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو
أذن . . .﴾^(٢) .

ب - قال مجاهد : كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي
سرنا فأنزل الله ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . . .﴾^(٣) الآية .

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أُوذِيَ خَيْرَ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ

النَّفْسِير : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم
وأفعالهم ﴿ويقولون هو أذن﴾ أي يصدق بكل خبر يسمعه ﴿قل أُوذِيَ خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي هو أذن خير لا
أذن شر ، يسمع الخير فيعمل به ، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي
يصدق الله فيما يقول ، ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿ورحمة للذين آمنوا
منكم﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾
أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بعجابه الشريف لهم عذاب موجه في الآخرة ﴿يخلفون
بالله لكم ليرضوكم﴾ أي يخلفون لكم أنهم ما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان
﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ أي والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء ، ولا يكون ذلك إلا
بالطاعة ، والمتابعة ، وتعظيم أمره عليه السلام ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ أي إن كانوا حقاً مؤمنين فليرضوا

(١) الكشف ٢/ ٢٨٤ . (٢) أسباب النزول ص ١٤٣ . (٣) زاد المسير ٣/ ٤٦٣ .

يَرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٧﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنْ أَلَّ اللَّهُ مَخْرَجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢٩﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٠﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ

الله ورسوله ﴿الم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول ، والاستفهام للتوبيخ ﴿فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾ أي فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ . أي ذلك هو الذل العظيم ، والشقاء الكبير ، المقرون بالفضيحة حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿قل استهزئوا﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿إعملوا ما شئتم﴾ ﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ أي مظهر ما تخفونه وتحذرون ظهوره من النفاق ، قال الزمخشري : كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي ، حتى قال بعضهم : والله لا أرانا إلا شر خلق الله ، ولوددت أنني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا^(١) ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب ، في حقك وفي حق الإسلام ، ليقولون لك ما كنا جادين ، وإنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس قال الطبري : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات ! فاطلع الله نبيه فاتاهم فقال : قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله : إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت^(٢) ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ أي قل هؤلاء المنافقين : أتستهزئون بدين الله وشرعه ، وكتابه ورسوله ؟ والاستفهام للتوبيخ ، ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم فقال ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي لا تعتذروا بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم ، فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الإيمان ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ أي إن نعف عن فريق منكم لتوبتهم وإخلاصهم ﴿نعذب طائفةً بأنهم كانوا مجرمين﴾ أي نعذب فريقاً آخر لأنهم أصروا على النفاق والإجرام ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي المنافقون والمنافقات صنف واحد ، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، كتشابه أجزاء الشيء الواحد قال في

فَسَيُجْزَوْنَ إِنْ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَئِكَ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ

الكشاف : وأريد بقوله ﴿بعضهم من بعض﴾ نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم ﴿ويجلفون بالله إنهم لمنكم﴾^(١) ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين فقال ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ أي يأمرسون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي يسكون أيديهم عن الانفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمنسين ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ أي الكاملون في التمرد والعصيان ، والخروج عن طاعة الرحمن ، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم﴾ أي وعد الله المنافقين والمتجاهرين بالكفر بإصلاحهم في نار جهنم ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿هي حسبهم﴾ أي هي كفايتهم في العذاب ، إذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿ولعنهم الله﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا ينقطع ﴿كالذين من قبلكم﴾ أي حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً ، وأكثر أولاداً ، ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾ أي تمتعوا بنصيبتهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبتهم منها ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه قال الطبري : المعنى سلكتهم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم ، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم ، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم^(٢) ﴿أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ أي وأولئك هم الكاملون في الخسران ﴿ألم يأتهم نباء الذين من قبلهم﴾ أي ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حل

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٧ . (٢) الطبري ١٠/ ١٧٥ .

لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٥﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِمَّنْ اللَّهُ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ

بهم من العقوبة ؟ ﴿قوم نوح وعاد وثمود﴾ أي قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان وقوم هود « عاد » الذين أهلكوا بالريح ، وقوم صالح « ثمود » الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وقوم إبراهيم﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿وأصحاب مدين﴾ قوم شعيب الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿والمؤتفكات﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بإجرامهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي ، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجمام ؟ ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم إخوان في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي يأْمُرُونَ النَّاسَ بِكُلِّ خَيْرٍ وَجَمِيلٍ يَرْضِي اللَّهَ ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ يَسْخَطُ اللَّهَ ، فَهُمْ عَلَى عَكْسِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يُؤَدُّونَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْكَامِلِ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يُعْطُونَهَا إِلَى مُسْتَحَقِّهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي سَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، وَيَفِيضُ عَلَيْهِمْ جَلَائِلُ نِعْمَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أَيْ غَالِبٌ لَا يُغْلَبُ مِنْ أَطَاعِهِ وَيَذَلُّ مِنْ عَصَاةٍ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ عَلَى أَسَاسِ الْحِكْمَةِ ، فِي النِّعْمَةِ وَالنَّقْمَةِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ وَعَدَهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِجَنَّاتٍ وَارِفَةِ الظَّلَالِ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ لَا بَشِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَزُولُ عَنْهُمْ نَعِيمُهَا وَلَا يَبِيدُ ﴿وَمَسَاكِنُ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أَيْ وَمَنَازِلُ طَيِّبٍ فِيهَا الْعَيْشُ فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ وَالْإِقَامَةِ قَالَ الْحَسَنُ : هِيَ قُصُورٌ مِنَ اللَّوْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ وَالزَّبَرَجَدِ ^(١) ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أَيْ وَشَيْءٌ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : « يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ! فَيَقُولُ : أُعْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » ^(٢) ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أَيْ ذَلِكَ هُوَ الظَّفَرُ

وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا يَنْتَلُوهَا إِلَّا أَنْ يَأْمُرَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧٥﴾ وَالْآخِرَةُ وَالْأُولَى وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾

العظيم الذي لا سعادة بعده ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال ابن عباس : جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ﴿واغلظ عليهم﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والارعاب ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مسكنهم ومثواهم جهنم ﴿وبنس المصير﴾ أي بئس المكان الذي يصار إليه جهنم ﴿يخلفون بالله ما قالوا﴾ أي يخلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وانصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال ابن سلول للأنصار : ألا تنصرون أحاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية (١) ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ هي قول ابن سلول « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قال ابن كثير : هم نفر من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً (٢) ﴿وما تقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي ما عابوا على الرسول وما له عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ، ويؤمن سعادته ، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب . . ثم دعاهم تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ أي فإن يتوبوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل ﴿وإن يتولوا﴾ أي يعرضوا ويصروا على النفاق ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً﴾ أي يعذبهم عذاباً شديداً ﴿وفي الدنيا والآخرة﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار ﴿وما لهم في الأرض من وليٍّ ولا نصير﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من العذاب ، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم الحساب .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿هو أذن﴾ أصله هو كالأذن يسمع كل ما يقال له ، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فصار تشبيهاً بليغاً مثل زيد أسد .

٢ - ﴿يؤذون رسول الله﴾ أبرز اسم الرسول ولم يأت به ضميراً ﴿يؤذونه﴾ تعظيماً لشأنه عليه السلام وجعاً له بين الرتبتين العظيمتين « النبوة والرسالة » وإضافته إليه زيادة في التكريم والتشريف (٣) .

٣ - ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب للإيذان ببعده ودرجته في الهول والفضاعة .

٤ - ﴿ويقبضون أيديهم﴾ قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود والكرم .

٥ - ﴿نسوا الله فأنسيهم﴾ من باب المشاكلة لأن الله لا ينسى أي تركوا طاعته فتركهم تعالى من رحمته .

٦ - ﴿كالذين من قبلكم﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التقريع والعتاب .

٧ - ﴿فاستمتعوا بخلاقتهم . .﴾ الآية فيه إطناب والغرض منه الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس ، عن الشيء النفيس .

٨ - ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله . .﴾ في الآية تأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول القائل « ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم » البيت .

فكائِدَة : روى ابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ وسيف لأهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . .﴾ وسيف للمنافقين ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ وسيف للبغاة ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾^(١) .

لطيفة : قال الإمام الفخر : لما وصف تعالى المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض ، ذكر بعده خمسة أمور بها يتميز المؤمن ، عن المنافق ، فالمنافق يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، ولا يقوم إلى الصلاة إلا بكسل ، ويخلل بالزكاة وسائر الواجبات ، وإذا أمر بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف ويشبط غيره ، والمؤمن بالضد منه فإنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويؤدي الصلاة على الوجه الأكمل ، ويؤتي الزكاة ، ويسارع إلى طاعة الله ورسوله ، ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين ، وصفات المنافقين بقوله ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله﴾ كما قابل في الجزاء بين نار جهنم واللجنة فكانت مقابلة لطيفة^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله . . إلى . . فهم لا يعلمون﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٣) .

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين ، وتفضح أسرارهم ، وتكشف أحوالهم ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين .

اللفت: ﴿أعقبهم﴾ قال الليث : يقال أعقبت فلاناً ندماً إذا صارت عاقبة أمره ذلك ، ويقال : أكل أكلة أعقبته سقماً أي حصل له بها السقم قال الهذلي :

أودى بنى وأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع^(١)

﴿سرههم﴾ السر : ما ينطوي عليه الصدر ﴿نجواهم﴾ النجوى : ما يكون بين شخصين أو أكثر من الحديث مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي ، كأن المتناجين منعاً إدخال غيرهما معها ﴿يلمزون﴾ يعيبون واللمز : العيب ﴿المخلفون﴾ المخلف ، المتروك الذي تخلف عن الجهاد ﴿الطول﴾ الغنى ﴿المعذرون﴾ جمع معذر كمقصر وهو الذي يعتذر بغير عذر قال الجوهري : هو الذي يعتذر بالكذب^(٢) وأصله من العذر وفي الأمثال «أعذر من أنذر» أي بالغ في العذر من تقدم إليك فأنذرك .

سَبَبُ النُّزُولِ: أ- روي أن رجلاً يسمى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : ادع الله أن يرزقني مالاً فقال : ويحك يا ثعلبة قليل تؤذي شكره ، خير من كثير ، لا تطيقه ، فقال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فلم يزل يراجع حتى دعا له ، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فتزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة ، فسأل رسول الله ﷺ عنه فأخبروه بخبره فقال : يا ويح ثعلبة ثلاثاً ، فأنزل الله ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . .﴾ الآية^(٣) فهلك في خلافة عثمان . .

ب- عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فقال يا رسول الله : أعلى عدو الله تصلي ؟ فقال : أخر عني يا عمر إني خيئت فاخترت فليل لي ﴿استغفر لهم﴾ الآية ولو أعلم أنني لو زدت على السبعين غفر له لزدت ، ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره فما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله ﴿ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً . .﴾ الآية^(٤) .

* وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَإِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

النَّفْسِيرُ : ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لئن آتانا من فضله﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ أي لنصدقن على الفقراء والمساكين ، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ﴿فلما آتاهم من فضله﴾ أي فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ﴿بخلوا به وتولوا وهم معرضون﴾ أي بخلوا

(١) الرازي ١٤٢/١٦ . (٢) القرطبي ٢٢٥/٨ . (٣) أسباب النزول ١٤٥ وهذا الذي ذكره المفسرون غير «ثعلبة بن أبي حاطب» الصحابي المشهور ، وإنما هذا رجل من المنافقين يسمى ثعلبة والله أعلم . (٤) مختصر ابن كثير ١٦١/٢ .

بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ
الْمُطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا

بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾ أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿بما أخلفوا الله ما وعده﴾ أي بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من التصديق والصلاح ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي وبسبب كذبهم في دعوى الإيمان والإحسان ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتفريع أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم ، ما يخفونه في صدورهم ، وما يتحدثون به بينهم ؟ ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس ؟ ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ أي يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم فيهمزون منهم روى الطبري عن ابن عباس قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر ، فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع فنزلت ^(١) ﴿سخر الله منهم﴾ أي جازاهم على سخريتهم وهو من باب المشاكلة ^(٢) ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب موجه ، هو عذاب الآخرة المقيم ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ أمر ومعناه الخبر أي سواء يا محمد استغفرت هؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال الزمخشري : والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير ^(٣) والمعنى مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يوفق للإيمان الخارجين عن طاعته ، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بعودهم بعد خروج الرسول ﷺ مخالفة له حين سار وأقاموا ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد إشاراً للراحة

أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وخوف إتلاف النفس والمال لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ﴿٨١﴾ وقالوا لا تنفروا في الحر ﴿٨٢﴾ أي قال بعضهم لبعض : لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر ، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة في حر شديد ، قال أبو السعود : وإنما قال ﴿٨٢﴾ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴿٨٢﴾ على قوله « وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو » إيداناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب ، وأشرف المطالب ، التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر ، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكرهية الجهاد ، ونهي الغير عن ذلك ^(١) ، قال تعالى رداً عليهم ﴿٨٢﴾ قل نار جهنم أشد حراً ﴿٨٢﴾ أي قل لهم يا محمد : نار جهنم التي تصيرون إليها بثقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من الحر المعهود ، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى ، وحر جهنم دائم لا يفتر ، فما لكم لا تحذرون نار جهنم ؟ قال الزمخشري : وهذا استجهال لهم ، لأن من تصوّن من مشقة ساعة ، فوقع بذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل ^(٢) ﴿٨٣﴾ لو كانوا يفقهون ﴿٨٣﴾ أي لو كانوا يفقهون لنفروا مع الرسول ﷺ في الحر ، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم « كالمستجير من الرمضاء بالنار » ﴿٨٤﴾ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴿٨٤﴾ أمر يراد به الخبر معناه : فسيضحكون قليلاً ، وسيكون كثيراً ، قال ابن عباس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً ^(٣) ﴿٨٥﴾ جزاءً بما كانوا يكسبون ﴿٨٥﴾ أي جزاءً لهم على ما اجتروحوا من فنون المعاصي ﴿٨٦﴾ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم ﴿٨٦﴾ أي فإن رذك الله من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تحلفوا بغير عذر ﴿٨٧﴾ فاستأذنوك للخروج ﴿٨٧﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿٨٨﴾ فقل لن تخرجوا معي أبداً ﴿٨٨﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ﴿٨٩﴾ ولن تقاتلوا معي عدواً ﴿٨٩﴾ أي لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله ، وهو خبر معناه النهي للمبالغة ، جار مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم ﴿٩٠﴾ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴿٩٠﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿٩١﴾ فاقعدوا مع الخالفين ﴿٩١﴾ أي لا تصل يا محمد على أحد من هؤلاء المنافقين إذا مات ، لأن صلاتك على أحد منهم مات أبداً ﴿٩٢﴾ أي لا تصل يا محمد على أحد من هؤلاء المنافقين إذا مات ، لأن صلاتك

وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمْ خَيْرٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ

رحمة ، وهم ليسوا أهلاً للرحمة ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ أي لا تقف على قبره للدفن ، أو للزيارة والدعاء ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرُونَ الإيمان ويطنون الكفر ﴿ وماتوا وهم فاسقون ﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان ، نزلت في ابن سلول^(١) ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿ إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا ﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿ أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله ﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدقٍ ويقين ، وجاهدوا مع الرسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ﴾ أي استأذنك في التخلف أولو الغنى والمال الكثير ﴿ وقالوا ذرنا نحن مع القاعدين ﴾ أي دعنا نحن مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر ، قال تعالى تقيحاً لهم وذمماً ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ أي ختم عليها ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة ، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ قال الرازي : لما شرح حال المنافقين ، بين حال الرسول والمؤمنين بالصد منه ، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه^(٢) والمعنى : إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا ، فقد جاهد من هو خير منهم وأخلص نية واعتقاداً ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ أي لهم منافع الدارين : النصر والغنيمة في الدنيا ، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي الفائزون بالمطلوب ﴿ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي أعد الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿ خالدين فيها ﴾ أي لا يثنى في الجنة أبداً ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم

(١) انظر سبب النزول السابق . (٢) الرازي ١٥٧/١٦ .

لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضًا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

الذي لا فوز وراءه ﴿وجاء المعتذرون من الأعراب﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعذار وتحلفوا عن الجهاد ﴿ليؤذن لهم﴾ أي في ترك الجهاد ، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة ، قال البيضاوي : هم « أسد » و « غطفان » استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال ^(١) ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان ، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا ، والنار في الآخرة ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ أي ليس على الشيوخ المسنين ، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿حرج﴾ أي إثم في القعود ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا بالناس ولم يشطوهم ، ولم يثيروا الفتن ، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل قال في التسهيل : وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله ، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم ^(٢) ، وهذا من بليغ الكلام لأن معناه : لا سبيل لعاتب عليهم ، وهو جار مجرى المثل ﴿والله غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعذار ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ نزلت في البكائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه قال البيضاوي : هم البكاءون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك ، فقال عليه السلام : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يكونون ^(٣) ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿ألا يجدوا ما ينفقون﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم ، ولم يكن عند الرسول ما يحملهم عليه ﴿إنما السبيل

على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ﴿ أي إنما الإثم والخرج على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴾ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴿ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴾ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴿ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ يعلم . . وعلام الغيوب ﴾ بين يعلم وعلام جناس الاشتقاق .

٢ - ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ التنوين في عذاب للتهويل والتفخيم .

٣ - ﴿ استغفر لهم أو لا نستغفر لهم ﴾ بينهما طباق السلب ، وقد خرج الأمر عن حقيقته إلى التسوية .

٤ - ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٥ - ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ الخوالف : النساء المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال ففيه استعارة ، وإنما سمي النساء خوالف تشبيهاً لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبهن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت ^(١) .

٦ - ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ هو من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم أفاده الألوسي ^(٢) .

فَكَايِدُهُ : قال الزمخشري عند قوله تعالى ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ لفظ السبعين جار مجرى المثل في كلام العرب للتكثير قال علي بن أبي طالب :

لأصبحن العاص وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي

فذكرها ليس لتحديد العدد ، وإنما هو للمبالغة جرياً على أساليب العرب ^(٣) .

تَنْبِيْهُ : إنما منع ﷺ من الصلاة على المنافقين ، لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له ، والكافر ليس بأهل لذلك .

لطيفة : اشتهر « حذيفة بن اليمان » بأنه صاحب سر الرسول ﷺ وقد قال له ﷺ : إني مسرٌ إليك سرّاً فلا تذكره لأحد ، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان ، لرهط ذوي عدد من المنافقين ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يأتيه فيقول : أسألك بالله هل عدّني رسول الله من المنافقين ؟ !

قال الله تعالى : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتם إليهم قل لا تعتذروا لنؤمن لكم . . . إلى . . . والله عليم حكيم﴾
من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن المنافقين ، الذين تخلفوا عن الجهاد وجاءوا يؤكدون تلك الأعذار بالآيمان الكاذبة ، وقد ذكر تعالى من مكائد المنافقين «مسجد الضرار» الذي بنوه ليكون وكراً للتأمر على الإسلام والمسلمين ، وحذر نبيه ﷺ من الصلاة فيه ، لأنه لم يشيد على أساس من التقوى ، وإنما بني ليكون مركزاً لأهل الشقاق والنفاق ، ولتفريق وحدة المسلمين ، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار .

اللفظة : ﴿انقلبتم﴾ رجعتم ﴿رجس﴾ الرجس : الشيء الخبيث المستقذر ، وقد يطلق على النجس ﴿ومأواهم﴾ قال الجوهري : المأوى كل مكان يأوي إليه ليلاً أو نهاراً ﴿الأعراب﴾ جمع أعرابي قال أهل اللغة : يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب ، ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ ، سواء كان من العرب أو من مواليهم ، فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ، ومن نزل البادية فهم أعراب^(١) ﴿أجدر﴾ أولى وأحق ﴿مغرم﴾ المغرم : الغرم والخسران وأصله من الغرام وهو لزوم الشيء^(٢) ﴿مردوا﴾ ثبتوا واستمروا وأصل الكلمة من اللين والملازمة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق ، ومنه رملة مرداء لا نبت فيها ، وغصن أمرد لا ورق عليه ، وغلام أمرد لا حية له ﴿مرجون﴾ الإرجاء : التأخير يقال : أرجأته أي أخرته ومنه المرجئة لأنهم أخرؤا العمل ﴿ضرار﴾ الضرار : محاولة الضر وفي الحديث (لا ضرر ولا ضرار)^(٣) ﴿إرصداً﴾ الإرصاء : الترقب والانتظار يقال أرصدت له كذا إذا أعددت له مرتقباً له به ﴿شفا﴾ الشفا : الخرف والشفير ومنه أشفى على كذا إذا دنا منه ﴿جُرف﴾ : ما تجرفه السيول من الأودية ويبقى على الأطراف طين مشرف على السقوط وأصله من الجرف وهو اقتلاع الشيء من أصله ﴿هار﴾ ساقط يقال : تهور البناء إذا سقط وأصله هائر .

سبب النزول : روي أن «أبا عامر الراهب»^(٤) قد تنصر في الجاهلية وترهب ، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه ذهب رياسته وقال : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم - وسماه النبي ﷺ أبا عامر الفاسق - فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً فإنني ذاهب إلى قيصر فأتي بجند الروم فأخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء ، وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا بنينا مسجداً لذي العلة ، والحاجة ، والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فدعا بثوبه ليلبسه فيأتيهم فنزل عليه القرآن ، وأخبر الله رسوله خبر مسجد الضرار وما هموا به ، فدعا ﷺ بعض الصحابة وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله واحرقوه ، فذهبوا إليه فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله ، وفيه نزلت ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً . . .﴾^(٥) الآية .

(١) الرازي ١٦ / ١٦٥ . (٢) القرطبي ٨ / ٢٣٤ . (٣) رواه الدارقطني .

(٤) هو والد حنظلة الذي غسلته الملائكة . (٥) أسباب النزول ١٤٩ .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَزِيدُونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا
أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾
يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ
كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ

التفسير : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم ﴿قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما في ضمائركم من الخبث والنفاق ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أي وسيرى الله ورسوله عملكم فيما بعد ، أتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ﴿ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي ثم ترجعون بعد مما تكم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية ، ولا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها ، ويجازيكم عليها الجزاء العادل ﴿سيحلفون بالله لكم﴾ أي سيحلف لكم بالله هؤلاء المنافقون ﴿إذا انقلبتم إليهم﴾ أي إذا رجعتم إليهم من تبوك معتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿لتعرضوا عنهم﴾ أي لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقت واجتناب ، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق قال ابن عباس : يريد ترك الكلام والسلام ^(١) ثم ذكر تعالى العلة فقال : ﴿إنهم رجس﴾ أي لأنهم كالقذر لخبث باطنهم ﴿ومآواهم جهنم﴾ أي مصيرهم إلى جهنم هي مسكنهم ومآواهم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي جزاء لهم على نفاقهم في الدنيا ، وما اكتسبوه من الآثام ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة ، أي يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي فإن رضيتهم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم قال أبو السعود : ووضع الفاسقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة ^(٢) ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ الأعراب - أهل البدو - أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر ، لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح ﴿وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ أي وهم أولى بألا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع قال في البحر : وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً

مَنْ يَتَّخِذْ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصْ بِكُمُ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ ذَايَرَةُ السَّوَاءِ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَىٰ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَىٰ لَهُمْ ۖ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ

لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ، فقد نشأوا كما شاءوا ، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله ، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة ^(١) ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بخلقهم حكيم في صنعه ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا﴾ أي ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يعد ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً ، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجوله ثواباً ﴿ويتربص بكم الدواب﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ومن الأعراب من يصدق بوحداية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبه ﴿وصلوات الرسول﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ ﴿ألا﴾ أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقر بهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة ، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة ^(٢) ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة ، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وعد بالغفران والرضوان أي رضي الله عنهم وأرضاهم ، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون ، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم قال الطبري : رضي الله عنهم لطاعتهم إياه وإجابتهم نبيه ، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والإيمان ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين فيها من غير انتهاء ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه قال في البحر : لما بين تعالى فضائل الأعراب المؤمنين ، بين حال هؤلاء السابقين ، ولكن

(١) البحر المحيط . (٢) روي عن الشعبي أنهم الذين بايعوا بيعة الرضوان وقيل : هم الذين صلوا إلى القبلتين وما ذكرناه أنهم جميع الصحابة وهم السابقون في الهجرة والنصرة هو ما رجحه الطبري واختاره الفخر الرازي .

الْعَظِيمِ ﴿١٠٠﴾ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

شتان ما بين الشائين فهناك قال ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ وهنا قال ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ وهناك ختم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وهنا ختم ﴿ذلك الفوز العظيم﴾^(١) ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون﴾ أي ومن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب منازلهم قريبة من منازلكم ﴿ومن أهل المدينة﴾ أي ومن أهل المدينة منافقون أيضاً ﴿مردوا على النفاق﴾ أي لجوا في النفاق واستمروا عليه قال ابن عباس : مرنا عليه وثبتوا منهم ابن سلول ، والجلاس ، وأبو عامر الراهب^(٢) ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين ، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم ﴿سنعذبهم مرتين﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وعند الموت بعذاب القبر ﴿ثم يُردون إلى عذاب عظيم﴾ أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار ، الذي أعده الله للكفار والفجار ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة قال الرازي^(٣) : هم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم ، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيء وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ أي لعل الله يتوب عليهم قال الطبري : وعسى من الله واجب ومعناه : سيتوب الله عليهم ، ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي على ما وصفت^(٤) ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي ذو عفو لمن تاب ، عظيم الرحمة لمن أناب ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار ، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ أي وادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم قال ابن عباس : ﴿سكن لهم﴾ رحمة لهم ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لقولهم عليهم بنياتهم ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ الاستفهام للتقرير أي ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ، ﴿ويأخذ الصدقات﴾ أي

وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُتْرُدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ

يتقبلها من أخلص النية ﴿وأن الله هو الثواب الرحيم﴾ أي وأن الله وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة ، لقوله ﴿غافر الذنب قابل التوب﴾ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله ، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي وستردون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ أي وآخرون من المتخلفين مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فيهم قال ابن عباس : هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار ، وكانوا من أصحاب بدر ، فنهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى (١) إلى أن يتجاوز عن سيئاتهم ، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي إما أن يعذبهم إن لم يتوبوا ، وإما أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم ، وهؤلاء الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراباً﴾ أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجماع حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر ، وسموه مسجداً مضاراً للمؤمنين (٢) ، وقد اشتهر باسم «مسجد الضرار» ﴿وكفراً﴾ أي نصرة للكفر الذي يخفونه ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين ، ويصرفونهم عن مسجد قباء ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ أي ترقباً وانتظاراً لقدوم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له قال الطبري في رواية الضحاك : هم ناس من المنافقين بنوا مسجداً بقباء يضارون به نبي الله والمسلمين وكانوا يقولون : إذا رجع أبو عامر صلى فيه ، وإذا قدم ظهر على محمد وتغلب عليه (٣) ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي وليقسمن ما أردنا ببناؤه إلا الخير والإحسان ، من الرفق بالمسكين ، والتوسعة على المصلين ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف ، وأتى بأن واللام لزيادة التأكيد ، ثم نهى تعالى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿ولا

(١) أبو السعود ٢/ ٢٩٥ . (٢) انظر سبب النزول . (٣) الطبري ١١/ ٢٥ .

يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ
أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾
لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

تقم فيه أبداً ﴿١﴾ أي لا تصل فيه يا محمد أبداً لأنه لم يُنَّ إِلَّا ليكون معقلاً لأهل النفاق ﴿٢﴾ لمسجد أسس على التقوى ﴿٣﴾ اللام لام القسم أي لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته ﴿٤﴾ من أول يوم ابتدىء في بنائه ﴿٥﴾ أحق أن تقوم فيه ﴿٦﴾ أي أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار ﴿٧﴾ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴿٨﴾ أي في هذا المسجد رجال أتقياء - وهم الأنصار - يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي ﴿٩﴾ والله يحب المطهرين ﴿١٠﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة ، ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار فقال : ﴿١١﴾ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ﴿١٢﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى : هل من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلب لمرضاته بالطاعة ﴿١٣﴾ خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ﴿١٤﴾ أي هل ذاك خير أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط ؟ ﴿١٥﴾ فانهار به في نار جهنم ﴿١٦﴾ أي فسقط به البناء في نار جهنم ﴿١٧﴾ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١٨﴾ أي لا يوفق الظالمين إلى السداد ، ولا يهديهم سبيل الرشاد ، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص ، والإيمان ، وعمل أهل النفاق والضلال ، والمعنى هل من أسس بنيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط ؟ ﴿١٩﴾ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم ﴿٢٠﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شك ونفاق ، وغيظ وارتياح بسبب هدمه ، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين ، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والتن والقمامة فيه إهانة لأهله ، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم ﴿٢١﴾ إلا أن تقطع قلوبهم ﴿٢٢﴾ أي لا يزالون في ارتياح وغيظ إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿٢٣﴾ والله عليم حكيم ﴿٢٤﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين ، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿الغيب والشهادة﴾ بين الكلمتين طباق .

٢ - ﴿لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ الإظهار في موضع الإضمار لزيادة التشنيع والتقبيح وأصله لا يرضى عنهم .

٣ - ﴿سيدخلهم في رحمته﴾ فيه مجاز مرسل أي يدخلهم في جنته التي هي محل الرحمة وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل .

٤ - ﴿عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ بين ﴿صالحاً وسيئاً﴾ طباق .

٥ - ﴿إِنْ صَلَاتِكَ سَكَنَ لَهُمْ﴾ فيه تشبيه بليغ حيث جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٦ - ﴿هَارٍ فَاَنْهَارٍ﴾ بينهما جناس ناقص وهو من المحسنات البديعية .

٧ - ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بَنِيَانَهُ عَلَى تَقْوَى﴾ في الكلام استعارة مكنية حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يعتمد عليها البنيان وطوي ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو التأسيس^(١) .

تنبيه : كلمة « عسى » من الله واجب قال الإمام الرازي : وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام ، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً فإنه لا يجيبه إلا على سبيل الترجي مع كلمة « عسى » أو « لعل » تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمه بشيء ، بل كل ما يفعله فإنما هو على سبيل التفضل والتطول ، وفيه فائدة أخرى وهو أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الإتكال والإهمال^(٢) .

لطيفة : روى الأعمش أن أعرابياً جلس إلى « زيد بن صوحان » - وهو يحدث أصحابه - وكانت يده أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريني ! فقال زيد : ما يريك من يدي إنها الشمال ، فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد : صدق الله ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . .﴾ الآية ، معنى تريني أي تدخل إلى قلبي الشك هل قطعت في سرقة وهذا من جهل الأعرابي^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ . . إلى . . وهو رب العرش العظيم﴾ من آية (١١١) إلى آية (١٢٩) نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى أحوال المنافقين ، المتخلفين عن الجهاد ، المبطلين عنه ، ذكر صفات المؤمنين المجاهدين ، الذين باعوا أنفسهم لله . . ثم ذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وتوبة الله عليهم ، وختم السورة بتذكير المؤمنين بالنعمة العظمى ، ببعثة السراج المنير ، النبي العربي ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

اللغة : ﴿أَوَاهٍ﴾ كثير التأوه ومعناه الخاشع المتضرع ، يقال : تأوه الرجل تأوهاً إذا توجع قال الشاعر :

إذا ما قمت أرحلها بليلٍ تأوه أهة الرجل الحزين^(٤)

(١) انظر ما كتبه الشريف الرضي في تلخيص البيان حول هذه الآية الكريمة ص ١٤٩ ففيه روائع البيان . (٢) الرازي ١٧٦ / ١٦ .

(٣) محاسن التأويل ٣٢٣٩ / ٨ . (٤) البحر ٨٨ / ٥ .

﴿حليم﴾ الحليم : الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنب ويصبر على الأذى ﴿العسرة﴾ الشدة وصعوبة الأمر وتسمى غزوة تبوك « غزوة العسرة » لما فيها من المشقة والشدة ﴿يزيغ﴾ الزيغ : الميل : يقال زاغ قلبه إذا مال عن الهدى والإيمان ﴿ظماً﴾ الظماً : شدة العطش ﴿نصب﴾ النصب : الإعياء والتعب ﴿مخمصة﴾ مخمصة شديدة يظهر بها ضمور البطن ﴿ينالون﴾ يصيبون ، نال الشيء إذا أدركه وأصابه ﴿غلظة﴾ غلظة شدة وقوة وحمة ﴿عزيز﴾ صعب وشاق ﴿عنتم﴾ العنت : الشدة والمشقة .

سَبَبُ النُّزُول : أ - لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة - وكانوا سبعين رجلاً - قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع لا نقيـل ولا نستقيـل فنزلت ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . .﴾^(١) الآية .

ب - لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أي عم قل « لا إله إلا الله » كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وابن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول « لا إله إلا الله » فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله عز وجل ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين . .﴾ ونزلت ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾^(٢) .

* **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ بِالْجَنَّةِ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي**

النَّفْسِ: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين ، مثل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء قال الحسن : بايعهم فأغلى لهم الثمن^(٣) وانظروا إلى كرم الله ، أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها ، ثم وهبها لهم ، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم : ناهيك عن بيع البائع فيه المؤمن ، والمشتري فيه رب العزة والثمن فيه الجنة ، والصك فيه الكتب السماوية ، والواسطة فيه محمد عليه الصلاة والسلام ﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿فيقتلون ويقتلون﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم ، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿وعداً عليه حقاً﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن »

بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَبِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري : لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق ، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح ؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ ^(١) ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾ أي أبشروا بذلك البيع الرابع وافرحوا به غاية الفرح ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ﴿التائبون العابدون الحامدون﴾ كلام مستأنف قال الزجاج : مبتدأ خبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ والمعنى التائبون عن المعاصي ، العابدون أي المخلصون في العبادة ، الحامدون لله في السراء والضراء ﴿السائحون﴾ أي السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم ، من السياحة وهي السير والذهاب في المدن والفقر للعظة والاعتبار ^(٢) ﴿الراكعون الساجدون﴾ أي المصلون ﴿الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر﴾ أي الداعون إلى الله ، يدعون الناس إلى الرشd والهدى ، وينهونهم عن الفساد والردى ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أي المحافظون على فرائض الله ، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام قال الطبري : أي المؤدون فرائض الله ، المنتهون إلى أمره ونهيه ^(٣) ﴿وبشّر المؤمنين﴾ أي بشرهم بجنات النعيم ، وحذف المشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر ، بل لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ أي لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ أي ولو كان المشركون أقرباء لهم ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ أي من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر ، والآية نزلت في أبي طالب ^(٤) ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ أي إلا من أجل وعد تقدم له بقوله ﴿سأستغفر لك ربي﴾ وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ أي فلما تبين لإبراهيم أن أباه مصرّ على الكفر ومستمر على

(١) الكشف ٣١٤/٢ .

(٢) فسر بعضهم « السائحون » بأنهم الصائمون وقال عطاء : هم الغزاة وقال ابن زيد : هم المهاجرون وما ذهبنا إليه هو ما رجحه الفخر الرازي وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه « فسيحوا في الأرض » والله أعلم . (٣) الطبري ٣٩/١١ . (٤) انظر سبب النزول .

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ

الكفر ، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له ، ثم بيّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه فقال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي كثير التآوه من فرط الرحمة ورقة القلب ﴿حَلِيمٌ﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿لئن لم تنته لأرجنك﴾ فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك قال أبو حيان : ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يقتدى به بيّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه ، وهو الوعد الذي كان وعده به ، فكان يرجو إيمانه فلما تبين له من جهة الوحي أنه عدو لله ، وأنه يموت كافراً ، وانقطع رجاءه منه تبرأ منه وقطع استغفاره^(١) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين ، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم^(٢) أي ما كان الله ليقضي على قوم بالضللال ﴿بعد إذ هداهم﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ أي حتى يبين لهم ما يجتنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية ، ومن يستحق الإضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له سلطان السموات والأرض وملكها ، وكل من فيها عبيده ومماليكه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي بيده وحده حياتهم وموتهم ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مَن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجأون إليه أو تعتمدون عليه قال الألوسي : لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولى قربي ، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم ، بين لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود ، ومتولي أمره ، والغالب عليه ، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى ، ليتوجهوا إليه بكليتهم ، متبرئين عما سواه ، غير قاصدين إلا إياه^(٣) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي تاب الله على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف ، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض الهفوات في غزوة تبوك ، حيث تباطأ بعضهم ، وتناقل عن الجهاد آخرون ، والغرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنبأوا ، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم ، وصدّرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنوياً لشأنهم ، وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرون والأنصار^(٤) ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر ، وقلة الزاد ، والضيق الشديد روى الطبري عن عمر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى إن الرجل لينحر

(١) البحر المحيط ١٠٥/٥ . (٢) التسهيل ٨٦/٢ . (٣) روح المعاني ٣٩/١١ . (٤) انظر الكشف ٣١٦/٢ .

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا

البعير فيعصر فرثه فيشربه ، فقال أبو بكر يا رسول الله : إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، قال : تحب ذلك ؟ قال : نعم فرفع يديه فلم يرجعها حتى سكبت السماء فملاًوا ما معهم ، فرجعنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر ^(١) ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب ، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ أي لطيف رحيم بال مؤمنين ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِفُوا﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو ، وهم « كعب ، وهلال ، ومرة » ^(٢) ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهم ، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وذلك بسبب أن الرسول عليه السلام دعا لمقاطعتهم ، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه ، وهجرتهم نساؤهم وأهلهم وأهملوهم حتى تاب الله عليهم ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه ، إلا بالرجوع والإجابة إليه سبحانه ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة ، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾ أي المبالغ في قبول التوبة وإن كثرت الجنايات وعظمت ، المتفضل على العباد بالرحمة الشاملة ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وكونوا مع أهل الصدق واليقين ، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السلام ، بل عليهم أن يفدوه بالمُهَج والأرواح ، وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب قال الزخشي : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه ، لا أن يضمنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهى بليغ ، وتهيج لمتابعته عليه السلام ^(٣) ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب أنهم لا يصيبهم عطش ﴿ولا نصب﴾ أي ولا تعب

(١) الطبري ٥٥/١١ . (٢) انظر قصتهم في صحيح البخاري كتاب المغازي وفي الطبري ٥٨/١١ . (٣) الكشف ٣٢١/٢ .

نَصَبٌ وَلَا مَحْصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ * وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا

﴿ولا محصية﴾ أي ولا مجاعة ﴿في سبيل الله﴾ أي في طريق الجهاد ﴿ولا يطأون موطئاً﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿يغيظ الكفار﴾ أي يغضب الكفار وطؤها ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسر أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ أي إلا كان ذلك قرينة لهم عند الله ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ قال ابن عباس : تمرة فما فوقها ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً ﴿إلا كتب لهم﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم قال الألوسي : على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاءً أحسن ، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء^(١) ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو^(٢) بحيث تخلو منهم البلاد ، روي عن ابن عباس أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً ، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية^(٣) ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ أي فإذا لم يمكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، لعلهم يخافون عقاب الله بامتنال أوامره واجتناب نواهيه قال الألوسي : وكان الظاهر أن يقال ﴿ليعلموا﴾ بدل ﴿لينذروا﴾ و﴿يفقهون﴾ بدل ﴿يحذرون﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم : الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم : اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار^(٤) ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أي قاتلوا القريبين منكم وطهروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا إلى غيرهم ، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح ، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى

(١) روح المعاني ٤٧/١١ . (٢) وقيل : المراد أن ينفروا لطلب العلم . (٣) الرازي ١٦ / ٢٢٥ . (٤) روح المعاني ٤٨/١١ .

مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَمْرٍاءَ أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

الأبعد فالأبعد ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿واعلموا ان الله مع المتقين﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ أي من سور القرآن ﴿فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ أي فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاء : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ على وجه الاستخفاف بالقرآن كأنهم يقولون : أي عجب في هذا وأي دليل في هذا ؟ يقول تعالى ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ أي فأما المؤمنون فزادتهم تصديقاً وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة ﴿وهم يستبشرون﴾ أي وهم يفرحون لنزولها لأنه كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا إيماناً ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم ، فازدادوا رجساً وضلالاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ أي ماتوا على الكفر ﴿أولا يرون أنهم يُفْتَنُونَ في كل عام مرة أو مرتين﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أولاً يرى هؤلاء المنافقون الذين تُفْضَح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي ؟ ﴿ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ أي ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾ أي وإذا أنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لنصرف ، فإننا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا ﴿صرف الله قلوبهم﴾ جملة دعائية أي صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون فهم حقى غافلون ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر ، من جنسكم عربي قرشي ، يُبَلِّغُكُمْ رسالة الله ﴿عزیز علیہ ما عنتم﴾ أي يشق عليه عنتكم وهو المشقة ولقاء المكروه ﴿حريص عليكم﴾ أي حريص على هدايتكم ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ أي رءوف بالمؤمنين رحيم بالمذنبين ، شديد الشفقة والرحمة عليهم قال ابن عباس : سماه باسمين من أسماؤه ^(١) ﴿فإن تولوا فقل حسبى الله﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بك يا محمد فقل يكفيني ربي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود سواه ﴿عليه توكلت﴾ أي عليه اعتمدت فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء ، لكونه أعظم الأشياء ؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿إِنْ لِلَّهِ اشْتَرَى﴾ استعارة تبعية شبه بذلهم الأموال والأنفس وإثابتهم عليها بالجنة بالبيع والشراء .

٢ - ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فيه جناس ناقص لاختلافهما في الشكل وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ يعني المصلون فيه مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)^(١)

٤ - ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بهم وتكريمهم .

٥ - ﴿مَوْعِدَةٌ وَعْدُهَا﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - ﴿لِيُضِلَّ . . . إِذْ هَدَاهُمْ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يُحْيِي . . . وَيَمِيتُ﴾ وكذلك ﴿ضَاقَتْ . . .

وَرَحِبَتْ﴾ .

٧ - ﴿التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة .

٨ - ﴿يَطَّأُونَ مَوْطِئًا﴾ جناس الاشتقاق وكذلك ﴿يَنَالُونَ نِيْلًا﴾ .

٩ - ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ طباق .

١٠ - ﴿فَزَادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ قال في تلخيص البيان : السورة لا تزيد الأرجاس رجساً ، ولا القلوب مرضاً ، بل هي شفاء للصدور وجلاء للقلوب ، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمىً ، حسن أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة .

تَنْبِيْهُ : روي أن أبا خيثمة الأنصاري رضي الله عنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ! ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح فنظر رسول الله ﷺ خلفه فإذا براكب وراء السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ! فكان وفرح به رسول الله ﷺ واستغفر له .

تم تفسير سورة التوبة ولله الحمد في البدء والختام



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة يونس من السور المكية التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالكتب ، والرسول ، والبعث والجزاء » وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية ، وبوجه أخص إلى « القرآن العظيم » خاتمة الكتب المنزلة ، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور .

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول ، وبيّنت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين ، فما من أمة إلا بعث الله إليها رسولا ، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ . . ﴾ ؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة « الألوهية » و « العبودية » وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرفت الناس برهم الحق الذي ينبغي أن يعبدوه ، وأن يُسلموا وجوههم إليه ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المدبر الحكيم ، وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴾ الآيات .

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة ، الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرد المعجز ، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة ، وأمراء البيان ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

* وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق ، بذكر آثار قدرته ورحمته ، الدالة على التدبير الحكيم ، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة ، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ . . ﴾ الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الإيمان بوحداية الله جل وعلا ، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية .

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله « يونس » - الذي سميت السورة باسمه - وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله ، والصبر على ما يلقي من الأذى في سبيل الله ﴿وَاتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ .

التسمية : سميت السورة « سورة يونس » لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خص الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْأَرْثُكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾

اللفظ : ﴿قدم صدق﴾ قال الليث : القدم السابقة قال ذو الرمة :

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة لهم قدمٌ معروفةٌ ومفاخر^(١)
وقال أبو عبيدة : كل سابق في خير أو شر فهو قدم وقال الأخفش : سابقة إخلاص ﴿يدبر﴾ التدبير : القضاء والتقدير على حسب الحكمة ﴿القسط﴾ العدل ﴿حميم﴾ الحميم : الماء الحار الذي سخن بالنار حتى انتهى حره ﴿يفصل﴾ التفصيل : التبيين والتوضيح ﴿مأواهم﴾ مثواهم ومقامهم ﴿طغيانهم﴾ الطغيان : العلو والارتفاع ﴿يعمّهون﴾ يتحيرون ﴿خلائف﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شئونه .

سبب النزول : قال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، أما وجد الله من يرسله إلا يتيماً أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس . .﴾^(٢) الآية .

التفسير : ﴿الر﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز ، مكوّن من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم ، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم ، وهي في تناول أيديهم ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه^(٣) ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين الذي لا يدخله شك ، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إيحائنا إلى رجلٍ منهم هو محمد عليه السلام ؟ والهمزة للإنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله ﴿أن أنذر الناس﴾ أي أوحينا إليه بأن خوف الكفار عذاب النار ﴿وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدام صدق عند ربهم﴾ أي وأن بشّر المؤمنين بأن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال ﴿قال الكافرون إن هذا

(١) التفسير الكبير للرازي ١٧/ ٧ . (٢) القرطبي ٨/ ٣٠٦ . (٣) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة .

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا لِسَاحِرٍ مَبِينٍ ﴿٢٢﴾ أَيُّ مَعَ وَضُوحٍ صَدَقَ الرِّسُولُ ﷺ وَإِعْجَازَ الْقُرْآنِ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَسَاحِرٌ ظَاهِرُ السَّحَرِ، مَبْطُلٌ فِيمَا يَدَّعِيهِ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ: وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة، معجزة إياهم عن المعارضة، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما جاء به خارجٌ عن طوق البشر^(١) ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن ربكم ومالك أمركم الذي ينبغي أن تفردوه بالعبادة هو الذي خلق الكائنات في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقهن في لمحة ولكنه أراد تعليم العباد التآني والتثبت في الأمور ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تكيف، ولا تشبيه، ولا تعطيل قال ابن كثير: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل، والمتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، فقد سلك سبيل الهدى^(٢) وقال أبو السعود: العرش هو الجسم المحيط بسائر الأجسام، سُيِّي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير الملك، والاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف^(٣) ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ﴾ أي يدبّر أمر الخلائق على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة قال ابن عباس: لا يشغله في تدبير خلقه أحد ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ أي لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له في الشفاعة، وفي هذا ردٌّ على المشركين في زعمهم أن الأصنام تشفع لهم ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي ذلکم العظیم الشأن هو ربکم وخالقکم لا رب سواه، فوحدوه بالعبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتعظون وتعتبرون؟ تعلمون أنه المتفرد بالخلق ثم تعبدون معه غيره ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إلى ربكم مرجعكم أيها الناس يوم القيامة جميعاً ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي وعداً من الله لا يتبدل، وفيه ردٌّ على منكري البعث حيث قالوا ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي كما ابتدأ الخلق كذلك يعيده ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي ليجزي المؤمنين بالعدل، ويوفيهم أجورهم بالجزاء الأوفى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي والذين جحدوا بالله وكذبوا رسله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي لهم في جهنم شراب من حميم، بالغ النهاية في الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي ولهم عذاب موجه بسبب

(١) البضاوي ٢٣٥ . (٢) المختصر ٢٥٠/٢ وانظر توضيح المسألة في أول سورة الأعراف من هذا الكتاب . (٣) أبو السعود ٣٠٧/٢ .

عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَلْيَلٍ
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنَوْا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٣﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٤﴾ دَعَوْهُمْ

كفرهم وإشراكهم قال البيضاوي : والآية كالتعليل لما سبق فإنه لما كان المقصود من البدء والإعادة مجازاة
المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة ^(١) ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء﴾ الآية للتنبيه
على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج
﴿والقمر نوراً﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد ، ولما كانت الشمس أعظم جرماً
خُصَّتْ بالضياء ، لأنه هو الذي له سطوع ولمعان قال الطبري : المعنى أضواء الشمس وأنار القمر ^(٢)
﴿وقدّره منازل﴾ أي قدّر سيره في منازل وهي البروج ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أي لتعلموا
أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام ﴿ما خلق
الله ذلك إلا بالحق﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة ، وفائدة جلية ﴿يفصل الآيات
لقوم يعلمون﴾ أي يبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ، ويتدبرون حكمته قال أبو
السعود : أي يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا ^(٣) ﴿إنَّ
في اختلاف الليل والنهار﴾ أي في تعاقبها يأتي الليل فيذهب النهار ، ويأتي النهار فيذهب الليل
﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ أي وما أوجد فيها من أصناف المصنوعات ﴿لآيات لقوم
يتقون﴾ أي لآيات عظيمة وبراهين جلية ، على وجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ، لقوم
يتقون الله ويخافون عذابه ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر
ببالهم ، فقد أعمتتهم الشهوات عن التصديق بما بعد الممات ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ أي رضوا بالدنيا عوضاً
من الآخرة ، وآثروا الخسيس على النفيس ﴿واطمأنوا بها﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها ﴿والذين هم
عن آياتنا غافلون﴾ أي وهم عن الأدلة المنبئة في صحائف الأكوان غافلون ، لا يعتبرون فيها ولا
يتفكرون ﴿أولئك ماواههم النار﴾ أي مثواهم ومقامهم النار ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي بسبب
كفرهم وإجرامهم ، وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء أردفه بذكر حال السعداء فقال ﴿إن الذين آمنوا
وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي يهديهم إلى طريق الجنة بسبب إيمانهم ﴿تجري من
تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرّتهم وهم
مقيمون في جنات النعيم ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللهم وفي

فِيهَا سُبْحَنكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ * وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ۚ فَنذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ۚ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ

الحديث (يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النفس) أي كلامهم في الجنة تسبيح الله ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ أي وتحية بعضهم بعضاً سلاماً عليكم كما تحييتهم بذلك الملائكة ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلاماً عليكم﴾ ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أي وآخر دعائهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين ﴿ولو يُعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾ قال مجاهد : هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب ، اللهم أهلكه ، اللهم لا تبارك فيه قال الطبري : المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر وفيما عليهم فيه مضرة ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعو به ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ أي هلكوا وعُجل لهم الموت ^(١) ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي فترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ أي في تمردهم وعتوهم يترددون تحيراً والمعنى : نترك المجرمين ونمهلهم ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة ﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الضر من مرض أو فقر أو نحو ذلك ﴿دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ أي دعانا في جميع الحالات : مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً لكشف ذلك الضر عنه ﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه﴾ أي فلما أزلنا ما به من ضر استمر على عصيانه ، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه ، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الضر ، ويغفل عنه عند العافية ﴿كذلك زين للمُسرفين ما كانوا يعملون﴾ أي كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء ، كذلك زين للمُسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام ، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ، ومتابعة الشهوات ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادوا في الغي والضلال ﴿وجاءتهم رسالهم بالبينات﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شيثان : ظلمهم ، وعدم إيمانهم ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك - نجزي كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم

(١) الطبري ٩١/١١ وقال بعض المفسرين : نزلت في كفار مكة حيث قالوا ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ قال الزمخشري : يعني : لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيهم إليه لأميتوا وأهلكوا . هـ . الكشف ٣٣٢/٢ .

مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا نُسِئَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي ۚ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِيَّايَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ أَيُّ ثَمِ اسْتَخْلَفْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ يَا أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ أَوْلَئِكَ الْقُرُونِ ، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿١٨﴾ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ أي لِنَنْظُرَ أَتَعْمَلُونَ خَيْرًا أَمْ شَرًّا فَنجازيكم على حسب عملكم قال القرطبي : والمعنى : يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل (١) وقال في التسهيل : معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة (٢) والغرض أن الله تعالى عالمٌ بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يختبرهم ليتبين في الوجود ما علمه تعالى أولاً ﴿٢٠﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴿٢١﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، حال كونها واضحات لا لبس فيها ولا إشكال ﴿٢٢﴾ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴿٢٣﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب ، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿٢٤﴾ آتت بقرآنٍ غير هذا ﴿٢٥﴾ أي آتت يا محمد بكتابٍ آخر غير هذا القرآن ، ليس فيه ما نكرهه من عيب آهتنا ، وتسفيه أحلامنا ، ﴿٢٦﴾ أو بدّلناه ﴿٢٧﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان سب آهتنا مدحهم ، ومكان الحرام حلالاً ، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية قال ابن عباس : نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا يا محمد : آتينا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك (٣) ﴿٢٨﴾ قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي ﴿٢٩﴾ أي قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغير أو أبدل شيئاً من قبل نفسي ﴿٣٠﴾ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴿٣١﴾ أي لا أتبع إلا ما يوحى إليّ ربي ، فأنا عبد مأمور ، ورسولٌ مبلّغ ، أبلغكم رسالة الله ﴿٣٢﴾ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٣﴾ أي إِنِّي أَخْشَىٰ إِنْ خَالَفت أمره ، وبدلتُ وحيه ، عذاب يومٍ شديد الهول هو يوم القيامة ، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿٣٤﴾ قل لو شاء الله ما تلوّثه عليكم ﴿٣٥﴾ أي قل لهم يا محمد لو شاء الله ما تلوّث هذا القرآن عليكم ، وما تلوّثه إلا بمشيئته تعالى ، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿٣٦﴾ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴿٣٧﴾ أي وَلَا أَعْلَمُكُمْ بِهِ عَلَى لِسَانِي ﴿٣٨﴾ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ﴿٣٩﴾ أي فَقَدْ مَكثْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ زَمَانًا طَوِيلًا ، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوّه عليكم ﴿٤٠﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤١﴾ أي أَفَلَا تَسْتَعْمَلُونَ عقولكم بالتدبر والتفكير لتعلموا أن مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلا من عند الله ؟ قال الإمام الفخر : إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالِمِينَ بأحواله ، وأنه ما طالع كتاباً ، ولا تتلمذ لأستاذ ، ولا تعلّم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم ، المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الاخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء ،

الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

والفصحاء ، والبلغاء ، وكل من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل^(١) ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ استفهام انكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف ﷺ حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿أو كذب بآياته﴾ أي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿إنه لا يفلح المجرمون﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجمام وكذب الرسل الكرام ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ بيان لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفع أو دفع ضرر ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ ؟ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين أتخبرون الله تعالى بشريك أو شفيع كائن في السموات أو الأرض لا يعلمه جل وعلا ، وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات ؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون ، وينسبه إليه المشركون ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلَفوا﴾ أي وما كان الناس إلا على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلَفوا في دينهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعُبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين^(٢) ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لُقِضَ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي لعُجل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أي ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون هلاً أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مبلغ ﴿فانتظروا إنني معكم من المنتظرين﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فأنا ممن ينتظر ذلك .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿الكتاب الحكيم﴾ فعيل بمعنى مفعول أي المحكم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب والتناقض .

٢ - ﴿أَنْذِرْ .. وَبَشِّرْ﴾ بينهما طباقٌ .

٣ - ﴿قَدْ صَدَّقَ﴾ كناية عن المنزلة الرفيعة ، والعبارة غاية في البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم ، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعطى بها .

٤ - ﴿يَبْدُؤُاَ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ﴾ بين كلمتي البدء والإعادة طباقٌ .

٥ - ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه التفاتٌ مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله .

٦ - ﴿الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل ، وبين الشر والخير طباقٌ .

٧ - ﴿لَنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال العباد مع ربهم بحال رعية مع سلطانها في إهمالهم للنظر في أعمالهم ، واستعير الاسم الدال على المشبه به للمشبه على سبيل التمثيل والتقريب ، ولله المثل الأعلى .

٨ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ .

فَكَايْدَةٌ : قال السيوطي في قوله تعالى ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ إن هذه الآية أصلٌ في علم المواقيت ، والحساب ، والتاريخ ، ومنازل القمر .

لطيفة : قال الحافظ ابن كثير : من قال مقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن يُنصَبَ عليه من الأدلة على برِّه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وحنّس الظلماء ، قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (أي تفرق اليهود عنه) فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما سمعته يقول (يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلُّوا الأرحام ، وصلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام) فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى من الدلائل قال حسان :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيّنةٌ لكان منظرُهُ يُنييكُ بالخبر

قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ .. إِلَى .. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٩)

المناسكة : لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان ، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن ، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكر ، والجحود ، والعناد ، فإن أصابتهم الشدة تضرّعوا ،

وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا ، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء ، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين ، على وحدانية الله رب العالمين .

اللفظة : ﴿عاصف﴾ العاصف : الريح الشديدة التي تعصف بالأوراق والأشجار ، قال الفراء : يقال عصفت الريح وأعصفت أي اشتدت قال الشاعر :

إن الرياح إذا ما أعصفت فصفتُ
عيدانَ نجدٍ ولا يعبانَ بالرَّتمِ^(١)

﴿الموج﴾ ما ارتفع من الماء فوق البحر ، سُمي موجاً لاضطرابه ﴿زخرفها﴾ الزخرف : كمال حسن الشيء ونضارته ، سُمي زخرفاً لبهجته ونضارته ﴿تغن﴾ غني بالمكان إذا أقام به وعمره ﴿يرهُق﴾ يغشى ويعلو يقال : رهقه الذل أي غشيه ﴿قتر﴾ القتر والقتر : الغبار الذي معه سواد قال تعالى ﴿ترهقها قتر﴾ أي تعلوها غبرة جهنم ، وقيل : القتر الغبار وإن لم يكن معه سواد قال الفرزدق :

متوجٌ برداء الملك يتبعه
موجٌ ترى فوقه الرايات والقتر^(٢)

﴿زيلنا﴾ فرقنا وميزنا ﴿تؤفكون﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٣١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

التفسير : ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ المراد بالناس كفار مكة رؤي أن الله سلط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد والمعنى : وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة ، وخصباً بعد جذب أصابهم ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ قال مجاهد : استهزاء وتكذيب ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ أي أعجل عقوبة على جزاء مكرهم^(٣) ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ أي إن الملائكة الحفظة يكتبون مكرهم ويسجلون إجرامهم ، وفيه تنبيه على أن ما دبروه غير خاف على الحفظة فضلاً عن العليم الخبير ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يملككم في البر على الدواب ، وفي البحر على السفن التي تسير على وجه الماء ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ أي حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ فيه التفات أي وجرين بهم بالريح اللينة الطرية التي تسير السفن ﴿وفرخوا بها﴾ أي فرح الركاب بتلك الريح الطيبة ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ أي وفجأة جاءت الريح الشديدة العاصفة

(١) البحر ٥/ ١٢٠. (٢) القرطبي ٨/ ٣٣١ .

(٣) مكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم ساء مكرًا مشاكلة لفعلهم وتسمية للعقوبة باسم الذنب .

الَّذِينَ لَيْسَ أُنَجِّيتَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أُنْجِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

الدمرة ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي أيقنوا بالهلاك ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون ، قال القرطبي : وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد ، وأن المضطر يجب دعائه وإن كان كافراً ، لانقطاع الأسباب ، ورجوعه إلى رب الأرباب^(١) ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ أي لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك ، والعاملين بطاعتك ومرضاتك قال في البحر : ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن : مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جاريًا مجرى الإيمان الاضطراري^(٢) ﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي فلما خلصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس : يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي^(٣) قال تعالى رداً عليهم ﴿يأياها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم﴾ أي وبال البغي عليكم ، ولا يجني ثمرته إلا أنتم ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية ، التي تعقبها الحسرات الباقية ﴿ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها ، وفي هذا وعيد وتهديد . والآية الكريمة تمثيل لطبيعة الإنسان الجحود ، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة ، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدّة ، فإذا نجّاه الله من الضيق ، وكشف عنه الكرب ، رجع إلى الكفر والعصيان ، وتمادى في الشر والطغيان . ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها فقال ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها ، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها كمثّل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عباس : اختلط فنبت بالماء كل لون^(٤) ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ أي مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول ، والأنعام من الكلال والتبن والشعير ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ أي أخذت حسناتها وبهجتها ﴿وازيّنت﴾ أي تزيّنت بالحبوب والثمار والأزهار ، وهو تمثيل بالعروس إذا تزيّنت بالحلي والثياب ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي وظن أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها ، محصلون لثمرتها وغلّتها ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ أي جاءها

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ^{٢٤} كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ^{٢٥} وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ^{٢٦} أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ^{٢٧} مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ^{٢٧} كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا

قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إما ليلاً وإما نهاراً ﴿فجعلناها حصيداً﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمناجل ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ أي مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا نبين الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال قال الألوسي : وتخصيصهم بالذكر لأنهم المتفكرون^(١) ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة ﴿ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿وزيادة﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم^(٢) ﴿ولا يرهق وجوههم قترٌ﴾ أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار ﴿ولا ذلة﴾ أي هوانٌ وصغار ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فسيجزون على السيئة بمثلها لا يزدادون على ذلك ، فالحسنات مضاعفة بفضل الله ، والسيئات جزاؤها بالمثل عدلاً منه تعالى^(٣) ﴿وترهقهم ذلة﴾ أي تغشاهم ذلة وهوان ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ أي كأنما ألبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا﴾ أي نجمع الفريقين للحساب : المؤمنين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا بالله ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿فزيلنا بينهم﴾ أي ففرقنا وميزنا بينهم وبين المؤمنين كقوله ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴿أي تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله قال مجاهد : ينطق الله الأوثان فتقول : ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا^(٤) كقوله ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم

(١) روح المعاني ١١/ ١٠٢ . (٢) ورد هذا في حديث صحيح أخرجه مسلم . (٣) قال في الجوهرة : فالسيئات عنده بالمثل : والحسنات ضوعفت بالفضل . (٤) القرطبي ٨/ ٣٣٣ .

بَيْنَهُمْ^ط وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا بَنَاءُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ
لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ^ع وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾
قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ
الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

الأسباب ﴿﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴿﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة : حسبنا الله شاهداً
بيننا وبينكم ﴿﴾ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴿﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين ، لا نسمع ولا نبصر ولا
نعقل ، لأننا كنا جماداً لا روح فينا ﴿﴾ هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت ﴿﴾ أي في ذلك الوقت تُختبر كل نفس بما
قدمت من خير أو شر ، وتنال جزاء ما عملت ﴿﴾ ورددوا إلى الله مولاهم الحق ﴿﴾ أي ردوا إلى الله تعالى المتولي
جزاءهم بالعدل والقسط ﴿﴾ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه من أن
الأوثان تشفع لهم ، وفي الآية تبكيّت شديدٌ للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم
شيئاً ﴿﴾ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴿﴾ في هذه الآيات الأدلة على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد
لهؤلاء المشركين من ينزل لكم الغيث والقطر ، ويخرج لكم الزروع والثمار ؟ ﴿﴾ أمّن يملك السمع والأبصار ﴿﴾
أي من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم ، التي تسمعون وتبصرون بها ؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا
أراد الله أن يسلبكموها ؟ كقوله ﴿﴾ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴿﴾ الآية ﴿﴾ ومن يخرج الحي من
الميت ، ويخرج الميت من الحي ؟ ﴿﴾ أي من يخرج الإنسان من النطفة ، والطيور من البيضة ، والسنبلة من
الحبة ، والنبات من الأرض ، والمؤمن من الكافر ؟ ﴿﴾ ومن يدبر الأمر ﴿﴾ أي ومن يدبر أمر الخلائق ،
ويصرف شئون الكائنات ؟ ﴿﴾ فسيقولون الله ﴿﴾ أي فسيقرون بأن فاعل ذلك كله هو الله رب العالمين ، إذ
لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه ﴿﴾ فقل أفلا تتقون ﴿﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقمته
بإشراككم وعبادتكم غير الله ؟ ﴿﴾ فذلكم الله ربكم الحق ﴿﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو
ربكم الحق ، الثابت ربوبيته ووحدانيته بالبراهين القاطعة ﴿﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴿﴾ استفهام انكاري
أي ليس بعد الحق إلا الضلال ، فمن تحطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿﴾ فأنى
تصرفون ﴿﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله ، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق ، ولا يحيي ولا يميت ؟
﴿﴾ كذلك حقت كلمة ربك ﴿﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق ﴿﴾ على الذين فسقوا ﴿﴾ أي على الذين
خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا ﴿﴾ أنهم لا يؤمنون ﴿﴾ أي لأنهم لا يصدقون بوحداية الله ورسالة نبيه ،
فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم ﴿﴾ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴿﴾
أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتفريع : هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ فَأَنْتُمْ تُفَكُونَ ﴿٣٤﴾
 قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ
 لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي
 بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ

يفنيه ، ثم يعيده ويحييه ؟ قال الطبري : ولما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك ، وفيه الحجة القاطعة ،
 والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون ، أمر ﷺ بالجواب (١) ﴿قُلْ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ
 ثُمَّ يَعْبُدُ﴾ أي قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذي يحيي ويميت ، ويبداً ويعيد ، وليس أحداً من هؤلاء
 الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿فَأَنْتُمْ تُفَكُونَ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل ؟ ﴿قُلْ هَلْ
 مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ توبيخ آخر في صورة استفهام أي قل هؤلاء المشركين هل من هذه الآلهة
 التي تعبدونها من يرشد ضالاً ؟ أو يهدي حائراً ؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة ؟ ﴿قُلْ اللَّهُ
 يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي فقل لهم : إن عجزت أهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضال ، وإنارة
 السبيل ، وبيان الحق ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ أي أفمن يرشد إلى
 الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحق بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً ؟ ولا تستطيع هداية نفسها
 فضلاً عن هداية غيرها (٢) ؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوون بين الأصنام وبين
 رب الأرباب ، وتحكمون بهذا الباطل الضراح ؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار ، ثم بين تعالى فساد
 نحلته بعد أن أفحمهم بالبراهين النيرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا
 ظَنًّا﴾ أي وما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام ، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان ، بل مجرد أوهام
 باطلة ، وخرافات فاسدة ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام
 والخيالات ، ظن كاذب لا يغني من اليقين شيئاً ، فليس الظن كاليقين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي
 عالم بما هم عليه من الكفر والتكذيب ، وهو وعيد على اتباعهم للظن ، وإعراضهم عن البرهان ، ثم بين
 تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يعقل ، ولا
 يستقيم لذي عقل سليم ، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله ، لأنه فوق طاقة البشر ﴿وَلَكِنْ
 تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكنه جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وتفصيل
 الكتاب﴾ أي وفيه تفصيل وتبيين الشرائع والعقائد والأحكام ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا شك في

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري وقال بعض المفسرين : المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلا أن يرشدوا .

(٢) الطبري ١١٥ / ١١

مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ۖ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

أنه تنزيل رب العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل يقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه ؟ وهو استفهام معناه التقرير ﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن ، وهو تعجيز لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه ، من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه قال الطبري : والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة ، لأن محمداً لن يعدوا أن يكون بشراً مثلكم ، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثله ، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز^(١) ، قال تعالى ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ أي بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم ، وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه ، والناس دائماً أعداء لما جهلوا ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم ، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿أسرع مكرًا﴾ تسمية عقوبة الله مكرًا من باب « المشاكلة » .

٢ - ﴿وجرين بهم﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وحكمته زيادة التقييح والتشنيع على الكفار لعدم شكرهم النعمة .

٣ - ﴿أخذت الأرض زخرفها﴾ هذا من بديع الاستعارة شبه الأرض حينئذ تتزين بالنبات والأزهار بالعروس التي تتزين بالحلي والثياب واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف .

٤ - ﴿أتاهها أمرنا﴾ الأمر ههنا كناية عن العذاب والدمار .

٥ - ﴿أحسنوا الحسنى﴾ بينهما جناس الإشتقاق .

٦ - ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل .

٧ - ﴿يبدأ . . ثم يعيده﴾ بينهما طباق .

٨ - ﴿فأتى تؤفكون﴾ الاستفهام للتوبيخ ، ومثله ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ ؟

٩ - ﴿بين يديه﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والإنجيل فإنها قد بشرت به .

لطيفة : يقول شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال : « ما يزال البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون عن رزقٍ بعد رزقٍ في السماء والأرض ، يستخدمونه أحياناً في الخير ، يستخدمونه أحياناً في الشر ، حسبما تسَلَّم عقائدهم أو تعتل ، وكلُّه من رزق الله المسخر للإنسان ، فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن جوفها أرزاق ، ومن سطح الماء أرزاق ، ومن أعماقه أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ، ومن ضوء القمر أرزاق ، حتى عفن الأرض كشف فيه العلم عن دواء وترياق^(١) وصدق الله ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ ؟

قال الله تعالى : ﴿ ومنهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن به . . إلى . . العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٧٠)

المناسكة : لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي ، ذكر هنا أن منهم من يصدِّق بأن القرآن كلام الرحمن ، ولكنه يكابر ويعاند ، ومنهم من لا يصدِّق به أصلاً لفرط غباوته ، وسخافة عقله ، واختلال تمييزه . . ثم ذكر تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور ، وأعقبه بذكر مآل المشركين في الآخرة .

اللفظة : ﴿ الصم ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿ بيئاتاً ﴾ ليلاً ﴿ تفيضون ﴾ يقال أفاض فلان في الحديث إذا اندفع فيه ﴿ يعزب ﴾ يخفى ويغيب ﴿ مثقال ﴾ وزن ﴿ سلطان ﴾ حجة وبرهان ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه لله جل وعلا عن النقائص .

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ

التفسير : ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضلّه ﴿ فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ أي وإن كذبت هؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنوب الآخر ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرأه وتتلوه ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ ؟ أي أنت يا محمد لا تقدر أن تسمع من سلبه الله السمع ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ أي ولو كانوا من الصم لا يعقلون ولا يتدبرون ؟ قال ابن كثير : المعنى ومن هؤلاء من

تُسْمِعُ الْأَصَمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن

يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن النافع ، ولكن ليس أمر هدايتهم إليك ، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله ^(١) ﴿٤٢﴾ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ﴿٤٣﴾ أي ومن هؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة ، ولكنهم عمي لا ينتفعون بما رأوا ، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانوا عمي القلوب ؟ شبههم بالعمي لتعاميهم عن الحق ، قال القرطبي : والمراد تسليية النبي ﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به ، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان ^(٢) ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴿٤٤﴾ أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب ، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿٤٥﴾ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿٤٥﴾ أي ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله قال الطبري : وهذا إعلام من الله تعالى بأنه لم يسلب هؤلاء الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم ، وإنما سلبهم ذلك لذنوب اكتسبوها ، فحق عليهم أن يطبع الله على قلوبهم ^(٣) ﴿٤٤﴾ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴿٤٥﴾ أي اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة من النهار ، ل هول ما يرون من الأحوال ﴿٤٥﴾ يتعارفون بينهم ﴿٤٥﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا ، وهو تعارف توبيخ وافتضاح ، يقول الواحد للآخر : أنت أغويتني وأضللتني ، وليس تعارف محبة ومودة ﴿٤٦﴾ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين ﴿٤٦﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور ، وما كانوا موفقين للخير في هذه الحياة ﴿٤٦﴾ وإِنَّمَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴿٤٦﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقر عينك منهم فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فمرجعهم إلينا في الآخرة ، ولا بد من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً ﴿٤٦﴾ ثم الله شهيدٌ على ما يفعلون ﴿٤٦﴾ أي هو سبحانه شاهدٌ على أفعالهم وإجرامهم ومعاقبهم على ما اقترفوا ﴿٤٦﴾ ولكل أمة رسول ﴿٤٦﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسولٌ أرسل لهدايتهم ﴿٤٦﴾ فإذا جاء رسولهم قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴿٤٦﴾ قال مجاهد : يعني يوم القيامة قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْعَدْلِ قال ابن كثير : فكل أمة تُعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً ^(١) ﴿٤٦﴾ وهم لا يُظلمون ﴿٤٦﴾ أي لا يُعذبون بغير ذنب ﴿٤٦﴾ ويقولون متى

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعِزُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَلَمْ يَأْتِ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؎ آخَرُ وَعَدُّ كُنْتُمْ بِهِ ؎ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ * وَيَسْتَنْبِغُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَا فِتْنَتَ بِهِ ؎ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا

هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿٤٨﴾ أي ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً ؟ وهذا القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿٤٩﴾ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴿٥٠﴾ أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً ، ولا أجلب إليها نفعاً ، وليس ذلك لي ولا لغيري ﴿٥١﴾ إلا ما شاء الله ﴿٥٢﴾ أي إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب ! ﴿٥٣﴾ لكل أمة أجل ﴿٥٤﴾ أي لكل أمة وقت معلوم هلاكهم وعذابهم ﴿٥٥﴾ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٥٦﴾ أي فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون ، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه ﴿٥٧﴾ قل أرايتم إن أتاكم عذابه بيئاتاً أو نهراً ﴿٥٨﴾ أي قل لأولئك المكذبين أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهراً فما نفعكم فيه ؟ ﴿٥٩﴾ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴿٦٠﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به ؟ كما يقال لمن يطلب أمراً وخيماً : ماذا تجني على نفسك ﴿٦١﴾ أتم إذا ما وقع آمنتم به ﴿٦٢﴾ في الكلام حذف تقديره : أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعانيتموه فما فائدة الإيمان وما نفعكم فيه ، إذا كان الإيمان لا ينفع حينذاك ؟ قال الطبري : المعنى أنهالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدقتم به في حال لا ينفعكم فيه التصديق ﴿٦٣﴾ الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴿٦٤﴾ أي يقال لكم أيها المجرمون : الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب ؟ ﴿٦٥﴾ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴿٦٦﴾ أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء ﴿٦٧﴾ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴿٦٨﴾ أي هل تجزون إلا جزاء كفركم وتكذيبكم ؟ ﴿٦٩﴾ ويستنبئونك أحق هو ﴿٧٠﴾ أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون : أحق ما وعدتنا به من العذاب والبعث ؟ ﴿٧١﴾ قل إي وربي إنه لحق ﴿٧٢﴾ أي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه ﴿٧٣﴾ وما أنتم بمعجزين ﴿٧٤﴾ أي لستم بمعجزين الله بهرب أو امتناع من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه ﴿٧٥﴾ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض ﴿٧٦﴾ أي لو أن لكل نفس كافرة ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها ، ومنافعها قاطبة ﴿٧٧﴾ لافتدت به ﴿٧٨﴾ أي لدفعته فدية لها من عذاب الله ولكن هيهات أن يقبل كما قال تعالى ﴿٧٩﴾ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴿٨٠﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم ﴿٨١﴾ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴿٨٢﴾ أي أخفى هؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب قال الإمام الجلال : أي أخفاها رؤساؤهم عن

الْعَذَابِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٦﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلَا تَذَنُّ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ

الضعفاء الذين أضلوههم مخافة التعيير^(١) ﴿٤٤﴾ وقُضِيَ بينهم بالقسط ﴿٤٥﴾ أي قُضِيَ بين الخلائق بالعدل ﴿٤٦﴾ وهم لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً ، ولا يُعاقبون إلا بجريزتهم ﴿٤٨﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٤٩﴾ « أَلَا » كلمة تنبيه للسامع تزداد في أول الكلام أي انتهوا لما أقول لكم فكل ما في السموات والأرض ملك لله ، لا شيء فيها لأحد سواه ، هو الخالق وهو المالك ﴿٤٩﴾ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٤٩﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة ﴿٤٥﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٤٦﴾ ولكن أكثر الناس لقصور عقولهم ، واستيلاء الغفلة عليهم ، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿٤٧﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٦﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميت ، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿٤٨﴾ خطاب لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظة لكم من خالقكم ﴿٤٩﴾ وشفاء لما في الصدور ﴿٤٩﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿٤٧﴾ وهدى ورحمة للمؤمنين ﴿٤٧﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان قال صاحب الكشف : المعنى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة ، والتنبيه على التوحيد ، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة ، ودعاء إلى الحق ، ورحمة لمن آمن به منكم^(٢) ﴿٤٧﴾ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴿٤٧﴾ قال ابن عباس : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام^(٣) والمعنى : ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله ، من القرآن والإسلام ، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿٤٨﴾ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٤٨﴾ أي هو خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية ، والنعيم الزائل ، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ ﴿٤٩﴾ خطاب لكفار العرب والمعنى : أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿٤٧﴾ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴿٤٩﴾ أي فحرمتكم بعضه وحللتم بعضه كالبحيرة ، والسائبة ، والميتة قال ابن عباس : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب ، والحرث والأنعام^(٤) ﴿٤٩﴾ قُلْ ءَلَا تَذَنُّ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٤٩﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني : أحصل إذن من الله لكم بالتحليل والتحريم ، فأنتم فيه ممتثلون

(١) تفسير الجلالين ١٩٢/٢ وقال في البحر : وإخفاء الندامة هو من كونهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولا خطر ببالهم ، ومعانيهم ما أوهى قواهم ، فلم يطبقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخاً ، كما يعرض لمن يُقَدَّم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة ، ويبقى مبهوتاً جامداً .

(٢) الكشف ٣٥٣/٢ (٣) البحر ١٧١/٥ (٤) المختصر ١٩٨/٢

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٦﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٨﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ

لأمره ، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال ؟ ﴿٥٥﴾ وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴿٥٦﴾ أي وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم ، يحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة ؟ كلاً بل سيصليهم سعيراً ، وهو وعيدٌ شديد للمفترين ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿٥٨﴾ أي لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب ، وبالإِنعام عليهم ببعثة الرسل وإِنزال الكتب ﴿٥٩﴾ ولكنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ أي لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون ﴿٦١﴾ وما تكونُ في شأنٍ ﴿٦٢﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمرٍ من الأمور ، ولا عملٍ من الأعمال ﴿٦٣﴾ وما تتلوا منه من قرآنٍ ﴿٦٤﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن ﴿٦٥﴾ ولا تعملون من عملٍ ﴿٦٦﴾ أي ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر ﴿٦٧﴾ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴿٦٨﴾ أي إِلَّا كُنَّا شَاهِدِينَ رِقَبَاءَ ، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿٦٩﴾ وما يعزُبُ عن ربك ﴿٧٠﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿٧١﴾ من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴿٧٢﴾ أي من وزن هباءة أو غملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿٧٣﴾ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ أي ولا أَصْغَرَ مِنْ الذرة ولا أَكْبَرَ منها إِلَّا وهو معلوم لدينا ومسجَّل في اللوح المحفوظ قال الطبري : والآية خبرٌ منه تعالى أنه لا يخفى عليه أَصْغَرَ الْأَشْيَاءِ وَإِنْ خَفَ فِي الْوِزْنِ ، وَلَا أَكْبَرَهَا وَإِنْ عَظُمَ فِي الْوِزْنِ ، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم ، فَإِنَّا مُحْصَوُهَا عَلَيْكُمْ وَحَازِكُمْ بِهَا (١) ﴿٧٥﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٦﴾ أي انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ، ثم بيّن تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي الذين صدّقوا الله ورسوله ، وكانوا يتقون ربهم بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ وفي الحديث (إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ ، يَغْطِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، قَالُوا أَخْبِرْنَا مِنْ هُمْ ؟ وَمَا أَعْمَالُهُمْ ؟ فَلَعَلَّنَا نَحْبُهُمْ ، قَالَ : هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ ، عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا ، فَوَاللَّهِ إِنْ وَجَّهَهُمْ لِنُورٍ ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ ثُمَّ قَرَأَ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ . . .﴾ الآية (٢) ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي لهم ما يسرهم في الدارين ، حيث تبشرهم الملائكة (٣) عند الاحتضار برضوان الله ورحمته ، وفي الآخرة بجنان

(١) الطبري ١٣٠/١١ . (٢) الطبري ١٣٢/١١ . (٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي « الرؤية الصالحة » التي يراها المؤمن أو تُرى له ، وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم ، واختار الطبري أن البشارة تكون بالرؤية الصالحة وببشارة الملائكة عند الموت

الْفُوزِ الْعَظِيمِ ﴿١٤﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَتِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

النعيم والفوز العظيم كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لا تبديل لكلمات الله ﴿١٥﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿١٦﴾ ذلك هو الفوز العظيم ﴿١٧﴾ أي هو الفوز الذي لا فوز وراءه ، والظفر بالمقصود الذي لا يضاهي ﴿١٨﴾ ولا يحزنك قولهم ﴿١٩﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيبهم لك وقولهم : لست نبياً مرسلًا ، ثم ابتداء تعالى فقال ﴿٢٠﴾ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٢١﴾ أي القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، لله وحده ، فهو ناصرٌك ومانعٌك ومعينٌك ، وهو المنفرد بالعزة يمنحها أوليائه ، ويمنعها أعداءه ﴿٢٢﴾ هو السميع العليم ﴿٢٣﴾ أي السميع لأقوالهم ، العليم بأعمالهم ﴿٢٤﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ﴿٢٥﴾ أي وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع ، وهي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴿٢٦﴾ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴿٢٧﴾ أي ما يتبعون إلا ظناً باطلاً ﴿٢٨﴾ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٩﴾ أي يحدسون ويكذبون ، يظنون الأوهام حقائق ﴿٣٠﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴿٣١﴾ تنبيه على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته ، أن جعل لكم أيها الناس الليل راحة لأبدانكم تستريحون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿٣٢﴾ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴿٣٣﴾ أي وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿٣٤﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَتِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٣٥﴾ أي لعلامات ودلالات على وحدانية الله ، لقوم يسمعون سمع اعتبار ، ثم نبّه تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال ﴿٣٦﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٣٧﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً ﴿٣٨﴾ فَقَالُوا : عَزِيزُ اللَّهِ ، وَالْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ كَفَارُ مَكَّةَ : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿٣٩﴾ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴿٤٠﴾ أي تنزه الله وتقدس عما نسبوا إليه فإنه المستغني عن جميع الخلق ، فإن اتخاذاً الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتفٍ عنه ﴿٤١﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿٤٢﴾ أي الجميع خلقه وملكه ﴿٤٣﴾ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴿٤٤﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿٤٥﴾ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ أي أنفثون على الله

وتكذبون بنسبه الشريك والولد ؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم . ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي متاع قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ أي ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجه الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله .

البلاغَة : ١ - ﴿ من يؤمن به . . ومن لا يؤمن ﴾ بينهما طباق السلب .

٢ - ﴿ تسمع الصم . . تهدي العمي ﴾ الصم والعمي مجاز عن الكافرين شبههم بالصم والعمي لتعاميهم عن الحق .

٣ - ﴿ ضراً ولا نفعاً ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿ بيئاتاً ونهاراً ﴾ وبين ﴿ يحيي ويميت ﴾ وبين ﴿ يستقدمون . . ويستأخرون ﴾ .

٤ - ﴿ شفاء لما في الصدور ﴾ مجاز مرسل أطلق المحل وأراد الحال أي شفاء للقلوب لأن الصدور محل القلوب .

٥ - ﴿ حراماً وحلالاً ﴾ بينهما طباق .

٦ - ﴿ والنهار مبصراً ﴾ قال في تلخيص البيان : هذه استعارة عجيبة ، سمى النهار مبصراً لأن الناس يبصرون فيه ، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا : ليل أعمى وليلة عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها^(١) .

٧ - ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ استفهام توبيخ وتقريع .

فائدة : أمر تعالى رسوله ﷺ بالهلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في هذه السورة ﴿ قل إي وربي إنه لحق ﴾ وفي سورة سبأ ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ وفي سورة التغابن ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ﴾ ذكره ابن كثير .

تبليغ : كلمة « رأيت » تستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية ، أو العلمية ، وهذا أصل وضعها ثم استعملت بمعنى « أخبرني » فيقولون : رأيت ذلك الأمر أي أخبرني عنه ، والرؤية إما بصرية أو علمية والتقدير : أبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفت أمره العجيب ؟ فأخبرني عنها ، ولذا لم تستعمل في غير الأمر العجيب ، ﴿ رأيت الذي يكذب بالدين ﴾ ؟ ﴿ رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ ؟ وهكذا .

قال الله تعالى : ﴿ وائل عليهم نبأ نوح . . إلى . . ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ من آية (٧٢) إلى نهاية آية (٨٩) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته ، وذكر ما جرى بين الرسول ﷺ وكفار مكة ، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء ، تسلياً للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره ، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص : ١ - قصة نوح عليه السلام مع قومه ٢ - قصة موسى وهارون مع الطاغية فرعون ٣ - قصة يونس مع قومه ، وفي كل قصة عبرة لمن اعتبر ، وذكرى لمن تدبر .

اللفظة : ﴿كَبُرَ﴾ قال الواحدي : كَبُرَ يَكْبُرُ كِبَرًا فِي السَّنِّ ، وَكَبُرَ الْأَمْرُ وَالشَّيْءُ يَكْبُرُ كُبْرًا وَكُبَارَةً إِذَا عَظُمَ ^(١) ﴿فَأَجْمَعُوا﴾ الإجماع : الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد الفراء :

يا ليت شعري والمنى لا ينفع
هل أغدون يوماً وأمري مجمَعُ ^(٢)

﴿عُمَّة﴾ مبهماً من قولهم عُمَ علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس واستتر قال طرفة :

لعمرك ما أمري عليَّ بعُمَّةٍ نهاري ولا لي لي عليَّ بسرمد

﴿نطبع﴾ نختم ﴿تلفتنا﴾ تصرفنا وتلوينا واللفت : الصرف عن أمر وأصله اللي يقال لفت عنقه إذا لواها ﴿الكبرياء﴾ العظمة والملك والسلطان ﴿عال﴾ عات متكبر ﴿المسرفين﴾ المجاوزين الحد في الضلال والطفغان ﴿اطمس﴾ الطمس : المسخ قال الزجاج : طمس الشيء إذهابه عن صورته ومنه عين مطموسة .

* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ^(١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(٢) فَكَذَّبُوهُ

النفسير : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة خبر أخيك نوح مع قومه المكذبين ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عظم وشق عليكم ﴿مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي طولُ مقامي وليثي فيكم ، وتخويفي إياكم بآيات ربكم ، وعزمتي على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي على الله وحده اعتمدت ، وبه وثقت فلا أبالي بكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم ، ودبروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً ، ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي أنفذوا ما تريدونه في أمري ولا تؤخروني ساعة واحدة ، قال أبو السعود : وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة ، وثقةً بالله وبوعده من عصمته وكلاءته ^(٣) ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري

فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فجاءهم وهم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مَبِينٌ ﴿٧٩﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ

فليس لأنني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا ، بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿٨١﴾ إن أجري إلا على الله ﴿٨٢﴾ أي ما أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله ، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض الدنيا ﴿٨٣﴾ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴿٨٤﴾ أي من الموحدين لله تعالى ﴿٨٥﴾ فكذبوه فنجيناه ومن معه في السفينة ﴿٨٦﴾ وجعلناهم خلائف ﴿٨٧﴾ أي جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاءً ممن غرق ﴿٨٨﴾ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴿٨٩﴾ أي أغرقنا المكذبين بالطوفان ﴿٩٠﴾ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴿٩١﴾ أي انظر يا محمد كيف كان نهاية المكذبين لرسولهم ؟ والغرض : تسلية للرسول ﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿٩٢﴾ ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم ﴿٩٣﴾ أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً ﴿٩٤﴾ فجاءهم بالبينات ﴿٩٥﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿٩٦﴾ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴿٩٧﴾ أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل ، ولم يزرهم عقاب السابقين ﴿٩٨﴾ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴿٩٩﴾ أي كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب والعناد ﴿١٠٠﴾ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائته ﴿١٠١﴾ أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى وهارون إلى فرعون وأشراف قومه ﴿١٠٢﴾ بآياتنا ﴿١٠٣﴾ أي بالبراهين والمعجزات الباهرة ، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف ﴿١٠٤﴾ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴿١٠٥﴾ أي تكبروا عن الإيمان بها وكانوا مفسدين ، تعودوا الإجمام وارتكاب الذنوب العظام ﴿١٠٦﴾ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴿١٠٧﴾ أي فلما وضع لهم الحق الذي جاءهم به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم : هذا سحر ظاهر بيّن أراد به موسى أن يسحرنا ﴿١٠٨﴾ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴿١٠٩﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحر ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر ﴿١١٠﴾ أسحر هذا ؟ أي أسحر هذا الذي جئتكم به ؟ ﴿١١١﴾ ولا يفلح الساحرون ﴿١١٢﴾ أي والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون ﴿١١٣﴾ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آبائنا ﴿١١٤﴾ أي أجئتنا لتصرفنا وتلوينا عن

دين الآباء والأجداد ؟ ﴿وتكون لكم الكبرياء في الأرض﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة والملك والسلطان في أرض مصر ﴿وما نحن لكم بمصدقين﴾ أي ولسنا بمصدقين لكم فيما جئتم به ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾ أي ائتوني بكل ساحر ماهر ، عليم بفنون السحر ﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ في الكلام محذوف تقديره فأتوه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم ﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر﴾ أي ما جئتم به الآن هو السحر لا ما اتهمتموني به ﴿إن الله سيطلعه﴾ أي سيمحقه وسيذهب به ويظهر بطلانه للناس ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أي لا يصلح عمل من سعى بالفساد ﴿ويحق الله الحق بكلماته﴾ أي يثبت الله الحق ويقويه بحججه وبراهينه ﴿ولو كره المجرمون﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة الكافرون ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه ، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفر قليل من أولاد بني إسرائيل قال مجاهد : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات أبائهم^(١) ﴿على خوف من فرعون وملأه﴾ أي على خوف وحذر من فرعون وملأه أن يعذبهم ويصرفهم عن دينهم ﴿وإن فرعون لعالٍ في الأرض﴾ أي عاتٍ متكبر مفسد في الأرض ﴿وإنه لمن المفسرين﴾ أي المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾ أي قال لقومه لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته ﴿فعليه توكّلوا﴾ أي على الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرٍّ ﴿إن كنتم مسلمين﴾ أي إن كنتم مستسلمين لحكم الله منقادين لشعره ﴿فقالوا على الله توكّلنا﴾ أي أجابوا قائلين : على ربنا اعتمدنا وبه وثقنا ﴿ربنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين﴾ أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا ويفتتنوا بنا فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ أي خلّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي أمنت بموسى هم من آل فرعون وما ذكرناه هو اختيار الطبري والجمهور وهو الأرجح .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

لقومكما بمصر بيوتاً﴾ أي اتخذوا لهم بيوتاً للصلاة والعبادة ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي اجعلوها مصلى^(١) تصلون فيها عند الخوف قال ابن عباس : كانوا خائفين فأمرُوا أن يصلُّوا في بيوتهم^(٢) ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها ، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل ﴿وبشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشِّر يا موسى أتباعك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينةً وأمواًلاً في الحياة الدنيا﴾ أي قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم ، زينةً من متاع الدنيا وأثاثها ، وأنواعاً كثيرة من المال ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ اللام لامُ العاقبة^(٣) أي آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك ، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ دعاءٌ عليهم أي أهلك أموالهم يا الله وبدِّدها ﴿واشدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قسُّ قلوبهم واطبع عليها حتى لا تشرح للإيمان قال ابن عباس : أي امنعهم الإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ النفي أي اللهم فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك ، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم ، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عباس : كان موسى يدعو وهارون يؤمن فنسبت الدعوة إليهما^(٤) ﴿قال قد أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ أي قال تعالى قد استجبت دعوتكما على فرعون وأشراف قومه ﴿فاستقيما﴾ أي اثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا تسلكا سبيل الجهلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى ، قال الطبري : روي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة^(٥) ثم أغرق الله فرعون .

- البَلاغَةُ :** ١ - ﴿فعلى الله توكلت﴾ تقديم ما حقه التأخير لإفاده الحصر أي على الله لا على غيره .
٢ - ﴿ويُحِقُّ الْحَقُّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .
٣ - ﴿لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ عبر عن الالتباس والستر بالغمة بطريق الاستعارة أي لا يكن أمركم مغطىً تغطية حيرة ومبهما فيكون كالغمة العمياء .
٤ - ﴿واشدد على قلوبهم﴾ الشدُّ استعارة عن تغليظ العقاب ، ومضاعفة العذاب .

(١) وقيل : المراد اجعلوا بيوتكم موجهة إلى جهة القبلة . (٢) الطبري ١١/ ١٥٤ .

(٣) هذه اللام كقوله تعالى ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ وفي الخبر (لدا للموت وابنوا للخراب) أي لتكون العاقبة الموت والخراب . (٤) البحر ٥/ ١٨٧ . (٥) الطبري ١١/ ١٦١ .

تَبْيِيْهِ : قال ابن كثير : دعوة موسى على فرعون كانت غضباً لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضَلُّوا عِبَادَكَ ﴾ ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التي شاركه فيها أخوه هارون ، كما استجاب دعوة نوح عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ . . . إِلَى . . . وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

من آية (٩٠) إلى نهاية السورة الكريمة .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه ، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإغراق في البحر نتيجة البغي والعدوان ، وأن إيمانه لم ينفعه لأنه إيمان المضطر ، ثم ذكر قصة يونس وتوبة الله تعالى على قومه ، وختم السورة الكريمة ببيان حقيقة التوحيد ، وأن الإنسان لا ينجيه عند الله إلا الإيمان .

الْفُكْرَةُ : ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ أنزلنا وأسكنَّا ﴿ الْمُحْتَرِمِينَ ﴾ الشَّاكِينَ ، امترى : شكَّ وارتاب ﴿ فَلَوْلَا ﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلاً ﴿ الرِّجْسِ ﴾ العذاب أو السخط ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة كلها ﴿ يَمْسُكُ ﴾ يصبك ﴿ كَاشِفٌ ﴾ دافع ومزيل يقال : كشف السوء أي أزاله ﴿ بَوَكِيلٌ ﴾ بحفيظ موكل إلى أمركم .

* وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا

النَّفْسِيرُ : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ أي قطعنا وعدنا بني إسرائيل البحر « بحر السويس » حتى جاوزوه ﴿ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ﴾ أي لحقهم فرعون مع جنوده ظليماً وعدواناً وطلباً للاستعلاء بغير حق ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ أي قال عندئذٍ أقررت وصدقت بأنه لا إله إلا الله رب العالمين ، الذي آمنت وأقرت به بنو إسرائيل ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ تأكيد لدعوى الإيمان أي وأنا ممن أسلم نفسه لله ، وأخلص في إيمانه قال ابن عباس : جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة (٩١) ﴿ ءَالَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي الآن تؤمن حين يثبت من الحياة ، وقد عصيت الله قبل نزول نعمته بك ، وكنت من الغالين في الضلال والاضلال والصد عن دين الله ؟ ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ ﴾ أي فالיום نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه ﴿ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً ﴾ أي لتكون عبرة لمن بعدك من الناس ، ومن الجبابرة والفراعنة ، حتى لا يطغوا مثل طغيانك قال ابن عباس :

لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ فَتَكُونُونَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً أَمَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا

إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون ، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه^(١) ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ أي أنزلنا وأسكنا بني إسرائيل بعد إهلاك أعدائهم منزلاً صالحاً مرضياً ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي اللذائذ الطيبة النافعة ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله ، وهذا ذمُّ لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين ، والدين يجمع ولا يفرق ، ويوحّد ولا يشتت وقال الطبري : كانوا قبل أن يُبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته ، والإقرار بمبعثه ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم ، وآمن البعض ، فذلك اختلافهم^(٢) ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ هذا على سبيل الفرض والتقدير : أي إن فرض أنك شككت فاسأل قال ابن عباس : لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل وقال الزمخشري : هذا على الفرض والتمثيل كأنه قيل : فإن وقع شكٌ مثلاً ، وخيّل لك الشيطان خيلاً تقديراً فسل علماء أهل الكتاب ، وفرقٌ عظيم بين قوله ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل^(٣) وقال بعضهم : الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ أي اسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل ، فإن ذلك محقق عندهم كما قصصنا عليك ، والغرض دفع الشك عن قصص القرآن ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ أي جاءك يا محمد البيان الحق ، والخبر الصادق ، الذي لا يعتريه شك ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أي فلا تكن من الشاكين المرتابين ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ أي لا تكذب بشيء من آيات الله ﴿فتكون من الخاسرين﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته ، قال البيضاوي : وهذا من باب التهيج والتثيت وقطع أطماع المشركين عنه^(٤) وقال القرطبي : الخطاب في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره^(٥) ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾ أي لا يصدقون ولا يؤمنون

(١) المختصر ٢/٢٠٦ . (٢) الطبري ١١/١٦٧ . (٣) الكشف ٢/٣٧٠ . (٤) البيضاوي ٢٤٥ . (٥) القرطبي ٨/٣٨٣ .

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٤﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٥﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ

أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي فحينئذ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾ أي فهلاً كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكتها ، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت ﴿إلا قوم يونس﴾ أي غير قوم يونس ﴿لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المخزي المهين في الحياة الدنيا ﴿ومتعناهم إلى حين﴾ أي أخرناهم إلى انتهاء آجالهم قال قتادة : روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم ، فلما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندم على ما مضى منهم ، كشف الله عنهم العذاب ﴿١٠١﴾ ﴿ولو شاء ربك لأمّن من في الأرض كلّهم جميعاً﴾ أي لو أراد الله لأمّن الناس جميعاً ، ولكن لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة ، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار ، لا إيمان الإكراه والاضطرار ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ ؟ أي أفأنت يا محمد تكره الناس على الإيمان ، وتضطربهم إلى الدخول في دينك ؟ ليس ذلك إليك ، والآية تسليّة له ﷺ وترويحٌ لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن عباس : كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس ، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول ﴿١٠٢﴾ ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي ما كان لأحد أن يؤمن إلا بإرادته تعالى وتوفيقه ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله ، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار : انظروا نظر تفكر واعتبار ، ما الذي في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه ؟ ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي وما تنفع الآيات والإنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي فهل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم ، وما حلّ بهم من العذاب والنعكاس ؟ ﴿قل فانظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي قل لهم يا محمد : انتظروا عاقبة البغي

إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَخُذُوا زِينَتَكُمْ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَهْتَدُوا لِنَفْسِهِمْ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنَا عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٤٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٤٩﴾

والتكذيب إنني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين ننجي الرسل والمؤمنين إنجاءً مثل ذلك الإنجاء ﴿حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾ أي حقاً ثابتاً علينا من غير شك قال الربيع بن أنس : خوفهم عذابه ونقمته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر أنجي الله رسله والذين آمنوا معه ﴿١﴾ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شكٍ من ديني﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شكٍ من حقيقة ديني وصحته ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي ولكنني أعبد الله الذي يتوفاكم ، ويبدد محياكم ومماتكم ، قال الطبري : وهذا تعريضٌ ولحنٌ من الكلام لطيف ، وكأنه يقول : لا ينبغي لكم أن تشكوا في ديني ، وإنما ينبغي أن تشكوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، فأما إلهي الذي أعبدوه فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر ﴿٢﴾ ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحداً لله لا أشرك معه غيره ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾ أي وأمرت بالاستقامة في الدين ، على الحنيفية السمحة ملة إبراهيم ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ تأكيدٌ للنهي المذكور أي ولا تعبد غير الله مما لا ينفع ولا يضر كالألوهة والأصنام ﴿فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ أي فإن عبدت تلك الألوهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله ، والخطاب هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ أي وإن أراد الله إصابتك بضرٍ فلا دافع له إلا هو وحده ﴿وإن يردك بخير فلا رادٌ لفضلِهِ﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿يصيبُ به من يشاء من عباده﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي هو سبحانه الغفور لذنوب العباد ، الرحيم بأهل الرشاد ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ أي جاءكم القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام ﴿فمن

اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴿ أي من اهتدى بالإيمان فممنفعة اهتدائه لها خاصة ﴾ ﴿ ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ﴾ أي ومن ضلّ بالكفر والإعراض فوبال الضلال مقصور عليها ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي ولست بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم إنما أنا بشيرٌ ونذيرٌ ﴿ واتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أي اتَّبِعْ يَا مُحَمَّدُ فِي جَمِيعِ شُؤْنِكَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ رَبِّكَ ﴿ واصبر حتى يحكم الله ﴾ أي اصبر على ما يعتريك من مشاقّ التبليغ حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي هو سبحانه خير من يفصل في الحكومة ، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ للمشرّكين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ آَلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار .

٢ - ﴿ بَوَآنَا . . مَبْأُوكَ ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٣ - ﴿ كَلِمَةً رَبِّكَ ﴾ كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة .

٤ - ﴿ ثُمَّ نَنْجِي رَسُولَنَا ﴾ صيغة المضارع حكاية عن الماضي لتحويل أمرها باستحضار صورتها .

٥ - ﴿ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ بينهما طباق .

٦ - ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا . . وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ ﴾ بين الجملتين مقابلة لطيفة وهي من المحسنات البديعية .

٧ - ﴿ فَمَنْ اهْتَدَى . . وَمَنْ ضَلَّ ﴾ بينهما طباق .

٨ - ﴿ يَحْكُمُ اللَّهُ . . الْحَاكِمِينَ ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

فَكَايْدَةٌ : قال الإمام الفخر : آمن فرعون ثلاث مرات : أولها قوله ﴿ آمَنْتُ ﴾ وثانيها قوله ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ وثالثها قوله ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فما السبب في عدم قبول إيمانه ؟ والجواب : أنه إنما آمن عند نزول العذاب ، والإيمانُ في هذا الوقت غير مقبول ، لأنه يصير الحال حال الإلجاء فلا ينفع التوبة ولا الإيمان قال تعالى ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا . . ﴾^(١)

تَبْيِيهُ : قال المفسرون : إنما نجّى الله بدن فرعون بعد الغرق ، لأن قومًا اعتقدوا فيه الإلهية ، وزعموا أن مثله لا يموت ، فأراد الله أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة ، ليتحققوا موته ، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان ، فيكون عبرة للخلق ، وزجرًا لأهل الطغيان .

« تم تفسير سورة يونس بعون الله وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين »

فهرس موضوعات المجلد الأول

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	السر في التعبير بقوله تعالى:	٥	كلمة الناشر مدير دار القرآن الكريم
٤٠	﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل بنارهم	٦	تقاريز لطائفة من كبار العلماء
٤٠	السر في جمع الظلمات وتوحيد النور	٦	كلمة سماحة شيخ الأزهر
٤١	الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين	٧	كلمة سماحة رئيس مجلس القضاء الأعلى
٤١	كلام الإمام البيضاوي حول كروية الأرض	٩	كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي
٤٢	وجوه إعجاز القرآن الكريم	١١	كلمة معالي مدير جامعة الملك عبد العزيز
٤٢	القرآن معجز في نظمه، وتشريعه، وبيانه	١٣	كلمة فضيلة عميد كلية الشريعة
٤٢	عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن	١٥	كلمة فضيلة خطيب المسجد الحرام
٤٢	كلام الحافظ ابن كثير في إعجاز القرآن	١٧	كلمة فضيلة رئيس قسم الدعوة
٤٤	الرد على شبهات المشركين	١٩	مقدمة المؤلف الشيخ محمد علي الصابوني
٤٤	لماذا ضرب القرآن الأمثال بالذباب والعنكبوت!	٢٠	طريقة المؤلف في صفوة التفاسير
٤٦	الحكمة من إكثار الأمثال في القرآن		١- سورة الفاتحة
٤٩	خلق آدم وخلافته في الأرض	٢٣	الحكمة من افتتاح السور بسم الله الرحمن الرحيم
٥٢	الحكمة من أمر الملائكة بالسجود لآدم	٢٤	المقاصد الأساسية لسورة الفاتحة
	سجود الملائكة كان سجود تحية وتكريم لا	٢٤	فضل سورة الفاتحة
٤٩	سجود خضوع وعبادة.	٢٦	وجوه الفصاحة والبلاغة في الفاتحة
٤٩	لطيفة هل لإبليس زوجة ورد الشعبي على السؤال	٢٧	الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب
٥٢	سجود الملائكة لآدم سجود تحية وتكريم		٢- سورة البقرة
٥٢	التحقيق في أن إبليس لم يكن من الملائكة	٢٩	المقاصد الأساسية لسورة البقرة
٥٣	من هو إسرائيل؟	٣٠	لماذا سميت سورة البقرة؟
٥٤	الفرق بين عبيد النعم وعبيد المنعم	٣٠	فضل سورة البقرة
٥٦	قول علي «قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلَانِ..»	٣١	السُّرُّ في افتتاح بعض السور بالحروف المقطعة
٥٨	سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل	٣٢	انقسام الناس إلى مؤمنين، وكافرين، ومنافقين
٦٣	ما هو الحجر الذي نبع منه الماء؟	٣٢	أوصاف المؤمنين الفاضلة
٦٦	قصة البقرة ومعجزة إحياء الميت	٣٣	أوصاف الكافرين ومصيرهم في الآخرة
٦٩	في سورة البقرة ذكر إحياء الموتى في خمسة مواضع	٣٥	صفات المنافقين الشنيعة
٧٣	التحريف لكلام الله نوعان	٣٧	ضرب الأمثال للمنافقين
٧٣	قصة عزم اليهود على قتل الرسول بالسُّم	٣٨	بيان من القرآن لظلمة الضلال والنفاق
٨١	سبب بغض اليهود لجبريل عليه السلام	٣٩	وصف المنافقين بعشرة أوصاف شنيعة
٨١	السُّرُّ في التفريق بين ﴿ولن يتمنوه﴾ و﴿ولا يتمنونه﴾	٤٠	كلام ابن القيم حول أمثال القرآن

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	٣- سورة آل عمران	٨٤	الحكمة من تعليم الملكين السحر للبشر
١٨٦	أحسن ما قيل في التشابه والمحكم		ورود لفظ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في ثمانية
١٨٦	سؤال رجل لابن عباس عن التشابه في القرآن	٨٧	وأربعين موضعاً من القرآن
١٩٠	فائدة في تخصيص الأسحار بالاستغفار	٩٠	معنى إسلام الوجه لله تعالى
١٩٤	لطيفة في المحاورة بين العقل والعلم	٩٢	تعريف لطيف ودقيق لمعنى البدعة
٢٠٠	كرامات الأولياء والأدلة عليها	٩٥	الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم
٢٠٧	سؤال الجنيد عن مكر الله وجوابه اللطيف	٩٦	السُّرُّ في تفضيل البيت العتيق
٢١٣	لا تحل أموال أهل الذمة إذا أدوا الجزية	٩٨	المقصود من معنى ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾
	قصة شاس بن قيس اليهودي وما نزل في	١٠١	الحكمة من تحويل القبلة
٢١٧	الأنصار بسبب عدو الله	١٠٥	الحكمة من تكرار الأمر باستقبال القبلة
٢٢٣	النهي عن الاختلاف في الأصول لا في الفروع	١٠٧	ما هي النعم الثلاث في المصيبة؟
٢٢٩	المقصود بالأضعاف المضاعفة في الربا	١١٦	معنى اتباع خطوات الشيطان
٢٣٤	أعمال الآخرة ينبغي لها المسارعة		فائدة هامة في سمو التعبير من ناحية حسن البيان
٢٣٩	قصة أنس بن النضر رضي الله عنه	١٢٠	في قوله ﴿ولكم في القصاص حياة﴾
٢٣٩	جهاد النساء في غزوة أحد	١٢٧	السُّرُّ في اقتران القتال بكلمة ﴿في سبيل الله﴾
٢٤٣	محمد ﷺ بحر المكارم والفضائل	١٢٧	الحكمة من المغايرة بين «قل» و«فقل» في أجوبة الأسئلة
	استحباب قول المؤمن «حسبنا الله ونعم الوكيل»	١٢٧	المعنى الصحيح للإلقاء بالنفس إلى التهلكة
٢٤٧	عند الغم والأمور العظيمة	١٣١	الفرق بين زاد الدنيا وزاد الآخرة
٢٤٧	قصة أبي بكر مع فحاض	١٤٣	لماذا كانت الخمر أم الخبائث؟
٢٥٥	أعجب ما رآته عائشة من رسول الله ﷺ	١٤٣	ما هي المنافع في الخمر والميسر؟
	٤- سورة النساء	١٤٧	أول خلع كان في الإسلام
٢٦١	كلمة لطيفة حول تعدد الزوجات في الإسلام	١٥٣	الحكمة من إيجاب المتعة
٢٦٥	استنباط بدیع من آية ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾	١٥٣	قصة تمتيع الحسن بن علي لزوجته
٢٦٧	في الكناية عن الجماع بالإفضاء أدب رفيع	١٥٥	التحقيق أن الصلاة الوسطى هي العصر
٢٦٨	نهي عمر عن المغالاة في المهور وردُّ امرأة عليه	١٦٠	قصة أبي الدحداح في تصدقه ببستانه
٢٧٢	خطأ فاحش ارتكبه الشيعة في المتعة	١٦٣	تفسير ابن عباس للكرسي بأنه العلم
٢٧٢	لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار	١٦٧	ملك الدنيا مؤمنان وكافران
٢٧٣	قصة سعد بن الربيع مع امرأته حبيبة	١٦٧	سؤال الخليل عن كيفية الإحياء ليست للشك
٢٧٨	السُّرُّ في ذكر الإصلاح دون التفريق	١٧١	سؤال عمر للصحابية عن معنى آية
٢٧٨	كلمة لطيفة حول تأديب النساء	١٧٤	قول بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره
٢٧٨	الإيجاز والإعجاز في التعبير القرآني	١٧٩	العلم نوعان: كسبيٌّ ووهبيٌّ

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
قصة إسلام عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة	٢٨٤	كلمة وجيزة لبيان حكمة التشريع في قطع اليد	٣٤٢
قصة المنافق واليهودي وما نزل فيه	٢٨٤	قصة اليهودي الذي زنى وحكم الرسول ﷺ فيه	٣٤٣
قول الصحابة: كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنّا صرنا أذلة؟!	٢٨٨	اليهود إخوة الخنازير والقروذ وما نزل فيهم	٣٥٢
التوفيق بين آيتي الحسنة والسيئة	٢٩٤	كراهية عمر رضي الله عنه لاستعمال اليهود والنصارى	٣٥٤
اختلاف الصحابة في شأن المنافقين	٢٩٤	تنبيه هام إلى التفصيل في علة تحريم الخمر والميسر	٣٦٦
الفارق الهائل بين حضارة الإسلام والحضارة الغربية	٢٩٨	المواطن التي يكون فيها السؤال مذموماً عشرة	٣٧١
قصة طعمة بن أبيرق وجماعته المنافقين	٢٩٩	٦- سورة الأنعام	
قصة الصحابي «ضمرة بن القيس» رضي الله عنه	٢٩٩	فائدة: خمس سور ابتدأت بـ «الحمد لله»	٣٨٢
تفاخر المسلمين وتفاخر أهل الكتاب	٣٠٥	قصة الأخنس بن شريق مع أبي جهل بن هشام	٣٨٣
العدل بين النساء الذي أمر به الإسلام	٣١٠	وسؤاله هل محمد صادق أم كاذب؟ وما أجابه به	٣٨٣
معنى آية ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾	٣١٤	وجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة	٣٩٤
أسماء جهنم السبعة «جهنم، لظى، الحطمة،		ما هي مفاتيح الغيب؟	٣٩٥
السعير، سقر، الجحيم، الهاوية»	٣١٤	كلام إبراهيم في الشمس والقمر كان للمناظرة	٤٠٢
تنبيه هام للتفريق بين النفاق والكفر	٣١٤	الصحيح أن «أزر» والد إبراهيم	٤٠٧
الرد على بهتان النصارى في زعمهم صلب المسيح	٣١٩	معنى إخراج الحي من الميت والميت من الحي	٤٠٨
معنى أن المسيح عيسى بن مريم من روح الله	٣٢٢	آية ﴿لا تدركه الأبصار﴾ نفى للإحاطة لا نفى	
قصة الطبيب النصراني ومناظرته للواقدي	٣٢٣	للرؤية في الآخرة	٤١٢
٥- سورة المائدة		القول في الدين بمجرد التقليد حرام	٤١٨
قصة الفيلسوف الكندي الذي عزم على معارضة القرآن	١٣١	قصة الصحابي الذي وأدا ابنته في الجاهلية	٤٢٣
الفارق بين المبدأ الجاهلي والمبدأ الإنساني	٣٣١	بحث الرسل من الإنس لا من الجن	٤٢٣
قصة اليهودي مع عمر بن الخطاب وفضل آية من القرآن	٣٣١	فائدة: التحريم يُعلم بالوحي لا بالهوى	٤٢٧
كفر من زعم حلول الله في الصور من جهلة الصوفية	٣٣٤	ما هي الوصايا العشر؟	٤٢٨
السُّرُّ في تسمية أرض فلسطين الأرض المقدسة	٣٣٧	الحكمة من التفضيل بين الخلق	٤٣٢
استنباط دقيق من القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه	٣٣٧	سبيل الحق واحد، وطرق الضلال كثيرة	٤٣٣
قصة قابيل وهابيل وسبب قتل قابيل لأخيه	٣٣٨	كثيراً ما يقرن القرآن بين آيات الرغبة والرغبة	٤٣٣
عقوبة قطاع الطريق والرهط من عرينة الذين		٧- سورة الأعراف	
قتلوا راعي النبي ﷺ	٣٣٨	الحكمة من الحروف المقطعة بيان إعجاز القرآن	٤٣٦
معنى النفي من الأرض وهل يدخل فيه الحبس	٣٤٢	سؤال الرسل توبيخ للمجرمين والعصاة	٤٣٧
قصة الأصمعي مع الأعرابي وآية السرقة	٣٤٢	كيف توزن الأعمال يوم القيامة؟	٤٣٧
اعتراض بعض الملاحدة على قطع يد السارق	٣٤٢	الأدلة على أن إبليس من الجن وليس من الملائكة	٤٣٨
		الغرض الخبيث من الدعوة إلى تعري المرأة	٤٤٢

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٠٠	معنى آية ﴿اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾	٤٤٢	لماذا سميت العورة سوءاً؟
٥٠١	قصة اجتماع إبليس اللعين مع المشركين بدار الندوة.	٤٤٣	كيف كان العرب يطوفون حول الكعبة؟
٥٠٣	للمؤمنين أمانان: نبيُّ الله، والاستغفار	٤٤٧	من هم أصحاب الأعراف؟
٥٠٥	تنبيه إلى وجوب إجابة دعاء الرسول ﷺ	٤٤٨	ما معنى نسيان الله للكافر؟
٥٠٥	لطيفة في قول معاوية لرجل: ما أجهل قومك حين ملكتهم امرأة؟	٤٤٩	علم الأبدان وعلم الأديان وقصة الطبيب النصراني
٥٠٨	قول أبي جهل في بدر والله لا نرجع حتى نرد بدرأ، ونشرب الخمر. . الخ	٤٥٠	معنى الاستواء على العرش وتوضيح مذهب السلف فيه
٥١١	معنى قوله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾	٤٥٤	آداب الدعاء والساعات التي يستجاب فيها
٥١٢	تنبيه إلى أن القوة نوعان: مادية وروحية	٤٦٢	سبب سكنى بني إسرائيل في مصر
٥١٢	استشارة النبي ﷺ لأصحابه في أسرى بدر	٤٦٩	السبب في تأجيل مناجاة موسى لربه
٥١٣	أخذه لرأي أبي بكر وما نزل من العتاب	٤٧٢	تنبيه هام إلى رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة
٥١٣	قصة أسر العباس ومعجزة واضحة لرسول الله ﷺ في إخباره بما قاله لزوجته أم الفضل	٤٧٢	سماع كلام الحبيب يزيد في الشوق والحنين
	٩- سورة التوبة	٤٧٢	السعادة والشقاوة بيد الله تعالى
٥١٩	سورة التوبة كشفت أسرار المنافقين	٤٧٨	قصة أصحاب القرية الذين مسخوا قردة وخنازير
٥١٩	السُّرُّ في عدم وجود البسملة فيها	٤٨١	معنى استخراج ذرية آدم من صلبه وأخذ العهد عليهم
٥٢٠	أسماء سورة التوبة أربعة عشر اسماً		قصة «بلعم بن باعورا» الذي أعطاه الله العلم
٥٢٠	توبيخ الصحابة للعباس وتعييرهم له بالشرك	٤٨٢	ثم ارتد عن الدين وكفر بالله .
	قول العباس: مالكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا	٤٨٥	هل أسماء الله الحسنى محصورة في التسعة والتسعين؟
٥٢٧	عمارة المساجد نوعان: حسية، ومعنوية	٤٨٦	الحكمة في إخفاء الساعة عن العباد
٥٢٧	لطيفة في قصة أعرابي طلب تعليمه القرآن		التحقيق العلمي في آية ﴿أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ وقصة آدم وحواء
٥٣٠	معنى آية ﴿إنما المشركون نجس﴾	٤٨٧	قصة إسلام معاذ بن جبل ومعاذ بن الجموح
	من لطائف الاستعارات قوله ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾	٤٨٧	وتكسيرهما لأصنام المشركين
٥٣٢	قول الرسول لأبي بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما!!	٤٨٨	الأدلة على بطلان عبادة الأصنام والأوثان
٥٣٦	اتفاق المفسرين على أن أبا بكر كان صاحب الرسول في الغار	٤٩٠	كيف يدفع الإنسان عنه كيد الشيطان؟
٥٣٧	علو قدر الرسول ﷺ وسمو منزلته عند ربه	٤٩٠	فائدة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم
٥٣٧	تقديم العفو على العتاب تكريم للرسول عليه السلام		٨- سورة الأنفال
		٤٩١	النداءات الإلهية للمؤمنين في سورة الأنفال
		٤٩٤	صفات المؤمنين الكاملين وكلام ابن الخطيب
		٤٩٦	إمداد المؤمنين بالملائكة يوم بدر
		٤٩٩	التوفيق بين إمدادهم بألف وبثلاثة آلاف
		٥٠٠	قصة «أبو لبابة» واستشارة اليهود له

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	١٠- سورة يونس	٥٣٨	المعنى الصحيح لكنز الأموال
٥٧٢	الحكمة من الحروف المقطعة التنبيه على إعجاز القرآن	٥٣٩	تنبيه على عظيم فضل الصديق رضي الله عنه
٥٧٣	معنى الاستواء على العرش ومذهب السلف الصالح		قصة «صفوان بن عمرو» وخروجه للجهاد وهو
٥٧٣	قول الحافظ ابن كثير في معنى الاستواء	٥٣٩	شيخ هرم
٥٧٤	السُرِّي في تخصيص الشمس بالضياء والقمر بالنور	٥٣٩	قصة «الجد بن قيس» المنافق وما نزل فيه
	القرآن مشتمل على نفائس علم الأصول،	٥٤٤	لطيفة في معنى آية ﴿وقيل اقعِدوا مع القاعدِين﴾
	ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم	٥٤٤	تنبيه عن سبب دخول المنافقين في الإسلام
٥٧٦	الأخلاق . الخ	٥٥٠	قول علي: بعث رسولُ الله ﷺ بأربعة أسياف
٥٧٦	هذا القرآن جاء به نبيُّ أميِّ يعلمون أحواله	٥٥٠	الأمور التي يتميز بها المؤمن عن المنافق
٥٧٨	قصة إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه		قصة ثعلبة المنافق وهو غير ثعلبة بن أبي حاطب
٥٨٥	اكتشاف البشر لنواميس الكون	٥٥١	الصحابي المشهور .
٥٨٨	معنى القرآن شفاء لما في الصدور	٥٥١	النهي عن الصلاة على المنافقين وما نزل في ابن سلول
٥٨٩	من هم أولياء الله؟		السُرِّي في ذكر السبعين في قوله ﴿إن تستغفر لهم
٥٨٩	معنى البشارة للمؤمن في الحياة الدنيا	٥٥٦	سبعين مرة﴾
٥٩١	أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع		الصلاة على الميت استغفارٌ له واستشفاع والكافر
٥٩١	تنبيه إلى المراد من قوله «أرأيت»	٥٥٦	ليس أهلاً لذلك
٥٩٢	الغرض من ذكر قصص الأنبياء		لماذا كان عمر يقول لحذيفة: هل عدني رسول
٥٩٦	معنى قول الله تعالى ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾	٥٥٦	الله من المنافقين؟
٥٩٨	الغرض من نجاة بدن فرعون بعد غرقه	٥٥٧	قصة أبو عامر الراهب الذي تنصّر في الجاهلية
٥٩٩	ذكر قصة قوم يونس عليه السلام	٥٥٧	مسجد الضرار وأمر الرسول ﷺ بإحراقه
٦٠٠	سنة الله في إنجاء الرسل والمؤمنين	٥٦٣	لطيفة في قصة «زيد بن صوحان» مع الأعرابي
		٥٦٣	تنبيه هام إلى أن «عسى» من الله واجبة
		٥٦٤	قصة أبي طالب لما حضرته الوفاة وما نزل فيه
		٥٦٥	التحقيق في أن أبا طالب مات على الكفر
		٥٦٥	معنى قوله تعالى ﴿السائحون الراكعون الساجدون﴾
		٥٦٧	الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك
		٥٦٦	لماذا سميت غزوة تبوك بغزوة العسرة؟
		٥٦٨	لا ينبغي خروج جميع المسلمين إلى الغزو
		٥٦٨	معنى آية ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾
		٥٧٠	قصة «أبي خيثمة الأنصاري» مع زوجته الحسنة
		٥٧٠	السُرِّي ختم السورة بقول ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾
		٥٧٠	رحمة الرسول ﷺ وشفقته على أمته

فهرس الأحاديث الشريفة - المجلد الأول

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
أصحاب السنن	«كان ﷺ إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير. . .»	٢٣
أحمد	«والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثلها. . .»	٢٤
البخاري	«لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله رب العالمين»	٢٤
مسلم والترمذي	«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»	٣٠
مسلم	«إقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة. . .»	٣٠
أصحاب السنن	«البرُّ لا يَبُلُّ، والذنبُ لا يُنْسَى، والديانُ لا يموت. . .»	٥٤
أصحاب السنن	«كان ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة»	٥٦
البخاري	«لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةً فيها سمٌّ. . .»	٧٣
البخاري والنسائي	«لو أن اليهود تمنوا الموت لَمَاتُوا ورأوا مقاعدهم من النار»	٨٢
البخاري	«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله. . .»	١٠٠
البخاري	«لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً. . .»	١٠١
أحمد والترمذي	«إذا مات ولد العبد قال الله للملائكة: قبضتم ولد عبدي؟»	١٠٧
الحافظ ابن مردويه	«يا سعدُ أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة. . .»	١١٦
الترمذي	«إن للصائم عند فطره دعوة ما تُردُّ. . .»	١٢٤
أصحاب السنن	«إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. . .»	١٢٤
البخاري	«شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدُ بردةٍ له في ظلِّ الكعبة. . .»	١٣٩
النسائي	«اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ ممن قبلكم متعبداً. . .»	١٤٣
البخاري ومسلم	«شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً»	١٥٥
البخاري ومسلم	«الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» أي فقدهما	١٥٥
البخاري ومسلم	«حديث قدسي» ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال وكيف أعودك وأنت ربُّ العالمين»	١٦٠
البخاري	«سأل عمر بن الخطاب يوماً أصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت. . .»	١٧١
البخاري	«كان رجلٌ يدينُ الناسَ، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه. . .»	١٧٧
مسلم	«أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتمننني قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم البقرة. . .»	١٨١
مسلم	«يُوقَى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به. . .»	١٨٣
مسلم	«إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحذروهم»	١٨٦
البخاري	«قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي. . .»	١٨٦
البخاري	«قال عمر بن الخطاب: اللهم لا صبر لنا على ما زينت لنا إلا بك»	١٩٠
الطبراني	«حديث قدسي» عبدي عهد إلي عهداً وأنا أحقُّ من وفٍّ، أدخلوا عبدي الجنة»	١٩٤
الشيخان والترمذي	«حديث قدسي» إن الله إذا أحبَّ عبداً نادى جبريل فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبه. . .»	١٩٧
مسلم والترمذي	«من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من أتبع الهدى. . .»	٢١٠
النسائي	«لحق رجل من الأنصار بالمشركين ثم ندم، فأرسل إلى قومه هل لي من توبة؟»	٢١٤

الراوي	* * أطراف الحديث * *	الصفحة
الشيخان	«يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض . . .»	٢١٦
مسلم	«لما كسرت رباعية النبي ﷺ وشجَّ وجهه قال: كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم . . .»	٢٢٧
أحمد	«كتب هرقل إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار . . .»	٢٣٤
البخاري	«لما هُزم المسلمون بأحد وأشاع المشركون بأن محمداً ﷺ قد قُتل . . .»	٢٣٩
الشيخان	«لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر . . .»	٢٤٣
ابن ماجه والترمذي	«ألاً أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك! قلت بلى يا رسول الله . . .»	٢٤٤
ابن مردويه	«سئلت عائشة عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: . . .»	٢٥٥
الشيخان	«يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه ماله واجمالها . . .»	٢٥٨
الشيخان	«جاءت امرأة سعد بن الربيع رسول الله ﷺ بابتيتها فقالت يا رسول الله: . . .»	٢٦٢
مسلم	«لا يَفِرُّك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»	٢٦٧
مسلم	«اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»	٢٦٧
الترمذي	«صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً وسقانا من الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة . . .»	٢٧٧
البخاري	«إقرأ عليّ القرآن، قلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل . . .؟»	٢٧٨
أحمد	«يعظم أهل النار في النار حتى إن ضرس أحدهم مثل أحد . . .»	٢٨٢
ابن مردويه	«قال رجل للنبي ﷺ: إنك لأحب إليّ من نفسي وأهلي وإني لأذكرك فما أصبر . . .»	٢٨٨
مسلم	«تضمّن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلاّ جهاداً في سبيله . . .»	٢٨٩
مسلم	«لحق المسلمون رجلاً في غنيمَةٍ له فقال: السلام عليكم فقتلوه . . .»	٢٩٤
الشيخان	«إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد»	٢٩٤
البخاري	«إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلاّ وهم معكم . . .»	٢٩٧
النسائي	«إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله . . .»	٢٩٧
ابن ماجه	«من أعان على قتل مسلم بشرط كلمة جاء يوم القيامة . . .»	٢٩٨
البيهقي	«لنزوال الدينأ أهون على الله من قتل رجل مؤمن . . .»	٣١٠
البخاري	«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»	٣١٠
الشيخان	«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً . . .»	٣١٧
أحمد	«أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله . . .»	٣٢٨
البخاري	«إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل . . .»	٣٢٩
الشيخان	«ويلٌ للأعقاب من النار» وفي رواية «ويل للعراقيب من النار»	٣٢٩
الشيخان	«آية في كتابكم تقرأونها وعلينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . . .»	٣٣١
البخاري	«يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً . . .»	٣٤١
مسلم	«مرّ على النبي ﷺ يهودي محمّم مجلود، فدعاهم فقال هكذا تجدون حد الزاني . . .»	٣٤٣

الراوي	* * أطراف الحديث * *	الصفحة
الحاكم	«أثتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً . . .»	٣٦٩
الترمذي	«أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا، وأمروا ألا يدخروا لغد . . .»	٣٧٤
مسلم	حديث قدسي «يا جبريل إذهب إلى محمد فاسأله ما يبكيك؟ فقال: . . .»	٣٧٥
أحمد	«إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج»	٣٩٠
الترمذي	«الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام . . .»	٣٩٣
الشيخان	«أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرُلًا . . .»	٤٠٦
البخاري	«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا . . .»	٤٣١
مسلم	حديث قدسي «يقول الله عز وجل: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ	٤٣١
البخاري	«يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ السَّمِينِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحٌ بَعُوضَةٌ»	٤٣٧
مسلم	«كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعبرني تطوفاً . . .»	٤٤٣
أحمد	«إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا يجيئه ملك الموت . . .»	٤٤٦
مسلم	«لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله . . .»	٤٤٧
مسلم	«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون . . .»	٤٧٩
الشيخان	«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم . . .»	٤٨٣
الترمذي	«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»	٤٨٥
أصحاب السنن	«إن الله يأمرك أن تغفو عن ظلمك، وتُعطي من حرمك، وتصل من قطعك»	٤٨٨
أبو داود والترمذي	«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»	٤٨٨
مالك	«مارؤي الشيطان يوماً هوف فيه أصغر ولا أدر، ولا أحقر ولا أغبط منه في يوم عرفة . . .»	٥٠٩
مسلم	«أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة»	٥١٣
أصحاب السنن	«لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر»	٥١٥
البخاري	«إن آخر سورة نزلت سورة براءة»	٥١٨
الترمذي	«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان . . .»	٥٢٧
الترمذي	«كنّا إذا همي بالبأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يخاذيه»	٥٢٩
أحمد والترمذي	«أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطح عنك هذا الوثن . . .»	٥٣١
أبو داود	«ألا أخبركم بخير ما يكتز المرء؟ المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته . . .»	٥٣٣
أحمد	«ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟»	٥٤٢
الشيخان والترمذي	حديث قدسي «يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك . . .»	٥٤٨
مسلم	«لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل . . .»	٢٦٤
مسلم	«إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النَّفس . . .»	٥٧٥
أبو داود	«إن لله عبداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة . . .»	٥٨٩